

جامعة دمشق:
كلية الآداب والعلوم الإنسانية:
قسم التاريخ/ عرب وإسلام

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي
بعنوان
مظاهر القوة والضعف في العصر الأموي
(٤١-١٣٢هـ/٦٦٢-٧٥٠م)

إعداد الطالبة
يسرى صالح الإبراهيم
إشراف الأستاذ الدكتور
علي أحمد

للعام الدراسي
٢٠١٣/٢٠١٤م
١٤٣٤/١٤٣٥ هـ

العنوان	الصفحة
فهرس المحتويات	٨-١
الإهداء	٩
بطاقة شكر	١٠
المقدمة والتعريف بمصادر البحث ومراجعته	٣٣-١١
تمهيد	٣٦-٣٤
الفصل الأول مظاهر القوة والضعف في مجال السياسة العامة:	٩٤-٣٨
أولاً: مظاهر القوة في مجال السياسة العامة:	٦٨-٣٨
١- حرص الخلفاء على وحدة الدولة وسلامتها: أ- توحيد معاوية للدولة: ب- جهود عبد الملك بن مروان في إعادة ضم الدولة: ١- القضاء على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ٧٠٤/هـ ج- الحفاظ على الدولة في عهد هشام بن عبد الملك:	٤٦-٣٨ ٤٠-٣٨ ٤٣-٤٠ ٤٤-٤٣ ٤٦-٤٥
٢- التزام الولاة بسياسة الدولة وإخلاصهم لها: ١- عمرو بن العاص (٤١-٤٣/هـ ٦٦٢-٦٦٣م) ٢- زياد بن أبيه (٤٥-٥٣/هـ ٦٦٥-٦٧٢م) ٣- الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٣-٩٥/هـ ٦٩٢-٧١٣م) ٤- قره بن شريك (٩٠-٩٦/هـ ٧٠٨-٧١٤م) ٥- خالد بن عبد الله القسري (٩١-٩٦/هـ ٧٠٩-٧١٤م) و(١٠٦- ١٢٠/هـ ٧٢٤-٧٣٧م) ٦- ولاة المغرب والأندلس:	٥٠-٤٦ ٤٦ ٤٧-٤٦ ٤٩-٤٧ ٤٩ ٤٩ ٥٠-٤٩
٣- توسيع رقعة الدولة من خلال الفتوح: ١- الفتوح في الجهة الشرقية: أ- الفتوح فيما وراء النهر: ب- فتوح السند: ج- فتح جرجان وطبرستان: ٢- فتح المغرب: ٣- فتح الأندلس:	٥٧-٥٠ ٥٣-٥١ ٥٢-٥١ ٥٣-٥٢ ٥٣ ٥٥-٥٤ ٥٧-٥٥
٤- اعتماد نظام الرباط والمثاغرة لدفع الخطر البيزنطي: أ- الاهتمام بالتحصينات في عهد عبد الملك بن مروان: ب- عهد الوليد بن عبد الملك: ج- عهد سليمان بن عبد الملك: د- عهد يزيد وهشام بن عبد الملك:	٦٢-٥٨ ٦١-٦٠ ٦١ ٦٢-٦١ ٦٢
٥- اعتماد سياسة فصل الدين عن السياسة:	٦٥-٦٣

٦٨-٦٦	٦-رفض بعض الخلفاء سياسة العصية القبلية
٩٤-٧٠	ثانياً: مظاهر الضعف في مجال السياسة العامة:
٧٢-٧٠	١-عجز الأمويين عن فهم أسس الحكم
٧٥-٧٢	٢-ظلم الأمويين للمغاربة وعدم مساواتهم بالمشاركة
٧٨-٧٥	٣-سوء معاملة آل البيت
٨٠-٧٨	٤-استئثار الأمويين بجميع مفاصل الحكم
٨٤-٨١	٥-اعتماد بعض الخلفاء على العصية القبلية
٨٧-٨٤	٦-عدم احترام المعارضة
٨٩-٨٧	٧-انتشار ظاهرة القتل ظلماً
٩١-٨٩	٨-عدم السكن في العاصمة دمشق بصورة دائمة
٩٤-٩١ ٩٣-٩١ ٩٤-٩٣	٩-عدم توطين العرب بكثافة في مناطق الدولة البعيدة: أ- في الجهة الشرقية: ب- في الجهة الغربية:
١٣٦-٩٥	الفصل الثاني: مظاهر القوة والضعف في مجال الإدارة العامة:
١٢١-٩٥	أولاً: مظاهر القوة في مجال الإدارة العامة
٩٩-٩٦	١-اختيار ولاية أكفيا لإدارة الولايات
١٠٤-٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٢ ١٠٣-١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٤ ١٠٤ ١٠٤	٢-استحداث دواوين جديدة: ١- ديوان الجند ٢- ديوان الخراج (الجباية) ٣- ديوان الرسائل ٤- ديوان الخاتم ٥- ديوان البريد ٦- ديوان الطراز ٧- ديوان المستغلات ٨- ديوان الزماني ٩- ديوان النفقات ١٠- ديوان الصدقات

	١١-ديوان الاستخراج
١٠٦-١٠٥	٣- تقسيم بلاد الشام إلى أجناد
١١١-١٠٦	٤- محاولة تعريب الحياة العامة
١١٤-١١١	٥-الحرص على استقلالية القضاء
١١٩-١١٤ ١١٧-١١٤ ١١٩-١١٧	٦-الاهتمام بتنظيم الجيش في البر والبحر: أ- الجيش البري: ب- الجيش البحري(الأسطول)
١٢١-١١٩ ١٢٠-١١٩ ١٢٠ ١٢١-١٢٠ ١٢١	٧-اعتماد أسس جديدة في الإدارة: ١- الحاجب(البواب) ٢- الشرطة: ٣- الحرس: ٤- العيون(المخبرون)
١٣٦-١٢٣	ثانياً: مظاهر الضعف في مجال الإدارة العامة:
١٢٥-١٢٣	١-عدم مراقبة الولاية
١٢٩-١٢٥	٢-انتشار الفساد في الهرم الإداري
١٣٣-١٣٠	٣-عدم وجود سياسة ضرائبية ثابتة
١٣٦-١٣٣	٤-استخدام المال العام لصالح الخلفاء والولاية
١٨١-١٣٨	الفصل الثالث: مظاهر القوة والضعف في المجال الاجتماعي:
١٦٨-١٣٨	أولاً: مظاهر القوة في المجال الاجتماعي:
١٤١-١٣٨	١- النظرة الإيجابية إلى الآخر(غير المسلمين)
١٤٥-١٤١ ١٤٢-١٤١ ١٤٥-١٤٢	٢-النظرة الإيجابية إلى المرأة: ١- مكانة المرأة قبل الإسلام: ٢- المرأة في الإسلام:
١٤٨-١٤٦	٣-التأكيد على قضية المواطنة للحفاظ على وحدة المجتمع
١٥٢-١٤٩	٤-ظاهرة التعاون والتفاهم بين جميع أتباع الديانات

١٥٤-١٥٢	٥- حرية المعتقد
١٦١-١٥٥	٦- انتشار الفنون وحرية ممارستها
١٦٨-١٦١ ١٦٤-١٦٢ ١٦٦-١٦٤ ١٦٥ ١٦٥ ١٦٥ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٦ ١٦٧-١٦٦ ١٦٨-١٦٧ ١٦٨	٧- الاهتمام بالشؤون الصحية: ١- البيمارستانات ٢- اهتمام الأمويين بالطب والأطباء: أ- ابن أثل: ب- أبو الحكم الدمشقي: ج- الحكم الدمشقي: د- تياذوق: و- عبد الملك بن أجرة الكناني: هـ- ماسرجويه: ٣- الحفاظ على البيئة: ٤- نشر الوعي الصحي: ٥- الرعاية الصحية للسجناء وذوي الاحتياجات الخاصة:
١٨١-١٧٠	ثانياً: مظاهر الضعف في المجال الاجتماعي:
١٧٤-١٧٠ ١٧٠ ١٧٠ ١٧٠ ١٧١-١٧٠ ١٧٢-١٧١ ١٧٣-١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٤	١- النظرة السلبية للعنصر غير العربي (الموالي): ١- معنى الولاء وأشكاله: أ- ولاء الرق: ب- ولاء العتق: ج- ولاء الرحم: ٢- معاملة الموالى في الحياة العامة: ٣- الموقف من زواج الموالى: ٤- الموقف من الموالى في الحروب والمعارك: ٥- انضمام الموالى إلى الثورات المناوئة للأمويين: ٦- اتجاه الموالى إلى العلم:
١٨١-١٧٥ ١٨١-١٧٨ ١٧٩-١٧٨ ١٨٠-١٧٩ ١٨١-١٨٠	٢- انتشار ظاهرة المجون واللهو: ١- خلفاء اللهو والمجون أ- يزيد بن معاوية ب- يزيد بن عبد الملك ج- الوليد بن يزيد بن عبد الملك
٢٤٢-١٨٣	الفصل الرابع: مظاهر القوة والضعف في المجال الاقتصادي:
٢٣١-١٨٣	أولاً: مظاهر القوة في المجال الاقتصادي:
١٨٩-١٨٣	١- الاهتمام بالزراعة وطرق الري كمصدر أساسي للاقتصاد

١٩٤-١٨٩ ١٩٠ ١٩٠ ١٩٠	٢-الحرص على زيادة الإنتاج لتحقيق الاكتفاء الذاتي: ١-المزارعة ٢-المساقاة ٣-الإجارة
٢٠٠-١٩٤	٣-اعتماد سياسة ضرائبية خاصة بمناطق الإنتاج
٢٠٧-٢٠٠ ٢٠٣-٢٠٢ ٢٠٢ ٢٠٢ ٢٠٢ ٢٠٣-٢٠٢ ٢٠٧-٢٠٣ ٢٠٥ ٢٠٥ ٢٠٥ ٢٠٥ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٦ ٢٠٦ ٢٠٦ ٢٠٦ ٢٠٦	٤-الاهتمام بالصناعة المرتبطة بالجيش: ١-الأسلحة البرية: -السيف -الرمح -القوس والسهم -الأسلحة الوقائية ٢-الأسلحة البحرية: ١-الشواني ٢-الحراريق ٣-المسطحات ٤-العشاريات ٥-الشلنديات ٦-اليطس ٧-اللتوت ٨-الدبابيس ٩-التوابيت ١٠-الكلايب ١١-الباسليق ١٢-اللجام
٢١٨-٢٠٧ ٢١٠-٢٠٧ ٢١١-٢١٠ ٢١١ ٢١٢-٢١١ ٢١٤-٢١٣ ٢١٥-٢١٤ ٢١٦-٢١٥ ٢١٧-٢١٦ ٢١٨-٢١٧ ٢١٨ ٢١٨	٥-الاهتمام بالصناعة المرتبطة بعامة الناس: ١-الصناعة النسيجية ٢-صناعة الخوص والجريد والحصر ٣-الصبغة ٤-الصناعات المعدنية ٥-الصناعات الخشبية ٦-صناعة الزجاج ٧-صناعة الخزف ٨-دباغة الجلود وخزارتها ٩-الصناعات الغذائية ١٠-صناعة الصابون ١١-العطور
٢٢٠-٢١٨	٦-عدم سيطرة الحكام على مجمل الصناعات

٢٢٥-٢٢٠	٧-الاهتمام بالتجارة وتسويق الإنتاج:
٢٢١	١-القروض
٢٢٢-٢٢١	٢-الصكوك
٢٢٢	٣-السفاتج(الحوالات)
٢٢٢	٤-المصارف
٢٢٧-٢٢٥	٨-اعتماد أسس أخلاقية ناظمة للتجارة
٢٣١-٢٢٧	٩-تنشيط وسائل الاتصال مع التجار في الداخل والخارج:
٢٢٩-٢٢٧	١-الطرق البرية:
٢٣١-٢٢٩	٢-الطرق البحرية
٢٤٢-٢٣٣	ثانياً: مظاهر الضعف في المجال الاقتصادي:
٢٣٩-٢٣٣	١-سيطرة الخلفاء والولاة عل الأراضي الخصبة:
٢٣٦-٢٣٣	١-الإقطاع
٢٣٧-٢٣٦	٢-الإلجاء
٢٣٨-٢٣٧	٣-الشراء
٢٣٩-٢٣٨	٤- المصادرات
٢٤٢-٢٣٩	٢- سيطرة الخلفاء والولاة على مفاصل التجارة الهامة
٢٨٤-٢٤٤	الفصل الخامس: مظاهر القوة والضعف في المجال العلمي:
٢٧٤-٢٤٤	أولاً: مظاهر القوة في المجال العلمي:
٢٤٧-٢٤٤	١-تجذير حرية الفكر في المجتمع
٢٥٣-٢٤٧	٢-الاهتمام المبكر بعلم الكلام وولادة فكر الاعتزال:
٢٤٨-٢٤٧	١-تعريف علم الكلام وأساس منشأه
٢٤٩-٢٤٨	٢-عوامل نشأة علم الكلام
٢٥٠-٢٤٩	أ-الجبرية
٢٥٠	ب-القدرية
٢٥١-٢٥٠	ج-المرجئة
٢٥٣-٢٥١	د-المعتزلة وبداية ظهورهم
٢٦١-٢٥٤	٣- بداية حركة التدوين والترجمة:
٢٥٩-٢٥٤	١-التدوين في العصر الأموي
٢٦١-٢٥٩	٢-الترجمة

٢٧٠-٢٦١	٤- الاهتمام المبكر بالعلوم اللغوية والدينية خدمة للتعريب:
٢٦٥-٢٦١	١-العلوم اللغوية:
٢٦٤-٢٦١	أ-النحو
٢٦٥-٢٦٤	ب-الخطابة
٢٦٥	ج-الكتابة
٢٦٥	د-الشعر
٢٧٠-٢٦٦	٢-العلوم الدينية:
٢٦٦	أ-علم القراءات
٢٦٨-٢٦٧	ب- التفسير
٢٦٩-٢٦٨	ج-علم الحديث
٢٧٠-٢٦٩	د-الفقه
٢٧٤-٢٧٠	٥-الاهتمام المبكر بالعلوم التطبيقية:
٢٧٠	١-الطب
٢٧٢-٢٧١	٢-الكيمياء
٢٧٣-٢٧٢	٣-الصيدلة
٢٧٤-٢٧٣	٤-الفلك(علم الهيئة)
٢٨٤-٢٧٦	ثانياً: مظاهر الضعف في المجال العلمي:
٢٧٩-٢٧٦	١-عدم تمكن الأمويين من الفصل بين الاهتمام بالعلوم والاهتمام بالسياسة
٢٨١-٢٧٩	٢-عدم تخصيص مبالغ مالية لدعم حركة تطوير العلوم
٢٨٤-٢٨١	٣-وقوف معظم الخلفاء الأمويين ضد القدرية وقتل غيلان الدمشقي
٣١١-٢٨٦	الفصل السادس: مظاهر القوة والضعف في مجال العمران:
٣٠٧-٢٨٦	أولاً: مظاهر القوة في مجال العمران:
٢٨٩-٢٨٦	١-سياسة البناء والعمران (الهدف منها)
٢٩٣-٢٨٩	أ-في مجال بناء المدن:
٢٩١-٢٩٠	١-مدينة القبروان
٢٩٢-٢٩١	٢-مدينة واسط
٢٩٣-٢٩٢	٣-مدينة الرملة
٢٩٨-٢٩٣	ب-في مجال بناء المساجد والشواهد الدينية:
٢٩٤	١-تجديد وبناء بعض المساجد
٢٩٥-٢٩٤	٢-قبة الصخرة في القدس
٢٩٧-٢٩٦	٣-المسجد الأقصى في القدس
٢٩٩-٢٩٧	٤-الجامع الأموي في دمشق

	٢٩٩-٢٩٨	٥- مسجد الرسول في المدينة
٣٠٤-٢٩٩		ج-في مجال بناء القصور:
٣٠١-٣٠٠		١- قصر المنية
٣٠١		٢- قصر عمرة
٣٠١		٣- قصر جبل أسيس
٣٠١		٤- قصر عنجر
٣٠٢		٥- قصر الحراثة
٣٠٢		٦- قصر الموقر
٣٠٢		٧- قصر خربة المفجر
٣٠٣		٨- قصر الحير الغربي
٣٠٣		٩- قصر الحير الشرقي
٣٠٤-٣٠٣		١٠- قصر المشتى
٣٠٤		١١- قصر الطوبة
٣٠٤		١٢- قصر حمام الصرح
٣٠٧-٣٠٥		د-في مجال بناء مؤسسات الخدمة العامة والمرافق
٣٠٧		٢- اعتماد تقانة متقدمة في مجال هندسة الري
٣١١-٣٠٩		ثانياً: مظاهر الضعف في مجال العمران:
٣٠٩		١-معظم منجزات الأمويين العمرانية في بلاد الشام
٣١١-٣١٠		٢- إهمال الأمويين للمغرب الكبير وما وراء النهر والسند في مجال العمران
٣١٩-٣١٢		الخاتمة
٣٣٨-٣٢١		الملاحق
٣٨١-٣٤٠		قائمة المصادر والمراجع
٣٩٠-٣٨٢		خلاصة باللغة الإنكليزية

الإهداء

إلى الذي ما تزال ذكراه تؤنسني، على الرغم من الفراق والذي أدين له بحسن الانتماء

والذي المرحوم

إلى كنز حياتي والتي دعاؤها يطرق أبواب السماء

والدتي الحبيبة

إلى الذين يروونني كماءٍ في وسط الصحراء

أخوتي الأعزاء

إلى اللذين برؤيتهم أنسى عبء العناء

ولدي سامي و سدرة

إلى من رافقني في السراء والضراء

زوجي

إلى كل من ساعدني وساندني وأعانني ولو بدعاء

بطاقة شكر

إلى الذي سدد خطواتي وأرشدني وقوم عملي أدعوه له بطول البقاء

ودوام العطاء

إلى أستاذاي

الأستاذ الدكتور علي أحمد

المقدمة:

إن العصر الأموي من العصور الجديرة بالاهتمام والدراسة، فهو العصر الذي تلى عصر الرسول والخلفاء الراشدين، وبه تم تقسيم المسلمين إلى فرقٍ سياسية متصارعة فيما بينها وهذه الصراعات كانت الأسباب الرئيسة في بلورة الأحداث في هذا العصر وما تلاه من عصور، وفي هذا العصر تكونت الدولة العربية الإسلامية بكل جزئياتها، وامتدت على مساحة جغرافية واسعة لم تصلها من قبل وحتى في العصور اللاحقة للعصر الأموي ولم تحافظ الدول المتعاقبة على مساحتها في ظل دولة موحدة، وفي هذا العصر تم إرساء بعض الأسس الإدارية وإنشاء بعض المؤسسات الرسمية بالإضافة إلى منح هذه الدولة صفة العروبة في حياتها العامة والإدارية من خلال التعريب الذي طُبِق في هذا العصر، وتخلل الدولة الأموية بعض الهفوات أو السلبيات منها سوء المعاملة لبعض الفئات والشخصيات، وكذلك الاستبداد بالحكم والابتعاد عن الشورى والفساد الإداري واستغلال السلطة من قبل الحكام في مجالات مختلفة إدارية وسياسية واقتصادية وغير ذلك من السلبيات.

فالعصر الأموي إذاً هو عصر المتناقضات بين الإيجابي والسلبي، ومن هنا جاءت الرغبة في دراسة هذه المتناقضات في بحثٍ يتناول القوة والضعف في العصر الأموي، على المستويات كافة السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعمرانية، وتسليط الضوء على كل جانب من هذه الجوانب من أجل إيضاح مكان القوة وعواملها وتفنيد الضعف ودوافعه، وصحيح أن هذا العصر نال الكثير من الدراسة لكنها ومع اختلاف أشكالها بما هو عام أو ما اختص في مجال محدد أو منطقة محددة أو شخصية بحد ذاتها، لم تلقِ الضوء على العصر الأموي فيما يخص القوة والضعف فيه، ومن هنا جاءت الغاية في هذا البحث في تقديم مساهمة علمية عن العصر الأموي وذلك بوضع أحداثه ومعطياته وعوامله وتصرفات حكامه في ميزان التاريخ، كما تتجلى أهمية هذا البحث في تغطية العصر الأموي بكامله (٤١-١٣٢هـ/٦٦٢-٧٥٠م).

وفيما يخص منهجية البحث التي اتبعت فيه فهي قائمة على التحليل العلمي النقدي المؤسس على الاستقراء والمقارنة بين المعلومات بغية الوصول إلى الحقائق التاريخية عن عوامل القوة والضعف في الدولة الأموية، وكون هذا البحث هو شامل عن العصر الأموي فقد واجهت هذه الدراسة عدة مشكلات كومه متسع الأطراف متشابك الأحداث، ويغطي مساحة جغرافية واسعة تشمل مساحة الدولة الأموية في أقصى اتساع لها، وكذلك أحداث جسام ومعطيات كبيرة، ونتيجة تعدد المواضيع التي يتطرق إليها البحث من سياسية وغيرها مما سيتم التعرف عليه ضمن هذه الدراسة، كان لا بد من تعدد المصادر والمراجع التي يجب الاعتماد عليها من كتب تاريخية عامة وجغرافية واقتصادية وعلمية وفيما تختص بالآثار بالإضافة إلى كتب الأدب والسير والتراجم، وكذلك تنوع المراجع بين العام وما اختص في دراسة إقليم أو شخصية وغير ذلك من الدراسات العربية والمعرية والأجنبية، ويضاف إلى ذلك قلة المصادر التي تتحدث عن تفاصيل العصر الأموي وبشكل خاص الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، إذ تطلبت الدراسة البحث في ثنايا الكتب للتوصل إلى معلومات عن هذا العصر الذي استحوذ العامل السياسي والحربي فيه على القسط الأكبر من تركيز المصادر، والحقيقة إن كثرة المادة العلمية وتناقضها وتضاربها كان أحد المشاكل العلمية التي واجهت البحث، ففي كل مجال كان الحديث عن القوة يليه الحديث عن الضعف ومن هنا كان التضارب في المعلومات وهذا ما دفع إلى تنفيذ دراسة كل مظهر من مظاهر القوة والضعف فما هو قوي في مجال تطله مظاهر ضعف، وأحياناً دراسة مظهر من مظاهر القوة يحتاج إلى بيان ضعفه في اتجاه آخر أي أن التكرار في بعض المسائل كان لضرورة توضيح الفكرة في أكثر من اتجاه.

فدراسة مظاهر القوة والضعف في عصر كالعصر الأموي ليست من الأمور السهلة ، كونه عصر انتقال من عصر راشدي أرسى قواعد ثابتة في الحكم إلى عصر بدل الكثير من مفاهيم الحكم ، وكونه عصر امتداد على مستوى المساحة الجغرافية وتأسيس دولة حاكمة، ومن هنا جاءت مستجدات هذه الدراسة التي ألفت الضوء على ما هو قوي في هذا العصر فيما اختص بسياسة الحكام وتعاطيهم في الأمور السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعمرانية وأثار هذا التعاطي سلباً أو إيجاباً على الدولة الأموية.

ولقد جاء تقسيم هذا البحث على النحو الآتي: مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة وملاحق وأخيراً قائمة بأسماء المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث. أما المقدمة فتضمنت أهمية البحث وأسباب اختياره وإشكالية البحث من حيث تقديم توضيح لفحوى الرسالة، بالإضافة إلى دراسة لبعض المصادر والمراجع المعتمدة فيه.

وتضمن التمهيد الحديث عن كيفية وصول الأمويين – وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان- إلى الحكم بعد صراع أو فتنة بلغت ذروتها في خلافة الإمام علي بن أبي طالب بعد اغتيال الخليفة عثمان بن عفان وانتهت بتأسيس الدولة الأموية.

ويقسم فيها كل فصل إلى شقين يضع الشق الأول القوة في كفة ويضع الشق الثاني الضعف في الكفة الأخرى:

الفصل الأول: يحمل عنوان مظاهر القوة والضعف في مجال السياسة العامة و فقرته الأولى : ستبحث في مقدرة بعض الخلفاء كمعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك في الحيلولة ضد تفكك الدولة وانهيارها وقمع أية محاولة لتفتت هذه الدولة.

وستوضح **الفقرة الثانية:** أسماء الولاة الذين أقل ما يمكن القول عنهم أنهم لأسيادهم طائعون ولسلطة حكامهم في أقاليمهم التي يحكمونها هم صاغون، ومنهم زياد بن أبيه والحجاج الثقفي وخالد القسري في العراق وقره ابن شريك في مصر بالإضافة إلى بعض ولاة المغرب الكبير. كما تضمنت **الفقرة الثالثة:** الفتوح التي كانت على أكثر من جبهة شرقية وغربية ، وما قدمته الدولة في سبيل هذه الفتوحات سواء أكانت في بلاد ما وراء النهر أو في جرجان وطبرستان أو في المغرب الكبير والأندلس ، وماهية الدعم الذي قدمته الدولة للقواد الفاتحين في تلك الجبهات. واحتوت **الفقرة الرابعة:** على محاولات الخلفاء تحصين حدودهم وسد الثغرات التي يمكن من خلالها تسلل البيزنطيين إلى دولتهم ، واعتمادهم سياسة الهجوم بغرض الدفاع عنها منذ خلافة الراشدين وصولاً إلى عصر الأمويين ، مع التركيز على تهيئة الجيوش لصد هجوم البيزنطيين ، إذ تباينت قوة الخلفاء بين التصعيد والتهاون في هذه الأمور. و **الفقرة الخامسة:** ستبين قدرة الأمويين في إمكانية الفصل بين الشرع والحكم ، وعدم خلطهم بين الدين وأمور تسيير الرعية . أما **الفقرة السادسة:** فستتحدث عن استطاعة بعض الخلفاء كبح جماح العصبية القبلية التي تؤدي إلى زعزعة الاستقرار وجنوح الدولة إلى هاوية الاقتتال وكان من بين الذين حاربوا شبح التعصب للقبيلة معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان ، وستبين كيفية تصرفهم في ذلك.

وفيما يخص الشق الثاني من **الفصل الأول والذي حمل عنوان مظاهر الضعف في السياسة العامة:** فالحديث سيكون في **الفقرة الأولى** حول استيعاب الأمويين لمفهوم الحكم الذي لم يألفوه وكيفية فهمهم لفحواه ومغزاه.

وفي **الفقرة الثانية :** سيتضح الجفاء الواضح تجاه سكان المغرب ، والذين اعتبرهم الأمويون غرباء فجاءت معاملتهم لهم من هذا المبدأ ولم ينصفوهم في كل الأمور فظلموهم حتى في طريقة فتحهم لبلادهم.

أما **الفقرة الثالثة:** والتي وإن اختلفت في المحتوى فهي لا تختلف في السلوك إذ ناصب الأمويون آل البيت العدا فحاولوا إهانتهم والتشفي منهم في كل مناسبة.

وفي **الفقرة الرابعة:** وهي مشابهة لفقرات الظلم السابقة من حيث تحكّم الأمويين بالحكم وعدم ترك الأمور شورى بين المسلمين بل الاستبداد في آرائهم واضعين الشورى على رف مهجور، واعتبار حكمهم وخلافتهم استندت على القوة والسلطة .

وستدرس **الفقرة الخامسة:** الاتجاه المعاكس من قبل بعض الخلفاء الذين انزلقوا في تيار العصبية القبلية وشدوا على يد من يواليهم ففجرت هذه السياسة الحقد والضغائن وكانت إحدى ابرز المسببات للثورة على الأمويين. وستتطرق **الفقرة السادسة** إلى مصير من عارض سياسة بني أمية وكيف آل الحال بهم، وهل انقطعت السبل ببني أمية لاحتواء هؤلاء بغير أسلوب الفتك والقتل والتشفي. أما **الفقرة السابعة** : فستتحدث عن ظلم بني أمية وعدم وفائهم للمخلصين لهم أو على الأقل للذين قدموا لهم خدمات جليلة ، فهل النزعات الشخصية والمزاجية كانت وراء ذلك أم غيرها من الأسباب؟

وفي **الفقرة الثامنة:** فهي تختص بدمشق التي احتضنت الأمويين وكانت مركز عزتهم ومجدهم فهل استطاعوا مكافأتها على ذلك وكيف بادلوها الوفاء؟ وتتضمن **الفقرة الأخيرة** من الفصل الأول: إغفال الأمويين عن دعم البلاد المفتوحة والبعيدة عن مركز الدولة بالجنس البشري الذي يرسخ نفوذ العرب فيها ويدعم وجودهم سواء أكان ذلك في الشرق أم في الغرب؟

الفصل الثاني: مظاهر القوة والضعف في مجال الإدارة العامة: ويتطرق الشق الأول الذي يبحث في مجال القوة في **فقرته الأولى:** إلى مقدره الولاة الأمويين الذين اختيروا بمهارة لينوبوا عن الخليفة في ولاياتهم ، فقد استطاعوا ضبط تلك الأقاليم بكل السبل بغرض السمع والطاعة لخليفتهم. أما **الفقرة الثانية:** ستبين ما أحدثه الأمويون من دواوين جديدة ودعم لدواوين كانت قائمة أصلاً ، مع إظهار أسباب هذا الاستحداث. وفي **الفقرة الثالثة:** سيتم الحديث عن إقليم الشام والغرض من تقسيمه إلى عدة أجناد، يُحكم كل جند من حاكم يحدده الخليفة كي يسهل على الدولة إدارة الشام التي تمثل بالنسبة لهم عقر دارهم. بينما تتطرق **الفقرة الرابعة** إلى إنجاز الأمويين المسجل لهم بجدارة في التاريخ ألا وهو تعريب الدواوين وبالتالي تعريب الحياة العامة في الدولة، مما أسهم في إنعاش اللغة العربية وانتشارها. وفي **الفقرة الخامسة** كان للقضاء حصة تحدتت عن استقلالته وعدم تسييسه من قبل الخلفاء والولاة ولا حتى الضغط على القاضي الذي من واجبه الحكم بما يمل عليه ضميره ، وفق شروط ومعطيات عامة. وفي **الفقرة السادسة** : تبيان لما أولاه الأمويون للجيش الذي بواسطته خاضوا المعارك وانتشروا في جميع الأصقاع فاتحي البلاد ومحتضني العباد، لذلك جهزوا جيوشهم البرية منها والبحرية. أما في **الفقرة السابعة** فقد توج الأمويون إدارتهم باستحداث أطر جديدة في الإدارة ، وبها شكلوا هيكلية الدولة وهيبته من حجاب وشرطة وحرس واستخبارات، وكل ما يوفر لهم أسساً قوية للأمان.

أما فيما يخص **مظاهر الضعف في إدارتهم** فقد تجسدت في **الفقرة الأولى** التي تحدثت عن إفراط الولاة في حرية التصرف وعدم إعلام الخليفة بكل الأمور ،بالإضافة إلى تعمد إخفاء الدوافع الأساسية لبعض تصرفاتهم. وستتطرق **الفقرة الثانية** إلى الفساد هذه المعضلة التي تؤدي إلى خلخلة وضع الحكم ووضع مئات إشارات الاستفهام حولها، فإذا أصاب الفساد الخليفة وبالتدرج إلى أصغر عامل في الدولة فهذا أمر يندّر بضعف الدولة ويسبب لها الانهيار السريع. حيث تحلّ الرشاوى وما يختبئ تحت عبايتها من مفردات هدامة. أما **الفقرة الثالثة:** فهي بخصوص الضرائب وما تعنيه للدولة والشعب ، فهي بالنسبة للدولة مورد كبير لبيت المال أو جيوب العمال، أما بالنسبة للناس فهي إجحاف إذا لم تراخ الدولة أوضاعهم وظروفهم المعيشية، إذ كانت تزداد حسب

حاجة الدولة أو بالأصح الخليفة وعماله. وفي **الفقرة الرابعة**: سيتم التطرق إلى استخدام المال العام لصالح الخلفاء والولاة والتي تعكس كيفية تسخير الضرائب لصالح هؤلاء، وكيف كان الولاة بأمر من الخليفة أحياناً أو من تلقاء أنفسهم يحاولون استخلاص أموال والٍ قبلهم لضمها إلى جيوبهم وهكذا يضمنون تكديس الأموال ولو بطرق غير مشروعة.

أما الفصل الثالث: مظاهر القوة والضعف في المجال الاجتماعي: فسيتناول قسمه الأول من القوة عدة فقرات تبحث في طريقة تعاطي الأمويين مع مواطنيها، معتبرين أن المواطنة تعني نيل الإنسان جميع حقوقه في وطنه بغض النظر عن انتمائه الديني، ففي **الفقرة الأولى** التي حملت عنوان النظرة الإيجابية إلى الآخر سيتم التعرف على مدى التسامح الذي عامل به الأمويون أهل الذمة أي غير المسلمين من قِبَل معظم خلفاء بني أمية. وتم الحديث في **الفقرة الثانية** عن مكانة المرأة في هذه الدولة والدور الذي شغلته في مجالات الحياة المختلفة وما وصلت إليه من علو شأنها أما **الفقرة الثالثة** فهي ستبين أن المجتمع لا يتكامل ويتماسك إلا باحترام حقوق الأقليات، وضرورة التزام الأقليات لواجباتهم أيضاً. والانسجام بين فئات المجتمع لا يتم إلا من خلال التعاون بين جميع أفراده كافة بلا استثناء لأن الوطن للجميع، هذا ما أفردت له **الفقرة الرابعة**.

وفيما يخص **الفقرة الخامسة** فالحديث سيكون حول حرية المعتقد لأن الإسلام أوصى بأنه لا إكراه في الدين، طالما أن المواطن يحترم دينه ودين غيره ولا يسيء إلى أحد في ممارسة شعائره الدينية كما جاءت **الفقرة السادسة** لتبين الانفتاح الذي عرفته الدولة الأموية من خلال السماح للناس بممارسة الفن الذي اعتبروه وجهاً من وجوه الحضارة، بالإضافة إلى موقف كل من الخلفاء والفقهاء والخاصة والعامّة من الغناء. ولم يغيب عن الأمويين دور البيئة الصحية في مجتمعهم والتي من خلالها يستقيم الجسد والروح، لذلك جاءت **الفقرة السابعة** والتي تحمل عنوان الاهتمام بالشؤون الصحية لتوضح دور الأمويين بالمحافظة على النظافة وأهمية التداوي والأطباء والاهتمام بالمستشفيات ونشر الوعي الصحي.

أما مظهر الضعف في المجال الاجتماعي فقد تحدد بمظهرين، الأول للقوة وفقرته الأولى ستحدث عما لحق الموالي- وهم المسلمون من غير العرب - من ظلم اجتماعي وسياسي واقتصادي من قِبَل الأمويين ولماذا كان هذا الظلم عليهم! أما المظهر الثاني وفي **الفقرة الثانية** يتبين مدى اللامبالاة التي أظهرها بعض الخلفاء الأمويين بهيبتهم وبالآداب العامة، من خلال التماذي باللهو وشرب الخمر والمجون الذي لطح سمعتهم.

وفيما يخص **الفصل الرابع مظاهر القوة والضعف في المجال الاقتصادي**: فهو كغيره من الفصول له شقان شقٌ للقوة وآخر للضعف، وفيما يخص القوة هناك عدة عناوين هي: **الفقرة الأولى** تركز على ما قام به الأمويون من أعمال لتشجيع الزراعة والاستصلاح الزراعي الذي اعتبروه العماد الأول لاقتصادهم.

وفي الفقرة الثانية: سنتطرق إلى ما نتج عن اهتمام الأمويين بالزراعة من خلال وفرة الإنتاج الذي سدَّ حاجة الأسواق المحلية. وستحدث **الفقرة الثالثة**: عن التناسب الطردي للضرائب التي فرضها الأمويون على الناس بالتناسب مع حجم إنتاج أراضيهم. وأفردت **الفقرة الرابعة** للحديث عن الصناعة الخاصة بالجيش سواء البري أم البحري والتي مكنتهم من تحقيق مدهم الجغرافي من خلال الفتوح. أما **الفقرة الخامسة**: فقد اهتمت بالصناعة بشكل عام التي تأتي تلبيةً لمتطلبات المواطنين في جميع مناحي الحياة. وستوضح **الفقرة السادسة** مدى الحرية التي أعطتها الدولة للصناعيين لممارسة أعمالهم دون التدخل فيها، إلا ما اختصّ بأمر الحكم كالطراز والعملات. وبالنسبة **للفقرة السابعة** فالتجارة فيها لم تغب عن دائرة اهتمام الأمويين لما لها من دور ريادي في اقتصادهم، إذ منحوها العديد من التسهيلات. كما سنتطرق **الفقرة الثامنة** إلى الأخلاقيات التي يجب أن تتوفر في التجارة من أجل سلامة هذا القطاع وسلامة نهج الدولة. أما في **الفقرة التاسعة** فسيكون الحديث فيها

عن التسهيلات التي قامت بها الدولة للتجار من أجل سهولة عملهم وإزالة جميع العراقيل أمامهم.
أما جانب الضعف في اقتصادهم فقد تمثل في فقرتين الأولى: التي ستبين مدى ولع الأمويين في امتلاك الأراضي بكافة السبل لهم ولأسرهم ولمن والاهم ، **والفقرة الثانية** التي ستوضح رغبة الأمويين في الاستحواذ على الرأسمال التجاري والاهتمام ولو بطرق غير مباشرة بالأعمال التجارية.

أما الفصل الخامس فقد تخصص في المجال العلمي بقوته وضعفه: ففي القوة وفي فقرته الأولى كان لا بدّ من الحديث عن الحرية الفكرية التي أطلقها الأمويون للناس في المجادلة والتفكير والبحث في شتى ضروب المعرفة المتاحة آنذاك، وستوضح **الفقرة الثانية** مدى هذه الحرية من خلال إطلاق العنان للعلماء بالتبحر في علم الكلام إذ سيتمّ التحدث عن اسم هذا العلم ومنبعه وأقسامه وكونه المنبث الأساسي لفكر الاعتزال. أما **الفقرة الثالثة:** سنتناول قضية الترجمة والتدوين والتي سيتضح فيها انتشاراً لهاتين الظاهرتين في مجالات متعددة مع ما يناسب مفاهيم ذلك العصر. وفي **الفقرة الرابعة:** فالحديث فيها سيكون حول العلوم اللغوية من نحو وشعر وكتابة وخطابة بالإضافة إلى العلوم الدينية المتمثلة بعلم القراءات والتفسير وعلم الحديث والفقه وكيف خدمت هذه العلوم اللغة العربية. وستركز **الفقرة الخامسة** على العلوم العملية المتمثلة بالطب والكيمياء والفلك ومدى الاهتمام بها.

أما ما يخص **الضعف في الاتجاه العلمي:** فسنبالغ في **الفقرة الأولى** عجز الأمويين عن التمييز بين السياسة والعلوم إذ صهروا المصطلحين في بوتقة مصالحهم السياسية فقط ولم يعطوا العلوم حقها في طريقة التعاطي معها. وسيتمّ الحديث في **الفقرة الثانية** عن عدم الدعم المادي للعلوم سواء بالأموال أو بالأمكنة وغير ذلك مما تحتاجه العلوم من تقنيات. وستتحدث **الفقرة الثالثة** عن وقوع الأمويين في خطأ تقدير أهمية الفلسفة المتمثلة بالقدريّة والتي رأوا بها شبحاً يهدد عرشهم ، فقاموا بتصفية رائدها غيلان الدمشقي.

أما الفصل السادس والأخير فسيتطرق للحديث عن إنجازات الأمويين المعمارية وما تخلّله من هفوات ، ففي القسم الأول منه والذي يُفرد للحديث عن قوتهم في مجال العمارة، سيتمّ الحديث في **الفقرة الأولى:** عن الدوافع التي كمنّت وراء قيام الأمويين بالعمران على كافة المستويات المدنية والدينية ، من حيث توافر البيئة والمواد واليد العاملة والقوة المالية. كما ستتطرق **فقرة بناء المدن** إلى أهمية إنشاء مدن تليق بالعصر وتلبي متطلبات الدولة المدنية والعسكرية والشخصية مثل القيروان وواسط والرملة. أما **فقرة بناء المساجد والمشاهد الدينية:** فستركز على تطور بناء المساجد ومواصفاتها وخصوصيتها وما طرأ على بنائها في هذا العصر وسيتمّ الحديث عن قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس وكذلك الجامع الأموي الكبير في دمشق ومسجد الرسول في المدينة . أما في **فقرة بناء القصور :** فسيتمّ التعرف على عدد لا بأس به من الأوابد التاريخية التي ربما جمعت بين الفن والذوق الرفيع بالإضافة إلى تلبية المتطلبات الخاصة والعامة وهذه القصور انتشرت في بوادي الشام .
أما الفقرة التي تحمل عنوان بناء المؤسسات العامة والمرافق: فالحديث سيكون عن المباني المخصصة للناس من بيمارستانات(١) وحمامات عامة، بالإضافة إلى المرافق الحكومية كدور الإمارة ودور الرزق وغيرها. ومن المآثر الأموية التي تُذكر تلك التقانة المعتمدة على هندسة راقية في مجال الري عبر الأقنية الفخارية وما تتميز به من اهتمام عالي المستوى.

وتجلى **الضعف المعماري** لدى الأمويين في فقرتين الأولى أنهم اهتموا بتعمير بلاد الشام على حساب الأقاليم

(١) البيمارستان، بفتح الراء وسكون السين، وهي كلمة مركبة من كلمتين ، بيما بمعنى مريض أو مصاب ،ورستان بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار للمرضى ،وأصل الكلمة فارسي ، رحاب عكاوي، الموجز، ص١٥٨.

الأخرى ، فهل كانت محبة الشام لديهم هي الدافع إلى ذلك، أم لدوافع أخرى ! وفي **الفقرة الثانية**: سيتبين أن ما بُنيَ في إقليم المغرب العربي والأندلس وكذلك في بلاد ما وراء النهر والسند قليل بالمقارنة مع ما بني في بلاد الشام. وفي **الخاتمة** سيتم التركيز على أهم النقاط الواردة في هذا البحث مع استخلاص النتائج التي سيتوصل إليها. كما سيرافق البحث ملحقات تحتوي على نسب الخلفاء الأمويين ومصورات لفتوحاتهم وصوراً لبعض الآثار . وفي الختام قائمة بأسماء المصادر والمراجع العربية والمعرّبة والأجنبية بالإضافة إلى خلاصة باللغة الانكليزية.

دراسة المصادر والمراجع :

لقد تطلب البحث وهو بعنوانه العريض " مظاهر القوة والضعف في العصر الأموي " الكثير من المصادر والمراجع، وبالفعل تمت الاستفادة قدر المستطاع من المصادر والمراجع التي أتاحت في سبيل الإلمام بجوانب البحث كافة، فالمصادر تنوعت بين التاريخ العام والتراجم والطبقات والتاريخ الاقتصادي والأدب ، بالإضافة للكتب التي اقتصت بدراسة إقليم محدد أو مجال بعينه، وكذلك كانت المراجع العربية والمعرّبة والأجنبية متنوعة بالإضافة إلى الأبحاث الدورية والموسوعية. ولذلك سيتم تقديم لمحة عن بعض تلك الكتب التي أفادت البحث بحيث تستوعب جميع فقراته، والبداية طبعاً ستكون من المصادر، وسيعتمد في عرضها الاختصاص بدلاً من العرض حسب تاريخ وفاة المؤلف، ولكن مع مراعاة سنة وفاة المؤلف في كل اختصاص :

أولاً : التاريخ العام:

- **خليفة بن خياط الليثي العصفري (ت ٨٢٤/٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط (١)** ولد في البصرة وعاش فيها حتى وفاته وحرص المؤلف على الإسناد بصفته محدثاً، ويذكر سند الروايات وتعدد الرواة حول الحدث الواحد ولا يكثر من ذلك ويبتعد عن الجمع بين المتناقض منها، واتبع في سرد الأحداث طريقة الحوليات، وهو من أقدم المؤرخين الذين انتهجوا نهج التاريخ حسب السنين ، ولقد بدأ كتابه من مولد الرسول ﷺ وانتهى بأحداث سنة ٨٤٤/٨٢٣ م وأفاد البحث منه في مسألة تولية يزيد بن معاوية للخلافة، وفي الفتوح في معظم الجهات وخاصة في البحر المتوسط عن طريق أسطول المغرب العربي، بالإضافة إلى قوائم ذُيِّلَ فيها عهد كل خليفة والتي حوت بدورها على ذكر عماله على الأقاليم وموظفيه ومرافق الدولة، كما تطرق إلى حرب الخوارج واهتم بالزراعة في العراق .

- **الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٨٢٨٢/٨٩٥م) الأخبار الطوال (٢)** تحدث الكتاب من آدم حتى وفاة الدينوري واحتوى الكتاب على ١٨٧ موضوعاً والمهم منها الصراعات والتمردات الحاصلة في عهد عبد الملك ابن مروان بالإضافة إلى التعرف على سلبيات وإيجابيات الولاة كزياد بن أبيه مثلاً، وفي تصرفات الخلفاء، وفي التعرف على خلفيات قتل الحسين بن علي بن أبي طالب، وفي تصفية أمية لخصومهم. وذكر الثورات التي قامت ضدهم .

- **اليقوبي، أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر العباسي (ت ٨٢٩٢/٩٠٥م) تاريخ اليقوبي (٣)** وهو مؤرخ

(١) خليفة بن خياط الليثي العصفري، (ت ٨٢٤/٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، نط٢، ١٩٧٦.

(٢) الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٨٢٨٢/٨٩٥م)، الأخبار الطوال ، تصحيح فلاديمير جرجاس، ط١، ليدن، ١٨٨٨.

(٣) اليقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي (ت ٨٢٩٢/٩٠٥م) تاريخ اليقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.٠

وجغرافي كثير الأسفار ولد في بغداد ورحل إلى المغرب وأرمينية ودخل الهند وزار الأقطار العربية، ويعتبر كتابه تاريخ اليعقوبي من الكتب التاريخية الهامة، وهو في جزأين الأول في التاريخ القديم من خلق آدم إلى أيام العرب قبل مولد النبي ﷺ والثاني أفردته للتاريخ الإسلامي من مولد الرسول حتى الخليفة المعتمد على الله العباسي، ويعتبر اليعقوبي من أقدم المؤرخين الذين كتبوا في الدول والعهود، لكنه أهمل ذكر الأسانيد واهتم بالجوانب الحضارية أكثر من اهتمامه بالجوانب السياسية، ومع ذلك استفاد البحث من جزئه الثاني في ما يخص الأمور السياسية والحضارية التي ذكرها، وبالنسبة للسياسية في الصراع بين الإمام علي ومعاوية، وفي الصراعات السياسية التي تلت تولي يزيد للخلافة، وما جرى من حروب في عهد عبد الملك بن مروان وقضية ولاية العهد وفي الإحاطة بشخصيات الخلفاء وولاتهم، وكذلك الفتوحات في ما وراء النهر، والحملات التي كان يقوم بها الجيش العربي الإسلامي على القسطنطينية، وفي العصبية القبلية، ونزاعات الأمويين مع آل البيت، وتخلصهم من خصومهم وفي مجال الإدارة من خلال حديثه عما استحدثه معاوية من أمور إدارية بالإضافة إلى قضايا الخراج والضرائب، وعمليات مسح الأراضي وما يخص الزراعة والمنتجات واستحواذ الأمويين على الأراضي الخصبة، مع ذكر لبعض الأسواق، ولم يغب الاهتمام بعلم الكلام في كتابه، إذ تحدث عن القدرية، أما الفصل السادس فقد كانت الاستفادة منه في ذكره لمدينة واسط وبناء قبة الصخرة ومسجد الرسول بالمدينة.

- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك (١) ولد في طبرستان على مقربة من بحر قزوين، وارتحل في طلب العلم فذهب إلى بغداد والبصرة والكوفة والشام ومصر، ثم استقر في بغداد إلى وفاته وألف عدة كتب منها تاريخه هذا الذي بدأه بنشأة الخليفة وحتى وفاة المؤلف ويُعدُّ هذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ العربي والإسلامي، وهو كتاب عام وشامل، اعتمد في كتابته على الحوليات كما انتهج في أسلوبه تعدد الروايات حول الحدث الواحد، وعمد إلى تقديم أقوى الروايات سنداً، ولقد أفاد البحث فائدة كبيرة، إذ رافقه من التمهيد إلى الفصل السادس، فقد قدم معلومات عن الفتوح في المشرق، وذكر بسيط للمغرب والأندلس وموارده والحروب والفتن وقضية استخلاف يزيد، وأحداث الحرة (٢) ومرج راهط (تقع جنوبي دمشق على بعد ٢٠ كم إلى الشرق من بلدة جوبر) وذكر صفات الخلفاء وولاتهم وتصرفاتهم، بالإضافة إلى التعرف على خفيات العصبية القبلية، وعلى معاملة الأمويين لخصومهم، من خوارج وشيعة وزبيريين وحتى من بني أمية أنفسهم، وفي ذكر الحملات وقواتها وقادتها، وكذلك توزع العرب في الأقاليم، وفي تقسيم أجناد الشام، مع الإشارة إلى الجيش ومستلزماته، وفي الفصل الثالث أفاد في معاملة أهل الذمة، وفي المجال الصحي من خلال ذكر بعض الأطباء في العصر الأموي والبيمارستان، والتطرق إلى الموالي، وإلى لهو الخلفاء، وفي الفصل الرابع تطرق ولو بشكل يسير إلى الخراج والإقطاع والصناعة والأسواق، أما في الفصل الخامس فقد تم التعرف من خلاله على بعض أصحاب الآراء الكلامية، كما أفاد في تقديم معلومات في العمران لم تكن وصفية بقدر ما كانت تبين للأسباب والظروف، وكانت المعلومات المستفاد منها في الجزء الثالث والرابع والخامس.

- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر (٣) وهو مؤرخ ورحالة من أهل بغداد أقام في مصر وتوفي فيها، وله مؤلفات عديدة منها هذا الكتاب ذو الطابع التاريخي-

- (١) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٩٨٦.
- (٢) والحرة هي إحدى حرتي المدينة وتدعى حرة واقيم وهي إلى الشمال الشرقي منها، انظر ياقوت الحموي، ابن عبد الله (ت ٦٣٦ هـ/١٢٣٨ م) معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٣٤٩.
- (٣) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تدقيق يوسف البفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١.

الجغرافي وهو أربعة أجزاء ابتدأه من بدء الخليفة وختمه بالخليفة العباسي المطيع لله، وأفاد البحث في أواخر جزئه الثاني وأوائل جزئه الثالث، من خلال متابعته للفتنة الأولى وما لحقها من صراعات وأزمات، ذكرها في معرض حديثه عن كل خليفة من الخلفاء وصفاته وشخصيته، بالإضافة إلى ذكر بعض الولاة وأخبارهم، ومن خلال ذلك تم التطرق لثورة ابن الزبير وثورته ابن الأشعث وحروب آل المهلب، وأفاد البحث أيضاً في التعرف على برنامج معاوية اليومي، وعلى دور أهل الذمة في الحروب، بالإضافة إلى الحديث عن الغناء وظاهرة المجون واللهو، وفي التعرف على بعض أنواع السلاح المستخدم، وفي الصناعة عندما ذكر ملابس الخليفة سليمان بن عبد الملك، وتطرق لذكر المعتزلة، والكتابة من خلال ذكره للكاتب عبد الحميد، وتطرق لبناء الجامع الأموي، وذكر بناء مروان بن محمد لقصره في حران.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١) ولد
ابن الجوزي في بغداد في عام ٥١٠هـ/ ١١١٦م على الأرجح وتوفي فيها وكان شغوفاً لتلقي العلم وكان متعدد الاهتمامات، كثير التصانيف ومنها هذا الكتاب الذي جاء في ١٢ جزءاً ابتدأه منذ بدء الخليفة مروراً بالسيرة النبوية والخلفاء الراشدين ثم الأمويين وانتهى في سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م وانتهج فيه نهج الحوليات مع ذكر تراجم للشخصيات أثناء ذكر سنوات وفاتهم، وتناول في كتابه جميع النواحي السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية بالإضافة إلى ظواهر الطبيعة، واستفاد البحث من أجزائه الخامس و السادس والسابع والثامن فيما يخص ثورة ابن الزبير وفي مسألة العصبية القبلية، وفي مصير خالد القسري، بالإضافة إلى صراع الأمويين مع آل البيت ومقتل حجر بن عدي، وثورته ابن الأشعث وبعض أخبار أهل الذمة، وذكر لهو يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك، كما ذكر معلومات اقتصادية حول حفر الوليد بن عبد الملك للأنهار في الحجاز وكذلك هشام بن عبد الملك وما قام به من ذلك في مجال الزراعة، كما أمد البحث بمعلومات عن صفات الخلفاء أضف إلى ذلك مصادرهم للأراضي وقدم معلومات عن علم الكلام والعلوم التطبيقية، من كيمياء وفلك، بالإضافة إلى ذكره بناء مدينة واسط.

- ابن الأثير علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ (٢): المؤرخ الإمام من علماء النسب والأدب ولد في جزيرة ابن عمر على نهر دجلة سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، ونشأ في مكان مولده لكنه انتقل إلى الموصل وتجول في البلاد المختلفة ثم عاد إلى الموصل وتوفي فيها، وله كتب عدة منها هذا الكتاب الذي بلغ أحد عشر جزءاً وهو كتاب عالمي عام وشامل بدأه مع بداية الخلق وانتهى به قبل وفاته بعام، واتبع فيه كغيره نظام التعداد السنوي للأحداث، واستطرد في تتبع الخبر وإن خرج بذلك عن النطاق الزمني لتلك السنة، وأبرز للأحداث الهامة أثناء ذلك عناوين خاصة بها، كما لخص الأحداث الصغيرة ووضعها في نهاية أخبار كل سنة، وما يؤخذ عليه عدم الإسناد في روايته وبذلك وقع فيما نقد فيه غيره بذلك لكنه حافظ على شبه توازن في عرض روايته، واعتمد على من سبقه في التأريخ مثل الطبري الذي نقل عنه أحياناً بشكل حرفي لكنه علق وزاد عليه حقائق أخرى استخرجها من كتب تاريخية، هذا بالإضافة إلى الأحداث التي تلت تاريخ الطبري، والإسهاب في ذكر أحداث المغرب والأندلس أكثر من الطبري الذي كان اتجاهه شرقياً على الأغلب، ولقد أفاد البحث من خلال أجزائه الثالث والرابع والخامس، حيث خدمه في التمهيد وقضية الصراع بين الإمام علي ومعاوية، وفي المجال السياسي في ذكره لثورة ابن الزبير وما جرى بها من أحداث، بالإضافة إلى الأحداث التي تلتها والتي رافقت

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد ومصطفى عبد الرحمن عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣.

(٢) ابن الأثير علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥.

العصبية القبلية في مرج راهط وقضية عمرو بن سعيد الأشدق وثورة ابن الأشعث ، كما تطرق إلى حروب الخوارج في المغرب في عهد هشام بن عبد الملك، وتحدث عن الفتوح في المشرق والمغرب والأندلس وحروب العرب مع بيزنطة، كما تمت الاستفادة من معلوماته في الحديث عن عجز الأمويين عن فهم أسس الحكم من خلال ولاية العهد، وأمد البحث بمعلومات عن علاقة الأمويين بالبيت، وبابتعاد الأمويين عن الشورى بالإضافة إلى ما قدمه عن الأمويين من قتلهم للناس ظلماً، وفي تموضع العرب في الجهة الشرقية، كما خص الجيش بمعلومات، هذا بالإضافة إلى التعرف على شخصيات الخلفاء والولاة وما خدم ذلك البحث من صفات إيجابية وسلبية، و ذكر أهل الذمة وبعض الأمور الخاصة بالصحة والطب، واللهمو والمجون، وأفاد في بعض المعلومات الاقتصادية الخاصة بالضرائب والأراضي والمياه والمزروعات، وكذلك في الصناعة الخاصة بالجيش وبالأسواق، ولم يغيب علم الكلام عنه فقد تطرق إليه، وذكر بناء مدينة واسط وبناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، وبناء بعض القصور.

- ابن كثير عماد الدين أبو الفداء اسماعيل القرشي(ت ٥٧٧٤/ ١٣٧٢م) البداية والنهاية(١) : ولد في دمشق وتعلم فيها ثم رحل في طلب العلم إلى بغداد ومصر، واشتهر بالمعارف والعلوم المختلفة، له كتب كثيرة ومنها البداية والنهاية وهذا كتاب عام وشامل، واعتمد في نهجه طريقة الحوليات كغيره من المؤرخين الذين سبقوه فبدأ كتابه ببدء الخليفة وختمه في سنة وفاته. ولكنه يذكر أو يسرد فقط دون التدخل وخاصة في الحقبة التي سبقته ويقول والله أعلم، وكانت الفائدة من كتابه تكمن في ذكره تراجم للشخصيات من خلال ذكر وفيات كل سنة وذلك بما حوته هذه التراجم من معلومات تاريخية وعلمية وإدارية جيدة، لكنه أغفل ذكر الأندلس والسند . واستفاد البحث منه فيما يخص الرباط(٢) والمثاغرة-من ثغر أي فتحة- وبعض المعلومات عن النزاع بين الأمويين وآل البيت، وفي اعتماد الأمويين على أسلوب القتل ظلماً، ومعلومات عن اهتمام الأمويين بالصحة والطب، بالإضافة إلى ذكره لحالات اللهمو والمجون عند الأمويين، كما استفاد منه من الناحية الاقتصادية بشأن الزراعة والمحاصيل الزراعية، وكذلك في الصناعة الخاصة بعامة الناس وبالأسواق، أما في الناحية العلمية فقد أفاد في ذكر النحو والسيرة والقدرية، وفي إطار العمران ذكر مدينة واسط والجامع الأموي بدمشق وبعض القصور.

وسيتم الآن ذكر تواريخ البلدان بناءً على أسلوب التخصص الذي تم اتباعه في دراسة المصادر: فتاريخ البلدان وخاصة الفتوح يكتسب أهمية خاصة بالنسبة لإدارة الدولة واقتصادها، فمن خلال أسلوب الفتح وطبيعته، يتم وضع الأسس التي يبني الفقهاء أحكامهم فيما يخص الفاتحين ومعاملة أهل الذمة وفرض الخراج والعشر والجزية، وهذه الحاجة ظهرت بشكل مألح في العصرين الأموي والعباسي، لأن الدولة تستطيع من خلال ذلك إرساء قواعد التعامل بينها وبين الأقاليم الخاضعة لها.

- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله(٥٢٥٧/ ٨٧٠م) فتوح مصر والمغرب(٣): ولد سنة ١١٨٧هـ/ ٨٠٢م في مدينة الفسطاط المصرية، ويتضح حبه لمصر من تأليفه هذا الكتاب الخاص بها، مع ذكر لفتح المغرب والأندلس وإن كان الحديث عنهما لا يساوي ما تحدث به عن مصر بما أنه أفرد قسماً خاصاً للمغرب، وكان

(١) ابن كثير عماد الدين أبو الفداء اسماعيل القرشي (ت ٥٧٧٤/ ١٣٧٢م) البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ،دار الحديث القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٢.

(٢) الرباط معناها اللغوي: المنطقة الملازمة لثغر العدو، والإقامة على جهاد العدو بالحرب وإرتباط الخيل وإعدادها، فشبّه ما ذكر بالأفعال الصالحة، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم(ت ٥٧١١/ ١٣١١م)لسان العرب، دار صادر بيروت، ط١، ج٧، ص٣٠٣،

(٣) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله(ت ٥٢٥٧/ ٨٧٠م) فتوح مصر والمغرب، ، تحقيق عبد المنعم عامر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، د.ت.

تاريخه عن مصر إدارياً وعمرانياً أكثر منه سياسياً، أما المغرب فقد أرخ فتحه من البداية إلى نهاية العصر الأموي، واعتمد أسلوب الإسناد في الروايات وذكر أكثر من رواية في أغلب الأحيان وجمع في هذا الكتاب أقدم الروايات التي تتعلق بفتح مصر وخلال عصر الولاة وجاءت أخباره هامة على الرغم من إيجازها، وأفاد البحث فيما يخص المغرب من ذكره لعمليات عقبة بن نافع، وموسى بن نصير وحسان بن النعمان، وعن الوجود العربي في الأندلس، وتحدث في مصر عن الجانب الاقتصادي والإداري والصحي والعمراني وذلك من خلال ذكره ولاية عبد العزيز بن مروان وأعماله الزراعية فيها، كما تحدث عن الضرائب والاهتمام بالمشاريع المائية من قبل عمرو بن العاص، وعن استحواد الأمويين للقطاعات وللأراضي الخصبة، وفي مجال الصحة ذكر عدداً من الحمامات، وكذلك ذكر الأسواق والخانات، وفي العمران ذكر بعض القصور والمساجد.

- البلاذري أحمد بن يحيى (ت ٨٢٧٩/٨٩٢م) فتوح البلدان (١) : ولد البلاذري في بغداد ونشأ فيها لكنه ارتحل إلى مدن العراق والشام وعُرف البلاذري بأنه رجل موسوعي متعدد الثقافات واسع الاطلاع أديباً وشاعراً ونسابة، وعَبّر البلاذري في كتاب فتوح البلدان عن فكرته عن التاريخ والذي يعتبره رسالة تكتب فيها الأمم كل منجزاتها للأجيال التالية، ولهذا جاء كتابه سجلاً لمنجزات الدولة التي بدأت بالرسول وحتى إكمال فتح البلاد التي تألفت منها الدولة العربية الإسلامية، هذه المنجزات التي أرست قواعد التنظيمات والتشريعات التي سارت عليها الدولة في إدارتها واقتصادها وحرّبتها، وختم كتابه بعرض أحكام أرض الخراج والعطاء وأمر الخاتم والنقود والخط. واعتمد في منهجه ترجيح الروايات وبعد روايتها يدلي برأيه في ترجيح بعضها على بعض، ويورد للخبر الواحد أكثر من رواية، ولقد خدم البحث كثيراً في جميع الجوانب التي ذكرها، ومنها ما ذكره عن الفتوحات في الشرق في منطقة ماوراء النهر وفي طبرستان وجرجان وعن دور الحجاج أثناء الفتوح، كما عني بذكر الرباط والمناغرة وعن الثغور الشامية والثغور الجزرية، وتحصين السواحل والحملات العربية الإسلامية على القسطنطينية، وعن الولاة في إخلاصهم وفي تماديهم في الوقت نفسه، وفي التعرف على بعض وجوه الفساد الإداري، وعن سياسة الدولة مع أهل الذمة، كما تعرض لفتوح المغرب وذكر بعض الممارسات التي قام بها بعض قادة الفتح، وتطرق إلى معاملة الأمويين لآل البيت، كما استفاد البحث فيما يخص العصبية القبلية حتى في خراسان، وذكر بناء الخلفاء الأمويين للحواضر التي كانت بديلاً ولو مؤقتاً عن دمشق، كما خدم البحث في تكوين صورة عن التواجد العربي في الجهة الشرقية، وكذلك أجناد بلاد الشام، وفي الضرائب فيما يخص التعرف عليها بما فيها اليمن، وفي الشأن الصحي أفاد البحث في قضية الحجر الصحي على المرضى، وفي ذكر الحمامات، وفي الاقتصاد كانت الاستفادة منه بشكل كبير في الزراعة استفاد منه البحث باستصلاح الأراضي في العراق على وجه الخصوص وذلك بحفر الأنهار فيها، وفي الشام وأذربيجان، أما في الصناعة فتم التعرف من خلاله على الصناعة الخاصة بالجيش البري والبحري، والصناعة العامة، ومنه ما ذكره عن دار للصبغة في مدينة الرملة الفلسطينية، وتحدث عن التجارة وعن إرساء بعض أسسها الأخلاقية، كما ذكر الأسواق، وتطرق إلى استحواد الأمويين على الأراضي الخصبة.

وفي مجال العمران ذكر بناء دور العطاء، وبناء مدينة واسط وبناء المساجد ودور الإمارة والحصون، وذكر بعض المدن والقصور في الجهة الشرقية.

- ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن (ت ١٠٧١/١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق (٢): ولد ابن عساكر

(١) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢ .
(٢) ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن (ت ١٠٧١/١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد العمروي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥ .

في دمشق عام ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م وتنقل بين بغداد وخراسان والحجاز ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها، وصحيح أن كتابه يحمل اسم دمشق إلا أنه يمكن النظر إليه على أنه كتاب موسوعي، شامل فهو كتب فيه عن الشام بمواضعها وتراجمها وهو كتاب حضاري يشمل البلاد التي حطّ بها العرب وازدهرت فيها حضارتهم بين أقصى الشرق، فيما وراء النهر وبين أطراف المحيط، إذاً فمادته العلمية غنية واسعة فهو يذكر دمشق ببنائها وفضلها وحياتها العامة وتراجم من دخلها، ويذكر أطرافاً من الجاهلية ثم يذكر السيرة النبوية والعصر الراشدي ويؤرخ للأُمويين ومن جاء بعدهم إلى وفاته، والمهم من كتابه هو الشق الخاص بالأُمويين من خلال التراجم التي يذكرها، وكيف لا ودمشق في عصرهم هي المركز وهي المكان المرجو لدى كل طالب حاجة أو راغب بالاستزادة، ومنها كانت الانطلاقة للأُمويين في فتوحاتهم وحروبهم في الشرق والغرب، إذاً فتاريخ دمشق في العصر الأموي هو تاريخ للدولة العربية. ولقد كان ابن عساكر محدثاً ومؤرخاً انتهج أسلوب الإسناد قبل ذكر الحادثة، ولقد ترجم تراجمه حسب أحرف الهجاء وترجم للرجل وللنساء أيضاً، ولقد أفاد البحث فيما يخص الرباط والمثاغرة في عهد معاوية والوليد بن عبد الملك، وأمد البحث بمعلومات عن تصرفات الأُمويين مع المعارضة بالتطرق لمصير حجر بن عدي، وتصفية غيلان الفدري، وغيره الكثير على يد الحجاج الثقفي، كما ذكر فضل مدينة دمشق، وذكر أن عمر بن الخطاب أوصى خيراً بأهل الذمة، ومن خلال ترجماته للنساء تم التعرف على مكانتهن في الدولة، وتطرق إلى الأنهار في الشام ومن خلالها يُفهم الاهتمام بالبيئة، وتم التعرف من خلاله على الأسلحة المستخدمة، وكذلك فيما يخص التجارة، كما ذكر العديد من الأسواق في دمشق، وتحدث عن الصوافي والإقطاع الخاص بالأُمويين، وفي المجال العلمي أفاد في ذكر علم الكلام من خلال تراجم أصحاب هذا العلم، وتمت الاستفادة في التعرف على العلوم الفقهية وأصحابها، كما تحدث بإسهاب عن الجامع الأموي وعن قصر الخضراء بدمشق.

- ابن عذارى المراكشي (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (١): ولد ابن عذارى في المغرب، ويعتبر كتاب البيان والذي كتبه في أربعة أجزاء من الكتب الهامة في تاريخ المغرب والأندلس، حيث امتاز ابن عذارى بالأمانة العلمية لأنه يقوم بذكر مصادر معلوماته، والمهم من هذا الكتاب الجزء الأول الذي تحدث فيه عن المغرب من الفتح العربي إلى آخر الدولة الأموية أما ما يخص أخبار الأندلس فإنها وجدت في الجزء الثاني منه أيضاً من الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، كما واختلطت أخبار المغرب والأندلس في كلا الجزأين، واستفاد البحث منه في التعرف على أخبار المغرب وعمليات فتحه وكذلك فتح الأندلس، بالإضافة إلى أعمال الولاة في المنجزات وفي التجاوزات، وفي تأسيس دار صناعة السفن في تونس، وفي التعرف على الثورات التي قامت في المغرب والأندلس، بالإضافة إلى التطرق إلى محاولات البيزنطيين الهجوم على سواحل المغرب، كما أفاد في معرفة مصير موسى بن نصير على يد سليمان بن عبد الملك، وفي انخراط المغاربة في الجيش العربي، أما في النشاط العلمي فقد أفاد في تبين دور العلماء العرب في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المغرب، وفي ذكر بناء مدينة القيروان.

أما بالنسبة لكتب الطبقات والتراجم فهي لا تقل أهمية عن الكتب التاريخية بل إنها تحتل الصدارة في الدراسات التاريخية لما تحويه بين جنباتها من معلومات هامة ليس فقط على الصعيد الشخصي للمترجم لهم بل إنها تحيط علماً بتصرفاتهم ودوافعهم بالإضافة إلى أنها تضيء جانباً هاماً من الأحداث السياسية والإدارية

(١) ابن عذارى محمد المراكشي (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. سزكولان وإيفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ .

والاقتصادية وغير ذلك من الأمور المرافقة لهم .

- ابن سعد محمد بن منيع أبو عبد الله البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) الطبقات (١): ولد في البصرة عام ١٦٨هـ/٧٨٤م ورحل إلى مكة والمدينة ثم استقر في بغداد التي مات فيها، وهو واسع الثقافة تميّز أسلوبه في كتابته بذكر الخبر عن مجموعة من الروايات مع ذكر الأسانيد المجموعة، كما تميز برواية الترجمة في قصة مترابطة مع نقد الروايات أحياناً، والإشارة إلى وظائف صاحب الترجمة وذكر بعض الحقائق التاريخية وخاصة العلمية والاجتماعية والسياسية في ثنايا تفصيلات الترجمة .

ولقد أفاد البحث في الكثير من المعلومات والأخبار التي توزّعت في مختلف فقرات البحث، ففي التمهيد أمده بمعلومات عن الصراع الذي انتهى بوصول الأمويين إلى الحكم، وكذلك في جهود معاوية لتوحيد الدولة التي تشرذمت إثر ذلك الصراع، وفي جهود عمر بن عبد العزيز في تحصين الثغور، كما أفاده في معلومات عن خلفيات العصبية القبلية، وفي معاملة الأمويين للخوارج، وذكره إقامة عمر بن عبد العزيز خارج دمشق وأحاطه علماً بصفات القضاة، وبدور المرأة المشهود لها حتى على أيام الرسول الكريم، كما أشار في ثنايا تراجمه إلى احترام أهل الذمة، بالإضافة إلى معاملة الموالي، كما ذكر صفات يزيد بن عبد الملك اللاهي، وأمد البحث بمعلومات عن الزراعة والمحاصيل وعلى سبيل المثال ذكر زراعة القمح في مزارع طلحة بن الزبير وفي الصناعة أيضاً حيث ذكر منسوجات اليمن والعراق والشام... وكذلك ذكر التجارة والتجار وفي أساليب التجارة، والأسواق ومن له أحقية بالسوق، وفي ضبط الموازين، وفي إقطاعات بني مروان، وفي علم الكلام ذكر واصل ابن عطاء وتطرق لمقتل سعيد بن جبير باعتباره من المرجئة، وأفاد البحث في التدوين في ذكر تدوين الحديث وأمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه، وذكر مدونات الحسن البصري وعبد الله بن عباس وعروة بن الزبير والزهري، وفيما يخص العلوم الفقهية من تفسير وحديث، بالإضافة إلى ذكره الطب من خلال حديثه عن التداوي وفي العمران ذكر بناء قصر لكثير بن شهاب الحارثي في اصطخر.

- البلاذري أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) أنساب الأشراف (٢): وللبلاذري كتاب آخر على قدر كبير من الأهمية يتناول فيه أشراف العرب ويشرحها، كما يتطرق للأخبار ويبحث في ذلك، فهو من جهة كتاب أنساب ومن جهة أخرى كتاب أخبار أو تاريخ، أو شروح واستقصاء، وربما قصد البلاذري بالأشراف النبلاء أو العرب الخالص، لأن الشريف يطلق على الرجل الماجد أو من كان كريم الآباء، لذلك جاءت ترجماته للأشراف متعددة إذ بدأه بذكر نسب نوح ثم ذكر العرب وصولاً إلى عدنان واستمر كذلك إلى الوصول إلى أجداد النبي محمد ﷺ مسترسلاً بكلّ جدّ على حدا حتى وصل إلى مولد الرسول ﷺ، وتحدّث عن السقيفة (٣) ثم بدأ بالصعود في نسب النبي ﷺ مرةً أخرى فذكر عبد المطلب بن هاشم وسلسل أبنائه وأبناء أبنائه، متضمناً في ذلك ما شاء من الأخبار، ثم سعد في أبناء الجد الثاني هاشم وأبنائه وذكر أبناء عبد شمس بن عبد مناف وهكذا ظلّ متتبعاً حتى وصل إلى قريش. والمهم هنا هو التراجم الخاصة بالعصر الأموي، ولقد وُجِدَتْ فيه أخبار قلما وُجِدَتْ عند غيره، واستخدم في أسلوبه قاعدة الأسانيد على طريقة المحدثين، وأحياناً يقوم بدمج الأسانيد والروايات. ولقد أفاد البحث في العديد من مواقعه، إذ لديه استفاضة في ذكر الخلفاء وما يخصهم وولاتهم أيضاً، وتطرق لذكر الثورات والفتن والحروب، ومنها ثورة ابن الزبير وما تلاها من حروب و فيما يخص العصبية القبلية، والفتن

(١) ابن سعد محمد بن منيع أبو عبد الله البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) الطبقات، دار صادر، بيروت، د.ت.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ط١، ١٩٩٦ .
(٣) السقيفة: هي سقيفة بني ساعدة التي اجتمع فيها الأنصار لمبايعة سعد بن عبادة فقال أبو بكر الصديق بترشيح عمر بن الخطاب أبو عبيدة بن الجراح فقال عمر بترشيح وانتخاب أبو بكر الصديق، الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص٢٣٣.

التي واجهت يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وما قام به للحفاظ على دولته، وإباحة المدينة، وتطرق لحروب الخوارج، وفيما يخص الولاة تطرق إلى ذكر كل من زياد بن أبيه والحجاج وعبد العزيز بن مروان وخالد القسري والمهالبة، وأفاد البحث في التعرف على بعض الشؤون الإدارية ومنها المعلومات التي بشأن استنثار الأمويين بالسلطة، وفي معاملة معارضيتهم، وبعض المعلومات عن الدواوين، وفي المجال الاجتماعي أفاد في التعرف على معاملة أهل الذمة، وكذلك النطاق الصحي وذكره للبيمارستانات التي كانت في العصر الأموي ومعاملة أصحاب العاهات، وفي الحفاظ على البيئة، وذكر الحمامات وفي الشأن الاقتصادي فالإفادة كانت في التعرف على استصلاح الأراضي، وكذلك التجارة واحتكار بعض الخلفاء لها، وفي المجال العلمي أمد البحث بمعلومات عن الجبرية، وعن النحو.

- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين (ت ٥٦٦٨هـ/١٢٦٩م) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء (١) ولد ابن أبي أصيبعة في دمشق سنة ٥٦٠هـ/١٢٠٣م وكان والده يعمل طبيباً في دمشق، وتلقى علم الطب عن والده لكنه رأى ضرورة الاستزادة فسافر إلى القاهرة ثم عاد وعاش في صرخد وهي إحدى مناطق جبل حوران في سورية وبقي فيها حتى وفاته، ولكنه ترك كتاباً يعتبر من أهم الكتب التي تحدثت عن طبقات الأطباء ولا يشبهه إلا كتاب ابن جلجل طبقات الحكماء والأطباء (٢) لكنه يتفوق عليه بوفرة مادته، إذ بدأه بترجمة كبار الأطباء زمن الإغريق والرومان والهنود، والعرب في الشام ومصر والمغرب كل بلد على حدة، ولقد أفاد البحث من هذا الكتاب في المجال الصحي بشكل خاص وذلك في ذكره للأطباء الذين عاشوا في العصر الأموي، كما أفاد في إطار التعرف على طريقة الأمويين بالتخلص من خصومهم بطريقة السم التي كان يقوم بها الأطباء وخاصة زمن معاوية بن أبي سفيان، كما زود البحث بمعلومات عن مدونات في الطب تعود للعصر الأموي.

الكتب الجغرافية: تعتبر الجغرافية علماً مساعداً للتاريخ لما تحتويه كتبها من أخبار مناطقية حسب المناطق التي يشملها هذا البحث، بطبيعتها المكانية والإدارية والبشرية والاقتصادية والعمرائية، ومن هنا جاءت فائدتها لهذا البحث ومن تلك الكتب المعتمدة:

- الاصطخري أبو اسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت ٥٣٤٦هـ/٩٥٧م) المسالك والممالك (٣) : ولد في اصطخر (تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة شيراز الإيرانية) وهو رحالة طاف بلاد العرب وبعض بلاد الهند، ولذلك جاء كتابه شاملاً لمعظم مناطق العالم الإسلامي المعروف في زمانه حيث بدأه بجزيرة العرب والخليج العربي وختمها ببلاد ما وراء النهر، ولقد خصّ كل إقليم بمعلومات تتعلق بالحدود والمدن والمسافات والطرق وتفاصيل أخرى عن المحاصيل والصناعة والتجارة وغيرها، وبذلك أفاد البحث في عدة فقرات منها فتح جرجان وطبرستان جغرافياً، وفي ذكر أجناد بلاد الشام، كما ذكر حفر يزيد بن معاوية للقنوات في دمشق وتحدث عن حفر الأنهار في العراق وغيرها من أجل الزراعة، مع ذكره للمحاصيل الزراعية التي اشتهر بها كل إقليم، أو منطقة، بالإضافة إلى الصناعة وذكر أماكنها، كما أفاد في ذكر الطرقات والمدن التجارية، وفي

-
- (١) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين (ت ٥٦٦٨هـ/١٢٦٩م) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة بيروت، ط ١، د.ب.
(٢) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (كان حياً سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م) طبقات الحكماء والأطباء، تحقيق فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥ .
(٣) الاصطخري أبو اسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت ٥٣٤٦هـ/٩٥٧م) المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، نقلاً عن طبعة ليدن، ١٩٢٧ .

الشأن العمراني ذكر قبة الصخرة.

- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت بعد ٣٦٦هـ/٩٧٦م) صورة الأرض (١): وكان رحالة وتاجراً ولد في بغداد ونشأ فيها ورحل إلى عدة بلاد منها المغرب وصقلية ودخل الأندلس وجال فيها، وألف كتابه هذا بعد مقابلة الاضطخري كما يذكر هو ذلك حيث طلب منه الاضطخري أن يعيد النظر في كتابه المسالك الآنف الذكر ويتممه وبالفعل قام ابن حوقل بذلك وجاء كتابه في كثير من المناطق منقول عن كتاب الاضطخري، لكنه وسّع فيه، وبشكل خاص بالجنح الغربي، وقسم كتابه إلى قسمين تحدث في الأول عن ديار العرب وبحر فارس والمغرب والأندلس وكلّ الأقاليم العربية الإسلامية، بينما تحدث في القسم الثاني عن الأقاليم الشرقية، وأفاد البحث في التعرف على صفات الأقاليم وأنهارها واقتصادها الزراعي من محاصيل وحفر الأنهار وخاصة في العراق، وذكر الخراج في مصر والعراق، وكذلك تحدث عن شهرة المناطق في الصناعة، والأسواق وعن التجارة البرية والبحرية ومدنها وطرقها وخاناتها.

إن كتب الاقتصاد أو (ما يسمى الكتب الفقهية)، والتي ترد بعناوين مختلفة كالخراج والأموال، لا تقل أهمية عن غيرها من الكتب في التعرف على الشؤون المالية وقواعد تنظيمها في الدولة، لأن الخراج هو الدخل، فبعضها يذكر موارث الدولة المالية الشرعية وهي الخراج والجزية وقسمة الأرض حسب طريقة فتحها والعشور الخاصة بالأراضي أو بالتجارة، والبعض الآخر يدرس دخل الدولة من الموارد التي استحدثتها كالمكوس ومختلف الضرائب التي فرضتها الدول.

سيتم التطرق إلى بعض الكتب التي أُطلقَ عليها تسمية الكتب الاقتصادية لتخصصها بهذا الشأن ومنها:

- أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) الخراج (٢): ولد في الكوفة سنة ١١٣هـ/٧٣١م ومات في بغداد ويعتبر كتابه من أقدم المصادر المالية في الدولة العربية الإسلامية، وهذا الكتاب عبارة عن رسالة أرسلها إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد بناءً على طلبه وذلك للإفادة منه في تنظيم الضرائب على أسس شرعية، ف جاء هذا الكتاب جامعاً لجباية الخراج والعشور والإقطاعات والصوافي من أيام الرسول الكريم إلى الخلفاء الراشدين وبعض الإجراءات في العصر الأموي، ولقد جاءت الإفادة منه في إعطاء فكرة عن مقادير الخراج الموضوع على المحاصيل في الأرض العامرة والغامرة وعلى الأشجار المثمرة وفي إجراءات عمر بن عبد العزيز في تنظيم الخراج وكذلك تطرّق إلى إجراءات عبد الملك بن مروان في الجزيرة، كما رَوَدَ البحث بمعلومات عن ضرائب العراق واليمن والجزيرة، هذا بالإضافة إلى الجزية ومعاملة أهل الذمة اقتصادياً، وبالنسبة للعشور أيضاً، كما وضح في حديثه عن المزارعة والمساقاة والإجارة، أي أساليب استغلال الأرض، أضف إلى ذلك حديثه عن اختلاف الخراج باختلاف طبيعة الأرض ومائها، كما تطرق إلى أرض الصوافي.

- ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن السلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) كتاب الأموال (٣): ولد في خراسان وتنقل بين بغداد ودمشق ومات في مكة، وتميّز كتابه بمعلومات اقتصادية واسعة غطت الخراج والجزية والصوافي وكيفية

(١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت بعد ٣٦٦هـ/٩٧٦م) صورة الأرض، دار صادر، بيروت، مطبعة ليدن، ١٩٨٢.

(٢) أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩.

(٣) ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن السلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) كتاب الأموال، تحقيق أبو أنس سيد بن رجب، دار الهدى النبوي، مصر، ٢٠٠٧.

استغلال الأراضي والعشور وما إلى ذلك من إجراءات، وأفاد البحث في المعلومات الخاصة عن العشور وإحياء الأرض الموات كتقديم القروض للفلاحين مثلاً، وتحدث عن طرق استثمار الأرض من مساقاة ومزارعة وغيرها، بالإضافة إلى الحديث عن الغنائم ومقادير الخراج.

-الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(ت.٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية(١): ولد في البصرة سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م رحل إلى بغداد لإكمال تحصيله للعلم، وجاء كتابه في قسم كبير منه خاص بالاقتصاد ولذلك جاء تصنيفه مع كتب الاقتصاد، وهو هام في الحضارة والفقه وخاصة فيما يتعلق بولاية الأمر، والفائدة جاءت في عدة فقرات، كفقرة التعريب الذي قام به عبد الملك بن مروان، وفي أمور الضرائب من خراج وجزية وفيء وما يُفرض على أهل الذمة، وكذلك في تقديم معلومات عن استصلاح الأراضي ومقدار الذراع الذي يقاس به، وما يخص المزارعة والمساقاة والإجارة، وذكر المحاصيل الزراعية التي تشتهر بها كل منطقة، وفي ما يخص الصناعة وخاصة في كسوة الكعبة، وفي ضبط الموازين والمكاييل، وفي تصنيف الأراضي العشرية والخراجية، وسيطرة الأمويين على الأراضي الخصبة.

أما بالنسبة لكتب الأدب فلما تجد مرجعاً تاريخياً لا يتطرق لكتب الأدب التي تمثل المعين له في أمور عدة لأنه في صفحات تلك الكتب الأدبية وبين سطورها تكمن الأخبار المرافقة للأدب في مجالات عدة فعلى سبيل المثال يمكن الاستنتاج من رواية عن شاعر أو خطيب أو كاتب الكثير من المعلومات عن السياسة أو البيئة أو الاقتصاد إلى ما هناك من أحداث، ومن الكتب الأدبية التي أفادت البحث:

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت.٢٥٥هـ/٨٦٨م) البيان والتبيين(٢): ولد في البصرة سنة ١٦٠هـ/٧٧٥م وكان إنساناً شاملاً الثقافة والمعرفة في كل المجالات، مما منحه ملكة الكتابة في كثير من الاختصاصات فأودع في خزائن الأدب العربي مجموعة كبيرة من الكتب المتنوعة الأغراض بين الأدب والفلسفة والتاريخ والعلوم والكيمياء... وصحيح أن كتاب البيان هو أدبي بامتياز إلا أن الفائدة منه كانت لا بأس بها فيما يخص النواحي الأدبية في فقرة النحو إذ ذكر عدم فصاحة عبيد الله بن زياد، كما ذكر في المجال العلمي صفات خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية، واستفدنا منه في التعرف على الفساد الإداري وقوة الولاية ومنهم زياد بن أبيه وخطبته المشهورة بالبتراء، وتحدث عن معاملة الموالي التي أمدتنا بمعلومات لا بأس بها، وفي المجال الاقتصادي اهتمام الحجاج بالزراعة وتفقد الفلاحين، بالإضافة إلى حفر الأنهار في العراق.

-الأصفهاني، علي بن الحسين أبو الفرج(ت.٣٥٦هـ/٩٦٦م) الأغاني(٣): ولد بأصفهان سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م ونشأ في بغداد واستوطن فيها إلى أن مات، وتطرق كتابه إلى الشعر وأخبار الشعراء والمغنين، وتخلّلت تراجمه أخباراً تاريخية أفاد منها البحث سواء على صعيد التراجم أو الأخبار ومن فوائد البحث ما ذكره عن العصبية القبلية وإبطال شتم الإمام علي بن أبي طالب في عهد عمر بن عبد العزيز، كما أفاد بمعلومات عن الموالي من خلال إدراج شعرائهم وأخبارهم، وكذلك بالنسبة لمعاملة المسيحيين من خلال ذكر الشاعر الأخطل وأخباره، كما ذكر المرأة من خلال ذكره للشاعرات، أما الفائدة الأكبر فقد كانت بالنسبة لفقرة الغناء والمغنين وأدواتهم.

(١)الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(ت.٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت ط١، ١٩٨٩.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت.٢٥٥هـ/٨٦٨م) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨،

(٣)الأصفهاني، علي بن الحسين أبو الفرج(ت.٣٥٦هـ/٩٦٦م) الأغاني، لقد اتم الاعتماد على أكثر من نسخة لهذا الكتاب منها طبعة دار الكتب المصرية عبر سنوات متعددة، ومنها طبعة الهيئة العامة المصرية كذلك لأكثر من محقق.

وأخبارهم ومواطنهم في العصر الأموي، وكذلك في فقرة اللهو والمجون(١) ، ويضاف إلى ذلك ذكره سيطرة معاوية على بعض الأراضي التي تم ذكرها في الفصل الرابع، بالإضافة إلى المعلومات عن التدوين في العصر الأموي ومن ذلك ذكره كتاب ليونس الكاتب في الغناء.

- **صحيح بخاري، البخاري، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) (٢)** ولد في بخارى ٠ وهي من أعظم مدن (أوزباكستان) سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م وحفظ الأحاديث منذ صغره وجمعها في كتاب كبير وربما زاد عددها على الآلاف، ولقد تم الارتكاز على بعضها عند ذكر حادثة ما تخص الرسول الكريم في الموضوع المناسب مثل أحاديث عن الغناء والطب النبوي والصحة العامة

كما تم الاعتماد على **المعجم اللغوية** في شرح بعض الكلمات والمصطلحات على المستويات كافة ومن تلك المعاجم:

- **المخصص، ابن سيدة، أبو الحسن علي النحوي الأندلسي (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) (٣)**، ولد في الأندلس وتوفي فيها كان إماما في اللغة وآدابها ، صنف كتابه على أساس المصطلحات وشرحها ، ولقد أفاد البحث في شرح المعاني الخاصة بالغناء والصناعة ومعنى الفقه.

- **لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ/١٣١١م) (٤)**: ولد بمصر أو في طرابلس الغرب سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م وتوفي في مصر وكان أديباً ولغوياً وناثراً ومحدثاً، ويعتبر كتابه لسان العرب موسوعة شاملة يستفيد منها الأديب والمحدث واللغوي وغيره، وهو معجم مطول مرتب على أواخر الكلمات، وعليه تم الاعتماد في شرح بعض الكلمات التي توزعت على مختلف فقرات البحث. ولا بد هنا من التذكير بأن ما تم دراسته من مصادر هي نموذج لكل مؤلف ولم يتم ذكر كل المؤلفات لكل مؤرخ أو مؤلف.

المراجع العربية: وكما تنوّعت المصادر كذلك المراجع جاءت متنوعة وغنية في العناوين والمضمون، فمنها ما تحدّث عن العصر الأموي بشكل عام سياسياً ومنها ما تخلّل مادته السياسية شيء من الحضارة ، بالإضافة إلى التي تحدثت عن أقاليم بحدّ ذاتها أو مدن في العصر الإسلامي وكان الأموي جزءاً منها، والبعض الآخر اختص بجانب أو مجال محدّد، ومن تلك الكتب التي سيتم الحديث عنها بعكس اختصاصات المصادر التي تم الحديث عنها حسب الأقدم، بحيث تكون المراجع حسب الأحدث (إن أمكن معرفة الطبعة) ومن تلك الكتب :

- **الدولة الأموية المفترى عليها، شاهين، حمدي (٥)**: ويتضح من عنوان الكتاب هدف المؤلف منه تيرئة الأمويين مما يصفها تهماً ألصقت بهم، ويستهل كتابه بباب كامل في عدة فصول يوضح فيه أسباب الصورة القائمة عن الأمويين ومسوغاتها ودواعيها، ثم يسرد مواقف الأمويين منذ البعثة مروراً بالخلفاء الراشدين وحتى الفتنة الأولى وما تلاها مظهراً الإيجابية في تلك المواقف من ناحية الأمويين، كما يحاول إبراز صورة مثالية

(١) مجون من مجن إذا كان الشخص قليل الحياء والماجن والماجنة مؤمن لا يبالي بما يصنع ولا بما يقال له ابن منظور، لسان ج ١٣، ص ٤٠٠، و محمد الرازي، مختار الصحاح، ص ٢٦٧.

(٢) البخاري، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) صحيح بخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، ط ١، ٢٠٠١.

(٣) ابن سيدة، أبو الحسن علي النحوي الأندلسي (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) المخصص، تحقيق، خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ .

(٤) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب، دار صادر بيروت، ط ١، د.ت.

(٥) شاهين، حمدي ، الدولة الأموية المفترى عليها، دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١،

للخلفاء الأمويين وولاتهم في كافة المجالات منها التزامهم بالدين الإسلامي وبالشورى ، كما يبزر لهم دواعي الفتنة الأولى ، كما يقدم مسوغات لولاية العهد التي انتهجوها، ولضرب المعارضة أو بالأحرى اضطرارهم لذلك، ويظهر حسن معاملتهم للموالي، كما يُنكر على الخلفاء الأمويين انغماسهم بقضية العصبية القبلية، وأن الأحداث هي التي أثارته، وبراً الأمويين من تذيير الأموال، والتسلط على الأراضي، وذكر بعض ما قام به الأمويون من منجزات حضارية على الصعيد الإداري والعمراني والثقافي.

- **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها، العث ، يوسف (١)**، بحث يوسف العث في كتابه في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لحقبة صدر الإسلام وتحدث عن الفتنة ومقتل الخليفة عثمان بن عفان، والصراع بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان والعوامل التي أدت إلى انتقال الحكم إلى الأمويين، ثم أفرد الحديث عن كل خليفة أموي وصولاً إلى نهاية الدولة الأموية، منتهجاً أسلوب التحليل والتأويل وإبداء الرأي، وأفاد البحث فيما يخص الفتوح في الجبهة الشرقية في عهد معاوية وأمدّه بمعلومات عن ثورة ابن الزبير وقتال الخوارج، وفي قتل الحسين بن علي، وكذلك في صفات الولاة ومنهم زياد بن أبيه وخالد القسري بالإضافة إلى التعرف على صفات الخلفاء، واستفاد منه في مسألة التعريب التي جرت للعملة والدواوين، وفي المجال العلمي أمدّ البحث بمعلومة بناء مرصد على جبل قاسيون في دمشق.

- **الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية الرفاعي ،أنور(٢)**: يتحدث المؤلف في كتابه عن الامتزاج الحاصل بين الحضارة العربية أو الحضارة الإسلامية، أو الحضارة العربية الإسلامية، بطريقة المتسائل عن ماهية هذه الحضارة، فهي إن كانت عربية فلأن العرب حملوا لواءها وأثروا فيها، وإذا كانت إسلامية فهي لروح هذا الدين المسيطر عليها، ويذكر أنها عربية إسلامية لأنها إنتاج العروبة والإسلام، لذلك جاء عنوانه على هذا الشكل من دمج للحضارة العربية الإسلامية. وجاء كتابه غزيراً بالمعلومات قبل الإسلام مروراً بالبعثة والخلافة الراشدة فالأموية والعباسية وأحياناً تطرّق للفاطميين والمماليك، والمهم من هذا الكتاب ما ذكره عن الأمويين وما سبقهم نظراً للصلة الجامعة بينهم، وقد استفاد منه البحث بشكل خاص فيما يخص المرأة ، وفي الأسلحة، والصناعات النسيجية، ومناطق وجود المعادن والصناعات الخاصة بعمامة الناس وصناعة العملة.

- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي إبراهيم ، حسن ، حسن(٣)** جاء هذا الكتاب في أربعة أجزاء والمهم منها هو الجزء الأول الذي تحدث فيه عن العرب قبل الإسلام إلى العصر الأموي كما جاء في عنوان كتابه، واستفاد البحث منه في حديثه عن الخلفاء الأمويين وعن العصبية القبلية، وتحديد معنى الخلافة، وفي المجال الإداري فيما يخص نظام الحكم والقضاء والشرطة، وعن المعارضة، كما أفاد في التعرف على معاملة أهل الذمة وعلى وضع المرأة، ومجالس تسليية الخلفاء، وفي المجال العلمي أفاد في أمر عمر بن عبد العزيز لوالي حمص بتعيين راتباً لعلماء المساجد فيها.

- **خلافة بني أمية، عاقل، نبيه (٤)** : عرض في كتابه تاريخ الدولة الأموية منذ انتقال الحكم إلى بني أمية

(١) العث ، يوسف ،الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها، دار الفكر،دمشق،ط٢، ١٩٩٨

(٢) الرفاعي ،أنور، الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر دمشق، ١٩٩٧.

(٣) إبراهيم، حسن، حسن ،تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل بيروت ،دار النهضة المصرية، القاهرة، ط١٤، ١٩٩٦

(٤) عاقل، نبيه ،خلافة بني أمية ، جامعة دمشق، ١٩٧٣

حتى نهاية دولتهم، وهذا العرض كان وفق عصور خلفائها، متطرقاً لسياستهم ومنجزاتهم والتنظيم المالي والإداري والفتوح والحركات المعارضة، وجاء اهتمامه بالأحداث الهامة في دراسة علمية شاملة قامت على التحليل والاستنتاج وعرض الروايات فيما يخص بعض الأمور الشائكة، مبدياً رأيه في الأمر، وتفنيد التهم والوصول إلى أقرب الحقائق والمفاهيم، وأفاد البحث في مجال الفتوحات الشرقية والغربية والأندلس وكذلك في موضوع العصبية القبلية، وفي حروب الخوارج والأحداث التي تلت تولي يزيد بن معاوية للحكم ومسألة نقل مروان بن محمد العاصمة من دمشق إلى حران (وهي الآن قرية مهملة تقع على الحدود السورية التركية على ضفة نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات) .

- **تاريخ الدولة العربية، سالم، السيد عبد العزيز (١) :** وأفرد الجزء الثاني منه للحديث عن الدولة العربية قبل الإسلام وحتى نهاية الدولة الأموية، وأفاد البحث في الحديث عن معاوية بن أبي سفيان وسياسته ابتداءً من وصوله إلى الحكم وخروجه عن تقاليد الخلافة والشورى مروراً بجهوده لتأسيس الدولة ثم الفتوحات في العصر الأموي شرقاً وغرباً، وتطرق إلى الحضارة في هذا العصر ونظمها الإدارية من قضاء ودواوين وسكة وطرار بالإضافة إلى الحياة الفكرية والعمران.

واختصت بعض المراجع العربية في دراسة إقليم بحد ذاته أو مدينة، وتفيد هذه الدراسات في الإحاطة عن كتب بالإقليم المدروس، إذ تعطي تفاصيل أوفى عنه، وسيتم إيراد بعض الأمثلة منها:

- **فجر الأندلس، مؤنس ، حسين (٢)** يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت تاريخ الأندلس في عصر الولاة، وأحاط المؤلف بكل جوانب حياة الأندلس في هذه الرحلة من سياسة وفتوحات العرب في شمال الأندلس وتحدث عن الولاة وأعمالهم، وعن طبقات المجتمع في الأندلس والصراعات القبلية، والحروب الأهلية بالإضافة إلى الإدارة في هذا الإقليم، وتحدث عن غير المسلمين أيضاً، وأول ما بدأه في هذا الكتاب أحوال الأندلس قبل الفتح العربي، بالإضافة إلى تطرقه لفتح المغرب العربي، واتصف أسلوبه بالتحليل والاستنتاج وتفنيد الروايات ونقدها.

- **مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، كاشف، سيدة اسماعيل (٣) :** ألمّ هذا الكتاب بكل جوانب مصر السياسية والإدارية والدينية والاقتصادية والعلمية، وأفاد البحث منه في الجانب الذي تحدثت عن العصر الأموي، وأفاد البحث في التعرف على ولاية مصر وخاصة قرّة بن شريك ٩٠-٩٦هـ/٧٠٨-٧١٤، وعلى الخراج في مصر في هذا العصر، وأمور الزراعة والري والمحاصيل الزراعية، وصناعة السفن، والصناعات الأخرى كالنسيجية مثلاً، بالإضافة إلى قطاع التجارة، والقطائع في مصر الخاصة بالأمويين.

- **الشام في صدر الإسلام، خمّاش، نجدة (٤):** لقد أفردت المؤلفة في هذا الكتاب لأهل الشام جزءاً لا بأس به من الحديث، قبل الفتح العربي ودورهم في الفتوح وفي دعم الأمويين والوقوف إلى جانبهم، وذكرت التنظيمات الإدارية والمالية والعسكرية في الشام في العصر الأموي.

وإذا كانت دراسة الإقليم أو المنطقة تعطي تفاصيلاً أكثر من الدراسة العامة فيما يخص الإقليم المذكور، فإن --

(١) سالم، السيد عبد العزيز ، تاريخ الدولة العربية ،مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ج٢، د.ت.

(٢) مؤنس، حسين ،فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، ط١، ٢٠٠٢ .

(٣) كاشف، سيدة اسماعيل ،مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

(٤) خمّاش، نجدة ، الشام في صدر الإسلام ،دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧ .

دراسة المدينة تعطي التفصيل الأكثر عنها وأكثر شمولية ومنها :

- **القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، زيتون، محمد (١):** لقد خصص المؤلف هذا الكتاب عن القيروان من التأسيس إلى انتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م وذكر في مقدمة كتابه أن السبب في تأليف هذا الكتاب هو التركيز على الحالة العلمية للقيروان وخلال ذلك تطرق إلى الجوانب السياسية والعمرائية والاقتصادية والاجتماعية، إذ يذكر أن الغرض من هذا العرض تسليط الضوء على حياة القيروان العلمية والفكرية، فأفاد البحث في حديثه عن الصناعة والتجارة والأسواق، وفي أبنية القيروان المدنية مثل دار الإمارة أو الدينية كالمساجد، بالإضافة إلى حديثه عن حفر الأنهار في المدينة.

وكثير من المراجع تناول اختصاصات معينة أو مجالات بحد ذاتها، كالسياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية والفكرية والعسكرية والعمرائية، وفيما يلي سيتم استعراض نموذجاً عن كل اختصاص منها حسب التنسيق الذي أدرج آنفاً:

- **ملاحح التيارات السياسية في القرن الهجري الأول، بيضون، إبراهيم (٢)** ناقش المؤلف في كتابه المعطيات السياسية للدولة العربية من عصر الراشدين حتى نهاية الدولة الأموية في إطار بعيد عن التقليد، إذ تطرق للتداعيات التي تحورت حولها الأحداث السياسية وبالتالي الصراع الذي انبثق بين الإمام علي ومعاوية وانعكاساته السياسية، وبالتالي ظهور الانعطاف الذي أثر على هيكلية الدولة العربية الإسلامية فيما بعد في إدارتها وقضية ولاية العهد، والحركات التي انبثقت عن الأحداث في المشرق والمغرب وفي الأندلس، وتغلغل السياسة في مصطلح الفتوح والإدارة والثورات،

- **التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين) ماجد، عبد المنعم (٣)** لقد خصص جزأه الثاني عن الأمويين بعد الجزء الأول الذي تحدث به عن الراشدين، وبدأ حديثه عن معاوية مؤسس الدولة الأموية وتطرق إلى حصار القسطنطينية وفتوح أفريقية وتوريث ابنه يزيد، وثورة ابن الزبير، وما جرى بعدها من حروب أهلية، وعصبية قبلية، وحركة المختار الثقفي، بالإضافة إلى حروب الخوارج، وذكر التعريب، وحروب البيزنطيين، والأبنية العمرانية، وذكر الفتوح في الشرق والغرب، وحصار القسطنطينية الثاني، كما ذكر إجراءات عمر بن عبد العزيز، ثم تحدث عن تفاقم الخطر الخارجي وسقوط الدولة، واستفاد البحث في كثير من النقاط مما ذكره هذا الكتاب.

- **الخراج والنظم الإسلامية للدولة الأموية، الرئيس، محمد ضياء الدين (٤) :** لقد قصد الرئيس في كتابه دراسة الوضع المالي للدولة العربية حتى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، واتبع فيه أسلوب الاستقراء والاستنتاج والتدقيق للوصول إلى أقرب الوقائع، ولقد درس النظام المالي للدولتين الفارسية والبيزنطية باعتبار أنهما كانتا مسيطرتين على المناطق التي فتحها العرب، لأنه كان لابد من مراعاة الأنظمة السائدة من أجل معرفة الأنظمة اللاحقة، ثم درس النظام المالي في عصر الرسول والخلفاء الراشدين باعتباره المرتكز للأنظمة فيما بعد، وطبعاً النظام المالي يشمل الخراج والجزية والغنيمة والعشور والعشر، ولابد من الحديث عن ثروة الدولة ودخلها، والأمر نفسه كان بالنسبة للدولتين الأموية والعباسية.

-
- (١) زيتون، محمد، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.
- (٢) بيضون، إبراهيم، ملاحح التيارات السياسية في القرن الهجري الأول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩.
- (٣) ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين) ج٢، ط٣، ١٩٦٦..
- (٤) الرئيس، محمد ضياء الدين، الخراج والنظم الإسلامية للدولة الأموية، دار التراث، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥.

التطرق لعطاء جند الشام ، والضرائب في مصر والشام والعراق وخراسان، وكذلك في الأسلوب المالي للولاة، وفي سياسة التبذير، واستصلاح أراضي العراق، وإصلاح العملة.

والمهم هو حديثه عن النظام المالي للدولة الأموية، والذي لاقى عناية دقيقة من المؤلف إذ درس التنظيم في عهد كل خليفة على حدا، والإجراءات التي اتخذها كل خليفة متطرقاً إلى كل ما يخص التنظيم المالي كالقوائم والدواوين الخاصة بالمال، وإصلاح العملة وتعريب الدواوين، بالإضافة إلى ذكره العناية بالزراعة والنفقات والثروات، والتطرق لإصلاحات عمر بن عبد العزيز في الشأن المالي، ثم ذكر توضيحاً للمقاييس والأوزان التي كانت متبعة في ذلك العصر لضرورة فهم المصطلحات الاقتصادية. ولقد أفاد البحث في نقاط عدة منها

- **المجتمع في العصر الأموي، العظم، أسيمة (١):** حاولت المؤلفة في هذا الكتاب الإمام بالمظاهر الاجتماعية كافة بذكرها للعائلة قبل الإسلام وفي العصر الراشدي والأموي، ثم قسمت المجتمع حسب طبقاته وتحدثت عن مظاهر الرفاهية التي أتضح في العصر الأموي نتيجة لعدة معطيات منها المال والشباب... فتحدثت عن انتشار الغناء وأسبابه ومظاهره وموقف الخاصة والعامة منه، وتحدثت بإسهاب عن اللهو والملاهي ودواعيه ومعطياته وانتشاره وأسباب ذلك، وكذلك تحدثت عن الشرب والجواري، كما أفردت للمرأة العربية مكاناً في كتابها تحدثت فيه عن مكانتها وحضورها، ولم يغب العمران عن كتابها كونه يمثل صورة من صور المجتمع.

- **الإسلام وأهل الذمة، الخربوطلي، علي حسني (٢):** وتحدثت فيه عن أحكام أهل الذمة وأحوالهم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية من البعثة إلى العصر العثماني، وأفاد البحث في الحديث عن الضرائب التي فرضت على أهل الذمة في العصر الأموي، والفائدة الأكبر كانت فيما يخص معاملتهم في العصر الأموي إذ شغلوا المناصب الإدارية وكما أعطيت لهم الحرية في ممارسة معتقداتهم الدينية والحصول على حق المواطنة.

- **فجر الإسلام، يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، أمين، أحمد (٣):** لقد ألف أحمد أمين كتابه ليتحدث عن الحياة العقلية عند العرب في القرن الهجري الأول/ السابع الميلادي، بكل نواحيها الدينية والأدبية، متطرقاً إلى الفرق الدينية كالخوارج والشيعية والمرجئة والقدرية والمعتزلة معتبراً إياها من الفرق الدينية أو على الأقل ذات منشأ ديني، لكنه يذكر أن ما وصل إليه العرب من تلك العلوم هو نتاج فارسي ورومي أو على الأقل له تأثيره الأكبر فيه، على الرغم من أنه يذكر أثر الاختلاط في ذلك، ومع ذلك فكتابه جاء غنياً بالمعلومات مفصلاً بالمعطيات، واستفاد البحث منه في عدة نقاط منها ما يخص الموالي، واحتراف أهل العراق للزراعة، أما الفائدة الأكبر فقد كانت في الناحية العلمية، في حديثه عن القدرية والمرجئة والمعتزلة، وكذلك في شأن النحو واللغة العربية، وفي القصص وتوظيفها السياسي.

- **الجندي في عهد الدولة الأموية، الدقوقي، وفيق (٤):** تحدثت في هذا الكتاب عن الجهاد ومفهومه، وعن الفتوح العربية ومداهما وذلك باعتبار الجيش هو مادة هذه الفتوحات، فهو الذي خاض الحروب البرية والبحرية، -

(١) العظم، أسيمة، المجتمع في العصر الأموي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

(٢) الخربوطلي، علي حسني، الإسلام وأهل الذمة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩.

(٣) أمين، أحمد، فجر الإسلام، يبحث في الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩.

(٤) الدقوقي، وفيق، الجندي في عهد الدولة الأموية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

فأفرَد له الحديث عن تنظيماته وأقسامه، وتحدّث عن التعبئة والتجنيد وعن قياداته، ورواتبه ، وأسلحته بأنواعها البرية والبحرية. وأفاد البحث في الحديث عن الاهتمام بالجيش البري والبحري ، وفي الأسلحة المستخدمة سواء أكانت برية أم بحرية، كما أمد البحث بمعلومات عن صناعة الأسلحة، وفي مجال العمران بناء الحصون الدفاعية.

- العمارة في الحضارة الإسلامية، الريحاي، عبد القادر (١): تحدّث عن فنّ العمارة في مختلف المناطق الإسلامية قبل البعثة وبعدها، ومنها حديثه عن العمارة الأموية، فدرس نشأتها والأسس التي قامت عليها، وذكر تجديد المساجد الأولى التي بنيت في العصر الراشدي، ثم تحدّث عن الأبنية الأموية من مساجد كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة في فلسطين، والجامع الأموي في دمشق، وبين العناصر المعمارية في كل بناء كما أنّه ذكر القصور الأموية وأمكنتها ومن بناها ومواصفات كلّ قصر، وأفاد البحث في كلّ ما ذكره عن العمارة الأموية. تلك كانت بعض المراجع العربية المعتمدة في البحث أما بالنسبة للمراجع المعربة والتي أضافت مزيداً من الإيضاح باعتبارها لمؤلفين ليسوا عرب مع الأخذ بعين الاعتبار التدقيق فيما يكتبونه والموضوعية والحياد فيما يطرحونه فالمستشرق هو ابن بيئته وينطق بلسان حالها، وهو إن لم يكن من المتعمقين في دراسة التاريخ العربي الإسلامي، فإنه سيقع في الخطأ عن قصد أو عن غير قصد، وهذه الصفة يجب تطبيقها على كل من يكتب في التاريخ ومن تلك المراجع:

- الدولة العربية وسقوطها، ولهاوزن، يوليوس (٢): ويعتبر كتابه مرجعاً مهماً لكل باحث، لأن كاتبه عمل ما بوسعه لتكون مادته عادلة لا تميل إلى فئة دون أخرى، فجاء طرحه للكتاب بموضوعية وبدقة وتحليل، لقد قسم كتابه إلى أقسام أساسية تحدث فيها عن تكون الدولة من البعثة وتطرق إلى الفتنة الأولى وما جرى من صراعات ثم تحدّث عن السفينيين الأوائل وحكمهم، ثم قسم المروانيين إلى قسمين أوائل وأواخر، وتحدث عن حكم كل خليفة منهم لكنه أفرد لعمر بن عبد العزيز فصلاً تحدث فيه عن إجراءاته المالية وما يخص الموالي في ذلك وتحدث عن مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة، وأفرد للقبائل العربية في خراسان فصلاً باعتبارهم المادة التي انطلق منها العباسيون للإطاحة بالحكم الأموي ، وتحدث في النهاية عن سقوط الدولة العربية، وبين المؤلف الألماني أن هذه الدولة سقطت بسبب الصراع بين العرب، وكيف استطاع الأعاجم تأليب الشعوب على بني أمية بحجة ابتعادهم عن العدل ، ثم ركب العباسيون هذه الموجة وشقوا صفوف العرب وجذبوا قسماً منهم وأسقطوا الدولة، وهذا الكتاب شمل العصر الأموي ككل من المنشأ إلى الأفول، ولذلك زود البحث في كثير من القضايا السياسية كتعامل الأمويين مع المعارضة، ونقل العاصمة إلى حران، والإدارية في مسألة التعريب، والاجتماعية في معاملة الأمويين لأهل الذمة والموالي، وفي صفات الخلفاء وبعض ولاتهم السلبية والإيجابية، وفي العصبية القبلية والثورات والحروب، والتي اعتبرها المحرك الأبرز للأحداث، وكذلك فيما يخص الخراج والجزية إلا أنه اعتبر أن الضريبتين هما ضريبة واحدة.

- القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط (١٠٦٠-٥٠٠م) أرشيبالد، لويس ر. لويس (٣) يتميّر هذا المرجع في دراسته للقوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط بأنه يجمع بين القوتين في وقت واحد، وتشمل هذه الدراسة المدة الممتدة من عام ٥٠٠م إلى عام (١١٠٠م/٤٩٤هـ) والمهم هنا هي الحقبة التي تحدث فيها عن الأمويين، إذ ذكر نهضة العرب البحرية في العصر الأموي، و بدأت باهتمام معاوية الذي كان والياً على الشام،

(١) الريحاي، عبد القادر ، العمارة في الحضارة الإسلامية، مركز النشر العلمي، جامعة الملك سعود، الرياض، د.ت.٠
(٢) ولهاوزن، يوليوس، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العشي، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٦
(٣) أرشيبالد، لويس ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط (١٠٦٠-٥٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.٠

واهتمام الأمويين بصناعة السفن بإنشاء مصانع لها، في الشام ومصر والمغرب، وما أحرزته هذه السفن من دور بحري وتجاري، حيث استطاعت القوة البحرية العربية تهديد القسطنطينية أكثر من مرة، كما أنها فتحت العديد من الجزر المتوسطية وساهمت في فتح الأندلس، كما أفاد في ذكره لتعريب النقود الانعكاسات التي أثرها هذا الإجراء على التجارة البيزنطية، بالإضافة إلى الحديث عن المدن والطرق التجارية، كما ذكر الهجمات البيزنطية على سواحل المتوسط العربية.

- **الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، توماس، و (١):** يعتبر هذا الكتاب مستودعاً وصورة للحقائق التي تتعلق بموضوعه، فهو ينتقل من بلاد العرب إلى آسيا الغربية والوسطى وإسبانيا وفارس والهند والصين وغيرها من البلاد التي حلّ بها العرب والمسلمون، وعلى امتداد التاريخ بدءاً من البعثة النبوية وحتى العصر الحديث، ولقد اتبع المؤلف المنهج العلمي في كتابته، وأقام الحجة على من ادعى الجور والتعصب لدى العرب، واعتمد البحث على هذا الكتاب في الحديث عن تسامح العرب ومعاملتهم لأهل الذمة.

- **تاريخ التراث العربي، سيزكين، فؤاد (٢):** يعد هذا الكتاب إنشاءً عمل على نحو جديد بما يمثله من سجلٍ للثقافة العربية الإسلامية، إذ يضم علامها ومؤلفاتهم، ويُعدُّ ديواناً للعلوم والمعارف، فهو يسجل نشأتها ومراحل تدوينها وتطورها، وينير قضاياها ويناقش ما دار في فلك تاريخها، ولقد احتوى على المدونات في كافة المجالات الدينية والأدبية، و أفاد البحث من غزارة محتوياته، فيما يخص المدونات التي دونت في العصر الأموي.

- **مذاهب التفسير الإسلامي، جولدتسهر، اجنتس (٣):** يعد كتابه عملاً مبتكراً من حيث المنهج وأسلوب البحث طريفاً في عرض مناحي الدراسات القرآنية وتاريخ الثقافات الإسلامية، في جانب من أهم جوانبها، فقد فتح من هذه الوجهة ميادين جديدة للنظر العلمي ورسم نماذجاً ومُثلاً من مذاهب التفسير الإسلامي لا يستغني الباحث العربي عن ترسمها واحتذائها في بحوثه ودراساته الدينية وغيرها، وأن لم يستقص بيان مذاهب التفسير كلها من تشريعية وفقهية ولغوية وغير ذلك، وإن أخذ عليه بعض النزعات الدينية، لكن هذا لا يقلل من أهمية كتابه الذي قدم معلومات عن علم القراءات وعلم التفسير.

- **الآثار الإسلامية الأولى، كريزويل، ك، (٤):** تحدث كريزويل في كتابه عن الآثار العربية التي وصفها بالرائعة والتي من خلالها يُشهد للأمويين بالفضل فيها، لكنه اعتبر أنه قبل الأمويين كان لدى العرب فراغ عمراني، وإن الحافظ الذي جعلهم يهتمون بالبناء هو سياسي، ويفصل كريزويل في حديثه عن الأبنية في العصر الأموي ويستنتج فرضيات قد بصيب بها وقد يخطئ ومن إصاباته أنه أكد بأن الجامع الأموي بدمشق بني بعد هدم الكنيسة وليس استكمالاً لبنائها ويبرهن على ذلك بالأدلة العمرانية والتاريخية، ويخطئ عندما يذكر أن المسجد الأقصى بني قبل القرن الأول للميلاد، ومهما يكن فقد أفاد البحث في ذكر تجديد المساجد الأولى في الإسلام على يد الأمويين، وبناء قبة الصخرة بفلسطين والجامع الأموي بدمشق، وفي بناء بعض القصور. أما ما يخص الكتب الأجنبية فقد تم الاعتماد على عدد لا بأس به من المراجع المتنوعة في طروحاتها

(١) أرنولد، توماس، و، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١.

(٢) سيزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، مراجعة عرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم، جامعة الأمير محمد بن سعود، الرياض، ١٩٩١.

(٣) اجنتس جولدتسهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة المثني، بغداد، ١٩٥٥

(٤) كريزويل، كيبيل، أرشيلد، الآثار الإسلامية الأولى، نقله إلى العربية عبد الهادي عبله، دار قتيبة دمشق،

ومنها: -Johnson, A ,and West, L ,Byzantine Egypt ; Economic studies (1);

تحدث عن اقتصاد مصر أيام البيزنطيين من ضرائب مختلفة وزراعة بمختلف أصنافها وتطرق إلى الحرف والصناعات بأنواعها وكذلك التجارة الداخلية والخارجية واستفاد البحث منه فيما يخص المعلومات الاقتصادية قبل الفتح العربي لمصر وتوظيف تلك المعلومات في فصل الاقتصاد

- Hell, Joseph ,The Arab civilization (2) :

بحث هذا الكتاب في الحضارة العربية من أدب بأصنافه كالشعر والخطابة وكذلك علم الكلام والعلوم التطبيقية كالكيمياء وغير ذلك ووظفت المعلومات في الفصل الخامس فيما يخص المجال العلمي.

Farmer, H, History of The Arabian Music(3) :

تحدث عن تاريخ الموسيقى العربية وعن الغناء عند العرب وأشكاله وأدواته واستفاد البحث منه في التحدث عن الغناء والمغنين في العصر الأموي.

كما تم الاعتماد على بعض الدوريات ومنها الموسوعات ومنها المجالات ذات الصلة ومن أمثلة ذلك:

-جودة ،جمال ، القصص في صدر الإسلام بين الواقع التاريخي والنظرة الفقهية(؛)، مجلة دراسات تاريخية، عدد ٣٣-٣٤-أيلول -كانون الأول سنة ١٩٨٣م، والذي أفاد البحث في معرفة عدم قدرة الأمويين على الفصل بين الاهتمام بالسياسة والاهتمام بالعلوم.

هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب والمقالات التي أفادت البحث والتي لا يمكن عرضها هنا، لكن في نهاية البحث هناك قائمة بالمصادر والمراجع والأبحاث التي تم الاعتماد عليها في هذا البحث.

Johnson ,A,and L ,West , Byzantine Egypt ; Economic studies (١)
Princeton, 1949,

- Hell , Joseph ,The Arab civilization ,United publishers VII 1973 , (٢)

- Farmer , H , History of The Arabian Music, London, 1929 (٣)

(٤) جودة ،جمال ، القصص في صدر الإسلام بين الواقع التاريخي والنظرة الفقهية، مجلة دراسات تاريخية، عدد ٣٣-٣٤-أيلول - كانون الأول سنة ١٩٨٣م.

تمهيد :

انتقال السلطة إلى الأمويين :

تعد خلافة عثمان بن عفان واحدة من أخطر المراحل في تاريخ العرب والإسلام، حيث طغت نتائجها السلبية على الأمة، فلقد رأى القوم بشخصية عثمان، المختلطة المشاعر، والمنتمة إلى الأمويين، مدخلاً لتحقيق رغباتهم في السلطة والثراء، إذ كان وصول عثمان للحكم يعني فوزاً لما يمكن تسميته بالتيار التقليدي الأرستقراطي، الذي استطاع التسلل إلى السلطة من خلال رجاله، حيث كُشف الفتن عن جماعة هذا التيار، هذه الجماعة الموالية لمصالحها وكان عثمان مع هذه الجماعة، وهو الأقرب إلى مصالح أسرته الأموية ذات الشهرة العريقة في عالم التجارة، قبل أن تلحق بالإسلام. وحالت شيخوخة عثمان الثقيلة دون التصدي لأولئك الذين تهادوا في استغلال السلطة (١)، إذ وجدوا فيها نوعاً من الإرث الخاص، أو بديلاً لإحدى وظائف الكعبة في مكة القديمة ولا بد هنا من القول بأن سلوك الولاة أو تلك الجماعة هي التي أساءت للخليفة عثمان .

واعتماد عثمان على عائلته كان كبيراً، كولاة على البلدان الهامة في الدولة، أو كمستشارين (٢) وكان معاوية ابن أبي سفيان الأعظم حظاً في أيام عثمان، وربما هيأت تصرفات عثمان لمعاوية الأرضية المناسبة لتحقيق ما يصبو إليه من نقل للخلافة إلى آل أبي سفيان، وتثبيتها في بني أمية، فعثمان هو الذي وسع لمعاوية في الولاية، فجمع له الشام والجزيرة وثورها (٣) ثم مد له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، بل إنه أطلق يده في أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر، حيث أصبح معاوية يتمتع بصلاحيات واسعة جداً، إذ غدا والياً على الصلاة والحرب والخراج، وبما أن الإدارة المالية جمعت له أيضاً فقد أصبح مطلق التصرف في ولايته، وكان تعيين الولاة على الأجناد عائداً إليه (٤) وكان هؤلاء الولاة بدورهم مسؤولين أمامه.

وظهرت في السنوات الأخيرة من عهد عثمان بن عفان احتجاجات كثيرة على سياسة الدولة من قبل الكثيرين ويبدو أنه كانت هناك يد خفية استغلت تلك الأمور لتزيدها تفاقماً، وطالب البعض بخلعه، ورفض هو محتجاً على ذلك ومبرراً لتلك الأمور لكن الخلاف أدى إلى تلك النهاية الدامية التي انتهت بمقتله، والتي نقلت الصراع حول الخلافة من نطاق الخاصة إلى نطاق العامة، ومن رحاب العاصمة ليعم جميع الأصقاع والأطراف، ومن الصراع بالوسائل السلمية إلى الاستعانة بالقتال والحروب. ولكن قتل الخليفة لم يحقق هدف الساخطين على سياسته، بل أوصل الدولة كلها إلى مفترقٍ خطير .

ولم يكن بالإمكان في خضم هذا الفراغ السياسي الذي أحدثه مقتل الخليفة إلا التوجه نحو شخص علي بن أبي طالب، الذي كان أحد القلائل من سياسيين الصف الأول، خارج نطاق الاتهام والشك بسلوكه، وبغض النظر عن

(١) ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني (١٢٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٥، ج٢، ص٤١. وبيوضون، إبراهيم، ملامح التيارات السياسية في القرن الهجري الأول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩، ص١١٥.

(٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تدقيق يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ج٢، ص٤٨٤.

(٣) ابن سعد، محمد بن منيع أبو عبد الله البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) الطبقات، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٧، ص٤٠٦، و البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢، ص١٨٢. و الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك ندار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٨٦، ج٢، ص٦١٨-٦١٩.

(٤) خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧، ص٢٣٣.

الملاح السياسية لخلافة الإمام علي بن أبي طالب، ومواقف معارضية من حكمه، فإن أول حركات المعارضة المسلحة رفعت شعاراً لا ينسجم مع الموقف المعروف لزعمائها (١) وهو محاكمة المسؤولين عن مقتل عثمان (٢) وبهذا انقسمت موازين القوى إلى عدة فئات، حيث كان جيش الخلافة من جهة، وجيش المعارضة المطالبة بدم عثمان من جهة، وفئة ثالثة ابتعدت عن هذا الصراع. واستطاع الإمام علي التغلب على مناوئيه في معركة الجمل في سنة (٦٥٦/٥٣٦م) التي أسفرت عن مقتل زعيم الحركة طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، واعتزال عائشة لتلك الحرب (٣)، ولقد كانت هذه المعركة فاتحة الصراع الدموي بين الإمام علي ومعاوية، حيث انتقل علي إلى الكوفة، التي اتخذها مركزاً لخلافته إذ أصبحت في مواجهة الشام التي أعطاها نفوذها قوة عسكرية، وظفها معاوية في سياسته الداخلية في صراعه من أجل السلطة، ولقد رأى معاوية الفرصة سانحة لإثارة قضية الاقتصاد من قتلة عثمان، وكان لا بد من المجابهة بين الإمام علي ومعاوية الذي أعلن تمرده بالشام على الخليفة، فجرت بينهما مراسلات طويلة بشأن الخلافة وأحقية كل منهما في قيادة الدولة العربية الإسلامية (٤)؛ ولم تثمر المراسلات إلا معارك طاحنة في صيفين (٥) رجحت فيها كفة جيش الإمام علي، لولا فكرة التحكيم التي لجأ إليها معاوية باقتراح من حليفه عمرو بن العاص (٦) وكان من نتائج هذه الفكرة انقسام جيش علي إلى أكثر من رأي، إذ رغب بعض أهل العراق الاستجابة إلى التحكيم الذي رأى فيه الإمام علي مناورة لخدمة الجبهة الشامية، لكن الجدل تطور بين أتباع علي حول التحكيم إلى الاقتتال ولوم بعضهم بعضاً، ولوم علي لقبوله به على الرغم من أن الإمام علي لم يوقف القتال إلا مضطراً، وتحت ضغط رجاله، وأمر الإمام علي جيشه بالمسير إلى الكوفة، كما سار جيش معاوية إلى الشام، وفي الكوفة خرج اثنا عشر ألف رجل من جيش الإمام علي وطلبوا منه أن يبادر إلى الرجوع عن الخطوة التي كانوا هم أنفسهم أجبروه على اتخاذها، وأن ينقض المعاهدة التي أبرمها مع أهل الشام، فلما لم يكن قادراً على ذلك خرجوا عليه ونزلوا معسكراً خاصاً بهم في حروراء (٧) فسموا بالحرورية، أما الاسم الشامل والذي أطلق عليهم فهو الخوارج (٨).

مهما يكن من أمر خدعة التحكيم (٩) فقد أدت إلى تثبيت معاوية وإقصاء علي، الذي شعر بالخطر فقرر استئناف القتال فجمع جيشه ودعا الخوارج الذين كانوا قد تجمعوا في النهروان، للانضمام إليه لكنهم رفضوا، وقاموا

(١) لم تكن عائشة بنت أبي بكر وزوج الرسول من مؤيدي عثمان، الذي أثار سخطها قبل مصرعه، لكنها كانت ضد علي بكل الأشكال، ابن سعد، الطبقات، ح ٥٥، ص ٣٧، كما لم يكن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ضد علي حيث بايعاه بالخلافة، الضبي، سيف بن عمر الأسدي (ت ٨١٥/٥٢٠م) الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط ١، ص ١٩٧، ص ٩٤، والطبري، ج ٢، ص ٦٩٧.

(٢) الضبي، الفتنة، ص ٩٧، والطبري، تاريخ ج ٣، ص ٧.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن اسحاق أبي يعقوب بن جعفر العباسي (ت ٢٩٢/٥٩٠م) تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ١٥٣.

(٤) الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢/٥٨٩م)، الأخبار الطوال، تصحيح فلاديمير جرجاس، ط ١، ليدن، ١٨٨٨، ص ١٩٦.

(٥) صفيين هي قرية صغيرة من خراب بناء الروم وهي قريبة من نهر الفرات، وهي اليوم بالقرب من الرقة على شاطئ الفرات بين الرقة وبالس (مسكنة) وهو سهل واسع يبلغ طوله خمسين كم يمر في وسطه الطريق العام بين حلب ودير الزور.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٧) حروراء: قرية من قرى الكوفة على بعد ميلين منها، ياقوت الحموي، بن عبد الله (ت ٦٣٦/١٢٣٨م) معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٨) الفيومي، محمد ابراهيم، الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، دار الشروق، القاهرة، ص ٥٦، وأكرم ضياء العمري، مكتبة

العبيكان، المدينة المنورة ص ٤٧٣، والهاشمي، عبد المنعم، الخلافة الراشدة، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٣٧٠.

(٩) من أجل التحكيم انظر، الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٠٧ وما بعد، والمسعودي، مروج، ج ٢، ص ٥٢٦ والطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١١١ وما بعدها وحسين، طه، الفتنة الكبرى (علي وبنوه) دار المعارف، القاهرة، ط ١٣، ص ٩٨-١٠٢.

بأعمال مؤذية(١) مما أدى إلى استياء أتباع الإمام علي منهم، فألحوا عليه بضرورة محاربتهم، وكانت هذه الخلافات، سواء في جيش الإمام علي، أو بين الإمام علي ومعاوية، قد أدت إلى إضعاف مركز الإمام علي، حيث لم يكد ينتهي من حربه مع الخوارج في النهروان سنة(٣٧/٥٣٧م)حتى خالفه قوم كثير وانتفضت عليه أطراف دولته(٢) وإذا كانت معركة صفين والتحكيم قد أضعفا مركز الإمام علي، فإنهما زادا مركز معاوية قوة، فبعد انصراف أهل الشام من صفين، وكانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان، بايعوا معاوية بالخلافة، بينما اختلف الناس في العراق على الإمام علي(٣) وأصبح هم معاوية الأول هو مصر، لأنه كان يدرك أن سيطرته على مصر تعني انتصاره على الإمام علي، لأهمية موقعها ولعظمة ثروتها، وفي سنة(٣٨/٥٣٨م) استطاع عمرو ابن العاص ضم مصر لمعاوية، حيث قوي مركزه(٤) ، ولم يلبث أن سيطر معاوية على الحجاز واليمن بفضل بسر بن أرطاة(٥) .

وفي سنة(٤٠/٥٦٠م) قُتل الإمام علي يد الخوارج، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة بعد توليته إياها من قبل العراقيين وهناك عدة روايات تذكر أسباب هذا التنازل وأغلبها يتفق على الخلل الذي أصاب جيش العراق الذي كان قد جُهِز لمحاربة معاوية وذلك أن بعضهم سمع بالصلح بين معاوية والحسن فانتفضوا على الحسن قبل التأكد من الخبر، أو أن البعض منهم نادى بموت قيس بن سعد بن عبادة قائد جيش الحسن فدبت الفوضى في الجيش وأسأوا للحسن نفسه بل إنه تعرض للطعن من قبلهم الأمر الذي شجعه على الصلح مع معاوية، أي عدم اطمئنانه للعراقيين بالإضافة إلى رغبته في حقن دماء المسلمين(٦) لكن الحسن اشترط على معاوية في جملة شروطه اتباع سنة الرسول والخلفاء الراشدين والحصول على خراج الكوفة الذي اعتبره حق لآل طالب وكذلك الامتناع عن شتم علي بالإضافة إلى شرط غير واضح وهو عودة الخلافة للحسن بعد معاوية وربما كان هذا الشرط وراء مقتل الحسن بالسّم بتدبير من معاوية أو ربما بدون هذا الشرط خطط معاوية لهذا السم مخافة أن تعود الخلافة إلى الحسن أو أن تكون شورى بين المسلمين ، وبانتقال الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان في عام(٤١/٥٦١م) وهو العام الذي تعارف المؤرخون على تسميته بعام الجماعة، لاتفاق كلمة المسلمين بعد نزاع طويل ليبدأ عصر جديد من عصور الحكم في الدولة العربية الإسلامية وهو العصر الأموي.

-
- (١) العمري، أكرم، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٨٥، وبيضون، إبراهيم ، ملامح التيارات السياسية في القرن الهجري الأول، ص١٣٤.
 - (٢) الطبري، تاريخ، ج٣، ص١٥٠، والفيومي، الفرق الإسلامية، ص٦٤.
 - (٣) الطبري، تاريخ، ج٣، ص١١٥.
 - (٤) المصدر السابق، ج٣، ص١٣١، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٢٢٦ .
 - (٥) الطبري، تاريخ، ج٣، ص١٥٣.
 - (٦) الطبري، تاريخ، ج٣، ص١٦٠، ولهاوزن، الدولة العربية، ص٨٧ وما بعدها.

الفصل الأول: مظاهر القوة والضعف في مجال السياسة العامة:

أولاً: مظاهر القوة في مجال السياسة العامة:

- ١- حرص الخلفاء على وحدة الدولة وسلامتها.
- ٢- التزام الولاة بسياسة الدولة وإخلاصهم لها.
- ٣- توسيع رقعة الدولة من خلال الفتوح.
- ٤- اعتماد نظام الرباط والمثاغرة لدفع الخطر البيزنطي.
- ٥- اعتماد سياسة فصل الدين عن السياسة.
- ٦- رفض بعض الخلفاء سياسة العصبية القبلية.

غرس الأمويون في الشام مفهوم السلطة ومؤسسة الحكم فحالفهم النجاح في جوانب ومسهم الخلل في جوانب أخرى، فقد أدركوا أن استمرارية بقائهم مرهونة ببقاء دولتهم قوية عزيزة الجانب، لذلك بادروا إلى إخماد كل تمردٍ أو فتنة مهما كانت دواعيها ودوافعها، وهذا القمع يمكن رؤيته كسلوك ثنائي النظرة من قبل الأمويين ومعارضيتهم: فهو ضرورة ملحة لدى الأمويين لأنه في نظرهم من غير المقبول السكوت عن المتمردين والمعتدين على سلطتهم ونفوذهم، أما بالنسبة للمعارضة فهو قمع للحريات وإسكات أي صوت مخالف للحكام، إذ ما تبرره الدولة لنفسها يغدو انتهاكاً في رأي معارضيها الذين رأوا مسوغاتهم لضرورة الخروج على الدولة، ومهما يكن الأمر فقد بالغ الأمويون في الفتك بمعارضيتهم وبقسوة معاملتهم.

ولقد رأى الأمويون ضرورة توسيع رقعة نفوذهم من خلال الفتوحات طالما أنهم يمتلكون القوة الكافية لذلك، كما تطلب منهم هذا الأمر تحصين حدودهم والقيام بسياسة الهجوم بغرض الدفاع عن حدودهم ضد الأخطار الخارجية والتمثلة بالقوة العظمى آنذاك وهي بيزنطة.

كما أنهم لجأوا من أجل تثبيت سلطانهم في أقاليمهم المتعددة إلى انتقاء ولاية يحكمون باسمهم وهم مؤمنون بسلطة حكامهم وضرورة بسط هذه السلطة في أقاليمهم، ولقد نتج عن هذه السلطة شيء من التسلط من قبل الأمويين الذين أرادوا احتكار الحكم وتفصيل القوانين حسب مقاساتهم مبتعدين بذلك عن الشورى ومبادئ المساواة على الرغم من أنهم حاولوا عدم زج الدين في مفهوم الحكم باعتبار أنهم حكماً زمنيين لا مشرعين، كما حاول البعض منهم تحييد التعصب القبلي، كونه كان الأساس في قضية الانتماء العربي، أو على الأقل إقامة نوع من الاعتدال في التعاطي مع القبلية، لكن البعض الآخر انغمس في هذا التيار ولم يستطع الخروج منه .

وبما أن العاصمة دمشق كانت بمثابة قلب الدولة الأموية والذي منه تخرج شرايين وأوردة الحكم فقد بقيت كذلك إلا أن رؤية البعض من الخلفاء، إن لم يكن أغلبهم، ضرورة الخروج منها، كان له الأثر السلبي على قوة هذا القلب وصحته. كما غاب عن الأمويين ضرورة المد البشري المتناسب طردماً للمساحة الجغرافية التي شغلتها دولتهم.

١- حرص الخلفاء على وحدة الدولة وسلامتها :

أ-توحيد معاوية للدولة :

جاء تأسيس الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٧٩م)متخذاً من دمشق مركزاً رسمياً لها ومقرّاً لرموزها وآلياتها ومؤسساتها، وبذلك برزت الدولة الأموية في بلاد الشام فوق كل الأقاليم التي كانت مرشحة لأن تشغل دور المركز المرجعي للسلطة العربية أي الحجاز والعراق، واستطاع معاوية كأبي مؤسس دولة أن يترك مدرسة كاملة يُحتذى بها(١)، ولقد قيل عن معاوية أنه رجل حلم ودهاء (٢)، وهذان شرطان من شروط السيادة في قبل الإسلام، في مجتمع القبيلة، كما أنهما صفتان موجودتان في شخصية العربي

(١)المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٢٤، وحسين عطوان، الأمويون والخلافة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦، ص٦٥ .

(٢)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٢٦٤، والرازي، محمد بن أبي بكر(ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)، مختار الصحاح تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٥، ص٨٩ . و Sanhoury ,A, Le califat Librairie

Orientaliste ,paris,1926, ,p211

الزعيم ويلتقيان مع الصفح والتسامح عند المقدرة، وكذلك تظهر هاتان الصفتان في السياسي لأن السياسة هي فن المجتمعات سواء كانت في شكل القبيلة أو في شكل الأمة (١) . والدهاء لا يعني المكائد فقط ، بل يحمل معاني الخبرة في ممارسة حساسيات الاجتماع البشري، ولكن هذا لا ينفي عن معاوية اعتماده أسلوب الحيلة في التعامل للوصول إلى هدفه ،وبالحيلة وطد أركان دولته فقد اعتمد على ولاة يقومون بهذه المهمة وهذا يوضح عبقريته وذكاءه ، فقد تمركز بالشام ، والشام تحبه وتحب حكمه ، لذلك أيدته ودافعت عنه وعن مبادئه ،لكن الأمر مختلف في العراق المحبة للإمام علي بن أبي طالب، والتي فيها شيعته بالإضافة إلى وجود الخوارج الحاقدين على بني أمية وعلى الشيعة، وكذلك الحجاز التي كانت مركز الخلفاء الراشدين وبذلك كان لزاماً على معاوية إسكاتهم وبالفعل تم له ذلك ،أما بالنسبة لمصر فقد سلمها لعمر بن العاص مكافأة له بعد التحكيم (٢) .

ولقد اتصف عهد معاوية ،الذي دام عشرين عاماً، بالاستقرار والسلام بصفة عامة حيث جاء بعد فترة شطرت الدولة، ويبدو أن معاوية فكر في ضرورة استمرار الحكم بين الأمويين،لذلك سعى إلى تعيين ولده يزيد خليفة من بعده ،بعد أن ذاق طعم الخلافة ،وبالفعل قام معاوية بدعوة الناس إلى بيعة يزيد ،ولكن هذه الدعوة أدت إلى انقسام الناس بين مؤيد ومعارض ،ويبدو أن هذه البيعة لاقت الاستنكار لكثرة المرشحين للخلافة من الصحابة والتابعين ، ولعدم أهلية يزيد من كل النواحي(٣) وربما قصد معاوية من هذه الدعوة استمرار الخلافة في أسرته، أو إيجاد مخرج لمشكلة الخلافة أو السلطة في الدولة ، والتي لم يوضع لها حكم نهائي(٤) ومهما يكن فإن معاوية استطاع تولية ابنه والذي كان همه بعد أن ارتقى عرش الخلافة أخذ البيعة من الذين رفضوا الاستجابة لمعاوية، وهم الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام ،وعبد الرحمن ابن أبي بكر وعبد الله بن العباس ولقد أوصى يزيد عامله على المدينة أن يأخذ البيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا(٥)فخرج الحسين بن علي بن أبي طالب وابن الزبير إلى مكة ،بينما بايع البقية ليزيد، وتآزم الأمر مع الحسين فكان قتاله ثم قتله ، كما تمرد ابن الزبير في مكة . كان من نتائج تولية يزيد بن معاوية(٦٠-٦٦٤هـ/٦٧٩-٦٨٣)إذاً فرقة الدولة بدلاً من اتّحادها، وهذا يتناقض مع رغبة معاوية إذا كان غرضه وحدة الدولة !

وبعد مقتل الحسين وتمرد ابن الزبير تأزمت الأمور لدرجةٍ بدتْ وكأنَّ الدولة انفكت وكل إقليم من أقاليمها أصبح في اتجاه، فالحجاز وقف إلى جانب ابن الزبير الذي شجع الحسين على الخروج ضد يزيد والذي يبدو أنه خطط لذلك كي يتخلص من منافسة الحسين له ، حيث أقبل الناس يشجعونه ويحثونه على إظهار بيعته بحجة أنه لم يبق أحد إذ مات الذي كان ينازعه هذا الأمر وقد كان ابن الزبير يبايع سراً ويظهر أنه عائدٌ بالبيت(٦)، وتعد أزمة ابن الزبير على درجة عالية من الخطورة لأنها زعزعت كيان الدولة حيث أعلنت الولايات كلها باستثناء سورية مبايعتها له(٧)،كما أنها مثلت إحياء لمشاعر الحجازيين بعودة السلطة والتمركز لهم، بعد نقل معاوية مركز الدولة

(١)العشي، عمار ،تاريخ بلاد الشام في القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري ،دار الينابيع دمشق ،ط١، ٢٠٠٩ ،م،ص٢٥٢

(٢)ابن سعد، الطبقات، ج٤،ص٢٥٨،والدينوري الأخبار الطوال ص٢٣٦

(٣) ماجد ، عبد المنعم ،التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين) ط٣، ١٩٦٦، ج٢، ص٦٣

(٤) المرجع السابق ،ص٦٢

(٥)خليفة بن خياط الليثي العصفري،(ت ٨٥٤هـ/٢٤٠م) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٦، ص٢٣٣.واليعقوبي،تاريخ اليعقوبي،ج٢،ص٢٤١،و الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٢٦٩.

(٦)البلاذري أحمد بن يحيى (ت٨٩٢هـ/٢٧٩م) أنساب الأشراف ،تحقيق سهيل زكار،دار الفكر بيروت،ط١، ١٩٩٦، ج٥، ص٣٢٠ ،و الطبري، تاريخ، ج٣،ص٣٤٧،ابن الأثير، الكامل،ج٣،ص٣٨٠، ومعنى عائد أي عاذ ومعناها لاذ به ولجأ إليه، الرازي، مختار الصحاح، ص١٩٣ .

(٧) شعبان، محمد عبد الحي ،صدر الإسلام والدولة الأموية ،بيروت، ١٩٨٧، ص١٠٤ .

إلى الشام ومحاولته السيطرة على مقدرات الحجاز وخاصة الاقتصادية باستحواذه على الأراضي الخصبة فرأى الحجازيون الفرصة مناسبة لاسترداد مكانة إقليمهم الدينية والسياسية والاقتصادية وهذا ما دعاهم إلى الثورة على الأمويين، فأرسل يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري (١) وحارب أهل المدينة في معركة الحرة (٢) ، ثم دخل المدينة ، ومنها ذهب إلى مكة لكن المنية عاجلته ، فتولى الجيش بعده الحصين بن نمير (٣) الذي حاصر مكة حيث أتاه خبر موت يزيد ابن معاوية ففاوض الحصين بن الزبير وطلب منه السفر معه إلى الشام ومبايعته فيها وبغير ذلك لا يكون ابن الزبير خليفة (٤) ، لكن ابن الزبير رفض الخروج من الحجاز ، وهذا يدل على رغبة الحجازيين في عودة مقر الخلافة إلى الحجاز . وزاد موت يزيد من الأزمة ، خاصة وأنه ولى ابنه معاوية الخلافة وهو صغير السن ، والذي تنازل عن الخلافة مما زاد الأمور سوءاً حتى في بلاد الشام التي لم تكن موحدة الموقف فالقيسيون وقفوا مع ابن الزبير وعلى رأسهم قيس بن الضحاك الفهري والذي على ما يبدو كان يدعو الناس لليباعوه (٥) أما اليمينيون فقد وقفوا مع الأمويين وأرادوا استمرار الخلافة في بيت معاوية حتى لا تخرج الخلافة من الشام (٦) لأنهم أحوال يزيد، وكان على رأس اليمينيين حسان بن بدحل الكلبي سيد قبيلة كلب وعامل معاوية ويزيد على فلسطين (٧) ، وروح بن زنباع سيد بني جذم ونائب حسان على فلسطين ، وعبيد الله بن زياد بن أبيه الذي أخرجه أهل العراق بعد موت يزيد فذهب إلى الشام (٨) ، التي اتفق أهلها على عقد مؤتمر في الجابية (تقع جنوبي دمشق) عام (٦٤٤ هـ / ٦٨٣ م) وخلصوا منه إلى تولية مروان بن الحكم كونه كبير بني أمية ويتولى بعده خالد بن يزيد بن معاوية ثم لعمر بن سعيد بن العاص من بعده (٩) . لكن الخلاف لم ينته فتأججت الصراعات والتي أدت إلى نشوب معركة مرج راهط بين مروان بن الحكم وحلفاؤه اليمينيين وبين القيسييين وانتهت بهزيمة القيسييين بعد موت زعيمهم الضحاك (١٠) في محرم سنة (٦٥٥ هـ / ٦٨٤ م) ، ثم سيطر مروان على الشام ، كما أعاد مصر إليه بمساعدة أتباع الأمويين (١١) وأراد مروان القضاء على حركة ابن الزبير لكن الموت عاجله بعد حكم لم يدم أكثر من عشرة أشهر (١٢) .

ب - جهود عبد الملك بن مروان في إعادة ضم الدولة : استطاع مروان بن الحكم إذاً حل جزء من المشكلة لكن الجزء الأكبر بقي معلقاً لابنه عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ / ٦٨٤-٧٠٥ م) فكيف استطاع عبد الملك توحيد الدولة ؟ وهل كان على قدر هذه المسؤولية؟ نعم لقد أثبت عبد الملك قدرته على ذلك إذ استطاع بقوته توحيد الدولة بعد تفككها ، حيث توجب عليه القضاء على عدة تمردات منها ما دعي بحركة التوابين بقيادة

-
- (١)-مسلم بن عقبة أدرك النبي وشهد صفين مع معاوية ، انظر أحمد بن علي العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد الجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ج ٦ ، ص ٣٩٤ .
- (٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٣ ، ص ٣٥٥ ، و البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٣٣٩ .
- (٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٥١ ، والحصين من أهل حمص خرج مع معاوية في صفين ومات على يد ابراهيم بن الاشر الذي كان يحارب مصعب بن الزبير انظر: ابن حجر ، الإصابة ، ج ٢ ، ص ٩١ .
- (٤) العث ، يوسف ، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩٨ ، ص ١٧٧ .
- (٥) الطبري ج ٣ ، ص ٣٨١ ، و يوسف العث ، ص ١٨٨ .
- (٦) ماجد ، عبد المنعم ، التاريخ السياسي ، ص ٩٧ ، وشعبان ، عبد الحي ، صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص ١٠٥ .
- (٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٤١ ، و البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٦ ، ص ٢٥٩ .
- (٨) ماجد ، عبد المنعم ، التاريخ السياسي ، ص ٩٨ .
- (٩) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .
- (١٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٤٨٠ .
- (١١) البلاذري أنساب الأشراف ، ج ٦ ، ص ٢٨٦ ، و الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ ،
- (١٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ .

سليمان بن صرد الخزاعي(١) وهؤلاء قرروا التوبة والأخذ بثأر الحسين بن علي بعد خذلانهم له (٢)، فقرروا الذهاب إلى دمشق، وتوجهوا إلى قرقيسيا (وهي البصيرة حالياً في سورية وتقع عند التقاء مصب نهر الخابور في نهر الفرات)، والتي اعتصم بها زفر بن الحارث الكلابي زعيم قيس المهزوم في مرج راهط، وعلى الفور استقبلهم زفر وأخبرهم بقدم عبيد الله بن زياد، ونصحهم بالمسير إلى عين الورد (رأس العين) وهناك التقوا مع عبيد الله بن زياد الذي أرسله عبد الملك إلى العراق ووقعت بين الطرفين معركة انتهت بهزيمة التوابين ومقتل زعيمهم سليمان بن صرد (٣) ربما لأنهم أسأوا تقدير قوة خصمهم .

ولقد كانت الثورات والأزمات متشابكة مع بعضها كخيوط العنكبوت، فابن الزبير أيد حركة التوابين لأنها تستنزف من الأمويين طاقة لا بأس بها (٤)، لكنه خشي من حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، والذي كان رجلاً مغامراً يتجه حسب مصالحه ويتلون من أجلها، حيث انضم إلى الشيعة ليؤازر مسلم بن عقيل في الكوفة (٥) وسرعان ما أدار له ظهره عندما رأى بأن الدنيا ليست مقبلة عليه، فأسرع إلى عبد الله بن الزبير يؤيده، وعندما وجد بأنه لن ينتصر تركه واتجه صوب محمد بن الحنفية، وأخذ يدعو باسمه ليطالب بثأر الحسين بن علي، متخذاً منه ستاراً يصل من خلاله إلى مطامعه(٦)، وكان واسع الحيلة بحيث اجتذب الشيعة إلى صفه، و قام بإرسال جيش كبير بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخعي(٧)، لحرب عبيد الله بن زياد في أوائل سنة (٦٧هـ/٦٨٦م) ودارت معركة بين الطرفين عند نهر خازر انتصر فيها ابن الأشتر وقتل ابن زياد والحسين بن نمير، كما تم تتبع قتلة الحسين والتنكيل بهم(٨) .

وفي ذلك الوقت سطع نجم المختار ودانت له الموصل وأرمينيا وأذربيجان، لكن أهل الكوفة سرعان ما انقلبوا عليه لأنه قرب الموالي إلى صفه، وهذا الأمر دعا بالأشراف إلى تركه، وانضموا إلى صف ابن الزبير الذي على ما يبدو وجد المختار منافساً يُخشى خطره(٩)، فأمر أخاه مصعب الذي كان واليه على البصرة بقتاله ودارت بينهما معركة بالقرب من الكوفة انتهت بمقتل المختار. وعلى أثر ذلك أزيل حمل ثقيل عن كاهل عبد الملك بن مروان، والذي شغلته أمور كثيرة منها تمرد عمرو بن سعيد بن العاص الذي أراد تطبيق مقررات مؤتمر الجابية التي نصت على أن يكون الخليفة بعد خالد بن يزيد بن معاوية، لكن مروان بن الحكم عين ابنه عبد الملك متجاهلاً ذلك فتار عمرو وتحصن في دمشق التي تركها عبد الملك لمحاربة مصعب في العراق، وعلى الفور عاد عبد الملك وهادن عمرو ثم قتله (١٠)، وفي هذه الأثناء اضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم

(١) سليمان بن صرد، كان ممن كاتب الحسين لكنه خذله ثم سار للطلب بثأره انظر: أبو نعيم الاصبهاني، أحمد بن عبد الله

(ت ٤٣٠هـ/١٠٥١م)، حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٤، ج ٣، ص ٣٩٥

(٢) عيسى، رياض، الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية رسالة دكتوراه، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٨٤ .

(٣) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١٠٦ .

(٤) العث، تاريخ الدولة الأموية، ص ١٢٤ .

(٥) مسلم بن عقيل بن أبي طالب، تابعي له علم وشجاعة، انتدبه الحسين بن علي لمعرفة رأي أهل الكوفة، وراسل الحسين في ذلك فقتله عبيد الله بن زياد سنة ٦٧٩هـ/٦٧٩م انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢، ج ٧، ص ٢٢٢.

(٦) النجار، محمد الطيب، الدولة الأموية في الشرق، ط ٤، ١٩٩٨، ص ١٠٢

(٧) إبراهيم بن الأشتر: عرف بالشجاعة وله شرف، وهو الذي قتل عبيد الله بن زياد، انظر: ابن كثير الحافظ (ت ٧٧٤هـ

/١٣٧٢م) البداية والنهاية تحقيق أحمد عبد الوهاب فتوح، دار الحديث القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ج ٨، ص ٣٠٨

(٨) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٦٣ .

(٩) النجار، محمد الطيب، الدولة الأموية، ص ١٠٢

(١٠) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٢٣، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٨٥.

نتيجة الأوضاع غير المستقرة في دولته وهنا تتضح حنكة عبد الملك في قدرته على تصنيف الأمور الأكثر أهمية له ورأى عبد الملك ضرورة محاربة التمرد في محله، لذلك أشار على عائلته، أنه يخشى من غزو مصعب للشام وقال لهم: "ما من قوم غزوا في عقر دارهم إلا ذلوا" (١)، وقرر عبد الملك محاربة مصعب فاجتمعت له جميع أجناد الشام (٢)، ويذكر المسعودي أن عبد الملك خرج في جند الشام ومصر (٣)، لكن الكندي لا يشير إلى اشتراك جند الشام إلا في حرب عبد الله بن الزبير (٤)، ورغم هذا الاختلاف إلا أن الملاحظ هو اعتماد عبد الملك بالدرجة الأولى على القوات الشامية، حيث زحف إلى الجزيرة السورية أولاً قاصداً زفر بن الحارث، ففاوضه وعقد معه اتفاقاً، ليحمي ظهره عند محاربة مصعب، الذي قاتله وانتصر عليه في مسكنة سنة (٦٧٢/هـ ٦٩١م). وكانت هزيمة مصعب سياسية أكثر منها حزبية، هذا بالإضافة لبخل أخيه عبد الله على العراقيين الأمر الذي نفّرهم منه وصرّفهم عن تأييده، وعلى إثر ذلك كله انتصر عبد الملك ودخل الكوفة فبايعه أهلها وخطب فيهم معظماً عليهم حق السلطان موضعاً أن الخليفة ظل الله على الأرض (٥).

وبقي على عبد الملك القضاء على عبد الله بن الزبير حيث أرسل له جيشاً بقيادة الحجاج الثقفي (٦)، الذي حاصر مكة وكتب إلى عبد الملك يستأذنه بضرب ابن الزبير المتحصن بالكعبة، فأذن له (٧). ومع الحصار تخلى معظم أعوان ابن الزبير عنه، كما فكر هو بالاستسلام لولا أنّ أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق منعتة من ذلك فمات في أرض المعركة سنة ٦٧٣/هـ ٦٩٢م (٨). وبموته انتهت تلك الثورة وعادت وحدة الدولة تحت لواء عبد الملك.

كما استطاع عبد الملك تدعيم وحدة دولته عندما حارب الخوارج في العراق وما حوله، هذه الفئة التي استنفذت من طاقات الدولة الشيء الكثير، والتهديد الأكبر جاء من ثورتين، عُرفت الأولى بالأزارقة (٩) نسبة إلى جماعة نافع ابن الأزرق والتي كانت بدايتها منذ أيام عبيد الله بن زياد على العراق، وكان من الممكن أن تكون قنتة الخوارج في أيام نافع أشد خطورةً على الأمويين، لأنّ نافع سار على رأس جماعته لمساندة ابن الزبير، عندما قام الحصين بن نمير بحصار مكة، فقاتلوا مع ابن الزبير (١٠)، ولكن بعد انسحاب جيش الشام من الحجاز، تبين للخوارج أنّ ابن الزبير يعمل لصالحه، فتركوه وعادوا إلى العراق، وبتشوا بأهل البصرة حتى فزع أهلها وجلا أغلبهم عنها (١١)، عند ذلك كاتب أهل البصرة ابن الزبير وسألوه المبايعة وإرسال قائد من قبله

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٧.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٦.

(٤) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٥/هـ ٩٦٥م)، الولاة والقضاة، تصحيح رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨، ص ٥١.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ١١١.

(٦) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت ٥٩٧/هـ ١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد ومصطفى عبد الرحمن عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ج ٦، ص ٣٣٦.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٢٢، والفاكهي أبو عبد الله محمد بن اسحق (ت ٢٧٥/هـ ٨٨٨م) أخبار مكة، تحقيق عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ٣٦٨.

(٨) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٩٠، وابن الأثير الكامل، ج ٤، ص ١٢١.

(٩) كانت آراء الأزارقة، البراءة من كل المسلمين وتكفيرهم، انظر الشهرستاني أبو الفتح (ت ٥٤٨/هـ ١١٥٣م) الملل والنحل، عرض حسين جمعة، دار دانة، دمشق، ط ١، ١٩٩٠، ص ٥٢.

(١٠) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٤٩٠.

(١١) شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي (العهد الأموي) المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٧، ٢٠٠٠، ص ١٦٣.

لمحاربة الخوارج فاختر لهم المهلب بن أبي صفرة الذي كان والياً على خراسان، وبالفعل بقي المهلب يقاتل الخوارج حتى انتصر عبد الملك على مصعب بن الزبير، عند ذلك وجد المهلب نفسه في مأزق، فهو بين الخوارج وأهل الشام، فرأى أنّ خير ما يفعل أن يدخل فيما دخل فيه أهل العراق، فبايع عبد الملك الذي أبقاه على حرب الخوارج، وعين عبد الملك الحجاج الثقفي بدلاً عنه في سنة (٦٩٦/٥٧٧م)، فدعم الحجاج المهلب بالجنود لحرب الخوارج، حيث تمكن من القضاء على الأزارقة ودحرهم إلى كرمان ويقول البغدادي في ذلك: " وطُهرت الأرض من الأزارقة والحمد لله " (١) .

أما الثورة الثانية للخوارج جاءت من الصفرية الذين ظهروا غربي البصرة، بزعامة شبيب بن يزيد الشيباني(٢) الذي علا شأنه واتسعت رقعة نفوذه، وتمكن من هزيمة عدة جيوش أرسلها الحجاج لتحاربه ، بل وصل الأمر به أنه استطاع دخول الكوفة، فاستصرخ الحجاج عبد الملك، فأمدّه بجيش من الشام مكون من ٤٠٠٠ رجل، وبهذا الجيش ومن معه من جنود سار الحجاج لقتال شبيب الذي لم يستطع القضاء على حركته إلا بعد سقوط شبيب في نهر دجيل وموته سنة (٦٩٦/٥٧٧م)(٣) وبذلك يكون عبد الملك قد أخطر قنن الخوارج في الشرق .

١- القضاء على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث(٥٨٥ / ٧٠٤م):

كانت ثورة عبد الرحمن من الثورات التي هدّدت عرش الدولة، وينتسب عبد الرحمن إلى قبيلة قيس وهو من أشرف قبيلة كندة، وكان سبب ثورته الحقد على الحجاج لظلمه للعراقيين وكان الحجاج قد ولاه سجستان (٤) وكلفه محاربة رتبيل أحد ملوك الترك وهو ملك زابلستان(٥)، لرفضه دفع الجزية، فجهز الحجاج لعبد الرحمن جيشاً، ويبدو أن خطة عبد الرحمن في الحرب لم تعجب الحجاج، فأرسل إليه يتهدده وينعته بالجبن، الأمر الذي أغضب عبد الرحمن فأعلن الثورة، وانضم إليه جند الكوفة والبصرة، حيث وجدوا في الثورة فرصة للانتقام من الحجاج، فأعلنوا خلع الحجاج وعبد الملك، وسار الثوار إلى كرمان، وطردوا عامل الحجاج منها، ووصلوا إلى فارس، ثم إلى البصرة، بعد التغلب على الحجاج(٦)، كما انضمت الكوفة إلى الثورة، وأخرجت الحامية الشامية منها(٧) ونتيجة لتأزم الأمر أرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله، ليعرضوا على العراقيين عزل الحجاج ويتولى العراق مكانه محمد بن مروان، وينزل ابن الأشعث والياً على أي بلد شاء، لكن الثوار رفضوا وصمموا على خلع عبد الملك، فقاتلهم الحجاج في عدة معارك منها معركة دبر الجماجم بظاهر الكوفة(٨)، حيث خسر على إثرها ابن الأشعث فهرب إلى رتبيل. وهنا لا بد من الإضاءة قليلاً على مكامن ثورة ابن الأشعث وحيثيات الأمور التي أدت إلى تلك الثورة والتي كان وراءها على ما يبدو عدة خلفيات موزعة الملامح

(١) البغدادي، عبد القاهر بن طاهر(٥٤٢٩/١٠٣٧م)الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٨٧.

(٢) الصفرية نسبةً إلى زياد بن الأصفر، وآراؤهم مخالفة بعض الشيء لباقي فرق الخوارج، انظر، الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٥٨.

(٣) ولهاوزن ، يوليوس ،الدولة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العث، طبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٦، ص ٨٨.

(٤) أبو النصر، عمر عبد الملك بن مروان، المكتبة الأهلية، بيروت، ط ١، ١٩٦٢، ص ٢٠٦، وسجستان هي ستان سمتها المصادر العربية القديمة سجستان وهي البلاد السهلية حول بحيرة زره وفي شرقها تدخل دلتا نهر هيلمند، لسترنج، كي، بلدان الخلافة الإسلامية ، ترجمة بشير فرنسيس وعواد ، كوركيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٣٧٢.

(٥) زابلستان هي مرتفعات قندهار، وهي امتداد أعالي هلمند، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٧٢.

(٦) المسعودي، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٤ . وابن الأثير ، الكامل، ج ٤ ، ص ٢٠٠

(٧) ولهاوزن ،الدولة العربية، ص ١٩٢ .

(٨) الطبري، تاريخ الأمم ، ج ٣ ، ص ٦٣٥ ، و ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠٣ .

بحيث إن عوامل عدة اشتركت مع بعضها أدت إلى قيامها ، فالظلم الاجتماعي والسياسي كان المحرك الأساسي لها وصحيح ان نقمة الموالي كانت كبيرة على السياسة الأموية المتمثلة بالحجاج إلا أن الموالي لم يكونوا الأساس فيها بل كانوا من بين المشتركين كونهم مرافقين لأسيادهم العرب - ولكن هذا لا ينفي الرغبة الكبيرة للموالي للانتقام من الأمويين- فالجسم الأساسي للثورة كان من العراقيين من أشرف وقراء وعلماء والذين رأوا صعوبة الخضوع لرجل من ثقيف لم يكن له شأن كبير فأخذ على عاتقه الاستبداد بالعراقيين، كما رأوا خطر تجيش العراقيين في حملات غامضة خطيرة في بلاد بعيدة وترك الحاميات الشامية في العراق مع ذوبها، وربما كان الحجاج يهدف من وراء إرسال العراقيين إلى تلك الحملات البعيدة فرصة لإبعادهم وإشغالهم وربما التخلص منهم، فالحجاج رأى ضرورة تحجيم المعارضة السياسية وتطويقها وربما كانت حملاته العسكرية إلى ما وراء سجستان هي محصلة هذه السياسة، وما العدد أو تركيبة الجيش العراقي الذي قاده ابن الأشعث إلا دليلاً على تلك السياسة إذ ضم أربعين ألفاً من العراقيين وكانوا مناصفة بين الكوفة والبصرة(١) أي أن زعامات المعارضة والقبائل وبقية القوى المؤثرة في العراق والتي كانت مشاركة في هذه الحملة هي معنية في تقرير الموقف الذي سينتهي إليه القائد العام أي ابن الأشعث ونتيجة لذلك فابن الأشعث كان غير قادر لوحده على اتخاذ القرار بمعزل عن تلك القيادات ومنذ بداية ثورته.

كما كان للصراع بين العراق والشام أثره في هذه الثورة إذ وجد العراقيون الفرصة مناسبة لإزالة ظلم أهل الشام عنهم، هي ثورة إذأ ضد الحكم والتحكم الأموي الشامي في العراق(٢) وهذا استمرار للتنافس بين هذين المصرين منذ أيام الإمام علي ومعاوية. ذاً كان من ضمن أسباب الثورة الحساسة التي خلفتها السياسة الأموية في العراق على كافة التيارات المعارضة فيه ، فخلافة دمشق لم تعد تمثل ذهنية الإسلام كعقيدة لها محتواها السياسي والاجتماعي بل تحولت إلى نظام للأقلية اعتمد القمع كأحسن وسيلة لحماية نفسها من السقوط. ولقد تجسد ذلك من خلال توسع دائرة ثورة ابن الأشعث، حيث لاقت التعاطف المحسوس من المدن والقرى المختلفة وهي في طريقها إلى العراق، وكان هذا دافعاً إلى بلورة قضايا منها تحديد الموقف من النظام الأموي وهو موقف يصعب تجزئته لأن الحجاج عملياً هو إحدى دعائم ذلك النظام ومنه يستمد القوة فجاءت صيغة البيان النهائي للثورة في هذا الشأن بخلع أئمة الضلال وجهاد المحليين(٣) .

إذأ لقد تشاركت تلك الأسباب والتقت مع طموحات قائد متحدر من بيت أرسنقراطي على مجابهة أقوى ركائز النظام الأموي فكانت ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ثورة العراق بكل ما تعنيه هذه العبارة من حيث المشاركة الواسعة والاستجابة العظيمة على نحو لم تشهده المحاولات الثورية السابقة.

ولا بد في نهاية الحديث عن عبد الملك وقدرته على ضبط أمور دولته من رؤية مدى تلك القدرة من خلال معرفة رد فعله على الأحداث إذ يذكر المسعودي ان الأخبار السيئة أتت عبد الملك من كل مكان فيما يخص مصعب وعبدالله والروم وفي الشام بشكل عام وحتى في دمشق نفسها وتمرد الأشدق إلا أنه كان شديد الضحك وحسن الوجه وهذا يدل على تجلده تجلد الحكام سياسته (٤) .

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٦٣٥.

(٢) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٠٣.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٦٤٠.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٧٢.

ج-الحفاظ على الدولة الأموية في عهد هشام بن عبد الملك:

لم تهنأ الدولة الأموية أبداً، فكلما قضت على حركة مناوئة، قامت أخرى، ففي خراسان عمّت الثورات والفتن بسبب العصبية القبلية أم بسبب سوء معاملة الولاة للسكان، وهذا الأمر أدى إلى تغيير عدة ولاة حتى استقر الأمر على نصر بن سيار في سنة (١٢٠هـ/٧٣٧م) والذي عمل ما بوسعه لتهدئة الأحوال في خراسان (١) كما قامت في مصر فتن وثورات احتج فيها الأقباط على سوء معاملة ولاة هشام لهم (٢) وبلغت ثورتهم الذروة في عام (١٢١هـ/٧٣٨م) فبدل هشام عدة عمال، حتى تمكن حنظلة بن صفوان من القضاء عليها بعد استخدام القسوة (٣) كما شهد العراق ثورة بقيادة زيد بن علي عام ١٢١هـ/٧٣٨م والتي رعاها أهل الكوفة بعد ما تعرض له زيد من استجواب من قبل والي العراق يوسف بن عمر عن أموال أودعها خالد القسري لديه حسب زعم ابن عمر وانتهت هذه الثورة بقتل زيد (٤).

ولم يكن المغرب والأندلس بمعزل عن الثورات والقلاقل، حيث كان للخوارج الأثر الكبير في إثارتها، فلقد وجدوا في المغرب أرضاً خصبة لأرائهم (٥)، لبعدها عن دمشق، ولأن مبادئهم لاقت رواجاً فيها، كونها تدعو للمساواة بين كل المسلمين، ونتيجة لذلك ثار سكان المغرب على ولاة هشام أول مرة سنة (١٢٢هـ/٧٣٩م) بزعامه خارجي من الصفرية يدعى ميسرة المتغري من البتر (٦)، جمع حوله المغاربة بسبب جور عمال هشام في المغرب واستغل ميسرة إرسال حملة إلى صقلية، ففتك بوالي طنجة ووالي السوس (٧)، لكن الثوار نقموا على ميسرة لأنه أساء السيرة فقتلوه، وولوا بدلاً منه خالد بن حميد الزناتي (٨)، الذي التقى مع جموع المغاربة بجيش الخلافة بقيادة خالد ابن أبي حبيب الفهري، في معركة دعيت بمعركة الأشراف لكثرة القتلى فيها من جيش الخلافة، في سنة (١٢٣هـ/٧٤٠م)، والتي انتصر فيها الخوارج فقويت شوكتهم (٩)، فعزلوا والي المغرب عبيد الله بن الحباب مما أغضب الخليفة هشام وبعث إلى المغرب كلثوم بن عياض القشيري برفقة جيش مؤلف من ثلاثين ألفاً، وبرفقته بلج بن بشر القشيري ابن أخ كلثوم، ليكون القائد بعد عمه، لكن الثوار قتلوا كلثوماً في معركة التوام (١٠)، كما هُزم ابن أخيه، وتقلص نفوذ العرب في المغرب، وخشي هشام من ضياع المغرب من يديه، فقرر إرسال جيش كبير إلى المغرب في سنة (١٢٤هـ/٧٤١م) بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبي، عامله على

(١) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٧٦-٢٧٧

(٢) المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) الخطط المقرئزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرفاوي، مكتبة المدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨، ج ١، ص ٢٣٠

(٣) الريطي، ممدوح عبد الرحمن، دور القبائل العربية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية (٢١-٣٥٨هـ/٦٤٧-٩٦٩م) مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ص ١٣١.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢١٠، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٥٥.

(٥) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٧٤

(٦) ميسرة المدغري: زعيم قبيلة مدغرة اتصل بعكرمة مولى ابن عباس أثناء ذهابه إلى القيروان، وعمل ميسرة بالسقاية في سوق القيروان كي لا تكشف أمره ثم عاد إلى قومه ونشر مذهب الصفرية بينهم، عبد ارزاق، محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥، ص ٤٧ والبتري ينتسبون إلى مادغيس بن بر الملقب بالبتري فسموا البتري، مؤنس، حسين، فتح العرب للمغرب، ص ٨.

(٧) ابن عذارى محمد المراكشي (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. سزكولان وإليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ج ١، ص ٥٣.

(٨) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج ١، ص ١٦٥

(٩) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ٣٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤١٧.

(١٠) فتحي السيد، مجدي، تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٩٩٨، ص ٢٦٠

مصر الذي استطاع ضرب الثوار وتفريقهم والقضاء على ثورتهم (١) وهكذا أمضى هشام أعواماً مليئة بالثورات التي حاول جاهداً القضاء عليها، لكن ما إن مات حتى ظهرت بداية الانهيارات في جسم الدولة الأموية وبالمقارنة بين التحديات التي واجهت كل من عبد الملك وابنه هشام يمكن ملاحظة بعض التشابه وكذلك بعض الاختلاف فبعد الملك وصل للحكم وعقد الدولة شبه منقطع ، أما هشام فكان أحسن حالاً منه في ذلك، وعبد الملك واجه خصوماً داخليين نادوا بالخلافة لأنفسهم كابن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص، بالإضافة إلى الثورات التي كانت لصالح آل البيت ، والغرض نفسه واجهه هشام في ثورة زيد بن علي، أما فيما يخص ثورات الخوارج فهي نفسها إلى أن المكان اختلف ذلك أن الخوارج رأوا ببلاد المغرب الملاذ الآمن لتمردهم على العكس منه في ثوراتهم في عهد عبد الملك، لكن قيام بعض الثورات في عهد هشام كان بأغلبه بسبب سوء معاملة الولاة للسكان كما حدث في مصر وخراسان.

٢- التزام الولاة بسياسة الدولة وإخلاصهم لها:

كان من حسن حظ الأمويين أن ظهر لهم ولاة اعتبروا خدمة الدولة لزاماً عليهم، وواجباً لا مناص منه، فأخلصوا في الخدمة، وتفانوا في طلب الرضا، حتى أن الخلفاء العباسيين تمنوا لو أنهم رزقوا بولاة كولاة الأمويين (٢) . وهناك عدة ولاة أخلصوا للأمويين منهم عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والحجاج الثقفي وقره ابن شريك (٣) وخالد ابن عبد الله القسرين ولكن لا بد من التنكير بأن معظم أولئك الولاة كانت لهم أسبابهم الشخصية والنفسية التي كمنت وراء ولائهم للدولة الأموية وسيتم التطرق إلى بعض تلك الصفات لدى أولئك الولاة والتي كانت المحرك لسياستهم تلك، بالإضافة إلى أعمالهم التي برهنوا من خلالها على إخلاصهم للأمويين.

١- عمرو بن العاص (٤١- ٥٤٣هـ / ٦٦١-٦٦٣ م):

إن عمرو بن العاص من الولاة الذين كان لهم دور كبير في توطيد حكم مصر للدولة العربية الإسلامية، فهو الذي أشار على الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر (٤) وكان له ذلك في عام ٦٣٩/٥١٨م وقام من أجل حماية مصر بفتح بعض المناطق القريبة منها كبرقة وطرابلس وبلاد النوبة (٥) وذلك في زمن الخلفاء الراشدين وتابع سياسته في العصر الأموي والتي تمثلت ببسط سيطرة الدولة وتمكينها في مصر، وكان قاسياً عندما تتطلب المصلحة العامة ذلك، كما قام بعدة أعمال عمرانية كبناء القسطنطينية (٦) وعلى الرغم من استقلاله بمصر من حيث اتخاذ القرارات المناسبة وكذلك الميزانية المالية إلا أنه بقي تحت جناح الدولة الأموية بالرغم مما منحه إياها معاوية من صلاحيات كونه كان له الدور الكبير في مسألة التحكيم.

٢- زياد بن أبيه (٤٥- ٥٣هـ / ٦٦٥-٦٧٢ م):

كان هذا اسمه قبل أن يلحقه معاوية بنسبه فأصبح اسمه زياد بن أبي سفيان (٧) لأن أباه كان مجهولاً فهو ابن

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف، ج ٧ ، ص ٢٠٩ ، و فروخ ، عمر ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، بيروت، ١٩٤١، ص ١٨ .

(٣) قره بن شريك العبسي المضري، كان جباراً صليماً استمر في ولاية مصر إلى أن مات

(٤) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، (٢٥٧هـ/٨٧٠م) فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، ص ٥١ .

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ١٨٠ .

(٦) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٥٠ .

(٧) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥، ص ٢٠٢، والدينوري ، الأخبار الطوال، ص ٣٣٣ .

بغاء إذ لم يُعرف والده فاستغل معاوية هذا الأمر ليشهد بعض الناس على أنه ابن أبي سفيان وبذلك يكون زياد أخو معاوية، وأصبح هم زياد بعد أن انضم لأسرة آل سفيان أن يثبت سلطان هذه الأسرة، وكان إخلاصه لمبدأ الدولة إخلاصاً لا يخامرهم الشك، لذا كان يطلب من الجميع الطاعة وترك التناحر القبلي، في سبيل مصلحة الجماعة، المتمثلة بالدولة، هذا ما يلاحظ عليه عندما خطب أثناء قدومه إلى البصرة والياً عليها سنة (٤٥هـ/٦٦٥م) حيث قال للبصريين "إننا نسوسكم بسلطان الله... ونذود عنكم بفيء الله.. (١) ويُستدل من عبارتي سلطان الله وفيء الله أنه يقصد الدولة متمثلةً بمعاوية وسلطته. وبالفعل استطاع زياد تثبيت الأمن في البصرة، فلقد ألقى فيها خطبة مليئة بالتهديدات، التي لمسها البصريون، حيث قال فيها: "أيها الناس إنّه قد بلغني مالا صبر عليه، قد أجتكم في أن يبلغ شاهدكم غائبكم ثلاثاً، إنّا إن وجدنا أحداً بعد صلاة العتمة ضربنا عنقه" (٢) وكما قال فعل، وبأفعاله هذه لمس معاوية تفانيه في خدمة الدولة، فضّم له الكوفة بعد موت واليها المغيرة بن أبي شعبة سنة ٥٠هـ/٦٧٠م، وبذلك أصبح يحكم الشرق بما فيه العراق وفارس والجال وخراسان وشرق شبه الجزيرة العربية أيضاً (٣) ورجلٌ يحكم نصف دولة الأمويين لم تراوده نفسه على الاستقلال عن هذه الدولة، بل على العكس حكم باسمهم ونادى بطاعة معاوية، حيث كبح جماح الخوارج بأن ألزم زعيم كل قبيلة مسؤولية من يخرج منها من الخوارج، فسارع الزعماء لتسليم من يحسوا بوجوده من الخوارج (٤) كما لاحق الشيعة في الكوفة وراقبهم وحدّ من نشاطهم (٥). وبالجزم تمكن زياد من إخضاع العراق، وفرض سلطان الدولة الأموية عليها، حيث منع أيّة محاولة للخروج ضد هذا السلطان، وما يؤثر عنه أنه لم يحتجّ إلى أيّ جيشٍ إلا للجيش العراقي (٦). ولا بد من التنكير بأن زياداً كان والياً للإمام علي بن أبي طالب، وكان محباً له لكن هذا التبديل في سياسته يمكن أن تُعزى إلى نفسيته التي على ما يبدو أثرت في طريقة حكمه، فهو لم يكن له نسب قبل خلافة معاوية، الأمر الذي جعله يحكم بقسوة حتى مع الذين كان منتمياً إليهم إلا وهم الشيعة.

٣- الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٣-٩٥هـ/٦٩٢-٧١٣ م):

إنّه من الشخصيات التي وصفت بالوفاء والإخلاص للبيت الأموي، هذا الإخلاص الذي أثر في نفس الخليفة عبد الملك إلى درجة أنّه أوصى أولاده به قبل موته قائلاً لهم: «...وأكرموا الحجاج فإنّه الذي وطأ لكم المناير، ودوخ لكم البلاد وأذل العباد» (٧)، كما ويتضح من هذه الوصية أيضاً موافقة عبد الملك على سياسة القسوة والعنف، حيث يراها السبيل الأمثل لإقرار الأمن وحفظ كيان الدولة وسلامة المجتمع، من الفوضى وعبث العابثين (٨). ولم يكن الحجاج يتورع عن القيام بأي عمل إرضاءً لعبد الملك، فلقد رمى مكة بالمنجنيق (٩) في

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك نج ٣، ص ١٩٧

(٢) انظر من أجل الخطبة، البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٠٦.

(٣) العث، الدولة الأموية، ص ١٥٠.

(٤) ابن حمدون، محمد بن الحسين بن محمد (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) التذكرة الحمدونية، تحقيق، إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ٤٣٨. و الرواضية، صالح، زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام، ط ١، ١٩٩٤، ص ٢٠٦.

(٥) القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد الجاوي، الجليل، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ج ٣، ص ١١١٧٤.

(٦) الرواضية، زياد بن أبيه، ص ١١٦.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٢١٥، واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٧.

(٨) النجار، محمد، الدولة الأموية في المشرق، ص ٤٨.

(٩) المنجنيق: هي القذائف التي ترمى بها الحجارة وهي كلمة دخيلة أعجمية فارسية معربة أصلها من جي نيك وجمعها مجانيق، ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٣٣٨.

أثناء قتاله عبد الله ابن الزبير، كما نكّل واستخف بأهل المدينة المنورة عند دخوله إليها(١) ، ومن أجل كسب مودة عبد الملك اصطحب معه إلى الشام أبناء أهل الشورى والصحابة ليقدموا ولاءهم لعبد الملك بأنفسهم(٢) ، كما وتنتضح سياسة الحجاج الداعية لخدمة الدولة في خطبه التي عُرفت بقسوتها، من أجل إرهاب من تحدّته نفسه بمعارضة الدولة، ومن تلك الخطب ما قاله بعد وصوله إلى العراق، حيث خاطب أهل العراق قائلاً: «..يا أهل العراق إنّي أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها... وإنّي أرى الدماء تترقرق ما بين الرقاب واللقى..»(٣) .

ولقد قطف الحجاج ثمار عمله الشاق في خدمة عبد الملك، في عهد ابنه الوليد بن عبد الملك ذلك لأنّ الوليد كان يثق به ثقةً تامةً، و كان يشعر بأنه مدين له بالشيء الكثير لأنّه نصره في مسألة الخلافة على عمه عبد العزيز بن مروان عندما نصح عبد الملك بتولية الوليد(٤)٠ كما ورأى الحجاج ضرورة بسط سلطان الدولة على أكبر مساحات ممكنة، وبالفعل كان له الفضل الكبير في الفتوح الشرقية، حيث كان يُرسل الجيوش، ويولّي خيرة القواد لجيشه، ويتتبع أخبارهم فهو من ولى قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان، الذي قاد الفتوح فيها(٥)، كما ولى على السند محمد بن القاسم الثقفي الذي وصل إلى كشمير(٦) . ولقد حرص الحجاج على ألاّ يكلف الدولة حتى في الفتوح، حيث رأى ما أنفق على العمليات العسكرية التي قام محمد بن القاسم الثقفي والتي بلغت ستين ألف ألف ، فوجد ما حُمّل إليه عشرين ومائة ألف ألف فقال: " شفينا غلنا وأدركنا ثأرنا وازددا ستين ألف ألف درهم" (٧) . وهكذا كان للحجاج الفضل في ما وصل إليه عبد الملك و الوليد ، فلولاها لما استطاعا تسجيل كل أسباب التوسع وحفظ الأمن للدولة الأموية .

وبالعودة إلى تحليل الأسباب الكامنة وراء تصرفات الحجاج يتضح أن الحجاج كان ينتمي إلى قبيلة ثقيف وهي لم تكن على مرتبة عالية عند العرب، كما كان والده معلم صبيان ويكفي القول له معلم الصبيان للتعبير عن التحقير لأن هذه المهنة ارتبطت عند العرب بالرجل ضعيف العقل وساقط الهمة، وربما ورث الحجاج عن أبيه هذه المهنة(٨)، ويبدو أن الحجاج وضع نصب عينيه الوصول إلى مرتبة رفيعة - كي يعوض النظرة الدونية التي كان يشعر بها من الآخرين- لذلك عمل ما بوسعه من أجل التدرج بالمناصب فلحق بجيش مروان بن الحكم برفقة والده يوسف حيث رافقا الجيش الذي أرسل لمحاربة عبد بن الزبير في مكة، لكن هذا الجيش انهزم واستطاع الحجاج ووالده الهروب ثم اتصل الحجاج بروح بن زبناع مستشار عبد الملك بن مروان الذي رشحه عند عبد الملك فتدرج في المهمات إلى أن طلب هو نفسه(٩)- أي الحجاج من عبد الملك - محاربة ابن الزبير فقبل عبد

(١) ماجد، عبد المنعم، التاريخ الإسلامي، ص١٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٣

(٣) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي(ت٩٣٢٨هـ/٩٣٩م) العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ج٤، ص٢٠٨.

(٤) كاشف، سيدة اسماعيل، الوليد بن عبد الملك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٥، ص٧٦.

(٥) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد(١٢٨٢هـ/١٢٨١م)وفيات الأعيان، تحقيق، إحسان عباس، دار

الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، ج٤، ص٨٦، و Marshall,G,S,Hodgson,The Venture of Islam Vol I The

classical Age of Islam (chicago, London :The Universty of chioago press 1974) p 218

(٦) كشمير ولاية في جنوب آسيا وهي الآن مقسمة إلى ثلاث لباكستان وثلثين للهند، أشرف طه أبو الذهب، المعجم الإسلامي الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢، ص٤٩٥.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان ، ص٤٢٧.

(٨) ياقوت الحموي، ج٤، ص٤٨٧.

(٩) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٦٦.

الملك لمعرفته بحقد الحجاج على ابن الزبير منذ هروبه أمامه ، وبالفعل كان للحجاج ما أراد وهذا ما يفسر قسوة الحجاج مع ابن الزبير وعماله وضربه للكعبة وهتكه لمكة والإساءة لأهل المدينة، إذاً فماضي الحجاج أثر على سلوكه في خدمة الدولة التي عرفت مكامن ضعفه فسخرتها لصالحها.

٤- قره بن شريك (٩٠-٩٦هـ / ٧٠٨-٧١٤م) :

وممن اشتهر في عهد الوليد بن عبد الملك أيضاً قره بن شريك والي مصر، ويُعد تعيينه شاهداً على قدرة الأمويين في اختيار الولاة من الشخصيات المشهود لها بالولاء مع الكفاءة الإدارية العالية، فلقد أثبتت أوراق البردي المكتشفة في كوم إشقوا في مصر (١) كفاءة قره الكبيرة في ميدان الإدارة مع الولاء التام للبيت الأموي، حيث أوضحت أوراق البردي تفصيلات دقيقة عن إدارة ابن شريك، وأسلوبه في توزيع المناصب ومراقبة العمال والإشراف على الشؤون المالية لولايته (٢) إذاً لقد كان قره بن شريك حريصاً على إدارة مصر بالشكل الذي يؤمن للخلافة الأمن والاستقرار.

٥- خالد بن عبد الله القسري: (٩١-٩٦هـ / ٧٠٩-٧١٤م) و (١٠٦-١٢٠هـ / ٧٢٤-٧٣٧م) :

وبالعودة إلى العراق في عهد هشام بن عبد الملك، يُلاحظ ولاء خالد القسري لخليفته، لكنه قل ما يستعمل القسوة في سبيل كسب رضائه، بل يتخذ من البناء وإغناء ذاته والبلاد هدفاً له، لقد اهتم بإنعاش زراعة العراق، التي درت عليه دخلاً هائلاً (٣)، حيث كان يرسل لهشام خراجاً كبيراً، فيسر الخليفة لذلك ويرضى عنه، ويرتاح لسياسته في العراق (٤) ، لكن الناقلين على خالد أو غرأ صدره عليه، وأدخلوا الشك إلى قلبه تجاه ثرائه، فكان يأمر بمعاقبته ويندم في كل مرة، لأنه يعلم في قرارة نفسه بوفاء خالد وإخلاصه له، ولقد قدم دليلاً على ذلك عندما نصح هشاماً بأن لا يتجاوز وصية يزيد الثاني، فيحرم الوليد بن يزيد من ولاية العهد (٥)، وقد سعى كثيراً ليرى هشام ويشرح له موقفه، وفي عهد الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ / ٧٤٢-٧٤٣م) عُذب خالد وأهين، وكان يرفض القيام بالثورة قائلاً: «أكره أن تكون الفرقة والاختلاف على يدي» (٦) .

٦- ولاية المغرب والأندلس:

لم يكن ولاية المغرب العربي والأندلس منعزلين عن دائرة الولاء لبني أمية، فعلى الرغم من البعد الجغرافي والصعوبات التي واجهتهم في تثبيت الحكم العربي فيها، إلا أن ولايتها بقوا على عهدهم للأمويين، فلم ينتابهم الشعور بإمكانية الاستقلال أو الانقطاع عن الأمويين، نظراً للبعد عن مركز الخلافة. ولقد أثبت ولاية المغرب صلابتهم وتفانيهم في توطيد أركان الدولة في ولاياتهم، ويصعب استثناء أحد منهم في

(١) تقع كوم إشقوا في محافظة أسيوط، وكانت كورة أو قسم من أقسام الصعيد، كاشف ، سيدة اسماعيل ، الوليد بن عبد الملك ص ٩ وص ٨٨.

(٢) كاشف ، سيدة اسماعيل، مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٣٩ و

Bell :H.J, Translation of the Greek Aphotito Papyri in the
-British museum (Der Islam II, Strassburg 1911)p272 .

(٣) ولهاوزن ،الدولة العربية ص ٢٦٦ .

(٤) العث، الدولة الاموية ،ص ٢٨٨.

(٥) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٦٤ .

(٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٣٣، والطبري ، تاريخ ، ج ٤، ص ٢٤٧ .

الحديث عن إخلاصهم للخلافة، ومن أولئك عقبة بن نافع الفهري الذي دفع حياته ثمناً لذلك (١) كما تدين الدولة العربية الإسلامية لحسان بن النعمان الغساني - والذي اختير لولاية المغرب من قبل عبد الملك بن مروان سنة (٧٣٠هـ/٦٩٢م) - لترسيخ نفوذها في هذه الولاية الوعرة الترسخ، فلقد دمر مدينة قرطاجة معقل البيزنطيين في المغرب، وكسر شوكة المتمردين من سكان المغرب، وتميزت سياسة حسان فيما يخص أعماله بالجمع بين اللين والحزم، إذ أسس بُنى تحتية للولاية، فبنى مدينة تونس، وأسس داراً لصناعة السفن، كما نظم الإدارة المالية والجيش. وعلى الرغم من الظلم الذي لقيه حسان بعزله لا لشيء إلا لأغراض شخصية من ولاية مصر - فقد كان المغرب يتبع لولاية مصر إدارياً - إلا أنه صاحب أيادٍ بيض في خدمة الأمويين، ويضاف إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر (١٠٠-١٠٢هـ/٧١٨-٧٢٠م) إلى قائمة الولاة المشهود لهم بالكفاءة، وينشر المعرفة العربية الإسلامية في المغرب، والذي سار على الخط نفسه الذي رآه في خليفته عمر بن عبد العزيز، فلقد بذل إسماعيل جهوداً مخلصاً من أجل إقرار العدل، كما اهتم بنشر الإسلام والتعريف به بين سكان المغرب، ويتضح توفيق الدولة في تعيينه بقول المؤرخين عنه أنه كان خير أمير وخير والٍ (٢) .

وباعتبار الأندلس بلد قائم بحد ذاته، وله ظروف لا تشبه أي ظروف لبلد تم فتحه في ذلك الوقت، فهي ثغراً لبلاد العرب، ولذلك توجب على ولاته مواصلة الفتوح، ويضاف إلى ذلك اتساع مساحة هذه الولاية ومشاكلها التي تطلبت المعالجة الفورية بعد حكم ظالمٍ للقوط (٣) فيها، وعلى الرغم من العدد الكثير للولاة الذين حكموا الأندلس ومع قصر مدة حكمهم إلا أنه يمكن القول بأنهم حاولوا قدر المستطاع تثبيت سلطة الدولة، ومن ذلك ما قام به السمح بن مالك الخولاني الذي عينه الخليفة عمر بن عبد العزيز، من إخلاص لخليفته بتنفيذ أوامره في نشر الأمن والنظام، وبمسح كامل أرض الأندلس وإبلاغ الخليفة بذلك (٤) بالإضافة إلى ما قام به من إصلاح للجيش وإدارته، إذ هبها لخوض الحروب، وعلى الرغم من أن معظم ولاية الأندلس كانوا يعينون من قبل والي المغرب، إلا أن الإخلاص كان في أرواح جميع الولاة للدولة المركزية، فلم يفكروا في العصيان أو الاستقلال، بل على العكس من ذلك قمعوا كل متمرّدٍ ومناوئٍ للدولة الأموية.

وهناك أسماء ولاية آخرين خدموا السلطة الأموية وعملوا جاهدين لتوطيد هذه السلطة بشتى الوسائل.

٣- توسيع رقعة الدولة من خلال الفتوح :

بلغت الدولة العربية الإسلامية أقصى اتساع لها في العصر الأموي وخاصة في عهد الوليد بن عبد الملك الذي جنى ثمرة جهود أبيه عبد الملك، في توطيد الحكم والقضاء على الثورات والفتن، فبسط العرب سلطانهم على أكبر بقعة من العالم حينذاك، حيث وصلوا إلى حدود الصين شرقاً وإلى شمال شرق اسبانيا، و كانت رغبتهم في توسيع نفوذهم، وإعلاء كلمة العرب، من أكبر العوامل التي ساعدت على هذا التوسع، بالإضافة للمقاتلين الفاتحين والغنائم التي زادت دخل الدولة التي اعتمدت أيضاً على الجهاد لنشر المعرفة العربية

- (١) زيتون، محمد، المسلمون في المغرب والأندلس، ١٩٩٠، ص٣٩، و زيبب،نجيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير، بيروت، ١٩٩٥، ج٢، ص٣٢.
- (٢) ابن عذارى، البيان، ج١، ص٤٨، والرقيق القيرواني، أبو اسحق ابراهيم بن القاسم (ت حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) تاريخ افريقية والمغرب، محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤، ص٩٧.
- (٣) القوط هم قسم من الشعب الجرمانى، انظر: علي مولا، الموسوعة العربية الميسرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٩، ج٥، ص٢٦٠٣.
- (٤) ابن عذارى، البيان، ج٢، ص٢٦، والشطشاط، علي حسين، تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١، ص٦٥.

الإسلامية (١) هذا ما وقر لها مواردها المادية والعينية .

١-الفتوح في الجهة الشرقية :

لم تسر عمليات الفتوح على وتيرة واحدة من الاندفاع ، فلقد كان للمشاكل الداخلية في الدولة العربية الإسلامية، سواء كانت الفتنة الأولى زمن عثمان أم الحرب بين الإمام علي ومعاوية ، بل وحتى بعد استقرار الأمر للأمويين تأثيره على عملية الفتوح(٢)، فبعد وصول معاوية إلى السلطة استأنف الفتوح وأولى حرب البيزنطيين اهتمامه الأكبر، ربما لأنه اعتاد على حرب البيزنطيين منذ أن كان والياً على الشام، فأدرك خطر بيزنطة سواء خلف جبال طوروس أم شمال إفريقيا، هذا بالإضافة لقرب بيزنطة من حضرته دمشق.

وبعد فتح خراسان(٣) ٠ يبدو أن العرب اكتفوا بسقوط المدن الخراسانية، ولم يرغبوا في التوغل شرقاً، هذا ما يلاحظ مما كتبه عمر بن الخطاب إلى الأحنف بن قيس(٤): «أما بعد فلا تجوزن ما وراء النهر واقتصر على ما دونه»(٥) .

ولقد كان العراق الممول البشري للفتوح في هذه الجهة (٦)، وكذلك كان للبحرين دورٌ في المد البشري أيضاً (٧) ولكن هذا لا يعني عدم مشاركة جند الشام معهم، ويلاحظ ذلك عندما ضمّ الحجاج إلى جيش محمد بن قاسم الثقفي الذي أرسله لفتح السند سنة آلاف جندي من الشام وخلفاً غيرهم(٨).

أ- الفتوح فيما وراء النهر:

تقع منطقة ما وراء النهر بين نهر جيحون (أموداريا الآن) الذي يقع شمال حدود خراسان، ونهر سيحون(سيرداريا اليوم) الموجود في بلاد الترك ،وتحدها غرباً منطقة خوارزم(خانة خيوة أو جمهورية أوزبكستان وتركستان) ،أما من الشرق فحدودها غير واضحة، وتدخل فيها أجزاء من الصين وسكان هذه المنطقة هم مزيج من الشعوب الآسيوية، وفيها ممالك مستقلة لكنها متداخلة مع بعضها، منها الختل أو ختلان والتي تقع على حدود السند وراء نهر أموداريا، ومملكة طخارستان الواقعة على ضفتي نهر جيحون، ومملكة السغد أو الصغد(٩)، وغيرها من الممالك .

-
- (١) شلق ، الفضل ، الأمة والدولة، دار المنتخب، بيروت، ١٩٩٣ . ص٢٢٩
 - (٢) شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٢، ص١٨٩.
 - (٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٤٢، وخليفة ابن خياط، تاريخ خليفة، ج١، ص١٣١. و ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد(٤٣١هـ/٩٢٦م)الفتوح، تحقيق علي الشيري، دار الأضواء، ج١، ص٢١٠، و محمد فرج، الفتح العربي للعراق وفارس، دار الفكر العربي، ١٩٦٦، ص٢١١.
 - (٤) الأحنف:بن قيس بن معاوية بن مهين التميمي أبو بكر سيد تميم أحد العظماء والدهاة والفصحاء الفاتحين ولد في البصرة شهد صفين مع علي توفي في الكوفة سنة ٦٧٢هـ/٦٩١م ابن خلكان، ج٢، ص٤٩٩.
 - (٥) الطبري ،تاريخ الامم والملوك، ج٢، ص٥٤٧. والأحنف بن قيس أدرك النبي ﷺ وكان أحد العقلاء والحكماء، اعتزل الحرب بين علي ومعاوية توفي سنة(٦٧هـ/٦٨٦م)،انظر ابن الاثير، أسد الغابة، تحقيق عادل أحمد الرفاعي، دار التراث العربي، بيروت، ط ١ ١٩٩٦، ج١، ص٨٧.
 - (٦) شكري ،فيصل ،حركة الفتح الإسلامي، ص١٩٣.
 - (٧)المرجع السابق، نفس الصفحة..
 - (٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٢٤ .
 - (٩)لسترنج، بدان الخلافة، ص٤٦٩. والصغد هي الأرض الواقعة بين نهري أموداريا و سيرداريا ،انظر،مولا،علي،الموسوعة العربية الميسرة،م٤٠٩٣، ص٤٠٩٣.

وتم فتح ما وراء النهر بعد استقرار الأمر لمعاوية الذي أرسل البعوث والسرايا لاستطلاع تلك المنطقة، ومن أجل التمهيد لغزوها اتخذ من مرو قاعدة للغزو في خراسان (١) المقابلة لبلاد ما وراء النهر وهي التي كانت تُعرف بمرو الشاهجاه أو مرو العظمى (٢)، التي أنزلوا بها جنودهم منذ سنة (٤٥٥هـ/٦٦٥م)، حيث تم عبور النهر على ما يبدو عدة مرات (٣)، لكن الفتوح توقفت بسبب الأوضاع الداخلية للدولة العربية الإسلامية بعد مقتل الحسين (٦٧٩هـ/٦٧٩م) ورغم أنها عادت لكنها لم تكن منظمة إلا في عهد الوليد بن عبد الملك بعد تولية الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان عام (٧٠٥هـ/٧٠٥م)، حيث اتخذت الفتوح منحاً جديداً من حيث التنظيم، ونُفخت فيها روح الجهاد والذي تجسد بالدعم الذي منحه إياه الحجاج، هذا الأمر الذي أعطى قتيبة دفعاً حماسياً حيث ألقى خطبة في الجند عندما وصل إلى خراسان، حثهم فيها على الجهاد (٤)، وسار بهم إلى الطالقان فلقاه دهاقنتها في بلخ (٥) وساروا معه، ولما عبر النهر قابله ملك الصغانيين بالهدايا وسلم البلاد له (٦). وفي سنة (٧٠٦هـ/٧٠٦م) أغار قتيبة على الصغد وقتلهم قتلاً شديداً فانهزموا وتفرقوا، وفتحت مدينة بيكند وغنموا غنائم لم يغنموا مثلها في خراسان وفي سنة (٧٠٦هـ/٧٠٦م) وصل قتيبة إلى قومينية، ثم سار إلى بخارى (من أعظم مدن جمهورية أوزبكستان) لكنها استعصت عليه فراسل الحجاج الذي حثه على مواصلة الهجوم، حتى تم له فتحها كما غزا قتيبة مدينة سمرقند عام (٧١١هـ/٧١١م) بعد قتال شديد، فوطد مركزه في بلاد ما وراء النهر بتلك الانتصارات وقام قتيبة بين سنتي (٩٤-٩٥هـ/٧١٢-٧١٣م) بغزو الأقاليم المحيطة بنهر سيحون، وخاصة الشاش (طشقند اليوم) وفرغانة وكاشان (٧) وأثناء عملياته في الشاش أتاه خبر موت الحجاج الثقفي، داعمه الأول في الفتوح، فخبث عزيمته، لكن الوليد بن عبد الملك أراد رفع معنويات ذلك الفاتح المقدم فكتب إليه يحفزه على المضي في الفتوح، وبالفعل واصل قتيبة حروبه حتى وصل إلى كاشغر التي كانت من أملاك الصين (٨)، وكتب إلى ملك الصين يطلب منه الطاعة والجزية (٩)، لكن موت الوليد أحبط كل عزيمة لديه، حيث جاء عزله من قبل سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٤-٧١٧م) ويبدو أن الحدود التي وصل إليها قتيبة لم يصلها أحد بعده في العصر الأموي، بل على العكس اضطربت الأحوال فيها وزاد تدخل الأتراك الأمر تعقيداً (١٠).

ب-فتوح السند: امتدت فتوحات الأمويين في آسيا إلى بلاد السند، التي تقع شرقي إيران على ساحل بحر الهند، وكان للعرب غزوات عليها منذ عهد عثمان بن عفان، وفي عهد الإمام علي بن أبي طالب، و تم في عهد معاوية فتح مكران (١١)، لكنها اتخذت شكلاً منظماً في عهد الوليد بن عبد الملك، حيث ألح عليه الحجاج الثقفي من أجل

(١) شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي، ص ٢١٣، و ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية، ص ٢٢١ .
(٢) يوجد أكثر من مرو، مرو الروذ ومرو الشاهجاه، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٢-١١٣. ومرو هي مدينة في تركمانستان، أبو الذهب، المعجم الإسلامي، ص ٥٥٣.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٩٨، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٥٥، واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٧.
(٤) عبد القادر، محمد فريد، معارك فاصلة في تاريخ الإسلام، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١١٦.
(٥) الطالقان، مدينة في أفغانستان تقع في أقصى شمال البلاد إلى الشمال من العاصمة كابل، شامي، يحيى، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ٢٣٦، وبلخ مدينة أفغانية جنوب نهر أمودريا واسمها حالياً وزير آباد، شامي، موسوعة، ص ٢٣٦.

(٦) النجار، محمد الطيب، الدولة الأموية، ص ١٢٢، وكاشف، الوليد بن عبد الملك، ص ١٢١،

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١١.

(٨) أبو زيد، علا عبد العزيز، الدولة الأموية دولة الفتوحات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦، ص ٥٠.

(٩) الصيني، بدر الدين، العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٥٠، ص ٢٧

(١٠) Barthold, w, Turkestan down to the Mongol In Invasion, Translated

by the author with the assistance of H,A,R Gibb p186

(١١) البلاذري، فتوح ص ٤٣١. و ، بلوش، ن ، أ ، فتح السند، دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٩١، ص ٨٩. و Majumdar, R, c

;The Arab Invasin OF India ,Lahor, AL-Makka press, 1974, p30-31.

فتح هذه البلاد، لأنها تسبب المتاعب للعرب (١)، أو ربما كانت خطة غزوها مدبرة مثل غزو بلاد ما وراء النهر. وبالفعل تم تجهيز حملة تحوي كافة المعدات حتى أدق التفاصيل كالإبر والخيوط (٢) وأوكل الحجاج قيادة هذه الحملة إلى محمد بن القاسم الثقفي سنة (٧٠٧/٥٨٩م)، فاتجه بالحملة إلى مدينة الديبل (كراتشي اليوم) وواصل التوسع حتى وصل إلى الملتان جنوب بلاد البنجاب، فانتصر على أهلها، وقتل وغنم الشيء الكثير، ونتج عن ذلك فتح السند، وجنوبي بلاد البنجاب، فتحاً دائماً (٣) ويبدو أن خبر موت الحجاج ومن بعده الوليد بن عبد الملك، قد أثر في نفس محمد، مثلما أثر في قتيبة، فلانت عزمته، وهو الذي وصل بالفتوح إلى حد لم يوفق أحد بعده بالوصول إليها في العصر الأموي (٤).

ج-فتح جرجان وطبرستان (٥) :

مادام الحديث قائماً عن الفتوحات في المنطقة الشرقية فلا بد من التطرق لجرجان وطبرستان اللتين تُعتبران من أرض الديلم (٦)، والتي دخلها سعيد بن العاص سنة (٦٥٠/٥٣٠م) (٧) في خلافة عثمان بن عفان، ثم لم يدخلها أحد إلى أن جاء يزيد بن المهلب والذي على ما يبدو كان لديه هاجس منذ أن كان في الرملة عند سليمان حيث كان سليمان كلما سمع خبر عن فتوحات قتيبة يبلغ يزيد، وهو مأخوذ بها، ويزيد يرى أن الشأن الكبير في جرجان (٨). ولما تولى يزيد خراسان لسليمان بن عبد الملك (٩٧-٩٩/٧١٥-٧١٧م) كانت فكرة فتح جرجان وطبرستان ما تزال تشغله، فسيّر جيشاً، فبدأ بقهستان (٩)، التي قتل عدد كبير من أهلها بعد حصارها (١٠) والملاحظ هنا أنه عاد أكثر من مرة إليها لأن أهلها كانوا سرعان ما يرتدون عن الصلح (١١). ثم انتقل يزيد إلى طبرستان وقاتل زعيمها وأجبره على الصلح، ودفع الجزية والتي تقدر بأربعة ملايين درهم بالإضافة إلى شروط أخرى (١٢)، ولكنهم كانوا يؤدون الصلح مرة ويمتنعون مرة أخرى فيحاربون ويسالمون، حتى كانت خلافة مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٥٠م) فنقضوا وغرروا بما كان بينهم وبين العرب من عهود (١٣).

- (١) النجار، الدولة الأموية، ص ١٣٤. وبلوش، فتح السند، ص ١٠١، ELLiot, H, M, and John Dowson, The History of Its Own Historians, Volum1, Lahore Islamic book, 1976, p428-429
- (٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٤، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٥٠.
- (٣) فيصل، شكري، حركة الفتح، ص ٢٢٠. محمد فريد عبد القادر، معارك فاصلة، ص ١٢٣. و Lane, Peole; the Muhammadon Dynasties, Paris, 1935, p9.
- (٤) عاقل، نبيه، خلافة بني أمية، جامعة دمشق، ١٩٧٣، ص ٢٠٩.
- (٥) جرجان، تقع بين طبرستان وخراسان، وهي إقليم هر قانية قديماً بالجنوب الشرقي من بحر الخزر، أمين، واصف، معجم الخريطة التاريخية، ص ٤٤، وطبرستان: اسم يطلق على الجبال العالية وهي ممتدة من دلتا سعيد رود إلى جنوب شرقي بحر قزوين، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤٠٩.
- (٦) الاصطخري أبو اسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت ٩٦٦/٥٣٧م)، مسالك الممالك دار صادر، بيروت، نقلاً عن طبعة ليدن، ١٩٢٧، ص ٢٠٤، والديلم ناحية واسعة بين طبرستان وأذربيجان على بحر قزوين، واسمها حالياً إقليم جيلان في إيران، واصف بك، أمين، الفهرست معجم الخريطة التاريخية للمالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص ٥٥.
- (٧) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٦٣، والطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٦٠٧.
- (٨) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٥٣، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٠٥.
- (٩) قهستان تقع شمال غربي بحيرة زره ويؤلف إقليم سجستان وقهستان حدود خراسان الجنوبية وهو الإقليم الشرقي العظيم في بلاد فارس، لسترنج، بلدان، الخلافة، ص ٢٠.
- (١٠) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٤٩، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٠٥.
- (١١) سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ج ٢، ص ٣٥٥.
- (١٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣، وابن الأعمش، الفتوح، ج ٧، ص ١٧٣.
- (١٣) ابن الأعمش، الفتوح، ج ٨، ص ٣٠٨.

٢-فتح المغرب:

ومتلما امتد تيار الفتح من جهة الشرق، امتد هذا التيار من جهة الغرب أيضاً، فمنذ سنة (٦٤١/هـ) أراد عمرو بن العاص فتح المغرب الأدنى (تونس الحالية) بعد فتح مصر وليبيا لكن عثمان بن عفان تردد أول الأمر، ثم سمح لواليه على مصر عبد الله بن السرح من الوصول إلى إفريقية، فسيطر على مدينة سيبتلة بعد قتل حاكمها غريغوريس أو جرجير (١) سنة (٦٤٧/هـ) وفرض جزية على السكان، وبعض الغرامات ثم عاد إلى مصر (٢). و توقفت العمليات العسكرية في المغرب طوال مدة الصراع بين الإمام علي ومعاوية، إلى أن قام معاوية، بعد أن أصبح خليفة، بإرسال جيش بقيادة معاوية بن حديج سنة (٦٤٥/هـ) فسيطر على قلعة جلولاء و ثغر بنزرت (٣).

ولعل أول من خطا نحو توطيد الفتح المنظم في المغرب عقبة بن نافع الفهري، بعد أن كانت العمليات في المغرب عبارة عن غزوات وغارات، ويبدو أن عقبة شارك في أعمال الفتوح منذ صباه، عندما دخل إفريقية مع ابن خالته عمرو بن العاص ومن الملاحظ أنه كان يرباط في برقة، ومنها يقوم بغارات على الواحات، ثم عُين والياً على إفريقية سنة (٦٧٠/هـ) ، وقام بقيادة الفتح فيها، وفطن عقبة لأهمية إقامة مركز للعرب فيها، لا سيما وأنه أدرك أن إفريقية بلد إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا تركها رجعوا إلى سابق عهدهم، فرأى أن يتخذ للعرب مدينة تكون عزاً للعروبة والإسلام إلى آخر الدهر (٤)، ولذلك بنى مدينة القيروان وهي في تونس اليوم، ولم يكد عقبة ينتهي من بنائها سنة (٦٧٤/هـ) حتى قام والي مصر مسلمة بن مخلد بتعيين أبي المهاجر دينار بدلاً عنه، لأن المغرب أو إفريقية، كانت إلى هذا الوقت ماتزال تابعة لمصر، وأمضى الوالي الجديد سبع سنوات في ولايته، قام خلالها بغزوات وصلت حتى أقصى شمال ولاية إفريقية إلى منطقة تونس الحالية كما وصل غرباً إلى أبواب تلمسان في الجزائر (٥) وكان لحسن السياسة التي اتبعها أن انضم العديد من الزعماء المغاربة إلى العرب وكان أشهرهم كسيلة بن لزم زعيم قبيلة أوربة النازلين في المغرب الأوسط وكان من عظماء البربر وهو مسيحي (٦).

ومرة أخرى يعين عقبة والياً على إفريقية من قبل يزيد بن معاوية سنة (٦٨٠/هـ) ، إذ قام بحملته المشهورة التي اخترق فيها المغرب حتى أقصاه ووصل إلى المحيط الأطلسي، وقال كلمته المشهورة «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك» (٧) لكنه مات على يد الروم وحليفهم كسيلة الذي فر من صفوف جيشه سنة (٦٨٤/هـ) (٨) ، ولم يقتصر المصاب على قتل عقبة ومن معه، بل تعدى ذلك إلى خسارة كل ما حصل عليه العرب في المغرب، حتى أن كسيلة اتجه بمن معه إلى القيروان ،فانسحب منها زهير بن قيس البلوي- نائب عقبة عليها- إلى برقة، ثم إلى مصر بعد أن أدرك عجزه عن مواجهة العدو ،وبقي أمر المغرب

(١) ديوز، محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٣، ج٢، ص ١٧ .

(٢) أحمد، علي، تاريخ المغرب العربي الإسلامي، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢، ص٤٤،

(٣) المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد (٤٧٤/هـ ١٠٨١م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية.. تحقيق بشير الكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤، ج١، ص٢٨.

(٤) المالكي، رياض النفوس، ج١، ص٣٢نوابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص١٩.

(٥) السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (١٣١٥ هـ / ١٨٩٧م) الإستقصا لأخبار الدول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧، ج١، ص١٣٦.

(٦) مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص١٧٤، و أحمد، علي، تاريخ المغرب الإسلامي، ص٥٠

(٧) المالكي، رياض النفوس، ج١، ص٣٩، وابن عبد الحكم، فتح مصر، ص١٣٤،

(٨) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٢٩.

دون تغيير بسبب مشاكل الدولة في الفتنة الثانية، وما إن استقر الأمر نسبياً لعبد الملك بن مروان، حتى أرسل زهير بن قيس البلوي إلى إفريقية لقتال كسيلة، فالتقى معه عند مدينة ممس وانتصر عليه (١) سنة (٦٩هـ/٦٨٨م) وفي هذه الأثناء وجد الروم الفرصة مناسبة للإغارة على برقة التي غادرها زهير، فقتلوا ونهبوا فيها، الأمر الذي دعا زهير إلى العودة إليها لكن الروم تمكنوا منه وقتلوه ومن معه . وما إن تم لعبد الملك القضاء على ابن الزبير، حتى أرسل حسان بن النعمان الغساني والياً على المغرب سنة (٧٣هـ/٦٩٢م) (٢) وركز حسان هجومه أول الأمر على الروم وقاعدتهم البحرية والإدارية في قرطاجة (٣)، واحتلها لكنه أخفق أمام الخصوم الآخرين من يهود الأوراس بزعامة الكاهنة المعروفة باسم دهيا، التي كان جميع من بأفريقية يخافون منها وجميع المغاربة بشرق الجزائر لها طائعون (٤) فتراجع حسان إلى برقة فأقام فيها ثم بنى قصوراً عُرفت بقصور حسان (٥)، وملكت الكاهنة المغرب الأدنى وخرّبت القرى والعمران (٦) كي تزيل مطامع العرب في إفريقية حسب اعتقادها، لكن هذا التصرف أزعج المغاربة، حيث ما إن دخل حسان إلى قابس حتى رحب به سكانها الذين اغتاضوا من الكاهنة لتخريبها البلاد، فتوجه حسان نحو وادي الجريد، فالتقى مع الكاهنة في معركتين قتلت في الثانية (٧) وبعد ذلك عاد حسان إلى القيروان، حيث وطّد الفتح وسلطان العرب فيها وبنى مدينة تونس سنة (٨٣هـ/٧٠٢م) (٨).

واستطاع موسى بن نصير، الذي ولاه عبد الله بن مروان والي الوليد بن عبد الملك على مصر (٩)، إتمام الفتح بسرعة ما بين (٨٧-٩٠هـ/٧٠٥-٧٠٨م)، وكانت عملياته على ما يبدو سهلة، هذا ما يدل عليه صمت الروايات عن الصدامات وأعمال الحصار، واقتصارها على ذكر المغانم وعظمتها (١٠)، ومع أن الروايات حول سيره مضطربة إلا أنه يُستفاد منها بأن المراحل الأساسية لخط سير موسى كانت عبور المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) في الداخل ثم تجاوزه له والوصول إلى شمال المغرب الأقصى (المملكة المغربية) حيث فتح طنجة، ثم انحدره نحو الجنوب حتى سجلماسة (١١) ودرعة. وهكذا تتضح الروح التوسعية لدى الأمويين من خلال دعم فتوح المغرب على الرغم مما لاقاه قادة الفتوح من صعوبات.

٣-فتح الأندلس :

لم يبقَ من بلاد المغرب إلا سبتة الواقعة في نهاية البحر المتوسط شرقي طنجة وكان يحكمها باسم بيزنطة أميراً يسمى يوليان، وبينما كان موسى يتحرك لإتمام هذا الفتح جاءت لطارق بن زياد، الذي ولاه طنجة، رسالة من يوليان حاكم سبتة يعرض عليه فيها استسلام سبتة للعرب، ويدعوهم فيها إلى إسبانيا (١٢)، ولكن يبدو أن

(١) المالكي، رياض النفوس، ج١، ص٤٥.

(٢) أحمد، علي، تاريخ المغرب الإسلامي، ص٥٣

(٣) تقع قرطاجة على خليج تونس شرقي العاصمة، وتبعد عنها ١٠ كم، يحيى شامي، موسوعة المدن، ص ١٥٥ .

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٢٥.

(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٢٦ .

(٦) مؤنس، فتح المغرب، ص٢٥١.

(٧) حسن محمد، نبيلة، تاريخ الدولة العربية دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص٢٧٤ .

(٨) المالكي، رياض النفوس، ص٥٥

(٩) السلاوي، الاستقصا، ج١، ص١٥٢.

(١٠) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص٢٧٤، وابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٤٣.

(١١) اسمها حالياً تافيلت وهي إقليم في المملكة المغربية في الجنوب الغربي من جبال الأطلس، آصف بك، فهرست المعجم، ص٦٦.

(١٢) عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ص٣٨-٣٩ .

فكرة فتح الأندلس كانت في ذهنهم لأن حركة الفتوحات كانت كالثورة الجامحة من قبل العرب، ولأنهم خافوا من حرب ارتدادية من القوط والفرنجة والروم من الأندلس لقربها من المغرب (١)، ولقد ساعدت الظروف الداخلية في اسبانية، العرب على هذا الفتح، فلقد كانت البلاد تعاني من انقسامات سياسية واضطهاد اقتصادي واجتماعي (٢) فاستبشر أهل الأندلس بالعرب الفاتحين خيراً، وأملوا فيهم الخلاص من حكم القوط، وسهّل هذا الترحاب على العرب مهمة الفتح، التي لم تتعدّ العامين، ولذلك اتصلوا ببوليان، وأرسل موسى إلى الخليفة الوليد يعلمه بالأمر، فوافق الخليفة على ذلك بشرط إرسال سرايا استطلاعية للتأكد من صدق بوليان (٣)، وبالفعل أرسل موسى حملة بقيادة مولى له يدعى طريف بن مالك، فعاد إلى طنجة غانماً (٤)، ثم أرسل موسى مولى له اسمه طارق بن زياد في جيش جلّه من المغاربة سنة (٧١١هـ/٧٩٣م) فنزل بالجيش في جنوب شبه الجزيرة في مكان سمي على اسمه جبل طارق (٥)، وفور سماع الحاكم الاسباني لذريق بنزول طارق أرض شبه الجزيرة، ترك حروبه المحلية في الشمال وانسحب باتجاه الجنوب حيث وقعت المعركة بينه وبين طارق الذي كان يصحب بوليان ليدله على الطريق (٦). ودارت المعركة في وادي لكّة (يصب في المحيط الأطلسي) والتي انتصر فيها طارق وفتحت أمامه الأندلس حيث اتجه شمالاً ليقضي على فلول الجيش القوطي عند مدينة استجة، وبعد قتال عنيف انتصر طارق، الذي وزع جيشه في اتجاهات مختلفة، بحيث أرسل جيشاً نحو قرطبة والآخر باتجاه مالقة، والثالث باتجاه البيرة قرب غرناطة (٧) والرابع كان يقوده بنفسه، واتجه به نحو جيان ثم إلى طليطلة، حيث دخلها بسهولة لأن أهلها هربوا منها. وفي هذه الأثناء عبر موسى بن نصير إلى الأندلس مع جيشه، ربما لأنه رأى ضرورة كي لا يتعرض طارق وجيشه للخطر في هذه الأرض البعيدة والواسعة (٨)، واستولى موسى على شنونة وقرمونة وإشبيلية وماردة (تقع جميعها جنوبي وادي الكبير جنوبي الأندلس) عام (٧١٠هـ/٧٩٢م) والتقى موسى بطارق في مدينة طليطلة قرب طليطلة، وتذكر بعض الروايات التاريخية إساءة موسى لطارق (٩)، وربما كان الموضوع جدلاً في سياسة الفتح وخطه وغير ذلك من أمور تخص الفتح (١٠)، وبعد لقائهما سارا معاً وفتحا سرقسطة (تقع في أقصى الشمال الشرقي من الأندلس)، ثم ذهب كل واحد منهما في اتجاه حيث اتجه طارق نحو الشرق، ففتح وشقة وليون واسترقة وغيرها من المدن الواقعة في أقصى الشمال الشرقي من الأندلس (١١)، بينما اتجه موسى إلى الشمال، ففتح لاردة وطرطوشة (تقع على نهر الأبرو عند مصبه على المتوسط)، وفي هذه الأثناء جاءه أمر الخليفة الوليد بضرورة العودة إلى دمشق لأسباب لاتزال غير معروفة. واستكمل موسى قبل المغادرة بعض الفتوح، ثم نفذ أمر الخليفة وغادر الأندلس مع طارق، فوصلا دمشق

(١) أحمد، علي و زعرور، إبراهيم، تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٦، ص ٦٧.

(٢) عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، ص ٢٧. و مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢، ص ١٣ وما بعد.

(٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٩، ص ١٦.

(٤) المقري، أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١هـ/١٦٣١م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج ١، ص ٢٥٣.

(٥) السلاوي، الاستقصا، ج ١، ص ١٥٤. المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٣٣.

(٦) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٧، وابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٨-٩.

(٧) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٦١.

(٨) نبيه، عاقل، خلافة بني أمية، ص ٢١٧.

(٩) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٦-٢٧، وابن عذارى، البيان، ج ٢، ص ١٦، و ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٧٠.

(١٠) أحمد، علي و زعرور، إبراهيم، تاريخ العصر الأموي، ص ٧١.

(١١) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، ص ١٦٦.

في (٧٩٦هـ/٧١٤م). واستطاع العرب في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) فتح بعض المدن منها أربونة على يد والي الأندلس السمع بن مالك الخولاني(١)، كما قام عنيسة بن سحيم سنة (١٠٥هـ/٧٢٣م) بالوصول إلى منطقة لوتسكي الفرنسية، وهي أبعد نقطة وصل إليها العرب في فرنسا(٢) كما استطاع عبد الرحمن الغافقي والي الأندلس عام (١١٤هـ/٧٣٢م) تجاوز جبال البرانس والتوجه إلى بوردو فأخذها عنوة واتجه نحو مدينة بواتييه ، ثم مدينة تور، حيث اصطدم فيها بجيش الدوق أودو الذي استنجد بشارل مارتل زعيم الدولة الميروفنجية (٣) وكانت الهزيمة من نصيب العرب ، وقُتل الغافقي ، ودعيت المعركة ببلاط الشهداء (٤) ، وكانت هذه آخر محاولة جدية قام بها العرب باتجاه بلاد الفرنجة.

وهكذا استطاع الأمويون توسيع دولتهم بما وفروه من قدرة عسكرية و مادية وإن لم يفتر بعضهم كالخليفة سليمان بن عبد الملك ضرورة تلك الفتوحات ودعم الفاتحين.

-
- (١) البيان المغرب، ج٢، ص٢٧، و عنان ، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس (القسم الأول) ص٨١.
 - (٢) مؤنس ، فجر الأندلس، ص٣٠٨.
 - (٣) المرجع السابق، ص٣٢٤.
 - (٤) المقرئ، نوح الطيب، ج١، ص٢٣٦.

٤- اعتماد نظام الرباط والمناخنة لدفع الخطر البيزنطي:

كان هم الأمويين توسيع رقعة الدولة، فكما امتدوا شرقاً وغرباً، كذلك أرادوا الامتداد نحو الشمال ودك حصون العاصمة البيزنطية، بعد أن أخذوا من بيزنطة ولاياتها في الشام ومصر، وفيما بعد المغرب، واستولوا على أجزاء كثيرة من أملاك البيزنطيين في البحر المتوسط وقلصوا نفوذهم.

وبدأ إعداد العدة للبيزنطيين منذ العصر الراشدي، إذ أطلق عمر بن الخطاب يد معاوية من أجل تأمين السواحل، وبالفعل قام معاوية بترتيب المقاتلة فيها، وأقام الحرس على مناظرها واتخذ لها المواعيد، كما وضع للمدن الساحلية نظاماً عُرف بالرباط(١)، وكان الرباط يضم حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لغارات أساطيل الروم، وخصت حاميات الرباط لإنذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما ظهرت سفن البيزنطيين في المياه، فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة والمؤن وبرجاً للمراقبة، غير أن الرباط ما لبثت أن اتسعت وازدادت أهميتها حتى صارت قواعد للهجوم البحري وشن الغارات(٢) كما ازداد العمران في السواحل، حيث أمر عثمان بن عفان منح كل من يسكن المدن الساحلية إقطاعات من الأرض (٣) من أجل زرع ركيزة على السواحل لضرورة السيطرة على الجزر المتوسطية، ومن أجل ذلك أنشأ الأسطول في مصر، حيث تم فتح جزيرة قبرص سنة (٥٢٨/٦٤٨ م) وأرواد ورودس، وتوج العرب هذه الفتوحات الجزرية بأن ثبتوا أقدامهم في البحر المتوسط، بانتصارهم على البحرية البيزنطية في معركة ذات الصواري قرب ليكيا(٤) عام (٥٣٤/٦٥٤ م)، لكن الصراع الذي تم بين الإمام علي ومعاوية أوقف الغزوات .

ومع اندلاع الحرب بين الإمام علي ومعاوية ضعفت على ما يبدو الحاميات العسكرية المرابطة على الحدود مع بيزنطة فاستغل البيزنطيون ذلك وحرصوا عناصر الجراجمة الساكنة على حدود الشام الشمالية في جبال اللكام (الأمانوس) وهؤلاء قوم من أصول مختلفة(٥). كما أن بيزنطة استولت على أجزاء من أرمينية التي فُتحت منذ خلافة عثمان (٦) عام (٥٢٥/٦٤٥ م). واضطر معاوية من أجل درء الخطر إلى عقد هدنة مع الإمبراطور البيزنطي(٧)، وما أن انتهى من مشاكله حتى أعلنها حرباً ضد بيزنطة، وأطلق عليها حرب الثغور(الحدود) وتعني كل موضع يكون في أرض العدو في بطن أو وادي أو فرجة جبل(٨) قرب الأرض العربية، وكانت حدود الروم تتكون من سلاسل جبلية عالية منها جبال الأمانوس وقُسمت هذه الثغور إلى قسمين: ثغور الشام

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٤

(٢) العدوي، إبراهيم أحمد، قوات البحرية العربية، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ص ٢١.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة،

(٤) أرشيبالد، لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٩٠

(٥) اسماعيل، عادل، المرديون (المردة) دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ٢٠٠٠، و، ضو، بطرس، تاريخ الموارنة دار النهار، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٨٤.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٦.

(٧) قطار، إلياس، لبنان في العصور الوسطى، كلية الآداب الجامعة اللبنانية، بيروت، ٢٠٠٣، ج ١، ص ٤٦

(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ١٠٣.

وهي الحصون الجنوبية الغربية، أي الأماكن الحصينة التي تحمي الشام من اعتداءات البيزنطيين وأهمها: طرسوس (١) الواقعة جنوب آسيا الصغرى، وأدنة (أضنة حالياً) والمصيصة ومنبج وأنطاكية ومرعش. أما الثغور الجزرية (الجزيرة نسبة إلى المنطقة التي تقع بين نهري الفرات و دجلة) فهي الحصون الشمالية الشرقية ومنها: سُميساط وملطية والحدث وزبطرة (٢) وجعلت الدولة الأموية وظيفه الثغور الجزرية حماية الدولة العربية الإسلامية من هجمات البيزنطيين، في حين جعلت مهمة الثغور الشامية الهجوم على الدولة البيزنطية نفسها (٣) ولقد اهتم معاوية بتحسين المدن الساحلية وإقامة أبراج للحراسة والمراقبة وشجع الأهالي على السكن في هذه المناطق . وتجسد نظام الثغور هذا منذ عام (٥٢٩/٦٤٩م)، لكنه توقف بسبب الظروف الداخلية للدولة لتعود في سنة (٤٢٠/٦٦٢م) في خلافة معاوية (٤)، بهيئة الصوائف والشواتي، فقد كان العرب يقومون في كل عام بغزوتين على بلاد البيزنطيين في الشتاء وفي الصيف، وتعددت هذه الغزوات في عهد معاوية والتي استهدفت إنهاك قوة البيزنطيين، وشغلهم في عقر دارهم، كما أنها كانت كمدرسة لتخريج جيل جديد مدرب من المحاربين والقادة العسكريين (٥)، ومنها تلك الغزوة التي شارك فيها يزيد بن معاوية والتي وصلت إلى القسطنطينية (٦)، وبالإضافة إلى هذه الغزوات كان معاوية يفكر في غزو الجزر المتوسطية، لأنه كان يخطط لغزو القسطنطينية، ولذلك فتح عدة جزر منها رودس عام (٥٢٠/٦٧٢م) على يد جنادة بن أبي أمية (٧)، فأنزل فيها معاوية قوماً من العرب ورتب لهم العطاء (٨) كما غزا جنادة جزيرتي كريت وأرواد سنة (٥٥٠/٦٧٤م) (٩) واستولى العرب على أزميز وقلبيقة وليكيا، وبذلك مهد معاوية لحلمه، حيث حاصر القسطنطينية منذ سنة (٥٤٠/٦٧٣م) حتى سنة (٥٩٠/٦٧٨م)، ولكن الحصار أخفق ومني العرب بهزيمة (١٠)، إذ كان لموقعها الحصين دوراً هاماً في نصر البيزنطيين، بالإضافة إلى ذلك استخدم البيزنطيين النار الإغريقية،

(١) طرسوس مدينة بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٨.

المصيصة مدينة هي في شمال سورية تقع الآن في تركيا، أمين واصف، الفهرست معجم، ص١٠٨، ومرعش: واحدة من أهم المدن الواقعة إلى الشمال من سورية ولاتزال معروفة بهذا الاسم، أمين واصف، الفهرست، ص٨٢، ومنبج هي مدينة صغيرة تقع إلى الشمال السوري قريباً من الحدود التركية إلى الشمال الشرقي من حلب وإلى الغرب من نهر الفرات، شامي، موسوعة المدن، ص٦٥.

(٢) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت٦٦٠/١٢٦١م) بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ج١، ص٢٥٢. وسُميساط مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم غربي الفرات، الحموي، معجم، ج٣، ص٢٥٨، وملطية، مدينة قديمة للروم فُتحت على يد معاوية وهي غربي مدينة ديار بكر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٩٣. والحدث، قلعة حصينة بين ملطية. وزبطرة، مدينة في طرف بلاد الروم فتحها العرب، البلاذري، فتوح البلدان، ص١٩٥.

(٣) الجنزوري، علية عبد السميع، الثغور البرية الإسلامية على الحدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٠-٢٥.

(٤) أبو زيد، علا عبد العزيز، الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص٢٢.

(٥) رمضان، عبد العظيم، الصراع بين العرب وأوروبا منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص٩٧.

(٦) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ٢٤٠، ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٢١٤.

(٧) ابن عساکر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١/١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد العمري، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥، ج١١، ص٢٩٢-٢٩٩، و العبادي، أحمد مختار سالم، والسيد عبد العزيز، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص٢٣.

(٨) البلاذري، فتوح، ص٢٣٧.

(٩) أرشيبالد، القوي، ص٩٦، سيد أحمد الناصري، الروم والمشرق العربي مركز النشر بجامعة القاهرة، ١٩٩٢، ص٣٢.

(١٠) Moss, H, St. The Formation of East Roman Empire, 330-717 in C,M H Vol Iv B (1966)p31., Cambridge

وساعدتهم الرياح على ما بقي من سفن للعرب (١)، وبعد هذه الخسارة رأى ضرورة سحب قواته في أواخر أيامه وعقد هدنة مع البيزنطيين لمدة ثلاثين عاماً لأنه سيمهد الأمر لتولية ابنه يزيد (٢). كما واهتم معاوية بفتح حصون إفريقية التي كانت ولاية بيزنطية، ولقد تمكن الجيش الذي أرسله بقيادة معاوية بن حديج سنة (٤٥٥هـ/٦٦٥م)، من فتح قلعة جلواء وثغر بنزرت (٣).

أ-الاهتمام بالتحصينات في عهد عبد الملك بن مروان : أراد الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني (٦٥-٧٦هـ/٦٨٤-٦٩٥م) ومن (٨٦-٩٣هـ/٧٠٥-٧١١م) استغلال الظروف الداخلية للدولة العربية الإسلامية، عقب موت يزيد بن معاوية فأرسل جيوشاً لقتال العرب في قبرص وأرمينيا (٤)، وهاجموا حصون الثغور وخاصة ملطية وأنزلوا عساكرهم بها (٥)، كما أنهم عادوا لاستغلال الجراجمة في إثارة المشاكل والفوضى في الدولة العربية الإسلامية، وبما أن الأمور لم تستقم بعد لعبد الملك بن مروان، فقد اضطر إلى عقد معاهدة مع البيزنطيين، قدم فيها ضريبة سنوية ووافق على أن تتقاسم دمشق والقسطنطينية الضرائب التي تُجمع من قبرص وأرمينيا (٦) كما وافق الإمبراطور البيزنطي على نقل الجراجمة من شمال الشام، وبهذا النقل حقق عبد الملك مكسباً سياسياً عظيماً، إذ تخلص من هجمات الجراجمة ومن مشاكلهم ومن الفوائد التي كانوا يقدمونها لبيزنطة (٧) وتم توزيعهم في مناطق مختلفة (٨) وبعد انتهاء عبد الملك من مشاكله الداخلية، نقض المعاهدة لأن البيزنطيين أرسلوا حملة إلى قبرص ونقلوا بعض سكانها إلى جزيرة كوزيكوس القريبة من القسطنطينية وباعتبار أن قبرص من أملاك الدولة العربية الإسلامية، فقد أدى ذلك إلى اندلاع الحرب بين الطرفين عام (٧٢-٧٣هـ/٦٩١-٦٩٢م) وانحاز الصقالبة إلى الدولة العربية الإسلامية ليخسر البيزنطيون المعركة عند مدينة سيستوليس، وبنيتها عادت أرمينيا إلى أحضان الدولة العربية (٩) ونتيجة لذلك أعاد عبد الملك حملات الصوائف والشواتي السنوية من ثغور الشام، وتم من خلالها الاستيلاء على حصن المصيصة، حيث أسكن فيه عبد الملك الجنود وجعله منطقة الحدود بدلاً من أنطاكية (١٠). كما اهتم عبد الملك بصيانة هذا الثغر، فبنى حوله الجدران الضخمة والجدران المزدوجة (١١). هذا ما قام به عبد الملك في المشرق أما في جهة المغرب العربي، والذي كان لا يزال للبيزنطيين فيه مواقع، فاهتم عبد الملك بتلك المواقع وخاصة الحصون والثغور الساحلية، فعندما أرسل عبد الملك زهير بن قيس البلوي لقتال كسيلة استغل البيزنطيون غياب زهير عن برقة، وأغاروا

(١) أرشيبالد ، القوي، ص٩٨، Trans ,Joan Hussey ,History of the Byzantine State ,Ostrogolosky ,G, (Oxford)1956 P112

(٢) Finlay ,G, History of the Byzantin Empire Oxford, 1878 , p360. ، و العريني، السيد الباز ،الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٥، ١٤٨-١٥٢.

(٣) السلاوي ، الاستقصا ، ج١، ص١٣٣، وبنزرت: مدينة ساحلية تقع على ساحل المتوسط عند الرأس الأبيض إلى الشمال الغربي من العاصمة تونس، شامي، يحيى، ص١٤٨.

(٤) فرح، نعيم، تاريخ بيزنطة السياسي، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢، ص١٥٨.

(٥) ابن العديم بغية الطلب ، ج١، ص٢٥٣.

(٦) Ostogrsky ,G, History of the Byzantine State p,116. And Fooed ,E The Byzantine Empire (London 1911)p146.

(٧) BURY ,J,B, A History of The Later Roman Empire ED London ,1931, p321

(٨) عبد العزيز، وسام فرج ،العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، رسالة دكتوراه، الهيئة المصرية العامة للكتاب،الإسكندرية،١٩٨٩، ص٤٤.

(٩) الناصري ،سيد أحمد ،الروم والمشرق، ص٢٣٤.

(١٠) البلاذري،فتوح البلدان، ص١٦٩، و p393 ، (Oxford ,1977) ، Finaly, G , History of Greece,7,

(١١) عبد المنعم، ماجد ،التاريخ السياسي، ص١٧٥.

عليها وقتلوا زهيراً عندما عاد إليها (١)، وفي سنة (٥٧٣ / ٦٩٢م) ركز حسان بن النعمان على قرطاجة، قاعدة البيزنطيين البحرية والإدارية، فهدمها كي لا يبقى للبيزنطيين فيها مكان، كما فتح موسى ابن نصير طنجة عام (٨٧-٩٠هـ / ٧٠٥-٧٠٨م) وغزا الجزر المتوسطية مثل الباليار وميورقة ومينورقة وكذلك سارت حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردينية، وتم فتح سبتة (٢).

ب- عهد الوليد بن عبد الملك: أعاد الوليد الصوائف والشواتي بقوة، وعين لهذه الغزوات أخاه مسلمة بن عبد الملك، وابنه العباس، اللذين أظهرتا كفاءة وقدرة حربية فائقة، كما أبدى الوليد للغزوات في آسيا الصغرى أهمية خاصة، ربما لأنه كان يفكر في تحقيق الحلم الأموي، في غزو القسطنطينية، ويبدو أنه ركز في عملياته العسكرية على المعازل الهامة الواقعة على الطريق الأساسي للقسطنطينية، ولقد أشارت المصادر إلى العديد من أسماء الحصون والمعازل البيزنطية التي استهدفتها الحملات العربية السنوية (٣) ويلاحظ أن الأسماء اختلطت لدى بعض المؤرخين العرب، وتضارب التوقيت الزمني بالنسبة للاستيلاء عليها، وربما يشير هذا إلى تكرار هذه الحملات كل سنة والتي تفتح الحصون المتقاربة أو ربما تعيد فتح حصون سبق فتحها. ولعل الحصن الأكثر أهمية هو حصن طوانة (٧٠٦هـ / ٧٠٦م) (٤) لأنه بسقوطه أصبح الطريق الهام بين أعمال الشام والبوسفور، والذي تسلكه الجيوش العربية الإسلامية، مفتوحاً، كما بنى حصن سلوقية (٥). ورداً على هذه الحملات هاجم الأسطول البيزنطي دمياط (٦)، وفكر الوليد بعد إحراز نجاحاته بتجهيز حملة للوصول إلى القسطنطينية، لكن الموت سبقه قبل تجهيزها.

ج- عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز: استلم سليمان الخلافة والاستعدادات لغزو القسطنطينية قائمة على قدم وساق، فدب الحماس في نفسه لتحقيق هذا الحلم، وعسكر في مرج دابق بالقرب من حلب في منطقة الثغور (٧)، حيوفي عام (٧٩٨هـ / ٧١٦م) سار مسلمة بن عبد الملك قاصداً القسطنطينية، وقد تجمعت لديه أساطيل الشام ومصر، حيث أرسلها سليمان في البحر لتساند القوى البرية (٨)، واستمر الحصار الذي كان قاسياً جداً طول عهد حكم سليمان، حيث انتهى بالإخفاق الذريع (٩) ولما استخلف عمر بن عبد العزيز أمر الجيش بالانسحاب، كما أنه هدأ من النشاط العسكري في خلافته، لأنه كان ميّالاً إلى الدفاع أكثر من الهجوم، على عكس الخلفاء السابقين الذين رأوا أنّ الهجوم خير وسيلة للدفاع، ولرد الخطر البيزنطي فقد كانت حملات الصوائف والشواتي من أجل حصار القسطنطينية نتائج أهمها إشغال البيزنطيين عن التفكير في استرداد ممتلكاتهم وخاصة في المغرب الكبير. وانصب اهتمام عمر على صيانة حدوده وتقويتها، فقد رمم حصن اللاذقية (١٠)، ونظم للمرابطين حياتهم في الثغور، حيث جعل الرباط أربعين يوماً، وعاقب من تخلف عن ذلك فقد

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٢٢.

(٢) كاشف، الوليد بن عبد الملك، ص١٣٥، لويس، القوى، ص١٠١.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٧٥-٦٨٠.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٦، وابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٨٠.

(٥) ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٩٠.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٥٨.

(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٩٩.

(٨) رمضان، عبد العظيم، الصراع بين العرب وأوربة، ص١٠٨.

(٩) عبد الله، وديع فتحي، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص٩٤-

٩٥، وأرشيبالد، القوى، ص١٠٤،

Finally ,G , History of Greece, pp18-19.

(١٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣٩.

اعتبر إقامة الحدود كإقامة الصلاة والزكاة،(١)،ويبدو أن بيزنطة شعرت بالقوة فأرادت استرداد هيبنتها البحرية وكسر شوكة العرب البحرية، فأغارت على اللاذقية في عام (٧١٠هـ/٧١٩م)، وعلى تانيس الواقعة على الساحل المصري (٢) عام(٧٢٠هـ/٧٢٠م).

د-عهد يزيد وهشام بن عبد الملك: لم يكن عهد يزيد عهد إحراز انتصارات أو غزوات ذات شأن، ومن غزواته ما قام به جند ثغور الشام وجند ثغور الجزيرة في أرمينية(٣)، التي كانت طرفاً في الصراع العربي-البيزنطي، والتي كان ولاءها يتغير وفقاً لمصالحها(٤)، وبسبب موقعها المتوسط بين الدولتين، قام يزيد بإرسال أحد قواده وهو الجراح بن عبد الله الحكمي الذي فتح حصن بلنجر فيها(٥). أما هشام بن عبد الملك فقد أولى الحصون والثغور اهتماماً، حيث أنشأ حصوناً على الطريق العسكري الممتد من أنطاكية حتى المصيصة، كما تتالت الغزوات المنطلقة من ثغور الجزيرة و ثغور الشام إلى أرض الروم البيزنطيين ما بين عامي (١١٣- ١٢٢هـ/٧٣١-٧٣٩م) التي كانت تفتح الحصون صيفاً وتتخلى عنها في الشتاء ، لتعاود فتحها في الصيف التالي . وفي عام (٧٣٩هـ/١٢٢م)قرر هشام إرسال جيش لقتال بيزنطة في أكرونيون بالقرب من عمورية، لكن الجيش العربي مني بالهزيمة وقُتل أحد مقاتليه الأبطال المشهور بالشجاعة والإقدام، عبد الله البطل(٧)، وأدى هذا إلى رفع معنويات بيزنطة، التي قامت بالهجوم على ملطية(٨). ثم تراجع المد العربي باتجاه أسية الصغرى ليتوقف نسبياً في ما بقي من عهد هشام .

أما في المغرب فقد قام أسطول تونس بغزو صقلية عام(٧٢٧هـ/١٠٩م)وعام(٧٢٨هـ/١١٠م) وأغار على جزيرة سردينية عام (١١٧هـ/٧٣٥م) (٩).

وهكذا يمكن تتبع قوة الأمويين في التحصين علواً وانخفاضاً، حسب قوة الخليفة وضعفه، أو حسب حاجة الدولة إلى ذلك.

-
- (١) ابن سعد، الطبقات ، ج٥، ص٣٧٨.
 - (٢) أرشيبالد ، القوى البحرية والتجارية ، ص ١٠٥ .
 - (٣) عبد المنعم ، ماجد ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٧٩
 - (٤) عبد الغني ، عبد الرحمن محمد، أرمينية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين ٦٥٣-١٠٦٤م الاسكندرية ، ١٩٨٣ . ص ١٨٠-١٨٢.
 - (٥) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة ، ص ٣٣٠.
 - (٦) لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٦٠.
 - (٧) البلاذري ،فتوح البلدان، ص ١٩٠. والذهبي، شمس الدين محمد بن احمد(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء ،تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤٨٣، ج٥، ص٢٦٩، و الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٧٤.
 - (٨) عبد الله، وديع فتحي، العلاقات السياسية، ص ١١٦.
 - (٩) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ٤١٦.

٥ - اعتماد سياسة فصل الدين عن السياسة :

لقد أشكل عصر بني أمية على المؤرخين القدامى في حسم طبيعته السياسية، هل مثلت ملكاً أم خلافة أم أنموذجاً لدولة تميزت عن كلاهما ؟

وهذا السبب هو الذي اضطر المؤرخين إلى استعمال مفردات عديدة تشير إلى أيامهم دون أن يتحملوا مسؤولية مصطلحات أخرى (١) مما يعكس وعياً بجمع بني أمية لمشتقات تلك العناصر، فهم استعملوا القوة والغلبة في حكمهم، كما أنهم استأثروا بالمال (٢)، وبالوقت نفسه جسدوا مهام الخلفاء، بحيث حرصوا على إقامة شعائر الدين، وأن يُنظر إليهم كمؤمنين على رسالة الإسلام ومستمرين بنشرها والدود عنها. هذا بالإضافة إلى حرص الأمويين على عدم الجمع بين سلطتهم الدينية وسلطتهم السياسية، أي أنهم لم يسيسوا الإسلام، وذلك بأن يعتبروا أن مهمتهم أسلمة الدولة، بل على العكس اعتبروا أنهم مسؤولين عن جميع رعاياهم بغض النظر عن دياناتهم حتى أنهم عملوا على إشراك المسيحيين في شؤون الدولة الإدارية، هذا عدا عن الاحترام الذي لاقاه هؤلاء في الحياة الاجتماعية ، وكذلك الحرية الاقتصادية، أي أنهم زاولوا المهن التي يرونها مناسبة لهم.

ولقد استطاع معاوية التوفيق بين ما هو سياسي وما هو ديني وهنا لا ينبغي مسايرة ابن خلدون فيما ذهب إليه من انقلاب الخلافة إلى ملك مطلق (٣)، فالمتتبع لبرنامج معاوية اليومي الذي يورده المسعودي، يلحظ اهتمام معاوية البالغ بأخبار الماضين للتعرف على سياساتهم، بالإضافة إلى تلاوة القرآن (٤) . ويجسد هذا الخبر شخصية معاوية بالإرث البعيد مع الإرث السياسي في بناء الدولة ، وفكرها السياسي، وبالتالي بناء منهج لمن يليه من الخلفاء ومن هنا قيل إنَّ السواس من بني أمية كان معاوية وعبد الملك وهشام (٥)، وبرغم ذلك فقد كان معاوية يرغب بأن يُسلم عليه بالخلافة بإمارة المؤمنين قبل وصفه بصفة الملك (٦)، بحيث إنه لم يرغب بنفي لقب الخلافة عنه . ولقد رأى معاوية أن مهمة الخلافة هي صيانة الأمة وإدارتها، وتوطيد الحكم فيها، أكثر من توثيق الأحكام الفقهية وإقحام تلك الأحكام في حياة الأفراد (٧) . كما عمل معاوية على نشر المعرفة العربية الإسلامية من خلال الجهاد ورأى أنه من مصلحة الدولة نقل العاصمة بعد الفتنة، واختار دمشق مكاناً لها، حيث الشام التي اعتادت على الأنظمة السياسية . ولقد مدح الكثير سياسة معاوية، فعبد الله بن عباس قال عنه «ما رأيت رجلاً أخلق بالملك من معاوية» (٨) ، وحتى معاوية قال عن نفسه أنه أول الملوك (٩)، حيث اتخذ لنفسه بعض مزايا الملوك فقد أحاط نفسه بهيبة الملوك وجلالهم، كما جعل لنفسه سريراً على نحو ما كان للأباطرة الروم والفرس (١٠)،

(١) يورد اليعقوبي في تاريخه لفظ أيام بني أمية انظر الفهرس، والطبري يورد الملك لمعاوية والبيعة لمن بعده، أما السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٥٢ فيذكر في هذا الكتاب الخلافة للراشدين أكثر مما يستخدمها للأمويين باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي يركز على خلافته، انظر : تاريخ الخلفاء، فيما يخص الراشدين ص ٧٢-١٨٧، وفيما يخص الأمويين ص ١٩٤-٢٥٦.

(٢) أحمد، عبد السلام، دراسات في مصطلح الساسة عند العرب، تونس، ١٩٧٨، ص ٥٩.

(٣) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) المقدمة، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤، ص ٢٠٢.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٢٣.

(٥) المصدر السابق، ج٣، ص ١٥١.

(٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٣١٧.

(٧) العش، الدولة الأموية، ص ١٤٠.

(٨) شاهين، حمدي، الدولة الأموية المفترى، دار القاهرة، للكتاب، ٢٠٠١، ص ١٩٥.

(٩) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٣٢.

(١٠) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٢١٧.

كما ويبرز تجذر مفهوم السياسة لدى معاوية عندما أظهر اللين تجاه المسيحيين فهو صلى في الجلجلة(١)، وعند قبر مريم العذراء(٢)، حيث شعر المسيحيون في عهده برخاء لا يقل عما كانوا عليه في حكم البيزنطيين(٣)، فقد جدد عمارة كنيسة الرها(٤) التي خربها الزلزال سنة (٤٣٣هـ/٦٦٣م)(٥)، كما أنه اعتمد عليهم - المسيحيين- في الشؤون الإدارية، كنوع من المشاركة، وكى لا تصطبغ الدولة بالصبغة الدينية، فلقد توارثت أسرة سرجون بن منصور الوظائف المالية طوال قرن كامل بعد الفتح (٦)، كما عين ابن أثال طبيبه المسيحي جابياً لخراج حمص، وهذه وظيفة مالية لم يسبق لمسيحي قبله أن وصل إليها(٧) ومن حنكة معاوية ودهائه أنه استمال الرعية بأن عامل خصومه بسخاء وبرحابة صدر لا غطرسة فيها مما يحفظ لهم كرامتهم واحترامهم ويكسب ولاءهم، وهو لم يدع أية صفة دينية، كما أنه جعل الجيش الشامي داعمًا لمناوراته السياسية البارعة(٨)،

وإذا كان معاوية مؤسس الدولة الأموية، فإن عبد الملك موطن أمورها، فهو يوصف بأنه صاحب شخصية جبارة، شديدة السياسة(٩)، هذا بعد أن صار خليفة لكن قيل ذلك كانت حياته مختلفة، حيث كان فقيهاً، حتى أنه اعتُبر من فقهاء المدينة السبعة(١٠). إذاً كان اهتمامه كبيراً بالبحوث الدينية، لكن حاله انقلبت بعد انتقاله إلى الشام مع والده مروان، الذي أصبح خليفة للمسلمين، ونقل الخلافة بدوره إلى ابنه عبد الملك، الذي رأى أنه من واجبه إدارة البلاد بروح جديدة، وعدم إدخال المسائل الدينية والفقهية في تفاصيل حياة الأمة، فهذه الأمور لها أهلها إذ أصبح هو رجل دولة بالدرجة الأولى، وليست مهمته تطبيق الأحكام الشرعية على الرعية. فهو لم يتورع عن السماح للحجاج الثقفي برمي الكعبة بالمجانيق، عندما كان عبد الله بن الزبير معتصماً بها، ويبدو أنه فعل ذلك حفاظاً على وحدة الأمة وعلى سلطته، لأن هذا كان الحل الأخير مع ابن الزبير، رغم أن عبد الملك حذر الحجاج من انتهاك حرمة مكة، وأمره أن لا ينفر أطيافها، وألا يهتك أستار كعبتها، ولا يرمي أحجارها، وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها حتى يموت جوعاً أو يخرج منها(١١)، كما أنه اتبع سياسة المهادنة مع الناس وتقرب من الرجال الصالحين أمثال رجاء بن حيوة (١٢).

(١) الجلجلة، هي كنيسة القيامة، انظر الدباغ، مراد مصطفى، موسوعة بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١، ج١٠، قسم ثاني، ص٣٤٢.

(٢) ولهاوزن، الدولة العربية، ص١٠.

(٣) ولهاوزن، الدولة العربية، ص١١٠.

(٤) الرها مدينة أورفة التركية حالياً، خشاب، موسوعة المدن، ص٣١٥.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢٢٨.

(٦) الشريف، حامد محمد، أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي، مكتبة عبد الحميد شومان، عمان الأردن، ٢٠٠٧، ص٧٩، ومنصور بن سرجون كان متسلم دمشق قبل الفتح العربي لها، وقيل إنه سلم مفاتيح دمشق لخالد بن الوليد، ويبدو أن الأمويين لم ينسوا هذه الخدمة لآل سرجون من أجل ذلك انظر: نصر الله، جوزيف، منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي، نقله إلى العربية أنطون هبي، المكتبة البوليسية، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٤٣.

(٧) هويدي، فهمي، مواطنون لا ذميون، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩، ص٦٩.

(٨) شعبان، محمد، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص٩١.

(٩) ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا(٣٢٢هـ/٩٣٣م) الفخري في الآداب السلطانية، والدول الإسلامية، دار صادر بيروت، ص١٠٤.

(١٠) الرئيس محمد، ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، دار التراث، القاهرة، ط٧، ص٢٠٤.

(١١) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص١٣٣، والبلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ص١١٦.

(١٢) الطبري ج٤، ص١٠، ورجاء ابن جروال أبو المقداد من عباد الشام وزهادهم وفقهاء التابعين مات سنة(١١٢هـ/٧٣٠م) من جلة التابعين انظر: التميمي، محمد بن حيان بن أحمد أبو حاتم(٣٥٤هـ/٩٦٥م) مشاهير علماء الأمصار، تحقيق م. فلا يشهمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٩، ص١١٧.

كما أنه أمر بقتل رجل ادعى النبوءة في عهده(١)، ويلاحظ من جانبه الآخر إنساناً سمحاً صهر في بوتقته الأمة جمعاء ليسير في ركب السياسة، وعلى الرغم من سياسة التعريب التي انتهجها في إدارة الدولة بتعريب الدواوين إلا أن الكتاب المسيحيين استمروا في أعمالهم، ككتاب في الدواوين، لكن باللغة العربية، بل إنه لم يمنع أخاه عبد العزيز بن مروان من استعمال المسيحيين في ولايته، فلقد أولى شخصاً يدعى ثيودور الإسكندرية، في حين تولى أخوه بطرس أمر الصعيد، وكان الأخوين اعتنقا الإسلام في أواخر ولاية عبد العزيز(٢)، كما أن عبد الملك استقبل في قصره الأخطل شاعر تغلب، والصليب على صدره ولحيته تقطر خمراً(٣)، ومن سياسته في إرضاء المسيحيين أيضاً أنه كان قد فكر في تحويل كنيسة يوحنا إلى الجامع الأموي في دمشق، لكنه غير رأيه كي لا يُغضب المسيحيين، حفاظاً على وحدة الدولة(٤) وكذلك اتصف ابنه هشام بالتسامح، واستيعاب الرعايا في دولته، إذ عين على ديوان حمص رجلاً يدعى تاذري بن أسطين(٥)، وأعاد للمسيحيين ملكية بحر أنطاكية الذي أخذ منهم قبل أربعين عاماً، وأمرهم بانتخاب بطريركاً لهم، فانتخبوا صديقه(٦)، كما قرب إليه رجال الدين والفقهاء، أمثال الزهري وأبي الزناد(٧) ولم يغضبهم في تصرفاته، واعتبر أن الاهتمامات الفقهية من اختصاص الفقهاء، ولم يُهمل الجهاد كما مر سابقاً، وبذلك اتصف بحسن السيرة والدين.

-
- (١) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، ج١، ص٢١٠، وعبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، بغداد، ١٩٥٠. ج١، ص١٩٩.
- (٢) دينيت، دانييل، الجزية والإسلام، ترجمة فوزي فهمي جاد الله، منشورات دار الحياة، مؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٦٠، ص١٣٨.
- (٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٧، ص٢٣٧.
- (٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣١.
- (٥) الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عيروس(٣٣١هـ/٩٤٢م) الوزراء والكتاب، تحقيق إبراهيم الأبياري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٨٣، ص٦٠.
- (٦) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٧٧.
- (٧) الطبري، تاريخ، ج٤، ص١١٨، وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) صفة الصفوة، تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس قلجعي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ج٢، ص١٣٦، وأبي زناد هو عبد الدين ذكوان القرشي أبو عبد الرحمن من فقهاء المدينة توفي سنة(١٣٢هـ/٧٥٠م) طبقات الحفاظ، ص٦١-٦٣.

٦- رفض بعض الخلفاء سياسة العصبية القبلية:

كانت قبائل عرب ما قبل الإسلام تتحارب من أجل السيطرة على مرعى أو نبع ماء أو نهب قافلة أو مواشي، لكن الأمر تغير مع نجاح حركة الفتوحات وسيطرة العرب على دول مترامية الأطراف، ومع ذلك استمرت النزاعات لكن الصورة والأسباب تغيرت وأصبحت تدور حول السلطة السياسية وموارد الدولة الضخمة (١) ، لم يكن قبل الدولة الأموية إذاً ذلك الصراع العنيف بين الدوحين (٢) ومع استئناف حركة الفتوح، واستغلال موارد الحروب ومكاسبها ، أصبح هناك نوع من التنافس بين قادة الجيوش الذين كانوا مع عناصرهم المقاتلة قبليين، ووقفت الدولة في بعض الأحيان مواقف الحياد والاتزان بين القوى المتنافسة، وكثيراً ما تورطت بالانحياز إلى جانب فئة ضد أخرى، وجاء هذا التورط إما على شكل تأييد معلن وإما على شكل مصاهرة أو إثارة بأعطيات أو منح وغير ذلك، وأدى هذا إلى رفع وتيرة التنافس إلى حد الصراعات الدموية، وربما قصدت الدولة أحياناً إثارة هذه النعرة كضرورة سياسية في المركز أو في الولايات لتؤمن نوع من التوازن في الحكم والسياسة، أو ربما كان هدفها من ذلك صرف نظرهم عن السلطة، بإشغالهم بهذه المناقشات، وبذلك يشعرون بحاجتهم دوماً إلى السلطان، وكان غرض الدولة الأموية من دعم تلك التحالفات إذاً غرضاً سياسياً بحتاً، وقد أصبحت للتحالفات أحزاباً سياسية تخفي وراءها مصالح حيوية متعلقة بالمجال والامتيازات (٣) .

فمن هم الخلفاء الذين استطاعوا تحييد العصبية القبلية؟ وكيف فعلوا ذلك؟ إن بعض الخلفاء حرصوا على خلق حالة شبه توازن عندما يشعرون بخطر تلك الصراعات ومن ذلك ما قام به معاوية بن أبي سفيان من تقريبه لليمنية، حيث تزوج من قبيلة كلب كي يقوي مركزه في الشام، قبل أن يصبح الخليفة (٤) كذلك تزوج من قريش ومن غيرها (٥) ، ولماذا يُؤخذ على معاوية أنه قرب اليمنية بزواجه من ميسون، إذ يجب أن لا ينسى أن بني أمية هم عرب شماليون وهذه المصاهرة تحفظ التوازن القبلي له في هذه البيئة المتوترة .

وكما حابى معاوية اليمنيين فإنه قرب القيسيين، فهو الذي منح القيسية المأوى في الجزيرة والشمال الشامي عندما نزع عدد من قبائل قيس وعلى رأسها قبيلتي كلاب وعقيل من العراق إلى الشام إبان معركة صفين، فأسكنها الجزيرة (٦)، فحاربت هذه القبائل مع معاوية . وجعل معاوية الضحاك بن قيس من حاشيته وهو قيسي بل هو زعيم القيسية في الشام، وعينه أميراً على دمشق، ولما كان معاوية يمنح قبيلة أكثر من أخرى سرعان ما يتراجع أو يمنح الأخرى، ومثال ذلك أنه فرض لليمنية العطاء لمدة طويلة فتناولت اليمنية على القيسية وهددوهم بإخراجهم من البلاد (٧)، لكن معاوية سرعان ما تدارك الأمر، حيث فرض العطاء لأربعة آلاف قيسي وأما عبد الملك فقد استطاع بحكمته ورجاحة عقله أن يعدل بين اليمنيين والقيسيين على الرغم من أنه استلم الحكم والصراع بينهما على أشده، حيث نتج عن معركة مرج راهط أيام مروان بن الحكم نتائج خطيرة، فقد

(١) عيسى، رياض، الحزبية السياسية، ص ٢٧٧.

(٢) العث، يوسف ، الدولة الأموية، ص ١٨٥.

(٣) Patrica ,Crone,Staves on Horses, The evolution of the Islamic Policy , Cambridge 1980, p 82.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٤٢، وابن الجوزي ، المنتظم، ج ٥، ص ٣٢٢.

(٥) شاهين، حمدي ، الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٣٨١.

(٦) ابن العديم ، بغية الطلب، ج ٨، ص ٣٦١٢،

(٧) الأصفهاني، علي بن الحسين أبو الفرج (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) الأغاني، تحقيق، علي ناصيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ج ٢٠، ص ٢٠٨.

قسمت الفتان بلاد الشام بينهما إلى منطقتين شمالية قيسية وجنوبية يمنية، وعمل كل فريق على طرد خصومه من دياره، بحيث بقي القيسيون على ولائهم لابن الزبير، وفرّ زفر بن الحارث الكلابي أكبر زعمائهم إلى قرقيسيا وتحصن بها وأعلن عدم اعترافه بخلافة مروان(١)، وشن من موقعه الغارات على كلب في المناطق المجاورة له في بادية السماوة(٢)، وكان عبد الملك منهمك في إخضاع القوى المعارضة، وعلى الرغم من هذا الموقف القيسي المتوقع فإن عبد الملك لم ينساق في تيار العداوة المتأججة ضدهم، فلقد جعل أحد كبار زعماء القيسية عمير بن الحباب السلمي على ميمنة جيشه المتجه لحرب مصعب بن الزبير (٦٧٧/٦٨٦م)، لكن عمير خانه و انسحب من المعركة بعد أن اتفق مع قائد جيش مصعب، فحلت الهزيمة بجيش الأمويين، وقُتل ابن زياد وبعض زعمائهم من اليمانية مثل الحصين بن نمير(٣)، وهرب عمير إلى زفر بن الحارث في قرقيسيا خوفاً من عبد الملك أو من أجل أن ينسق مع زفر للإغارة على اليمانية هناك(٤)، ويبدو أن علاقته مع زفر ساءت فطلب الأمان من عبد الملك، فأمنه وسجنه لكنه فر من السجن وعاد إلى منطقة الجزيرة ليستأنف شن الغارات على اليمانيين، الذين لم يسكتوا وردوا بغارات انتقامية مشابهة بقيادة حميد بن حريث بن بحدل، واضطربت الأحوال في البادية والجزيرة(٥)، ودخلت قبيلة تغلب النصرانية في الصراع ووقفت إلى جانب قيس، وكانت تغلب تعيش في منطقة الجزيرة منذ أمد، وانتهى الصراع بمقتل عمير وإرسال رأسه إلى عبد الملك كبرهان على ولائهم له(٦).

وبعد تخلص عبد الملك من عمرو بن سعيد الأشدق سنة(٦٦٩/٦٨٨م) حاصر زفر في قرقيسيا لكن رجال زفر استبسلوا في القتال، فلجأ عبد الملك إلى المسالمة بعد أن اشترط زفر أن يبقى عبد الملك له الخيار في بقاء ولائه لابن الزبير أو ينضم إلى عبد الملك، ووافق عبد الملك وأعطاه الأمان مع ابنه الهذيل بن زفر وجميع أتباعهما كما زوج ابنه مسلمة من الرباب ابنة زفر بن الحارث، وأمر زفر ابنه بالانضمام إلى جيش عبد الملك لقتال مصعب، حيث لم يكن لولده كما كان له بيعة لعبد الله بن الزبير وعلى الرغم من أن الهذيل ترك جيش بني أمية وانضم إلى جيش مصعب إلا أنّ عبد الملك صفح عنه(٧).

وبقي عبد الملك منشغلاً في تحقيق التوازن بين الفعاليات القبلية فيما تبقى له من خلافته، حيث أنه لما أغار حميد بن حريث الكلابي على بني فزارة وقتل منهم عدداً غضب عبد الملك وهدأ من غضب زعماء فزارة حين طالبوا بالقود(٨) بأن عوّضهم عن قتلهم بالأموال ورفض القصاص لقتلهم، وذلك لأنه لم يقتص لقتلى كلب على يد زفر فيما مضى ذلك، وقال «كنتم في فتنة والفتنة كالجاهلية لا قود فيها»(٩). ولكن هذا الصلح كان على مضض، لأن فزارة استغلت هذا الدعم المادي كي تتأثر من بني كلب فأغاروا عليهم في مكان يدعى «بنات قين» فأوقعوا فيه هزيمة كبيرة، وهذا العمل أثار غضب عبد الملك الذي أمر الحجاج الثقفي بمعاينة بني فزارة بشدة، واستسلم للحجاج اثنين منهما، فأرسلهما الحجاج إلى عبد الملك الذي بدوره أرسلهما إلى بني كلب كي يقتصوا

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٧، ص٤٧.

(٢) عيسى، رياض، الحزبية السياسية، ص٢٨٠.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٦، ص٤٢٦، والطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٨١.

(٤) شاهين، حمدي، الدولة الأموية المفترى عليها، ص٣٨٤.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٧، ص٦٠.

(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٧، ص٧٥. وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٩٩.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص١١٥.

(٨) القود هو القصاص، أي أن يُقتل القاتل بدل القتيل، ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٣٧٢.

(٩) البلاذري أنساب الأشراف، ج٧، ص٥٥.

منهما (١)، ولم يشفِ هذا غليل الكلبين الذين فكروا في ثأر أكبر من هذا، لكن عبد الملك هدد بني كلب لما علم بنواياهم فانتهوا عن ذلك (٢) ، وأدت سياسة عبد الملك المتوازنة تجاه القبائل إلى انزعاج اليمانيين الذين رأوا أنه على عبد الملك تفضيلهم على القيسيين بعد الخدمات التي قدموها للأمويين في معركة مرج راهط ، وبفضلهم تحققت للأمويين السيادة على بلاد الشام، لكن سياسة عبد الملك بقيت على اتزان بين الأطراف وبقي زفر وابنه الهذيل وكذلك عبد الله بن مسعدة الفزاري وغيرهم من قيس في صحبته بالإضافة إلى حسان بن مالك الكلبى وروح بن زنباع الجذامي ورجاء بن حيوة الكندي(٣).

كما أن عبد الملك حاول إخماد نار العصبية التي انتقلت إلى خراسان، حيث أرسل أمية بن عبد الله بن خالد إليها عام (٧٤هـ/٦٩٣م) (٤) ، فحاول أمية أن يشغلهم بالجهاد، لكنه لم يفلح في ذلك فعزله عبد الملك وعين بدلاً عنه المهلب بن أبي صفرة(٥) .

وكان عمر بن عبد العزيز أسما من التفريق بين يمني وقيسيين بل إنه تخطى حدود التمييز بين من هو مسلم أو غير مسلم وبين الفقير والغني، أي إنه تجاوز هذه السياسة وخلفها وراءه.

-
- (١) البلاذري، أشراف، ج٧، ص٥٦ ، وبنات قين موضع بالشام بالسماوة وهي عيون ماء عدة ،ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١، ص٤٩٥-٤٩٦ .
- (٢) الدسوقي، محمد عزب ،القبائل العربية في بلاد الشام، منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص٢٧٨، والنص، إحسان ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، ط٢ ١٩٧٣، ص٦١٠ .
- (٣) شاهين، حمدي ،الدولة الأموية المقترى عليها، ص٣٨٦ .
- (٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٤٥ .
- (٥) المصدر السابق، ج٣، ص٦١٣ .

ثانياً: مظاهر الضعف في مجال السياسة العامة:

- ١ - عجز الأمويين عن فهم أسس الحكم.
- ٢ - ظلم الأمويين للمغاربة وعدم مساواتهم بالمشاركة.
- ٣ - سوء معاملة الأمويين لآل البيت.
- ٤ - استنثار الأمويين بجميع مفاصل الحكم وعدم اعتمادهم على الشورى.
- ٥ - اعتماد بعض الخلفاء على العصبية القبلية.
- ٦ - عدم احترام المعارضة.
- ٧ - انتشار ظاهرة القتل ظلماً.
- ٨ - عدم السكن في العاصمة دمشق بصورة دائمة.
- ٩ - عدم توظيف العرب بكثافة في مناطق الدولة البعيدة.

١- عجز الأمويين عن فهم أسس الحكم:

تقتضي طبيعة الدول وجود نظام حكم يراعى مصالح العامة، ويتأسس هذا النظام حاكماً، يتمتع بصفات تؤهله لهذا المنصب، كما يجب أن يكون صلاحيات فيراعي بذلك علاقته بالمحكومين وعلاقة المحكومين به، بغض النظر عن شكل الحكومة وماهية الحكم، سواء أكانت خلافة أم إمامة أم غيرها من الألقاب الظاهرة والتي في جوهرها يكمن أسلوب الحكم، فالأمويون وصلوا إلى السلطة باسم الخلافة الإسلامية، والخلافة لغة تعني من خلف خلفه وبقي بعده، والخليفة هو السلطان الأعظم والجمع منها خلائف وخلفاء(١)، ومفهوم الخلافة هو ترأس الدولة العربية الإسلامية (٢).

ولن يتم التطرق هنا إلى شروط الخلافة وصفات الخليفة، التي يفترض أن يتصف بها، طالما أن معاوية حصل عليها بعد حرب دامية، وبقوة السيف لا بالشورى، كما أنه جعلها خاصة لبني أمية. ومهما كان الأمر فمعاوية أصبح الخليفة الأموي الأول، وبه ابتدأت الدولة الأموية، فكان لزاماً عليه تدبير أمورها، وخاصة بعد أن امتدت رقعتها على مساحة كبيرة، كبرت معها مسؤولياتهم، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل استطاع معاوية ومن أتى بعده من الأمويين استيعاب فكرة الحكم الجديد والانخراط في سياقه على الوجه المطلوب؟ وللإجابة على هذا السؤال يجب التذكر بأن بني أمية نقلوا مقر الحكم إلى الشام التي كانت متمرسية في أساليب الحكم، وهذا لا ينفي معرفة العرب لأنظمة مختلفة من هذه الأساليب، لكن هذه الأنظمة كانت تتناسب مع الوضع المحلي لها، ومنها على سبيل المثال الحكم الأبوي المتمثل في شيخ القبيلة والحكم الملكي الأتوقراطي، كما في اليمن والحكومة الشورية على غرار ما كان في مكة (٣) وعندما جاء الإسلام بلور هذه الأنظمة فأصبحت دولة يتولاها الرسول محمد ﷺ، ومن بعده الخلفاء الراشدين، إلى أن حصل عليها معاوية فنقل الحكم إلى الشام التي تولى حكمها قبل ذلك عشرين عاماً، ثم باشر منها الحكم بعد أن أصبح خليفة، هذا الحكم الذي بقي طيلة العصر الأموي غير واضح الملامح، رغم حاجة الدولة إلى تنظيم أمورها بعد اتساعها، فالخلفاء الأمويين لم يرتقوا إلى القدر الكافي من الإحساس بكيانهم كحكام لدولة مترامية المساحة، فقد كان الخليفة الأموي في هيكله العام أقرب ما يكون إلى شيخ القبيلة، وكانت سياسته في جوهرها عبارة عن استعادة وتوسيع لهيئة شيخ القبيلة، والدولة بنظر معاوية ومن خلفه لا تعني سلطة الحاكم المنبثقة من داخل الجماعة ذاتها، والمعبرة عن كيانها السياسي بأي شكل من الأشكال، بل تعني سلطة الإكراه والتغلب والقهر التي يلحقها الأعداء بالجماعة والأمة، ففكرة التغلب كانت الأساس الذي سيطر على محور الحكم في العصر الأموي، ومن فحوى هذه الفكرة حاول الأمويون وعلى رأسهم معاوية رفض إعطاء المسجد دوره الاستقطابي في حياة رجل الدولة، إذ أقام في قصره الذي تميز بكل عادات الملوك من العرش إلى الحرس والحجاب والمقصورة وغيرها(٤)، إذ يلاحظ عدم وجود مكان خاص مستقل للحكومة كي يباشر الخليفة أعماله، فكان القصر هو مقر حكم الخليفة أو الوالي(٥)، فسياسة الأمويين الداخلية جاءت متلازمة مع الذهنية الأموية في الحكم، وهي معتمدة على التوزيع الفئوي الذي جعل من

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٨٩.

(٢) حسن الحاج، حسين، النظم الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٧، ص١٥٩، و نوار، صلاح الدين، نظرية الخلافة أو الإمامة، دار المعارف الإسكندرية، ١٩٩٦، ص٥٤، ابراهيم، حسن، حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل بيروت، دار النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٩٦، ج١، ص٣٥٠.

(٣) النجار، حسين فوزي، الإسلام والسياسة، القاهرة، ص١٢٤.

(٤) بيضون، ابراهيم، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص١٤٨.

(٥) فروخ، عمر، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ص٢٠٨.

الأسرة الحاكمة أرستقراطية متفوقة في امتيازاتها. ومن الملاحظ عدم وجود دستور أو أنظمة محددة لتسيير أمور الدولة سواء على مستوى الدولة ككل أم على مستوى ولاية بحد ذاتها بل إن الأهواء والرغبات هي التي كانت تسيطر على سير الحكم في أغلب الأحيان، وأما الاجتماعات التي كانوا يعقدونها، فجأها كانت تُعقد وقت الحاجة وعندما يرى الخليفة ضرورة لذلك، فكان يستدعي بعض الصحابة أو التابعين أو العلماء لمشاورتهم في أمور الفقه أو الأدب أو الأخبار، وكانت أكثر الوفود التي تدخل على الخليفة والولاة تأتي لغاية أدبية(١)، وأما أكثر الوافدين هم أصحاب الشكاوى والحاجات، وها هو معاوية يستقدم الوفود في مجلسه من أجل أخذ البيعة لابنه يزيد (٢)، أي إن الرغبات الخاصة هي التي كانت تستدعي الحراك السياسي. وربما يُعقد مجلس بني أمية في الحالات الطارئة كما حدث في مؤتمر الجابية بعد موت معاوية بن يزيد(٣) وأيضاً عندما اضطر عبد الملك إلى جمع أهل بيته ليستشيرهم في أمر مصعب بن الزبير(٤) .

وعلى ما يبدو اقتصرت المجالس على المشاورات والمناظرات كما فعل عمر بن عبد العزيز مع الخوارج عندما ناظرهم لإقناعهم (٥) .

وكان الخليفة يسأل عن أحوال ولاياته عندما يفد إليه أحد الرعايا من تلك الولايات، فلقد سأل معاوية عبد الله بن الكواء عن البصرة في ولاية ابن عامر فقال له: «أما أهل البصرة فقد غلب عليها سفهاؤها وعاملها ضعيف»(٦) ومثله فعل عبد الملك حيث سأل الشعبي(٧) عن قضاء اليمن ومكة وغيرها (٨) .

ويلاحظ بأن الحكم خضع لأهواء الخلفاء الخاصة وميولهم كالخليفة سليمان بن عبد الملك الذي حاول فور وصوله إلى الحكم تصفية كل الولاة والقادة الذين كان يكرههم (٩) وهذا يدل على أن القائد أو الوالي لا يكافأ حسب عمله بل حسب موقف الخليفة منه، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك تأتي في سياق هذا البحث ومنها على سبيل الذكر لا الحصر نهاية آل المهلب الذين خدموا الدولة بإخلاص، لكن المكائد والغيرة السياسية نتج عنها أن قام يزيد بن المهلب بالثورة على الدولة الأموية سنة (١٠١هـ/٧١٩م)(١٠) وكذلك نهاية خالد القسري، الذي أخلص للأمويين وكانت نهايته البيع على يد الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومن ثم مقتله عام (١٢٦هـ/٧٤٣م) (١١) .

كما طغت عاطفة البنوة أو يصح القول فتنة البنوة على الاتجاه السياسي للخلفاء الأمويين، فقد شكلت ولاية العهد المشكلة الأكبر، بعد أن باشر بها معاوية بن أبي سفيان عندما ولى ابنه يزيد دون النظر إلى عامل الكفاءة، وسواء أكان الابن يستحق ذلك أم لا فإن مسألة ولاية العهد، شكلت عبئاً ثقيلاً على كاهل الدولة، أضف إلى ذلك أن الخلفاء لم يرضوا بتسمية ابن واحد لهم بل لجأوا أحياناً إلى تسمية اثنين لولاية العهد، الأمر الذي خلق الشر

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد، ج١، ص٣٢٠-٣٥٨.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢٣٩، والطبري، تاريخ، ج٣، ص٢٤٨، و ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٣٤٩.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ ، ص١٩٤،

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣١٦

(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٨٠. و الرئيس، محمد ضياء الدين، عبد الملك بن مروان، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٢٢٧.

(٦) الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣١٦.

(٧) الشعبي هو عامر بن شراحيل الحميري أبو عمرو راوية من التابعين يُضرب المثل بحفظه اتصل بعبد الملك بن مروان وكان نديمه(ت١٠٣هـ/٧٢١م)الزركلي، الأعلام، ج٣، ص٢٥١

(٨) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح، أحمد عبيد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ص١٠٨.

(٩) العث، يوسف، الدولة الأموية، ص٣٠٩.

(١٠) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٧٥.

(١١) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٢٤٧.

والمكيدة، وقد شكل مقتل الخليفة الوليد بن يزيد ذروة الشر(١)، و سطر سطرأ في كتاب نهاية الدولة الأموية، فبالإضافة إلى يزيد بن معاوية، يذكر يزيد بن عبد الملك الذي أخذه اللهو والعبث بعيداً عن أمور الحكم(٢)، وسار ابنه الوليد على شاكلته(٣)، أي أن الحكم لم يكن حسب المقدره السياسية، فقد وصل إليه حكماً ليسوا على قدر تحمل هذه المسؤولية، ويضاف إلى ذلك رغبة الأمويين في صهر الحكم في بوتقة الأسرة الأموية، إذ عملوا ما بوسعهم على تولية أقاربهم للولايات أو لقيادة الجيوش، وغير ذلك من أعمال الحكم.

كما وكانت حكومة الخليفة تنتقل معه لأن معظم خلفاء بني أمية لم يبقوا في دمشق (٤) ، وإن بقيت العاصمة الاسمية .

كما أن الدولة كانت تفتقر إلى وجود جيش نظامي حيث كان كل العرب مدعويين إلى الخدمة العسكرية عند الضرورة، ثم يعودون إلى ديارهم وعوائلهم بعد انتهاء الحرب(٥) .

٢- ظلم الأمويين للمغاربة وعدم مساواتهم بالمشاركة:

يبدو أن الأمويين اعتبروا بلاد المغرب أرضاً للغنائم والسبي، ويدل على هذا مراحل الفتح المتعددة، وإن تعسر الفتح في بداية الأمر(٦) ، ومن هذه النظرة إلى المغرب يُعرف أن القواد الذين ترأسوا عمليات الفتح قاموا بأخطاء وتجاوزات كثيرة في المغرب وهذا لا يدل على أن جميع القادة فاسدين ، بل كان منهم المؤمنون والمخلصون لله ورسوله (٧) .

ككيف تصرف الأمويون مع المغاربة ؟ وعلى أي صعيد تم ظلمهم؟ لقد حصلت على الصعيد العسكري تجاوزات كثيرة على يد بعض القادة الذين يُذكر عنهم أنهم دكوا المدن أو الأسوار و قتلوا وسبوا وغنموا، فابن عذارى المراكشي يذكر عن عقبة بن نافع غزوته إلى مدينة باغاية فيقول: «فقاتلهم قتلاً ذريعاً» ويكمل الحديث ويقول: «فمضى إلى مدينة المنستير فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظنَّ أنه الفناء»(٨) ، وكثيرة هي النصوص التي تتحدث عن سياسة عقبة العسكرية العنيفة، ولقد نبهه أبو المهاجر دينار إلى هذه القسوة حيث قال له: «بئس ما صنعت، كان رسول الله ﷺ يستألف جبابرة العرب»(٩) .

فعقبة لم يخير السكان بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، حيث فضّل أسلوب القوة واستعمال البطش، فقد كان يقطع أذن أو إصبع ملوك المناطق التي كان يسير فيها(١٠)بالإضافة إلى إهانة كسيلة الزعيم المغربي الشهير عندما

(١) اليعقوبي ، تاريخ، ج٢، ص٣٣٤ و الطبري، تاريخ، ج٤، ص٢٣٥، و ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٧٩ .

(٢) عويس، عبد الحليم ، الدولة الأموية بين السقوط والانتحار، شركة سوزلر، القاهرة، ط١، ١٩٨٧، ص٤٣ .

(٣) محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي، ص٣٣٢ .

(٤) المرجع السابق، ص٢٦٠ .

(٥) عمر، فاروق، طبيعة الدولة العباسية، دار الإرشاد ببيروت، ط١ ، ١٩٧٠، ص٩٢ .

(٦) علي، أحمد، تاريخ المغرب العربي الإسلامي، ص٤٤-٤٧ .

(٧) الزاهد، أحمد، الغزو العربي لشمال إفريقيا، تاو ت، تامغناست، ص١٢ .

(٨) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٢٤ . ومدينة باغاية هي مدينة تونسية واسمها باجة وتقع على الطريق الرئيسي بين بنزرت إلى سوق الخميس وسوق الاربعاء بالتجاه الجنوب الغربي، شامي، موسوعة المدن، ص١٤٨، ومدينة منستير هي مدينة تونسية تقع على ساحل البحر بين سوسة والمهدية، شامي، موسوعة، ص١٥٧ .

(٩) ابن عذارى، البيان، ج١، ص٢٩ .

(١٠) ابن الحكم، فتوح مصر وإفريقيا، والأندلس، ج١، ص٢٦٢-٢٦٣ .

أمره أن يسلم الغنم مع عبده ومواليه إهانة له (١) وأوغر تصرفه هذا صدر كسيلة عليه، إلى أن قتله. وانتهج زهير بن قيس البلوي وموسى بن نصير سياسة عقبة القاسية تجاه المغاربة، حيث قدم زهير للانتقام لعقبة فبالغ في قتل أهل المغرب (٢) .

وما يلفت النظر تلك المظاهر العنصرية التي جسدها بعض قادة الفتح، حيث تذكر المصادر الأعداد الضخمة والخيالية المتعلقة بالسبي، هذه العملية التي بدأها عمرو بن العاص منذ الغزوات الأولى في بلاد المغرب بعد فتح مصر، فلقد صالح أهل طرابلس على جزية مقدارها ثلاثة آلاف دينار يبيعون فيها من أبنائهم ما أحبوا ببيعه (٣) وبقيت عادة دفع البنات كجزية من قبيلة لواتة إلى نهاية القرن الأول، فالنصوص التاريخية تبين كثرة أعداد السبايا الجميلات ومدى الاهتمام بهن، حيث كانت الجارية منهن تباع في المشرق بألف دينار أو نحو ذلك (٤)، وبالإضافة إلى الاهتمام بالسبايا، فقد زاد الاهتمام بالغنائم والحصص التي يحصل عليها القادة وجنودهم من الفتح في المغرب حيث حدثت نزاعات وصادمات كثيرة بين قادة الفتح و الجنود وحتى الخلفاء، بسبب هذا العامل الاقتصادي، إذ تبين المصادر وفرة الغنائم والفيء التي كانت توزع على الفاتحين بعد المعارك العسكرية (٥) وتواصلت السياسة الاقتصادية الاستغلالية من طرف الدولة الأموية وولاتها في المغرب، ويُسندل على هذا ما قام به الخليفة عمر بن عبد العزيز من إبطال لذلك الظلم حيث أسند ولاية المغرب لوالي تقي هو إسماعيل بن عبيد الله وأمره بإسقاط الجزية عن المغاربة المسلمين، وتحرير من سبي من نساءهم وإعادة الأرض إلى أصحابها كي يجنوا ثمارها ويدفعوا عنها خراجها المعلوم، وأشار عليه بأن يجمع بين أعباء الحكم من إدارة وحرب إلى جانب جمع الخراج والصدقات ليحول دون جور العمال واستبدادهم ، ولكي تعود ثقة المغاربة بالحكومة الأموية (٦) ولكن سرعان ما ضُرب بهذه السياسة عرض الحائط بعد موت عمر بن عبد العزيز وعادت السياسة الأموية إلى سيرتها الأولى .

غاصت الدولة الأموية في مستنقعات الممارسات السلبية تجاه المغاربة، من خلال تصرفات وولاتها، و تراوحت بين النزعة العنصرية الجامحة والشطط الاقتصادي الواضح والجرائم الأخلاقية والإنسانية في حق المغاربة، فمن مظاهر التمييز العنصري تجنيد المغاربة كمشاة في الحملات وفي الجيوش التي كان الولاة يرسلونها لغزو الجزر البحرية في البحر المتوسط، أو في المغرب الأقصى وغرب إفريقيا، كما حُرِّم عليهم العمل كفرسان حيث حظي العرب وحدهم بتلك الميزة، وفوق ذلك كان المغاربة يوضعون في الصفوف الأولى ليكونوا دروعاً تحمي الجيش فيفنى منهم من يفنى وبعد المعارك كان العرب وحدهم تقريباً يستأثرون بالغنائم والفيء دون المغاربة (٧) . ولقد شكلت ولاية يزيد بن أبي مسلم قمة الاستبداد بالمغاربة على جميع المستويات، فقد كان هذا الرجل كما قال عنه ابن عذارى ظلوماً غشوماً (٨) ، ولقد عمل يزيد مدة لابأس بها في العراق تحت إمرة الحجاج الثقفي حيث كان صاحب شرطته وابن سره (٩) ، فخبير التعسف والجور ومن ذلك أنه أخذ موالى موسى بن نصير ووشم أيديهم وجعلهم

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٢٩.

(٢) المالكي، رياض النفوس، ص٤٧.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢٥.

(٤) الرقيق القيرواني، تاريخ شمال إفريقيا، ص٤٤.

(٥) اسماعيل، محمود، قضايا في التاريخ الإسلامي، منهج وتطبيق، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٧٤، ص١٣٦.

(٦) اسماعيل محمود، قضايا في التاريخ، ص١٣٨-١٣٩.

(٧) الزاهد، الغزو العربي لشمال إفريقيا، ص٧٨، و اسماعيل، محمود، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص١٣٢.

(٨) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص٤٨.

(٩) العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط٣، ١٩٩٢، ص١٣١.

أخماساً والتخميس هو ذروة التعسف الأموي في المغرب حيث اعتبروا المغاربة أنفسهم وأموالاً خمس الغنائم يحق للولاة التصرف به (١) كما أحصى أموالهم وأولادهم، ثم جعلهم حرسه وبطانته وخطب على المنبر قائلاً: «أيها الناس إنّي قد رأيتُ أن أُرسم اسم حرسِي في أيديهم كما تفعل ملوك الروم بحرسها، فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره حرسِي ليعرفوا الناس بذلك من غيرهم» (٢) فلما سمع حرسه بذلك اتفقوا عليه وقتلوه . وكان الخليفة يزيد بن عبد الملك على علم بهذا الظلم، حيث قال جملةً توضح مدى الجشع «ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهماً فوجد ديناراً» (٣). ومهما تغير الولاة فالسياسة تجاه المغاربة لم تتغير فعبيد الله بن عبد الرحمن السلمي اتبع سياسة اقتصادية دمرت ما تبقى من مظاهر التعايش بين الطرفين حيث اقترنت بالأساليب القمعية المتطرفة (٤) في معاملته للمغاربة فأسرف في غزو قبائلهم وسبي نساءهم.

ومن الولاة الذين عُرفوا بالازدراء الشديد للمغاربة عبيد الله بن الحجاج حيث كان يسبي النساء المغربيات ويرسلهن مع الغنائم إلى الخليفة في المشرق، وأجحف عماله بما كانوا يطالبون به من الوصائف المغربية (أي الأغنام) مثل الأدم العسلية اللون، حتى كانت الغنم تهلك ذباً لاتخاذ الجلود العسلية من سالخها، ويذكر الطبري أن عمال الحجاج كانوا يعمدون إلى الماشية فيبقرونها عن السخال من أجل الفراء الأبيض للأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد (٥)، أي أن ولاة بني أمية هددوا المغاربة الرعاة في مصدر رزقهم من الأغنام والماشية، وزاد الحجاج في تصرفه هذا عندما رأى الإقبال الشديد في دمشق على صوف الخراف العسلية التي تُصنع منه الملابس الناصعة البياض، فاغتصب من المغاربة أغنامهم وذبحها جميعاً على الرغم من أن طلبه لا يتوفر إلا واحدة في كل مئة منها ، ولم تكن الماشية فقط من الأمور المحببة لدى المشرق بل تعدى الأمر إلى النساء والبنات اللواتي أرسلن إلى العاصمة ليخدمن في القصور، لأن العرب في الشام كانوا معجبين بنساء المغرب اللواتي عُرفن على الدوام بأن جمالهن فاق جمال النساء المشرقيات (٦) .

وكانت نتيجة الظلم الذي لاقاه المغاربة أن انتفضوا، وخاصة بعد أن اعتبر عمر بن عبد الله المرادي عامل الحجاج على طنجة وما ولاها أن المغاربة فيناً للمسلمين فأراد تخميسهم (٧) . فعمت الاضطرابات والفتن في المغرب، فعمد ميسرة المدغري إلى المرادي وقتله، وبذلك عمّت الثورة، فعزل هشام بن عبد الملك الحجاج وعين مكانه كلثوم بن عياض القشيري أو القسري، وأمره بقتل المغاربة وقال «والله لأغضين لهم غضبة عربية، ولأبعثن إليهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي» (٨)، رغم أن المغاربة سبق أن اشتكوا لهشام بن عبد الملك سوء ولاتته، وذلك في الوفد الذي أرسلوه إليه والذي ضم شيوخ القبائل المغربية ووجهائها برئاسة المدغري، لكنهم لم يوفقوا في مقابلة الخليفة فتركوا له شكوى مسجلة عليها أسماءهم وألقابهم في لائحة كي يطلع عليها الخليفة

(١) زاهد، أحمد، الغزو العربي لشمال إفريقيا، ص ٨٠ و ٩١.

(٢) الرقيق القيرواني، تاريخ شمال إفريقيا، ص ٦٢.

(٣) إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص ١٣١.

(٤) بيبسون، إبراهيم، ملامح التيارات السياسية في القرن الهجري الأول، ص ٣٥٢.

(٥) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٩٨.

(٦) مارسية، جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٩، ص ٢٧.

(٧) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧/٥٧٧م) تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٣٩.

(٨) الرقيق القيرواني، تاريخ شمال إفريقيا، ص ٦٨، وابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١، ص ٥٤.

هشام(١) وفحوى هذه الشكوى «أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزونا وبجنده، فإذا أصاب نفلهم دوننا قال : هم أحق به، فقلنا هو أخلص منه في حل وإن لم يكن لنا لم نرده، وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وآخر جنده، فقلنا تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى إخوانه فوفيناهم بأنفسنا وكفيناهم ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا»(٢). وهذه الشكوى تلخص الظلم الذي لحق بالمغاربة من قبل ولاة الأمويين لكن الوفد أدرك تواطؤ الخلافة مع الولاة، أو الإهمال من قبله، عندما طال مقامهم ولم يتمكنوا من مقابلة الخليفة، فغادروا المشرق إلى المغرب معلنين الثورة على الدولة الأموية .

فالأمويون إذاً لم يعاملوا المغاربة معاملة حسنة في معظم الأوقات ، وربما جاء هذا الموقف لأنهم اعتبروهم غير مشرقيين، بالإضافة إلى ما واجهه الأمويون من صعوبات أثناء الفتح ، وربما كان لإغفال الخلفاء دور كبير في ما قام به بعض الولاة، وأياً تكن الأسباب فهذه المعاملة سجلت على الأمويين نقطة ضعف وعلى كافة المستويات السياسية والإنسانية والاقتصادية والعسكرية.

٣- سوء معاملة الأمويين لآل البيت:

ربما شكل التنافس الذي نشأ بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس (٣) قبل الإسلام خلفية جذرية في النزاع الذي استمر طيلة العصر الأموي بين بني أمية وآل بيت رسول الله . ولأن كفة بني هاشم قد رجحت بعد ظهور الرسول محمد ﷺ نبياً، وبالتالي علو مكانتهم، فقد رأى بنو أمية أن مصلحتهم تقتضي الدخول في الإسلام بعد انتصاره، فبعد فتح مكة في سنة (٦٢٩/هـ٨م) وقف النبي يستعرض جيش المسلمين بألويتهم لواء بعد لواء ووقف أبو سفيان الأموي والعباس عم الرسول يشاهدان الاستعراض فقال أبو سفيان للعباس: « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » فرد عليه العباس قائلاً: «إنها النبوة وليس الملك » فقال أبو سفيان: أما هذه فما زال في نفسي منها شيء»(٤). هذا هو رأي كبير الأمويين بعد إسلامه، ولا بد أنه أورث شيئاً إلى أحفاده وعشيرته من هذا المعتقد؛ أي أن النبوة ملك ورياسة ، وظهر هذا عند بعض خلفاء بني أمية جلياً، وتجسد في قول الوليد بن يزيد:

تلعب بالنبوة هاشميُّ بلا وحي أتاه ولا كتابُ(٥)

ولقد سعى معاوية بن أبي سفيان إلى هذه الرياسة سعياً حثيثاً، وبالفعل وصل إليها بعد صراعه مع الإمام علي ابن أبي طالب إذ استغل معاوية موت عثمان فتمرد على الخليفة علي بحجة المطالبة بدم الخليفة الشهيد، وطلب الخلافة لنفسه (٦) . وبالفعل حصل معاوية على مبتغاه بوسائل شتى، وأول عمل قام به ضد آل البيت هو التخلص

(١) ولهاوزن ،الدولة العربية ،ص ٢٧٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٩٨.

(٣) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك(ت١٨٣هـ/٧٩٩م) السيرة النبوية، تحقيق فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط ١، ١٩٩٥، ج ١، ص ١٢٥ وما بعدها، و ابن حبيب ،محمد(ت٣٤٥هـ/٩٥٦م) المنق، دائرة المعارف الإسلامية، الهند، ١٩٦٤، ص ٦-٨.

(٤) العشماوي، محمد سعيد، الخلافة الإسلامية ،سينا للنشر، القاهرة ، ط ١، ١٩٩٢، ص ٧٨.

(٥) جبريالي. ق، ديوان الوليد بن يزيد، تقديم خليل مردم بك، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٧، ص ٣٥.

(٦) ابن قتيبة، أبو محمد بن عبد الله بن مسلم(٢٧٠هـ/٨٨٣م)، الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، ط ١، ١٩٩٠، ج ١، ص ١٠٠.

من الحسن بن علي، لأن موت الإمام علي بن أبي طالب لم يمه الصراع بين الأمويين وآل طالب ، لأن الشيعة نصبوا ابنه الحسن خليفة من بعده، ولكن خلافته لم تستمر أكثر من ستة أشهر لأنه تنازل لمعاوية عن الخلافة لعدة أسباب منها ما ذكر بأنه لا قبل له بمعاوية وجند الشام(١) أو لأنه أراد حقن دماء المسلمين بعد ما عانوه من الحروب وكثرة القتل (٢) . واشترط الحسن على معاوية أن يكون أمر المسلمين شورى بينهم من بعده، ورغم مبايعة الحسن لمعاوية فقد ظلّ يخشاه، ولذلك دس له من سقاه السم أكثر من مرة، ولم يف بالغرض إلى أن دس له زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي، فمكث على إثره شهرين في ألم شديد إلى أن مات، ولما بلغ معاوية خبر موته كبر وكبر معه أعوانه فرحاً(٣) .

وكان الحسن بن علي قد اشترط على معاوية الامتناع عن شتم علي على المنابر لكن معاوية لم يف بوعده له(٤) وظل معاوية وولاته يشتمون علياً على المنابر، وبذلك يتجسد كره معاوية للإمام علي حتى بعد حصوله على الخلافة، وهذا الشتم قصد منه زرع البغضاء في نفوس الناس لعلي ولأولاده خوفاً على السلطة، ومما يدل على استمرار الأمويين بشتم علي على المنابر أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الأمصار يأمرهم بترك شتم الإمام علي، فلقي عمله هذا استحساناً من الناس وفي ذلك يقول الشاعر كثير عزة(٥):

وليتّ فلم تشتم علياً ولم تخفّ برياً ولم تتبّع مقالة مجرم(٦)

ولكن الأمويين عادوا إلى شتم الإمام علي بعد موت عمر بن عبد العزيز، ويتضح هذا في ولاية خالد القسري على العراق حيث كان يباليغ في شتم علي، حتى قيل أنه يفعل ذلك تقرباً إلى القوم(٧)؛ أي تملقاً للأمويين . وإمعاناً من معاوية في قهر آل البيت، وهب أرض فدك لمروان بن الحكم (٨) لكن عمر بن عبد العزيز أعادها إليهم(٩) . كما أرسل معاوية بسر بن أرطاة إلى اليمن ليقتل ابني عبد الله بن العباس ابن عم الرسول، وهما غلامان صغيران (١٠) .

وكان الحسين بن علي بن أبي طالب قد أثر الصمت عندما تنازل أخوه الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وذلك لأنه اعتبر أن في عنق أخيه بيعة لمعاوية، لكن ما إن مات معاوية حتى شعر الحسين أنه في حل من بيعة

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢١٥.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١، ص١٨٥ . و الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص١٦٧، و ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٢٧٢.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج(٣٥٦/٩٦٦م)مقاتل الطالبين، تحقيق السيد أحمد صقر، منشورات الشريف الرضي، ص٨٠. والمقدسي، المطهر بن طاهر(٥٠٧/١١١٣م) البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج٦، ص٥.

(٤) حسن محمد، نبيلة، تاريخ الدولة العربية، ص١٥٠.

(٥) كثير عزة، هو عبد الله بن الأسود الخزاعي شاعر متيم مشهور من أهل المدينة أكثر الإقامة في مصر وكان مفرط القصر وله أخبار مع عزة بنت جميل المضربية مات سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م، الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢١٩.

(٦) ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي(٢٣١هـ/٨٤٥م) طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، السفر الثاني، ص٥٤٠، السفر الثاني، ص٥٤٠، عباس، إحسان، ديوان كثير عزة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١، ص٣٣٤.

(٧) ابن الأثير الكامل، ج٤، ص٤٣٩.

(٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٢٣، و أرض فدك هي قرية في الحجاز بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة، وتعتبر فيناً للرسول، طلبتها فاطمة من الرسول فأبى ذلك، وبقيت للمسلمين إلى أن أقطعها معاوية لمروان بن الحكم ، الذي بدوره وهبها لولديه عبد العزيز وعبد الملك، فصارت لعمر وللوليد وللسليمان،، انظر: البلاذري، فتوح، ص٤٢، وياقوت الحموي، معجم، ج٤، ص٢٣٨.

(٩) ابن الأثير ، الكامل، ج٤، ص٣٢٩.

(١٠) المقريزي، تقي الدين، النزاع والتخاصم فيما بني أمية وبني هاشم، إعداد وتعليق صالح الورداني، الهدف للإعلام والنشر، القاهرة، ص٣٣، زيدان، وجرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مكتبة الحياة، بيروت، ج٣، ص٣٦٧.

يزيد (١) ولن يتم التطرق إلى تفاصيل موقعة كربلاء التي لطخت اسم الدولة الأموية بالعار لقتلهم الحسين بن علي فيها، ولكن الحديث ستركز على ما فعله الأمويون وأتباعهم بال البيت في هذه المعركة غير المتكافئة، وابتدأ أمرهم بقتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب ابن عم الحسين، والذي أرسله الحسين إلى الكوفة لأخذ البيعة من أهلها لكن يزيد بن معاوية طلب من عبيد الله عامله على العراق قتل عقيل، وبالفعل دُقت عنقه بعد أن أعطاه الأمان (٢) ولا يمكن تبرئة عبيد الله بن زياد من قتل الحسين فهو لم يطلب من عمر بن سعد بن أبي وقاص بذل جهوداً جدية لمنع الحسين من الخروج إلى الكوفة، ولعل ابن زياد قدر سهولة القضاء عليه في الصحراء بعيداً عن أنصاره (٣) وهنا خالف أوامر يزيد الذي طلب منه مقاتلة من يقاومه، لكن لامبالاة يزيد من موقف ابن زياد يوضح وجود النية في قتله، وفعلاً تم له ما أراد حيث قُتل الحسين في كربلاء وبدل اللقاء الجيشين في هذا المكان على أن الحسين كان متجهاً إلى طريق الشام وقد عدل عن الذهاب إلى الكوفة، بالإضافة إلى أن الحسين لم يبدأ القتال بل خیرهم بين ثلاثة أمور، إما أن يتركوه يعود من حيث أتى، أو يذهب إلى يزيد بن معاوية أو يلحق بالثغور (٤) لكن عبيد الله رفض ذلك، وفضل قتله بعدما قتل إخوته وبني عمه، ويذكر صاحب كتاب مقاتل الطالبين، أسماءهم (٥) إذ كانوا يدافعون عن الحسين، الذي رُمي بسهم في صدغه، ثم ضرب بالسيف وبالسيكس وقام شمر بن ذي الجوشن (٦) وحز رأسه ثم داست الخيل جسده ووجد فيه أكثر من ثلاث وثلاثين طعنة وأربع وأربعين ضربة (٧) وكان مقتله في العاشر من محرم عام (٦١١هـ/٦٨٠ م). وسلب ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحلل والإبل ونهبوها ونهبوا متاعه، ثم نذب القتلة عشرة منهم وداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدرة، ولم يكتفوا بقتل الحسين وأكثر أهله بل مثلوا بجثته، حيث عبث ابن زياد برأس الحسين ومدّ عصاه نحو فمه الملوث بالدماء، فقال له أحد الحاضرين «لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما» (٨) وأرادوا قتل علي بن الحسين، وهو علي الأصغر لكنّ عمته زينب تمسكت به، و كان مريضاً، وسيروا أهل بيت الحسين إلى عبيد الله بن زياد الذي قال لزينب بنت علي: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوتكم، فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً (٩) وسيروا النساء و الصبية وجميع أهل بيته إلى يزيد في دمشق وهن حاسرات، وسافرات (١٠).

واستمر الأمويون بمراقبة تحركات آل البيت، ومن ذلك ما كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامله على المدينة عثمان بن حيان المري «إن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كاتب أهل العراق فإذا جاءك كتابي هذا فاجلده مائة وقفه للناس ولا تراني إلا قاتله» (١١)، كما أساء هشام بن إسماعيل والي مكة للوليد بن عبد الملك، إلى علي بن الحسين بن أبي طالب الملقب بزین العابدين (١٢). وبالإضافة إلى ذلك فقد سجن يوسف بن عمر

-
- (١) العشي، يوسف، الدولة الأموية، ص ١٩٦.
- (٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٥٥، والأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ١٦.
- (٣) ماجد، عبد المنعم، الدولة العربية، ص ٧٢.
- (٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٢٩٨.
- (٥) مقاتل الطالبين، ص ٨٥ وما بعد.
- (٦) شمر: اسمه شرحبيل بن قرط الكلابي، كان من ذوي الرياسة في هوازن واتصف بالشجاعة شهد صفين مع علي ثم أقام بالكوفة وكان ممن شجع على قتل الحسين ثم قتله المختار الثقفي أثناء حركته ضد الأمويين، الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ١٧٥.
- (٧) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٩٨.
- (٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٦.
- (٩) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٣٦.
- (١٠) المقرئزي، النزاع والتخاصم، ص ١٠٧، وابن العديم، بغية الطلب، ج ٥، ص ٢٣٢١.
- (١١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧٨، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٥، ص ٢٣٢٠، والسخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ/١٤٩٧ م) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريف دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٧٤.
- (١٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٦٧٢.

والي العراق زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأهانته بتهمته إيداعه أموال لخالد القسري الذي كان والي العراق قبله، وهذا الأمر تم بعلم الخليفة هشام بن عبد الملك، وفي أثناء وجوده في العراق لإكمال عملية التحقيق اتصل به الكوفيون وأغروه بتزعم ثورة أعدوا لها(١)، وظل الكوفيون يُرغّبون زيداً حتى وافقهم ونظّم للثورة معهم وتقررت الثورة في الأول من صفر عام(١٢٢هـ / ٧٣٩م) ، وعلم يوسف بالترتيب للثورة فحصر أنصار زيد في مسجد الكوفة، وتفرق عنه أتباعه، فقاتل زيد بمن معه وكانوا حوالي مئتي رجل ورماه جند الشام بسهم في جبهته، فمات واحتار أصحابه وأهله أين يسترون جثته خوفاً من تنكيل بني أمية بها، فاقترح بعضهم إلباسه درعه وطرحه بالماء وقال آخرون باحتزاز رأسه ووضع جسده بين القتلى كي لا يُعرف، وأخيراً قرروا دفنه في حفرة يؤخذ منها الطين وفيها ماء كثير وأجروا عليه الماء، لكنّ يوسف بن عمر أخرج الجثة وصلبها، وأرسل رأسه إلى هشام بن عبد الملك الذي أرسله إلى المدينة، وبقي زيد مصلوباً حتى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، حيث أمر بإنزاله وحرقه ونسفه في نهر الفرات(٢) وهنا تظهر المبالغة في بقاء الجثة كل هذه المدة وهذا يدل على العذاب الذي لقيه آل البيت من الأمويين وحقدهم حتى أدى هذا إلى المبالغة في وصف عذابهم، وكان يحيى بن زيد بن علي قد هرب إلى خراسان ولكن الأمويين ظلوا وراءه حتى رموه بسهم في جبهته كما رُمي والده زيد وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى الوليد بن يزيد وصلبوه (٣).

هذا يعني أن العداوة الذي كان بين الأمويين وآل البيت هو عداوة سياسي بالدرجة الأولى إذ خشي الأمويون من تعاضم أمرهم مع شيعتهم ، فيحصلوا على الخلافة التي تمسك بها الأمويون وحاربوا كل من سولت له نفسه المساس بها أو انتقادها.

٤- استنثار الأمويين بجميع مفاصل الحكم وعدم اعتمادهم على الشورى:

إن الرئاسة سؤدد وصاحبها متبرع وليس له عليهم (الرعية) قهر في أحكامه(٤) هذا هو رأي ابن خلدون بالرئاسة، والرئيس بهذا المعنى على الرغم من أنه لا ينادى عن النقد بحيث يستطيع كل فرد من الأفراد الذين تجري عليهم رئاسته أن ينتقده، وهنا سؤال يطرح نفسه، هل أحسن بنو أمية الحكم وهل استطاعوا رؤية مصلحة الدولة بالدرجة الأولى أم غلبت عليهم الرؤية الخاصة بالعصبية الأسرية ؟ وبمعنى أدق بصلة الرحم والقُربى ، وهل استطاعوا فهم معنى الخلافة واستوثقوا منها أم أنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء الله على الأرض؟ وليسوا خلفاء رسول الله، كما فعل أبو بكر الصديق بعد انتخابه خليفة، حيث نهى الناس عن تسميته بخليفة الله، وأوضح لهم أنه خليفة رسول الله، لأن الاستحلاف إنما هو في حق الغائب، وأما الحاضر فلا(٥) . ورأى معاوية عكس هذه الرؤية، حيث قال «الأرض لله... وأنا خليفة الله فما أخذت لي وما تركت للناس فبالفضل مني»(٦)، أي أن الله استخلفه مباشرة في الأرض وأطلق الأمر بين يديه يفعل بها ما يشاء. وهذا يدل على ترسيخ فكرة الجبر من قبل الأمويين والسلطة، وجسد الحجاج النقفي هذه الفكرة تجسيدا مبالغاً فيه، حتى وصل به لدرجة عظم فيها

(١) عيسى، رياض، الحزبية، الحزبية السياسية، ص١٩٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢١٠. وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٥٥. و الأصفهاني مقاتل الطالبين، ص١٣٧، وما بعد

(٣) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص١٥٠ الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٤٣٢، و ابن الأثير ، الكامل، ج٤، ص٤٧١.

Brown ,Edward ,G, ;A Literary History of Persia London, 1909,V1,p535.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ج١، ص١٣٩

(٥)الرئيس، محمد ضياء، النظريات السياسية الإسلامية، ص١١٢.

(٦) العشماوي، محمد سعيد، الخلافة الإسلامية، ص١٣٢.

أمر الخلافة ففضلها على النبوة، فكان يقول «ما قامت السماوات والأرض إلا بالخلافة»، وبهذا يكون الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، لأن الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته، ثم أهبته الأرض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلاً، وكان الحجاج يرد على من يعترض عليه بقول «أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟» (١) ولقد أعجبت هذه الآراء عبد الملك على ما يبدو. ولم يكن الحجاج الثقفي أكثر تملقاً من خالد القسري الذي خطب يوماً في مكة فقال: «أيها الناس أيهما أعظم، أخليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم» (٢)، وبذلك سعى الأمويون لأن تكون الخلافة كسروية وقيصرية بالإضافة لحجب الناس عن الحكم والخلافة فالخليفة في رأيهم مطلق الصلاحية، يولي ويعزل من يشاء ويسوس الأمر حسب إرادته، ولا يجوز لرعيته توجيه نقد له، هذا ما يستشف من خطبة عبد الملك في المدينة بعد قتل عبد الله بن الزبير حين قال: «... وإني لا أدأوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي... والله لا يأمرني أحد بتقوى الله هكذا بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه» (٣)، وما أبعد هذا القول عن قول أبي بكر الصديق لما ولي الخلافة «أيها الناس فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني» (٤).

وهنا يمكن السؤال عن هدف الأمويين من ذلك؟ ربما أرادوا إيصال رسالة واضحة فحواها منع تدخل الرعية في أمور الحكم، فهم يختصون بها دون العامة، إذاً كان الاستئثار بالحكم لهم ولأسرتهم أو المقربين لهم، فأعوان الخليفة هم إما من أخوته أو أبنائه أو من أقاربه، وكثيرة هي الأسماء التي توردها كتب التاريخ حول هذا الاستئثار، فمثلاً الحج كان ينفرد برئاسة وفده في كل عام أحد الأمويين (٥).

كما أعطى الخلفاء للولاة المقربين منهم حرية التصرف في ولاياتهم، ومثال ذلك أن مصر كانت لعمر بن العاص كالخاتم في إصبه، وبقية مصر على هذا الحال أيام الوالي عبد العزيز بن مروان، حيث ولاة والده إياها وبقي إلى أن مات (٧٠٥/٥٨٦م)، حيث كانت له صلاتها وخراجها (٦) وبعد موته تولاهما عبد الله بن عبد الملك بن مروان. والظاهر من سياسة الخلفاء الأمويين وخاصة الفرع المرواني، جعل ولاة الأمصار أغلبهم من أهل بيتهم ليصرفوهم عن التفكير في السلطة (٧)، ولقد منحوا الولاة مطلق الصلاحيات ولم يفصلوا في أعمالهم حيث كانوا بالإضافة إلى كونهم ولاة، قواد جيش وجباة ضرائب، فالمهلب ابن أبي صفرة كان قائداً للجيش ومحارباً للخوارج والياً على خراسان وله حرية التصرف في أمور المشرق، وكذلك كان الحجاج الثقفي وغيره من الولاة، وكان يزيد بن عبد الملك قد عين أخوه مسلمة بن عبد الملك على العراق بعد القضاء على المهالبة، إلا أنه سرعان ما عزله لأنه استولى على كل الأمور فيها (٨).

ومن يتمتع في أسماء قادة جيوش الصوائف والشواتي وحملات حصار القسطنطينية يلاحظ أنهم من بني أمية كمسلمة بن عبد الملك وعبد الله بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك ومعوية وسليمان ولدي

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٨، ص٦١.

(٢) الطبري، ج٣، ص٦٧٩، وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٥٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص١٥٠.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ١٢٧، وابن سعد، الطبقات، ج٣، ص١٨٣، والطبري الشافعي، أحمد بن عبد الله بن محمد (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م) الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق عيسى عبد الله محمد مانع، الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦. ج٢، ص١٢٣.

(٥) ترد الأسماء لهم في أماكن متفرقة من الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص١٧٣-١٧٤ و ابن الأثير الكامل، ج٤، ص١٦٦، هذا على سبيل المثال.

(٦) كرد علي، محمد، الإسلام والحضارة الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦، ج٢، ص١٦٢.

(٧) فروخ، عمر، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص٢٠٧.

(٨) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٩٦.

هشام بن عبد الملك، وهذه أسماء على سبيل الذكر لا الحصر.

وكان جلياً أن الوراثة في الحكم من أشد المآخذ التي أفصحت عنها تيارات المعارضة لبني أمية حيث احتجوا على وراثة الحكم، من أنها تغييب لمبدأ الاستحقاق وانعدام للشورى الإسلامية(١) ولذلك اختار المسلمون أبا بكر الصديق خليفة لهم، وهو ليس من أسرة النبي، وكذلك استخلف عمر وعثمان وعلي من بعد ، ولم يعهد أي منهم بالخلافة لولده رغم ما وصّف به أبناءهم من تقوى وورع(٢) ، فلقد حصل معاوية على الخلافة بقوة السيف ويبدو أنه خشي على انهيار جهوده المبذولة طيلة ثلاثين عاماً ، حيث عمل فيها على تأسيس دولة أموية الهوى، كما رأى ضرورة إبقاء السلطة في الشام لأنها في رأيه أطوع للمؤمنين من الأمصار الأخرى ، لذلك يجب الحفاظ على الحكم في بني أمية (٣) ، ولذلك دعا معاوية من أجل بيعة ابنه يزيد، فبالإضافة إلى عاطفته تجاه ولده، كان للبيئة التي عاش فيها تأثيرها عليه أيضاً .

هذا حسب رأي معظم من يدافع عن توريث معاوية للحكم، حيث تأثر بالبيزنطيين والفرس، الذين كانوا يعينون أولياء عهودهم من أبنائهم(٤) ، وبإعلان معاوية البيعة ليزيد خالف شروط الخلافة، وانتقل بها من خلافة إسلامية تقوم على مبدأ الشورى إلى ملك وراثي، ولا تخلو الطريقة التي عرض فيها معاوية البيعة من الإكراه ، حيث قام المغيرة بن شعبه واليه على الكوفة خطيباً وقال وهو يشير إلى معاوية : أمير المؤمنين هذا، ثم أشار إلى يزيد بن معاوية وقال : فإن مات فهذا، ثم أمسك بالسيف وشهره قائلاً : ومن أبي فهذا (٥) .

واتخذ باقي الخلفاء الأمويين طريقة اختيار ولي العهد سُنَّةً، بل تعدى الأمر أبعد من ذلك ، حيث كانوا يولون أكثر من واحد كما فعل مروان بن الحكم، عندما عقد الولاية لعبد الملك وعبد العزيز، وسبب هذا الأمر اضطرابات لأن الخليفة كان يرغب في تنحية أخيه ليولي ابنه، كما فعل عبد الملك عندما أراد خلع عبد العزيز، أو كما فعل سليمان عندما أراد تولية ابنه أيوب لكنه مات فعين عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك وأدت تولية العهد إلى الصراع في أحيان كثيرة، بل أدت إلى القتل وكانت إسفيناً دُوق في نعش الدولة ، فهشام لم يعتبر مما حصل من مشاكل لتولية العهد فأراد خلع الوليد بن يزيد، فحصل جفاء بين الاثنين، حتى فكر بالانتقام من الذين فكروا في خلعهم، ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته(٦) .

وبذلك ابتعد الأمويون عن مقاليد الشورى في طريقة الحكم وكيفيته وبدا الاستبداد شبه جلي في سياستهم .

-
- (١) عطوان، حسين، الفقهاء والخلافة في العصر الأموي، دار الجيل ، بيروت ، ط١، ١٩٩١، ص٥٢-٥٣ و عبد الشافي ، عبد اللطيف، العالم الإسلامي في العصر الأموي دار الوفاء ، القاهرة ط١، ١٩٨٤، ص١٢١.
 - (٢) الرئيس، محمد ضياء، النظريات السياسية، ص ١٨٥، و نوار ،صلاح الدين ، نظرية الإمامة أو السياسة، ص٩٦.
 - (٣) طقوش، محمد سهيل، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس ،بيروت، ط٦، ٢٠٠٨، ص٢٣.
 - (٤) نوار، صلاح الدين، الإمامة أو السياسة، ص٩٧.
 - (٥) العشماوي، محمد سعيد، الخلافة الإسلامية ، ص١٣٢.
 - (٦) طقوش، محمد سهيل، الدولة الأموية، ص١٩٠-١٩١.

٥- اعتماد بعض الخلفاء على العصبية القبلية:

لقد مرّ الحديث في مظاهر القوة عن العصبية القبلية بمعناها وبمدى خلق بعض الخلفاء توازناً لها، فجعل منها أداةً لتطويع من أرادوا، أما الآن فسيكون الحديث عن استخدام البعض الآخر من الخلفاء العصبية القبلية من أجل مصالحهم وبالتالي إذكاء نار العصبية التي ساهمت بقدر لا بأس به بسقوط دولتهم . إن تتبع مسألة العصبية القبلية في هذا العصر أمرٌ شائكٌ وعسير، وذلك لتشابكه ولتعقيده، وفي الوقت نفسه لتأثيره لذا سيكون الحديث مقتصرًا على دور بعض الخلفاء الأمويين في استخدام العصبية القبلية سلاحاً لتحقيق مآربهم فهل استطاع بعض الخلفاء الإفلات من الانخراط في خضم الصراعات القبلية عندما تُفرض عليهم أم انساقوا بمشهد الصراع ؟ لقد بُذلت بعض الجهود في هذا العصر لخلق توازن بين القبائل ، لكن النتائج لم تكن على القدر المطلوب، ولم تتخذ الدولة سياسة عامة وثابتة لتحقيق هذا الغرض بل كانت بعض المحاولات الذاتية على الأغلب.

فإذا استطاع معاوية تدارك الأمور بمقدرته السياسية، عندما أحدث شبه توازن في المنطقة فإن ابنه يزيد أخفق إلى حد ما في تقليد والده في سياسته، لكن عبد الملك بن مروان أمسك دفة الحكم بقوة بعدما عصفت بها ريح العصبية ليأتي بعده ابنه الوليد مسترسلاً بسياسة والده، وخلفه بعد ذلك سليمان الذي ربما تخبط بأحقاد الشخصية، ويُستثنى من ذلك عمر بن عبد العزيز الذي ساوى بين الجميع في دولته، ليبدأ بعده التدهور الحقيقي للدولة، وفتك العصبيات ثم بدء مرحلة النهاية إلى السقوط.

وإذا كانت المصاهرات قد أنتت ثمارها عند معاوية ، فإنها لم تكن كذلك لكل الأمويين، وقد برز أثر هذه المصاهرات أكثر ما برز في أواخر الدولة الأموية (١)، فالخليفة حين يصهر لقبيلة ما أو يرتبط عن طريق أمه برابطة القرابة بها يجد نفسه مدفوعاً إلى التعصب وإيثار هذه القبيلة على غيرها والوقوف إلى جانبها ضد غيرها، وبسبب هذه المصاهرات كان خلفاء بني أمية ينحازون تارة إلى يمن وتارة إلى قيس وغيرهما، وبالمقابل كانت القبيلة تتعصب للخليفة الذي صاهرها(٢) ، ومما يجدر الإشارة إليه أنّ دوافع العصبية القبلية استترت تحت اسم هذه العصبية، لكنها كانت أعمق لأنها كانت سياسية واقتصادية وعسكرية، فالسلطة تدر أرباحاً، لذلك سعى كل فريق من أجل إعلاء شأنه (٣) كان للسلطة إذاً فوائد كثيرة، هذا ما يُستنتج مما قالته قبيلة بكر بعدما استأثر عبد الله ابن خازم وقومه في خراسان عقب وفاة يزيد بن معاوية «علام يأكل هؤلاء خراسان دوننا؟»(٤).

وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ، الذي ولّى ابنه يزيد الخلافة من بعده ، لم يكن القيسيون راضين عن حكم يزيد الذي اعتمد على العنصر اليمني في حكمه كونهم أخواله ، وبقيت مشاعر القيسيين كامنة كالجمر تحت الرماد حتى توفي يزيد وجاء بعده ابنه معاوية الذي تنازل عن الحكم (٥)، وبادر القيسيون بإعلان غضبهم من سياسة يزيد وخاصة أنهم أصحاب الفتح العربي (٦) فأعلنوا تأييدهم لابن الزبير في الحجاز، وانحاز اليمنيون

(١) دسوقي، محمد عزب، القبائل العربية في بلاد الشام ، ص٤١٧ .

(٢) النص، إحسان، العصبية القبلية وأثرها ، ص٢٥٥-٢٥٦ .

(٣) عيسى، رياض، الحزبية السياسية، ٢٧١ .

(٤) البلاذري، فتوح البلدان ص٤٠٤ . وكان ابن خازم والياً على خراسان منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، وبإيعاز ابن الزبير إثر فتنته ورفض مبايعة عبد الملك بعد موت ابن الزبير فقام جماعة ممن كرهوا ولايته بقتله وإرسال رأسه إلى عبد الملك، اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢٧١ .

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٩، والطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٣٧٩ .

(٦) دسوقي، القبائل العربية في بلاد الشام، ص٣٥٨ .

إلى بني أمية في الشام، وتفرقت كلمة الأمويين، وتنافسوا على منصب الخلافة، وتم الاتفاق على اختيار مروان بن الحكم للخلافة وذلك في مؤتمر الجابية سنة (٦٨٣/هـ٦٤م) لكن القيسيين اعتبروا أن ذلك إخفاقاً لهم، فتطور الأمر إلى صدام بين الطرفين في معركة مرج راهط، حيث قُتل الضحاك بن قيس وهرب زفر إلى قرقيسيا، ولم تكن هذه المعركة وبالاً على القيسية فقط بل إنها وسعت الهوة بين الطرفين وازدادت الأحقاد بينهما، ومع ذلك فإن عبد الملك استطاع إقامة التوازن بينهما نوعاً ما.

وإن كانت سياسة الوليد تجاه العصبية القبلية لم تتخذ منحى واضحاً، فإن سليمان أعطاهما أبعاداً مختلفة، أي عصبية قبلية ممزوجة بأحقادٍ شخصية، وأضيف إليها التنافس بين زعامات الدولة المختلفين من خليفة وولاية وقادة (١)، فحين عين سليمان يزيد بن المهلب بعد وفاة الحجاج على العراق، كان ذلك لأن الحجاج سجن ابن المهلب، ففر هذا الأخير إلى سليمان، حيث كان في الرملة في أرض فلسطين فكره سليمان الحجاج، وحقد عليه، لأنه حسب رأيه أضر بمصالح البيت الأموي في العراق، ولأنه سعى لدى الوليد كي يعزل سليمان عن ولاية العهد (٢)، وربما فعل الحجاج ذلك لأنه أوى عنده ابن المهلب. وكما سبق القول اختلطت لدى سليمان الأمور، فها هو يعزل خالد القسري عن ولاية مكة (٣) واليمينية يعتبرون خالداً منهم، وخالد هذا عين في زمن الوليد، إذاً كيف يعينه الوليد إذا ما اعتبر أن الوليد موالٍ لقيس؟ ولماذا يوالي سليمان فئة غير فئة أخيه الوليد طالما أنهما من أم قيسية واحدة؟

كما وظهرت آثار المصاهرة في الصراع القبلي زمن يزيد بن عبد الملك، حيث كان هذا قد تزوج ابنة محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج، وأدى هذا إلى حقد يزيد على يزيد ابن المهلب الذي عدّ آل الحجاج زمن سليمان، فعاهد يزيد بن عبد الملك الله أن ينتقم منه (٤)، وتمكن يزيد بن المهلب من الهرب من سجن عمر بن عبد العزيز الذي أمر بمحاسناته لأنه لم يدفع خمس الغنائم التي غنمها من الحروب التي قام بها، وكان قد بالغ في مقدار ما حصل عليه من الغنائم (٥)، فأعلن الثورة على الخليفة يزيد بن عبد الملك والتي انتهت بتصفية آل المهلب والتتكيل بهم، ومما يؤخذ على الخليفة يزيد بن عبد الملك إطلاق يد واليه على العراق عمر بن هبيرة وهذا قيسي بامتياز إذ قام بكل أنواع الظلم في هذا الإقليم (٦)، ولم يكن يزيد بن عبد الملك من الشخصيات الموصوفة بحسن التصرف أو التدبير، لأن سياسته غير المدروسة جرت به إلى الانسياق في ركب الصراعات القبلية، فزاد في عطاء القيسية على حساب اليمينية في بلاد الشام. (٧)

كما كانت سياسة هشام بن عبد الملك القبلية متقلبة، حيث قام بتولية خالد القسري على العراق، كما ولى أخاه أسد على خراسان، وعزله لأنه أفسد الناس بعصبيته حسب رأيه، كما عزل خالد وولى بدلاً عنه عمر بن هبيرة، وولى نصر بن سيار على خراسان، ولقد أبغض نصر اليمينية، فاستقاد أبو مسلم الخراساني من سياسة نصر هذه، فتلاعب بالفريقيين أثناء تفجير الثورة العباسية (٨).

لكن الأمور لم تتأزم إلا بعد عهد هشام، إذ انفجرت الأوضاع وبدأ عصر الفوضى والاضطراب والذي أدى في

(١) عاقل، نبيه، خلافة بني أمية، ص ٢٤٣.

(٢) الطبري تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٣٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٣.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٦٧ و السيد، محمود، تاريخ الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ٦٧

(٥) فاعور، علي، سيرة عمر بن عبد العزيز، دار الهادي، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ص ٥٣.

(٦) أبو النصر، عمر، الأيام الأخيرة للدولة الأموية، المكتبة الأهلية، بيروت، ط ١، ١٩٦٢، ص ٢٥٤.

(٧) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٣٥.

(٨) الثعالبي، عبد العزيز، سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية تقديم وتحقيق حمادي الساطي، دار الغرب الإسلامي،

بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ص ١٦٧- ١٦٨

النهاية إلى سقوط الدولة الأموية، فإذا كانت تصرفات الخلفاء قبل عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥- ١٢٦هـ/٧٤٢-٧٤٣م) ليست على القدر الكافي لإثارة قلق تودي بحياة الدولة، فإنه ابتداءً من عهد هذا الخليفة تجلّت بوضوح ملامح العصبية القبلية، حيث قام هذا الخليفة بعزل كل عمال الدولة من اليمنية واستبدلهم بولاة من القيسية (١) كما قام واليه على العراق يوسف بن عمر بتعذيب خالد القسري وقتله بموافقة الخليفة، بالإضافة إلى ذلك قام الخليفة نفسه بسجن يزيد بن خالد (٢)، ولأن اليمنيين يعتبرون خالداً منهم فقد اعتبروا قتله إهانة لهم (٣) وخاصةً أنه نُسبت إلى الوليد قصيدة هجا فيها اليمنية حيث قال:

ونحنُ المالكونَ الناسَ قسراً
نسومهمُ الذلة والنكالا

وهذا خالدٌ فينا قتيلاً
ألا منعه إن كانوا رجالاً (٤)

وبمقتل خالد توحدت القبائل اليمنية لأول مرة في العراق والشام، حيث اتفقوا على قتل الخليفة، وقبل قتله نادوا على ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك خليفة لهم، وكان من الطبيعي أن يقرب اليمنية إليه، وهم الذين أوصلوه إلى الحكم، فقام بعزل القيسية عن أعمالهم وأقصاهم عن مجلسه بل إنه بلغ من سخطه على قيس أنه همّ باستئصالها، وما منعه من ذلك إلا كراهيته سفك الدماء حيث قال: «ما عزت إلا ذل الإسلام» (٥) لذلك ثار القيسيون وبعض بني أمية عليه في حمص وفلسطين والأردن، واتسع نطاق العصيان ليشمل بلاد العراق وخراسان (٦)، ولم يستطع ابراهيم بن الوليد أخو يزيد الذي أصبح خليفة من بعده القبض على ناصية الأمور، إذ إنه لم يبق في الحكم أكثر من أربعة أشهر (٧) فنازعه على الخلافة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الذي ناصره في ذلك سائر القيسية انتقاماً من يزيد الثالث، وبالفعل أصبح مروان خليفة بعد فتنة كبرى، ومعارك ضارية وظل عهده مصبوغاً بالاضطرابات، وخاصةً بعد اعتماده على القيسية، الأمر الذي أثار عليه اليمنيين الذين كانت ثورتهم عليه أحد أسباب انهيار الحكم الأموي، إذ إنه انشغل بمحاربتهم ولم ينتبه إلى الرايات وهناك بعض العوامل المساعدة على تأجيج الصراع القبلي ولا بد من التلميح السوداء القادمة من خراسان (٨) إليها ألا وهي دور بعض الخلفاء لهذا الصراع عن طريق الإعلام أي الشعراء والخطباء، وربما سعوا بذلك إلى التسلية، أو هدفوا منها التوازنات السياسية (٩) بغض النظر عن نتائجها، حيث كان يطيب لبعض الخلفاء دعوة شعراء وخطباء القبائل للتفاخر والتباهي، ولذلك كانت كل قبيلة تحرص على أن يكون في عداد وفودها إلى الخليفة نخبة من البلغاء والمفوهين لينطقوا بلسانها، ومن ذلك ما ذكره الجاحظ من أن خطباء نزار ويمن اجتمعوا في مجلس معاوية، فلما قام خطباء نزار وذهبوا في خطبهم كل مذهب ولم يستطع خطباء يمن مجاراتهم قام شخص من وفد اليمن وقال: " يا أمير المؤمنين : إنا قوم فعّالٌ ولسنا حي مقال، ونحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا" (١٠) إن النظرة إلى العصبية القبلية إذاً يجب أن تقترن بالظروف والمعطيات التي أدت إليها،

(١) دسوقي، مرجع سابق، ص ٤٢٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٢٧٥. وابن الجوزي، المنتظم، ج ٧، ص ٢٠٨.

(٣) النص، إحسان، العصبية القبلية، ص ٢٦٠.

(٤) جبربالي، ف، ديوان الوليد بن يزيد، ص ٥٠.

(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٦) الدسوقي، محمد عزب، القبائل العربي، ص ٤٣٣.

(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٣٧. وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٩٩.

(٨) الدسوقي، القبائل العربية، ص ٤٤٠. و طقوش، محمد سهيل، تاريخ الدولة الأموية، ص ١٩٥.

(٩) عيسى، رياض، الحزبية السياسية، ص ٢٧٤.

(١٠) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٧

١٩٩٨، ج ١، ص ٣٠٠.

فالمناخ السياسي والاقتصادي وغيرها كانت الدوافع الأساسية لهذه العصبية، فكل فريق من الفريقين كان يظن أنه الأفضل أو على الأقل يكافئ الطرف الآخر، الأمر الذي أدى إلى وقوف كل من اليمنية والقيسية بجانب من تراه مناسباً لمصالحها، وربما كانت هذه الصراعات هي التي زجت بالخلفاء فيها، فالمدقق في تصرفات بعض الخلفاء تجاه العصبية القبلية يرى أنهم فعلوا ذلك ليس حباً في الصراعات القبلية، وإنما رغبة منهم في ترسيخ سلطانتهم، حتى ولو كان ذلك على حساب تأجيج الصراعات، أو على الأقل السير في ركابها، فالدولة بحاجة إلى قبائل قيس الشمالية، لتكون درعاً حامياً في وجه الاعتداءات البيزنطية، في حين مثلت القبائل الجنوبية اليمنية بالنسبة للدولة عماد الجيوش الأموية التي استُخدمت للقضاء على التمردات والاضطرابات في الأقاليم كافة.

إذاً فالنسب لم يكن المحرك الأساسي لهذه الصراعات، بل إنه مثل الغطاء للمنافع على المستويات كافة.

٦- عدم احترام المعارضة:

لقد منح انتزاع معاوية للسلطة بقوة السلاح، وتأسيسه ملك وراثي بدون مسوغ شرعي بتجاوزه الشورى، المعارضة المسوغ كي يقوموا باحتجاجاتهم في كل بقعة من ديار العرب، وكان من الطبيعي أن تستعمل الدولة الأموية القوة المسلحة لردع المعارضة، ومن أجل ذلك حوّل الأمويون جند الشام عن أولوياته الأساسية، من حروب خارجية ومسيرة الفتوحات، ليصبحوا قوة قمع داخلية لإخماد المعارضين، ولقد اضطر الأمويون إلى تسخير موارد الدولة من أجل إرضاء هذا الجند، وبالتالي استخدام وسائل الظلم والجور للحصول على الأموال اللازمة له، وجرّ هذا على الحكم الأموي المزيد من المعارضة والعداء المستمرين، وبخاصة في العراق والحجاز حيث سُلّبتا مكانتهما بعد أن نقل معاوية مركز الخلافة إلى الشام، وأدى هذا إلى تعدد نوعيات المعارضة من خوارج عادوا كل من الأمويين والشيعة، إلى شيعة وقفوا ضد الأمويين وقالوا بأحقية آل البيت بالخلافة، إلى زيبريين، أضف إليها معارضة من بعض الأمويين أنفسهم، والمتتبع للعصر الأموي يلاحظ عدم هدوء الثورات طيلة عمر هذه الدولة .

لقد اعتمدت حركات المعارضة لسلطان بني أمية على الشعار المتمثل أساساً في الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه وكما يبدو فإنه شعار مشحون بمحتوى ديني يشرع لسياسة زمنية دنيوية، أي أنه يلمح إلى وجود خلل دنيوي مرده الابتعاد عن كتاب الله وتعاليمه وسنة النبي ﷺ، ورفع هذا الشعار يشير إلى وجود تناقضات اجتماعية واقتصادية، ولقد عمد الأمويون إلى قمع كل من يفكر في الخروج عن طاعتهم التي عملوا جاهدين على تلقينها لكل الناس، متخذين من بعض الآيات القرآنية سنداً لهم فعلى سبيل المثال قوله تعالى ﴿ وأطيعوا الله ورسوله وأولو الأمر منكم ﴾ (١)، بغض النظر عن تصرفات أولياء الأمر هؤلاء .

فبعد تنازل الحسن عن الخلافة واستتباب الأمر لمعاوية الذي أمر ولاته بشتيم الإمام علي بن أبي طالب على المنابر، وبعد ما فعل المغيرة هذا الأمر في الكوفة، قام من بين الحضور صحابي من زعماء كندة الكبار اسمه حجر بن عدي الكندي وكان وطيد الصلة مع الإمام علي بن أبي طالب (٢) واعترض حجر على المغيرة لهذا العمل، فرد عليه المغيرة قائلاً «ويحك يا حجر اتق السلطان ورضبه وسطوته، فإن غضب السلطان أحياناً مما

(١) سورة النساء، آية ٥٩.

(٢) ابن عساکر، تاريخ دمشق، ج١٢، ص٢٠٧-٢٣٣. و شعبان، محمد عبد الحی، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٠١.

يهلك أمثالك» (١) ، واستمر حجر في سياسته المعارضة لسلطان بني أمية إلى أن جاء زياد بن أبيه، وسار على سنة من كان قبله في شتم علي فزاد ذلك من غضب حجر وأتباعه فأخذوا يعقدون الاجتماعات لشتيم معاوية وليس هناك دليل على أن حجر قد تولى مناشدة المسلمين في أثناء نيابه لمعاوية بالثورة عليه (٢) وكتب زياد إلى معاوية يستشيريه في أمر حجر فطلب منه معاوية أن يشده بالحديد ويحملة إليه مع أصحابه إلى دمشق، حيث أمر معاوية بقتلهم سنة (٥١هـ/٦٧١م) (٣) وهذا الأسلوب لم يكن مألوفاً من معاوية، فهي المرة الأولى التي يجري فيها إعدام سياسي في الإسلام، وخاصة أن معاوية أمر بقتلهم قبل الدخول إلى دمشق والاستماع إليهم، ويبدو أن قتل حجر فتح الباب على مصراعيه للمعارضة الشيعية والتي كانت تتحين الفرص لترفع رأسها في الوقت الذي أصبحت الفرصة مناسبة عندما مات معاوية فراسلوا الحسين بن علي بن أبي طالب، حيث شجعوه على الخروج والمطالبة بحقه، ورأى الحسين ضرورة الخروج طالما أنه لم يبايع يزيداً، وأمر يزيد واليه على المدينة الوليد بن عتبة بأن يأخذ من رفض البيعة أخذاً شديداً (٤)، ويفهم من ذلك استعمال كل الوسائل معهم، ومنهم الحسين بن علي الذي انتهى خروجه بمأساة أودت بحياته مع عدد كبير من آل بيته (٥) ، رغم أنه كان باستطاعة جيش عمر بن سعد بن أبي وقاص اعتقال الحسين وأصحابه بعد حصارهم لمدة أربعة أيام ومنع الأطعمة عنهم لكن التعليمات جاءت تأمر بقتله من ابن زياد وأهل بيته وليس اعتقالهم، بل حتى التمثيل بجثثهم سنة (٦١هـ/٦٨٠م) وظل الأمويون يلاحقون آل البيت وكل معارضة شيعية، فكما فعلوا بالحسين فعلوا بزيد بن علي وبابنه يحيى من بعده ولم تكن معاملتهم للخوارج بأحسن حال، فلقد لام معاوية واليه على العراق عبد الله بن عامر لأنه أعطى الأمان للخوارج الذين خرجوا على السلطة الأموية بقيادة سهم بن غالب وأمر معاوية ابن عامر بقتلهم لكن ابن عامر ردّ عليه: «لقد جعلتُ لهم ذمتك» (٦) .

ولقد بلغت شدة الفتك بالمعارضة ما قام به زياد بن أبيه من التعرض للنساء الخارجيات اللواتي كن يخرجن مع الرجال إلى ساحات المعارك (٧) ، حيث قتل إحداهنّ وعراها (٨) ، ولم تكن الأمور بأحسن حال عندما تولى عبيد الله بن زياد البصرة، حيث تشدد بملاحقة الخوارج فكان أكثر شهدائهم في زمنه (٩) . وفي مصر التي دخلها الخوارج، وإن كانوا بنسبة ضئيلة، إلا أنهم دعوا ابن الزبير إلى بيعته وتعيين أمير عليهم وبالفعل أرسل ابن الزبير عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم والياً، لكن مروان بن الحكم بعد تعيينه خليفة أرسل جيشاً لاستعادة مصر، وبعد قتال كر وفر بين الجيشين المصري وجيش مروان اتفق الطرفان على الصلح، لكن مروان قتل منهم ثمانين رجلاً لأنهم رفضوا بيعته (١٠).

ويضرب عمر بن عبد العزيز مثلاً على إمكانية معاملة الخوارج من غير الإساءة والفتك بهم، فقد حاول استيعابهم فناظر بعضهم في أفكارهم وأقنعهم بحججه (١١).

(١) إبراهيم، حسن، حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٢٤..

(٢) عيسى، رياض، الحزبية السياسية، ص ١٧٠ .

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ٢٣٩، و الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ ، ص ٢١٨. وابن الجوزي، المنتظم، ج ٥، ص ٢٤١.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٢٦٩،

(٥) انظر ما سبق في فقرة سوء معاملة آل البيت.

(٦) الرواضية، زياد بن أبيه، ص ٢٠٧،

(٧) القلموي، سهير، أدب الخوارج في العصر الأموي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٤٩.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٨٥.

(٩) عاقل، نبيه، خلافة بني أمية، ص ٧٧.

(١٠). الكندي الولاية والقضاة، ص ٤٣.

(١١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٠٨

وحتى من خرج مطالباً بحقوقه المهذورة لم يتعامل الأمويون معه كما ينبغي ولم يعالجوا سبب المعارضة، كما حدث في مصر والمغرب عندما ثار الناس على ظلم ولاتهم لهم ففي سنة (١٠٧هـ/٧٢٥م) أراد صاحب خراج مصر عبد الله بن الحباب التقرب من الخليفة هشام فزاد خراجها بحجة أنها تحتل الزيادة مما أدى إلى ثورة في مصر لكن الخليفة عالج الأمر بإرساله جيش كبير لقتالهم وقتل منهم أعداداً كبيرة (١) وتوضح عدم جدية الخلفاء في معالجة السبب الذي من أجله قامت الثورة من قيام ثورة أخرى عام ١٢١هـ/٧٣٨م اشترك فيها الأقباط أيضاً، و المعالجة نفسها كانت بإرسال جيش لقتل المتظاهرين على ظلم الولاة والتعسف الضريبي (٢). ولم تكن معاملة المغاربة بأحسن حال من تلك المعاملة التي عومل بها أهل مصر، خاصة بعد أن انتشر الفكر الخارجي فيها، ولكن المغاربة فضلوا الشكوى أولاً للخليفة هشام الذي لم يعرهم اهتماماً، فثاروا على الظلم لكنه أرسل إليهم جيشاً جراراً وقاتلهم (٣). ألم يكن باستطاعة الأمويين التفكير في إرضاء خصومهم بالطرق السلمية؟ مثلاً ابن الزبير الذي لم يبايع يزيد وعاد بالكعبة يطلب الخلافة لنفسه بعد قتل الحسين، أو ربما اقتنع يزيد أنه إذا أرسل له سلسلة من فضة (٤) سيفرح بها ابن الزبير. ولو كان يزيد صادقاً بمهادنته لعرض عليه منصباً يليه به إلى حين حلول ساعة مناسبة لتصفية الحساب معه (٥)، ويمكن أن يكون يزيد قد عمل بنصيحة والده معاوية الذي أوصاه بتقطيع ابن الزبير إرباً إرباً (٦)، ولم يكتفِ يزيد ولا عبد الملك بابن الزبير بل حاربوا أهل المدينة المنورة ونكّلوا بأهلها واستباحوا حرمتها وفضّعوا بها. ولم يتوقف الأمويون عند قمع من عارضهم بالثورة المسلحة بل تعرضوا للمعارضين في الأفكار أيضاً، حيث لاحقوا من يدعو إلى غير ما يدعون إليه فهذا غيلان الدمشقي الذي قال بالقدر، أي أن الإنسان صانعٌ لقدره وهذا يخالف رأي الأمويين الذين أرادوا إقناع الناس بأن حكمهم هو حكم الله، ولذلك قطع هشام بن عبد الملك يديه ورجليه ثم صلبه (٧).

كما وقف الأمويون ضد كل من عارض نظامهم أو حتى طالب بتغيير سياستهم مهما كانت مكانته فهذا سعيد ابن جبير الذي انضم إلى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث والتي أعلن فيها معارضته للدولة الأموية المتمثلة بشخصية عبد الملك والحجاج الثقفي، فاعتبر الأمويون ابن جبير من ذوي الأفكار السلبية، فقتله الحجاج بأمر من الوليد بن عبد الملك سنة (٩٤هـ/٧١٢م) (٨). وحتى أقربائهم الذين عارضوهم لم يسلموا من سيوفهم ويتضح هذا مما قام به عبد الملك مع ابن خالته عمرو بن سعيد الأشدق، بأن أنهى حياته مذبحاً في بساط ورُمي برأسه من أعلى قصر عبد الملك، ذلك لأنه امتنع عن مبايعة عبد الملك (٩) مع أنه كان مع مروان بن الحكم في الأحداث التي سبقت توليته، كما كان والياً على الحجاز زمن يزيد بن معاوية وقاتل مع مروان في مرج راهط

(١) المقرئزي، الخطط، ج١، ص٢٣١٠.

(٢) الريطي، ممدوح عبد الرحمن، دور القبائل العربية، ص١٣١.

(٣) الرقيق القيرواني، تاريخ شمال إفريقيا، ص٦٨، وابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٩.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٣٤٧، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٤٤٧.

(٥) أحمد، علي، التاريخ السياسي والحضاري لعصر الأموي، ص٣٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٣٦٩.

(٧) ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق، ج٤٨، ص١٠٦-٢١٢، و الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد (ت١٣٤٧هـ/٧٤٨م) تاريخ الإسلام

تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ج٧، ص٤٤١.

(٨) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٣٠٧، والطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٣، والأزدي، عبد الغني بن سعيد أبو

محمد (ت١٠١٨هـ/٨٤٠م) المتوارين الذين اختفوا خوفاً من الحجاج بن يوسف الثقفي، تحقيق مشهور حسن محمود سلمان، دار القلم،

والدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص٥٨-٦١، و الشيرازي، ابراهيم بن علي بن يوسف أبو

اسحق (ت١٠٨٣هـ/٤٧٦م) طبقات الفقهاء، تحقيق خليل الميس، دار العلم، بيروت، ص٨٢، والسيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص٣٨.

(٩) الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٩٤.

وهزم جيش مصعب عندما توجه إلى فلسطين(١) واعترافاً بأعماله ولاءه عبد الملك إمرة دمشق ويبدو أنه تأمل تطبيق مقررات مؤتمر الجابية التي تنص على تعيينه خليفة بعد مروان، وبذلك أثار مشكلةً أدت إلى تدخل بني أمية للصلح بينهما، ونتج عن الصلح مشاركة عمرو لعبد الملك في الحكم، وأمله بالخلافة من بعده، لكن عمرو شعر بسوء نية عبد الملك تجاهه، إذ إن عبد الملك أراد تعيين ولده الوليد من بعده، لذلك انتهز فرصة خروج عبد الملك لحرب زفر سنة(٦٨٩/٧٠هـ م)، وتحصن في دمشق ودعا للبيعة له، الأمر الذي أدى إلى عودة عبد الملك إلى دمشق، فاستدرجه، وهادنه، ولكنه سرعان ما غدر به وقطع رأسه ورؤوس أصحابه(٢). ومن الملاحظات على بني أمية حبهم لقطع رؤوس المعارضين لهم والتمثيل بجثثهم، فلقد كانوا يطوفون بالرؤوس من بلد لآخر، بالإضافة إلى صلب الجثث(٣) وهذا مخالف للتعاليم الإسلامية، وتجروء على الله في خلقه.

٧- انتشار ظاهرة القتل ظلماً:

اعتمد بنو أمية في كثير من الأحيان على قتل من والاهم، فهل فعلوا ذلك لحاجة الدولة أم لأغراض شخصية؟ وهل اكتفوا بتصفية خصومهم فقط؟ لقد فتك بعض الأمويين بمن خافوا منه ولو كان يعمل لمصلحتهم، فمعاوية قتل عبد الرحمن بن خالد الذي خافه كثيراً بعد بطولاته في حروب البيزنطيين، ففس له السم لئلا يعظم أمره في الشام فيؤثر ذلك على مخططه الذي حاكه لتولية ابنه يزيد(٤)، ولأن معاوية بن يزيد أعلن تنحيه عن الخلافة وأشار إلى عدم أحقية الأمويين في هذا الأمر(٥) تمت تصفيته وموته في ريعان شبابه لأن بني أمية رأوا فيه المخالف لهم، حيث تُرَجِّح الروايات التاريخية قتله(٦)، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى مؤدبه عمرو المقصوص ودفنوه حياً بحجة تحريضه لمعاوية ليقول أقواله هذه(٧).

كما تلطخت يدي الحجاج الثقفي بدماء الكثيرين ومنهم أيوب بن القرية سنة(٧٠٣/ ٨٤هـ م) (٨) أحد فصحاء العرب والذي أرسله رسولاً إلى ابن الأشعث ثم ذبحه، وكذلك كان مصير سعيد بن جبير سنة (٧١٢/٩٤هـ م) لأنه شارك في ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وكيف انتهى الأمر به إلى الذبح، وتذكر بعض المصادر أعداداً كبيرة من الذين قتلهم الحجاج(٩) وربما كان الرقم مبالغ فيه لكن ما يستدعي الانتباه له هو حب الحجاج للقتل وسفك الدماء، والذي هدف منه توطيد سلطان بني أمية، مع العلم أنه يستطيع تجنب ذلك بطرق مختلفة. ويُضاف إلى ذلك بعض الأعمال التي قام بها عدد من ذوي الأمر والتي أدت إلى تلطيخ سمعة هذه الدولة بحيث فضلوا المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، ومن ذلك ما قام به الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي ما

- (١) عاقل، نبيه، خلافة بني أمية، ص ١٥٢.
- (٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٩٥.
- (٣) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ٣٦٩-٣٧٠.
- (٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٠٩، وابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين(٦٦٨/١٢٦٩م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة بيروت، ط ١، عيون الأنباء، ص ١٧٢، وابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠.
- (٥) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٤٢٣.
- (٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٤، والطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٧٩.
- (٧) المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ١٧، والعشماوي، الخلافة الإسلامية، ص ١٤٢.
- (٨) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٦٥٠، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٤٢.
- (٩) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٤٨، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ١٨٤، وابن العديم، بغية الطلب، ج ٥، ص ٢٠٤٥.

إن أخته شاربات الخلافة حتى بادر إلى الانتقام من الذين حقد عليهم ولأسباب مباشرة أو غير مباشرة قام بالتنكيل وبالقتل للذين قدموا خدمات جليلة لهذه الدولة، في الوقت الذي كان لزاماً عليه ترقيتهم وتقدير خدماتهم، لكنه وبدلاً من ذلك جعلهم لمصير بائس لا يليق بهم ولا بالدولة التي قدموا لها التضحيات، فهذا موسى بن نصير الذي اقترن اسمه بفتح الأندلس، والذي لبي نداء الوليد بن عبد الملك عندما طلب منه العودة إلى دمشق، وكان محملاً بالغنائم والسبايا، فأراد سليمان بن عبد الملك أن يؤخر وصوله ليتولى الحكم بدلاً من أخيه الوليد، حتى أنه أرسل له بذلك لكن وفاء موسى منعه من ذلك فعاد إلى دمشق، مما أدى إلى حقد سليمان عليه فأساء معاملته وسجنه (١) ولم يكتفِ بقتل موسى بل قتل أولاده، إذ حرص على قتل عبد العزيز بن موسى في الأندلس وهو يصلي في المسجد، وكان أبوه قد ولاه الأندلس قبل عودته إلى دمشق في سنة (٩٧هـ / ٧١٥ م) . وبالطريقة نفسها تمت تصفية ابنه عبد الله الذي ولاه المغرب، وقد أمر سليمان واليه على المغرب محمد بن يزيد بأن يعذب عبد الله في سجنه ثم يقتله (٢) .

وإذا حاول عمر بن عبد العزيز إرجاع بني قومه إلى جادة الصواب بأن عدل بين الناس ولم يقبل الظلم فإن يزيد بن عبد الملك الذي خلفه، نحا نحواً مخالفاً لعمر بن عبد العزيز، ومن ذلك ما قام به مع الوفد القرشي وأخيار بني أمية الذين وفدوا عليه بعد موت عمر بن عبد العزيز فاتهم نفرأ منهم بالخلع والخروج فسجنهم عشرين شهراً ثم دس لهم السم فماتوا جميعاً، وصلب من اعترض على موتهم، واتهمهم بمصانعتهم ومصاحبته (٣) .

هذا ولم يكن القتل يتوجه إلى الشخص المحدد، بل إلى المقربين منه وكل من يمت له بصلة، وإذا كان الحجاج، الذي سفك دماء الكثيرين، قد تخلص من عذاب سليمان حيث مات في أواخر خلافة الوليد (٩٥هـ / ٧١٣م)، فإن أقاربه وأصحابه لم ينجوا من غضب سليمان عليهم، ومهما كانت الأسباب لذلك فقد قام سليمان بتصفية كاملة لكل من ولاهم الحجاج مهما كانت صفتهم وأعمالهم، وعزل محمد بن القاسم فاتح السند وأمر بتعذيبه بأن وضع في جلد بقرة ثم خيط عليه الأديم (٤) وتم حمله إلى دمشق مما أدى إلى اختناقه وموته (٥)، وربما فكر سليمان بتصفية قتيبة ابن مسلم لكن هذا الأخير استبق الأمر وأرسل إلى سليمان يعزبه ويعرفه قدره وبلاءه، ويذكره بطاعته لعبد الملك والوليد ويطلب منه أن يؤمنه ويقره في عمله وإلا خلعه خلع النعل (٦) ولما لم يعر سليمان هذا الكلام اهتماماً أعلن قتيبة التمرد الذي انتهى بقتله (٧) وهذه التصفيات أدت إلى حرمان الدولة من كبار الفاتحين ورجال ثقة للدولة .

هذا وكان لتقلب آراء هشام بن عبد الملك نتائج سيئة، حيث عزل خالد القسري عن العراق وعين مكانه يوسف ابن عمر ابن عم الحجاج، وسبب عزله أو أسباب عزله غير واضحة فربما عهد بالحكم إلى أهل الذمة لأن أمه نصرانية، أو لأنه تكلم بحق الخليفة هشام، أو أصبح صاحب نفوذ كبير (٨)، ومهما يكن فقد عذب

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢، ص٢٠، وابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٦.

(٢) ابن عذارى، البيان، ج١، ص٤٧..

(٣) كرد علي، محمد، الإسلام والحضارة العربية، ج٢، ص٤٠٦.

(٤) الأديم: هو باطن الجلد الذي يلي اللحم والبشرة، الرازي، مختار الصحاح، ص٤.

(٥) ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٦) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٣٥، وابن خلكان، وفيات، ج٦، ص٢٩٦.

(٧) أبو زيد، علا عبد العزيز، الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص٥٠.

(٨) الطبري، تاريخ الأم والملوك، ج٤، ص٢٢٩، وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٣٦، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٢٦ وما بعد .

يوسف، لكن هشام أطلق سراحه لكن يوسف سعى لدى الخليفة الوليد بن يزيد بأن يبيعه إياه ليعذبه ويقتله (١) سنة (١٢٦هـ / ٧٤٣ م) ولاقى خالد مصيره المحزن رغم ما له من يدٍ طيبة على الوليد، حيث رفض موافقة هشام على خلع الوليد الثاني، بالإضافة إلى ذلك رفض نصيحة أهله بإقامة الثورة بأن قال لهم «إني أكره أن تكون الفرقة والاختلاف على يدي» (٢) .

هذا وقد مرّ ذكر العديد من التصنيفات ودائماً وفي أي مجال هناك إشارة لأمثلة وهي على سبيل الذكر لا الحصر- وإن ظهر التكرار فهو للضرورة في المكان المحدد- ولكن هذه الأمثلة كفيلة بأن تجيب على السؤال المطروح في بداية الفقرة والذي يجعل للأسباب الشخصية دور مهم في عملية معظم التصنيفات.

٨- عدم السكن في العاصمة دمشق بصورة دائمة :

لقد أثرت الظروف السياسية العامة بعد انقضاء عصر الراشدين ، وما تم من نقل للعاصمة إلى الشام، فالحجاز لم تعد صالحة لأن تكون مركزاً لحكم ولايات الدولة، لأنها كانت بعيدة عن أن يكون ذلك المركز الجذاب، فهو لم يكن وسط الأقطار العربية، كما أن الصلة بينه وبين الأصقاع البعيدة صلة صعبة وشاقة، فلا مكة ولا المدينة غدت تصلح عاصمة مركزية لدولة مترامية الأطراف، ويضاف إلى ذلك ما للشام من مكانة جغرافية وسياسية أرساها لها معاوية منذ أن كان والياً عليها، ولقد ذاعت بين الناس أحاديث نبوية توصي بسكنى الشام وأهلها(٣)، ومن خلال هذه الأحاديث يمكن رؤية صورة للحضور القوي لبلاد الشام في الضمير الجماعي العربي، وأن تجربة بني أمية برهنت على أن منهاج الحياة العربية كدولة وأمة ودين وجد متنفساً في إطار التمدن والاستقرار الموروث عن التاريخ أكثر مما يجده في إطار البداوة والترحال أو إطار الواقع الاجتماعي بشبه الجزيرة العربية وحتى مدننا المتواضعة حينذاك(٤) . فكان لا بد من الهجرة خارج شبه الجزيرة حتى تضيف العروبة إلى بعدها الديني بعدين آخرين هما التاريخ والحضارة، كما وتنتضح أهمية الشام في أزمة ابن الزبير، وذلك عندما عرض عليه الحصين بن نمير المبايعة شريطة توجهه إلى دمشق، حيث كانت معظم الولايات قد بايعته إلا الشام(٥) ، ولكن رفضه فوت عليه فرصة الخلافة وهذا يوضح مكانة دمشق الكبيرة .

وكان اختيار دمشق عاصمة للدولة الأموية قد توافقت مع العقلية العربية في سكن المدن، فهي مدينة حصينة ليست على الساحل تهاجمها المراكب، بل هي في الداخل في واحة الغوطة الخصيبة، يغذيها نهر بردى وتحيط بها جبال معتدلة الارتفاع كجبل قاسيون (٦)، ومن دمشق حكم الأمويون دولتهم لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل بقيت هذه المدينة العاصمة الرسمية للأمويين طول عصر الدولة الأموية؟ لقد بقيت دمشق العاصمة الاسمية للدولة الأموية، باستثناء عهد معاوية حيث كانت العاصمة المطلقة، إذ لم يقم خلفاء بني أمية في دمشق بصورة مستمرة، بل كانوا يقومون باختيار المنطقة التي يحبون الإقامة فيها وكذلك فعل أولادهم وولادة عهودهم، وغالباً ما يبقى الخليفة في تلك المنطقة أو يتردد عليها كثيراً بعد استخلافه، فهذا يزيد بن معاوية كان في

(١) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٨.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢٥٠.

(٣) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٥٨ وما بعدها.

(٤) عادل، كمال أحمد، الطريق إلى دمشق، (فتح بلاد الشام) دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٢٥.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ٢٠، والطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣٦٣.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٥، و ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي، ص ٢٤.

حوارين(١) عندما جاءت شارته الخلافة، ويبدو أنه تردد إليها كثيراً إذ إنه مات فيها(٢) .
وترك دمشق يدل على الابتعاد عن إدارة دفة الحكم وجهل بأمور الدولة، والسؤال البارز هنا، لماذا تركوا دمشق؟ يبدو أن هناك تباين في الأسباب منها: الهروب من الأوبئة والمناخ الفاسد والبعوض (٣)، أو ربما بحسب ما يراه البعض بسبب حنين الأمويين إلى الصحراء بهوائها ورملةا واتساعها (٤). ولكن مسألة الحنين إلى الصحراء مردود عليها، لأن بني أمية في الجاهلية وفي الإسلام هم أهل حاضرة ومدنية، حيث كانوا من أرستقراطية مكة، وربما أصبح ترك العاصمة تقليداً اتبعه الخلفاء عن بعضهم البعض، أو ربما خوف الخلفاء من اغتيال المعارضين والمتربصين بهم، وما أكثرهم في العصر الأموي، ومهما كانت الأسباب فالابتعاد عن مقر الحكم كان له تداعيات على هيكلية الدولة وعلى تتابع إدارتها .
ولقد مهد بعض الخلفاء حواضر لهم لتكون مستقرهم ومقامهم عند استخلافهم، فهذا سليمان بن عبد الملك أنشأ مدينة الرملة منذ أن كان ولياً للعهد أيام أخيه الوليد، واستكمل بناءها وجهازها في خلافته، والملاحظ عليه أنه اهتم ببناؤها أسوة بما بناه عبد الملك والوليد(٥) .
كما كره عمر بن عبد العزيز النزول في منازل أهل بيته التي بناها ببال الله وفيء المسلمين(٦) لذلك ارتحل إلى خناصر (وتقع في الأطراف الجنوبية لهضبة حلب تبعد عن السفارة ٤٥ كم) ومن استعراض أخباره يبدو أنه أطل المقام فيها (٧) .

وإذا رأى عمر أن الابتعاد عن دمشق هو ابتعاد عن ملامح بني أمية، إلا أن يزيد بن عبد الملك ابتعد إهمالاً منه لشؤون الحكم وعدم اكرات لها، وفضل السكن في الموقر من أرض البلقاء حيث ارتمى في أحضان جاريتين له أدى حبه لإحداهما إلى موته حزناً على فقدانها ودفن بجوارها(٨). ومن الرصافة(قرب الرقة) حكم هشام بن عبد الملك دولته، ففيها على ما يبدو أمواله وحاشيته وأهله، لأنه ما إن سمع الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي عهده بموته حتى كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتيه من الرصافة بأموال هشام وولده وعياله(٩) . ولكن إن كان بعض خلفاء بني أمية قد تركوا دمشق لأسباب عدة، فقد بقيت العاصمة للدولة ولو اسمياً، إلى أن جاءت الصفعة الكبرى من مروان بن محمد الذي قام بنقل العاصمة رسمياً إلى حران (١٠) ، حيث

(١) حوارين بضم الحاء وتشديد الواو، قرية من قرى حمص تبعد عن تدمر مرحلتين ، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣١٦. وهي القريتين حالياً. وهي في محافظة حمص إلى الجنوب الشرقي منها على بعد ٨٠ كم، الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ج٣، ص٣٤٣.

(٢) طقوش، محمد سهيل، تاريخ الدولة الأموية، ص٥٨.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٢٢١، وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٤٦.

(٤) Gertrud , Bell , Palace and Mosque at UKhaidir ,OXord , p80 .

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٩، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٦٦.

(٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٠٦.

(٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣٥٩.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٣٦٧، والمقدسي، البدء والتاريخ، ج٦، ص٤٩، والذهبي، سير أعلام، ج٥، ص١٥١.

(٩) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٦٩.

(١٠) حران مدينة عظيمة، وهي قصبه ديار مضر، بينها وبين الرقة يومان، البكري الأندلسي، عبد الله بن عبد العزيز أبو عبيد(ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٢، ج١، ص٤٣٥، والحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٩٥. وهي قرية مهملة اليوم و تقع على الحدود السورية التركية على ضفة نهر البليخ.

نقل مركز الحكومة وبيت المال(١)، ويبدو أن مروان تأثر بحران التي عاش فيها مع والده محمد بن مروان، كما أنه أراد إرضاء القيسيين الذين حاربوا معه وأوصلوه إلى الحكم ، ولكن عمله هذا كان القشة التي قصمت ظهر البعير، إذ أثار هذا العمل حفيظة الدمشقيين الذين شعروا بأن مدينتهم فقدت مكانتها الحقيقية كعاصمة للدولة، بل إن نقل العاصمة إلى حران أثار حفيظة كل الجنوب الشامي انطلاقاً من شمال حمص إلى بقية الأجناد الأخرى من الأردن وفلسطين، فقد أعلنت هذه الأجناد الثورة عليه ابتداءً من فلسطين إلى دمشق فحمص، وانتهى الأمر بمروان إلى الانشغال بالفتن عن رايات العباسيين السوداء التي أتته قاضية على دولته . و ينبثق من هذا الحال سؤال، هل أثر موقف الخلفاء من القبائل في اختيار مقراتهم؟ أو هل أثر اختيار سكن الخليفة بموقفه من القبائل التي تقطنها؟ أي عندما يختار خليفة أموي السكن في الشمال مثلاً أكان هذا مؤشراً على موقفه من القبائل؟ كهشام ابن عبد الملك الذي سكن الرصافة، لحسن مناخها، هل كان هذا تحولاً منه من اليمينية إلى القيسية وبالتالي عزل خالد القسري ممثل الحزب اليمني وولى بدلاً منه نصر بن سيار، وكذلك مروان بن محمد الذي انتقل رسمياً إلى حران بين أحضان القيسيين ووقف موقف العداء من اليمينيين(٢). لا بد من إيضاح – ولو بعجالة- الجواب على ذلك التساؤل بمعرفة الظروف والمقتضيات التي أدت بالخلفاء إلى ذلك، فعلى سبيل المثال أدت ملاحقة عبد الملك بن مروان لمصعب بن الزبير إلى توجهه نحو الشمال حيث أقام في بطنان حبيب بالقرب من حلب، أما سليمان بن عبد الملك فقد أقام في مرج دابق شمال حلب لأنه كان يشرف على حملته المرتقبة على القسطنطينية في حين أن هشام بن عبد الملك انتقل إلى الرصافة خوفاً من الأوبئة، إذاً فموقف الخلفاء ربما تأثر بالسكان المقيمين بين ظهرانيهم.

٩- عدم توطين العرب بكثافة في مناطق الدولة البعيدة :

لم تستطع الدولة الأموية مع اتساع رقعتها واختلاف سكانها وطبيعتها صهر هذه الدولة في بوتقة واحدة، فعمد بعض الخلفاء إلى إرسال أعداد من العرب إلى المناطق المفتوحة البعيدة عن مركز الدولة، ولكن هل كان عدد المرسلين من أجل الاستيطان كافياً لترسيخ العروبة والإسلام في تلك المناطق ؟ وهل استطاع الأمويون مع عمليات الفتوح السيطرة على تلك المناطق؟

أ- في الجهة الشرقية:

من الملاحظ أنه في شرق الدولة الأموية، ومنذ عهد عثمان بن عفان، تم فتح المناطق الساسانية الشرقية فالمدن والمناطق في الشرق استسلمت للعرب ووافقت على معاهدات صلح عُقدت مع القادة المحليين(٣) وباستسلام مرو سنة(٣١هـ/٦٥١م) وصل العرب إلى الحدود الساسانية القديمة، وحتى هذه اللحظة لم تكن لدى القبائل أية خطة للاستيطان في خراسان بصورة دائمة، فلقد كانت السياسة العربية حينذاك تقضي بإرسال حملة من البصرة كل سنة لغزو المناطق التي لم تعقد معاهدات صلح مع العرب على أن تعود الحملة إلى البصرة في الخريف تاركَةً في خراسان حامية من أربعة آلاف جندي للاحتفاظ بالمنطقة حتى العودة في حملة ثانية وتبقى هذه الحامية في قرى واحة مرو، إذ إن معاهدة الصلح مع مرو كانت تنص على إسكان رجال الحامية في منازل السكان المحليين(٤)، وقد نجحت الدولة الأموية في عهد معاوية بفتح معظم خراسان، إلا أن القبائل الوثنية التي كانت تسكنها، كثيراً ما نقضت عهودها فيضطر العرب إلى فتحها مرة تلو الأخرى، ولم تدن تماماً للدولة العربية

(١) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٣٠١، و نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٣٥٨.

(٢) عيسى، رياض ، الحزبية السياسية، ص ٢٧٠.

(٣) شعبان، محمد عبد الحي، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ٩٦.

(٤) Shaban , M ,A ,The Abbasid Revolution , Cambridge , 1970, p20

إلا في عهد الوليد بن عبد الملك فبنو أمية لم يعتمدوا مبدأ الاستيطان بل اكتفوا بامتثال القبائل للطاعة وبإقامة معاهدة صلح فيرحل عنها العرب قانعين بذلك، وتاركين عليها حكامها الأصليين على عهد بدفع الجزية (١) . ويبدو أن فكرة توطين العرب فيما وراء النهر قد خطرت لدى زياد بن أبيه، فقام بإرسال خمسين ألف أسرة من الكوفة والبصرة وأسكنها في قرى واحة مرو (٢) التي اتخذها مركزاً لولاية خراسان، ويتضح من هوية هؤلاء الذين أرسلهم أن هدف زياد كان التخلص منهم ولم يكن بقصد التوطين بحد ذاته، فهؤلاء كانوا من مثيري القلاقل والفتن، وأراد التخلص منهم بهذه الطريقة، التي أثرت فيما بعد في تجسيد النزاعات في خراسان، وعندما عبر عبيد الله بن زياد نهر جيحون سنة (٦٧٣/٥٥٤م) كان جيشه يتألف من ٢٤ ألف مقاتل وهم يشكلون نصف المقاتلين في خراسان، ولا توجد في المصادر التاريخية إشارات تدل على قيام عبيد الله بن زياد بمحاولات لنقل العرب من واحة مرو إلى مناطق أخرى في خراسان، وإن وجدت بعض الروايات التي تشير إلى محاولات استقرار للعرب في المدن التي تحوي قلاعاً ليحموا أنفسهم خلال الفتنة التي أعقبت وفاة يزيد بن معاوية، وهذه المناطق تقع حول مرو، ولا يُخفى تناقص عدد العرب في خراسان نتيجة العصبية القبلية.

ويُستنتج من الحملة التي قادها عبد الرحمن بن الأشعث لقتال رتبيل - الذي هاجم العرب في كابل (٣) - أن لديه بوادر للتوطين في سجستان وذلك من خلال طريقتة في الفتح التي خالف فيها من جاء قبله في خطة فتحها فقد ابتعد عن الغارات السريعة وأراد فتح البلاد منطقة تلو الأخرى كي يسيطر عليها سيطرة تامة، وكان يضع فيها حاميات عسكرية في القلاع والأماكن الخطيرة كلما سقطت بلد في يده كان يرسل إليها عاملاً من قبله ومعه أعوانه، كما كان ينظم البريد بينها وبين مركز قيادته كي يضمن استتباب الأمر له فيها (٤) ويبدو من هذا المخطط أنه كان ينوي تمكين الدولة من هذه البلاد وربما هدف إلى توطين العرب بذلك، ولكن رفض الحجاج وغضبه عليه أحبب مخطط ابن الأشعث. وفي الوقت نفسه يدل تصرف ابن الأشعث على قلة عدد العرب في هذه المنطقة، لأنه بعد أن قضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث وصالح رتبيل على ألا يغزوه سبع سنين، وأن يؤدي رتبيل بعد ذلك في كل سنة تسع مائة ألف درهم، إلا أنه امتنع في خلافة سليمان عن إعطاء والي سجستان شيئاً حتى عين يزيد بن المهلب ابنه معاوية على سجستان، وبعد ذلك لم يعط أحداً من عمال بني أمية (٥) وهذا إن دل على شيء فهو يدل على ضعف سلطان العرب في هذه المنطقة، وربما يفسر لقلة عددهم.

ومهما يكن فالمعلومات عن استقرار العرب في شرقي الدولة شحيحة ومبعثرة في المصادر التاريخية والجغرافية وكذلك التراجم، وهي لا تقدم معلومات واضحة عنها، والظاهر أن العرب في خراسان استقروا بصورة دائمة أم مؤقتة في مرو والقرى المحيطة بها، بالإضافة إلى مدينة بلخ والقرى القريبة منها، كما استوطن قسم منهم في بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى (٦). وعدا هذا وذلك فقد كان للعرب مواضع تتبدل مواضعها بحسب تبدل الخط الخارجي، وحسب تبدل خطة القواد العسكرية ولذلك فإن استقرار العرب فيها كان مؤقتاً في العادة . ومما يدل على قلة إدراك بني أمية لأهمية توطين العرب في المناطق البعيدة ما حاول القيام به الخليفة عمر بن

(١) Marshall, G, S, Hodgson, The Venture of Islam ,The Venture of Islam ,V 1 ,p219.

And Bernard ,Lewis, The Arabs is History (New York ;Row Publishers ,1960) p66.

(٢) البلاذري ،فتوح البلدان، ص ٤٠٠، وابن الأثير ،الكامل، ج ٣، ص ٣٣٨.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٥. ص ٣٤٣.

(٤) عاقل ، نبيه ،خلافة بني أمية، ص ١٧٣.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٩١.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٠٦ و ٤٠٧ و ٤١٠ و ٤١١ ، والنرشخي أبو بكر محمد بن جعفر (ت ٩٥٩/٥٣٤٨م) تاريخ بخارى، تعريب أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ص ٧٣ وما بعدها.

عبد العزيز، عندما أرسل إلى عامله في بلاد ما وراء النهر بإقفال العرب وذويهم إلى البلاد التي أظلمها سلطان العرب منذ سنين (١) ، وكان دافع عمر إلى ذلك حرصه على سلامة العرب في تلك المناطق البعيدة، لكن ربما لو عزز وجود العرب لكان قوى مركزهم فيها بدلاً من إجلائهم عنها. فلقد ضعف سلطانهم نتيجة تضاؤل أعدادهم، وهذا الضعف نتج عنه إخراجهم من الهند في ولاية تميم بن زيد العتبي في خلافة هشام .

ولم تقو الموجات العربية المتتالية التي كانت تأتي من العراق العنصر العربي، كما أثرت الحروب الدائمة بين العرب أنفسهم على وجودهم في تلك المناطق حيث نقلوا صراعاتهم الداخلية إليها بالإضافة إلى المنافسات التي كانت تقوم من أجل السلطة والمصالح الشخصية. وبالإجمال لم يبلغ عدد العرب في شرقي الدولة أكثر من مائتي ألف نسمة(٢) .

ب-في الجهة الغربية:

أما فيما يخص غربي الدولة فلم يكن الحال أفضل فيما يخص عدد العرب فيها. فمنذ أن تم فتح الأندلس قبل حوالي أربعين عاماً من سقوط الدولة الأموية (٧١٠/هـ٩٢ م) لم يكن في نية الأمويين على ما يبدو فكرة الاستيطان فيها، وما يدل على ذلك قرار الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير وطارق بن زياد بالعودة إلى دمشق رغم ما نتج عن أعمالهما في الأندلس (٣) ، وربما التفكير نفسه أو الهاجس خطر لدى عمر بن عبد العزيز الذي طلب من العرب القاطنين في الأندلس العودة إلى ديارهم (٤) كما فعل في شرقي الدولة العربية الإسلامية وللغرض نفسه، ولكن ذلك أدى إلى قلة عدد العرب فيها، كما يدل على أن عدد العرب ليس بالكثير كي يطلب منهم العودة إلى ديارهم.

ذلك لأنه إذا تمت عملية إحصاء للعرب في الأندلس فالنتيجة تُظهر أنه لم يتجاوز بضعة آلاف من العرب والمغاربة والموالي، وأول من دخل الأندلس كانت حملة استطلاعية بقيادة مالك بن طريف وعددها خمسمائة مقاتل(٥) لكن هذه الحملة عادت إلى المغرب، وتم إرسال جيش من قبل موسى بن نصير بقيادة طارق بن زياد وبلغ عدده سبعة آلاف مقاتل من العرب والمغاربة(٦) ولما استجد طارق بموسى أرسل له خمسة آلاف مقاتل(٧) ثم دخل موسى الأندلس في سنة(٧١١/هـ٩٣م) ومعه طالعة عددها ثمانية آلاف من وجوه العرب والموالي وعرفاء المغاربة(٨) ، ثم تلاها الفوج الثاني وكان تعداده أربعمئة رجل من إفريقية تحت قيادة الوالي الحر بن عبد الرحمن الثقفي(٩) سنة(٧١٥/هـ٩٧م) وعرفوا بالبلديين أي أنهم أول من دخل الأندلس يضاف إليها طالعة بلج التي دخلت الأندلس على أثر انهزام الجيش الذي أرسله هشام للقضاء على ثورة الخوارج في المغرب

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤ ، ص ٦٩ ، و كرد علي، محمد، الإسلام والحضارة العربية، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٢) ولهاوزن ، الدولة العربية ، ص ٣٩٠.

(٣) أبو زيد، علا عبد العزيز ،الدولة الأموية، ص ٤٣.

(٤) عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، ق ١، ص ٧٤.

(٥) زيتون، محمد ،المسلمون في المغرب والأندلس، ص ١٥٨ و عنان، محمد عبد الله ،دولة الإسلام في الأندلس ،القسم الأول، ص ٤٠.

(٦) ابن عذارى، البيان، ج ٢، ص ٦ يذكر ابن عذارى عدد جيش طارق اثنا عشر ألفاً وربما قصد من ذلك جمع جيش طارق والنجدة التي أرسلها له موسى، زيتون، محمد ،المسلمون في المغرب، ص ١٥٨.

(٧) عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام، القسم الثاني، ص ٤٢.

(٨) ابن عبد الحكم ،فتوح مصر والمغرب، ص ٢٨٠.

(٩) سالم، الدولة العربية، ج ٢، ص ٣٧٤

سنة (١٢٣هـ/٧٤٠م) وكان عددها عشرة آلاف، ألفي مولى وثمانية آلاف عربي وهم ممن عُرفوا بالشاميين(١)، وبذلك يكون مجموعهم ثلاثون الف وأربعمائة مقاتل، وعلى افتراض أنه هاجر إلى الأندلس بضعة آلاف فرادى أو جماعات، فيكون تقدير من دخل شبه الجزيرة من صرحاء العرب أكثر من ثلاثين ألفاً، هذا مع حساب من قُتل في حروب العصابات ،بين القيسية واليمانية ، والبلديين والشاميين ومن استشهد في فتوح ما وراء البرت(٢) وبوجه عام فإن هذا العدد لا يمكن أن يغمر شبه الجزيرة الواسعة .

ويبدو من الغارات التي قام بها عنبسة بن سحيم الكلبي(٣)، انعدام النية عند العرب في التوطن في المناطق التي يتم فتحها، وإلا لكان عنبسة أسس حاميات في المدن التي استولى عليها . كما ويلاحظ وجود العرب في الأندلس بجوار خطوط الفتح الأول، فلم يتوغلوا في الداخل بشكل كبير، فسكنهم يمتد على معظم المنطقة الواقعة جنوب نهر شنيل وحوض الوادي الكبير ثم تكثر بشكل واضح في إقليم إشبيلية وتستمر على طول الوادي الكبير وفروعه، كما يلاحظ انتشار مساكن العرب في الاتجاه نفسه الذي سار منه موسى (٤) ، ومن أحواز قرطبة يمتد خط عربي آخر على طول طريق طارق حتى طليطلة (٥) .

وهنا لا بد من التنويه إلى أن الأرقام التي ذُكرت لا تعطي صورة دقيقة عن عدد العرب في تلك المناطق البعيدة وذلك إذا أضفنا إليها أعداد الرحالة والعلماء والتجار وغيرهم ممن قصدوا تلك المناطق.

ومما سبق ذكره يتضح أن قوة الأمويين تركزت في المحافظة على سلامة دولتهم ضد أي خطر داخلي منافس لهم في سلطتهم أو خارجي محاولاً الهيمنة، وبحث الأمويون عن ولاية متشبعين بالسياسة الأموية وضاربين بسيفهم، هذا السيف الذي استعملوه من أجل إيصال الصوت العربي إلى أبعد مسافة ممكنة، ومهما كان غرضهم من الفتوح فالمهم أنها أمنت للأمويين دولة واسعة الأرجاء .ولقد استطاع أغلب الخلفاء الأمويين الابتعاد عن صهر السياسة بالدين ، إذ ميزوا بين الاتجاهين في تعاملهم مع الناس فلم يعاملوهم حسب الدين بل حسب مقتضيات الدولة.

وإن كان بعض الخلفاء قد استطاع تجنب أو حصر النزاعات القبلية في حيز ضيق إلا أن البعض الآخر انخرط فيها وفق ما تطلبت سياسته، فالأهم لدى الأمويين كان استمرارية الدولة.

وعلى الرغم من الجهود التي قام بها الأمويون لتقوية مركزهم وبالتالي دولتهم إلا أن الهفوات التي تخللتها كانت كثيرة، فالظلم تسلل إليها من بين أيديهم ليس على مستوى الأفراد فحسب بل على مستوى المناطق أيضاً ، ويبدو أن تعصبهم للعرب كان يقف وراء ظلمهم للمغاربة وللموالي، أما فتكهم بالبيت فيبدو أن عامل المنافسة والانتقام كان المحرك الأساسي لهذه السياسة، فابتعدوا عن الشورى، ورسخوا حكمهم في الأسرة الأموية دون مشاركة أحد، بل إنهم أبادوا كل من تسول له نفسه التعبير عن سخطه على سياستهم ولو كان منهم.

وكان لهجران دمشق العاصمة نتائج سيئة على الأمويين، إذ جاءت الضربة الكبرى من مروان بن محمد الذي قرر الاستغناء النهائي عنها ، فاستغنت الشام كلها بل الدولة عن بني أمية. كما غاب عن الأمويين أن ضرورة تدعيم الوجود العربي في الأقاليم كافة، كان تدعيماً لوجودهم وزيادةً في قوتهم وقوة العرب.

(١) مكي، محمود، تاريخ الأندلس السياسي ، دراسة شاملة منشورة في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الجبوسي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ ، ج١ ، ص٦٥.

(٢) مؤنس، فجر الأندلس، ص٤٠٨

(٣) فروخ ، عمر ، العرب والإسلام في الحوض الغربي، من البحر المتوسط، ط٢ ، ١٩٨١ ، ص١١٣.

(٤) مؤنس، حسين ، فجر الأندلس، ص٤١٣.

(٥) المرجع السابق، ص٤١٣.

الفصل الثاني: مظاهر القوة والضعف في مجال الإدارة العامة:

أولاً: مظاهر القوة في مجال الإدارة العامة:

- ١- اختيار ولاية أكفاء لإدارة الولايات.
- ٢- استحداث دواوين (وزارات) جديدة.
- ٣- تقسيم بلاد الشام إلى أجناد.
- ٤- محاولة تعريب الحياة العامة.
- ٥- الحرص على استقلالية القضاء.
- ٦- الاهتمام بتنظيم الجيش في البر و البحر.
- ٧- اعتماد أسس جديدة في الإدارة.

ما إن استولى الأمويون على الحكم حتى بدأوا بتهيئة الأمور لدولتهم التي رسمت خطاها بأيدي أموية بحتة، فعينوا ولاتهم الذين انتقوهم بعناية في أقاليم الدولة كافة التي حددها إدارياً وفق المتطلبات، فساق كل والٍ ولايته حسب ربح الدولة، ووفق الأمويون إلى حد ما بعدد من الولاة الذين انسجموا مع الدولة وساروا على سياستها في إدارة ولايتهم، هذه الإدارة التي حقق فيها الأمويون بعض التقدم، إذ أحدثوا عدة وزارات جديدة لتسهيل العملية الإدارية في الدولة.

ولأنهم اختاروا ولاية الشام مركزاً لهم فقد حافظوا على تقسيماتها الإدارية السابقة لسهولة تدبير أمورهم واضطروا في بعض الأحيان إلى تعديل بعض التقسيمات وذلك حسب الحاجة، لكن الخطوة الجبارة التي خطاها الأمويون كانت في محاولتهم تعريب الدولة بكل معطياتها، السياسية والاجتماعية والإدارية مما أكسب الدولة طابع العروبة الذي غلب على الدولة الأموية طول حكمها.

وفي أجواء هذه الدولة ظهر القضاء كشخصية مستقلة بفضل دعم الدولة لاستقلاليتها، كما أنها لم تغفل أهمية وجود جيش قوي سواء في البر أم في البحر كونها دولة مندفعة في فتوحاتها وعليها أعباء حربية كبيرة، وعلى الرغم من هذه الأعباء إلا أنها لم تهمل الجانب الإداري والذي فرض ضرورة وجود أسس للحكم كالشرطة والحجاب وغيرها من متطلبات الحكم.

هذا عن كفة القوة في الإدارة أما كفة الضعف فيها، فقد تجلى في تجاهل بعض تصرفات الولاة من قبل الخلفاء، هذه التصرفات سببت فساداً إدارياً على المستويات كافة ابتداءً من رأس الهرم الذي يتجلى بالخليفة وصولاً إلى صغار العمال ومما يؤخذ عليها أيضاً عدم ثباتها على أسس موحدة للضرائب التي كثيراً ما خضعت لرغبات الخلفاء والولاة والعمال، هذه الرغبات التي كثيراً ما انحازت لبيت المال.

١- اختيار ولاية أكفيا لإدارة الولايات:

من الأمور التي تميّز بها بعض خلفاء بني أمية براعتهم في انتقاء رجال ذوي كفاءات إدارية فذة استطاعوا من خلالها ضبط ولاياتهم، ونظراً لخصوصية العراق والحجاز واللذين لم تكونا على نهج بني أمية، لذلك لمع نجم ولاية العراق على وجه الخصوص، نظراً لأنه كان المسرح المتفجر بالأزمات بالنسبة للأمويين. فقد اختار معاوية ولاية العراق بكل دقة وبرغم معرفته لما انتصف به المغيرة بن شعبه الذي ولاه الكوفة من سنة (٤١-٥٠هـ/ ٦٦١-٦٧٠م) من الدهاء وبعد النظر والحزم حين يلزم الأمر، لكنه ميال أكثر إلى التساهل والتراخي مع العين اليقظة (١) الأمر الذي أدى به إلى تولية العراق من هم أشد صلابة. كزياد بن أبيه الذي كان أول من جمعت له الكوفة والبصرة وكان معاوية اختبر إخلاصه وقوة حضوره، الأمر الذي أهله للتدرج في المناصب منذ أيام الخلفاء الراشدين (٢)، لذلك جهد معاوية كي يجذبه إلى صفه، وبالفعل نجح معاوية بعد عدة محاولات و أكبر المحاولات التي أدت إلى انضمامه إلى جانب الأمويين ما قام به معاوية من استلحاقه بنسبه (٣)، و عينه والياً على البصرة في بادئ الأمر في سنة (٤٥هـ/٦٦٥م) فتمكن من توطيد الأمن وإقرار السلطان الأموي عليها ولما رأى معاوية قدرة زياد ضمّ له الكوفة بعد موت المغيرة، فأدار العراق إدارة بيّنة النتائج، حيث قضى على الشغب

(١) العث، يوسف، الدولة الأموية، ص ١٤٣.

(٢) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٩٧-٢٠٥.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٣٣، والطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٩٥، وابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٢، ص ٦٤٠.

وعلى العصبية القبلية(١)، كما انتهج في تنظيمه العسكري نهجاً جديداً إذ عمل نوع من التمازج في جيش العراق، لأن من كان قبله اعتمدوا على التعصب القبلي في توزيع الجيش لكن زياد غير ذلك فقد قسم البصرة إلى خمس مجموعات والكوفة إلى أربع مجموعات(٢) كما شملت إصلاحاته جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعمرائية، إذ قام بتوزيع أموال العطاء بالعدل(٣)، وأصلح مساجد الكوفة والبصرة وزاد فيها حسب الحاجة(٤) وبفضل جدارته ضم له معاوية خراسان وسجستان والمنطقة الشرقية بأكملها(٥)، فعمل زياد ما بوسعه على تنظيم ولايته الشاسعة، وبالفعل حققت تنظيماته مصالح الدولة المركزية، بالإضافة إلى توطيد الاستقرار في العراق(٦) وبذلك يكون قد أسدى لمعاوية خدمة كبيرة بتحقيق نوع من الاستقرار في العراق الذي أرهق كاهل الأمويين طول عصرهم.

أما الشخصية الثانية التي وفق بها الأمويون في ضبط ولاية العراق فكانت الحجاج الثقفي الذي حمل لواء الإدارة اللامركزية في ولايته العراق التي حكمها مدة تقارب العشرين عاماً (٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م)؛ أي أنه حكم في خلافة عبد الملك وابنه الوليد، ويبدو أن تولية عبد الملك له جاءت بعد ما رأى من كفاءته عندما قاد الجيش المتجه لمحاربة عبد الله بن الزبير في مكة، فعينه والياً على الحجاز وبعد ما رأى من قوته وشدته أدرك أنه الشخص المطلوب لولاية العراق، وإن كان قد تميز بدور قوي في عهد عبد الملك، فإن هذا الدور أصبح أكثر قوة وأشد شكيمة في عهد الوليد حيث منحه سلطات واسعة، وانطلاقاً من هذه السلطات وضع الحجاج للعراق أنظمة، كان لها الأثر الأكبر فيه، ومع أنه وصف بالذكاء إلا أن حدة مزاجه وقسوته الشديدة وقفت عائقاً أمام ذكائه، وتكاد المصادر تُجمع، رغم ما تذكره عنه من قسوة، على أمانته وعدم تلاعبه بأموال الدولة، ويرفع مصلحة الدولة فوق أي اعتبار، حيث حسن أحوال العراق على المستويات كافة، فبعد قمع الثورات انتفت إلى الزراعة، فحفر الأقيية وجفف المستنقعات ومسح الأراضي(٧)، وبنى مدينة واسط لتكون مقراً لجند الشام(٨) فنظم الجيش ووضع له قوانين، وحفظ الأمن في العراق(٩)، كما كان له دور في تعريب الدواوين من الفارسية إلى العربية، بالإضافة إلى دوره في سك العملة العربية(١٠)، وبحكم توليه الجناح الشرقي فقد كان يتولى إرسال القادة الذين سطروا ملاحم البطولة في فتوحاتهم.

ولما كانت سياسة الأمويين في انتقائهم لولايتهم تتميز في البحث عن الكفاءة والخبرة، فقد وجد هشام بن عبد الملك ضالته لولاية العراق في شخص خالد القسري الذي كان والياً على مكة في خلافة الوليد بن عبد الملك(١١)، ونجح في مهمته حيث لاحق العراقيين الفارين إلى مكة، كما قام بإصلاحات في مكة ومناطق أخرى

(١) الرواضية، صالح، زياد بن أبيه، ص ١٣٩.

(٢) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢٨.

(٣) الرواضية، زياد بن أبيه، ص ١١٧.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٣٩، وابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهذاني(ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) تاريخ البلدان، طبع في مدينة ليدن، مطبع بريل، ١٨٨٤م. ص ١٩١.

(٥) العبادي، عبد الحميد، صور في التاريخ الإسلامي، مكتبة الآداب، الاسكندرية، ١٩٤٧، ص ١٢٧.

(٦) Shaban, M, A, The Abbasid Revolution, p29.

(٧) فروخ، عمر، الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ١٦.

(٨) بحشل، أسلم بن سهل الرزاز(ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م) تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٥، ص ٣٨.

(٩) فروخ، عمر، الحجاج، ص ١٧.

(١٠) شاهين، حمدي، الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٤٤٠.

(١١) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٦٧٩، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٦٢، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٣٣٩.

من الحجاز، ولذلك رأى هشام ضرورة توليته للعراق فبقي فيها قرابة الخمسة عشر عاماً (١٠٥-١٢٠هـ/٧٢٣-٧٣٧م) وركز في هذه السنوات على الإصلاح الزراعي في العراق (١) ونتج عن ذلك زيادة في الغلات، وعلى الرغم من أن عهده لم يخلُ من المعارضة ومن بعض الحركات المعادية لشخصه، إلا أن العراق عاش حقبة من الهدوء والطمأنينة، فحسنت إدارته هذه الولاية العظيمة (٢).

كان هذا بالنسبة للعراق أما مصر فقد فرضت أهميتها على الأمويين اختيار ولايتها من طبقتين متميزتين : الأولى كانت من أصحاب الولاء التام للبيت الأموي مع قدرتهم العالية على حسن التصرف السياسي والتنظيم الإداري أما الثانية فهي من الأمويين أنفسهم، وهناك عدد من الولاة الذين علا شأنهم في مجال الإدارة ومنهم عمرو بن العاص (٤١-٤٣هـ/٦٦١-٦٦٣م) وعبد العزيز بن مروان (٦٥-٦٨٤هـ/٧٠٤-٧٠٤م) وقره بن شريك. وكان عمرو ابن العاص مناسباً لتولي مصر في خلافة معاوية فهو من فتحها وتولاها زمن عمر وعثمان، وأعطته هذه الميزات صلاحيات واسعة، بالإضافة إلى مقدراته الإدارية الفائقة، والحنكة السياسية والعسكرية المتميزة، حيث واصل الفتوحات في الشمال الإفريقي، ونظم أمور العطاء والإعمار والبناء والزراعة والري بمصر (٣).

كما أثبت عبد العزيز بن مروان، أنه لا يقل عن غيره من الولاة في حسن الإدارة، فقد ولاه أبوه مروان مصر وأعطاه النصائح في حسن السياسة والإدارة (٤) وبقي والياً عليها إلى أن مات في سنة (٨٥هـ / ٧٠٤م) واهتم في هذه الحقبة بعمران الولاية، وبنى في حلوان المساجد والأبنية المختلفة، كما اهتم بالزراعة وكرس موارد الولاية لدعم إدارته وللنهوض بمستوى المرافق العامة فيها (٥).

ولقد أنصفت أوراق البردي المكتشفة في كوم إشقاو والوالي قره بن شريك والتي تضمنت في تفصيل دقيق إدارته في طريقة إسناده للمناصب ومراقبة العمال والإشراف على الشؤون المالية لولايته، وعن قوة الصلة بين والي في القسطنطينية ورجال إدارته (٦).

أما فيما يخص المغرب الكبير الذي اعتبره العرب ولاية واحدة قاعدتها القيروان، التي بناها عقبة بن نافع الفهري، وتمتد من طرابلس إلى المغرب الأقصى (٧) (المملكة المغربية) ، لكنها أصبحت ولاية مستقلة في عهد الوليد بن عبد الملك سنة (٨٦هـ / ٧٠٥م) ، وعلى الرغم من صعوبة الفتح، فقد استطاع والي حسان بن النعمان الغساني تأسيس إدارة جديدة في المغرب، حيث نظم الإدارة والجيش الذي أدخل فيه المغاربة (٨) ، وبنى مدينة تونس شمالي القيروان وأقام فيها داراً للصناعة (٩).

كما شهد للوالي اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر بالكفاءة عندما ولاه عمر بن عبد العزيز المغرب في سنة (٩٩هـ / ٧١٨م) فكان فيها خير والٍ ، حيث ساهم مساهمة فعالة في نشر الثقافة العربية في المغرب (١٠)

(١) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٦٥.

(٢) محمد كرد علي، محمد، الإسلام والحضارة العربية، ج ٢، ص ١٩١.

(٣) علي، عبد الرحيم محمد عبد الحميد ، عمرو بن العاص القائد والسياسي، دار زهران، عمان، ١٩٩٨، ص ١٣٥.

(٤) البلاذري ، انساب الأشراف ، ج ٦ ، ٢٥٨.

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب، ص ١٨٥.

(٦) كاشف، سيده اسماعيل ، مصر في فجر الإسلام ، ص ٣٠.

(٧) خماش، نجدة ، الإدارة ص ٩٠.

(٨) أحمد، علي ، تاريخ المغرب العربي والإسلامي ، ص ٥٥.

(٩) ابن عذاري، البيان ، ج ١، ص ٣٥.

(١٠) الذهبي، سير أعلام ، ج ٥، ص ٢١٣، والسلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب ، ص ١٥٢.

ولابد هنا من ذكر اهتمام عمر بن عبد العزيز باختياره لولاته فقد اختار من أهل الثقة والأمانة والعدالة، وصرح كثير من أئمة العلم بأن كل من استعمله عمر كان ثقة^(١). وبعد الحديث عن المغرب وولاته لا بدّ من التطرق إلى الأندلس وولاته الذين تم اختيارهم استكمالاً لسياسة الاختيار الأمثل في رأي الدولة الأموية، فلقد عمل معظم ولاية الأندلس على توسيع رقعة الدولة بما قاموا به من أعمال حربية في الشمال، وترسيخ أمورها وبخاصة في ولاية السمح بن مالك الخولاني ١٠٠-١٠٢هـ/٧١٨-٧٢٠م^(٢) ولقد خلفه في سياسته الوالي عنبسة ابن سحيم الكلبي(١٠٢-١٠٧هـ / ٧٢٠-٧٢٥م) وقد لقي تعيين الوالي عبد الرحمن الغافقي استحساناً عند أهل الأندلس لما اتصف به من النزاهة والاستقامة وحسن القيادة.

وفيما يخص ولاية الحجاز فقد قُسمت إلى أربع مناطق إدارية هي المدينة ومكة والطائف واليمامة (٣) وكثيراً ما انتقى الخلفاء لهذه الإمارة عمالاً من البيت الأموي، فكان معاوية أول من قام بذلك، حيث جعل من مدن الحجاز مدرسةً يتدرب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية، ثم أخذوا يتدرجون في تلك الإدارات فكان إذا أراد تولية أحدٍ من بني حرب بدأ به بحكم الطائف فإذا أظهر مقدرة ضم له مكة فإن برع فيها ضمَّ له المدينة، وعند ذلك يقال أنه قد حذق^(٤).

وهناك أسماء كثيرة لولاية الحجاز وممن اشتهر منهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، وأشهر من ولي الحجاز كان عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد بن عبد الملك وبقي فيها خمس سنوات(٨٧-٩٣هـ/٧٠٥-٧١١م) استطاع فيها إدارة الحجاز إدارة رشيدة أرسى من خلالها قواعد الحكم الأموي .

٢- استحداث دواوين جديدة:

ورد ذكر كلمة الديوان في عهد عمر بن الخطاب الذي أدرك ومن أتى بعده ضرورة تسيير أمور الدولة من خلال نظام الدواوين، ومهما اختلف أصل هذه الكلمة ومعناها^(٥) فهي عبارة عن دوائر رسمية ووزارات حسب المفهوم الحديث^(٦).

وكان اهتمام الخلفاء في العصر الأموي منصباً على نوعين من الدواوين، وذلك بحسب حاجة الدولة، فالفتوحات كانت في انطلاقتها الأولى وكانت الحاجة ماسة لديوان ينظم الجند وآخر للخراج لينظم واردات الدولة، ومع الدولة الأموية تعددت الدواوين، حيث تم استحداث العديد منها كديوان البريد وديوان الخاتم، وديوان المستغلات، وديوان النفقات وديوان الصدقات^(٧).

وكانت الدواوين في الدولة الأموية مركزية مقرها الشام وأخرى إقليمية مقرها حواضر الولايات، ولأن تعدد الدواوين يدل على الاختصاص والذي بدوره يدل على قوة الدولة لذلك سيتم تعداد الدواوين المعروفة في العصر

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٢١٤، و الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله، عمر بن عبد العزيز الإمام الزاهد والخليفة الراشد، دار الدعوة، الاسكندرية، ٢٠٠٤، ص٦٩

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٩، ومؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٠-٣١.

(٣) شريف، عمر، نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩١، ص٢٤٥.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٢٤٢

(٥) من أجل معنى الديوان انظر: الجهشيارى، الوزراء، ص٢، و القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(٨٢١هـ/٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا دار النشر المصرية، القاهرة، ١٩٩٢، ج١، ص٨٩.

(٦) Reubens, Levy, The Social Structure of Islam, 2nd Edition, Cambridge University.

الأموي ولتكن البداية بالدواوين المعروفة قبل العصر الأموي ثم يتم الانتقال إلى الدواوين التي استحدثت:
١- ديوان الجند:

بقي هذا الديوان في أول العصر الأموي على ما أنشأه الخليفة عمر بن الخطاب ، وبقي أكبر دواوين الدولة، حيث نُظِمَ الجند فيه وفقاً لأنسابهم وفي هذا الديوان حددت مقدار أعطيات الجند المقاتلة من العرب وغير العرب. ولقد مرّ هذا الديوان بتغييرات ارتبطت بظروف الدولة وذلك من فتن وصراعات وفتوحات. ولقد قام بتوزيع العطاء ثلاثة أشخاص هم النقيب والعريف والأمين وكان النقيب أعلى من العريف، ويبدو أن الحاكم كان ينصب صاحب الجيش وهو ينصب النقباء وكل نقيب ينصب العرفاء، وكل عريف يحيط بأسماء المخصوصين به، ويبدو أن مهمة النقيب حمل الأموال إلى العرفاء والتابعين له ليقوم العرفاء بمساعدة الأمناء بتوزيعها على أفراد عراقتهم، وكان العريف هو شخص منتخب من قبيلته وهو مسؤول عن توزيع العطاء على أفراد القبيلة(١). ومهما كانت مسؤولية العريف فكان لابد من القيام بإحصاء بين الحين والآخر، بالإضافة إلى إرسال موظفين خاصين بين الحين والآخر من المركز إلى الأمصار للتحقيق فيما إذا كان هناك تلاعب من قبل العرفاء الذين أوكل إليهم إبلاغ الديوان عن كل تغيير يحدث ضمن القبيلة(٢).

هذا الشكل العام لديوان الجند إلا أن الأمويين أحدثوا تغييرات عليه، إذ توسعت أعماله تدريجياً وتعددت الحاجات بتطور الأحوال فأدى هذا إلى إحداث تغيير في هيكلية هذا الديوان حسب الظروف، فلقد حدد الأمويون أعداد المقاتلة في هذا الديوان بما يتناسب مع حاجات الدولة وإمكاناتها المالية، وجاء هذا الإجراء نتيجة تزايد أعداد المهاجرين وبقاء الوارد ثابتاً، الأمر الذي جعل صعوبة في ترك باب التسجيل في الديوان مفتوحاً أمام الجميع(٣) وربما كان تحديد أعداد المقاتلة يفسر سبب وجود عرب وموالي غي مسجلين في ديوان الجند في العصر الأموي على الرغم من رغبتهم في ذلك.

ومن أبرز الأسس التي روعيت في تقدير العطاء زمن الأمويين هو البلاء في القتال والخدمة للبيت الأموي سواء الذين ساعدوهم في الوصول إلى الخلافة أو في قمع الثورات واعتمادهم في ذلك على الشاميين جعل عطاء هؤلاء أفضل من عطاء الأمصار الأخرى .

ومن أبرز أشكال التطوير في هذا الديوان في العصر الأموي كان في قيام مندوب معاوية المسؤول عن توزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل في يده مباشرةً وكان النظام السابق هو أن يُدفع العطاء إلى العرفاء لكن هؤلاء العرفاء لم يقوموا بتسجيل الغائبين والمتوفين (٤) كما قام زياد بن أبيه بتخفيض النفقات الإدارية للديوان إذ قلص عدد العرفاء المسؤولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريفاً واحداً، ويتضح إدراك عبد الملك لأهمية ديوان الجند من خلال ربط العطاء بشكل مباشر بالنواحي السياسية والعسكرية، إذ بدأ العطاء كان يقلص أو يزيد العطاء حسب الظروف العسكرية ومثال على ذلك أنه أعطى الناس أعطياتهم كاملةً عند تجهيز جيش الطواويس بقيادة ابن الأشعث (٥) .

كما أحدث الأمويون بعض التغييرات على ديوان الجند فيما يخص أعطيات ذوي المقاتلة والمعروفة

(١) مصعب الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م) نسب قريش، تصحيح إ. ليفي بروفنسال، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص١٥٤.

(٢) خمّاش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧، ص٢٦٨.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٤٨.

(٤) بطاينة، الحياة الاقتصادية، ص٩٩.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٦١٨.

بالذري إذ أبطل معاوية الفرض للمولود من ولادته واكتفى بالفرض للفظيم(١) كما قلص عدد أبناء المقاتلة المسلمين فجعله لطفل أو لاثنين ، لكن عبد الملك قطع عطاء الذرية بشكل نهائي وجعله مقتصرأ على أبناء معارفه والمقربين منه(٢) وبقي مقطوعأ إلى أن أعاده عمر بن عبد العزيز وفرض للفظيم فقط، أما هشام فقد جعله لطفل أو طفلين فقط كما فعل السفينايون(٣)، ويبدو أن عطاء الذري استمر حتى نهاية العصر الأموي.

٢-ديوان الخراج (الجباية) :

يشمل هذا الديوان جميع أموال الدولة، ومن هنا تأتي أهميته حيث اعتبر من أعظم دواوين الدولة لأنه يُسجَل فيه كل ما يرد من أموال الفيء والجزية والخراج وعشور التجارة . ولقد أخذ عمر بن الخطاب مبدأ هذا الديوان من الإدارة الفارسية (٤) ، فأبقى العرب على ديوان الخراج في الشام وهو بالرومية وفي مصر الذي كُتِب بالقبطية وفي العراق بالفارسية، وربما قاموا بذلك كي لا يفاجئوا سكان تلك البلاد، فتضطرب عليهم الأمور(٥)، أو ربما لقلّة خبرة العرب في أمور الإدارة(٦)، واستمر عمال الديوان من تلك البلاد نفسها إلى أن قام عبد الملك ابن مروان بتعريب الدواوين، فأصبح بإمكان الخليفة الإشراف المباشر على هذا الديوان الهام(٧) وتولى شؤون الديوان موظفون أعاجم من أبناء المنطقة الذين يتقنون لغتها بالإضافة إلى إمامهم بالعربية، وكانوا من العارفين بأمر الخراج ،و يشرف على موظفي الخراج رئيس يُعرف بصاحب ديوان الخراج وكان قبل تعريب الدواوين من الأعاجم ثم أصبح من العرب بعد التعريب، وتمتع بمكانة مرموقة عند الخلفاء والأمراء، ويبدو أن أمر كل من ديوان الجند وديوان الخراج قد أسند في العصر الأموي إلى شخص واحد في كل من الشام والعراق ومصر، وهذا يدل على الصلة المتينة بين هذين الديوانين، وكان معاوية أول من أمر بتسجيل أو حفظ السجلات التي تحفظ مقادير الخراج لكل منطقة، وعلى الرغم من ذلك ربما احتوى ديوان الخراج المركزي نسخاً عن هذه السجلات لكي يطلع الخليفة على الأموال التي كانت ترد إلى دواوين الأمصار(٨)، وأمر معاوية بإرسال الفائض إلى بيت المال بدمشق.

وكان يُسجل في هذا الديوان أهل الذمة في كل إقليم، بالإضافة إلى عقود الجزية. ولقد ازدادت قوة هذا الديوان بعد ما قام عبد الملك بتعريبه من اللغات الفارسية واليونانية والقبطية إلى اللغة العربية وأصبح موظفو هذا الديوان من العرب أو الذين يتقنون العربية، وهذا ما خدم اللغة العربية بالإضافة إلى سهولة إدارته بعد أن أصبح باللغة العربية.

ويضاف إلى هذين الديوانين، اللذين بقيا مع بعض التحديث حسب ما تقتضيه الضرورات، عدة دواوين تم استحداثها في هذا العصر وهي:

- (١) البلاذري، فتوح، ص٦٤٣.
- (٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٤٥.
- (٣) الطبري، ج٤، ص١٤٩.
- (٤) زيدان ، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص١٧٢.
- (٥) حسن، حسين الحاج ،حضارة العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت، ط١ ١٩٩٢، ص١٦٣
- (٦) ابن خلدون ، المقدمة، ص١٢١.
- (٧) خماش، نجدة، الإدارة، ص٢٧٢.
- (٨) المرجع السابق، ص٢٨٧.

٣-ديوان الرسائل:

يعد هذا الديوان بمثابة الدائرة الرسمية التي تشرف على مراسلات الخليفة(١) ، ويبدو أن لهذا الديوان جذوراً أكثر عمقاً وربما تعود إلى أيام الرسول الكريم عندما كتب له الكتاب مراسلاته إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، كما كتبوا العهود والأمان(٢).ولكن هذا الديوان أخذ الصفة الرسمية له وشكله العام في عهد معاوية ابن أبي سفيان، ولقد حرص معاوية ومن خلفه على أن يكون متولي هذا الديوان من المقربين للخليفة وذلك لسرية هذا الديوان وخصوصيته كونه يشرف على الرسائل الواردة من جميع الولايات الخاضعة للدولة، أو الموجهة من الخليفة إلى ولاياته وعماله، هذه الولايات التي أدى اتساعها وكثرة أعبائها إلى تعدد اختصاصات هذا الديوان، وازدياد عدد كتابه مع العناية بانتقاء هؤلاء الكتاب الذين يتميزون بحسن الكتابة، فصارت الكتابة صناعة(٣) لها أصولها التي أكد عليها وشارك في تجسيد مبادئها عبد الحميد الكاتب الذي كتب لمروان بن محمد (٤) .

٤- ديوان الخاتم :

كان معاوية أول من اتخذ ديوان الخاتم(٥) ، لضبط المعاملات المالية وصيانة الوثائق الهامة(٦)، وكان سبب إنشاء هذا الديوان هو اكتشاف تزوير في أمر مالي بعث به والي العراق، وكانت وظيفة هذا الديوان تسجيل الأوامر الصادرة عن الخلافة وختم الأصل والرسالة، ولم يكن القصد أن يوضع الختم في أدنى الرسالة فقط، بل كانت الرسالة تُطوى ويُلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر الذي يطبع عليه وهو طري خاتم الخلافة ويُترك حتى يجف، فإذا فُتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك إذ لا سبيل إلى فتحها إلا بتمزيق الخاتم(٧) ولم يكن الخلفاء فقط هم من اعتمدوا هذه الطريقة في حفظ النسخ الإدارية ، بل حتى بعض ولائهم اعتمدوها ومنهم زياد بن أبيه(٨).

٥- ديوان البريد:

كان معاوية بن أبي سفيان أول من رتب ديوان البريد على طرق ومناهج مخصوصة، ورتب له الميل والمحطات، وكان يشرف على هذا الديوان الخليفة أو صاحب البريد لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها(٩)، وتعددت الأغراض لدى معاوية والتي هدف من خلالها إنشاء هذا الديوان ، فهو جهاز رقابة دائم على الولاة والعمال ، وكذلك كان وسيلة لوصول أخبار الولايات إلى دمشق بالإضافة غلى نقل الاموال من الولايات إلى المركز (١٠) ولما كانت مهمة البريد الأولى وصول الأخبار بسرعة كان أهم معالمه إنشاء محطات له تركز إليها الخيل، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد أنهكه التعب مع فرسه ركب فرساً

(١) الصالح، صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، منشورات الشريف الرضي، إيران، ط١ ، ١٩٩٦، ص٣١٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٩٢.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٤١٧.

(٤) خماش، بلاد الشام في صدر الإسلام، ص٢٦٩.

(٥) ابن طباطبا، الفخري، ص١٠٧.

(٦) مولوي، حسني، الإدارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، ١٩٥٨، ص١٦٩.

(٧) العجلاني، منير، عبقورية الإسلام في أصول الحكم، دمشق، ط١، ص٣٠٢.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢١٢.

(٩) المعاينة، زريق مرزوق، نشأة الدواوين وتطورها في صدر الإسلام، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠، ص١٧٦.

(١٠) ابن طباطبا، الفخرين ص١٠٦.

مستريحاً وكذلك فعل في المكان الآخر حتى يصل، وقد وجدت في هذه المحطات دواب مختلفة منها الجمال والبغال والخيول، إلا أن الاعتماد الأكبر كان على الخيل لسرعتها، وتمتع البريد في عهد معاوية بعدة صفات منها سرعة وصول الأخبار والتكتم على هذه الأخبار، وكثيراً ما كان خلفاء بني أمية يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس إلى الخليفة أو الأمير التماساً لسرعة قدومهم خصوصاً أولئك الذين يخرجون على طاعة السلطان (١) فالبريد قام بأكثر من مهمة فبالإضافة إلى نقل الأخبار أصبح مقام جهاز الاستخبارات وجلب الناس إلى المركز من الولايات وبالعكس، أصبح يقوم بعدة أعمال في آن واحد ضمن اختصاص ديوان واحد (٢) ، ولقد أنشأ الولاة في عاصمة ولايتهم بريداً مهمته الإشراف على مؤسسة البريد وأصبحت وظيفته إطلاع الخليفة على جميع الأحداث المهمة وكان صاحب البريد معتمداً سرياً للحكومة المركزية، وكان يقدم تقاريراً سرية عن أحوال الإمارة وسير الإدارة وحالة الفلاحين والزراعة وتصرفات السلطات المحلية وحالة النقد وكمية الذهب والفضة المسكوكة (٣) كما أصبح من مهام صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها.

وبلغ نظام البريد مرحلة متقدمة في عهد عبد الملك بن مروان وللدلالة على أهميته فقد منع حاجبه من تأخير حامل البريد إذا أراد الدخول عليه كسباً للوقت (٤) ، ولقد استُخدم البريد أثناء الحروب في نقل الإمدادات والجنود ومن ذلك قيام عبد الملك بن مروان بنقل الجند عليه أثناء ثورة ابن الأشعث (٥). ومن مظاهر اهتمام الوليد بن عبد الملك بالبريد أنه وضع النار في الطرقات من أجل تحسين الطرق والبريد، كما أولى الخلفاء عمال البريد أهمية كبيرة فجعلوهم يشرفون على كبار الموظفين في الحاضرة وفي المدن المحلية، وأصبح صاحب البريد يراقب الولاة ويتجسس على الأعداء، وكانت مهمته إيصال الأخبار إلى الخليفة من ولاية الأقاليم ثم توسع الأمويون حتى جعلوا صاحبه عين الخليفة ينقل أوامره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه بشكل صحيح (٦) .

فديوان البريد إذا استطاع تحقيق وتلبية رغبات الخلفاء في استتباب الأمن وضبط الإدارة الحكومية في ربوع الدولة والإشراف الدقيق على جميع العمال سواء منهم من كان بأقصى المشرق أم المغرب، ولولا قيام نظام البريد ما استطاع الخليفة بسبب اتساع رقعة دولته وبطء المواصلات وقتذاك أن يهيمن بقوة على العالم الإسلامي لذلك لم يعينوا على البريد إلا الأشخاص المقربين إليهم والذين يثقون بهم نظراً لأهميته.

٦- ديوان الطراز:

بعد أن عاش الخلفاء برفاهية ومتع العيش وبنتيجة اهتمامهم بالملابس الموشاة أنشأوا ديواناً خاصاً بتطريز ملابسهم ورجال حاشيتهم وأشرف هذا الديوان على المصانع التي تقوم بنسج الملابس الرسمية للخلفاء والولاة وكبار موظفي الدولة، وكذلك الشارات والأعلام والتي ربما كانت تُزين بأشكال وعلامات ونماذج من الخط العربي (٧) . ويبدو أن الخليفة عبد الملك بن مروان هو من ساهم في إنشاء هذا الديوان (٨) عندما اتخذ خطوة التعريب العامة.

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص١٤٠.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص٢٧٢.

(٣) المعاينة، زريق مرزوق، نشأة الدواوين، ص١٨٠.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص٢٥٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٠٠.

(٦) معاينة، نشأة الدواوين، ص١٨٣.

(٧) صالح، صبحي، النظم الإسلامية، ص٣١٥.

(٨) الهاشمي، رحيم الكاظم، و شقارو، عواطف محمد، الحضارة العربية الإسلامية ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، المكتبة

الجامعية، غريان، ليبيا، ص٤٣.

٧-ديوان المستغلات:

لقد ورد اسم هذا الديوان أول مرة في عهد الوليد بن عبد الملك وكان على هذا الديوان مولى للوليد هو نفيح ابن ذؤيب ولقد وجد هذا الاسم مكتوباً على لوح في سوق السراجين بدمشق(١) وكانت مهمة هذا الديوان تسجيل الأملاك غير المنقولة كالأراضي والأبنية الحكومية(٢).

٨- ديوان الزمّني:

كان الوليد بن عبد الملك هو من أنشأ هذا الديوان ،ومعنى الزمّن الإنسان المبتلي(٣)، أي الذي به علة ، ومن أسماء الذين تولوا هذا الديوان اسحاق بن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي وقال له الوليد لما ولاه «لأدعن الزمّن أحب إلى أهله من الصحيح»(٤) . ومن المحتمل أن هذا الديوان ظهر في الشام فقط .

٩- ديوان النفقات :

لقد تمت الإشارة إلى هذا الديوان في عهد سليمان بن عبد الملك (٥)، ومهمته كانت تسجيل ما يُنفق على مرافق الدولة من أموال صادرة عن بيت المال بدمشق(٦)، بما في ذلك بناء المساجد والقصور وغيرها من المرافق وهذا يساعد ديوان الخراج في المسؤولية وكان هذا الديوان مركزياً .

١٠- ديوان الصدقات:

لا تشير الدلالات إلى وجود هذا الديوان في العصر الأموي إلا في عهد هشام بن عبد الملك (٧)، ومن المعتقد أن هذا الديوان كان مندمجاً مع ديوان الخراج، فقام الخليفة هشام بفصله عنه . وتولى هذا الديوان توزيع موارد الزكاة على أصحاب الحقوق انطلاقاً من الآية الكريمة ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤتلفة قلوبهم وفي الرقاب الغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾(٨). ويبدو أن مال الصدقة لم يدخل في مال الخراج وكانت صدقة كل ناحية تُصرف في أهلها، كما عين الأمويون عمالاً للصدقات غير عمال الخراج(٩) .

١١- ديوان الاستخراج:

ظهر في العراق في أواخر الدولة الأموية لحاجة الموظفين الذين تصادر أموالهم المختلفة من الجبايات التي لا يؤديها للدولة وكذلك الدهاقين الذين يقصرون في الجبايات المقررة عليهم، كما تصادر فيها أموال الخارجين من الدولة أو المشتبه بهم بمساعدة الثائرين(١٠).

وبالإضافة إلى هذه الدواوين وجدت دواوين خاصة ببعض الولايات، كديوان الأحباس أو الأوقاف في مصر(١١)

(١) الجهشيري، الوزراء والكتاب، ص٤٧.

(٢) الصالح، صبحي، النظم الإسلامية، ص٣١٤، و Reubens, Levy ,The Social Structure of Islam ,p299

(٣) الرازي، مختار الصحاح، ص١١٦.

(٤) خمّاش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، ص٢٧٤.

(٥) المعاينة، زريق مرزوق، نشأة الدواوين وتطورها في صدر الإسلام، ص٢٢٧.

(٦) الجهشيري، الوزراء والكتاب، ص٤٩.

(٧) المصدر السابق، ص٦٠.

(٨) سورة التوبة، آية، ٦١.

(٩) المعاينة، نشأة الدواوين، ص٢١٥.

(١٠) الكندي ، الولاة والقضاة، ص٣٤٦

(١١) ابن قتيبة، أبو محمد مسلم بن عبد الله، عيون الأخبار، دار الكتب للوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦، ج١، ص٥٥. والمعاصرة، المرجع السابق، ص٢٣٥.

والذي أوجده توبة بن نمر، حيث يصفه الكندي بأنه كان ديواناً عظيماً سنة (١١٨هـ / ٧٣٦م) (١).

٣- تقسيم بلاد الشام إلى أجناد:

كانت الشام أثناء الحكم البيزنطي مقسمة إلى ثلاث مقاطعات وكل مقاطعة مقسمة إلى عدة أقسام، فلما فتحها العرب أدركوا أهمية التقسيمات الإدارية فيها، وأقدم وصف جغرافي دقيق لحدود الشام جاء في كتاب المسالك والممالك للإصطخري الذي ذكرها بدقة حيث يقول: «أما الشام فإن غربها بحر البيزنطيين وشرقها البادية من أيلة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد البيزنطيين، وشمالها بلاد البيزنطيين وجنوبها حد مصر وتيه بني إسرائيل وآخر حدودها رفح ومما يلي البيزنطيين الثغور» (٢) وبلاد الشام خصوصية في الموقع والمكان فالعرب المسلمون فتحوا الشام بعد أن دحروا البيزنطيين عنها، لكن بيزنطة بقيت متربصة على حدود دولتهم هذا ما جعل بلاد الشام القريبة من البيزنطيين محط أنظارهم، فرأى العرب ضرورة تحصينها وتمكينها لتكون جداراً تقف عند أسفله كل محاولة للنيل منها، لذلك اتبع العرب نظام تقسيم الشام إلى عدة أجناد لضرورات عسكرية وإدارية ومالية، فعدت هذه الأجناد أربعة هي جند حمص وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين ولقد استقرت فيها فرق من الجيش لحمايتها ولقبض أعطياتهم منها (٣) فلماذا أبقى الأمويون التقسيمات الإدارية لبلاد الشام؟ يبدو أن الأمويين رأوا ضرورة هذه التقسيمات لأن الساحل الشامي طويل، والشام ما تزال مهددة براً وبحراً من قبل البيزنطيين، فكان لا بد من إيجاد مراكز عسكرية متعددة يتمكن من خلالها الجند الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له، لأنه من الملاحظ في تقسيمات الأجناد أن كل جند يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية، حيث كانت عرقة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة لجند دمشق، ويتصرف بها النواب الذين يتولون دمشق، أما اللاذقية وجبلة وبانياس وانطرسوس (طرطوس) فكانت تابعة لجند حمص (٤)، كما تبعت صور وعكا جند الأردن (٥). ويبدو أن عجز العرب البحري في بداية أمرهم اضطرهم إلى جعل مراكز الأجناد في الداخل كحمص ودمشق وطبرية واللد التي كانت قسبة جند فلسطين، حتى خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ولّى أخاه سليمان جند فلسطين الذي أمر ببناء مدينة الرملة التي صارت قسبة فلسطين (٦).

ولم يبقَ أجناد الشام أربعة فقط في العصر الأموي، بل أصبحت خمسة حيث اقتطعت قنسرين. تقع عند سبخة المطخ إلى الجنوب الغربي من حلب) عن جند حمص، وأضيفت إليها حلب وغدا جند قنسرين جنداً قائماً بذاته، ويبدو أن الضرورة الحربية هي التي دعت إلى هذا الاقتطاع، فالدولة البيزنطية تقبع في شمال الشام والحرب بينها وبين الدولة الأموية سجلاً. ولقد اختلف المؤرخون والجغرافيون حول الخليفة الذي فصل قنسرين أهو معاوية أم يزيد بن معاوية، فالبعض يذكر أن قنسرين وكورها كانت مضمومة إلى حمص حتى كانت خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً (٧) في حين يذكر البعض الآخر أن معاوية هو الذي جند

(١) توبة بن نمر الحضرمي، ولي القضاء في مصر في عهد هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٢٠هـ/٧٣٧م من الكندي، الولاية والقضاء، ص ٣٤٢-٣٤٧.

(٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٥ والحموي، ياقوت، ج ١، ص ٢٩٢.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٨.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٩.

(٥) البلاذري، فتوح ص ١٣٣.

(٦) عطوان، حسين، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٨٧، ص ٢٨.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ١٣٨، والطبري، تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٤٣، وابن رسته أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، الأعلام النفيسة، طبع في مدينة ليدن، ١٨٩٣، ص ١٠٧..

قنسرين ممن أتاه من أهل العراق أيام الحرب بينه وبين الإمام علي بن أبي طالب ، بينما كانت قنسرين رستاقاً من رساتيق حمص (١) . وبعد هذا غدت الجزيرة تابعة لجند قنسرين، بينما كانت تابعة لجند حمص، وبقيت الجزيرة من جند قنسرين إلى أول أيام عبد الملك بن مروان، حيث قام بفصلها وجعلها جنداً مستقلاً (٢) ويقال أنه جندها بناءً على طلب محمد بن مروان بن الحكم فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها، وأتبع عبد الملك هذا العمل بعمل آخر، حيث ضم لمحمد أنربيجان وأرمينية وأحياناً الموصل (٣) .

ويبدو أن مصطلح الأجناد اقتصر استعماله في الشام فقط كما يذكر ياقوت الحموي ذلك (٤)، وكان كل جند من أجناد الشام يضم عدداً من الكور، والكورة هي كل صقع يشمل عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قسبة أو مدينة ولذلك تُذكر كورة دمشق وقصبته دمشق، وكورة البقاع ومدينتها بعلبك، وكورة حوران ومدينتها بصرى.... (٥)

ولقد شغل نظام الأجناد دوراً هاماً في العصر الأموي، فلقد تجلت أهميته من الناحية العسكرية والإدارية، فكان من أهم أسباب قوة الدولة الأموية ،حيث كان الجند مستعدون للقضاء على أعداء الدولة في الداخل والخارج . ومن هنا جاء اعتماد الدولة عليهم كل الاعتماد من أجل إخماد الثورات المناهضة لحكم الأمويين، ومن هنا أيضاً جاء نداء ثورة يزيد بن المهلب التي قام بها في عهد يزيد بن عبد الملك في سنة (١٠١هـ/٧١٩م) هذا النداء الذي يلخص أهمية جند الشام بالنسبة للأمويين، فقد حثّ ابن المهلب على جهاد جند الشام لأنه في رأيه أعظم من جهاد الترك والديلم (٦)، ومن هذا المنطلق يتضح تمييز جند الشام في العطاء على خلاف باقي الأمصار (٧) . كما يتضح اهتمام الأمويين بجند الشام من خلال وصية معاوية لابنه يزيد حيث يقول له: «وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم فأردد أهل الشام إلى بلادهم...» (٨) .

٤- محاولة تعريب الحياة العامة:

لقد استحقت الدولة الأموية اسم الدولة العربية بجدارة وبتفرد، إذ أخذت على عاتقها مسؤولية بث الروح العربية في كيان دولتها، التي استكمل الأمويون بنائها بعد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، فالمدقق في السلوك العام للحكام الأمويين يرى بوضوح أهداف هذه الدولة في نشر المعرفة العربية، وتجسيد مفهوم العروبة، على المستويات السياسية والاقتصادية والإدارية كافة وغيرها من المجالات، فمفهوم العروبة لديهم تغلغل في ثنيات خطط دولتهم، وجاء ذلك استكمالاً لما بدأه الرسول الكريم، الذي أسس لدولة عربية عزيزة الأوصاف، ولقد حملت الفتوحات العربية ومنذ البداية فكرة التعريب، إذ انطلقوا من شبه الجزيرة العربية إلى العراق والشام ومصر ليحرروها من محتليها الفرس والبيزنطيين على حدٍ سواء، وما إن تمكنوا من ذلك حتى انخرط أهلها مع

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص٥٢٥، والرستاق كلمة فارسية جمعها رساتيق وهي السواد من الأرض ، ابن منظور، ج١٠، ص١١٦ .

(٢) عطوان ،الجغرافية التاريخية لبلاد الشام ص٢٣ .

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢٩٨ و البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣٨ .

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٦٤ .

(٥) خماش، نجدة، الإدارة في العصر الأموي، ص٤٠ .

(٦) كاشف، سيده اسماعيل، الوليد بن عبد الملك، ص٥٤-٥٥ .

(٧) الرئيس ، محمد ضياء الدين ،الخراج والنظم الإسلامية للدولة الأموية ، دار التراث ، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥، ١٩٤ .

(٨) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٢٦٠، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٣٦٨، وابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص٣٢١ .

الجيش العربية الإسلامية التي استكملت عمليات الفتوح في المشرق والمغرب، ولقد استطاع العرب كسب ثقة سكان البلاد التي كانوا يحلون بها بسبب السياسة السخمة التي اتبعوها، فالتعليمات التي كانت تصدر عن القادة والتي تعطي مقاييس أخلاقية محكمة للجند العرب في كيفية التعامل مع الناس(١) كانت العامل المهم في نشر العروبة فيها. ولقد رأى الأمويون أن مد النفوذ السياسي على الأرض هو مد لثقافته بشكل أكبر، ولذلك عملوا ما بوسعهم على ضرب العائق الأكبر في وجههم والتمثل بالوجود البيزنطي سواء أكان ذلك في المغرب الكبير أم في القسطنطينية نفسها، ولقد كرست محاولاتهم العديدة لضرب القسطنطينية هذه الحقيقة(٢) ، ولذلك حاولوا ومنذ عصر الراشدين تأسيس قوة حربية بحرية تكفل هذه المهمة في سواحل الشام ومصر وفي المغرب الأدنى(تونس) لاحقاً إذ يتضح من أسلوب بنائها الذي شارك فيه المسيحيون العرب المصريين(٣)، ترسيخ التعريب، كما ويبدو أن فكرة تقويض القسطنطينية من الغرب - من جهة الأندلس- كانت واردة لدى العرب(٤).

ومما يدل على أهمية ضرب بيزنطة من أجل خدمة التعريب قيام حسان بن النعمان الغساني بتدمير مدينة قرطاجة(٥) والتي كانت تحمل الوجود والثقافة البيزنطية، مما شكل حاجزاً في وجه نشر المعرفة العربية التي سعى الأمويون إلى نشرها في بلاد المغرب والأندلس. وعلى الرغم من الأخطاء التي قام بها بعض قواد فتح المغرب وولاته تجاه المغاربة، متغافلين عن أصلهم العربي(٦)، إلا أن معظمهم قام بدور مهم في بلورة الواقع العربي فيه، وعلى الأخص أيام حسان بن النعمان الذي استطاع جذب أعداد كبيرة من سكان المغرب إليه لمساعدته في عمليات الفتح وبسط المعرفة العربية التي سعى العرب إلى نشرها في المغرب من خلال معاملة أغلبية الولاة لهم، ومن خلال تكليف بعض الصحابة بتعليم علوم اللغة، ومن ذلك ما قام به عقبة بن نافع وموسى ابن نصير(٧)، لكن الخطوة الأكثر تركيزاً جاءت من الوالي اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الذي كلفه عمر ابن عبد العزيز بنشر وتعليم علوم العربية، من خلال اصطحاب عشرة من التابعين الضالعين في العلوم(٨) ومما سهل عملية التعريب في المغرب وبزمن قصير نسبياً، ظروف المغاربة وعدم تسامح الإسلام مع الوثنيين، كون معظم المغاربة كانوا على الديانة الوثنية، ويضاف إلى هذا تلك المعاملة الحسنة التي لقوها من بعض الفاتحين الأمر الذي شجعهم على التغلغل في المعرفة العربية، بالإضافة إلى تغلب اللغة العربية على كل من اليونانية والبربرية، أما اليونانية التي كانت اللغة الرسمية هناك - ذلك لأن لغة دواوين المغرب منذ تم تمكين فتحه في عهد عبد الملك كُتبت بالعربية- أما البربرية فقد تم للعربية التغلب عليها كون العربية لغة القرآن ، لذلك يمكن القول بأن الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام توشك أن تكون الأسباب نفسها التي ساعدت على انتشار العربية.

ولقد آمن الأمويون بأن صفة العربية للدولة لا يمكن أن تستمر إلا إذا تمت المحافظة على كوادر الدولة

-
- (١) انظر مثلاً وصية أبي بكر لأسامة بن زيد، الطبري، ج٢، ص٢٤٦.
(٢) عمران، محمود سعيد ، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية(مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي) دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٨١، و٨٧، و٩٤.
(٣) أبو عبيد البكري، (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص٣٨.
(٤) الطبري، تاريخ، ج٢، ص٥٩٨.
(٥) أحمد، علي ، مظاهر التعريب في دول المنطقة العربية في العصور الوسطى، وزارة الإعلام، دمشق، ٢٠٠٩، ص٢٨.
(٦) المرجع السابق، ص٢٧.
(٧) ابن عذاري، البيان، ج١، ص٣٦-٣٧-٣٨.
(٨) المالكي، رياض النفوس، ص٩٩-١١٧.

عربية خالصة، سواء أكان الخليفة أم كبار الموظفين، فلا بد أن يكون الخليفة من أصول عربية خالصة، ولو كان هناك أشخاص يستحقون هذا اللقب، لكنهم ليسوا من أم عربية، ومن أولئك مسلمة بن عبد الملك صاحب البطولات الفذة في حروب العرب ضد البيزنطيين(١) ومروان بن محمد صاحب الخبرات العسكرية، والذي وإن أصبح خليفة لكن ذلك حدث بدون مسوغ شرعي وبدون تأييد ، لأن أمه غير عربية(٢) هذا التعصب العربي هو الذي كان وراء حرص معاوية بن أبي سفيان على الزواج من ميسون من قبيلة كلب العربية. ومن هذا التعصب يمكن تفسير قسوة الأمويين على الموالي، إذ أدرك الأمويون وأولهم معاوية خطر الموالي على المشروع العربي وبالتالي على الدولة العربية ، ولذلك رأى الأمويون أن الحل الأمثل هو في الضغط على الموالي للانضمام إلى عملية التعريب والسير في ركابها لتكون المواطنة هي القاسم المشترك بين جميع أفراد الدولة، وبهذا اعتبر الأمويون أن الغاية لديهم تبرر الوسيلة، لكن الوسيلة الأكثر إيجابية والتي كانت ذات نتائج أعظم على صعيد التعريب جاءت من الخليفة عبد الملك بن مروان الذي توج جهود الأمويين في ترسيخ المعرفة والوجود العربي في أنحاء الدولة كلها، فطغت المعرفة واللغة العربية على سواها، وأصبحت العربية غاية كل مواطن ينتمي إلى الدولة العربية الإسلامية. فبعد توطيد عبد الملك لأمر دولته التي كانت على وشك الانهيار بعد عدة أزمات ألمت بها وانتهت بانتصاره وغدا رجل دولة من الطراز الرفيع، اتجه إلى التعريب الإداري واللغوي في دولته، فقد عربّ الدواوين والنقود، وبذلك عربّ اقتصاد الدولة وقرارها السياسي، إذ رأى ضرورة إضفاء صفة العروبة على هيكلية الدولة، فكيف تكون دولته عربية وإدارتها ونقودها ليست عربية؟ فدواوين الدولة هي وزاراتها وبالتالي فموظفي هذه الوزارات لم يكونوا عرباً، بحكم لغة الدواوين وخاصة الخراج، فقد كانوا فرساً وروماً وأقباطاً وطالما أن هذه اللغات كانت تُكتب بها الدواوين فهذا أمر يشجع على تعلم تلك اللغات، وهذا أمر مخالف لسياسة الدولة الأموية العربية، كما أن ديوان الخراج يحمل حسابات الجبايات وبذلك فهو قابل للتزوير والغش من قبل موظفيه(٣) .

وأول الدواوين التي عربت هي دواوين الشام سنة(٦٩٩/هـ٨٠٠م) ويتضح حماس عبد الملك للتعريب أنه منح من قام به وهو سليمان بن سعد الخشني خراج جند الأردن مكافأة له(٤) وتتالت عملية التعريب لتشمل العراق ومصر والمغرب وفيما بعد خراسان، الأمر الذي عزز العروبة في جسم الدولة في كل الأنحاء، فاللسان العربي أصبح غاية لطبقة الكتاب التي سعت لإتقانها، الأمر الذي حفز الموالي على تعلم العربية أيضاً(٥)، وكذلك فعل الأقباط ليضمنوا عملهم في الدواوين، وبهذا العمل يكون النفوذ الأجنبي قد أزيل عن الإدارة العربية(٦) ، وكان المغرب في هذه الأثناء حديث التوطيد من قبل العرب الفاتحين، الأمر الذي ساهم في تعريب الإدارة العربية في المغرب من خلال إنشاء دواوين باللغة العربية(٧) ومن خلال تعريب الجيش والمالية أيضاً(٨) .

فأللغة العربية إذاً كانت أساس الهوية العربية فالناس عرب أو غيرهم هم بلغتهم، ولما كانت العربية لغة القرآن

(١)الذهبي، سير أعلام، ج٤، ص٥٠١، وفاروق عمر، الثورة العباسية، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ط١، ١٩٨٨، ص٤٧.

(٢)أبو جيب، سعدي، مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، دار الفكر، دمشق ١٩٨٢، ص١٠٢.

(٣) الرئيس، الخراج ، ص٢١١.

(٤)الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الأحكام السطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي،

مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ط١، ١٩٨٩، ص٢٤٧، وحمدى شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها، ص٤٣٦.

(٥)زيدان، جرجي ، تاريخ التمدن، ج١، ص٦٧.

(٦)ولهاوزن، الدولة العربية، ص١٧٩.

(٧) المالكي، رياض، ص٥٦.

(٨)أحمد، علي ، مظاهر التعريب، ص٢٩.

الكريم فقد ارتبطت بالإسلام مما أكسبها حرمةً وساعد على انتشارها، وكان لهذا التعريب في الواقع أثره الواضح فهو أول عملية ترجمة منتظمة وجبارة أدت إلى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية، كما ساعد هذا التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالي فأصبحت لغة التدوين والإدارة ولغة المعرفة إضافة إلى أنها لغة السياسة والدين، وأصبحت دواوين الخراج كلها في الدولة الإسلامية تستخدم لغة واحدة هي اللغة العربية وهذه الخطوة مهدت الطريق لنشر العروبة بين أرداد الدولة، إذ اضطر الناس إلى تعلم اللغة العربية من أجل تسهيل التعامل مع رجال إدارتها الجدد، كما أدى تعريب الدواوين إلى إغناء العربية وساعدها كي تصبح لغة المعرفة للمسلمين وغيرهم ، وقد فتح التعريب الباب للشعوب الأخرى في المجتمع الإسلامي للمساهمة في المعرفة، ويمكن القول إن تعريب الدواوين أدى إلى إغناء العربية بمصطلحات جديدة، كما يعني هذ دفع الناس غير العرب إلى اتقان العربية للعمل الدواوين وبالتالي دخولهم في خطة التعريب، وهكذا أصبحت العربية لغة المعرفة والإدارة بصورة شاملة وللجميع في بلاد الخلافة.

والخطوة الثانية كانت في تعريب النقود، والنقود التي هي من أقدم النظم الاقتصادية في تاريخ الحضارة الإنسانية، وهي أثرت وتوثر في نمط الحياة الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والنقود هي من أهم المصادر والوثائق الرسمية الأولية لدراسة جوانب من الحضارات، فهي تعطي فكرة واضحة عن خفايا كثيرة من إدارات الدول المتعاقبة، وكان العرب في فجر الإسلام يتعاملون بالدينار البيزنطية وبالدرهم الفارسية والحميرية اليمنية، وبقيت هذه النقود محتفظة بشكلها مع بعض التعديلات في الأوزان ولقد جرت محاولات عديدة لضرب السكة(١) من قبل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، مع الاحتفاظ بشكلها وإضافة بعض العبارات العربية، كما قام بعض الخارجين على الدولة بضرب النقود كونها تدل على السيادة ومن أولئك قطري بن الفجاءة وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب(٢) وربما يعود سبب عدم العثور على أي من هذه النقود إلى قرار عبد الملك بمنع التعامل بالنقود السابقة .

إذاً لقد كان هناك ضرب للنقود قبل عهد عبد الملك ، لكنها لم تكن عربية خالصة ولم تكن رسمية إلا في عهد عبد الملك ، وهذا ما جعل المؤرخون يجمعون على أن أول من ضرب النقود كان عبد الملك بن مروان لأنه استغنى عن النقود الأجنبية بشكل نهائي.

ولقد كان قرار التعريب وإصلاح العملة الخطوة المثبتة لأركان النقد العربي الإسلامي، حيث برز تجمع عدة أسباب أشارت إلى وجوب حدوث تطور كبير في نظام العملة المتعارف عليها ، وذلك بعد أن اتسعت مساحة الدولة واستقرت أحوالها الداخلية ، فالدولة الأموية كانت تتعامل حتى ذلك الحين بالعملة المالية لفارس وبيزنطة من دراهم ودينانير، وهذه العملات تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الساسانية واضطراب الأحوال في الإمبراطورية البيزنطية، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافرة يكفي لتغطية النشاط الاقتصادي وبالأخص التجاري منه والحاجة المالية للدولة العربية الإسلامية الواسعة والنشيط(٣) ، كما كان ينتشر الغش والتزييف في الدراهم منذ أواخر عصر الدولة الساسانية وكذلك الأمر بالنسبة للدينانير البيزنطية يضاف إلى ذلك فساد ذمم بعض المتعاملين من العرب أنفسهم وممن دخل في دولتهم(٤) وأدى ذلك إلى

(١) السكة: هي الختم على الدينانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع جديد يُنقش فيه صورة أو كلمات مقلوقة، ويُضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش بشكل مستقيم، ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٤٤٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص١٧. وحلاق، حسان، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١٩٧٨، ص٤٥.

(٣) الرئيس، عبد الملك بن مروان، ص٧٨، والخراج، ص٢٠٧.

(٤) قدامة بن جعفر، الخراج، ص٩٢، وابن خلدون، المقدمة، ص٢٢٢، وحلاق، تعريب النقود، ص٢٥-٤٥.

نتائج سيئة منها هبوط العملة وارتفاع أسعار الحاجات وزوال الثقة المالية والظلم الذي يقع على عاتق الدولة في استيفاء حقوقها من الضرائب وبالتالي نقص الخراج (١) ، كما أثر اختلاف الأنظمة المالية السائدة في الدولة العربية الإسلامية من ساسانية وبيزنطية في اختلاف الظاهر بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة، وسبب هذا صعوبات اقتصادية، كما كان لاختلاف وزن وقيمة هذه العملات الآثار السيئة أيضاً (٢) إذ لم يكن هناك مقياساً ثابتاً موحداً في جميع أنحاء الدولة يمكن به أن تحدد النسب بينها (٣) وسبب هذا عائقاً للنشاط التجاري إضافة إلى إضفاء نوع من السيادة والقرار السياسي للخليفة بصفته المخول الوحيد لضرب النقود، ويضاف إلى ذلك عاملاً على قدر بالغ من الأهمية وهو إضفاء صفة العروبة على الدولة بتعريب عملتها، هذا بالإضافة إلى رغبة عبد الملك في تحدي مكانة الدينار البيزنطي وسيادته المالية وهو رمى من خلال ذلك إلى إظهار الدور الذي يمكن أن تشغله القوة العربية الجديدة في الميدان الاقتصادي والمالي، وهنا يبرز سر نجاح عبد الملك في إتمام تعريب السكة وجعلها طرازاً عربياً خالصاً (٤) ، هذا بالإضافة إلى العامل أو الدافع الديني والذي أراد عبد الملك من خلاله استبدال العبارات المسيحية التي كانت تُكتب على رؤوس القرايطيس التي كان البيزنطيون يأخذونها من البلاد العربية الإسلامية بعبارات إسلامية، الأمر الذي أغضب الإمبراطور البيزنطي فهدد الخليفة بكتابة عبارات غير لائقة بحق النبي محمد ﷺ الأمر الذي ألح على عبد الملك بالاستعجال في ضرب العملة العربية (٥) ، ولقد اختلفت الأقوال في تاريخ هذا الإصلاح ما بين ٧٤هـ إلى ٧٧هـ/٦٩٣م-٦٩٧م والمرجح أن عبد الملك بدأ بإصلاحه سنة ٧٤هـ وفي سنة ٧٧هـ ظهر الدينار الإسلامي وحل محل الدينار المصور الذي بقي إلى أوائل ٧٧هـ وفي سنة ٧٩هـ/٦٩٨م أصبح إصلاح عبد الملك نافذاً في أنحاء الدولة العربية الإسلامية.

ولقد غير عبد الملك الكتابات التي كانت على الدنانير والدرهم بعبارات إسلامية وجعل شكلها دائري كما كان وكتب على الوجه الأول للدينار "لا إله إلا الله وحده لا شريك له" وعلى الوجه الآخر "الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد" وعلى إطار الوجه الأول "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق" وعلى الوجه الثاني بسم الله ضرب هذا الدينار سنة كذا.. (٦) وأصلح عبد الملك وزن الدينار أيضاً إذ أصبح ٤,٢٥ غرام (٧) أما المناطق التي سُكت فيها الدنانير فهي في دمشق وكانت تُسمى الدنانير الدمشقية (٨) وبعليك وطبرية وحمص .. وغيرها من المناطق، وربما يعود اختيار الأمويين لهذه المناطق كونها كانت تسك النقود منذ أيام البيزنطيين، وربما لوجود عمال يتقنون عملية السك أو أنها كانت مراكز إدارية أو أن الذهب كان يتوفر فيها ، وهي قريبة من مناطق استخراج الذهب، ولقد نافس الدينار العربي الدينار البيزنطي في المعاملات المالية و التجارية في الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط، ووصلت المنافسة إلى أوروبا (٩).

(١) الرئيس، عبد الملك بن مروان، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٥٣.

(٣) الرئيس، الخراج، ص ٢٠٩.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٢٤١-٢٤٢، والجهشياري، الوزراء، ص ٤٠-٦٧.

(٥) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٤١٥هـ/٤٤١م) شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق محمود بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، ط ١، ١٩٨٨، ص ١١.

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩-٢٤.

(٧) المعاينة، نشأة الدواوين، ص ٢٦٩.

(٨) البلاذري، الفتوح، ص ٣٥١، والنقشبندي، ناصر ، الدينار الإسلامي في المتحف العراقي ، بغداد، ١٩٥٣، ص ١٧.

(٩) زيود، محمد أحمد ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي، جامعة دمشق، ١٩٩٤، ٢٧٣.

والأمر نفسه كان بالنسبة للدراهم حيث كُتبت عليها عبارات دينية ومكان السك، وضُربت الدراهم في مناطق عدة من بلاد الشام إلا اعتماد بلاد الشام على استيراد الدراهم من العراق والمشرق قلص من وجود دور السك بكثرة فيها (١) إذ إن العراق كان في العصر الأموي من أهم المناطق لسك الدراهم.

وتضافرت جهود الولاة الأمويين في الاهتمام في الاهتمام بالنواحي المالية ، إذ جاء بعد الحجاج ولاة اهتموا بضرب الدراهم وتجويدها ومنهم عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد بن عبد الملك ، والذي خلص الفضة أبلغ تخليص واشتد العيار، ثم جاء بعده خالد القسري والي هشام فاشتد في أمر النقود أكثر من ابن هبيرة حتى أحكم أمرها ثم ولي يوسف بن عمر الثقفي بعده فأفرط في الشدة على الطباعين وأصحاب العيار وقطع الأيدي لمن لم يلتزم بالتعليمات، إذأ كانت الدراهم الهبيرية والخالدية واليوسفية(٢) وكانت هذه النقود من الجودة بأن كان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي لا يقبل دفع الخراج إلا بها لإتقانها(٣).

وأمر هشام بن عبد الملك واليه على العراق خالد القسري بجعل مدينة واسط المركز الوحيد لضرب الدراهم، وبقي الأمر على ذلك إلى أن قام مروان بن محمد بضرب الدراهم في حران عندما نقل العاصمة إليها(٤)

وبذلك بلغت النقود العربية التي سكها عبد الملك وفق الموازين الشرعية من الجودة ما سادها على الانتشار ومنافسة باقي العملات، وبعملية التعريب هذه وما رافقها من سك للنقود يمكن القول بأن الدولة العربية الإسلامية وصلت إلى مرحلة كبيرة من التكامل، وأصبحت ذات كيان موحد نظراً لتوفر الإدارة الحكيمة للخلفاء والأمراء المسلمين.

٥- الحرص على استقلالية القضاء:

يؤثر القضاء تأثيراً كبيراً على هيبة الدولة وهيكلتها، لأن القضاء يمثل صفاء ونقاء الدولة، فالدولة الناجحة هي التي يكون قضاؤها نزيهاً مستقلاً، والعكس صحيح، ومتى وصل الفساد إلى القضاء وصل إلى الدولة ككل، ومن هنا كانت أهمية منصب القاضي ملازماً للرسول الكريم والخلفاء الراشدين، ولما انتشرت الدعوة الإسلامية أذن الرسول لبعض أصحابه في القضاء بين الناس(٥)، ثم أنشئت وظيفة القاضي، حيث كان عمر بن الخطاب أول من أنشأ وظيفة القضاء في الأمصار العربية الإسلامية (٦) .

وإذا كان عمر أول من فصل بين الولاية والقضاء، فإن معاوية أول من تخلى عن ممارسة القضاء، فقد عيّن القضاة في حاضرة الدولة العربية الإسلامية بدمشق، وفوّض إليهم السلطة القضائية وخولهم الصلاحيات الكاملة في الدعاوى، وعلى النهج نفسه سار ولاته في الأمصار- حيث ابتعدوا عن أعمال القضاء، واتخذ خلفاء بني أمية منهج استقلال القضاء في دولتهم سواء أكان ذلك في العاصمة أم في سائر الأمصار والمدن والولايات، ولم

(١) البلاذري، فتوح، ص٣٥٥.

(٢) الماوردي، الأحكام، ص١٥٤، والمقريزي، شذور، ص١٦-١٧.

(٣) البلاذري، فتوح، ص٣٥٠، والماوردي، الأحكام، ص١٥٤.

(٤) المقريزي، شذور، ص١٦-١٧.

(٥) وكيع، محمد بن خلف بن حيان(٣٠٦هـ/٩١٨م)، أخبار القضاة، مراجعة سعيد محمد اللحام، عالم الكتب، القاهرة، ج١، ص٨٤-١٠٢.

(٦) ابراهيم حسن، حسن و ابراهيم حسن، علي، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١، ص٢٣٨.

يخضع تعيين القضاة لقاعدة ثابتة، حيث ترك معاوية هذا الأمر لولاية الأمصار أو قام هو بتعيين القضاة فيها(١) لكن الأمر أخذ خطأ ثابتاً على وجه العموم في عهد الخليفة سليمان، إذ عاد أمر التعيين للخليفة، وأدى هذا الأمر إلى ازدياد سلطة القاضي، وجعله أكثر استقلالية، حيث لم يعد باستطاعة الوالي التأثير عليه في أحكامه، كما لا يستطيع عزله، لأن أمر تعيينه صادرٌ عن الخليفة نفسه(٢)، وإذا حدث وتناول أحد الولاة بالتدخل في حكم القاضي، باشر هذا القاضي إلى الاعتزال، لأنه لا يتولى قضاء مُسنّ استقلاله(٣). لأنهم رأوا أن أحكامهم مستنبطة من الكتاب والسنة أو الإجماع أو يجتهدون في الحكم اجتهاداً، لأن المذاهب لم تكن قد ظهرت بعد(٤). وتطلب تعيين القاضي توفر شروطٍ عديدة أو بالأحرى صفات خَلقية وُحُقية وذلك لتأمين سلامة القضاء ويُستنتج بعض تلك الصفات مما قاله عمر بن عبد العزيز: "لا ينبغي للرجل أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: يكون عالماً قبل أن يستعمل، مستشيراً لأهل العلم، نزيهاً عن الطمع، منصفاً للخصم مقتدياً بالأئمة"(٥). وطبعاً يجب مراعاة سلامة حواسه كالبصر والسمع وغيرها، وكان يُسأل عن القاضي قبل تعيينه كما حدث مع عبد الملك عندما استشار جلساءه فيمن يعينه على قضاء البصرة، فأشاروا عليه بتعيين عامر بن شراحيل الشعبي(ت ١٠٤هـ/٧٢٢م) لصفاته الحسنة(٦).

ومع أن الخلفاء أعطوا القضاة الصلاحية في أمورهم إلا أنهم كانوا يشرفون على أعمالهم وأحكامهم ومتابعة أمورهم الخاصة بالتعيين والعزل والرزق وحسن السيرة، دون التدخل في أحكامهم، بالإضافة إلى التأكد من مطابقة أحكامهم للحق والشرع والدين، ومن ذلك ما قام به هشام بن عبد الملك عندما بلغه أن القاضي يحيى بن ميمون الحضرمي في مصر لم ينصف يتيماً احتكم إليه بعد بلوغه، فكتب إلى عامله في مصر يقول له: «اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً تقياً سليماً من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم»(٧) كما أوصى الخلفاء القضاة بعدم التسرع بالأحكام، بل عدم أخذ القاضي بمظاهر الأمور، وفيما عدا هذا فقد كان القضاة يتصرفون بملى إرادتهم فكان حكمهم يسري على أي شخص بغض النظر عن مكانته، كما فعل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب قاضي المدينة في ولاية مروان ابن الحكم، والذي حكم على عبد الله بن حنطب زوج فاطمة أخت مروان بن الحكم قائلاً له: عجلت عليه في القضاء، فرد عليه القاضي عبد الله: أمضى الله عليه قضاءه قبل قضائي، فأعجب مروان من قوله ونفذه(٨)، ولقد تولى بعض القضاة مراقبة أموال اليتامى بدون أمر الخليفة أو الوالي، مثل القاضي عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الكندي قاضي مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان(٩) وحتى لو بلغ الأمر الحكم في قضايا كبيرة ومن ذلك ترك عمر بن عبد

(١) خليفة بن خياط، ج ١، ص ٣٨٩، ووكيع، أخبار القضاة، ج ١، ص ١١٤-١١٦-١١٨.

(٢) الكندي، القضاة والولاة، ص ٣٣٣.

(٣) عويس، عبد الحليم، بنو أمية بين السقوط والانتحار، ص ٧٢.

(٤) ابراهيم حسن، حسن، التاريخ الساسي، ج ١، ص ٣٩٧، والخربوطلي، علي حسني، الحضارة العربية، الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٩٩٤، ص ٢، ص ٥٠.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٦٩.

(٦) الزعبي، محمد السعود، القضاء والقضاة في الدولة العربية الإسلامية منذ قيامها حتى نهاية العصر الأموي رسالة دكتوراه، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٩٩٢، ص ٢٣٥.

(٧) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٣٤١.

(٨) وكيك، أخبار القضاة، ج ١، ص ٨١.

(٩) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٣٢٥، مشرفة، عطية، القضاء في الإسلام، شركة الشرق الأوسط، مصر، ١٩٦٦، ص ١٨٩، واصل، نصر فريد محمد، السلطة القضائية ونظام القضاء في الإسلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ٦٦.

العزیز للقاضي في سمرقند أمر إنصاف أهلها الذين اشتكوا له ظلم قتيبة لهم أيام الفتح، فقرر القاضي جميع بن حاضر إخراج عرب سمرقند إلى معسكرهم، ثم ينادون أهل سمرقند على السواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، لكن أهل سمرقند رضوا بالحال التي كانت قبل الحكم(١)، والمهم بالأمر هنا الثقة بالقاضي وبحكمه الذي لا يتأثر بالاعتبارات السياسية والعسكرية.

ولم يكن للقاضي مقراً خاصاً به ، فقد كان يجلس في المسجد أو في رحبة المسجد أو في داره وحتى في السوق(٢) وتبدو خصوصية المسجد كونه يضيء الرهبة والخوف في قلوب المتخاصمين بالإضافة إلى قضاء الرسول والخلفاء الراشدين فيه.، وفي أواخر العصر الأموي لم يقض القضاء في المساجد بل عند باب البريد(٣) ومما يدل على حرص الخلفاء على بقاء القضاء نزيهاً مستقلاً وعدم تأثره بأي شيء ، أنهم تركوا للقضاة الحرية في أحكامهم، إذ لم يُجبر القضاء على تدوين أحكام فقهية يقرون بها ،ومن خلالها يحتم عليهم العمل بها، حيث تُرك الأمر للقاضي نفسه، أو إلى ما يسير به المفتون من كبار المجتهدين في الأمصار، رغم أن بعض الأحكام كانت تخالف بعضها بعضاً في الأمصار المختلفة، لأن المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد، فقد يحكم القاضي في مصر حكماً مخالفاً للقاضي في العراق والمشكلة نفسها(٤).

ومن أجل تثبيت الحكم في القضايا بعد أن كثرت وتشعبت كان لا بد من تسجيل نتائجها خوفاً من نسيان القاضي أو من نكران المتخاصمين وغير ذلك، واعتُبر القاضي سليم بن عتر التجيبي في عهد معاوية أول من سجل الأحكام لضمان عدم نسيانها(٥) ولم يقتصر أمر كثرة المنازعات على هذا فقط ، بل أدت إلى تعدد اختصاصات القاضي إذ أوكل إليه الفصل في أمور من جرح، بالإضافة إلى أمور الشرط وبيت المال والقصص(٦) وغير ذلك من قبيل هذه الأعمال. ولأن القضاء عملاً إدارياً فقد توجب إعطاء القاضي مرتباً جزاء عمله، لكن القضاة نظروا إلى أمر المال نظرتين مختلفتين، فقسم منهم رفض أخذ المال ، واعتبروا عملهم واجباً عليهم دون أجر، فيما رأى القسم الآخر في المال ضرورة لتسيير أمورهم المعاشية، وكان الراتب من وجهة نظر الدولة هو بمثابة ضمان للقاضي كي لا يلين أمام الرشاوى وغيرها بالإضافة إلى ضمان هيبته ووقاره(٧) وإمعاناً من الأمويين في تحقيق استقلالية تامة للقضاء كانوا يعينون بأنفسهم قضاة الولايات البعيدة، كالمغرب، كي تكون وظيفة القضاء، وشخصها المتمثل بالقاضي في مأمّن عن أي تأثير من الولاية(٨) .

ولأن حقبة حكم الأمويين، للأندلس كانت مليئة بالاضطرابات، وكذلك أعمال الجهاد خلف جبال البرانس،

-
- (١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١١، والطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٦٩، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٣٧،
 - (٢) ابن سعد الطبقات ، الطبقات، ج ٦، ص ٤٠١ و ٢٥٢. والزحيلي، محمد، تاريخ القضاء في الإسلام، دغر الفكر، دمشق، وبيروت، ط ١٩٩٥، ص ٢١٥.
 - (٣) ابن طولون ، شمس الدين محمد(ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء أهل الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٦، ص ١٠-١١.
 - (٤) الخضري بك، محمد، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة الأموية، تحقيق محمد العثماني دار القلم ،بيروت، ص ٣٥٥،
 - (٥) الكندي، الولاية والقضاء، ص ٣٠٩ ، و الزعبي، محمد، القضاء والقضاة، ص ٢٣٨.
 - (٦) عرنوس، محمد ، تاريخ القضاء في الإسلام، مكاتب الكليات الأزهرية، مصر، دبت، ص ٢٦، ومحمد الزعبي، القضاء، ص ٢٣٩-٢٤٢
 - (٧) ابن فرحون المالكي، محمد بن فرحون(ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، دبت، ج ١، ص ٢٣
 - (٨) لقبال، موسى، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ٢، ١٩٨١، ص ١١٠

استوجب هذا إضفاء صفة الجندية على القضاة، إذ سمي القاضي بهذه الحقبة بقاضي الجند (١) وكان القاضي في الأندلس يعين بتكليف من الخليفة كما حدث مع القاضي يحيى بن زيد التجيبي، والذي عينه الخليفة عمر بن عبد العزيز (٢) أو من قبل الوالي عقبة بن الحجاج السلولي، كما حدث مع القاضي مهدي بن مسلم (٣) وكان أمر القضاء كما في المشرق له إطار عام محدد لكن بدون التدخل في الجزئيات ، أي في طريقة تحكيم القاضي.

وبشكل عام تولى القضاة المسلمون الفصل في قضايا رعايا الدولة قاطبة بمن فيهم أهل الذمة وغيرهم من غير المسلمين وتُركت الأمور العائلية الخاصة بهم يحكمون فيها، إلا إذا أحبوا الاحتكام إلى قضاة مسلمين (٤)، وفي الأندلس يبدو أن العرب احترموا حرية أهل الذمة من مسيحيين ويهود في ممارسة قضائهم، على طريقتهم، حيث تُركت لهم الحرية الكاملة في اختيار قضائهم، وفي فض النزاعات فيما بينهم، وفق قوانينهم الخاصة، دون تدخل الدولة في ذلك، ولهذا وجد اسم قاضي العجم أو القومس (٥) ، أما فيما يتعلق بالخصام بين مسلم وذمي فقد كان القاضي المسلم هو من يفض النزاعات، ولذا كان يجلس في رحبة المسجد، كي يتمكن أهل الذمة من الوصول إليه ببسر (٦).

٦- الاهتمام بتنظيم الجيش في البر والبحر:

كان الجيش بالنسبة للأمويين الزاد والعماد، لأنه الأساس الذي قامت عليه دولتهم فيفضله وطّدوا أركان دولتهم وردعوا كلّ متمرّدٍ ومعتزٍ، وبفضله أيضاً فتحوا البلاد، وتربعوا على عرش دولة مترامية الأطراف، وبه جابهوا الأخطار الخارجية المتمثلة بالقوة البيزنطية . ومن أجل هذا كان حريّ بهم الاهتمام بهذا العنصر الفعال، وهنا السؤال : ما الذي قام به الأمويون من أجل ذلك؟ وممن تكونت عناصر جيشهم ؟ وكيف عاملوا جيشهم مادياً ؟ وإلى أي مدى اهتموا بالأسطول البحري؟ كل هذه الأسئلة وغيرها ستكون محل بحث في هذه الفقرة . **أ- الجيش البري :**

مثلت المدينة المنورة القاعدة العسكرية للجيش العربية في بداية الدولة العربية الإسلامية ، ولكن ما إن انتشرت الفتوحات وأنشئت المدن في حواضر الولايات كالبصرة والكوفة وأجناد الشام والفسطاط، حتى أصبح لكل قاعدة مقاتلتها وظهرت في العصر الأموي قواعد عسكرية متقدمة في المشرق والمغرب، ففي المغرب أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتكون قلعة حصينة ينطلق منها الجيش لإتمام الفتوحات (٧) .

(١) الخشني، أبو عبد الله محمد بن الحارث القيرواني (ت ٣٦١هـ/٩٧١م) قضاة قرطبة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة وبيروت، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٢٨.

(٢) يحيى بن زيد كان رجلاً ورعاً تقياً، وثبته في القضاء عبد الرحمن الداخل عندما قدم الأندلس وسماه قاضي الجماعة بدلاً من قاضي الجند، الخشني، قضاة قرطبة، ص ٤٧. والنباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله المالقي (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والعليا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، طه ١٩٨٣، ص ٤٣. و السامرائي، خليل إبراهيم، و طه ذنون عبد الواحد، وناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٤٣٨.

(٣) كان مهدي من أقدم قضاة الأندلس، من أهل العلم والورع والدين، من أبناء المسالمة، وكان عقبة من الحجاج طلب منه أن يكتب تكليف توليته بنفسه احتراماً له، الخشني، المصدر السابق، ص ٣٨-٣٩، والنباهي، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٤) الزعبي، محمد السعود ، القضاء والقضاة، ص ٢٩١.

(٥) فروخ، عمر، تاريخ صدر الإسلام، ص ٢٢٢، و السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم، ص ٤٤٠.

(٦) السامرائي وآخرون، المرجع السابق، ص ٤٤٠.

(٧) Lewis , The Arabs in History , p66.

وبقيت الشام وخاصة في الحقبة المروانية القاعدة الأساسية في العصر الأموي، حيث زاد اعتماد الخلفاء على المقاتلين المسجلين في دواوين أجنادها الخمسة سواء في إخماد الفتن أم في الفتوح (١) ، ويمكن اعتبار تأسيس دواوين الجند والاهتمام بها الخطوة الأساسية في تنظيم المقاتلين، ففي هذا الديوان تم تسجيل أسماء الجند وأوصافهم، ومقدار أرزاقهم وبهذا الديوان ضمن عمر بن الخطاب حقوقهم ، لأنه رأى انصراف الجند في المعسكرات إلى الزراعة وتكوين الثروات(٢) ، وإذا كانت نسبة العطاء واحدة في العصر الراشدي لكل المقاتلين(٣) فالأمر اختلف في العصر الأموي، حيث كان الإخلاص و الولاء هو الدافع لزيادة العطاء لأهل الشام حيث أنفق معاوية الأموال على الجنود والقواد ليكسب ولاءهم الذي أصبح مرتبطاً لديهم بكسب المال (٤) وعندما لا ينفع المال والترغيب كان الأمويون يلجؤون إلى القوة حيث أنشأوا تدريجياً مبدأ إلزامية التجنيد، ويتضح ذلك من إجراءات زياد بن أبيه والحجاج الثقفي، فقد زاد عدد المقاتلة في البصرة في ولاية زياد من أربعين ألفاً إلى ثمانين ألفاً(٥) ، مما اضطر زياد إلى إعادة تنظيم القبائل في البصرة إلى أخماس على كل خمس رجل(٦)، كما قسم قبائل الكوفة إلى أربع . و يتجلى دور الحجاج بارزاً في إضفاء روح جديدة للتجنيد، ويتضح ذلك من خلال تقاعس بعض جند الشام في اللحاق بالجيش عندما سار عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير ، فأمر عبد الملك الحجاج باستنفار من تخلف من الجند ، فلجأ الحجاج إلى حرق بيت من تخلف من أهل الشام(٧) وأعاد الحجاج في سنة(٦٧٥هـ/٦٩٤م) تنظيم ديوان الجند، وأنذر المتخلفين من الجند بالعقوبة الشديدة التي تصل إلى حد الإعدام، وبالفعل نفذ الحجاج ذلك إذ إنه أعدم أحد المتخلفين(٨)، وشملت الإجراءات الصارمة المتخلفين من أصحاب الديوان الذين كانوا ملزمين بالقتال عندما تدعو الضرورة لذلك .وتعد الإجراءات التي قام بها الأمويون البدايات الأولى لنظام التجنيد الإلزامي في الجيش الأموي(٩)، هذا النظام الذي عُزز في عهد هشام بن عبد الملك وأصبح من أبرز التنظيمات العسكرية للجيش، بحيث لم يُسمح لأحد بالتخلف عن القتال حتى أنه اشترط على كل من يأخذ العطاء من أصحاب الديوان أن يخرج إلى القتال أو يُخرج عنه بدلاً بما في ذلك أبناء البيت الأموي، وحتى الخليفة نفسه(١٠).

ولقد كان صلب الجيش الأموي عربي الأصل، لكن امتداد الفتوحات جعلت الأمويين يضمون إلى جيشهم الأعاجم الأحرار الذين اعتنقوا الإسلام وسجلوا في الديوان، وإلى جانبهم موالى الأمويين الذين تمتلكهم الدولة وكانت أصولهم مختلفة وتم ذلك ابتداءً من خلافة عبد الملك بن مروان، واستخدمتهم الدولة في قمع ثورة الجراجمة في أثناء خلافة عبد الملك عند جبال اللكام (الأمانوس)(١١)، ويضاف إلى هؤلاء في الجيش الأموي

-
- (١) خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، ص٣٥٩.
 - (٢) المرجع السابق، ص٣٤٣، والحسين، قصي، موسوعة الحضارة العربية(العصر الأموي) دار الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص٧٩.
 - (٣) الطبري، تاريخ الامم ، ج٢ ، ص٤٥٢.
 - (٤) طهوب ، صلاح ،موسوعة التاريخ الإسلامي(العصر الأموي) دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ص١٧٥.
 - (٥) المرجع السابق، ص ١٧٥.
 - (٦) الحسين، قصي، العصر الأموي، ص٨٨.
 - (٧) الدوقوي، وفيق، الجندية في عهد الدولة الأموية، رسالة ماجستير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص١٣٠.
 - (٨) الحسين ، قصي، العصر الأموي، ص١٧٦-١٧٧.
 - (٩) طهوب، صلاح، العصر الأموي، ص١٧٩، وقصي الحسين، العصر الأموي، ص٨٩.
 - (١٠) ولهاوزن، الدولة، ص٢٧٦.
 - (١١) القطار، الياس، لبنان في القرون الوسطى، ص٤٧.

قبائل من المغرب بعد إسلامهم، حيث كان لهم دور كبير في فتح الأندلس(١)، وكان اشتراكهم في الفتوح طوعياً . واختار الأمويون لجيوشهم قادة ذوي كفاءة ومقدرة عسكرية بالإضافة إلى الإخلاص والقربى، كما تولى القيادة أحياناً موالى الولاة كأبي المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد والي مصر، و يلاحظ ازدياد الاعتماد على رجالات البيت الأموي من آل مروان للقيادة، مع بقاء قيادة القبائل لسادتهم(٢)، وكذلك ظهرت هيئة استشارية، منذ أوائل القرن الثاني للهجرة، كانت إلى جانب القادة في العمليات الحربية عند أقصى الشرق والغرب، ويلاحظ ذلك عندما أرسل هشام بن عبد الملك، كلثوم بن عياض -الذي قاد الجيش الشامي لإخماد ثورة القبائل المغربية- وأمره بإطاعة هارون القرني مولى معاوية بن هشام ومغيث مولى الوليد بن عبد الملك وذلك لأنهما يعرفان بلاد المغرب أكثر منه، حيث وضع له الخطة المناسبة(٣)، و حتى في الشرق غدت مهمة تقديم الاستشارة للقائد مهمة ثابتة ويسمى صاحب المشورة بصاحب الرأي(٤) .

أما بالنسبة للتعبئة فقد استمر الأمويون في اتباع نظام الصفوف المتراسة في القتال، بالإضافة إلى نظام الكراديس الذي يعني تقسيم الجيش إلى أقسام وكل كردوس مرتب ومنظم على أساس ميمنة وميسرة ومقدمة وكتيبة في الخلف تسمى الساقة(٥) ، واستمرّ العرب في استخدام نظام الصف ونظام الكراديس(٦) معاً إلى أن جاء مروان بن محمد فأبطل نظام الصف رسمياً وبصفة عامة وأصبح نظام الكراديس شائعاً في أيامه يقودها قواد محترفون(٧) .

كما ظهرت في العصر الأموي بعض المصطلحات الفنية الجديدة مثل (الكتيبة): وهي وحدة خيالة تتكون من ٢٠٠ جندي، و(الحقب): وهي وحدة خيالة صغيرة تتكون من ثلاثين شخصاً، و(السرية): وهي وحدة هجوم تتكون من ألف مقاتل، بالإضافة إلى العيون: وهي الوحدات الاستطلاعية(٨) . كما ظهر في هذا العصر بعض المشاركين في الحروب باختصاصات متعددة حيث قام هؤلاء بخدمة الجيش وتسهيل مهمته ومنهم النفاطون وضاربو المجانيق والقضاة والأطباء والمؤذنون والقراء والحمالون والنجارون والوعاظ وغيرهم (٩) . وبرع العرب في العصر الأموي في النقل العسكري حيث نقلوا الجند وعوائلهم ومؤنهم وآلات الحصار على ظهر الجمال والبغال، في حين خصصت الخيول للقتال(١٠) .

أما فيما يخص المعاملة المالية للجيش في العصر الأموي فقد حصلوا على الأنفال(١١) والغنائم قبل تنظيم الديوان وبعد تنظيم ديوان الجند أصبح العطاء هو المردود الدائم للمقاتلة، وكان عطاء معظم المقاتلة يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ إلى ١٥٠٠ درهم(١٢) . ويبدو أن الأمويين زادوا العطاء لأهل الشام لولائهم لهم ، فعندما قامت ثورة

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ١، ص ٤٢.

(٢) ابن الأعمش، الفتوح، ج ٧ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٣) بدر، أحمد، التنظيم العسكري عند العرب، بحث في مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع، ١٩٨١، ص ١٣٤ .

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤ ، ص ١٤٤، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٩٩ .

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٧٢ .

(٦) الكراديس: مفردتها كردوس وهي القطعة من الخيل العظيمة، والكردايس الفرق منهم، ويقال كَرْدَسَ القائد خيله إي جعلها كتيبة كتيبة، ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ١٩٥ .

(٧) الدقوقي، الجندي في عهد بني أمية، ص ١٤١ .

(٨) الهاشمي، رحيم كاظم و شنفارو، عواطف، الحضارة العربية الإسلامية، ص ٨٥ .

(٩) الدقوقي، وفيق، الجندي، ص ١٣٢-١٣٣ .

(١٠) الهاشمي، رحيم كاظم و شنفارو، عواطف، الحضارة العربية، ص ٨٦ .

(١١) الأنفال مفردتها نفل وهي الهبة والغنيمة، ابن منظور، ج ١١، ص ٦٧٠-٦٧١ .

(١٢) خمّاش، الشام، ص ٣٨٨ ،

ابن الأشعث في العراق وعد عبد الملك الثائرين بجعل عطائهم مساوياً لعطاء أهل الشام(١)، وهذا يدل على زيادة عطاء أهل الشام عن غيره، ونظراً لعدم استجابتهم له فلم تُرفع الأعطيات. وعندما زاد الوليد بن يزيد- الذي عُرف بسخائه - عطاء المقاتلة في جميع الأمصار، قام بزيادة العطاء لأهل الشام بعد ما زاد العشرات عشرة(٢). وكان العطاء يُدفع سنوياً للمقاتلة في شهر محرم، عند بداية السنة الهجرية، ولكن لم يكن دفع الأعطيات منتظماً باستمرار فقد كان يُدفع أقساطاً أو يؤخر إلى عام آخر(٣)، كما اهتم الأمويون بالإضافة إلى العطاء بتنظيم الأرزاق وهي ما تُعطى للمقاتل وعياله من مواد عينية في كل شهر، فقد أنشأ زياد بن أبيه داراً للرزق - تقع في الطرف الشرقي من مدينة البصرة- وهي مخزناً للحبوب التي يتم توزيعها، ويبدو أن الناس كانوا يحضرون بأنفسهم لأخذ أرزاقهم منها ولعله كان يعطي الأهالي صكوكاً يأخذون بموجبها ما خُصص لهم من الرزق، كما كان الحال في الحجاز(٤)، وبالإضافة إلى العطاء والرزق فقد حصل المقاتلة على أموال إضافية تدعى المعاون ويبدو أنها كانت سارية منذ عهد عمر بن الخطاب لكن قيمتها ارتفعت في الشام عندما كان الجنود يدعون لحملة هامة أو للقضاء على ثورة، فقد منح يزيد بن معاوية الجنود الذين أرسلهم لقتال ابن الزبير مئة دينار معونة فوق أعطياتهم(٥).

ب- الجيش البحري (الأسطول) :

لم يشرف القرن الهجري الأول على نهايته حتى كان للعرب ثلاثة أساطيل أساسية مستقلة استقلالاً ذاتياً إلى حد ما يرتكز كل واحد منها على إقليم بحري مستقل وهي أسطول سورية وأسطول مصر ثم أسطول إفريقية أضف إلى ذلك وحدة بحرية صغيرة في البحر الأحمر تعمل على حراسته وربما خضعت لقيادة الأسطول المصري(٦). فما الذي دفع العرب المسلمين لبناء هذه الأساطيل؟ وكيف تمكنوا من بنائها؟ وما هي التنظيمات التي قاموا بها من أجل القيام بهذه القوى البحرية؟

لقد جابه العرب الخطر البيزنطي بعد فتح الشام ومصر بالدفاع، وتجسد ذلك بوضع حاميات قوية في المدن الساحلية، ولكن هجمات البيزنطيين المتكررة أثبتت عدم جدوى السياسة البحرية الدفاعية مما جعل العرب يفكرون في الهجوم على قبرص وهذا الهجوم يتطلب وجود سفن وقواعد وعتاد وهذا ما فُكر به معاوية منذ أن كان والياً على الشام وبعد سماح عثمان له بغزو قبرص، كتب إلى أهل الساحل الشامي والمصري يأمرهم بإصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا(٧) وبعد ذلك تداعت الغزوات البحرية للعرب المسلمين في البحر المتوسط وكان لانتصارهم في معركة ذات الصواري(٨) الدافع الأكبر في الهجوم على القسطنطينية العاصمة البيزنطية للتخلص من الخطر البيزنطي نهائياً وفعلاً قامت الأساطيل العربية بحصار القسطنطينية أكثر من مرة، ومع إخفاق المحاولات إلا أن قدرة العرب المسلمين على بناء أعداد كبيرة من السفن و حصارهم لمدينة القسطنطينية، يُعبر عن الجهد العظيم الذي قاموا به من أجل إنشاء قوة بحرية عظيمة .

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٦٣٠، ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٠٤، وابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٢٣٢،

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢٢٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٧٠، وابن الجوزي، المنتظم، ج ٧، ص ٢٤٢.

(٣) الدوقوي، الجندية، ص ١٩٨.

(٤) ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) المسند، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٩، ج ٣، ص ٣٢٩.

(٥) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣٥٣، وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٤٥٦.

(٦) أرشيبالد، القوى التجارية، ص ١٠٥.

(٧) حوراني، جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، دار الكتاب، القاهرة، ص ١٨١،

(٨) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٦٢٠.

وأنشأ معاوية دوراً لصناعة السفن في الشام إلى جانب دار صناعة مصر، لأن صناعة السفن كما يقول البلاذري كانت بمصر فقط، فجلب معاوية الصناع والنجارين إلى عكا من جند الأردن حيث وقع اختياره عليها لينشئ أول دار لصناعة السفن بالشام (١) ، وبقيت دور الصناعة في عكا إلى أن نقلها الخليفة هشام بن عبد الملك إلى صور (٢). كما اهتمت الدولة الأموية باستمرار التعاون بين مصر والشام سواء في استخدام الأقباط كملاحين في سفن الشام أم في استيراد الأخشاب من الشام التي تصلح لبناء السفن (٣) ، ويبدو أن بناء السفن بمصر بلغ شأناً عظيماً في العصر الأموي على الرغم من إنشاء دار الصناعة في الشام، فقد أظهرت أوراق بردي كوم إشقوا التي تعود إلى سنة (٩٢هـ / ٧١٠م) مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة المركزية لتلك المهارة ومدى استغلالها على يد الأمراء المسلمين، وتدل على تجنيد الأقباط في صعيد مصر للعمل في أحواض السفن بالإسكندرية وإرسالهم العمال للعمل في الأساطيل التي تتخذ قواعدها في الشام (٤).

ولما رأى البيزنطيون قدرة العرب على الدفاع، وعلى إنشاء البحرية في الشرق، أخذوا يعملون على تدعيم موقفهم في المغرب وتقوية أسطولهم، فقد نقلوا العاصمة إلى صقلية (٥) ليتحكموا بالقوة البحرية أكثر في المتوسط الغربي، ولكن ما إن قضى حسان بن النعمان على الكاهنة دهبيا، وأخرج الروم من قرطاجة حتى أنشأ قاعدة بحرية في تونس، وطلب حسان من عبد الملك أن يرسل إليه من يعمر دار الصناعة، ويعلم المسلمين صناعة السفن، وبالفعل كتب الخليفة عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز والي مصر بأن يوجه إلى تونس ألفي قبضي بأهلهم وولدهم وأن يحملهم من مصر إلى تونس (٦) كما كُلفت القبائل في المساهمة في هذه الدار، فكانت مهمتها جلب الأخشاب اللازمة لصناعة السفن من غابات الجبال الداخلية، وربما كان هذا العمل نوعاً من الخدمة الإلزامية وخطا الأسطول العربي الفتى في غرب البحر المتوسط خطوات سريعة في سبيل القوة والمجد وذلك في ولاية موسى بن نصير الذي عمل على توسيع دار الصناعة وأمر بصناعة مئة مركب (٧) . وبالفعل كانت هذه الدار على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقها، وأثبتت فائدتها، حيث استُخدم هذا الأسطول في الغارات على الجزر المتوسطية المقابلة للساحل المغربي، وبذلك شلَّ تهديد الأسطول البيزنطي، كما ساهمت سفن تونس في فتح الأندلس، فعلى هذه السفن رحل ابن نصير بجيشه الرئيس عندما بلغه خبر انتصارات طارق (٨) . ويمكن التعرف على نظام العمل والقواعد التي تم العمل على أساسها في دور صناعة السفن من أوراق للبردي المصرية التي ترجع إلى ولاية قره بن شريك، والتي تُبين أنه كان هناك مشرف عام يُدعى متولي الصناعة، وكان مسؤولاً عن تلقي المواد الخاصة ببناء السفن واستدعاء مهرة الصناع وغيرهم من العمال لدور الصناعة (٩)، ولقد حرصت السلطات العربية على رفع كل ما يقع على العمال في دار الصناعة وتحقيق العدل

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٤.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ١٢٥ ، وياقوت، معجم البلدان، ح ١، ص ١٤٨.

(٣) خفاجي، عبد المنعم و شريف، عبد العزيز، معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي (٤١-١٣٢هـ) الدار المصرية اللبنانية-القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ٦٤.

(٤) حوراني ، جورج فضلو، العرب والملاحه ، ص ١٨٤.

(٥) خفاجي ، عبد المنعم، معارك فاصلة، ص ٧٢.

(٦) أرشيبالد، القوي، ص ١٠١، الدقوقي، و فيق، الجندية، ص ٢٥٤.

(٧) أرشيبالد، القوي البحرية، ١٠١.

(٨) أرشيبالد، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٩) العدوي، ابراهيم أحمد، النظم الإسلامية ومقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الإسلام والعصر الأموي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ٣٥٥.

لهم وبنيت إلى جانب أماكن السفن ثكنات للبحارة وأماكن خاصة للعمال المشرفين على بناء السفن(١) . وكان اعتماد العرب في بداية أمرهم على المهرة المتدربين على فنون القتال في ركوب البحر، وخاصة سكان الساحل الشامي، وكذلك على اليمينية الذين كانت لهم تقاليد عريقة في صناعة السفن وركوبها، ونبغ منهم عددٌ لا بأس به ومنهم جنادة بن أبي أمية الأزدي وسفيان بن نجيب الأزدي(٢) ومسلمة بن عبد الملك(٣) . وكان على كل أسطول قائد ورئيس حيث كانت مهمة كل قائد إدارة شؤون الحرب ومهمة الرئيس تجلت بإدارة جريان الأسطول بالرياح أو بالمجانيق، وإذا اجتمعت الأساطيل لغزو أو لغرض آخر عسكرت في المرفأ المعين لها ويتولى قيادتها أمير واحد هو أمير البحر(٤) .

أما بالنسبة لأشكال السفن الحربية الأموية ومعداتها، فأغلب الظن أنها كانت تشبه السفن البيزنطية، وربما كانت مقسمة إلى سفن مجهزة بالأسلحة والمقاتلة، وسفن نيلية لحمل القمح والبضائع(٥) . وتجهيز هذه السفن لاقى الاهتمام ويوضح ذلك الإنفاق على بناء السفن خلال أربعين عاماً بعد الفتح ، فقد بلغ ما أنفقه متولي بناء السفن ٧٠٠٠ دينار سنوياً في مصر (٦) . ومن خلال معرفة عدد السفن العربية التي شاركت في حصار القسطنطينية يتضح الاهتمام بالبحرية العربية والذي بلغ حوالي ١٨٠٠ سفينة في عهد معاوية(٧) . وبلغ عدد السفن في عهد سليمان أثناء حصار القسطنطينية ١٨٠٠ سفينة بحرية، وكانت تصل إليها نجدات باستمرار حيث وصل إليها أسطول من مصر تعدادة ٤٠٠ سفينة بالإضافة إلى أسطول من افريقية بلغ حوالي ٣٦٠ سفينة(٨) .

٧- اعتماد أسس جديدة في الإدارة:

كان لولاية معاوية على الشام الأثر الكبير في نهجه الإداري للدولة الأموية، في الاحتكاك الذي كان سائداً فيها فالشام ليست كالحجاز، فهي أكثر تحضراً في المسائل الإدارية التي استفاد منها معاوية في حكمه، ولم تكن هذه هي الأسباب الوحيدة ليجدد معاوية أو ليحدث أموراً جديدة في الإدارة فما هي المستجدات التي طرأت؟ يبدو أن الحاجة ومقتضيات الظروف هي التي دفعته إلى التفكير في أمور تعظم حكمه وتضفي عليه هالة المجد، بالإضافة إلى تأمين سلامته، فاستحدث أموراً لم تكن لدى العرب يُستشف ذلك مما قيل عن معاوية « وكان معاوية أول من أقام الحرس والشرطة والبوابين في الإسلام واستكتب النصارى، ومشى بين يديه بالمحراب واستصفى أموال الناس لنفسه»(٩) . ومن هذا القول يفهم ما استحدثه معاوية للدولة الأموية :

١-الحاجب (البواب):

هو موظف يقف على باب الخليفة أو الوالي لينظم عملية الدخول إليه وذلك حسب مراتبهم وأهميتهم، وفق تنظيم معين يعينه له الخليفة أو الوالي، وكان معاوية أول من أوقف الحاجب على بابه وقّده في ذلك ولاته في

(١) الدقوقي، الجندية، ص ٢٥٢.

(٢) الحسين، قصي، العصر الأموي، ص ١٤٧.

(٣) بركات، وفيق، فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، جامعة حلب، ١٩٩٥، ص ٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٥) الدقوقي، الجندية، ص ٢٥٨.

(٦) أرشيبالد، القوى البحرية، ص ١١٦.

(٧) خربوطلي، الحضارة العربية ، ص ٧١.

(٨) خماش، بلاد الشام في صدر الإسلام، ص ٣٧٧.

(٩) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٢.

الأقاليم . ويوضح ابن خلدون أسباب اعتماد الأمويين على الحاجب بقوله " ولما انقلبت الخلافة إلى الملك ... كانوا أول شيء بُدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون عن أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم ويشغلهم به عن المهمات" (١)، كان اتخاذ وظيفة الحاجب إذاً سببه أمني بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى قرب الشام من البيزنطيين، وكذلك من أجل تنظيم دخول الناس على الخليفة أو الوالي ، ولقد حرص الأمويون على أن يعرف الحاجب الناس وأنسابهم وطبقاتهم من أجل معرفة أولوية الدخول، فعبد الملك يوصي أخاه عبد العزيز بن مروان والي مصر بقوله « وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده » (٢) .

٢- الشرطة:

إنّ الشرطة من الوظائف الهامة في الدولة العربية الإسلامية و نواتها في العصر الراشدي مهمة العسس(٣)، ومعناها حارس المدينة ليلاً، وسمي رئيس هذه الوظيفة بصاحب الشرطة في عهد الإمام علي بن أبي طالب (٤)، واستمر هذا النظام في العصر الأموي مع مراعاة التطور حسبما تقتضيه الظروف، حيث أصبحت للشرطة مؤسسة، كانت في بدايتها تابعة للقضاء، فكان من مهامها تنفيذ أحكام القضاء أو فرض العقوبات ويتولى صاحبها إقامة الحدود(٥) لكن هذه المؤسسة انفصلت عن القضاء وأخذت شكلها وهيئتها الخاصة في عهد هشام بن عبد الملك الذي أدخل نظام الأحداث، فصاحب الأحداث يشرف على الأعمال العسكرية التي تُعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد(٦).

وانتشرت الشرطة في الأقاليم كافة، واعتُبر زياد بن أبيه أول من نظم جهاز الشرطة في العراق وكان عددهم أربعة آلاف شخص وأوكل إليهم مجابهة العابثين بالأمن، وشدد عليهم في ذلك، فثابروا في عملهم الذي نتج عنه انتشار الأمن بين الناس. ونظراً لأهمية صاحب الشرطة في العراق فقد اشترط زياد أن يكون صاحب الشرطة مسلماً شديداً الصولة قليل الغفلة(٧)، وكان يتم اختياره من عليّة القوم وأهل القوة.

٣- الحرس:

اتخذ معاوية بن أبي سفيان الحرس في الدولة الأموية خوفاً من الاغتيال، ودُعي قائد الحرس بصاحب

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٢٣٨ ، لقد تعرض عمر بن الخطاب للاغتيال وكذلك علي بن أبي طالب كما جرت محاولة اغتيال معاوية لكنه أنقذ منها .

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف ، ج ٧ ، ص ٢١٠

(٣) عس يعس عساً أي طاف بالليل، ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ١٣٩ ، والشرطة من الشرط والاشتراط الذي يشرط الناس بعضهم على بعض وهي علامات يجعلونها بهم، لهذا سميت الشرط لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد(ت٣٧٠هـ/٩٨٠م) تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ٢٠٠١ ، ج ١١، ص٢١١-٢١٢ .

(٤) الحاج حسن ، حسين، حضارة العرب في صدر الإسلام، ص٧٧ .

(٥) الهاشمي وشنقارو، الحضارة العربية، ص٧٧، والخربوطلي، الحضارة العربية، ص٥٦ .

(٦) ابراهيم حسن، التاريخ السياسي و، ج١، ص٣٧٥ .

(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج٢، ص١٢٥ ، و درادكة، صالح، الحرس والشرطة في صدر الإسلام ، بحث في مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، مجلد ١٤ ، العدد الرابع، نيسان، ١٩٧٨، ص٩٢-٩٣ .

الحرس(١) وتركزت مهمتهم على حراسة الخليفة أو الوالي -حيث اتخذ الولاية حرساً خاصاً بهم أيضاً - وحماية دار الخلافة، ويضاف إلى ذلك أن معاوية حرص على اتخاذ الحرس من أجل مظاهر الحكم والأبهة التي تمتع بها الحكام البيزنطيين في بلاد الشام(٢)، وكان الحرس يقوم على رأسه إذا سجد(٣)، ومن أجل زيادة الحذر والاطمئنان اتخذ معاوية المقصورات لحمايته، وقلد زياد بن أبيه معاوية في مسألة اتخاذ الحرس، حيث كان أول الولاية الذين شكلوا حرساً، ولذلك قيل إن أول من أخذ الناس بملك الأعاجم زياد(٤)، وكان يُشترط على صاحب الحرس أن يتمتع بالحذر واليقظة الدائمين .

٤- العيون (المخبرون):

حرص خلفاء بني أمية وولاتهم وعمالهم على بث العيون والاهتمام بهم، وذلك لمعرفة ما يدور في الخفاء من ترتيبات قد تخل بالأمن الداخلي، ولمعرفة تحركات الثائرين والمتمردين، وتبدو أهمية هذا الجهاز من خلال الأخبار التي ترد في بعض المصادر التاريخية والتي تعطي صورة عن كيفية معرفة الولاية أماكن تواجد الأشخاص المطلوبين في أمر يخص الأمن الداخلي، ومن ذلك تعرف عبيد الله بن زياد والي العراق ليزيد بن معاوية على مكان تواجد مسلم بن عقيل بن أبي طالب ابن عم الحسين بن علي والذي كان مندوبه إلى الكوفة عن طريق مولى له أعطاه ثلاثة آلاف درهم وأمره أن يلبس لباس تاجر من أهل الشام ويحاول البحث عن أحد يعرف مكان مسلم(٥)، وبالفعل نجح بذلك .

ويتضح دور المخبرين من خطبة عثمان بن حيان المري والي المدينة للوليد بن عبد الملك الذي قال بها« فإني بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم . . .»(٦) ، كي لا يتستروا على أحد الهاربين.

(١) اليعقوبي، مرجعه السابق، ج٢، ص٢٣٢ .

(٢) إبراهيم حسن، وإبراهيم علي، النظم الإسلامية، ص٥١ .

(٣) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص١٠٦ .

(٤) السكتواري، علاء الدين علي دده ، محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر فرغ من تأليف كتابه سنة(١٥٨٩/هـ١٩٩٨م) ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، ص٥٩ .

(٥) الأعرجي، محمد حسين، جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية، دار المدى والثقافة والنشر ، دمشق، ط١، ١٩٩٨، ص٣٦ .

(٦) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤ ، ص ٢٣ .

ثانياً :مظاهر الضعف في مجال الإدارة العامة:

- ١ - عدم مراقبة الولاية.
- ٢ - انتشار الفساد في الهرم الإداري.
- ٣ - عدم وجود سياسة ضرائبية ثابتة.
- ٤ - استخدام المال العام لصالح الخلفاء والولاية.

١- عدم مراقبة الولاة :

رغم قوة وشدة بعض ولاة بني أمية وضبطهم لولاياتهم إلا أنه يُؤخذ عليهم بعض التجاوزات ، وربما أغفل الخلفاء هذه التجاوزات عن قصد أو غير قصد ليسيروا بركاب دولتهم مهما كانت الوسائل، ولقد تجاوز هؤلاء الولاة الخطوط الحمراء مما أعطى صورة سيئة عن حكمهم، لأن السلطة المطلقة التي منحهم إياها الخلفاء أسأوا استخدامها أحياناً، وبذلك كانوا عاملاً هاماً في إثارة الحقد على الحكم الأموي.

وإن كان معاوية حليماً، لكنه ترك لولاته حرية التصرف في ولاياتهم، فقد منح زياد بن أبيه العراق وضم له خراسان والشرق كله وكان زياد يعين من يشاء ويعزل من يشاء دون الرجوع إلى الخليفة، حتى أنه قدّم إلى معاوية رجلاً يسأله أن يوليه بعض ما كان بيد زياد فقال له معاوية :«زياد أعلم بثغوره وزياد أعلم بشرطته»(١) إلا أن ابنه عبيد الله تهادى في حرية حسم بعض الأمور ويوضح ذلك ما آل إليه مصير الحسين بن علي، إذ إن يزيد أعطى أوامره لعبيد الله بن زياد بأن لا يقاتل إلا من يقاتله (٢)، لكن ابن زياد بدأ بالقتال على الرغم من أن الحسين لم يقاتله(٣) وفعل ذلك بتشجيع من شمر بن ذي الجوشن الذي بيّن لابن زياد أن ضعفه يتضح إذا لم يستسلم له الحسين ، ورأى عبيد الله صعوبة وصفه بالضعف فوافق رأي شمر وطلب من قائد جيشه عمر بن سعد بن أبي وقاص أن يطلب الاستسلام من الحسين أو يقاتله إن رفض وإذا لم يفعل عمر ذلك فليتنحى عن الجيش ويسلمه لشمر، لكن عمر خاف على نفسه فوافق وطلب من الحسين ذلك إلا أن الحسين رفض الاستسلام فنشب القتال إلى أن قُتل الحسين، وهنا يذكر الطبري أن يزيد حزن على موت الحسين وترحم عليه ولعن عبيد الله على فعلته (٤)؛ لكنه لم يفعل أكثر من ذلك إذ لم يعزل عبيد الله ولم يعاتبه وهذا يدل على ارتياح يزيد لمقتل الحسين وكذلك على استهتار عبيد الله بأوامر خليفته، و استهتار الخليفة بمراقبة ومعاقبة ولاته.

وإذا كان زياد بن أبيه أمير الشرق فإن الحجاج الثقفي كان سلطاناً عليه، حيث أنه اشتهر بالعنف المفرط والقسوة مع موافقة الخليفة عبد الملك بن مروان ودليل ذلك ثورة ابن الأشعث التي تعبر في جوهرها عن تمرد من جانب قائدها ورجاله ضد قسوة الحجاج(٥) ، واستبداده بالأراء دوناً عن الخليفة. هذا إذا اعتبر أن حرية الحجاج كانت مراقبة في عهد عبد الملك قليلاً، لكن هذه الحرية أُطلق لها العنان حيث منحه الوليد سلطات واسعة بل حتى إن الخليفة كان ينفذ بعضاً من أوامر الحجاج، ويلاحظ هذا عندما وافق الوليد على عزل عمر بن عبد العزيز عن الحجاز وولى عثمان بن حيان المري على المدينة وخالد القسري على مكة وذلك استجابة لطلب الحجاج(٦) . وعلى الرغم من معرفة الخلفاء لأسباب ونتائج تصرفات ولايتهم إلا أنهم كانوا يسايروهم في تصرفاتهم كي تستقيم لهم الأمور، ومن ذلك ما حدث إثر تفوق المهلب بن أبي صفرة في حربه ضد الخوارج، هذا الانتصار الذي لاقى من الخليفة عبد الملك الرضا والتميز، مما جعل الكثير من ولاة العراق يحقدون عليه ويحاولون كسر شوكته، فما هو خالد بن عبد الله بن أسيد وفور تعيينه من قبل عبد الملك سنة(٧٢هـ/ ٦٩١م) يبادر إلى عزل المهلب عن حرب الخوارج ويولي أخاه عبد العزيز بدلاً عنه، وذلك لأن الخطوة التي لقيها

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٢٩٣، العش، يوسف، الدولة الأموية، ١٧٨.

(٣) العش ، الدولة الأموية، ص١٧٨.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٣٨.

(٥) سلطان، عبد المنعم عبد الحميد، آل المهلب في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحزبي حتى سقوط الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص٦٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٩٥. ، و قحى، مجدي، تاريخ الإسلام والمسلمين ، ص١٧٧

المهلب من عبد الملك أزعجته لكن إخفاق عبد العزيز أزعج الخليفة ، فأنب خالد على هذا التصرف وأمره بإعادة المهلب(١) هنا تتضح أسباب ثورة المهالبة على الدولة وذلك أن بشر بن مروان أخو الخليفة عبد الملك أراد تشويه صورة المهلب عند الخليفة لكن موته غطى على فعلته(٢) ورغم ذلك استمر آل المهلب في نفوذهم كنتيجة لجهودهم ضد الخوارج وعين يزيد بن المهلب على خراسان، وسبب هذا النفوذ غضب الحجاج الذي ألح على عبد الملك من أجل عزله، وكان يذكره بالسوء وعلى الرغم من إدراك الخليفة لنوايا الحجاج إلا أنه وافق على عزله، فقام الحجاج بسجن يزيد، وسببت هذه المعاملة السيئة للمهالبة من قبل ولاة بني أمية، العداء بين الدولة وبينهم إلى أن قاموا بثورتهم ضدها(١٠٢هـ / ٧٢٠م) .

وإذا كان خلفاء بني أمية قد أولوا العراق اهتمامهم الكبير ورغبوا في توليته لشخص قوي شديد، كونه كان الإقليم الأكثر تمرداً ضد الأمويين، فإنهم لم يفكروا في نتائج تصرفات هذا الوالي، والذي كثيراً ما ضموا إليه خراسان أو أبقوها تحت إمرته، وعلى الرغم من الاستقلال الذي حظي به خالد القسري في العراق، والذي قام بإصلاحات شتى فيه إلا أنه لم يسلم من حقد الخصوم عليه، إذ شكوا غناه إلى الخليفة هشام الذي كان همه جمع المال والعقارات، فغضب على خالد وعزله وعيّن مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وأطلق يده في محاسبة خالد على الرغم من عدم قناعته بهذه المحاسبة، لكنه لم يكلف نفسه عناء مقابلة خالد الذي سعى إلى ذلك، ولم يسمع منه حقيقة موقفه وتصرفاته في العراق(٣).

هذا عداً عمّا كان في خراسان من نزاعات وخلافات كان للولاة الدور الأكبر فيها من خلال سعي ولاة العراق على إبقائها تحت سيطرتهم(٤) .

ولأن اختيار الولاة قام على أساس المصلحة المشتركة، فقد ترك الخلفاء الحرية كاملةً للعامل منذ البداية كي يتصرف كما شاء إذا أكد على سلطان الخليفة، فله أن يسلك من أجل ذلك كل سبيل، حتى أن الخليفة كان راضياً، وربما على مضض عن تصرفات واليه لأسباب عدة كانت في حساباته، فعمرو بن العاص تولى مصر كهبة له بعد اتفاق بينه وبين معاوية بعد عملية التحكيم سنة (٣٧هـ/٦٥٧م) حتى أنه لم يرسل من ميزانية مصر أي شيء للخليفة(٥)، وكذلك الأمر بالنسبة لمسلمة بن مخلد الذي استمر في ولايته لمصر مدة خمسة عشر عاماً (٤٧-٦٢هـ/٦٦٧-٦٨١م) وكان ذلك نتيجة مكانته عنده وعند عثمان بن عفان ،و كان عبد الملك بن مروان حريصاً على إرضاء أخيه عبد العزيز ولو على حساب الدولة، إذ أبقاه والياً على مصرفي عهده، وتركه يتصرف كما يشاء ظناً منه أنه سيتنازل لولده الوليد عن ولاية العهد، وهذه المواقف التي اتخذها الخلفاء تجاه ولاة مصر على وجه الخصوص هي التي كانت وراء تدخل ولاة مصر بأمور المغرب، الذي من مصر انطلقت الفتوح إليه، لذلك اعتبر ولاة مصر أنفسهم مسؤولين مباشرين عنه، وسمح لهم الخلفاء بذلك كارهين لعدة اعتبارات منها مكانة بعضهم كمسلمة بن مخلد أو لقرابة ومصالح كعبد العزيز بن مروان(٦) الذي تمادى في تدخله في شؤون المغرب، فكان يعطي أوامره لقادته بالجزو أو بالرجوع إلى درجة أنه كان يعين ويعزل ولاته فقد عزل حسان بن النعمان الذي كان يسيّر في فتوحاته سيراً حسناً وعين بدلاً منه موسى بن نصير لأن

(١) سلطان، عبد المنعم عبد الحميد ، آل المهلب، ص ٤١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٣٣.

(٣) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٦٩ والعش ، الدولة الأموية، ص ٢٨٩

(٤) البلاذري، الفتوح، ص ٣٩٩، ٤٠٠.

(٥) بطاينة، محمد، الحضارة العربية الإسلامية، ج ٢، دار الفرقان، عمان، ص ٣٣.

(٦) مؤنس، فتح العرب للمغرب ص ٣١

عبد العزيز كان على خلاف مع حسان و مقرباً لموسى(١). وحتى عندما أصبح الخليفة هو المسؤول عن تعيين ولاية المغرب ترك لولائه حرية التصرف دون مساءلة فكانت النتيجة كما حدث مع يزيد بن أبي مسلم الذي وليها عام (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) و ثار عليه حرسه وقتلوه ثم اعتذروا من الخليفة عن فعلتهم(٢)، هذا الخليفة الذي كان يعلم بتصرفات واليه لكنه لم يحرك ساكناً من أجله، وتركه لمصيره الذي آل إليه.

وإذا كان هشام بن عبد الملك قد قصر في تعقب تصرفات واليه على المغرب، فإن ذنبه كان أكبر في عدم استقبال من جاء من المغرب ليذكره بواجباته تجاه ولاته ، هذا الإهمال من الخليفة كان دافعاً للثورة التي قامت ضده في المغرب (٣) .

واتبع الخلفاء في الأندلس السياسة نفسها، فبعد أن أصبحت المغرب ولاية مستقلة بذاتها، قام ولاتها بتعيين ولاية للأندلس حسب رغباتهم ومصالحهم، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن قام عمر بن عبد العزيز بنفسه بتعيين والياً على الأندلس رأى فيه صلاح أموره وهو السماح بن مالك الخولاني ، لكن الأمر عاد إلى ما كان عليه بعد موته، وربما كان لمزاجية ولاية المغرب في انتقاء ولاية الأندلس دوراً في تأجيج الخلافات والنزاعات فيه.

٢- انتشار الفساد في الهرم الإداري:

لقد برز في المجال الإداري في العصر الأموي فساداً ابتداءً من قمة الهرم وهو الخليفة تنازلاً بأصغر موظف إداري في الدولة، فهل كان كل خلفاء بني أمية بهذا الفساد؟ كان هناك بعض الخلفاء أو معظمهم ممن سولت له نفسه مد يده إلى أموال الدولة بثتى الطرق، وقبول الرشاوى، والإضرار بمصالح الدولة من خلال حيازتهم للأراضي الواسعة والاستجداء بالتجارة وغيرها من الأعمال من أجل زيادة ثروتهم، فما هي الطرق التي سلكت من قبل الخلفاء وموظفيهم؟.

إذا مس الخلل الحكام فلا غرابة أن يكون أفراد السلك الإداري على هذا المنوال من الفساد والتلاعب بالأموال العامة والغش والخداع، وعلى هذا فالخلل تغلغل في الهيكل الإداري للدولة، الأمر الذي مهد لكثير من الخلافات والتجاوزات، إذ كان للحقد والكيد محله في نفوس بعض عمال الدولة وعلى مختلف المستويات، فغدروا ببعضهم من أجل النفوذ والأموال، حتى أن الأسرة الحاكمة مسها الحقد والكيد، فالمفهوم الذي اعتبره معاوية لبيت المال باعتباره بيت الله يأتيه من يشاء (٤) يعبر عن مدى نظرتهم له، إذ رأوه جيب الخليفة، يأخذ منها ما يشاء ومتى شاء، فالقوة التي أوصلتهم إلى السلطة هي التي تخولهم التصرف بهذه الأموال، فلقد اعتبروا أن إطراء النفوس وإجازة الجوائز هو فرض من بيت المال، كما سبق وفعل عثمان بن عفان الذي أغضب بعمله هذا عامل بيت الخراج عبد الله بن أرقم(ت ٤٤ هـ / ٦٦٤ م) فقال له: " هذه مفاتيح بيت مالكم"(٥)

(١) ببيزون، ابراهيم ، تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دار إقرأ، بيروت، ط١٩٨٦، ٢، ص٢٢٩.

(٢) الصلابي، محمد علي ، صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (عصر الدولتين الأموية والعباسية و ظهور فكر الخوارج) دار البيارق، لبنان، ط١، ١٩٩٨، ص٥٧.

(٣) ولهاوزن ،الدولة العربية، ص ٢٧٥. وزاهد ، أحمد ،الغزو العربي لشمال إفريقيا، ص٨٠ و ٩١

(٤) الطبري، تاريخ، ج٢، ص٦١٥، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص١٠.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٦٨، والمقدسي، البدء، ج٥، ص٢٠٢.

فلقد حصل كل وافد معارض كان أم مؤيد على جوائز وترضيات من الخليفة، فالمهم هو إسكات المعارض وثبات المؤيد، كما عمدوا إلى مكافأة قوادهم من بيت المال فالوليد بن عبد الملك كتب إلى واليه على مصر قره ابن شريك بإعطاء موسى بن نصير بعد فتحه للأندلس ما شاء من الأموال (١) وعلى الرغم من بخل هشام الذي أشتهر به فقد قام بتوزيع الأموال على أسرته والمستحقين ففاز مستشاره الأبرش الكلبي ب ١٢٠ ألف درهم (٢)، كما قام الولاة أيضاً بمنح الأموال لمن شأوا، فعبيد الله بن زياد (ت ٦٨٧/هـ ٦٨٧م) كتب صكاً لصاحب مطبخه وقدره ثمان مئة دينار، كي يصرفها مالا من بيت المال، لكن عامل بيت المال اعترض على ذلك، فقام عبيد الله بطرده من عمله (٣) كما قام سعيد بن عمرو بن العاص (ت ٦٨٩/هـ ٧٠م) والي المدينة زمن يزيد بن معاوية بأخذ أعطيات أهلها وشراء العبيد لنفسه (٤)، كما أعطى يزيد بن المهلب حلاقاً خمسة آلاف درهم ثمن حلاقته له، فلما رأى الدهشة على وجهه أعطاه مثلها (٥) ويبدو أن ما في بيت المال لم يكف الخلفاء وولاتهم، فكثيراً ما تقبلوا الرشاوى التي كانت على شكل هدايا، من العمال الذين كانت لهم مصالح متبادلة معهم، وما أكثرها، فزياد بن أبيه قال لمعاوية بعد ما أهدى له هدايا كثيرة أعجبتة: "يا أمير المؤمنين دوخت لك العراق وجبيت لك برها وبحرها وغنمها وحملت إليك لبها وسرها" (٦) وقلما يرد ذكر اسم والٍ للأمويين لم يحمل معه رشوة للخليفة إما لبيقيه في منصبه أو ليحصل على المنصب من خلالها، كما فعل ثيودوسيوس الذي ذهب إلى يزيد في دمشق وهو يحمل له مبلغاً من المال فعاد حاملاً مرسوم تعيينه حاكماً على الاسكندرية ومربوط والمناطق المحيطة بهما (٧) وبالوسيلة نفسها تولى عمر بن هبيرة ولاية العراق، إذ أهدى حبابة عشيقه يزيد بن عبد الملك هدايا كثيرة، فتوسطت له عند الخليفة يزيد كي يوليه، واستمر عمر في هداياه ليزيد حتى بعد توليته للعراق ليضمن البقاء في منصبه (٨)، كما أرسل عبد الرحمن بن حبيب عامل مروان بن محمد على إفريقية الهدايا للخليفة مروان (٩) واستطاع الجنيد بن عبد الرحمن الفوز بولاية خراسان لدى الخليفة هشام بعد أن أهدى زوجته أم حكيم قلادة تحوي جواهر، ولما أعجبت بها أهدى واحدة أخرى للخليفة، ومكافأة له على ذلك عينه هشام والياً على خراسان (١٠).

وكما عامل الخلفاء وولاتهم، عامل الولاة عمالهم، فلقد أرسل عبد الله بن خازم عامل خراسان هدايا لعبد الله بن عامر (ت ٦٧٨/هـ ٥٩م) كما حمل محمد بن القاسم (ت ٧١٦/هـ ٩٨م) الهدايا إلى الحجاج الثقفي كي يبقيه على خراسان (١١) كما تلقى أسد بن عبد الله القسري الهدايا من عامله على خراسان (١٢) ونظراً لأهمية وظيفة عامل

-
- (١) الإبيشي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠/هـ ٤٤٦م) المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق سعيد محمد جمعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦، ج ١، ص ٣٥٠.
 - (٢) البلاذري، أنساب، ج ٨، ص ٤١١.
 - (٣) الذهبي، سير، ج ٤، ص ١٦٦.
 - (٤) ابن قتيبة، الإمامة، ج ٢، ص ٦.
 - (٥) الإبيشي، المستظرف، ج ١، ص ٢٥٣.
 - (٦) ابن خلكان، وفيات، ج ٦، ص ٣٥٩.
 - (٧) ترتون، أس. ، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٦، ص ١٨ وحامد شريف، أحوال غير المسلمين، ص ٨٠.
 - (٨) البلاذري، أنساب، ج ٨، ص ٢٤٣، و ٢٦٨.
 - (٩) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد (ت ٣٢٩/هـ ٩٤٠م) الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد بغداد، ١٩٨١، ص ٣٤٧.
 - (١٠) البلاذري، أنساب، ج ١٣، ص ٣١١.
 - (١١) البلاذري، فتوح، ص ٢٩٠.
 - (١٢) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٨١.

الخراج، التي تعتبر السلطة المالية في الدولة، والتي كانت أكثر الأحيان تُضم إلى الوالي، أو يتولاها رجل عامل غير الوالي يكون رقيباً عليه، الأمر الذي سبب خلافات بين الوالي وبين عامل الخراج، ولذلك قام عبيد الله بن زياد بتولية الخراج لدهاقين في شرق الدولة، وبرر عمله هذا بقوله: "... كنت إذا استعملت العربي كسر الخراج فإن أغرمت عشيرته أو قبيلته أو غرت صدورهم وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة" (١)، لكن الفساد لم يكن بعيداً عن هؤلاء الدهاقين أيضاً هذا ما أيقنه نصر بن سيار في خراسان، عندما رأى أن هناك مسلمين يدفعون الجزية على حين يُعفى منها كثير من غير المسلمين (٢). ولقد أدى تأخر تعريب الديوان في خراسان إلى ضعف المراقبة العربية للصيقة لهم، بل ربما أرادت السلطة الأموية التي استخدمتهم في تلك المناصب الإدارية منهم أن يصبحوا بطانة لها من خلال التأثير الذي مارسوه على صغار المزارعين فضلاً عن معرفتهم الجيدة بتلك البلاد وسكانها (٣)، ويبدو أن توصيات عمر بن عبد العزيز إلى عمال الخراج بحسن السيرة (٤) لم تنفع ودليل ذلك ما فعله زياد بن عبد الله بن المدان الذي أرسله خالد القسري عاملاً على خراج خراسان، لكن العامل، قال له بأن يدفع له ثلاثمائة ألف درهم ليتركه الوالي في عمله هذا، فكتب زياد إلى خالد بذلك فوافقه عليه (٥).

ولم يترك الخلفاء ولا ولاتهم وسيلة إلا اتبعوها من أجل زيادة ثروتهم على حساب القانون والأعراف والأخلاق ومن أجل ذلك أعاد عمر بن عبد العزيز بعد استخلافه الأراضي التي أخذها الأمويون من غير وجه حق وسماها المظالم، لكن ذلك لم يوقف الأمويين عن سيطرتهم على الأراضي، إذ استمروا في سياستهم هذه التي كانوا قد اتبعوها منذ البداية، فلقد انتشرت أراضيهم في أقاليم الدولة كافة، والتي سيطروا عليها بعدة طرق منها الإقطاع أو المصادرة وغيرها، كما أنهم تهربوا من دفع ضرائبها، وإن دفعوا فبنسب قليلة جداً، ولأنهم لم يسمحوا لعمال الخراج بأخذ الضريبة بأنفسهم بل كانوا يدفعونها هم، هذا الأمر دفع بالعديد من أصحاب الأملاك الكبيرة إلى إلقاء أراضيهم لأمراء أمويين، ومع مرور الزمن فقد هؤلاء الملاك حق ملكيتها فأخذها الأمراء (٦)، ولجأ بعض الخلفاء إلى الاحتيايل من أجل توسيع رقعة أراضيهم ومن ذلك ما فعله هشام بن عبد الملك قبل استخلافه فبعد أخذه لأرض دورين (في الجزيرة بين الشام والعراق) رأى أن هذه الأرض غير خصبة فسأل كاتبه عن الحل، فطلب كاتبه أربعمئة دينار مقابل ذلك فوافقه، فكتب الكاتب كلمة وقرأها بعد كلمة دورين وأمضاها في الدواوين (٧) وبذلك اتسعت رقعة الأرض.

ولقد طمع الولاة بضم أراضٍ كثيرة لهم على غرار خلفائهم، فوزعوا الأراضي على أسرهم وعلى من لهم

-
- (١) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣٧٤، وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٤٧٤، والدهاقين، الدهق من الشدة والضغط، ودهق لي من المال أعطاني منه صدراً، ودهقان، كلمة فارسية معربة، وتعني التاجر، ابن منظور، لسان، ج ١٠، ص ١٠٧.
- (٢) شاهين، حمدي، الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٤٠٨.
- (٣) فلوتن، ج، فان، السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية، ترجمة إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦، ص ٣٩.
- (٤) قطب، محمد إبراهيم، السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٠٨.
- (٥) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١١٣.
- (٦) العريني، السيد الباز، الإقطاع في الشرق الأوسط، منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي، حويليات كلية آداب عين شمس، المجلد الرابع، يناير، ١٩٥٧، ص ١٢١-١٢٢.
- (٧) البلاذري، أنساب، ج ٨، ص ٣٧٦، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٦١.

مصلحة معهم(١).

ويبدو أن الخليفة هشام استشاط في رغبة التملك، ويتضح ذلك من رواية البلاذري التي ذكر فيها أن هشام أراد شراء طواحين من رجل في عكا فلما رفض الرجل بيعها نقل هشام صناعة السفن إلى صور وأقام فيها فندقاً ومبانٍ أخرى(٢) وعلى الرغم من المبالغة في السبب الذي دعا هشام لنقل الصناعة من عكا إلى صور إلا أنه يدل على مدى جشع هشام في التملك ومعرفة الناس لذلك.

كما سلك الخلفاء طريق التملك العقاري ويلاحظ بالعودة إلى ما قاله اليعقوبي أن معاوية أول من استصفى الأموال لنفسه ، والصوافي هي ما يستصفيه الإمام من الغنيمة قبل القسمة ويرجع أصلها إلى أن الرسول ﷺ كان له صفي من كل مغنم(٣) ، وسميت بالصوافي لأن عمر بن الخطاب استصفاها أي جعلها خالصة لبيت المال(٤)، وتكون هذه الصوافي من الأراضي التي لم يكن لها ملاك عند الفتح، ولم يُعرف عن الخلفاء الراشدين أنهم استولوا على أية مساحة من أرض الصوافي لأنفسهم أو أنهم امتلكوا منها شيئاً باسم الخلافة بل كانت أرضاً تمتلكها الدولة، وتتفق غلتها فيرعها. إلا أن عثمان بن عفان منح معاوية عندما كان والياً على الشام، أرض الصوافي، وبعد أن أصبح معاوية خليفة قام بمسح شامل لأراضي الصوافي بالدولة واستولى على الكثير منها وحاز منها لنفسه، وأقطع أهل بيته وفي ذلك يذكر اليعقوبي أن معاوية أول من كانت له الصوافي في جميع الدنيا حتى بمكة والمدينة(٥) .

ولم يتوان حكام بني أمية عن استغلال سلطاتهم للتحكم بالأعمال التجارية أيضاً، فقد احتكر معاوية تجارة البحر(٦) كما شاع عن هشام تحكمه بالأسعار وبأوقات البيع حتى ينفق غلاته قبل الجميع(٧) والسياسة نفسها انتهجها باقي الأمويين وولاتهم فمحمد بن مروان بن الحكم استولى على سمك بحيرة الطريخ في أرمينية من دون وجه حق، وكان صيد الأسماك فيها قبله مباحاً للجميع، لكنه احتكرها، فباع السمك وأخذ ثمنه، وورث هذا الاحتكار لابنه مروان (٨) .

وتظهر صور أخرى للفساد مما كان يقوم به بعض الولاة والعمال من التلاعب والسرقات للأموال العامة، إلى درجة الكيد لبعضهم من أجل الأموال ومآرب أخرى، فعندما أراد عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد، السرقة خشي من صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج فيها، وكان صالح عند يزيد فسأل عمر كاتبه عن الحيلة التي تمكنه من التخلص من صالح، وبالفعل قاموا بالكتابة إلى يزيد متهمين صالحاً بأنه أعطى يزيد ابن المهلب مالاً بدون وصل يثبت ذلك، وبالفعل نجحت الحيلة في الإيقاع بصالح فتمت محاسبته وتعذيبه إلى أن مات(٩) وإلى جانب الاحتيال قام بعض الولاة بسرقة المال العام من بيوت المال والهرب به وكمثال على ذلك

(١) البلاذري، فتوح، ص ١٥٤ و ١٨٥ و ٣٤٦ و ٣٥٧.

(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٣) ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن السلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) كتاب الأموال، تحقيق أبو أنس سيد بن رجب ، دار الهدى النبوي، مصر، ط١، ٢٠٠٧، م١، ص ٤٩.

(٤) حافظ عبد الفتاح ، صفاء، ضباع بني أمية، في عصر الخلافة (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م) ١٩٩١، د.م، ص ٧.

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٦٧.

(٧) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٧، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٥٠، و ولهاوزن ، الدولة العربية، ص ٢٧٩.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٢٣، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٥٠.

(٩) البلاذري، أنساب، ج ٨، ص ٢٧٦.

سرقة صاحب شرطة قتيبة بن مسلم وكيع بن حسان للأموال(١) والفساد دب في هيكلية الشرطة أيضاً على الرغم من أن صاحب هذه المهنة يجب أن يتصف بالهيبة وحفظ الأمن وملاحقة المخالفين، لكن البعض منهم لم يراع مكانة هذه المهنة فارتشى من المسلمين الذين أدمنوا شرب الخمر، وتستر على بيعهم للخمر وشربه(٢) بالإضافة إلى تهريبهم للسجناء مقابل رشاوى ومن ذلك ما أخذه سجناء يزيد بن المهلب من أموال لقاء تهريبه من سجن عمر بن عبد العزيز(٣) وحتى عرفاء القبائل الذين أنيط بهم توزيع العطاء على قبائلهم، قاموا بالتلاعب بهذا العطاء إذ زادوا العطاء لأي فرد أرادوا، بحيث كان بإمكان العريف أن يعجل في تنفيذ الزيادة أو يؤخرها أو يعرقلها(٤)، كما كان بمقدوره أن لا يخبر عن حالات الوفاة ويستمر في دفع جزء من عطاء الموتى إلى أهلهم ويأخذ هو الباقي بالاتفاق معهم .

ولقد أنشأ الأمويون، كإجراء احترازي، داراً من أجل محاسبة المفسدين وسموها دار الاستخراج، وذلك أيام عبد الملك بن مروان، وعلى الرغم من إقامته لكنه لم يمنع استمرار الفساد في بنية الدولة، هذه الدولة التي كثيراً ما غضت الطرف عن انتهاكات الولاة الإدارية، واكتفت بأخذ نصف ما سرقوه، إذا قبلوا خضوعهم للمحاسبة أو أن يُطلب منهم دفع مبلغ من المال مقابل تركهم في عملهم ، ويتضح ذلك مما قاله معاوية بن أبي سفيان لعبد الله بن عامر واليه على العراق: " .. اختر بين أن أنتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك وأردك إلى عملك، وبين أن أسوغك ما أصبت وتعزل" فاختار الأمر الثاني(٥) ، كما أمر الحجاج يزيد بن المهلب بدفع مائة ألف درهم(٦) لكن العامل الذي يرفض المحاسبة يتعرض للعذاب في دار الاستخراج التي أقامها الأمويون، والتي لم تنتج هي الأخرى من المفسدين فيها، فعندما أحيل عبد الله بن المقفع(٧)(١٤٢هـ/٧٥٩م) إلى التحقيق في الدار قام برشوة صاحب الدار عندما زاد عليه العذاب كي يجنبه العذاب وبالفعل استجاب له(٨) ووصل الأمر إلى أن دفع بعضهم حياتهم ثمناً لما قام به من اختراقات للقانون، ومنهم بلال بن أبي بردة والذي سجنه يوسف بن عمر فطلب من سجنائه أخذ مبلغ من المال وقدره عشرة آلاف درهم مقابل تسجيل اسمه في سجل الموتى ، فوافق على ذلك، لكن يوسف بن عمر طلب رؤية الموتى فرجع السجن وأعلمه بذلك، فقال له: ويحك إنني أخاف القتل فأجابه : وأنا أخاف ما تخاف، فوضع على وجهه وسادة إلى أن مات(٩).

ولقد استغل بعض الولاة مهمة دار الاستخراج للانتقام ممن أرادوا ، فكان أول عمل يقوم به الوالي الجديد هو زج الموظفين القائمين على عملهم في السجن مع أتباعهم، والإفراج عن المعتقلين في العهد السابق لهم(١٠) إذا كانوا من أتباعه، هذا وتتضح معالم الفساد على أعلى المستويات عندما اشترى يوسف بن عمر ، خالد القسري من الوليد الثاني يفعل به ما يشاء.

-
- (١) ابن عبد ربه، العقد، ج١، ص٤٩.
 - (٢) طهوب، صلاح، موسوعة العصر الأموي، ص١٨٥..
 - (٣) البلاذري، أنساب، ج٨، ص٢٩٣.
 - (٤) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣٨-٣٩، ومصعب الزبيري، نسب قریش، ج٥، ص١٥٤
 - (٥) الطبري، تاريخ، ج٣، ص١٣٥.
 - (٦) الإبيشي، المستطرف، ج١، ص٣٠٠.
 - (٧) عبد الله بن المقفع: من أئمة الكتاب وأول من عني بالإسلام بترجمة كتب المنطق أصله فارسي ولد في العراق مجوسياً وأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح وترجم العديد من الكتب الفارسية إلى العربية، الزركلي، الأعلام، ج٤، ص١٤٠.
 - (٨) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص١٦٧-١٦٨.
 - (٩) البلاذري، أنساب، ج٩، ص٥٤.
 - (١٠) فولتن، السيادة العربية، ص٣٦-٣٥٠.

٣- عدم وجود سياسة ضرائبية ثابتة:

بقيت أطر القواعد العامة للمواد المالية للدولة العربية التي وضعها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون كما هي عليه في العصر الأموي، والسؤال المطروح هنا هل حافظ الأمويون على التطبيقات العملية في طريقة فرض الضرائب؟ وهل حافظت الضرائب على وضعها بدون زيادة؟

تدرج الإجابة في هذه الفقرة التي ستحدث عن موارد الدولة العربية الإسلامية ونسبية فرضها، ولا بد في البداية من معرفة أنواع هذه الضرائب التي تعد عصب الحياة الاقتصادية للدولة وهي الخراج (١) والجزية (٢) والزكاة (٣) والغنمة والفيء والعشور (٤) وهناك موارد أخرى تدخل بيت المال وهي الأموال التي لم يعلم لها مستحق كاللقطة ومال من يموت وليس له وارث، بالإضافة إلى الأموال التي يصلح عليها المسلمون أعداءهم (٥)

هذه هي القواعد الأساسية للضرائب الإسلامية، فلماذا لم يلتزم بها الأمويون؟ لقد قام الأمويون في أحيان كثيرة بمحاولات عملت على تغيير هذه القواعد وكان سبب ذلك حاجة الخلفاء إلى المال لتدعيم الدولة وتسكين الفتن وإشباع الرغبات، إذاً لم يعتمد الأمويون على سياسة موحدة ونظم أساسية لطريقة جباية الضرائب، فما يؤخذ على معاوية بن أبي سفيان أنه أحل الغنائم ولم يتبع القاعدة الأساسية فيها حينما طلب من عامله على خراسان الحكم بن عمرو أن يصطفي له الذهب والفضة والروائع، لكن الحكم رفض ذلك وقام بعزل الخمس ثم قسّم الباقي بينهم (٦)، كما أمر معاوية عامله على خراج مصر وردان أن يزيد على كل رجلٍ من مصر قيراطاً فأجابه وردان كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزداد عليهم (٧)، ورغم هذا الجواب فإن معاوية على ما يبدو قد أمر بهذه الزيادة (٨).

و مما يدل على عدم وضع الدولة الأموية أساس ثابت للضريبة ما قاله عمرو بن العاص عندما سأله عامل إخنا وهي إحدى كور مصر، أن يحدد مقداراً ثابتاً للجباية يجمع كل عام فقال عمرو له رافضاً ذلك: «إن كثر علينا كثر عليكم وإن ضعف عنا ضعفنا عنكم» (٩) ومعنى ذلك أن يجبي ما تطلبه منه الخلافة.

كما حدثت تجاوزات كثيرة في عهد عبد الملك بن مروان منها: أنه استقل ما كان يؤخذ من أهل الجزيرة

(١) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٦٩، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٩٨.

(٢) ابن يوسف، الخراج، ج ٢، ص ١٢٤، و ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف البكري، وشاكر العاروري، الرمادي للنشر، الدمام السعودية، ط ١، ١٩٩٧، ص ١٦١.

(٣) الموصلي الحنفي، عبد الله محمود بن مودود (ت ٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، الاختيار بتعليل المختار، تحقيق محمود أبو دقيقة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج ١، ص ٩٩.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية ص ١٦٢، و الناطور، شحادة و عودات، أحمد و بيضون، جميل، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، دار الأمل للنشر، إربد الأردن، ط ١، ١٩٨٩، ص ٢٤٩.

(٥) إبراهيم، حسن و إبراهيم، علي، حسن، النظم الإسلامية، ص ١٧١.

(٦) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢١٦-٢١٧.

(٧) ابن سلام، الأموال ٢٤٨-٢٤٩ والقيراط هو جزء من الدينار وهو نصف عشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزء من أربعة وعشرين، ابن سلام، الأموال، هامش الصفحة ٢٤٩.

(٨) الرئيس، الخراج، ص ١٩٠، و بطاينة، محمد ضيف الله، الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي، إربد، دار طارق، عمان، ص ١٤٥.

(٩) ابن عبد الحكم، فتوح مر، ص ٢٠٧، و شاهين، عبد الصبور و الرفاعي، إصلاح عبد السلام، مصر في الإسلام، دار أنباء، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٧٧.

السورية فأرسل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري فأحصى الجماعم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحمل في السنة لكل واحد أربعة دنائير فألزمهم ذلك جميعاً^(١) ويبدو أن هذا القرار طبق في الشام وفي الموصل أيضاً^(٢). كما أعاد عبد الملك النظر في الخراج المفروض على الغلات الأساسية وهي القمح والكروم والزيتون وزاد عليها فريضة إضافية^(٣). وقام واليه على مصر عبد العزيز بن مروان بإحصاء الرهبان وفرض دينار في السنة على كل راهب، وكانت هذه أول جزية تؤخذ من الرهبان حيث كانوا معفون من الجزية^(٤). أما في اليمن فقد قام محمد بن يوسف الثقفي واليهما - وهو أخو الحجاج الثقفي - بفرض خراج على أهلها وجعله وظيفة عليهم^(٥). أي استمرار هذا الأمر عليهم. كما قام أخوه الحجاج بفرض الجزية على من أسلم من أهل العراق وفارس^(٦).

ويذكر أن قره بن شريك فرض على البلاد مئة ألف دينار سوى خراجها المعروف^(٧)، وإن صح هذا القول فهو يدل على وجود ضرائب إضافية أخرى فرضت، وإن لم يشر إلى ذلك، وربما دلّ على ذلك ما جاء في أوراق البردي المتعلقة بالضرائب بين عامي (٨٠-١٠٠هـ/٦٩٩-٧١٨م) والتي تقدم قوائم عما كان يدفعه الأشخاص بالإضافة إلى إنذارات بدفع الضرائب والطلبات المالية التي تقتضيها المصلحة العامة من الأفراد كطلب أولي الأمر في عام (٩١هـ/٧٠٩م) سبعين قميصاً كل واحد بربع دينار وذلك جزية لأمير المؤمنين، كما تظهر طلب الوالي مواد مختلفة لإعانة العمال المسلمين والنصارى وغيرهم، وأجور البحارة وكذلك عمال بيت المقدس وعمال دمشق، أي ازدياد في نسبة الخراج بين عامي (٨٠-٩٢هـ/٦٩٩-٧١٠م) وطلبات معينة للدولة^(٨). وربما يؤكد ذلك ما كتبه سليمان بن عبد الملك إلى أسامة بن زيد التنوخي عامل الخراج بمصر «احلب الدرّ حتى ينقطع، فإذا ما انقطع فاحلب الدم حتى ينصرم»^(٩). ونتيجة لذلك لجأ الأهالي إلى الهرب كنوع من المقاومة السلمية للمطالب المالية المتزايدة التي تطالبهم بها الإدارة الأموية سواء في صورة الضرائب العادية أو الضرائب الاستثنائية^(١٠).

وتبين مما قام به عمر بن عبد العزيز مدى الخلل الذي طرأ على السياسة الضرائبية في العصور التي سبقتهم فعمر خطأ الخطوة الأولى من نوعها في العصر الأموي، حيث أراد إعادة الأمور إلى ما كانت عليه وقيامه بالإصلاح، حيث حاول إلغاء ما فرض من ضرائب إضافية فيما سبقه ومما أيضاً قام به أنه ألغى الجزية عن أسلم في كل من العراق^(١١) ومصر وكذلك في خراسان وقال لهم: «إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه

(١) أبو يوسف الخراج، ج١، ص٤١.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ج١، ص٤١.

(٣) الدوري، عبد العزيز، نظام الضرائب في الإسلام، بحث نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد٤٩، عام ١٩٧٤، ص٥٤.

(٤) الرئيس، الخراج، ص٢١٧.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٨٤.

(٦) الخربوطلي، علي حسني، الإسلام وأهل الذمة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٣٧.

(٧) كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص٥٩.

(٨) خماش، الشام في صدر الإسلام، ص٣١٢.

(٩) حبيب، سعد عبد السلام، عمر بن عبد العزيز، دار الفكر العربي، بيروت، ص٢١، والدر هو اللين، الرازي، مختار الصحاح، ص٨٥، وينصرم أي ينقطع، ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٣٣٨.

(١٠) صالح، أمين، دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية (عصر الولاة) مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٩٧٥، ص٧١.

(١١) أبو يوسف، الخراج، ج١، ص٥٩.

خاتماً»(١)، ذلك لأن الولاة أرادوا اختبار من يدخل الإسلام بالختان، كما ألغى عمر الوظيفة التي فرضها محمد ابن يوسف الثقفي على أهل اليمن(٢). ومن إصلاح عمر أنه أبطل الكسور عن أهل الخراج، وهذه الكسور هي فرق العملات، حيث كان الناس قبل تعريب عبد الملك للعملة يتعاملون بنقود مختلفة الأوزان وكان الناس يدفعون الخراج بالعملة الأقل وطالبهم زياد بن أبيه بأداء الوافي وأكرمهم بالكسور ويبدو أن الحجاج بعد أن ضرب العملة على يد عبد الملك الذي ترك المثقال على حاله وأعاد الحجاج بالمطالبة بالكسور فأسقطها عمر بن عبد العزيز(٣)، وأبطل كذلك عمر بن عبد العزيز العديد من التجاوزات في الضرائب منها هدايا النيروز والمهرجان وهما عيدان من أعياد الفرس كانوا يقدمون فيها الهدايا وهي جزء من النظام المالي في الإمبراطورية الساسانية(٤). وبقيت قائمة إلى أن أبطلها عمر بن عبد العزيز(٥).

ومما يدل على زيادة في ضريبة العشر ما كتبه عدي بن أرطاة من البصرة إلى عمر بن عبد العزيز يذكر فيه أن عشور الخمر بأربعة آلاف درهم، فأنكر عمر ذلك عليه وأمر بردها(٦). وكثيرة هي الأمور التي ردها عمر إلى جادة الصواب منها ما ألغاه من دراهم للنكاح وأجور صغار الكتبة وثمان الصحف وغيرها(٧) مما كانت تفرض، وربما لم تصل إلى بيت مال. وسرعان ما ذهب هذا الجهد من قبل عمر هباء الريح بعد موته واستخلاف يزيد بن عبد الملك الخلافة، الذي ما إن تولى حتى طالب بكسور الخراج التي كان عمر قد ألغاهها وأعاد وظيفة الخراج على أهل اليمن(٨)، وأعاد السخرة والهدايا بما فيها النيروز والمهرجان(٩).

واستمرت الضرائب على هذا الحال من التذبذب بين وضع ورفع ففي عهد هشام بن عبد الملك زاد خراج مصر بعد أن ولي عبيد الله بن الحباب السلولي على خراجها على كل دينار قيراطاً أي 1/2 من الدينار، حيث كتب الحباب إلى هشام يقول له إن أرض مصر تحتمل الزيادة (١٠) وكان هذا مع غيره من العوامل الأخرى المحرك الأساسي لثورة الأقباط (١١٢٢هـ/٧٣٩م). هذا بالإضافة إلى إحصاء السكان الذي قام به والي مصر الوليد بن رفاعة النهمي سنة(١٠٩هـ/٧٢٧م)، وبذلك أصبحت جباية مصر بعد هذا التعديل أي الذي استند إلى مسح الأرض وإحصاء السكان تبلغ ٤ ملايين دينار وهو ما لم يُجب من مصر في عهد خليفة من خلفاء بني أمية، فلقد كان خراج مصر في عهد معاوية ٣ ملايين(١١). كما وعادت مشكلة أخذ الجزية عن أسلم حيث قام والي هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمي برفع الجزية عن كل من أسلم أولاً وسرعان ما أعاده لأن الخراج انكسر(١٢).

-
- (١) الطبري، ج٤، ص٦٤، وابن الاثير، الكامل، ج٤، ص٣٢١.
 - (٢) أبو يوسف، الخراج، ج١، ص٥٨.
 - (٣) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٠٤.
 - (٤) الجاخط، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، ص١٤٦.
 - (٥) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٤٤.
 - (٦) ابن سلام، الأموال، ص١١١.
 - (٧) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٧٠.
 - (٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص٨٤، و ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٣٣١.
 - (٩) أبو النصر، عمر، الأيام الأخيرة للدولة الأموية، ص١٢٨..
 - (١٠) المقرئزي، الخطط، ج١، ص٢٣١٠.
 - (١١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢٣٣، ٢، و المقرئزي، الخطط، ص٢٧٠، و بطاينة، الحياة الاقتصادية، ص١٤٩.
 - (١٢) الرئيس، الخراج، ص٢٥٢.

فالإجابة عن التساؤلات وكما وضحته المعلومات إذاً مفاده بأن السياسة الضرائبية لم تسر على وتيرة واحدة في العصر الأموي، فبعض الخلفاء كعماوية وعبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام زادوا في مقدار الضرائب بل استحدثوا بعض الضرائب من أجل زيادة إيراد بيت المال، ويمكن معرفة مدى تلك التجاوزات من خلال ما قام به عمر بن عبد العزيز من إلغاء لتلك الزيادات، والعودة إلى الأسس التي كانت متبعة زمن الخلفاء الراشدين وبالطبع أثرت تلك الضرائب الإضافية على السكان سواء أكان في مصر أو خراسان وغيرها سلباً حتى أنهم اضطروا للهرب من ثقل وطأة تلك الإضافات.

٤- استخدام المال العام لصالح الخلفاء والولاية :

إن الضرائب التي مرّ الكلام عنها هي ما يأتي بيت المال أو خزينة الدولة التي تحفظ فيها الأموال حيث يتصرف الخليفة فيها بحسب ما يراه مناسباً لتدعيم أسس الدولة وللفتح وللإنفاق العام، ولكن الأمويين تهادوا في الإنفاق الخاص سواء على حوائجهم أم حوائج خاصتهم وكذلك لكسب الأنصار والمؤيدين ولإسكات المعارضين وبالتالي لم تكن هناك قاعدة يتبعها الخلفاء ولا حتى ولاتهم تلزمهم بحدود معينة للمصاريف حيث كانت هذه النفقات مفتوحة يهبها الخليفة أو صاحب الأمر لمن يشاء، فالأمويون رأوا بأن المال لهم كما هي السلطة ولا أحد يسألهم عن تصرفاتهم بها، هذا ما أكدته معاوية حينما قال «المال مال الله» (١) فالخليفة هو صاحب الأمر في توزيع هذا المال، وكثيرة هي التجاوزات التي قام بها الأمويون وولاتهم سواء للسياسيين أم لأصحاب النفوذ أو للشعراء كدعايات إعلامية لأغراضهم وغير ذلك من هبات وصلات لا تعدُّ ولا تحصى. فإذا بلغت أخرجة مصر والشام والعراق وما يليه على زمن معاوية وسطياً ٥٦٠ مليون درهم عدا خراج إفريقية والمغرب والأندلس (٢) وإذا استثنى العطاء لجند الشام وللمخلصين لهم، فإن إنفاق الأمويين كان مركزاً على خواصهم وفيما يرونه مناسباً لصالحهم.

وسيتّم التطرق لبعض النماذج من هذه التجاوزات لأنها كثيرة وليس الغرض هنا إحصاءها كلها بقدر ما هو بيان لها : فمعاوية اشتهر بالحلم والدهاء ورأى أن خير أسلوب لكسب المؤيدين هو المال، فراح يهب من يقد عليه مهما كان وضعه فلقد أعظم جائزة أبي الأسود الدولي لما دنا مجلسه (٣)، وأسكت الأصوات المعارضة على أفعاله حيث أعطى مالك بن هبيرة السكوني ١٠٠ ألف درهم مقابل سكوته عن مقتل ابن عمه حجر بن عدي سنة (٥١هـ/٦٧١م) أي إنه اشترى الضمان بماله الوفير، كما اعتبر أن أموال الولايات ملكاً له يوزعها بالطريقة التي يراها مناسبة له فلقد حار في أمر عزل واليه على البصرة عبد الله بن عامر لتساهله فرجاه رجاء الصديق أن يعتزل عمله وأعطاه مقابل ذلك ما أصابه من بيت المال (٥)، كما وزع أحياناً خراج بعض الأجناد لمن يقضي له حوائجه الخاصة، إذ منح خراج حمص لابن أثال مقابل قيامه بسمّ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد (٦) الذي كان يخشى منه على الحكم، ويعبر معاوية عن سعة بذله لمال المسلمين لإرضاء غاياته وأغراضه بقوله: «البذل يقوم مقام العدل» (٧)، كما يقول معترفاً بترفه بالمال «رحم الله أبو بكر لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، أما

(١) الطبري، ج ٢، ص ٦١٥، وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ١٠.

(٢) بطاينة، الحياة الاقتصادية، ص ١٧٥.

(٣) الذهبي سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٨٢.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣١٣.

(٥) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٩٩.

(٦) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٠٢. وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٩٣.

عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب الدنيا وأصابته منه أما نحن فمرغنا بها»(١) .

ولم يكن يزيد الذي ورث الخلافة عن أبيه بأفضل حالٍ من معاوية حيث سعى إلى بذل المال ليثبت سلطانه ويوطد حكمه فعندما استقبل وفداً من أهل المدينة أكرمهم وأمن إليهم وأغدق عليهم العطايا الفاخرة سنة (٦٢٢هـ/٦٨١م) (٢) ولكن هذا البذل لم يقضِ غرضه حيث عاد الوفد إلى المدينة وذموه، كما بالغ يزيد في إسرافه بالمال إلى درجة السفه، حيث أعطى لعبد الله بن حنظلة الأنصاري ١٠٠ ألف درهم وكان لعبد الله هذا ثمانية بنين فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف (٣) ، ولما قدم عليه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال له: كم عطاؤك ، قال له: ألف ألف، قال قد أضعفناها لك، قال فذاك أبي وأمي وما قتلها لأحد قبلك، قال أضعفناها ثانية(٤) ومع أن عبد الملك بن مروان قال في خطبته التي ألقاها في المدينة « كان من قبلي من الخلفاء يأكلون المال ويوكلون»(٥)، فإنه لم يكن أصلح مما سبقه في تبديد المال العام على أغراضه الشخصية وخاصة على الشعراء، حيث وفد عليه عبد الله بن عمر بن مخزوم فامتدحه فأجازه بمالٍ جزيلٍ(٦). وعندما كان يعجبه المدح كان يفرح ويقول: «من يلومني على هذا » لأنه يأمر بإعطاء صلة كبيرة لشاعره، هذا ما فعله مع أعشى ربيعة (٧) وكذلك فعل مع الأخطل شاعره المفضل (٨).والذي مدحه قائلاً:

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجد يومٌ باسلٍ ذكرُ

شمس العداوة حتى يُستقاد لها وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا(٩)

ومع أن هشام بن عبد الملك رُمي بالبخل ، فإن المحاباة وصرف الجوائز كان لها نصيبها عنده، فقد أمر بالصلة في أكثر من مرة ومنها أنه وصل المطلب بن عبد الله المخزومي المدني لما وفد عليه بـ ١٧ ألف دينار في سنة (١٢٠هـ/٧٣٧م) (١٠)، ولقد حاول الوليد بن يزيد بن عبد الملك إعطاء صورة مناقضة لصورة هشام بن عبد الملك الذي كان يجافيه، وذلك بأن أكرم من وفد إليه من أهل بيته، وضاعف لهم في الجوائز(١١)، وكانت المبالغة في سياسة الإسراف وبالأعلى بيوت المال.

ولم يكن الولاية بأحسن حال من خلفائهم، وكما يقال الناس على دين ملوكهم، هكذا كان أكثر ولاية بني أمية يستأثرون بالمال ويصرفونه كما يشاؤون بل كلّ منهم جعل لنفسه إمارة مصغرة عن الخلافة في كل شيء، ولذلك بذلوا الأموال في الاسترضاء، وفي البذخ لإعلاء شأنهم، مع أن القاعدة المتبعة كانت تقوم على تخصيص

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ، ومرغ أي أشبع بالدهن، والمتمرغ هو الذي يصنع نفسه بالأدهان، ابن منظور، لسان، ج ٨، ص ٤٥٠.

(٢) ي ، هل ، الحضارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي وحسين مؤنس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص ٦٤.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم ، ج ٣، ص ٣٥٩، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٣٢٢.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٣٢١.

(٥) ابن خياط، تاريخ ابن خياط، ص ٢٧٣.

(٦)الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ١٥٠.

(٧) أعشى ربيعة هو عبد الله بن خارجة بن شيبان كان شاعر شديد التعصب لبني أمية ، التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي(ت٥٠٢هـ/١١٠٨م) ديوان الحماسة، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، ج ٢، ص ٣٦٧

(٨) HELL, Joseph ,The Arab civilization ,United publishers VII 1973 ,P61

(٩) ناصر الدين، مهدي، ديوان الأخطل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤، ص ١٠٤-١٠٥.

(١٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣١٧.

(١١) العشي، عمار، بلاد الشام، م ٢، ص ٣٧٢.

الأموال التي كانت تُجنى من كل ولاية في مصالحها ومصالح المقاتلة فيها. ولقد كتب عبد الله بن عمر والي العراق لمعاوية لرجل بخمس مئة ألف وكان يقصد خمسين ألف درهم فراجعه الخازن في ذلك فقال له : أنفذه، فما بقي إلا نفاذه ، وإن خروج المال أحب إليّ من الاعتذار(١) فعبد الله رأى أن إسراف المال أسهل عليه من رجوعه عن خطأه ولقد جعل زياد بن أبيه لنفسه استقلالية حتى في الأمور المالية حيث اتخذ خمسمائة رجل من مشيخة أهل البصرة لجعلهم في صحبته، وكان يوزع عليهم بين ٣٠٠-٥٠٠ درهم، كما أعطى كل عامل من عماله ١٠٠٠ درهم وجعل لنفسه ٢٥ ألف درهم (٢) . وكذلك شبّ ابنه عبيد الله على ادخار أموال الدولة لصالحه، حيث أخذ بعد هربه إثر الفتنة بعد موت يزيد بن معاوية من العراق تسعة عشر ألف ففرق بعضها في مواليه وادخر الباقي لآل زياد(٣) . كما اتصف الولاة من أمراء بني أمية بالكرم الذي كان ماله من الدولة من أمثال بشر بن مروان والذي كان يوزع في أكثر الأحيان الأموال للتسلية، حيث كان يغري بين الشعراء إلى درجة إثارة الأحقاد بما يوصلهم إياه من المال(٤) . وقد بالغ أمية بن خالد عبد الله بن أسيد والي عبد الملك على خراسان في إنفاق الطعام حتى قال: «ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي»(٥) .

والمنتبع لأخبار تعذيب الولاة بعد عزلهم يرى المبالغ الضخمة التي يُطالبون بها ومن ذلك ما أخذ يوسف بن عمر الثقفي من خالد القسري وأهل بيته وعذبهم حتى استخلص منهم تسعين ألف درهم(٦) ، ثم أرسله إلى دمشق، ولم تكن سمعة خالد القسري بشأن الإسراف بأحسن حال من غيره حيث أظهر إسرافاً في المال إذ أنفق في عيد الأضحى المبارك وحده اثني عشر ألف درهم حسبها من بيت المال(٧). وعلى ما يبدو أن ثروة الولاة بلغت حداً كبيراً حتى استطاع يوسف بن عمر الثقفي شراء خالد القسري من الوليد بن يزيد بـ ٥٠ ألف درهم(٨) بل بلغ به الأمر أن اشترى ولاية خراسان من الخليفة نفسه(٩)، وإن لم تتم الصفقة ولكن هذا يدل على وفرة المال في أيدي الولاة وعلى تنذيرها.

إذاً فالأمويون اعتبروا أن سلطتهم تخولهم صرف المال دون وضع آلية محددة لذلك فهم انطلقوا من مبدأ القوة والسلطة التي حكموا بها لذلك أرادوا تجسيد هذه القوة في تصرفاتهم غير مكثرين برأي المعارضة والشرع التي نادى بالمساواة.

وبعد هذا يمكن وصف الأمويين بالحكام المهرة الذين استطاعوا- ورغم حداثة دولتهم وظروفها الصعبة التي نشأت فيها- بخبرتهم البسيطة اختيار ولاة مكنوهم من فرض هيبتهم وسلطتهم على مساحة الدولة العربية الإسلامية، وفي كل الأقاليم، كما استطاعت الدولة الأموية رسم ملامح الدولة الجديدة وذلك بتأسيسها لدواوين تخدم الدولة في كل المجالات، واستطاعت هذه الدولة تركيز أسس جديدة في الإدارة لم تكن قبلها، وإن كان الأمويون قد أعطوها صفة الرسمية والدعم بشكل يتناسب ومتطلبات دولتهم، واستطاعت الدولة الأموية بفضل

(١) الإبشهي، المستطرف، ج١، ص٥٠٩.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص١٩٩.

(٣) الرئيس ، الخراج ، ص٢٠٠.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٦، ص٣٣٢-٣٣٠.

(٥) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٦٠٦.

(٦) الحمشياري، الوزراء والكتاب، ص٦٣-٦٤، و الرئيس ، الخراج، ص٢٥٠.

(٧) الرئيس ، الخراج، ص٢٤٩.

(٨) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٨٦.

(٩) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٣٠.

قيامها بتعريب الحياة العامة، انتزاع اسم الدولة العربية وبجدارة، وتجلت هذه الجدارة بمعرفتهم لأهمية الشام كونها بلد المواجهة في وجه الدولة البيزنطية ، لذلك أحكموا إدارتها وذلك من خلال تقسيمها ، أو الحفاظ على تقسيماتها الإدارية السابقة ، مع بعض التعديلات اللازمة. ولأن الدولة الأموية دولة محاربة وتحمل رسالة فتوحات فقد حرصت على دعم جيشها البحري والبري وبمختلف الوسائل والتنظيمات. ولأن القضاء يمثل مرآة الدول، فقد انعكست في هذه المرآة الصورة الواضحة للدولة فيما يخص النزاهة والحياد في الكيان القضائي للدولة ، والذي دعمه خلفاء بني أمية.

وعلى الرغم مما امتازت به الدولة الأموية على هذا المستوى من الوعي الإداري، إلا أن الهفوات تخللت إلى هذه الإدارة ومنها إغفالهم لولياتهم عن قصد أو غير قصد، والسماح لهم بتجاوز صلاحياتهم، وبالتالي الإساءة إلى الدولة، هذه الإساءة التي تركزت بالفساد الذي استشرى في جسم الدولة والتي لم يكن حكامها باستثناء، عمر بن عبد العزيز، بأحسن حال من بقية عماله، فلقد سلكوا معظم السبل لزيادة ثروتهم وثروة أسرهم، ولو كان هذا على حساب المال العام الذي بذروه في مسائل لا تمت للحكم بصله، ناهيك عن الاضطراب الذي كان يحدث لجباية الضرائب التي كثيراً ما أثقلت كاهل الناس فضاقوا ذرعاً بدولتهم.

الفصل الثالث: مظاهر القوة والضعف في المجال الاجتماعي:

أولاً : مظاهر القوة في المجال الاجتماعي:

- ١- النظرة الإيجابية إلى الآخر (غير المسلمين).
- ٢- النظرة الإيجابية إلى المرأة.
- ٣- التأكيد على قضية المواطنة للحفاظ على وحدة المجتمع.
- ٤- ظاهرة التعاون والتفاهم بين جميع أتباع الديانات .
- ٥- حرية المعتقد.
- ٦- انتشار الفنون وحرية ممارستها.
- ٧- الاهتمام بالشؤون الصحية.

يستوقف الحديث عن الجانب الاجتماعي في العصر الأموي احترام الأمويين للعروبة من خلال التعامل مع مواطنيها وفق مصلحة الوطن العليا، إذ احترم الأمويون الحريات الاجتماعية والدينية لرعاياهم، معتبرين أن الجميع مواطنين في الدولة، وأن الدولة العربية الإسلامية هي دولة ذات حكم سياسي ببناء للمجتمع والذي يكتمل باحترام حقوق المرأة وكيانها. هذا بالإضافة إلى الانفتاح الحضاري الذي مثله الأمويون بسماحهم للفنون بالانتشار تحت مظلة الأخلاق العامة، كما أنهم لم يغفلوا الجانب الصحي لما يمثله من الانعكاس الحضاري للدولة.

لكن التشبث بمفهوم الدولة العربية لدى الأمويين كان له انعكاسه على المسلمين غير العرب ، إذ إن الأمويين أسأؤوا ربما عن غير قصد لهؤلاء بداعي الحفاظ على دولتهم العربية من تدخلات تطيح بمفهوم قوميتهم التي آمنوا بها فجاء سلوكهم مع غير العرب ليصب في خانة الدفاع عن هذه القومية.

وإذا كان الأمويون قد سمحوا للفنون بالتغلغل في مجتمعهم ، لكنهم على ما يبدو تبادوا في السماح لبعض مظاهر المجون بالتضخم إلى درجة وصولها إلى حد العبث والبذخ، الأمر الذي لطخ سمعة بعض الخلفاء، الذين غالوا في مجونهم، كما أسأؤوا إلى الدولة من خلالها.

١- النظرة الإيجابية إلى الآخر (غير المسلمين) :

الآخر هذه المفردة التي ينضوي بين جنباتها العديد من المعاني، والتي تدل بمجملها على غير المسلمين في الدولة العربية الإسلامية، لأن من استجاب لدعوة الإسلام وأمن برسالة محمد ﷺ فهو مسلم، ومن لم يستجب لها ولم يؤمن برسالته فهو غير مسلم، وهكذا ينقسم البشر في نظر الشريعة الإسلامية إلى فريقين كبيرين فريق المسلمين وفريق غير المسلمين.

لقد جرى العرف الإسلامي إذاً على تسمية المواطنين من غير المسلمين في المجتمع بأهل الذمة أو الذميين والذمة تعني العهد والعقد، وتعني الكفالة والضمان والأمان، كما يسمى أهل الذمة أهل العقد أو العهد، وهم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيمون في دار الإسلام (١) من مجوس وسامرية وصابئة (٢) ، ومهما كان الاختلاف حول تسمية غير المسلمين في الدولة العربية الإسلامية من أهل الكتاب والتي قيل أنها تقصد النصارى واليهود أصحاب الكتب السماوية (٣) وربما زاد عليها جميع رعايا الدولة من غير المسلمين (٤) . إذاً كيف كانت نظرة المسلمين إلى هؤلاء الرعايا في العصر الأموي؟ وخاصة بعد ما رحّب أهل الذمة بالعرب المسلمين عندما فتحوا الأمصار المختلفة، حيث أمل أهل الذمة في الخلاص من الانقسامات الدينية والمذهبية

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، ج ١٤، ص ٢٨٩-٢٩٩، ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص ٣١٢

(٢) المجوس : هم قوم يعظمون الأنوار والنيران ويدعون بنو زرادشت ، وهم فرق شتى و يرون الاشتراك في النساء والمكاسب ، زيدان ، عبد الكريم، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٢، ١٩٨٢، ص ١١ . الصابئة هي من صبا أي مال وزاغ والصبوة هي الانحلال أي إذا خرج من شيء إلى آخر، الحمد، محمد عبد الحميد، صابئة حران وإخوان الصفا، الأهالي لطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢٥ . والسامرة: هم قوم من اليهود سكنوا جبال بيت المقدس وقرايا من أعمال مصر وهم يتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود ، الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٩٨ .

(٣) الشيرازي، الإمام أبو محمد اسحق ابراهيم بن علي الشافعي (ت ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م) المذهب ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٢٤ ، ج ٢، ص ٤٧ .

(٤) النجار، عبد الوهاب ،قصص الأنبياء مطبعة مصر، ط ٤، ١٩٥٥ ، ص ٢٠٧ .

والخلاص من حكمهم(١) بعدما رأوا السياسة العربية المعتمدة على القرآن الكريم والتي أقرت بحق الشعوب الخاضعة لسلطانها بالمحافظة على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، بل أقر الإسلام بضرورة التعايش والانسجام وحسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوارح مع غير المسلمين. وتتجلى هذه الروح الطيبة في القرآن الكريم ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٢) كما برزت هذه السماحة في معاملة الرسول محمد ﷺ لأهل الكتاب، حيث كان يزورهم ويكرمهم ويحسن إليهم ويعود مرضاهم ويأخذ منهم ويعطيهم. كما أنزل الرسول الكريم وفد نصارى نجران في المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه فكانوا يصلون في جانب منه ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر(٣)، كما بلغ تسامح الرسول القمة عندما مرت جنازة فقام لها فقيل له إنها جنازة رجل يهودي فقال أليست نفساً(٤) .

وعلى هدي الرسول سار خلفاؤه من بعده، فها هو عمر بن الخطاب يوصي وهو على فراش الموت بأهل الذمة خيراً فقال: أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وألا يكلفهم فوق طاقتهم(٥)، ومما يدل على تأكيد عمر لذلك عهده معهم ومنها عهده لأهل حمص(٦) والقدس(٧) كما تمتع أهل الذمة في عهد كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب بما تمتعوا به في عهد عمر بن الخطاب من تسامح وعدل وأمن(٨) .

وبعد انتهاء العصر الراشدي هل تابع الأمويون تلك السياسة السمة مع غير المسلمين؟ وكيف قيّموا أبعاد تلك السياسة؟ لقد أكمل الأمويون هذه السياسة بالنسبة للأقليات، وإذا تم اعتبار معاملة الأقليات مقياساً للتحضر فالأمويون يسجلون علامة فارقة في هذا الموضوع لأن احترامهم لهؤلاء الذين لا يجاروهم في القوة بحكم العدد والتي تخالفها في العقيدة الدينية يعبر عن قوة هذه الدولة .

لقد شملت سياسة معاوية الموصوفة بالتسامح مع غير المسلمين في الدولة العربية الإسلامية أيضاً حتى أنهم شعروا في عهده برضاء لا يقل عما كانوا عليه في حكم البيزنطيين(٩)، فقد عين لولده يزيد مربيّاً مسيحياً هو يوحنا الدمشقي(١٠)، كما نظر إلى مقدسات المسيحيين نظرة احترام وتقدير حيث صلى عند جبل الجلجلة ببيت المقدس، ثم صلى عند قبر مريم العذراء كما استقبل رجال الدين المسيحيين وأكرمهم(١١)، وكان موقف معاوية من أهل الذمة مثل باقي المسلمين موقف ود وتحبب مصدره إيمان المسلمين بالأنبياء الذين تقدموا

(١) خربوطلي، علي حسني، الإسلام وأهل الذمة، ص٦٦. و أرنولد، توماس . و. ، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المحيد عابدين واسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص٧٤.

(٢) سورة الممتحنة، الآية ٨.

(٣) هويدي، فهمي، مواطنون لا ذميون، ص٦٦.

(٤) الذهبي، ادوار غالي، معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة غريب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣، ص٢٩.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٤، ص٤٣٧، ويحيى بن آدم القرشي(ت٢٠٣هـ/٨١٧م) الخراج، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٧، ص١٠٩.

(٦) الواقي، محمد بن عمر أبو عبد الله(ت٢٠٦هـ/٨٢١م) فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، ص١٠٩، و ابن أعمش، الفتوح، ج١، ص١٧٠.

(٧) ابن الأعمش، الفتوح، ج١، ص٢٢٢.

(٨) الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٢٨.

(٩) ولهاوزن، الدولة العربية، ص١١.

(١٠) خربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص١٢٨. و إدوار، معاملة غير المسلمين، ص١٠٧.

(١١) ولهاوزن، الدولة العربية، ص١٧٤.

محمد ﷺ وبرسالاتهم السماوية، وجسد هذا الموقف معاوية عندما أمر بإعادة بناء كنيسة الرها التي هدمها الزلزال (١) في عام (٤٣٣هـ/٦٦٣م) ويبدو أن يزيد بن معاوية تربي على نهج والده من مؤاخاة أهل الذمة والتعامل معهم بإنسانية وبروح الإسلام حيث كلف كاهناً مسيحياً بتنظيف ولده خالد (٢). وهاهو ذا عبد الملك يضرب مثلاً على التقرب من أهل الذمة وإرضائهم وطلب مودتهم ، فلقد اختار عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى أثناسيوس مؤدباً لأخيه عبد العزيز ، فرافق أثناسيوس هذا تلميذه إلى مصر (٣)، وأقام عبد الملك في الرها أيضاً كنيسة للتعميد (٤) ، ولكي لا يغضب المسيحيين عدل عن فكرة إدخال كنيسة يوحنا بدمشق في الجامع (٥) ، كما أنه كان يحترم شاعر قبيلة تغلب المسيحية الأخطل وكان يقول عنه شاعر أمير المؤمنين (٦)، بل كان الأخطل يدخل المساجد في دمشق والكوفة فيقف المسلمون له إجلالاً (٧). ولم يُحرم الذميون من عدل عمر بن عبد العزيز ورحمته، وطالما أنه اعتبر خليفة راشدي خامس فقد عمل على تطبيق الشريعة الإسلامية التي حضت على معاملة أهل الذمة بالحسنى، فقد أمر عماله ألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صلح أهل الذمة عليه (٨) ، كما نهى عمر عماله عن اتباع سياسة الحجاج التي قضت بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم (٩)، وكتب إلى عامله على الكوفة أيضاً أن يعطى أهل الذمة ما بقي من خراج الكوفة فيسدد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم، ثم ختم رسالته بقوله: «قوي أهل الذمة فإننا لا نريد لهم لسنة أو لسنتين» (١٠) . ولإكمال مبدأه هذا أعاد كنيسة يوحنا التي أخذها منهم الوليد بن عبد الملك الذي أعطاهم مالاً مقابلها ، ثم هددهم بهدمها إن لم يأخذها ، وبالفعل أخذها بغير وجه حق لأن شروط الصلح بين الجيش الفاتح لدمشق وسلطان دمشق كانت تنص على أن جميع ما فتح عنوة خارج أسوار دمشق فهو للمسلمين ولكن المسيحيين رفضوا هذا الأمر واتفقوا مع المسلمين على أن يتركوا لهم كنيسة يوحنا وتبقى لهم كنيسة توما مقابل ذلك (١١) .

ولابد من ذكر ما أخذ على الخليفة يزيد بن عبد الملك من إصداره لقرار يقضي بتكسير الصلبان وإزالة الصور والتماثيل وهدم الكنائس المستحدثة وخاصةً في مصر (١٢) وهنا لا بد من السؤال لماذا فعل يزيد ذلك؟ وما هو رد الفعل عليه؟ تتسم سياسة يزيد بشكل عام بالقسوة تجاه معظم السكان، وربما اندفع إلى اتخاذ ذلك القرار بغية تنفيذ نصوص العهود التي أبرمها المسلمون مع المدن المفتوحة- وإن لم يكن يزيد شغوفاً بهذا الخط- مع أن العهود لم تذكر هدم الكنائس المستحدثة، أو ربما كان ذلك بسبب نصيحة رجل يهودي ليزيد بأنه إن أمر بهذا

(١) الشريف ، حامد محمد، أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي، ، ص ١١٩

(٢) الخربوطلي، الإسلام، ص ١٢٨.

(٣) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٨١.

(٤) Hebraeus; Bar, The chrnography of Greoy Abul Faraj ,V1, Englih Translathon
,London,1932,p105.

(٥) ولهاوزن ، الدولة العربية، ص ١٧٦.

(٦) الأصفهاني ، الأغاني مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، ج ٨، ص ٢٨٨، والبلاذري، أنساب، ج ٧، ص ٢٣٧.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ج ٨، ص ٢٩٨.

(٨) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٧٢.

(٩) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٨٠.

(١٠) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ٥٧-٥٨.

(١١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٢ ص ١٣٢، والطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٣٠، أحمد، علي، التاريخ السياسي والحضاري، ص ٩٦-٩٧.

(١٢) ا لكندي، الولاة والقضاة، ص ٧١-٧٢، والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٨٣٥.

القرار فإنه سيحكم أربعين سنة(١) ومهما يكن من أمر يزيد مع هذا المرسوم فهو سلوك فردي ولا يعبر عن سياسة الدولة، والأهم هنا هو رد الفعل على ذلك، فقد سمح المسلمون للمسيحيين بحرية التعبير عن هذا المرسوم ومن ذلك ما قام به القديس يوحنا الدمشقي من كتابة رسائل شهيرة تخص استخدام الصور كوسيلة للعبادة .

ومما تميز به هشام بن عبد الملك تسامحه وصدافته لأهل الذمة ومما يذكر له أنه أعاد لمسيحي أنطاكية حق تعيينهم لمن يروه مناسباً لارتقاء كرسي البطر كية بعد أن كانوا قد حُرِّموا من ذلك مدة أربعين عاماً، وكان له صديقاً مسيحياً هو القس استيفان أو اصطفان فطلب منهم اختياره فوافقوا على ذلك(٢) ، كما أشار ترتون بتسامح هشام إذ ذكر أنه أمر ببناء دار بجوار قصره لإقامة البطريرك ليعلم الصلاة والعظة(٣) .

٢- النظرة الإيجابية للمرأة :

إن وضع المرأة في مجتمع ما هو إلا دلالة على حضارة هذا المجتمع، بحيث يمكن اعتبارها مقياس تقدم أو تخلف هذا المجتمع . وبناء على ذلك فيصح القول بأن الإسلام رفع من مكانة المرأة وأعطاه حقوقها وقدرها حق قدرها، وكثيرة هي الآيات القرآنية التي تبين معاملة المرأة وتصون حقوقها، بل إن القرآن الكريم خصها بسورة كاملة في القرآن تحمل اسم سورة النساء(٤) . كما منحها الإسلام اهتماماً بالغاً وعظيماً، فأحاطها بكل سبل التربية والرعاية، وشرع لها من الحقوق ما يلائم تكوينها وفطرتها بحيث لم تعهد هذا الاهتمام أمة من الأمم على مر العصور، وبهذا التقدير الكبير كانت المرأة المسلمة وراء الأفاضل العظام الذين تحملوا عبء الدعوة الإسلامية ونشروها في معظم بقاع الأرض.

١- مكانة المرأة قبل الإسلام:

ولمعرفة المكانة التي حصلت عليها المرأة في الإسلام لابد من المرور ولو بالشيء اليسير على وضعها العام قبل الإسلام . إذ إنها لم تكن لها مكانة عامة في كل القبائل، بل كانت مكانتها تختلف في القبيلة الواحدة عما إذا كانت تنتمي إلى بيت رفيع وكذلك باختلاف الزمن ونوع الحياة(٥). الخ، ولذا لم يكن امتهان العرب للمرأة تقليداً عاماً بل كان سلوكاً لبعض القبائل، فقد كان كثير من حكماء العرب لا يرضى أن ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف وإهانة(٦) ، فالعرب أمة فرضت عليهم معيشتهم وبيئتهم خلائق من الخير والشر، ولم يكونوا جميعاً يكرمون المرأة ويبجلونها ، كما لم يكونوا جميعاً يحتقرونها(٧) ، ولكن النظرة العامة للمرأة كانت دونية، وبذلك لم تتمتع بحقوقها الشخصية ولا باستقلالها، بل كانت تعد عندهم أداة من أدوات الزينة(٨) وفي هذا الصدد

-
- (١) فرج، وسام، دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية، من ٣٣٤-١٠٢٥م مطبعة مصنع الاسكندرية، الكراس، ١٩٨٢، ص١٧٩-١٨١ .
 - (٢) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٧٧-٢٧٨ .
 - (٣) ترتون ، أهل الذمة، ص٢٨ .
 - (٤) السورة الرابعة من القرآن الكريم.
 - (٥) الرفاعي، أنور ، الإسلام في نظمه الإدارية والسياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧، ص٢٧٢ .
 - (٦) النجار، محمد مصطفى، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة الأزهر، ١٩٥٣، ص٦٠ .
 - (٧) عون، كمال أحمد، المرأة في الإسلام، (دبت) ط٢، ص٤١ .
 - (٨) حسن، حسين الحاج ، حضارة العرب في صدر الإسلام، ص٢٩٠ .

يقول عمر بن الخطاب: «والله كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله ما أنزل» (١). إذاً فمكانة المرأة في المجتمع تفاوتت، لكن الإسلام جاء ورفع منزلتها عند كل الناس، لتصبح جزءاً لا يتجزأ من المجتمع وفي ذلك يقول الرسول الكريم: «النساء شقائق الرجال» (٢).

٢- المرأة في الإسلام:

أعطى الإسلام الأنثى حق الحياة الذي حُرمت منه وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية وأخلاقية، بحيث كان يتم التخلص منها بالوَأد قبل الإسلام-أي بدفنها وهي حية- فحرم الإسلام ذلك ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣). كما ومنح الإسلام المرأة ما للرجل من حقوق في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤) ومن هذه الحقوق حق الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَىٰ﴾ (٥)، وهذه القسمة لم تكن إجحافاً بحقها، إذ إن المرأة مكفولة بالرجل في معظم أدوار حياتها (٦)، كما وأباح الشرع لها حرية التصرف بمالها، وأباح لها توكيل غيرها فيما تريد مباشرته بذاتها وأن تضمن غيرها ويضمنها غيرها، كما كفل لها حقها بالموافقة على الزواج ورضاها دون إكراه (٧).

وحتى في مسألة الإيمان أُعطيت المرأة الحقوق كاملة في ممارسة الشريعة الإسلامية، وكانت موجودة في اللقاءات التي عقدها الرسول مع المسلمين الأوائل، إذ بايع النبي الرجال والنساء على السمع والطاعة والقيام بحدود الله، بل إن السبعين الأوائل الذين دخلوا الإسلام كان منهم سبع وثلاثون امرأة، ثلاثون من الحرائر وسبع من الإماء، حتى أنه في بيعة العقبة الثانية ٦٢٢م التي حضرها ثلاثة وسبعون رجلاً، حرصت النساء على حضورها (٨).

ومما يدل على إكرام الإسلام للمرأة والمحافظة على شعورها أن أم هانئ (هند بنت أبي طالب ابنة عم الرسول الكريم) قد أجمعت في يوم فتح مكة (٥٨هـ / ٦٢٩م) رجلاً من أعداء المسلمين، فجاء علي بن أبي طالب يريد وجهه فمئعت علياً من قتله، واحتكمت إلى الرسول، فقال لها: «قد أجمعت من أجمعت وأمنت يا أم هانئ» (٩) واستمرت المرأة في صدر الإسلام على المزايا التي منحها لها الإسلام من حرية إنسانية واجتماعية واقتصادية، حيث كن يسمعن الخطباء ويحضرن المحاضرات ويشاركن في الحروب، ولم يدخل الوهن إلى مركزها ومكانتها -أي ما يسمى نظام الحريم- إلا في أواخر العصر الأموي في عهد الوليد الثاني الذي أدخل كثيراً من العادات الغربية في البلاط (١٠).

(١) هميسة، بدر عبد الحميد، المرأة في ظل الإسلام، ٢٠١٠، ص ٥.

(٢) الغزالي، محمد، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، القاهرة، ط ١٢، ٢٠٠١، ص ٥٥.

(٣) سورة النحل، آية ٥٨-٥٩.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٢٨.

(٥) سورة النساء، آية ١١.

(٦) الكعكي، يحيى، مكانة المرأة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ص ١٥٢.

(٧) هميسة، بدر، المرأة في ظل الإسلام، ص ٢٣.

(٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٨، ص ١١، وابن حنبل، أحمد بن محمد، مسائل الإمام أحمد، تحقيق فضل الرحمن دين محمد، الدار

العلمية، مدينة دلهي، ط ١، ١٩٨٨، ص ٣٠٤، و هميسة، المرأة في ظل الإسلام، ص ١٩.

(٩) ابن حنبل، مسائل الإمام، ص ٥٠٦، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٣٠.

(١٠) إبراهيم، حسن، حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٤٤١، الرفاعي، الإسلام في نظمه، ص ٢٧٨، و الخربوطلي، الحضارة

العربية، ص ١٣٠.

إذاً لقد احتفظت المرأة العربية أيام الراشدين والأمويين بمكانتها الفضلى وهناك الكثير من النماذج عن المرأة المثالية التي تميزت باستقلال الرأي والاختلاط بالناس ، وبالعلم والأدب وبحضور مجالس حافلة . هذا بالإضافة إلى مشاركتها في الحروب منذ أيام الرسول الكريم، ولم يرَ المسلمون ضيراً في ذلك ، وهناك الأمثلة الكثيرة ومنها نسيبة بنت كعب (أم عمارة) والتي بقيت تجاهد في سبيل رفع راية الحق، حتى أنها جُرحت في معركة أحد (٣٠٤ هـ / ٦٢٤ م) ودافعت عن الرسول بالسيف(١)، وكذلك كانت أسماء بنت عمرو بن سليمة التي امتنشت سيف للمحاربة (٢). كما وكانت أم الخير بنت حريش الكوفية كالسهم تحت راية الإمام علي، فكان سيفها مشوق في يدها تحض الناس على الانتصار لعلي(٣). واستمرت المرأة في العصر الأموي على هذا المنوال في اشتراكها في الحروب، حيث كانت كثيرات هم النساء اللواتي صحبن الرجال إلى ساحات القتال يساعدهن في الدفاع والهجوم ويبثن فيهم روح الحمية بما يلقيه من خطب وأشعار حماسية (٤) ، ولذلك خصص لهن مكان في المدن الحصينة والمعسكرات(٥) ، وكثيرات هن اللواتي حملن السيف لمحاربة عدوهم مهما كانت انتماءاتهن، ولم يكن لدى العرب حرجٌ من ذلك ، فها هي غزالة الخارجية زوجة شبيب بن يزيد الخارج على عبد الملك بن مروان والتي تعد من أشجع القواد الذين دوخوا البلاد وروعوا الجيوش ودبوا الرعب حتى في قلب الحاكم الجبار الحجاج الثقفي الذي خشي بأسها وتحاشاها، وقد بلغ من شجاعته وقوتها أنها نذرت إذا دخلت الكوفة أن تصلي في مسجدها ركعتين طويلتين تقرأ فيها سورة البقرة وسورة آل عمران، وبالفعل حققت أمّنتها(٦). ولم تكن وحدها من النساء بل خرجت معها مائتي امرأة من الخوارج اعتقلن الراح وتقلدن السيوف(٧) . كما برزت من نساء الخوارج في ميادين القتال أيضاً أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة التي كانت من أعظم الناس ذكاءً ومضاءً وجمال وجه(٨). ولم تكن قوة الشكيمة لدى النساء العربيات بحمل السلاح فقط بل بالقوة المعنوية والحزم ورفض الذل، هذا ما قامت به أسماء بنت أبي بكر التي حرّضت ابنها عبد الله بن الزبير - عندما حوَصر في الكعبة من قبل الحجاج الثقفي وخانه أصحابه - على استقبال الموت بشرف لما يأس من الانتصار وأمرته أن لا يسلم نفسه لبني أمية فيعيش ذليلاً، فسمع نصيحته وخرج مقاتلاً حتى قُتل(٩) إذاً لم يكن لدى المجتمع في العصر الأموي حرج من اشتراك المرأة في الحروب ، وهذا ما أعطى للدولة القوة والتماسك في موقفها من المرأة. ومثلما قُدر للمرأة مشاركتها في الحروب كذلك قُدر لها أدبها وعلمها واختلاطها بين الناس وأخذها العلم وكثيرات هن النساء اللواتي جمعن كل هذه الصفات مع بعضها، ولا يتسع المقام هنا لذكرهن جميعاً وذكر سجاياهن واحترامهن من قبل المجتمع، إلا أنّ الذكر سيكون للبعض منهن لأن الحصر غير ممكن، وإذا دلت

- (١) ابن عبد البر أبو عمر يوسف القرطبي(ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١، ج٤، ص١٩٤٩، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٢٧٨ ، و ابن حجر ، الإصابة ، ج٨، ص١٤٠، وعمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام مؤسسة الرسالة ،بيروت، ج٥، ص١٧١-١٧٥.
- (٢) ابن حجر، الإصابة ج٨، ص٣١٣.
- (٣) طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر(ت٢٨٠هـ/٨٩٣م) بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار نوات الرأي منهن، مطبعة مدرسة والده عباس الأول، القاهرة، ١٩٠٨، ص٤٢، و ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٧٠، ص٢٣٣-٢٣٧، بيهم، و جميل ،المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة ، دار النشر للجامعيين، ط١، ١٩٦٢، ص٢٤.
- (٤)العظم ، أسيمة ،المجتمع في العصر الأموي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٤٢.
- (٥)ابراهيم ،حسن،حسن ، تاريخ الإسلام ، ج١، ص٤٤٤.
- (٦) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢٧٤ ، ابن خلكان، وفيات الأعيان ، ج٢، ص٤٥٤، و بدوي، خليل، موسوعة شهيرات النساء ، دار أسامة للنشر ، الأردن، ط١، ١٩٩٨، ص١٨٤-١٨٥.
- (٧) كحالة ، عمر رضا، معجم النساء، ج٤، ص٨.
- (٨) العظم، أسيمة ،المجتمع الأموي، ص١٤٣.
- (٩) الفاكهي، أخبار مكة نج٢، ص٣٥٧، و البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ج٢، ص٢٧٦.

كثرتهن على شيء فإنها تدل على سلامة المجتمع واحترام الرأي والمميزات، والمنتجع لوفود معاوية يرى كثرة الوافدات عليه من النساء حيث استقبلهن واحترم لهن آراءهن مع أنهن كن من أنصار الإمام علي بن أبي طالب وسمح لهن بمحاورته بكل الجرأة الأدبية اللاتقة، وفي الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه ذكر لتلك المحاورات (١)، ومن تلك النساء : بكارة الهلالية (٢) وأم سنان بنت حيثمة(٣) والزرقاء بنت عدي بن غالب الكوفية (٤).

وبما أن العصر الأموي امتاز بكونه دور التأسيس والتشكيل من الوجهة السياسية والعلمية على السواء ففيه نشأت العلوم من نحو وصرف وبيان وظهرت العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وكلام، وفيه تفتقت الآداب الجاهلية من إنشاء وشعر وخطابة، كما بُدئ به بتدوين التاريخ وبترجمة بعض العلوم الأجنبية، فلقد كان للمرأة مشاركة في هذه النهضة الثقافية، وبعض المشاركة في الناحية العلمية، وكثيراً من المساهمة في الناحية الأدبية بحيث تميزت النساء بأنهن جمعن المجد من أطرافه كافة، فالمرأة منهن كانت أديبة وفقهية وعالمة وصاحبة رأي ومن تلك النساء: عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية الفقيهة المحدثة العالمة توفيت(٧١٦/هـ٩٨م) والتي أخذت من عائشة بنت أبي بكر الصديق الحديث ، فأكثرت منها، حتى أن عمر بن عبد العزيز، قال: « ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة»(٥).

وكما برعن هؤلاء النساء وغيرهن في العلم والفقه كذلك تألقت أخريات في الناحية الأدبية ويرجع ذلك بالإضافة إلى الوراثة وإلى تحضر العرب وما رافقه من وفرة في الأموال التي انهالت عليهم بسبب الفتوحات، هذا بالإضافة إلى عودة العرب في العصر الأموي إلى الغرف من أدب الجاهلية ليبرروا فيها حروبهم الداخلية(٦). واشتهرت من النساء الأديبات العارفات بأخبار العرب السيدة عائشة بنت طلحة التميمية(٧١٠/هـ١٠١م)(٧). حيث جالست الشعراء والرواة، كما كانت من أديبات عصرها اللواتي نبغن في الحقل الأدبي والتاريخي، وبصورة خاصة بأيام العرب وعلم النجوم الذي كان له شأنه في تلك الحقبة، فقد وفدت ذات مرة على هشام بن عبد الملك فبعث إلى مشايخ بني أمية ليسمروا عنده، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأنسابها إلا أفاضت به وكذلك بالنجوم(٨) . وكذلك كانت السيدة سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب(١١٧/هـ٧٣٥م) (٩)، سيدة نساء عصرها وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً، ومن شدة ولعها بالأدب جعلت دارها مجلساً له، يجتمع فيه الأدباء و الشعراء، وكانت تحكم بينهم وتفاضل، حتى أنها حدثت حذو الخلفاء والأمراء في الجود والعطاء(١٠).

(١) ابن عبد ربه، ج١، ص٣٢٠-٣٥٨.

(٢)العقد الفريد، ج ١ ، ص٣٤٦ ، وابن عساكر ، ج٦٩، ص٢٢٦-٢٢٨، وكحالة، معجم النساء، ج٢، ص٢٧٠.

(٣) العقد الفريد، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، وطيفور، بلاغات النساء، ص٦٨-٦٩، و ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٧٠، ص٢٤٧-٢٤٩.

(٤) العقد الفريد، ج ١ ، ص ٣٤٧ ، وابن عساكر ، تاريخ دمشق، ج٦٩، ص١٦٧-١٦٩.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٣٨٧.

(٦) بيهم، جميل، المرأة العربية، ص١٣٥.

(٧) عائشة من بني تيم بن مرة أديبة عالمة بأخبار العرب كانت تقيم في مكة سنة وفي المدينة سنة وتخرج إلى الطائف لتفقد أموالها، أمها أم كلثوم ابنة أبي بكر الصديق. وروت عن خالتها عائشة، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٩، ص٢٥٠-٢٦٢، الذهبي، سير أعلام، ج٤، ص٣٦٩.

(٨) كحالة، معجم النساء، ج٣، ص١٥٤.

(٩)سكينه وقيل اسمها أمنة أو أمينة أمها الرباب بنت امرؤ القيس بن عدي كانت تجالس أجلاء قريش أخبارها كثيرة أقامت وماتت بالمدينة سنة ، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٦٢، ص٥.

(١٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، و الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٧، ص٣٧١-٣٧٣.

وإذا كانت سكيئة وعائشة أديبتين محبتين للأدب، تستقبلان الأدباء في مجالسهما، فإن ليلي بنت عبد الله الأخيلية(١) كانت شاعرة من شعراء العرب المتقدمات في الإسلام، تقد على الخلفاء والأمراء، وهي مرحبٌ بها وبطلاقة لسانها وثبات جنانها وحسن محاورتها وحضور بديتها، على كل من معاوية وعبد الملك والحجاج الثقفي الذي قالت له :

أحجاجُ لا يفِل سلاحكُ إنّما المنايا بكفَّ الله حيث نراها

إذا هبط الحجاجُ أرضاً مريضاً تتبع أقصى دائها فشفاه(٢)

وكثيرات هن الشاعرات والراويات من البادية واللواتي يشار إليهن بالبنان في إجادة الشعر، أمثال عمرة الجمحية من سراة بني جمح- والتي كانت دارها ندوة للشعراء والرواة(٣). وزينب بنت الطثرية من بني عامر، والتي كانت مطبوعة على الشعر ومشهورة بالفصاحة وفنون الكلام(٤). وبالإضافة إلى الاستحسان الذي لاقاه شعر المرأة وروايتها وعلمها، كذلك استحسنت زهداها وتصوفها، ومن الزاهدات معاذة بنت عبد الله العدوية التي تميزت بالفصاحة والبلاغة والفقه والنسك وهي من العراق ، وكانت ثقة وحجة روى عنها الكثيرون توفيت سنة (١٠١هـ / ٧١٩ م) (٥) وخير من مثلت هذا الزهد والنسك مع شعر يناسب هذا الصلاح رابعة بنت اسماعيل العدوية، بل ربما سبقت غيرها في وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي، وهي التي تركت في الآثار الباقية نفائس في التعبير عن محبتها وحزنها، وبذلك وضعت لبنة الأساس في الأدب الصوفي اللاحق من نثر وشعر، ولقد توفيت سنة (١٣٥هـ / ٧٥٢ م) وأصبح قبرها مزاراً لأهل العراق(٦). وتعددت النساء اللواتي زهدن في حب الإله وكانت مواقفهم محترمة.

كما ساهمت المرأة في الحياة السياسية ، ومن تلك النساء أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، والتي كانت من ربات الفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر زوجها الوليد بن عبد الملك الذي كان يستشيرها في أمور الدولة العامة(٧) .

نالت المرأة في هذا العصر إذاً كل التقدير والاحترام اللذين استحقتهما بجدارة ،وأضاف هذا للدولة الأموية المزيد من القوة بدمج مكونات المجتمع وتفعيل دور المرأة فيه والاستفادة من قدراتها من أجل نموّ سليم للمجتمع العربي الإسلامي.

-
- (١) ليلي الأخيلية بنت عبد الله بن الرحال بن شداد من بني عامر بن صعصعة، شاعرة فصيحة ذكية اشتهرت بأخبارها مع توبة ابن الحمير وماتت سنة ٨٠هـ/٦٩٩م ،الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٣٩.
- (٢) ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص٤٧، وكحالة، أعلام النساء، ج٤، ص٣٢١-٣٣٤، والصمد، واضح، ديوان ليلي الأخيلية، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص٨٨.
- (٣) الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج١٢، ص١٤٢.
- (٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٣٧٤، وكحالة، أعلام النساء، ج٢، ص٧١.
- (٥) كانت معاذة من ربات الفصاحة والبلاغة والتفقه في الدين والنسك في البصرة روت عن عائشة وأم عمرو بنت عبد الله بن الزبير، ابن سعد ، الطبقات، ج٨ ، ص٤٨٣ ، والسلمي، طبقات الصوفية، ص٣٩١.
- (٦) كانت رابعة صوفية كبيرة وعابدة شهيرة تمكنت من معرفة دقائق التصوف مكاناً علياً وهي السباقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي، السلمي، محمد بن الحسين بن محمد أبو عبد الرحمن(ت٤١٢هـ/١٠٢١م) طبقات الصوفية ويليہ النسوة المتعبدات الصوفيات، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص٣٨٧، و الياقبي، عبد الله بن أسعد أبو محمد(ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣، ج١، ص٢٨١، وكحالة، أعلام النساء، ج١، ص٤٣١-٤٣٢.
- (٧) ابن طيفور ،بلاغت النساء، ص١٢٤ ، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٧٠، ص٢٠٤-٢٠٧.

٣- التأكيد على قضية المواطنة للحفاظ على وحدة المجتمع:

لم يميز الإسلام بين المسلمين وغير المسلمين على اعتبار اختلاف الدين، كما لم يميز بين المواطنين والأجانب على أساس جنسيتهم أو تابعيتهم، فلذا من الخطأ الناتج عن الجهل والتضليل زعم بعض الكتاب أن صفة المواطن كانت للمسلمين وحدهم، وأن غير المسلمين كانوا جميعاً من الأجانب(١)، والإسلام لم يتعرف إلى فكرة الجنسيات، بل صنف الناس على أساس صفة المسالمة والمحاربة ووزعهم من ثم بين مسالمين- بغض النظر عن دينهم- وهم الأصل وحريبين وهم المستثنى، ثم اعتبر الحربيين وحدهم أجانب بطبعهم، واعتبر بلادهم بلاد العدو أو دار الحرب.

ديار المسلمين إذا ينبغي أن تظل ملكاً للمسلمين وغير المسلمين بغير تسلط ولا أفضلية من أحد على أحد لأنه لا فضل لإنسان على إنسان إلا بتقواه وعمله الصالح وإذا كان هذا هو معيار التفاضل بين الناس أمام الله فلا بأس أن يكون معياراً يتفاضل فيه الناس فيما بينهم. ولقد عبر الرسول عن هذه الخصائص في إبرامه أول وثيقة مكتوبة في تاريخ الإسلام عندما أرسى أسس المجتمع الإسلامي في المدينة والتي عُرفت باسم الصحيفة حيث تضمنت نصاً اعتبر فيه اليهود مع المسلمين أمة واحدة، بحيث عوملوا كمواطنين في الدولة ولم يعاملوا كأجانب أو رعايا من الدرجة الثانية(٢)، هذه الوثيقة تجعل غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين فيها لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين، فالمواطنة إذاً حقوق وواجبات في دار الإسلام، هذا المصطلح؛ أي دار الإسلام، يكون تحت يد المسلمين، وعلامة ذلك أن يأمن فيه المسلمون(٣)، ووصفه الكاساني بمعنى أدق عندما قال: «الذمي من أهل دار الإسلام»(٤) وهي الدار التي تجري عليها أحكام الإسلام ويأمن المسلمون و الذميون، ولو أنها قسمة على أساس العقيدة لأخرج منها الذميون ولبقيت دار الإسلام لمعتنقي الدين الإسلامي وحده .

فالمسلمون هم المواطنون الأصليون في دار الإسلام أما غير المسلمين فيها فالأصل أنهم أجانب إلا من دخل في ذمة المسلمين منهم واعتبر دار الإسلام وطناً له فإنه يكون مواطناً أيضاً ، وكذلك من دخل منهم في الإسلام(٥) لقد حصل أهل الذمة إذاً على العقد والعهد الذي منحوا خلاله حقوق المواطنة في الدولة ، وتجسد ذلك في قول الرسول الكريم «فإذا قبلوا عقد الذمة فأعلمهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم»(٦). ومن تلك الحقوق حق الحماية من العدوان الخارجي ومن الأذى الداخلي إذ إنه نتيجة لعقد الذمة أصبح لهم ذمة مؤبدة على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم قبل المسلمين، ولقد تعددت الآيات والأحاديث الواردة في تحريم الظلم وتقبيحه وبيان آثاره ومنها قول الرسول الكريم «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه، خصمته يوم القيامة»(٧)

(١) هويدي، فهمي، مواطنون لا ذميون، ص ١٠٥.

(٢) ونصت المعاهدة أن بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ابن هشام سيرة ، النبي ، ج٢، ص١٢٦، الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) الفائق في غريب الحديث ، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ج٢، ص ٢٥.

(٣) فهمي هويدي ، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٤) الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود(ت ٥٨٧هـ/ ١١٩١م) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، المطبعة الجمالية بمصر ، القاهرة، ط١، ١٩١٠، ص ٢٨١.

(٥) الطيار، علي عبد الرحمن، حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الرياض، ط٢، ٢٠٠٦، ص ٧٧.

(٦) الكاساني، بدائع الصنائع، ج٧، ص ١٠٠.

(٧) البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر(ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٨، ص ٣٧٠.

واستمر الذود عن أهل الذمة في العصر الأموي، استمرراً للعصر الراشدي، ومن ذلك قام معاوية بعزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة لأنه قتل أحد أهل الذمة (١) كما ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى بعض أمراءه في مسلم قتل نميماً فأمره أن يدفعه وليه، فإن شاء قتله وإن شاء عفا عنه، فدفعت إليه فضرب عنقه (٢)، كما حمى الإسلام الأرواح من القتل كذلك حمى الأبدان من الضرب والتعذيب، فلا يجوز إلحاق الأذى بأجسامهم ولو تأخروا أو امتنعوا من أداء الواجبات المالية المقررة عليهم كالجزية والخراج، ومثال ذلك ما قاله عمر بن عبد العزيز لعامله على البصرة عدي بن أرطاة عندما كتب إليه: "إن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسه شيء من العذاب، فردّ عليه عمر: أما بعد فالعجب كلّ العجب من استئذائك إياي في عذاب البشر كأنّي لك من عذاب الله... وإذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك فاقبله عفواً وإلا فأحلفه، فو الله لأن يلقوا الله بخيانتهم لأحب إلي أن ألقاه بعذابهم والسلام" (٣).

وبما أن المواطنة حقوق وواجبات فقد كان على أهل الذمة الإيفاء بواجباتهم وفي أولها دفع الجزية التي احتلت مكان الصدارة من الموضوعات التي أسيء استخدامها للإساءة للرابط بين المسلمين والآخرين، وقد وردت الجزية في آية واحدة في القرآن الكريم: ﴿وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية على يد وهم صاغرون﴾ (٤) ولا يهم هنا مناقشة حيثيات وتفسير ماهية الجزية، بل الأجدى معرفة الغرض من فرضها فهي إسهام من غير المسلمين في نفقات الدفاع والحماية للوطن، إذ هي بدل مالي عن الخدمة العسكرية المفروضة على المسلمين بالإضافة إلى كونها علامة خضوع للحكم الإسلامي. ويتضح ذلك من خلال فرضها على كل قادر على حمل السلاح من الرجال لذلك لا تجب على امرأة ولا صبي لأنهما ليسا من أهل القتال، وكذلك الشيخ الكبير والأعمى والمعتوه وكل من ليس من أهل السلاح (٥). إذ لم يأت فرض الجزية عليهم عقاباً لهم لعدم اعتناقهم الإسلام أو إزدالاً لهم بل باعتبارهم أناساً من خضم هذا المجتمع الذي يعيشون فيه وهم بذلك ملتزمون بواجبات كأي فرد في أية دولة وفي أي عصر، عليه قسط من المال تقوم الدولة بجمعه للقيام بما يحتاجه المجتمع من خدمات ومرافق وبالمقابل فالمسلم عليه كثير من الواجبات فهو يدفع الزكاة ويقوم بالخدمة العسكرية، ولذا فلا بدّ أن يقوم الذمي بأداء ضريبة أخرى إذا كان معفى من الخدمة العسكرية ويتمتع بحماية المسلمين وتسامحهم (٦) وهنا يجب التذكير بأن الجزية لم تكن شيئاً محدثاً في الإسلام، ولم يكن أمراً تفرد به المسلمون عن سواهم بل على العكس هي

(١) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج٨، ص٥١، ويبدو اللبث في هذه الحادثة، إذ إن عبد الرحمن هو ابن عبد الله بن أبي عقيل ابن أخت معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية وولاه الكوفة ثم عزله لقتله أحد أهل الذمة، فولاه مصر في سنة ٦٧٧/٥٥٨ م وكان على مصر معاوية بن حديج، انظر في أمر العزل الطبري، ج٣، ص٢٥٣ وابن الأثير، ج٣، ص٣٦٣، وابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص٢٩٢، و لكن معاوية بن حديج توفي في سنة (٦٧٢/٥٥٢ م) ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص٢٥٤ (على الرغم من أن ابن الجوزي يذكر أن حديج كان على مصر وهذه الحادثة في سنة ٦٧٧/٥٥٨ م ويذكر أن ابن حديج مات سنة (٦٧٢/٥٥٢ م) والعسقلاني، الإصابة، ج٦، ص١٤٧. وهنا يظهر أن هناك خلط في الخبر.

(٢) البيهقي، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين، (ت٤٥٨/١٠٦٥ م) السنن الكبرى، وفي ذيله الجوهر النقي لابن التركماني، علاء الدين بن علي المارديني (ت٥٤٥/١٣٤٤ م)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢، ج١٠، ص٣٤.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١١٩.

(٤) سورة التوبة، آية ٢٩.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٣، العودات، حسين العرب النصارى، الأهلي للطباعة والنشر، دمشق، ط١ ١٩٩٢، ص٦٦.

(٦) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٧٩، وخبوطي، الإسلام وأهل الذمة، ص٦٧-٦٨.

بالأصل كلمة فارسية وأصلها (كزيت) أي الخراج الذي يستعان به على الحرب (١) ولقد قام كسرى أنوشروان ملك الفرس بترتيبه أصولها وجعلها طبقات (٢) والأمثلة عديدة وكثيرة على أخذ الجزية في العديد من المجتمعات قبل الإسلام (٣) . وكانت هذه الجزية تسقط عند اعتناق الإسلام أو عندما يحارب الذمي في صفوف المسلمين، وبقي الأمر هكذا طول حكم الراشدين لكن عهد الحجاج كان قاسياً على أهل الذمة، إذ أبقى الجزية على من أسلم بعدما رأى أن عدداً كبيراً من أهل الذمة اعتنقوا الإسلام وسكنوا المدن لذا أمر بعدم إعفائهم من الجزية وإعادتهم إلى قراهم (٤)، وهذه التصرفات من قبل الحجاج تجاه أهل الذمة ليست عليهم وحدهم فقط بل إنه اتصف بالقسوة على معظم المسلمين أيضاً .

ولأن أهل الذمة هم من النسيج الاجتماعي للدولة فقد وجب عليهم احترام القرآن والرسول وعدم القبح بالإسلام وألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا زواج وألا يحولوا مسلماً عن دينه وألا يعينوا أهل الحرب على المسلمين (٥)، كما وجب عليهم عدم المجاهرة بطقوسهم الدينية وارتداء لباس خاص بهم، وأحدثت قضية اللباس والثياب لغطاً كبيراً تمسك بها من أراد خدش عدل الإسلام وجرح مساواته دون فهم كيفية تطبيقها وأسباب وجوبها، فالعهود الواردة في كتب البلاذري واليعقوبي والطبري وابن الأثير (٦) خالية من الإشارة إلى الملابس ولكن أبا يوسف وابن عبد الحكم يذكران هذه العهود، التي نُسبت إلى الخلفيتين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، لكنهما يوضحان أن الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس هو سهولة التمييز بين أهل الذمة وبين المسلمين (٧) ، ومهما يكن من حقيقة وجود هذه العهود ومهما اعتبر الأمر نوعاً من التصنيف لا التمييز من أجل صهر هذا الموضوع في بوتقة الحياة الاجتماعية، إذ إن المجتمع لم يكن فيه وسائل لإثبات الشخصية ، لذلك كانت الملابس أو الهيئة الخارجية هي الحل لمعرفة الأشخاص (٨) ، فإن هذا الأمر غير لائق وإن ثبت حكم هذه الملابس - وهو لم يثبت عند جميع المؤرخين - فهو لم يكن بالأهمية أو لم يكن يُؤخذ به، وهو ليس بالإجراء الضروري، ودليل ذلك إن معظم الخلفاء والولاة المسلمين انتهجوا سياسة تسامح وإخاء ولم يتدخلوا كثيراً في تحديد ملابس أهل الذمة، ولم ترتفع أصوات شكوى واحتجاج ومن تلك الأمثلة في العصر الأموي حيث كان الأخطل يلبس جبة وحرز من الخبز (٩) وفي عنقه سلسلة بها صليب من الذهب في حضرة الخليفة عبد الملك (١٠) .

فالأُمويون إذاً رأوا أن إعطاء صفة المواطنة لغير المسلمين تدعم الدولة والمجتمع وتحصنه من عدة مشاكل، وهذا بدوره يؤدي إلى حصانة المجتمع وإلى الاحترام المتبادل بين الرعية، وهذا يصب في صالح المجتمع والدولة.

- (١) هويدي، مواطنون، ص ١٢٩، وإدوار، معاملة غير المسلمين، ص ١٢٣ .
(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٧٣ .
(٣) إدوار، معاملة غير المسلمين، ص ١٢٤ .
(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤ ، ص ٩٧، وابن الأثير، ج ٤، ص ٣٥٤ .
(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٣٨ .
(٦) انظر نماذج منها في البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٦ و ١٦٠ و ٢٠٥، واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢، ج ٤٠ و ٤١ و ٤٧ و ١٤٧ والطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ ، ص ٣٢١ و ٤٣٦ و ٤٤٩ و ٤٨٣ و ٥٣٢، وابن الأثير الكامل، ج ٢، ص ٣٤٧ و ٣٩٢ .
(٧) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٦، أبو يوسف، الخراج، ص ٧٣ .
(٨) ترتون، أهل الذمة، ص ٧٨ ، والخبوطي، الإسلام وأهل الذمة، ص ٨٦ .
(٩) الجبة، نوع من الثياب، ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٩٤، والحرز هو ما يعمل للوقاية والحرز، الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٥، والخرز ثياب تصنع من صوف وهو أيضاً من الجواهر، ابن منظور، لسان، ج ٥، ص ٣٤٥. وهنا معناها جوهر .
(١٠) الأصفهاني، الأغاني، ج ٨، ص ٢٩٨. و البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٢٣٧ .

٤- ظاهرة التعاون والتفاهم بين جميع أتباع الديانات:

باعتبار أهل الذمة هم مواطنون من الدرجة الأولى في المجتمع الإسلامي، فهذا يعني أنهم أصبحوا شركاء أصليين في وطنهم، فالإسلام يدعو إلى التسامح غير الدليل، فهو يبني العلاقات الإنسانية سواء أكانت بين الأفراد أم كانت بين الجماعات على التسامح الذي يعد السياسة الإسلامية التي رسمتها النبوة في العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض وخصوصاً المسلمون وغيرهم، كما يدعو الإسلام إلى تعاون أبناء المجتمع البشري جميعاً دون تفرقة عنصرية أو عصبية دينية، أو تفضيل، وأول من ضرب على هذا مثلاً هو الرسول ﷺ حيث كان يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم، ويواسيهم في مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة يحكمها قانون واحد وتشغل مكاناً مشتركاً فلقد كان يقترض منهم نفوداً ويرهنهم متاعاً، ولم يكن ذلك عجزاً من أصحابه على إقراضه، فإن بعضهم كان ثرياً وكلهم يتلطف على أن يقرض رسول الله وإنما كان يفعل ذلك تعليماً للأمة وتنشيطاً عملياً لما يدعو إليه من سلام ووثام، ودليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم (١) ، فهل سار الأمويون على هذا الأساس ، وهل سمحوا لأهل الذمة بالانخراط في الحياة العامة ؟ وهل كان لذلك حدود معينة ؟ وكيف كان شكلها؟ هذا ما سيتم معرفته في هذه الفقرة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ فقد عاش المسلمون وغيرهم من أصحاب الأديان جنباً إلى جنب، وتمتع أولئك بالحريات في الأعمال والحياة الاجتماعية، إذ أعطيت لهم حرية العمل والكسب ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة ومباشرة ما يريدون أيضاً من ألوان النشاط الاقتصادي. فقد كانت الوظائف العامة مباحة للذميين باستثناء الخلافة والإمارة على الجهاد والوزارة، وكذلك القضاء بين المسلمين، هذه الوظائف التي حُجبت عنهم لأنها في الأصل متصلة بالعقيدة الإسلامية، وهي من هذه الزاوية تكليف وليست حقاً من الحقوق (٢)، وليس من الطبيعي أن يتولى أهل الذمة هذه الوظائف في دولة ذات صبغة إسلامية محضة، وذلك لضرورة العقيدة . وفيما عدا ذلك من وظائف فقد تعاون الذميون مع المسلمين فيها، فعلى سبيل الذكر هناك عدد كبير من الكُتَّاب في الدواوين. إذ رأى معاوية منذ أن كان والياً على الشام أن النصارى من العرب والنبط وبقايا الروم يشكلون أكثرية السكان وكان منهم أصحاب الحرب والموظفين والكتاب والأطباء، فأبقاهم بحكته الإدارية في وظائفهم وقرب إليه النابهيين منهم كأسرة سرجون بن منصور (٣) التي ظلت تتوارث الإدارة المالية بين أبنائها. وتابع الأمويون هذه السياسة في الاعتماد على أهل الذمة في جميع الولايات سواء أكانوا مجوساً في فارس أم نصارى في الشام ومصر، فكان زاذان فروخ يكتب لزياد بن أبيه في العراق (٤) واسطفانوس لعبد الرحمن بن زياد في خراسان (٥) كما تولى ثيودوسيوس المسيحي حكم الإسكندرية ومربوط والمناطق التابعة لهما في عهد يزيد (٦) . و عيّن سليمان بن عبد الملك كاتباً مسيحياً يدعى البطريق ابن التقا (٧) . وكتب له كذلك حسان النبطي (٨) وبما أن اللغة العربية أصبحت لغة الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان بجميع الولايات فقد منع الوليد بن عبد الملك

(١) الحوفي ، أحمد محمد، سماحة الإسلام ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص٨٧-٨٨.

(٢) الشريف، حامد، أحوال غير المسلمين في بلاد الشام، ص١٢٠.

(٣) المقرئ، الخطط ، ج ١ ، ص ٩٨ ، وترتون، أهل الذمة، ص١٤.

(٤) الجهشيار، الوزراء والكتاب، ص ٢٦ ، والحسين، فالج ، مشاركة العناصر غير العربية، في الجيش والإدارة الأموية، بحث في بحوث ودراسات مهداة إلى عبد العزيز الدوري، ص٢٢٨-٢٥٥، المعهد الدبلوماسي الأردني، عمان، ١٩٩٨ م ، ص ٢٣٤.

(٥) الجهشيار، الوزراء، ص٢٩.

(٦) ترزون ، أهل الذمة، ص١٨.

(٧) العودات، حسين، العرب النصارى، ص١٠٦.

(٨) الجهشيار، الوزراء والكتاب ، ص ٦١.

الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية بل بالعربية(١) على حد قول ابن العبري وهذا يدل على أن الكتاب المسيحيين الذين يجيدون العربية ظلوا في وظائفهم، ويذكر ترتون أنه قلما خلا ديوان من دواوين الدولة من النصارى(٢). إذاً لقد كان هناك اعتماد لا بأس به على أهل الذمة في الوظائف العامة ليس على المسيحيين فقط بل أيضاً اليهود والمجوس الذين كانوا يقومون ببناء المساجد والقصور(٣).

كما كفلت الدولة الأموية لأهل الذمة حرية العمل ومباشرة الأنشطة الاقتصادية فاشتغلوا بصناعة الزجاج والمنسوجات والبسط والعمود والأسلحة وامتلكوا السفن وجابوا البحار في تجارتهم بين الشرق والغرب(٤)، كما عملوا بالزراعة وصناعة الخمور والخل وتجارة الزيت والقطن، وكانوا وكلاء تجارة وصياغة واحتكر اليهود تجارة الرقيق والذهب واللؤلؤ(٥)، هذا وسُمح بمشاركة الذمي للمسلم في التجارة على أن يكون المسلم حاضراً جميع العمليات التي يقوم بها شريكه(٦).

ولم يكن محظوراً على الذميين إلا ما كان في الشريعة الإسلامية مثل التعامل بالربا وبيع الخنزير والخمور في أمصار العرب(٧)، حتى في الأندلس مارس اليهود طقوسهم وعاداتهم بحرية تامة ولم يصدر العرب بحقهم أية تشريعات خاصة بل تركوا لهم الحرية في التصرف(٨) وعندما سمع اليهود بتسامح العرب قاموا بمعاونتهم في فتح الأندلس وعملوا كأدلاء لهم على القلاع والمدن التي فتحها العرب(٩).

وبالإضافة إلى ذلك شمل التعاون المجال الطبي، إذ كثيراً من أطباء الخلفاء كانوا من أهل الذمة ومنهم أبو الحكم النصراني، وابن آثال النصراني طبيبي معاوية(١٠)، وكذلك عبد الملك أبحر الكناني من نصارى الإسكندرية فقد اعتمد عليه عمر بن عبد العزيز(١١).

كما كان لأهل الذمة نصيب في الانخراط في خضم الجيش الأموي في أحيان كثيرة وجاءت أول إشارة إلى مشاركة الذميين في القتال إلى جانب المسلمين من الشاعر النصراني أبا زبيد الطائي الذي حارب مع المسلمين في معركة الجسر حيث اشترك في القتال بدافع حميته العربية(١٢)، ثم وردت بعد ذلك عدة إشارات إلى

- (١) ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطبي(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٩٤، ص. ١٩٥.
- (٢) ترتون، أهل الذمة، ص١٨.
- (٣) الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص١٣١.
- (٤) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله(ت٣٠٠هـ/٩١٢م) المسالك والممالك، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩، ص١٥٣-١٥٤.
- (٥) الشريف، حامد، أحوال غير المسلمين، ص١٢١.
- (٦) الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص٩٢.
- (٧) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٧٨.
- (٨) مؤنس، حسين، فجر الإسلام، ص٥٤٤.
- (٩) المقرئ، نوح الطيب، ص٢٦٠، ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله(ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الإحاطة بأخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣، ج١، ص١٠.
- (١٠) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص١٧٢.
- (١١) ابن جلجل، أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي(كان حياً سنة٣٧٧هـ/٩٨٧م) طبقات الحكماء والأطباء، تحقيق فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص٥٩.
- (١٢) البلاذري فتوح البلدان، ص٢٥٢. و الشاعر أبي زبيد الطائي اسمه حرملة بن المنذر وهو من المعمرين عاش في الجاهلية والإسلام توفي سنة(٦٦٢هـ/٦٨١م) انظر العسقلاني، الإصابة، ج٧، ص١٦٢.

مشاركتهم في الحروب أو في الحرس قبل قيام الدولة الأموية (١) أما بعد تولي الأمويين للحكم فقد كان للأكفياء من أهل الذمة مشاركة في الجيوش الأموية لحاجة الدولة إلى خبراتهم ومهارتهم سواء في الشام أم مصر أم العراق أم بلاد فارس (٢) ومما يدل على استفادة الأمويين من الصقالبة أنه في عام (٦٩٣ هـ / ٧٤٤ م) هاجم المسلمون أرض بيزنطة وبسبب درايتهم بأرض البيزنطيين تحقق النصر للعرب، هذا ويكفي وصف يزيد بن المهلب لجيش الشام الذي أرسله الأمويون لمحاربتة عام (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) بقيادة مسلمة بن عبد الملك للدلالة على التمازج الذي اتصف به هذا الجيش من مختلف الطوائف من أهل الذمة ومن الموالي، إذ قال عنه: «برابرة وصقالبة وجرامقة وأقباط وأنباط وأخلاق ... فلاحون وأوباش» (٣). وهذه بعض الإشارات الدالة على التعاون الحربي بين مختلف الطوائف، ولأن الذمي شارك في الجيش الإسلامي فإن الجزية تسقط عنه (٤).

ومن أخلاقيات الإسلام أنه لم يهمل الإنسان في دولته عندما يكبر حيث لا يستطيع إعانة نفسه وغيره، هذا الإنسان الذي خرطه في نسيجه وألزمه بواجباته وأعطاه حقوقه، فقرر له على أثر ذلك الضمان الاجتماعي فالجزية التي دفعها في الإسلام حفظت له شيخوخته، ويتجسد ذلك من خلال ما قام به عمر بن الخطاب عندما رأى شيخاً يهودياً يسأل، فعرف أن الشيخوخة والحاجة هي التي ألبتته إلى ذلك، فأخذته وذهب به إلى خازن بيت مال المسلمين وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم، وقال له: "انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إذا أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم" (٥).

واستمر العمل بهذه القيم الإنسانية في العصر الأموي ويدل على ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة والذي قال فيه: «فانظر أهل الذمة فأرفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه..» (٦).

ومن أجل دمج أهل الذمة في قلب المجتمع العربي الإسلامي ارتبطت فئات المجتمع بعلاقات وشيجة بشتى أنواع التعامل والتواصل، فعلى صعيد الزواج فإن المسلمين كانوا يتزوجون من بنات أهل الذمة كونهن كتابيات- أي من أصحاب الكتب السماوية- ولو تمثل ذلك الزواج في حالات قليلة (٧)، كزواج معاوية بن أبي سفيان من ميسون بنت بحدل الكلبية والتي طلقها بناءً على رغبتها، إذ تآقت نفسها إلى حياة البادية التي كانت تعيشها قبل زواجها (٨) كما عشق الوليد بن يزيد امرأة نصرانية يقال أن اسمها سفري ثم تزوجها بعد أن لاحقها في الأديرة وأعياد المسيحيين (٩) أما زواج المسلمة بغير المسلم فهو أمر محرم ومستحيل حسب الشريعة الإسلامية. وللتأكيد على هذه العلاقات في الحياة اليومية كان المسلمون يزورون جيرانهم اليهود إذا مرضوا (١٠)، إذ لم يكن هناك حرج من تجاور المسلمين مع اليهود، فقد كان لهم أسواق واحدة (١١)، كما أنهم تبادلوا الطعام فيما

-
- (١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٤، والمسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٩٠، والطبري، تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٤٩٠ و حسين، فالح، مشاركة العناصر غير العربية، ص ٢٣٧.
- (٢) الشريف، حامد، أحوال غير المسلمين، ص ٨٤.
- (٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٣٦.
- (٤) الزحيلي، وهبه، نظام الإسلام، ص ٤٠٣.
- (٥) الشرفاوي، عبد الرحمن، الفاروق عمر بن الخطاب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧، ص ٨٦.
- (٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٨٠.
- (٧) الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص ٨٨.
- (٨) الملوحي، عبد المعين، الحب بين المسلمين والنصارى في التاريخ العربي، دار الكنوز، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ٤٠-٤١.
- (٩) المرجع السابق، ص ٤٢-٤٣.
- (١٠) ابن قيم الجوزية أحكام، أهل الذمة، ص ٤٢٧.
- (١١) أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٤.

بينهم ويذكر أبو يوسف في هذا السياق « في حال صحب المسلم ذمياً كانوا يأكلون طعامهم ويركبون دوابهم كما يحل لهم أكل طعامك وركب دابتك» (١) ، وهذا ما أكده عمر بن عبد العزيز في تصرفاته إذ كان يحيل كل يوم من ماله درهماً في طعام المسلمين ثم يأكل معهم، وكان ينزل بأهل الذمة فيقدمون له الحلبة والبقول وأشباه ذلك مما كانوا يضعون من طعامهم فيعطيههم أكثر من ذلك فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه (٢)، ولم يقتصر الأمر على الطعام فقط بل كانوا يحضرون حفلات بعضهم، وباركوا أعيادهم وشاركوا في جنازهم، وإذا وقعت خصومة بين مسلم وذمي كانا يتساويان أمام القضاء، وكان صاحب الحق يأخذ حقه كما حصل مع مسلمة بن عبد الملك عندما تخاصم مع بعض أهل دير اسحق قرب الناعورة (٣) فقال له عمر بن عبد العزيز وكان خليفة : «لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي ولكن وكن وكن بخصومتك من شئت، وإلا فاجلس مع القوم بين يدي، فوكل مولى له بخصومته وحكم عمر لأهل الدير على مسلمة بالرغم من أنه أميراً أموياً وابن عمه وصهره» (٤) .

أما فيما يخص قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجنائية والقضائية فقد ارتبطت برؤسائهم الدينيين إلا إذا كانت القضية تمس المسلمين (٥) .

لقد تابع الأمويون إذاً سياسة عدم إغفال أهل الذمة وإعطائهم حقهم في العمل حسب حرفهم باستثناء ما يخص تعاليم الإسلام ، بالإضافة إلى عدم عزلهم اجتماعياً ، بل اعتبارهم جزءاً من المجتمع تحقق له الشراكة في معظم الأمور، وهذا يؤدي إلى النمو السليم للمجتمع على أساس الإنسانية.

٥- حرية المعتقد:

بلغ المجتمع الإسلامي حدوداً فاقت التصور في توفير حرية الاعتقاد للآخرين في عصوره المبكرة، إذ وعى المسلمون أن محاكمة معتقدات الناس ليست من شأن أحد أو أي سلطة كانت في مجتمع المسلمين وأن ذلك موكل إلى الله وموعده في الآخرة، بحيث التزم المسلمون بالشريعة الإسلامية في أمر الحريات الدينية التي ركز عليها القرآن الكريم في الآية «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» (٦) ويلاحظ في معظم الاتفاقات والمعاهدات التي وقعها الرسول والخلفاء الراشدين كثرة مفردات البيع والكنائس والصوامع والصلبان – ويبدو هذا تطبيقاً للآية السابقة الذكر – ومثال على ذلك عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس) إذ أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئها وسائر ملتها أنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم... (٧) . وعلى الرغم مما تورده بعض المصادر العربية أن عمر بن الخطاب اشترط على النصارى ألا يستحدثوا من الكنائس شيئاً وألا يجددوا ما خرب منها وما تهدم، أو يعيدوا بناء البيع القائمة في نواح المدن الأهلة بالمسلمين، ولكن هذا

(١) أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٦.

(٢) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ٥، ص ٢١٥.

(٣) الناعورة منطقة بين حلب ومسكنة وكان للمسلمة بن عبد الملك قصر فيها، ابن العديم، بغية الطلب، ج ١٠، ص ٤٦٨٩.

(٤) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن ، سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح، محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، القاهرة، ص ٧٣-٧٤.

(٥) الشريف، حامد، أحوال غير المسلمين، ص ١٢٣.

(٦) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

(٧) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٤٤٩ .

الشرط هو في مجال شك إذ كيف تكون حرية العبادة مكفولة لهم ثم لا تكون حرية إقامة المعابد مكفولة بالقدر نفسه؟ ومن الجائز أن هذه الشرط طُبق على ما تم فتحه عنوة فلا يجوز إحداث شيء جديد من البيع والكنائس فيما يبقى القديم على حاله، ولكن الأمر المثير للاستغراب هو ظهور هذا الشرط مع غيره من الشروط في أوائل العصر العباسي بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين والأمويين! ودليل ذلك أن الكنائس ظلت تُبنى أو يُعاد بناؤها هذا ما فعله معاوية عندما أمر بإعادة بناء كنيسة الرها التي هدمها الزلزال (١)، كما أدى تغاضي الأمويين عن إقامة الكنائس والأديرة إلى إضافات في أعدادها، ففي القدس أُضيفت كنيسة العذراء إلى كنيسة الجلجلة (٢)، كما كان في حلب حوالي سبعين هيكلًا للمسيحيين (٣) ، وفي دمشق خمس عشرة كنيسة (٤)، أما بالنسبة لكنيسة يوحنا التي بنى مكانها الجامع الأموي يذكر ابن عساکر أن الوليد ابن عبد الملك عرض على النصارى مالا كثيرا، وأن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا مقابل كنيسة يوحنا، فرفضوا فهددهم بهدم كنيسة توما لبناء المسجد فيها لأنها لم تكن في العهد (٥) فقبلوا ويقول ابن شداد أنه أخذ كنيسة يوحنا وأعطاهم مقابلها أربع كنائس لم تكن داخلية في العهد (٦) كما ويذكر البلاذري أن معاوية أراد إزالة كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق ولأن النصارى رفضوا ذلك امتنع عن ذلك ثم عاد عبد الملك وطلبها للزيادة في المسجد وأعطاهم مالا لكنهم عادوا ورفضوا، وفي عهد الوليد بن عبد الملك عرض عليهم مالا ثم ضمها للمسجد، وفي عهد عمر بن عبد العزيز اشتكى إليه النصارى أخذ الوليد لكنيستهم، كما مرّ سابقاً، فعرض على المسيحيين إعطاءهم جميع كنائس الغوطة التي أخذت منهم عنوة وصارت للمسلمين، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعجبهم (٧) وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد أمر بأن لا يأذنوا بإقامة كنائس جديدة وبالمقابل نهى عن هدم شيء من الكنائس أو البيع (٨). كما بنيت في مصر عدة كنائس مثل كنيسة (مارمرقص) بالاسكندرية فيما بين عامي (٣٩-٥٦ هـ/٦٥٩-٦٧٥م) كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد بين عامي (٤٧-٦٨ هـ/٦٦٧-٦٨٧م) وأنشأ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان وسمح ببناء كنيسة فيها، وأذن لبعض الأساقفة ببناء ديرين، كما وسمح لكاتبه المسيحي أثناسيوس ببناء كنيسة في قصر الشمع (٩) .

وفي الأندلس أبقى العرب على الكنائس الموجودة فيها ، ولكنهم اعتبروا أملاك الكنائس التي تركها أساقفتها وقساوستها الفارين منها ملكاً للدولة (١٠) ، وبما أن المسلمين لم يخربوا كنائس الشام أو مصر فمن الطبيعي التصور بأنهم لم يخربوا كنائس الأندلس، والدليل على ذلك أنهم لم يخربوا كنيسة قرطبة مع أنهم استولوا على البلد عنوة بل اكتفوا بمشاركة المسيحيين إياها (١١). كما أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية

-
- (١) تترتون، الإسلام وأهل الذمة، ص٤١، و الشريف، حامد، أحوال بلاد الشام، ص١١٩
 - (٢) كرد علي، محمد، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٢، د.ت، ج٦، ص٦.
 - (٣) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٨، ج١، ق١، ص١٣٩.
 - (٤) ابن عساکر تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٣٥٣.
 - (٥) ابن عساکر تهذيب تاريخ دمشق ج١، ص٢٠١؟
 - (٦) النعمي الدمشقي، عبد القادر بن محمد (ت٩٧٨هـ/١٥٧٠م) الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج٢، ص٢٨٨.
 - (٧) البلاذري، فتوح البلدان، ١٣١، والنعمي، الدارس، ج٢، ص٢٨٨.
 - (٨) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٧٢.
 - (٩) خربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص١١٣٩
 - (١٠) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، ص٥١٣.
 - (١١) المرجع السابق، ص٥١٨.

دون أن يمسوها بأذى، وظلت الجماعات النصرانية في المدن والأرياف ملتفة حول أساقفتها وقساوستها ورعاتها ولم يتدخل المسلمون في شيء من علاقاتها بهم، فظلت الكنائس تؤدي وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية(١) .

كما تُركت لأهل الذمة متعة الاحتفالات بأعيادهم الخاصة ، إذ كان المسيحيون يحتفلون في الشوارع مظهرين الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية(٢)، أما اليهود فإنهم احتفلوا بعيد رأس السنة اليهودية ويسمونه عيد رأس هيشا، و احتفلوا بما يسمى عيد صوما ماريا وهو عيد الصوم العظيم ومدته ٢٥ ساعة، وعيد المظال ومدته ٨ ساعات يقضونها بالجلوس تحت ظلال أشجار النخيل والزيتون، بالإضافة إلى عيد الفصح أو الفطر وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير(٣) .

ولم يكن الفرس بمعزل عن هذه الحريات الدينية إذ مارسوا نشاطاتهم الدينية بالوتيرة نفسها من سبقهم من أهل الذمة، وأبرز أعيادهم هو عيد النيروز الذي أحيوه في الربيع(٤) ، وعيد المهرجان، والذي كان يقام في بداية الشتاء .

وإلى جانب هذه الحرية التي أعطاها المسلمون للذميين، والتي تمكنوا من خلالها ممارسة طقوسهم الدينية الممزوجة بالروائح الاجتماعية علناً ، فقد منحهم حق مباشرة التصرفات التي تسمح بها شرائعهم وديانتهم حتى ولو كانت تتعارض مع ما تقضي به الشريعة الإسلامية ومثل ذلك إباحة الخمر وتربية الخنزير، طالما هي لهم وليست للمسلمين، ويخفونها عنهم(٥)، فهم أحرار فيما يفعلونه لكن دون إظهاره على المسلمين.

وترسخ بذلك مبدأ احترام المعتقد، بالاعتراف بهذه الطقوس ولو كانت غريبة على المسلمين، ومن ذلك ما أقر به الإسلام من معتقدات للمجوس الذين حللوا زواج المجوسي من البنات والأمهات، طالما هذا من صلب شريعتهم التي تبيح لهم ذلك، ولقد أثار هذا الأمر حفيظة الخليفة عمر بن عبد العزيز فكتب عمر إلى الحسن البصري(ت ١١٠هـ/٧٢٨م) يسأله : ما بال من مضى من الأئمة قبلنا، أقرروا المجوس على زواج الأمهات والبنات، فكتب إليه الحسن قائلاً : أما بعد فإنما أنت متبع ولست بمبتدع(٦) ، وهذا يعني أن الرسول عاملهم كأهل ذمة لهم شرائعهم الخاصة التي أقرروا عليها، وهو ما يفهم من إشارة أبو عبيد صاحب كتاب الأموال إلى قول عبد الله بن عون : سألت الحسن البصري عن نيران المجوس، لم تُركت ؟ قال: على ذلك صولحو(٧) .

فالأمويون إذاً ممثلو الإسلام منحوا غير المسلمين حرية في ممارسة طقوسهم الدينية ، بشروط عدم الإخلال بالآداب العامة، وبما نصت به تعاليم الإسلام وعهود الفتوحات ، وهذا أظهر حقيقة الإسلام السامح المسالم، مما انعكس على المجتمع والدولة من احترام متبادل على المستويات كافة.

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٢٥-٥٢٦.

(٢) هويدي، مواطنون ، ص ٦٧.

(٣) الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص ١٢١.

(٤) الجاخط ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، ص ١٤٦.

(٥) ابن الجوزية، أحكام أهل الذمة، ص ٢٥٠، وإدوار، معاملة غير لمسلمين، ص ٩٧.

(٦) ابن سلام، الأموال، ص ٨٥. وهويدي، فهمي، مواطنون، ص ٦٢.

(٧) المصدر السابق، نفس الصفحة.

٦- انتشار الفنون وحرية ممارستها :

قال الغزالي : « من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج، ليس له علاج، ومن لم يحركه السماع، فهو ناقصٌ مائلٌ عن الاعتدال بعيدٌ عن الروحانية، زائدٌ في غلظ الطبع وكثافته عن الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنفحات الموزونة »(١)

فالغن إذاً هو مرآة المجتمع حيث تتعكس عليها صورته في الإشراق أو الأفول، وتبرز الصورة مشرقة جلية في العصر الأموي لما وصل إليه فن الغناء والموسيقى من انتشار، فالغناء ليس جديداً على العرب، إذ عرفوه قبل الإسلام وشغفوا به بلونيه المفرح والمبكي، حيث اشتهروا بأغانيهم وأشعارهم الحماسية في الحروب وبعنائهم للإبل في سيرهم وترحالهم، كما رقصوا أطفالهم بالغناء، وبكوا على موتاهم بالنواح(٢) .

ولقد انتشر الغناء في أمهات القرى من بلاد العرب(٣)، حيث غنت النساء العربيات بالإضافة إلى القيان الأجانب في مدن شبه الجزيرة العربية وفي بعض القبائل(٤)، ويبدو أنه لم يكن عند هؤلاء المغنين من قيان وغيرهم قواعد واضحة للغناء تنظم غنائهم قبل الإسلام، بل غنى كل شخص حسب مشاعره وعواطفه، ولم يتحول الغناء إلى فن مرموق إلا بعد ظهور الإسلام وبخاصة في العصر الأموي والعباسي من بعده (٥) .

ولم يكن للغناء والموسيقى خطٌ ثابتٌ في صدر الإسلام، بل كان خطأً بيانياً حسب كل خليفة ونظرته لهذه الفنون إذ لم يُذكر نص صريح في القرآن الكريم يحرم الغناء، وكذلك بالنسبة لأحاديث الرسول الكريم، وإن مال رأي الرسول محمد ﷺ إلى عدم تحريم الغناء، حيث يروي البخاري «عن عائشة أنّ أبا بكر دخل على النبي ﷺ عندها يوم عيد فطر أو الأضحى، وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت به الأنصار يوم بعثت سنة(٦٢٨/هـ م)، فقال أبو بكر : مزمار الشيطان مرتين، فقال النبي ﷺ دعهما يا أبا بكر إنّ لكل قوم عيداً وإن عيدنا هذا اليوم»(٦). ويتضح من هذا الحديث موقف أبي بكر من الغناء، حيث أقل نجم الغناء في عهد كل من أبي بكر وعمر بالإضافة إلى خشيتهما من انشغال الناس بالغناء عن الفتوحات، أو ربما لانشغالهما بالفتوحات عن هذه الأمور(٧) لكن ما إن أشرف عهد عثمان حتى اتسعت دائرة الغناء، ويرجع ذلك ربما لتطور الحياة الاجتماعية نوعاً ما في عهده، ولهدوء وقع الفتوحات، هذا بالإضافة إلى تلون حياة العرب بألوان الحضارة التي احتكوا بها في الإمبراطورية

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥/هـ ١١١١م)، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة كرياضة فوتر سماراغ، أندونيسيا، ج٢، باب السماع، ص٢٧٣.

(٢) الحاج حسن، حسين، حضارة العرب في العصر الأموي، ص١٢٧، والحداء عن العرب نسبة إلى مضر بن نزار بن معد والذي سقط عن بعيره في إحدى أسفاره فقال يا يدها وكان أحسن الناس صوتاً، فاستوثقت الإبل وطاب لها السير فاتخذته العرب حداء برجز الشعر، وكان الحداء أول السماع عند العرب، انظر المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٤٥٧. و ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني(ت٤٥٦/هـ ١٠٦٣م)العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ج٢، ص٣١٤.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٩.

(٤) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط١١، ص٤٦.

(٥) العظم، أسيمة، المجتمع في العصر الأموي، ص٧٨.

(٦) البخاري، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله(ت٢٥٦/هـ ٨٦٩م)صحيح بخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، ط١، ٢٠٠١، ج٥، ص٦٧.

(٧) Farmer, H, History of The Arabian Music, London, 1929, p43. و ضيف، شوقي، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دار الثقافة للطباعة، ص٦٢.

البيزنطية والفارسية، والتي حملها الأسرى معهم(١). ومع أنّ الحركة الغنائية قد توقفت في عهد الإمام علي بن أبي طالب لانشغال الناس بالحروب المستمرة في عهده، إلا أن علياً كان شاعراً وهو أول خليفة سمح بدراسة العلوم والشعر والموسيقى(٢) .

وبذلك لم يُحسم أمر الغناء في صدر الإسلام، أما ما جاء من كراهية العرب للغناء فيما بعد فيبدو أنه جاء متأخراً ومتأثراً بآراء شخصية لبعض الصحابة والتابعين إذ يُذكر أن أهل الحجاز أجازوا الغناء، بل واشتهروا به فيما كرهه أهل العراق، وكذلك أهل الشام في أول الأمر (٣) .

لقد تبلور الغناء والموسيقى في العصر الأموي بصيغة راقية وبانتشارٍ مشهودٍ له، وكان لأسباب الحضارة دور فاعل في ذلك، فجاءت هذه الفنون بحلةٍ جديدةٍ اختلفت عما كانت عليه عند أهل شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ولقد تغيرت نظرة المجتمع إلى الغناء والمغنين مع الزمن، فصار الغناء عملاً محترماً ينهض به ويقبل عليه من لا يُطعن في دينهم (٤)، فما هي معطيات هذا التبلور؟ وما هي مراكز انتشار الفن الأساسية؟ وما موقف الناس خاصة وعامة منه؟ وكيف يجسد السماح بممارسة الغناء والموسيقى قوة في المجتمع؟ وسنأتي الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها في سياق الفقرة الآتية .

لقد وردت عدة روايات ترجح أسباب تطور الغناء في العصر الأموي إلى حالات فردية؛ أي أنه بسبب مغني بحد ذاته مها كان فلا يمكن إسناد انتشار هذه الفنون إلى حادثة واحدة، ولكن يمكن القول بأن الغناء أخذ هذه الصفة المتطورة في العصر الأموي بعد اتصال العرب الوثيق بالأعاجم واستجلابهم لآلاف الرقيق الذين كانوا على جانب كبير من الحضارة، فتنفونوا في ضروب الغناء ، ويمكن تلمس جانب من هذه النتيجة في قول اسحق الموصلي :«... هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الله بالإسلام وفُتحت العراق، وجلب الرقيق الغناء من فارس والروم ،فغنوا الغناء بالفارسية والرومية بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير»(٥) . هذه الآلات التي رافقت الغناء لأنه لا غناء بدون موسيقى، وبالتالي فالموسيقى يتبعها رقص، فالغناء والموسيقى إذًا يقترنان بالرقص وبالتالي بالشعر، إذ أدخل المغنون من الموالي في الغناء العربي آلات جديدة للطرب لعل أهمها العود، وقد يسمى البربط، وكذلك الطنبور وهو فارسي، وبالناي والقانون وهو يوناني، هذا بالإضافة إلى الدف والمزمار والمزهر والصنج التي عرفها العرب قبلاً(٦). وعلى هذه الأنغام تمايل الراقصون ، والرقص: هو غريزة إنسانية لا تحتاج إلى حضارة ومدنية ،لأنه حركات جسدية تحدث بصياح وضجيج وتصفيق بالأيدي وضرب بالأرجل(٧) . ومن

(١) ضيف، الفن ومذاهبه، ص ٥٣. و الحاج حسن، حسين، حضارة العرب في العصر الأموي، ص ١٢٩.

(٢) Farmer., History of The Arabian Music ,p44.

(٣) ابن عبد ربه ،العقد الفريد، ج ٧ ، ص ٧ ، و تيمور بك ،أحمد، الموسيقى والغناء عند العرب، ط١ ، ١٩٦٣ ، ص١٣.

(٤) رشيد، صبحي أنور، مدخل إلى تاريخ الغناء العربي، دار علاء الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٠، ص ٣٥.

(٥) ابن رشيق، العمدة ، ج٢، ص٣١٤. واسحق الموصلي هو ابن ابراهيم النديم وكان هو ووالده من ندماء الخلفاء العباسيين، مات سنة(٢٣٥هـ/٨٤٩م)انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٠٢-٢٠٤.

(٦) البربط أي العود وهي كلمة فارسية تشبه صدر البيط والصدر بالفارسية بر فليل بربط، ابن منظور ، لسان، ج٧، ص٢٥٨. و الطنبور طنبر وطنبار كلمة فارسية معربة أصلها دُنْبِه بَرَه أي مايشبه آلية الحمل، الأزهرى، تهذيب اللغة، ج١٤، ص٤٠، وابن منظور، لسان، ج٤، ص٥٠٤. و الدف هو الجنب لكل شيء انظر، الأزهرى، تهذيب اللغة، ج١٤، ص٥٢. وابن منظور، لسان ، ج٩، ص١٠٤، و الصنج العربي هو الذي يكون في الدفوف ونحوه فأما الصنج ذو الأوتار فدخيل معرب ،الأزهرى، تهذيب، ج١٠، ص٢٩٧، وابن منظور، لسان، ج٢، ص٣١١.

(٧) ضيف، الفن ومذاهبه، ص ٤٨.

يعود إلى دلالات الكلمات التي عبر العرب بها عن الغناء يجد أن بعضها يدل على أصنافٍ من الحركات الجسدية، كما يدل على أصنافٍ من الشعر، فالهزج مثلاً يُطلق على نوع من الغناء، كما يُطلق على نوع من الحركة الجسمية السريعة(١) ، ومثله الرمل حيث أطلقوه على من يهز منكبيه ويسرع في حركته(٢) .

ويبدو أن الغناء انتشر في الحجاز بشكل واسع ، أو بشكل أكبر من غيره ، إذ أصبح الحجاز في العصر الأموي مركزاً للغناء والموسيقى، فاهتم أهله به اهتماماً كبيراً فغدا إقليمهم أشهر الأقاليم العربية بهذا الفن، ونالت المدينة سبق في الغناء، ويبدو أن سبب شهرة الحجاز يعود إلى الثراء من الفتح التي سبق إليها، كما سبق إليها اتخاذ الرقيق، ولأنها كانت عاصمة الدولة العربية الإسلامية سارعت إليها هذه الموجة من موجات الحضارة الوافدة وسرعان ما لحقت بها مكة بعد تدفق الثروات إليها، فتطورت فيها مظاهر الترف حتى صارت مكة منافساً قوياً للمدينة في وفرة المغنين والموسيقيين اللامعين، وفي شدة إقبال الناس على الغناء(٣) . ويعبر الأصفهاني عن موقف أهل الحجاز من الغناء بقوله: « فلا ينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم»(٤)؛ وخاصة في المدينة ، ولكن هل كان للخلفاء الأمويين دور في انتشار الغناء والموسيقى والرقص في الحجاز؟ وما هدفهم من ذلك؟.

لقد انتظم الغناء في الحجاز فأقيمت فيه الحفلات، وعُقدت له الاجتماعات وخصّصت له الأندية، وبذلك ألف المغنون طبقة مميزة في العصر الأموي سواء في مكة أو في المدينة وكانوا من الموالى المخنثين(٥)، وغير المخنثين أو من العرب، ولقد عقد الأصفهاني في كتابه الأغاني للمغنين والمغنيات فصلاً طويلاً، واهتم بتسجيل أخبار الكثير منهم .

أصبح الغناء إذاً فناً معروفاً وعملاً شريفاً، ومتعةً للناس يحترمونها ويقدرونها، ويحضرون حفلاتها بشغف كبير ومن تلك الحفلات ما أقامته المغنية جميلة(٦) والتي اتخذت لنفسها داراً كبيرةً في المدينة تمتلئ دائماً بالمغنين والجواري وشارك فيها ابن مسجح(٧) وابن سريج(٨) والغريص(٩)

(١) الهزج صوت مطرب وقيل صوت فيه بح وقيل صوت دقيق مع ارتفاع وقد تقدم في خفة الكلام وسرعته، انظر ابن سيده، أبو الحسن علي النحوي الأندلسي(١٠٦٥/هـ٤٥٨م)المخصص، تحقيق، خليل ابراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ج١، ص٢٠٩.

(٢) الرمل ،هو فوق المشي ودون العدو، ابن سيده، المخصص، ج١، ص٣٠٨.

(٣) أبو أرشيد ، صبحي، مدخل إلى تاريخ الغناء العربي، ص٣٦.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩، ج٣، ص٢٤٥

(٥) المخنثين ، جمع مخنث وخنثى هو الذي يذهب لا يخلص لذكر ولا لأنثى ، أي الذي له ما للرجال وما للنساء، ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص١٤٥.

(٦) جميلة هي مولاة بني سليم، وهي أصل من أصول الغناء وعنها أخذ العديد من المغنين ماتت في سنة(١٢٥هـ /٧٤٣م) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، ج٨، ص١٨٧ ، و الجندي، أحمد ، من تاريخ الغناء العربي، وزارة الثقافة دمشق، ١٩٨٨ ، ص١٩٨.

(٧) ابن مسجح :اسمه سعيد وهو مولى لبني جمح أو لغيرهم، كان مكي ومغني متقدم وهو من أوائل صانعي الغناء وهو الذي نقل الغناء الفارسي إلى العربي انتقل إلى الشام ثم عاد إلى الحجاز، الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩، ج٣، ص٢٦٧ وما بعدها.

(٨) ابن سريج: كان تركي الأصل ولد في أول عصر الخلفاء الراشدين، مولى لبيت قرشي من مكة، وكان يضرب بالعود مات بعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد ،انظر، الجندي، المرجع السابق، ص١٤-١٥.

(٩) الغريص: بربري اسمه عبد الملك مولى للثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة كان تلميذ ابن سريج ، مات في اليمن سنة(٩٥هـ/٧١٣م) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٨، ج٢ ، ص٣٥٩ وما بعدها، و الجندي، من تاريخ الغناء العربي، ص٣٦-٤٢.

وابن محرز(١) ومن المدينة معبد(٢) وابن عائشة(٣) وغيرهم كثير، ومن المغنيات أيضاً سلامة القس(٤) وحبابة(٥) وغيرهن . ولقد بلغت جميلة في فنها شوطاً بعيداً، حيث كانت تغني بمصاحبة جوقة كبيرة تضرب على العيوان والأوتار، حتى أن الجوقة كانت تبلغ حوالي الخمسين شخصاً، وكانت جميلة تضرب أثناء غنائها وتضرب الجوقة على ضربتها برفقة الراقصات(٦) ، ويمكن القول بأن جميلة كانت معلمة في الغناء، فقد تخرج على يديها تلميذات وتلاميذ في هذا الفن، وفي ذلك يقول معبد عنها أصل الغناء وفرعه (٧) ولم تكن جميلة السباقة إلى ذلك بل سبقتها مغنية أخرى تدعى عزة الميلاء، والتي كانت أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز(٩) كما أنها فتنت فتيان المدينة بحسن غنائها(٩) .

وتحول الغناء في المدينة -بشكل خاص- إلى فن له مصطلحاته ، وكان أول محترف لفن الغناء في المدينة طويس(١٠) وهو الذي صنع الهزج والرمل مخالفاً للغناء القديم معتمداً في ذلك على عروض الشعر وذوق المغني كما وارتقى التلحين وفن إتقانه على يد المغني معبد الذي جدّد في الألحان التي ابتدعها فأغنى الناس بطريقته الغنائية أكثر من صوته. واشتد ولع الحجازيين بالغناء إلى درجة هيجان الخصومة الموسيقية بين مكة والمدينة، فلقد صنع معبد ألحاناً سبعة افتخر بها فاغتاظ المكيون فعرضوا ألحان مغنيهم فانتخبوا من غناء ابن سريج سبعة ألحان وفاضلوا مع ألحان معبد السبعة ثم خيروا أهل المدينة فانتصفوا منهم(١١). ورغم ذلك فمن المبالغة الفصل بين المغنين والمغنيات في مكة والمدينة في هذا العصر، لأن الاتصال كان دائماً بين جميع الذين ارتادوا الدور والنوادي الشهيرة، حيث غدت كل دار هي بمثابة نادياً من نوادي الغناء التي استقبل فيها المغني من أراد السماع

(١) ابن محرز اسمه سليم وهو مولى بني عبد الدر أو مخزوم، تنقل بين مكة والمدينة وتعلم الغناء على يد عزة الميلاء وذهب إلى فارس ليتقن الغناء وكذلك ذهب إلى الشام ليتعلم الغناء الرومي ، فاستخلص غناءً جيداً بين الاثنتين، الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج١، ص٣٧٨ وما بعدها.

(٢) معبد: ابن وهب مولى العاص المخزومي وربما مولى معاوية بن أبي سفيان، وكان من أحسن الناس غناء ومات في عسكر الوليد ابن يزيد في سنة(١٢٦هـ/٧٤٣م)، الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج١، ص٣٦ وما بعدها.

(٣) ابن عائشة: اسمه محمد مجهول الأب ولم يمن يضرب على آلة بل يغني فقط وامتاز بالصوت الحسن، مات في سنة(١٠٠هـ/٧١٨م) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٨، ج٢، ص٢٠٣ وما بعدها.

(٤) سلامة القس : مغنية كبيرة وهي قينة ومولدة من مولدات المدينة وكان مولاها رجل دي ان في مكة فاشتراها يزيد بن عبد الملك بعد أن سمع بها مات تقي سنة(١٣٠هـ/٧٤٧م) الأصفهاني، الأغاني طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، ج٨، ص٣٣٤ وما بعدها، وأحمد الجندي، من تاريخ الغناء، ص٢٠٥-٢١٢.

(٥) حبابة كان اسمها العالية وكانت من موالى المدينة، وكانت جميلة الوجه والغناء سماها يزيد بن عبد الملك بعد شرائها بحبابة وأحبها إلى أن مات بعد موتها بقليل سنة(١٠٥هـ/٧٢٣م) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٩، ج١٥، ص١٢٢ وما بعد.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، ج٨، ص١٨٦.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، ج٨، ص١٨٦.

(٨) عزة هي مولاة لأنصار سكنت المدينة وسميت الميلاء إما لتمايلها في السير أو للبسها الملاءة .. وكانت من أجمل الناس وجهاً وغناءً، الأصفهاني، الأغاني ، تحقيق علي الجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ج١٧، ص١٦٢ وما بعد.

(٩) ابن خرداذبه، اللهو والملاهي، نشر الأب أغناطيوس عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص٣٦.

(١٠) طويس: هو عيسى بن عبد الله كنيته أبو عبد المنعم واشتهر في عهد عثمان بن عفان وكان لا يضرب بالعود، بل ينقر بالدف وهو أول من غنى في المدينة غناءً يدخل في الإيقاع وفر إلى السويداء على إثر طلب المختلين في المدينة ، الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩، ج٣، ص٢٧ وما بعد.

(١١) الأصفهاني، الأغاني طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج١٥، ص٢٩٣.

له، كما كان لبعض الأشراف دور كأنها فنادق (١) . ولقد شاع الغناء في الأعراس وفي حفلات الختان وفي المنتزهات كالعقيق (٢) مثلاً وفي مواسم الحج وعلى الطريق بين مكة والمدينة. ومع أن الحجاز كان مهداً للغناء ومركزاً لانتشاره، إلا أن هذا الفن انتشر في الشام أيضاً بفضل ولع معظم الخلفاء به واستقدامهم للمغنيين، كما أن الغناء والمغنيين لم يُعدّوا في العراق في هذا العصر فهي هو المغني حنين والذي نشأ في الحيرة (٣) ولكن التركيز على نشره في الحجاز كما اتضح من قبل الأمويين كان لأسباب سياسية على ما يبدو، ألا وهي إشغال أهل الحجاز عن الأهداف السياسية من مطالبة بالحكم أو التفكير بسياسة الأمويين، ولكن هذا الهدف انعكس رقيقاً للحجاز التي لم تهمل العلوم الدينية ولا الفنون.

كان معظم الخلفاء إذاً من مشجعي انتشار الغناء، إذ استقبلوا المغنيين استقبالاً يتفوق على استقبالهم للشعراء، ومنحهم جوائز غالية الثمن، وأغدقوا على من استحضروه منهم أعطيات كثيرة، وإذا فاتهم الاستماع لهم في الشام فلم يفهم ذلك بالحجاز أثناء الحج .

وإذا كان معاوية غير مشجع للغناء، فقد كان ابنه يزيد يتحين الفرص لإدخالهم إلى القصر (٤)، ومع ذلك فإن معاوية لم يكره السماع، إذ يذكر ابن عبد ربه أن معاوية سمع عند يزيد غناء فأعجبه الغناء عنده، فلما أصبح قال: من كان ملهيك البارحة؟ قال: سائب خاثر، قال معاوية: فأكثر له العطاء (٥) إذ كان غناء سائب ارتجالاً دون أن يستعمل آلة وكان يقرع بالقضيب إذا أراد الغناء (٦). وها هو عمر بن عبد العزيز يحن إلى الغناء من وقت لآخر بعد أن أصبح خليفة (٧) إذ كان محباً له زمن إمارته حيث صنع مجموعة من الأصوات سجّلها له الأصفهاني (٨) .

وكان أكثر الخلفاء يستمعون لقصائد الشعر التي استبدلت أحياناً بالغناء إذ كان معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد لا يظهرون على الندماء حتى إذا أخذتهم نشوة الطرب لم يطلع عليهم الندماء (٩) ولكن بعض هذه المجالس كانت للهو الصرف والمجون البحت، وسيأتي ذكر ذلك في ما بعد، لكن الغناء الراقي الذي فُتِن به معظم خلفاء بني أمية ومنهم يزيد بن عبد الملك الذي استحضر معبد وابن عائشة وأمر لكل منهما بألف دينار (١٠) واشترى المغنية سلامة بعشرين ألف دينار (١١)، والذي فُتِن بها من الوصف فعشقها عن بُعد، كذلك اشترى حبابة بأربعة آلاف دينار (١٢) بعد أن أصبح خليفة، فقد هام بها قبل خلافته

(١) ضيف، الشعر والغناء، ص ٢٥٧.

(٢) العقيق، مكان من ناحية المدينة فيه عيون ونخل، وهما عقيقان أكبر وأصغر، الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٩.

(٣) حنين بن بلوغ الحيري مختلف في نسبه يكنى أبا كعب وهو مسيحي سكن الحيرة وكان من شاعراً ومغنياً له صنعة متقدمة في الغناء، الأصفهاني، الأغاني، ج ٢، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٨، ص ٣٤١.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، تحقيق علي الجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ج ١٧، ص ٣٠١.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٧، ص ٥٣ .

(٦) سائب هو مولى فارسي اشتراه عبد الله بن جعفر، وكان يغني مرتجلاً بدون آلة، الجندي، تاريخ الغناء، ص ٥٠.

(٧) العظم، اسبحة، المجتمع في العصر الأموي، ص ٨٩.

(٨) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦، ج ٩، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٩) ابراهيم حسن، حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٤٣٤.

(١٠) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، تحقيق عبد الكريم العزباوي، ومحمود غنيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١٠٨.

(١١) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٩، ص ١٢٣.

(١٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

وانشغل بها إلى أن مات. ولقد انساق الوليد بن يزيد إلى أبعد من يزيد حيث استقدم جميع مغني الحجاز وأجازهم جوائز كبيرة(١).

وكان للغناء وقع عند الخلفاء في الحجاز ، فسليمان بن عبد الملك أمر بسباق بين المغنين في الحجاز عندما حج(٢). كما أمر هشام بن عبد الملك لحنين بمئتي دينار ولزامره بمئة وذلك مكافأة له على غنائه وهو في طريق حجه(٣).

واهتم الأشراف وعلية القوم بالغناء كغيرهم، وعقدوا له في بيوتهم المجالس وشجعوا المغنين، وتصدر عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب المركز الأول بالاهتمام بهذا النوع، حيث جمع في قصره في المدينة أكبر عدد من المغنين(٤)، ولقد غنى الدلال في يوم زفاف ابنته إلى الحجاج فطرب عبد الله ودمعت عيناه(٥) وكان من معجبي المغنية جميلة ومحبي مجلسها وغنائها.

كما أطرب المغني طويس أبان بن عثمان بن عفان عندما وقف بين يديه وغناه ، وذلك بعد توليه المدينة لعبد الملك بن مروان ، وكاد أن يطير(٦) . وغنى الغريض للحارث بن خالد المخزومي والي مكة لعبد الملك:
عفتُ الديارُ فما بها أهلُ حزانها(٧) ودمائها(٨) السهل(٩)

فقال له الحارث: يا غريض لا لوم في حبك ولا عذر في هواك، ولا لذة لمن يروح قلبه بك ، يا غريض: لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ إلا أنت لكان حظاً كافياً، يا غريض إنما الدنيا زينة فأزين الزينة ما فرّح النفس، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء(١٠) .

ويظهر هذا القول الحد الذي وصل إليه الغناء من الاهتمام والولع به وبالتالي انتشاره، وبالطبع فانتشاره هو دليل على حضارة المجتمع والحضارة تدل على قوة المجتمع .

ولم يكن خاصة الحجاز هم فقط من هام بالغناء، بل ورد الكثير من الروايات عن مجالس كل من زياد بن أبيه وبشر بن مروان والحجاج الثقفي في العراق(١١).

كما ولم يرَ الفقهاء بأساً من الغناء فعطاء بن أبي رباح استدعى في ختان ولده كلُّ من الغريض وابن سريج (١٢) كما تمكن الغناء من قلب بعض الفقهاء لدرجة الفتون به، وهذا ما كان بالنسبة لعبد الرحمن بن أبي عمار أحد

(١) الأصفهاني، الأغاني،، تحقيق عبد الكريم العزباوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ج١٩، ص١٧١.

(٢) الأصفهاني، الأغاني طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج١، ص٣١٧.

(٣) العظم، أسيمة المجتمع في العصر الأموي، ص٨٧.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص١٩.

(٥) الدلال اسمه ناقد هو مدني مولى بني فهم، كان مضحكاً ومغنياً بشكل جيد، الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج٤، ص٢٦٩، و ص٢٩٣.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج٤، ص٢١٩.

(٧) حزانها جمع حزيز وهو موضع من الأرض كثرت حجارتها وغلظت كأنها السكاكين، أو ما غلظ وصلب من جلد الأرض مع إشراف قليل، ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٣٣٥.

(٨) دماؤها ، الدماث هو السهول من الأرض، ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص١٤٩.

(٩) الذوبخ، سعد فهد، ديوان الحارث بن خالد المخزومي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦، ص٧٦.

(١٠) الأصفهاني ، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩، ج٣، ص٢٣٧.

(١١) الكاظمي، الحضارة الإسلامية، ص١٢٦.

(١٢) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج١، ص٢٧٨، وعطاء بن أسلم بن صفوان تابعي من أجلاء الفقهاء كان عبداً أسوداً ولد فيها ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهم وتوفي فيها، ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٤٦٧.

فقهاء مكة والذي لُقّب بالقس لشدة تمسكه بالدين، فمُنح هذا اللقب لسلامة المغنية لأنه كاد أن يُجن بها عند سماعه لها وهي تغني فدعيت بسلامة القس(١) . وكذلك كان موقف بعض القضاة من الغناء، حيث أدمن أحد قضاة المدينة على سماع قينة له في عهد عمر بن عبد العزيز، فهم عمر بعزله وأرسل في طلبه هو والمغنية ولما مثلاً بين يديه أشار القاضي إلى القينة بالغناء فلما فعلت طرب الخليفة لها وقال للقاضي: اذهب إلى عمك راشد(٢) ، ويدل هذا على براعة المغني وسحر انتشاره حتى على القاضي والخليفة . ولقد شغف عامة الناس بالغناء وكانوا يقفون للاستماع حيثما سمعوا غناءً، ولو عطّلوا أشغالهم(٣).

ومن الواضح الصلة الأساسية بين الشعر والغناء ، فالشعر هو المادة الأولية للغناء، وهو ركيزته الأولى، وبهذا فالعلاقة قوية بين الشعراء والمغنين في هذا العصر، وفي كل عصر، إذ كان الغناء بمثابة وسيلة إعلامية لنشر الشعر وشيوعه، فلقد كانت هناك مصاحبة بين ابن سريج وعمر بن أبي ربيعة، كما تصاحب الأحوص والعرجي، والحارث بن خالد المخزومي مع المغنين والمغنيات فقد كان شعر هؤلاء مادة فنية غنية للمغنين وبخاصة الشعر الغزلي لعمر بن أبي ربيعة، حيث كان المغنون يضعون له الألحان الشجية و يكيّفون الشعر حسب أغانيهم وألحانهم (٤) وعلى ذلك فالغناء ساعد على انتشار الشعر ومعرفته والاستمتاع به.

فانتشار الغناء إذًا مثل قوة من جانب الدولة الأموية التي شجعت عليه سواء لأسباب سياسية أو حضارية فالمهم هو انتشار الفنون في هذا العصر وعدم حجبها عن الناس .

٧-الاهتمام بالشؤون الصحية:

إن غاية الإسلام الأساسية حفظ حياة الإنسان والعناية بصحته الجسدية والنفسية، ومن هذا المنطلق ظهر اهتمام الإسلام بالصحة، وأدواتها المتمثلة بالطب، وكذلك بالنظافة العامة وعدم انتشار الأوبئة الأمر الذي ينعكس على صحة المجتمع ، وبالتالي تجنب الأمراض، وهذا يدل على استيعاب الأمويين لأهمية الصحة أفراداً ومحيطاً والاهتمام بكل ما يؤمن ذلك، فكيف استطاع الأمويون الاهتمام بالصحة العامة؟ وما هي الإجراءات التي قاموا بها من أجل ذلك؟.

لقد حضّ الإسلام على نظافة الإنسان في مأكله، ومشربه، وتداويه إذا مرض، وصحيح أن العرب قبل الإسلام عرفوا بعض الأمور الطبية، إلا أن الإسلام جاء ووضعها في قالب متزن وموضوعي، ومن تلك الممارسات التي خبّرها العرب الكي والتداوي بالأعشاب ..وصولاً إلى خلط معارفهم بالشعوذة والسحر(٥) . ولقد كرّس الإسلام المفاهيم العلمية للطب لكنه حرص على إلغاء السحر والشعوذة .

(١) أحمد الجندي، من تاريخ الغناء العربي، ص٢٠٦.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٣٤-١٣٥.

(٣) العظم، أسيمة، المجتمع في العصر الأموي، ص٩٩.

(٤) ضيف، شوقي، الشعر والغناء، ص١١٣-١١٤. و الأحوص هو عبد الله بن محمد الأنصاري، من المدينة شاعر هجاء لقب بالأحوص لصيق في مؤخرة عينيه، توفي سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م ابن سلام الجمحي، طبقات فحول السفر الثاني، ص٦٤٨، وابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) الشعر والشعراء، مراجعة محمد عبد المنعم عريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٣، ١٩٨٧، الشعر، ص٣٥١، والزركلي، الأعلام، ج٤، ص١١٦، والعرجي عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، نسب إلى موقع العرج قرب الطائف، ويقال أنه أشعر بني أمية، ابن قتيبة، المصدر السابق، ص٣٨٦.

(٥) عكاوي، رحاب موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص١٠.

ومن منطلق أنّ الوقاية خيرٌ من العلاج، قدمت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية العديد من النصائح والتوجيهات للوقاية من الأمراض والمحافظة على صحة الجسم، ولقد تنوعت هذه التوجيهات فمنها ما تعلّق بنوعية الطعام ومنها ما تعلّق بسلوك الإنسان الغذائي، ومنها ما حدّر من بعض الأطعمة والمشروبات، كلُّ ذلك بأسلوب مرکز يطلق عليه اسم الطب النبوي، والذي احتوى على ثلاثمئة حديث(١). وشكلت هذه التوجيهات الثابت الأولية التي ارتكز عليها الطب. وعلى نهج الرسول الكريم سار الخلفاء الراشدين من حيث الاهتمام بالصحة، ومن ذلك اهتمامهم بالرقابة الصحية على الأغذية في الأسواق، فقد كان الخليفة علي بن أبي طالب حريصاً على التجوال في الأسواق، حيث كان يأمر الباعة بتقوى الله، وحسن البيع وعدم النفخ بالذبيحة تحسباً من نقل أي مرض من القصاب إلى اللحم في حال كان مريضاً(٢).

ومن باب نظافة البيئة من نظافة الناس كان الاهتمام بنظافة الطرقات والأماكن العامة والمساجد والبيوت ركناً أساسياً في وصايا الخلفاء، ومن ذلك ما قاله عمر بن الخطاب عندما قدم مكة يطوف طرقتها: «قموا فناءكم»(٣) أي قوموا ونظفوا بيوتكم، كما أسند الخلفاء مهمة مراقبة النظافة في الأمصار إلى ولايتهم، إذ قال أبو موسى الأشعري عندما قدم إلى البصرة، لأهلها: «إن أمير المؤمنين بعثني إليكم لأعلمكم سنتكم، وإنظافكم طرفكم»(٤). كما ترسخت لدى الخلفاء فكرة إبقاء ذوي الأمراض المعدية، والعمل على عدم احتياجهم لأحد ومن ذلك ما قام به عمر بن الخطاب عندما أمر لقوم من نصارى الجابية، كانوا مجذومين بإعطائهم الصدقات وإجراء القوات عليهم(٥).

وإذا كان الخلفاء الراشدون قد ساروا على نهج الرسول الكريم في الاهتمام بالشؤون الصحية، فإن الأمويين توجوا هذه الجهود بتحويل هذه الرعاية من عمل فردي إلى عمل جماعي، أي برعاية رسمية منها، وذلك من خلال تأسيس البيمارستانات، والاهتمام بالطب والأطباء، والحفاظ على البيئة، ونشر الوعي الصحي، والاهتمام بالسجناء وذوي الاحتياجات الخاصة وهذا كله كفل للمجتمع الضمانات الصحية قدر المستطاع.

١- البيمارستانات في الدولة الأموية: تعدّ البيمارستانات مؤسسات علمية على غرار كليات الطب ومستشفياتها التعليمية اليوم، مع فوارق بالإمكانيات، حيث كانت تُعقد فيها الدروس تحت إشراف أطباء أكفيا متخصصين(٦) حيث تلقت الدعم المادي والمعنوي من قبل حكام وولاة الدولة الأموية، وتألّفت البيمارستانات من عدة أنواع منها ما هو ثابت في الحواضر، ومنها متحرك إلى المناطق لمعالجة من لا يستطيع الوصول إلى الحواضر(٨)،

- (١) عبد الرحمن، حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الموصل، ١٩٧٦، ص٤٠، و أكرم، رضا، الطب النبوي، دار الوفاء للطباعة القاهرة، ط١، ٢٠٠٥، ص١٠-١١.
- (٢) الصنعائي، عبد الرزاق بن همام، (ت٨٣٥/هـ٢٢٠م) الأمالي في آثار الصحابة، تحقيق مجدي السيد ابراهيم، مكتبة القرآن القاهرة، دت، ج١، ص١٠٥.
- (٣) الزمخشري، الفائق، ص٤٠٣. وقموا أصلها قم الشيء أي كنسه، ابن منظور، لسان، العرب، ج ١٢، ص٤٩٣.
- (٤) ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن القاضي الكوفي المكي المكنى بأبي بكر(ت٢٣٥/هـ٨٤٩م)، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٩٨٧، ج٥، ص٢٦٤.
- (٥) البلاذري، فتوح البلدان، والجذام داء معروف حيث تصبح الأصابع أو الأطراف مقطوعة، ابن منظور، لسان، ج١٢، ص٨٧.
- (٦) النبراوي، فتحية، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٢٨.
- (٧) عمر، عبيد الفضل، الطب عبر القرون، دار الشواف، الرياض، ط١، ١٩٨٩، ص٦٠.

أو متحرك مع قوافل الحج أو عسكرية متنقلة مع الجيوش.

ويعُدُّ الخليفة الوليد بن عبد الملك الرائد في بناء البيمارستانات رغم أنه كان لمعاوية بن أبي سفيان محاولات جادة في هذا المضمار لكنها لم ترقَّ إلى مستوى عمل رسمي. حيث اعتبر بيمارستان دمشق الصغير الأقدم في الدولة الأموية والذي بناه معاوية، وكان مكانه تحت المئذنة الغربية في الجامع الأموي، ولم يشهد له المؤرخون المتأخرون على أثر (١) .

لكن البيمارستانات النظامية ظهرت زمن الوليد بن عبد الملك والذي كان محباً للبناء والعمران، ومن ضمن ذلك بناءه لبيمارستان دمشق والذي أفرده للمجذومين، حيث أمر بحبسهم كي لا يختلطوا بالناس و قال لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقعد خادماً، وكل ضرير قائداً (٢) كما ورد ذكر لبيمارستان آخر في مصر وموقعه في زقاق القناديل في دار أبي زيد وهو من أزقة الفسطاط (٣). ويمكن معرفة بعض المعلومات عن خصوصية هذه البيمارستانات من خلال المعلومات المتناثرة في الكتب، فقد كان البيمارستان ينقسم إلى قسمين: قسم خاص بالنساء، وقسم خاص بالرجال، وكل قسم منها فيه قاعات للأمراض المختلفة (٤)، كما اعتبرت الصيدلية أهم أركان البيمارستان لاحتواها على أنواع الأدوية والعقاقير الضرورية للمرضى وكان يشرف عليها طبيب وكانت تخضع للمراقبة من قبل المحتسب (٥). كما اتصل بالبيمارستانات مخزناً لخبز الأثاث والطعام، وغيره من احتياجات المرضى ووجد في البيمارستان حمام للرجال وآخر للنساء، وهما للمرضى ومن يعمل في البيمارستان (٦) ، هذا ولا يمكن إغفال وجود المطبخ في البيمارستان والذي يتولى طبخ الطعام للمرضى، حسب ما يقدره الطبيب (٧) .

كان هذا بالنسبة للبيمارستان الثابت، أما بالنسبة للمتقل فهو إما مدني يرافق قوافل الحج، وإما عسكري مرافق للجيوش. و كان الدافع لقيام هذه البيمارستانات هو توفير الرعاية الصحية والطبية لرعاياها، فجهزت مواكب الحج المتجهة إلى مكة بمواد إسعافية و باحتياجات المرضى، حيث وضعت في صناديق خاصة، بالإضافة إلى تواجد الأطباء والممرضين، إذ حرص الخلفاء الأمويين على صحب الأطباء معهم أثناء الحج، كما كُلف الأطباء بمصاحبة أمير الحج (٨) .

أما فيما يخص البيمارستان العسكري الذي رافق الجيوش في حلها وترحالها، وفي حالتها الحرب والسلام، فقد وجد فيها أطباء وممرضين وصيادلة وغللمان، وكل ما يلزم مرضى الحرب من وسائل الراحة والاعتناء

-
- (١) ابن عماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد العسكري دمشقي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ص ٣٣٥.
 - (٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٨، ص ٧٢. الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢٩.
 - (٣) ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم، محمد، أيدير (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٩٩.
 - (٤) الوقاد، محاسن محمد علي، الطب في بلاد الشام زمن الخلافة الأموية، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢٣-٢٤.
 - (٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.
 - (٦) المرجع السابق، ص ٢٣.
 - (٧) المرجع السابق، ص ٢٤.
 - (٨) علي، حجازي حسن، طروادة، مظاهر الاهتمام بالحج والحرمين الشريفين في العصر الأموي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٤١٧.

بهم(١)، كما حرص خلفاء وولاة بني أمية على تزويد الجيوش بكل ما يحتاجونه من آلات وأدوات طبية(٢) فعلى سبيل المثال كان الحجاج الثقفي أول من استحدث أسرة لإسعاف الجرحى، وعُرف بالمحمل(٣) ، وهو الهودج الكبير الحجاجي، وسمي بذلك نسبة إلى الحجاج .

هذا وقد كان للمرأة وجودٌ لافتٌ في هذه المستشفيات العسكرية، إذ لم ينقطع دورها منذ عهد الرسول محمد ﷺ حيث كانت تصحب الجيوش لتداوي الجرحى، وتعد لهم الطعام الصحي، و تشد العظام، وتعمل على خياطة الجروح بالإضافة إلى الجبائر لعلاج جرحى الحروب.

٢- **اهتمام الأمويين بالطب والأطباء:** لقد ورث الأمويون الإسكندرية وأنطاكية وجندنيسابور(٤) والرها ونصيبين(٥) وبصرى الشام، ومدرسة الحيرة ومدرسة حران، وهذه المراكز هي الأهم بالعلوم الطبية في العصور القديمة، حيث استفادوا من خبرات أطبائها وعلمائها، و كان خلفاء بني أمية من أوائل الذين أدخلوا الأطباء الأعاجم إلى حاشيتهم ومنهم: ابن أثال النصراني، طبيب معاوية، والذي كان كثير الافتقاد له، والاعتقاد فيه، والمحادثه معه ليلاً ونهاراً(٦). ولقد كان ابن أثال متمكناً من علمه في الطب . ويتضح زيادة عدد المشتغلين في الطب من الحادثة التي تعرض لها زياد بن أبيه، عندما طُعن في يده، حيث جمع مئة وخمسين طبيباً لمداواته(٧) وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى الوعي الذي وصل إليه المجتمع للحاجة إلى التداوي ومراعاة للصحة، ولم يقتصر الاهتمام بالطب على الخلفاء فقط، بل ظهر عند بعض أمرائهم كخالد بن يزيد بن معاوية، والذي قال عنه الجاحظ: «كان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً فصيحاً جامعاً، وجيد كثير الأدب وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء»(٨). وعلى هذا يمكن اعتباره طبيباً أيضاً .

وبالعودة إلى اهتمام الخلفاء بالطب، يلاحظ حرص عمر بن عبد العزيز على نشر الثقافة الطبية بين الناس، من خلال إخرجه لكتاب أهرن بن أعين القس، وهو خاص بالطب، إلى الملاء(٩)، وكان الطبيب ماسرجويه البصري قد ترجمه من السريانية إلى العربية في ولاية مروان بن الحكم - على الأرجح- وبقي إلى أن أخرجه عمر بن عبد العزيز .ويضاف إلى ذلك ما قام به عمر أيضاً ، إذ خطا خطوة إلى الأمام وذلك بنقله تدريس الطب من

(١) الهوني، فرج محمد، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية، الدار الجماهيرية للنشر، ليبيا، ط١، ١٩٨٦، ص٢٢٠-٢٢١.
(٢) عبد الرحيم، عبد الحسين مهدي، دراسات في تاريخ العراق وحضارته(الجيش والسلاح) جامعة بغداد، ط١، ١٩٨٨، ج٣، ص١٨٠.

(٣) الحراني، أبو عربة الحسين بن أبي معشر بن ودود(٣١٨هـ/٩٣٠م) الأوائل، تحقيق، مشعل بن باني المطيري، دار ابن حزم، بيروت، ط١ ، ٢٠٠٣، ج١، ص١٧٠.

(٤) جند يسابور ، مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه، وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده ،وهي مدينة خصبة واسعة الخير، الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٧٠.

(٥) نصيبين، كانت من أهم الثغور في العصور الوسطى، وتقع إلى الجنوب الشرقي من تركيا الآن على الحدود السورية وتكاد تلاصق مدينة القامشلي السورية وعلى مقربة من مدينة ماردين، يحيى شامي، موسوعة المدن، ص٣١٦..

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧١.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص٦٠.

(٨) الجاحظ ، البيان والتبيين، ج١ ، ٣٢٨.

(٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٣٢ ، وأهرن هو طبيب رومي ويسمى أيضاً أقرن، لا يعرف سنة ميلاده ولا وفاته ألف كناشه السريانية، وهو من تلاميذ مدرسة الإسكندرية وربما أدرك أوائل الخلفاء الراشدين، عاش أكثر عمره في سوريا، ابن الفظي جمال الدين، أبو الحسن (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تصحيح محمد أمين الخانجي الكتبي ، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٨، ص٥٧.

الإسكندرية إلى أنطاكية وحران(١) . كان هذا عن بعض الاهتمامات لبعض الخلفاء والأمراء الأمويين أما بالنسبة للأطباء في هذا العصر: فإنه ورغم ما عُرف عن المنطقة التي قامت فيها عاصمة الخلافة الأموية من تقدم نسبي في الحقبة السابقة للفتح العربي لها؛ أي أنه يمكن القول أنها كانت متقدمة على الصعيد الصحي وبالتالي لا بد أن يكون قد وجد فيها عدداً من الأطباء كانوا عوناً لخلفاء بني أمية في تحقيق أمانهم نحو حياة صحية أفضل تتناسب مع حدود الدولة الجغرافية والاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية(٢) . ولكن الملاحظ عدم تناسب أعداد الأطباء الذين ورد ذكرهم في بعض المصادر مع هذه التقاطعات الحضارية للدولة الأموية، وربما يعود سبب ذلك إلى إهمال الجوانب الحضارية والتركيز على الجانب السياسي المبطن بالجانب الديني، كما ويلاحظ أن معظم الأطباء الذين اشتهروا في العصر الأموي كانوا من النصارى، وكان غالبيتهم من الروم الذين حفظوا تراث اليونان فيما بعد، كما أن عمل هؤلاء الأطباء في البلاط الأموي هو السبب في تسليط الضوء عليهم(٣) ومن أبرز الأطباء الذين ذُكروا:

أ-ابن آثال: كان خبيراً بالأدوية والسموم، وربما من أجل هذا قربه معاوية منه، كي يتخلص من خصومه السياسيين(٤)، ولذلك وثق به وأبقاه معه أينما ذهب، وبقي في خدمته إلى أن مات على يد خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد(٥)، والذي قتله انتقاماً لمقتل عمه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على يد ابن آثال بالسم(٦).

ب-أبو الحكم الدمشقي: كان نصرانياً شبيهاً بابن آثال لجهة معرفته بالأدوية والسموم(٧)، وبقي أبو الحكم مغمور الذكر بعد وفاة معاوية، سوى بعض الإشارات البسيطة، حيث يذكر أنه عالج عبد الملك بن مروان في مرضه الأخير، إذ حماه عن شرب الماء لعدة أيام، لكن عبد الملك لم يحتمل إلا يومين، فشرب الماء ومات على إثرها(٨).

ج-الحكم الدمشقي: ابن الطبيب أبو الحكم الدمشقي، تعلم الطب نتيجة مرافقته لوالده، كما امتاز بالجراحة الطبية وبياقف النزيف(٩) .

د-تيانوق: طبيب رومي دمشقي اقترن اسمه بالحجاج الثقفي، حيث كان طبيبه الخاص ولذلك أغدق عليه الأموال(١٠) ، لأنه كان يثق به ، وأكثر الأمور التي اشتهر بها النصائح الطبية من خلال المعلومات التي قدمها ومنها: عدم شرب الدواء من غير مرض، وعدم أكل الفاكهة إلا في أوانها، ومضغ الطعام جيداً وعدم حبس البول، وألا يأكل المرء إلا إذا جاع، وغير ذلك من المعلومات الصحية(١١) .ومن إبداعاته الطبية أنه عرف أثر قشر الفستق في إيقاف الإسهال الحاد وذلك بعد أكله ومضغه جيداً(١٢) .و أبدع بمعرفته للأدوية حيث ألف كتاباً

(١) حتي، فيليب، وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف، بيروت، ط ١، ١٩٥٢، ص٣٢٥

(٢) أحمد، علي، التاريخ السياسي والحضاري للعصر الأموي، ص٢٠٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٢٠٢، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٠٩.

(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٢.

(٦) ابن أبي أصيبعة ، ص ١٧٢.

(٧) ابن أبي أصيبعة ، ص١٧٥..

(٨) ابن أبي أصيبعة ، ص١٧٥-١٧٦.

(٩) أحمد ، علي، التاريخ السياسي، ص٢١٢-٢١٣.

(١٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٩.

(١١) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ١٧٩.

(١٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ١٧٩.

خاصاً بابنه سماه إبدال الأدوية، ويدور مضمون هذا الكتاب حول كيفية تحضير الأدوية ومزجها، وبذلك يمكن تسمية الأمراض التي يمكن معالجتها بواسطتها(١). كما عُرف عنه تدريس الطب، ويتضح ذلك من ذكر تلميذ له اسمه الطبيب فرات بن شحناثا اليهودي والذي وصف بإتقان المهنة وبالفضل والدقة(٢)، ويبدو أن تياذوق درّس الطب في منزله بواسط لأنه لازم الحجاج الثقفي حتى وفاته في واسط (٧٠٨/هـ٩٠م) (٣)، إذ إنه لم ترد أي إشارة تدل على تدريسه للطب في أي مكان.

و- عبد الملك بن أبجر الكناني: هذا الطبيب الذي على ما يبدو حصل التباس حول شخصيته وزمانه ومكانه، فابن أبي أصيبعة يذكره باسم عبد الملك بن أبجر الكناني، متولي التدريس في مدرسة الإسكندرية الطبية قبل الفتح الإسلامي (١٩٠/هـ٦٤٠م) وأنه نصراني اعتنق الإسلام، وانتقل إلى الشام في أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز، وهو من قام بتدريس الطب في أنطاكية وحران بعد نقله من الإسكندرية، وكان عمر يعتمد عليه في صناعة الطب(٤). هذا في حين يذكر ابن جلجل،(ت٣٧٧/هـ٩٨٧م)، وهو الأقدم تاريخياً من ابن أبي أصيبعة (٦٦٨/هـ١٢٦٩م) أن ابن أبجر كان طبيباً عالمياً، كان في أيام بني مروان وأن عمر بن عبد العزيز كان يرسل إليه بمائه(٥).

ولقد ناقش محقق كتاب طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل جميع هذه الروايات واستنتج أنه ربما وجد طبيبان مختلفين اسمهما واحد، ويدل على ذلك وجود شخص اسمه أدفر، وهو فيلسوف مسيحي عاش في الإسكندرية وكان شغوفاً بعلم الكيمياء، وربما خلط ابن أبي أصيبعة بينهما(٦).

هـ- ماسرجويه: طبيب بصري يهودي، عمل بالطب وبتأليف الكتب الطبية والصيدلية(٧)، بالإضافة إلى الترجمة فهو الذي ترجم كتاب أهرن الذي أخرجه عمر بن عبد العزيز إلى الناس(٨).

ومن الملاحظ أن أطباء هذا العصر لم يحدّثوا كثيراً في معارفهم بل بقيت معلوماتهم التي نقلوها عن سبقهم.

٣- الحفاظ على البيئة: تعد نظافة البيئة مظهراً من مظاهر رقي الأمم، ومعلماً من معالم نضج الوعي الصحي عند هذه الأمة أو تلك، ولذلك اعتبر الإسلام النظافة ركيزة من ركائز أداء العبادات، وعلى هذا الأساس تابع خلفاء بني أمية وولاتهم دعم قيم المحافظة على البيئة، ومن ذلك اهتمام الدولة بتنظيف الأنهار الكبيرة من الأوساخ التي تعيق جريان الماء، ففي عهد سليمان بن عبد الملك شكا الناس قلة الماء في نهر بردى، فأمر الخليفة بكراية أصل عين الماء(٩)، ويدل هذا العمل على حرص الخليفة على تنظيف الأنهار كي لا تترك الماء فيها وتتسبب بانتشار الحشرات وبالتالي إحداث التلوث الذي يؤثر على صحة الناس. إذ إن المياه النظيفة كانت هاجس الأمويين فقد عملوا على إيصالها إلى الدور والسكك والحمامات ومثل ذلك ما قام به يزيد بن معاوية من حفر لعدة قنوات ونهر في دمشق(١٠). كما حرصت الدولة الأموية على نظافة الطرق والبيوت، فزياد بن أبيه

(١) ابن أبي أصيبعة، ص ١٨١.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ص ٢٣٠.

(٣) ابن أبي أصيبعة، ص ١٧١.

(٤) ابن أبي أصيبعة، ص ١٧١.

(٥) ابن جلجل، طبقات الحكماء والأطباء، ص ٥٩.

(٦) ابن جلجل، حاشية الصفحة ٦٠-٥٩.

(٧) القفطي، أخبار العلماء، ص ٢١٣.

(٨) ابن جلجل، طبقات الحكماء، ص ٦١.

(٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٣٧٠. وكري النهر أي حفره، ابن منظور، لسان، ج ١٤، ص ٢١٩.

(١٠) الاضطخري، المسالك والممالك، ص ٥٩.

أخذ على عاتقه مسؤولية نظافة مدينة البصرة، حيث حاول إلزام الناس بتنظيف أبنية بيوتهم من الطمي، وخاصة بعد سقوط المطر، ومن يتخلف عن ذلك يُلقى الطين في بيته حسب أوامر زياد، كما أمرهم بتنظيف طرقهم من القدر، ثم إنه اشترى عبيداً ووكلمهم بذلك (١) كما أصدر بعض ولاية الأمويين القوانين الصارمة على الأشخاص الذين يتسببون في تلوث البيئة، ومن ذلك الأمر الذي أصدره الحجاج الثقفي، الذي يمنع التبول في الأماكن العامة، بسبب انتشار الأوبئة، وقام بمعاقبة كل من خالفها بالحبس، إذ حبس أعرابي لمدة سبع سنين لأنه بال في أصل ربهض (٢) واسط (٣)، وهذه بعض الإجراءات التي اتخذها عدد من الولاة الأمويين، لكن لا بد من القول بأنه في كل دولة أو عصر لا يمكن تعميم المسائل فلا يمكن أن تكون كل البلاد نظيفة كما لا يمكن العكس، ولكن تسليط الضوء يكون على محاولة الحكام قدر الإمكان إرساء القواعد الصحيحة وإن لم تُطبق.

كما ويدل وجود الحمامات بكثرة وخاصة في دمشق، على الحرص على النظافة، فقد قال الوليد بن عبد الملك لأهل دمشق: «يا أهل دمشق إنكم تفخرون على الناس بأربع، بمائكم و هوائكم وفاكهتكم وحماماتكم،» (٤). كما شهدت البصرة بناء عدد من الحمامات، وعلى الأخص في أيام زياد بن أبيه ومنها حمام فيل مولى زياد (٥)، وحمام المنجاب لصاحبه المنجاب بن راشد الضبي، وحمام سياه لصاحبه سياه الأسواري، وحمام ربطة بنت زياد بن أبيه (٦)، وحمام بلج لصاحبه بلج بن شبة (٧)، ولقد بلغ حرص زياد بن أبيه إلى درجة عالية، عندما أمر ببناء الحمامات في الأماكن التي لا تضر بأحد (٨) • يضاف إليها حمامات الكوفة ومنها: حمام أعين، وحمام سعد في ضواحي الكوفة على طريق الحج (٩) وفي الفسطاط يذكر عدد من الحمامات منها: حمام الفأر لعبد الله بن عمرو بن العاص (١٠) وحمام آخر لعبد الله عرف بحمام سهل (١١) بالإضافة إلى حمام سوق وردان (١٢) وكذلك حمام أبي مرة لزبان بن عبد العزيز بن مروان (١٣) وغيرها الكثير.

٤- نشر الوعي الصحي: لقد اهتم ولاية بني أمية بنشر الثقافة الصحية بين الناس، وتوعيتهم بخطورة الأمراض، فكانوا يأمرون بتعليق نشرات صحية في الأماكن التي تكثر بها العامة وخاصة في المساجد، وتحذيرهم من مخاطر تلك الأوبئة، ولذلك قام زياد بن أبيه بتعليق صحيفة في المسجد الأعظم في البصرة كُتب فيها معلومات

-
- (١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٤٤.
 - (٢) ربهض المدينة : هو ما حولها، لسان العرب، ج٧، ص١٥٢.
 - (٣) العسكري، الحسن بن عبد الله بن هلال (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا، ط١، ١٩٨٧، ص٣٣٩.
 - (٤) ابن كثير، البداية، ج٩، ص١٥٧ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث وفيات سنة (٨١-١٠٠هـ/٧٠٠-٧١٨م)، ص٣٢،
 - (٥) ابن الفقيه، البلدان، ص١٨٩.
 - (٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤٨.
 - (٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٣١.
 - (٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤٩.
 - (٩) البراقي، حسين بن أحمد، تاريخ الكوفة، دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص١١٧، و التلاوي، حسين، الكوفة حتى نهاية العصر الأموي، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، ص٢٠٧-٢٠٨.
 - (١٠) سمي بالفأر مقارنة مع حمامات الروم الكبيرة، بن عبد الحكم، ص٨٢.
 - (١١) ابن عبد الحكم، ص٧٤.
 - (١٢) ابن عبد الحكم، ص٨٣، والكندي، الولاة والقضاة، ص٧١-٧٢.
 - (١٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

عن داء الكلب(١)، وهذا العمل من أجل تحذير الناس من هذا المرض واتباع الإجراءات الصحية والطبية، تجنباً لإصابتهم بهذا المرض.

٥-الرعاية الصحية للسجناء وذوي الاحتياجات الخاصة: انطلاقاً من أن كرامة الإنسان مكفولة بنص القرآن والسنة في كل الظروف، فقد حرصت الحضارة العربية على سلامة السجناء من الناحية الصحية والنفسية، كي لا يخرجوا من سجنهم إلى الحياة كارهين للمجتمع، وعدم التمرد عليه، ولذلك اهتمت الدولة الأموية برعاية السجناء، حيث قدمت لهم الطعام والشراب والفرش النظيف، وكذلك اللباس الخاص في الشتاء و الصيف، من عهد معاوية إلى عهد عمر بن عبد العزيز(٢) ، كما اهتموا بمداواة السجناء المريض إلى أن يشفى(٣).

هذا ولم تُهمل الدولة الأموية ذوي الاحتياجات الخاصة، بل ركزت اهتمامها عليهم، فالخليفة الوليد بن عبد الملك كان من أوائل الذين اهتموا بهم، ولم يقتصر الأمر على الوليد بن عبد الملك في رعاية تلك الفئات الخاصة، بل كان الخليفة عمر بن عبد العزيز أيضاً له إسهاماً كبيراً في خدمة هؤلاء، حيث كتب إلى أمصار الشام ليرفعوا إليه كل أعمى ، أو مقعد، أو من به فالج أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة فرفعوا إليه ذلك، فأمر عمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم(٤) .

فاهتمام الأمويين بالصحة إذاً عكس مدى الحرص الذي فكروا به من أجل سلامة المجتمع والحفاظ على صحة المدني والعسكري والحاج والسجين والمحيط بالإضافة إلى الاهتمام بالأطباء وتوصياتهم، وكلها علامات تصب في مضممار قوة الدولة.

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ج٢، ص١٢. وداء الكلب ، يجعل من يصيبه يعوي عواء الكلب ويمزق ثيابه، ويعقر من يصيب، ويبقى هكذا حتى يأخذه العطش فيموت من شدة العطش، ابن منظور، لسان، ج١، ص٧٢٣.

(٢) بن سعد الطبقات، ج٥، ص٣٥٧.

(٣) أبو غدة، حسن، أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام ، مكتبة المنار ، الكويت ، ط١، ١٩٨٦، ص٣٧٠.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٥، ص٢١٨ .

ثانياً: مظاهر الضعف في المجال الاجتماعي:

١- النظرة السلبية للعنصر غير العربي(الموالي -الحمراء)

٢- انتشار ظاهرة المجون واللهو.

١- النظرة السلبية إلى العنصر غير العربي (الموالي- الحمراء*):

حض القرآن الكريم على شمولية الدعوة الإسلامية ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ (١). كما دعا الإسلام إلى المساواة بين المسلمين، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «بأن المسلمين أخوة» (٢) وعلى هذا الأساس فالمسلمون سواسية. ولكن السؤال القائم هل بقي الالتزام بهذه الأوامر السماوية؟ وإذا تم تجاوزها، فإلى أي مدى تم ذلك؟ وما هي دوافعه؟
وقبل الخوض في معاملة الأمويين للمسلمين غير العرب لا بد بداية من توضيح مصطلح الموالي أولاً:

١- معنى الولاء وأشكاله: ولّي من أسماء الله، والولي هو الناصر، وقيل المتولي لأمر العالم والخلائق (٣) والولاية كالإمارة وهي مصدر (٤)، والمولى هو الحليف وهو من انضم إليك فُعز بعزك وامتنع بمنعتك، كما قيل أن المولى هو المعتق، أي من انتسب بنسبك، ولهذا قيل للمعتقين الموالي (٥)، وكان للمولى مواضع عند العرب منها المولى في الدين، وهو الولي وذلك قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (٦) إي لا معين ولا نصير. فالمقصود إذاً من جميع هذه المعاني الواردة بأن الموالي هم الذين كانوا أرقاء، ثم تخلصوا من الرق باعتناقهم الإسلام وجأهم من العجم، مسلمون غير عرب، وقد كانوا يشكلون أغلبية سكان البلاد المفتوحة، والمولى يترك نسبه إلى أهله وينتسب إلى مولاه.
ولقد تعددت أنواع الولاء فمنهم ولاء رق، ومنهم ولاء عتق، ومنهم ولاء رحم:
أ- ولاء الرق: وهو أول أنواع الولاء في الإسلام، وهو الأصيل تقريباً في هذا النظام، حيث كانت العلاقة بين المالك وعبده علاقة ولاء، ويدوم هذا الولاء ما دام العبد ملك سيده، ويحق للمالك بيع مملوكه أو هبته أو إهدائه أو توريثه لأبنائه (٧).

ب- ولاء العتق: وكانت العلاقة في هذا الولاء على عكس العلاقة في ولاء الرق، بحيث تصبح دائمة عندما يتم عتقه، وتنتشر هذه العلاقة بعاطفة الود لولي النعمة الذي أعطاه الحرية، وهناك عدة أشكال لهذا العتق منها: المكاتب (٨): وهو العتق الذي يجري بعد اتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع، حيث يكتب العبد على نفسه صكاً ثمن معلوم، فإذا عمل وأداه أعتقه مالكة (٩). وعتق سائب: وهو أن يُعتق العبد بأن يقول المالك: للعبد: أنت سائب أو أنت سائبة، لوجه الله تعالى طمعاً بالثواب (١٠). وعتق التدبير: وهو أن يعد المالك عبده بأنه سيصبح حراً بعد موته إلا إذا عاد عن وعده قيل وفاته (١١).

ج- ولاء الرحم: يُكتسب هذا الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل، فينتسب الموالي إلى القبيلة التي يتزوج من

* الحمراء ك كانت العرب تسمى العجم الحمراء، انظر: الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس في جواهر القاموس، دار الهداية، تحقيق مجموعة من المحققين، ج ٣٦، ص ٢٧٣، والأزهري، تهذيب اللغة، ج ٦، ص ٤٠، (١) سورة الأنبياء، آية، ١٠٧.
(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ٢٩٧.
(٣) ابن سيده، المخصص، ج ٤، ص ١٧٨، ابن منظور، لسان، ج ١٥، ص ٤٠٦.
(٤) ابن سيده، المخصص، ج ٤، ص ٢٨٤.
(٥) الحاج حسن، حسين، حضارة العرب في العصر الأموي، ص ٨٩.
(٦) سورة محمد، آية ١١.
(٧) مقداد، محمود، الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨، ص ١٢١-١٢٢.
(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٧٠٠.
(٩) مقداد، محمود، المرجع السابق، ص ١٢٧، والحاج حسن، حسين، الحضارة العربية في العصر الأموي، ص ٩١.
(١٠) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن، ج ٢، ص ٣٠٣.
(١١) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن، ج ٢، ص ٣٠٣.

لقد أدى تتالي الفتوحات العربية إلى تدفق سيل من الرقيق والسبي على العرب ، فلم يجد هؤلاء اسماً يطلقونه عليهم سوى الموالي، ثم أخذت هذه التسمية مفهوماً مجدداً فأصبحت تطلق على كل من أسلم من غير العرب سواء أكان رقيقاً أم حراً(٢) ، ولقد شكل هؤلاء الموالي طبقة كبيرة في المجتمع العربي، وحصلوا من الناحية الاسمية على معظم ما للعرب من الحقوق، ولكن فعلياً لم ينل هذه الحقوق إلا عدداً قليلاً من الدهاقين، لأنهم اعتُبروا وسيلة لإخضاع الولايات التي كانت تحت أيديهم، وفيما عدا ذلك فالسياسة العامة لمعاملة الموالي اعتمدت أسلوب الاحتقار والازدراء منهم، إذ عاملوهم معاملة العبيد، واعتبروهم أقل منزلة منهم، وكانت هذه السياسة انعكاس للعصبية العربية التي تمسك بها الأمويون- هذه السياسة التي كانت ذو حدين فهي تؤدي إلى تماسك العنصر العربي لكنها بالمقابل تؤدي إلى نقمة غير العرب عليهم- ولذلك لم يستطع أولئك الموالي التحرك إلا في عهد عمر بن عبد العزيز، الذي تساهل معهم وأقام فيهم العدل، هذا ما لم يقبل به بنو أمية(٣).

٢- معاملة الموالي في الحياة اليومية: تقدم القرشيون في العصر الأموي على سائر قبائل العرب، كما تقدم العرب على سائر الأمم الذين دانوا بالإسلام، واعتبروا أنفسهم أنهم خلُقوا للسياسة والسيادة، وأن غيرهم خلُق للخدمة والمهانة، ويروى أنّ عربياً تشاجر مع مولى بين يدي عبد الله بن عامر والي العراق، فقال له المولى: لا أكثر الله فينا مثلك، فقال له العربي: بل كثر الله فينا مثلك، فقيل: أيدعو عليكم وتدعو له؟ قال: نعم، يكنسون طرفنا، ويخرزون خفافنا، ويحكون ثيابنا»(٤)، وبلغ الأمر بنافع بن جبير(٥) إلى أنه اعتبر صلته خلف المولى هي تقرب إلى الله به(٦)، واستهزأ نافع هذا بقيمة الموالي حتى في رهبة الموت، فإذا مرت به جنازة سأل من هذا؟ فإذا قيل له قرشي، قال: واقوماه ! وإذا قيل له عربي، قال: واويلتاه ! وإذا قيل له مولى، قال: هذا مال الله يأخذ ما يريد ويترك ما يريد(٧)، ولأن المولى في نظرهم خلُق للمهانة فإذا كان المولى راكباً أنزله العربي ليركب مكانه(٨)، بل وصل الأمر ببعض العرب أن جعلوا المولى بمنزلة الحيوانات، ومن ذلك قولهم: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى(٩)، بل إنهم لم يسمحوا للمولى بالصلاة على الجنازة، إذا حضر أحد من العرب(١٠). ولقد بلغ الحقد والكراهية للموالي درجة أن بعض العرب كره حتى وجودهم، ومن ذلك ما قاله الشعبي عندما مرّ ووجد حماداً(١١) وحوله أصحابه من الموالي، ولهم ضوضاء وصخب، فقال: والله لقد بغض

(١) أمين، أحمد، فجر الإسلام، يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩. ص ٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٠،

(٣) فروخ، عمر، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١٧٥.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٥) نافع بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل من قريش من كبار الرواة للحديث تابعي ثقة من أهل المدينة(ت ٧٩٩هـ/٧١٧م) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ١٥٢.

(٦) ابن عبد ربه، ج ٣، ص ٣٦٠.

(٧) الطبري، ج ٢، ص ٦١٥، وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ١٠. و

Nicholson, A., R, Literary History of the Arab, London, 1923, p247

(٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٦١.

(٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٦١.

(١٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٠-٣٦١.

(١١) حماد الراوية هو أبو القاسم بن سابور أو ميسرة بن مبارك وهو ديلمى من الموالي كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وكان خلفاء بني أمية يقدمونه إليهم ويسألونه عن الأخبار، ابن خلكان (١٥٥هـ/٧٧١م) وفيات، ج ٢، ص ٢٠٦.

إليّ هؤلاء هذا المسجد حتى تركوه أبغض إليّ من كناسة داري(١)، ولا يُستغرب موقف العامة من الناس من الموالي إذا كان أولي الأمر منهم هم أول من خطا على هذا الدرب، ألا وهو معاوية بن أبي سفيان الذي أراد إبادة قسم من الموالي لأنه خاف كثرتهم على سلطانه، فقد روي أن معاوية دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب(٢) وقال لهما: «إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون؟ فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركونا في النسب، فقال سمرة بن جندب اجعلها إليّ أيها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه. فقال قوموا حتى أنظر في هذا الأمر، قال الأحنف فقمنا وأنا خائف وأتيت أهلي وأنا حزينٌ، فلما كان في الغداة أرسل إليّ فعلمتُ أنه أخذ يرأي وترك أمر سمرة»(٣).

٣- الموقف من زواج الموالي: قال الرسول الكريم: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجه»(٤) أي أن شروط الموافقة على الزوج تتجلى في حسن الأخلاق والدين، لكن الأمويين لم يتبنوا هذا المبدأ، إذ رفضوا تزويج المولى بعربية، وذلك لتعصبهم للعرب على سواهم، وكان إذا حدث وتزوج مولى من عربية، فالأمر ينتهي إلى التفريق بينهما، كما حدث لأعراب بني سليم، إذ تزوج أحد الموالي من ابنة لهم فشكا محمد بن بشير الخارجي(من بني خارجة) إلى والي المدينة إبراهيم بن هشام، الذي لم يكتفِ بالفصل بينهما، بل عمد إلى جلد المولى مئتي جلدة، وحلق له رأسه وحاجبيه(٥)، وكثيراً ما فعلوا ذلك بالموالي ولو كانوا من أهل علم وتقوى ومثال ذلك عبد الله بن عون، والذي كان من كرام التابعين، الذي أحب فتاةً عربيةً وتزوجها، ولما علم الوالي بلال بن أبي بردة ضربه بالسوط(٦).

ومع أن زواج العربي بغير عربية كان أخف وقعاً من زواج المولى من عربية، إلا أن بعض الخلفاء الأمويين لاموا من تزوج مولاة، ومن ذلك ما كتبه معاوية بن أبي سفيان إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، عندما علم بأنه أعتق جارية له ثم تزوجها«... أما بعد فقد بلغني أنك تزوجت جاريتك وتركت أكفائك من قريش، ممن نستحسنه للولد، ونمجد به في الصهر، فلا لنفسك فطرت ولا لولدك انتقيت» فردّ عليه الحسين بن علي «أما بعد فقد بلغني كتابك وتعيرك إليّ بأنني تزوجت مولاتي، وتركت أكفائي من قريش، فليس فوق رسول الله منهي في شرف ولا غاية في نسب، وإنما كانت ملك يميني خرجت من يدي بأمر التمسست فيه ثواب الله تعالى ثم ارتجعتها على سنة نبيه ﷺ وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة ووضع عناية النقيصة، فلا لوم على أمر في مسلم إلا في أمر يسأم وإنما اللوم لوم الجاهلية»(٧)، والموقف نفسه؛ أي التعيير، بدر من عبد الملك بن مروان تجاه علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، عندما علم بزواجه من جارية له بعد أن أعتقها، وكان رد علي زين العابدين على عبد الملك بالآتي «كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وقد أعتق رسول الله صفيّة بنت حبي بن أخطب

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص٢٥١.

(٢) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري أبو سعيد من علماء الصحابة كان زياد يستعمله على البصرة ستة أشهر وعلى الكوفة ستة أخرى مات سنة (٦٧٨/٥٥٩م) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص٣٤، التميمي، طبقات مشاهير، ص٣٨، والذهبي، سير أعلام، ج٣، ص١٨٣.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٣، ص٣٦١.

(٤) البيهقي، السنن الصغرى، تحقيق بهجة يوسف محمد أبو الطيب، دار الجيل، بيروت، ط١، ص١٩٩٥، ج٢، ص٤١٩.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج١٦، تحقيق محمد السقا، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦١، ص١٠٦.

(٦) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ص٤٨٧، و عبد الله بن عون بن أرطبان مولى مزينة كان من أكثر أهل البصرة ورعاً وعلماً مات سنة (٧٦٨/١٥١م) انظر: التميمي، مشاهير، ص١٥٠، والذهبي، سير، ج٦، ص٣٦٤.

(٧) النجار، محمد الطيب، الدولة الأموية في الشرق، ص١١١.

وتزوجها»(١)، فالإيمان القوي والإسلام القويم إذًا، كان يمنع مثل هذه النظرة الدونية، بل على العكس من ذلك، إذ كان أصحاب الإيمان يعتبرون أنّ الإسلام هو الأساس وهو المقياس الفارق بين الشرف والخسة.

ولقد بلغ الأمر حدًا بعيداً حتى بين الموالى أنفسهم، إذ فُرض على المولى الخاطب أو على الأبّ أو الأخ إذا أرادوا تزويج ابنتهم استشارة مولى الخاطب أو مولى الفتاة، فإذا تزوج مولى من مولاة، أو زوجت الفتاة بغير إذن مواليتهم، انتهى أمر عقد الزواج بالفسخ واعتبر الزواج سفاحاً(٢)، وإذا صح هذا الأمر فإنه يُعتبر قمة الاحتقار للموالى، ويتبلور هذا الاحتقار في موقف خالد بن صفوان(٣) عندما زوج مولى له من مولاة فقام وخطب أمام الناس في هذا الزواج قائلاً: «..أما بعد فإن الله أعز من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبين، وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة»(٤).

٤-الموقف من الموالى في الحروب والمعارك: بلغ من تعصب الأمويين أن اعتبروا الموالى خُلُقوا لخدمتهم في الحرب والسلام، وبذلك لا يحق لهم مساواتهم في الحرب، حتى في طريقة أدائهم، رغم أن الجميع يحاربون تحت لواء الإسلام، ومن أجل غاية سامية هي نشر الإسلام وترسيخه، ويتضح التعصب تجاه الموالى عندما كانوا يستخدمونهم كمشاة في الحروب، بينما كان العرب يركبون الخيل(٥)، ويبين هذا شعور التعالي على الموالى، وجعلهم جدار صدٍ عن المحاربين العرب، إذ إنّ الممتطي خيلاً يكون أسرع في الركض وفي الهرب من الراجل، ويتبين هذا مما قاله المختار الثقفي لإبراهيم بن الأشتر يوم معركة خازر- مع أن الموالى انضموا إليه في ثورته. «إنّ عامة جنك هؤلاء الحمراء وإن الحرب إن ضرستهم هربوا فاحمل العرب على متن الخيل وأرجل الحمراء أمامهم»(٦)، وبلغ الكره بالموالى إلى أنّ أصحاب مصعب بن الزبير اقترحوا عليه عندما استسلمت إليهم جيوش المختار أن يقتل الموالى ويطلق سراح غيرهم(٧).

ورغم هذه النظرة للموالى إلا أنّ الأمويين أسندوا إليهم مصالح الدولة التي تحتاج إلى أمانة وثقة كالحراسة، وأمانة السر، لكنهم بالمقابل حرموهم من المناصب الرفيعة التي تقتضي الشرف وعلو المنزلة، كالقضاء حتى أنّ الموالى اعتبروا أنفسهم أدنى مرتبة من تولي هذه المناصب، ويدل على ذلك جواب مكحول الشامي(٨) لعمر ابن عبد العزيز، الذي أراد توليته القضاء، فأبى ذلك قائلاً: «لا يقضي بين الناس إلا ذو الشرف في قومه، وأنا يا أمير المؤمنين مولى»(٩).

ولكلّ فعل رد فعل إذ نتج عن هذه المعاملة السيئة للموالى بالإضافة إلى ظلمهم في قضية العطاء والجور عليهم في الجزية والخراج، أن حاول البعض منهم استرداد ما سلب منهم من حقوق، فانضموا إلى بعض الثورات التي قامت ضد الأمويين، كما حاولوا رفع شأنهم عن طريق الإقبال على العلم.

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص١٠٨، والعسقلاني، الإصابة، ج٧، ص٧٣٨.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٣، ص٣٦١.

(٣) خالد بن صفوان ابن الأهمم علامة بليغ فصيح زمانه (ت١٣٣هـ/٧٥٠م) انظر الذهبي، سير أعلام، ج٦، ص٢٢٦.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص٢٥٠.

(٥) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(ت٢٨٥هـ/٨٩٨م) الكامل في اللغة، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٧، ج١، ص٥٧٩..

(٦) المبرد، الكامل، ج٣، ص١٣٧٤.

(٧) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٨٥. وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٦٨.

(٨) مكحول الشامي، أبو عبد الله من سبي كابل مولى لامرأة من هذيل أعتقته فسكن دمشق، وكان من فقهاء أهل الشام وصالحينهم، توفي سنة(١١٢هـ/٧٣٠م) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص٤٥٢، والتميمي، مشاهير، ص١١٤، والأصبهاني، حلية الأولياء، ج٥، ص١٧٧.

(٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٢٢.

٥- انضمام الموالي إلى الثورات المناوئة للأمويين: كانت ثورة المختار الثقفي (٥٦٦ / ٦٨٥ م) أول حركة قوية استغلها الموالي كي ينتقموا لأنفسهم، فالمختار الثقفي رجلٌ عربيٌّ مغامرٌ، صاحب أطماع التمس المجد في أحضان عبد الله بن الزبير فأخفق فولى وجهه شطر محمد بن الحنفية لينصره، وينشر دعوته في المطالبة بثأر الحسين بن علي، وذلك كي يتمكن من الوصول إلى غاياته، وعلى إثر ذلك شاركه الموالي في هذه الأحاسيس حيث وجدوا ضالتهم به، كي ينتقموا من الأمويين، وكان هم المختار الوصول إلى مناله بثتى الوسائل حتى ولو اضطر إلى النفاق على الموالي، إذ كان في حضورهم يُظهر لهم الحب والإخلاص، وفي غيابهم يصرح بحقه وغبه منهم (١). ومهما كانت نتيجة هذه المعركة التي انتهت بقتل المختار، فالمهم أن الموالي رأوا في الحركة متنفساً لهم وشعروا ولو بشيء يسير من القوة التي يستطيعون من خلالها التحرك ضد الحكم العربي المتعصب.

أما الثورة الثانية التي اشترك فيها الموالي مع الناقمين على الحكم الأموي فهي ثورة عبد الرحمن ابن الأشعث الذي غامر وخرج على الحجاج الثقفي، وربما التقى السبب نفسه لدى ابن الأشعث ومن تبعه من العرب والموالي، حيث شعروا بالإهانة وبظلم الحجاج، وجمع ابن الأشعث الناس حوله ضد الحجاج (٢)، وبالفعل جمع أعداداً كثيرة حتى قيل أنها بلغت نحو مئة ألف (٣)، ومهما يكن من أمر الموالي في هذه الثورة سواء أنهم انضموا إليها نتيجة لظروفهم الخاصة وإن لم يكونوا السبب في قيامها، أم أنهم رأوا فيها معاداة لحكومة الشام، رغم أنهم كانوا من الدرجة الثانية فقط (٤) فإن هذه الثورة أيقظت في نفوس الأحزاب المعارضة بما فيهم الموالي التحرك ضد السلطة الأموية، هذا الإيقاظ الذي جعلهم يتحينوا الفرصة من أجل إقامة الدعوة لآل البيت النبوي والتي أدت مع غيرها من الأسباب إلى القضاء على الدولة الأموية.

٦- اتجاه الموالي إلى العلم: لما رأى الموالي هذه النظرة السيئة والمسيئة إليهم حاولوا تحسين صورتهم ورفع منزلتهم، فوجدوا أن أفضل سبيل إلى ذلك كان العلم، لذلك أكبوا عليه يغرفون منه حتى برع عددٌ وافر في مختلف نواحي المعارف والعلوم، وبصورة الفقه، حتى إنهم تغلبوا على معظم المناطق والأقاليم (٥).

إذاً فالمعاملة السيئة التي سلكها الأمويون تجاه الموالي عكست مدى ضيق تفكيرهم وبالوقت نفسه حرصهم على الروح العربية، وربما لو أن الأمويين استوعبوا الموالي لما انحاز هؤلاء إلى الحركات المناوئة للأمويين ولم يشككوا القاعدة العريضة التي اعتمد عليها العباسيون فيما بعد. ولكن بالوقت نفسه يتضح أن الأيام أثبتت صدق إدراك الأمويين بخطر الموالي، إذ سعى الموالي بكل قوتهم لإسقاط الدولة العربية وبالفعل اندفعوا كالسيل في ركب الدعوة العباسية، فضمنوا وجودهم ومكانتهم في الدولة العباسية. وبالإضافة إلى شعور الأمويين بالجمر الذي كان يخفيه رماد الموالي، فإنهم أيقنوا أن شعور القومية في نفوس هؤلاء الموالي الفرس والتركي لن يخبو بهذه السرعة وبهذه البساطة، بل إن بعضهم كان يتفاخر بنسبه على العرب، كما فعل اسماعيل بن يسار الذي كان مولى لبني تميم (٦) والأمثلة على هذه النزعة عديدة (٧)، كما أن الأمويين لم يستطيعوا الثقة بإسلام الموالي، فحاولوا دائماً إجبارهم على دفع الجزية.

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٤٤٨.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٣٢.

(٣) الطبري، ج ٣، ص ٦٢٠، وابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٢٣٢.

(٤) ولهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٠٠.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٦٣.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج ٤، ص ٤١١.

(٧) حجاب، محمد نبيه، الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٦١، ص ١٦٤.

٢- انتشار ظاهرة المجون واللهو:

يرتبط ذكر اللهو والتترف في العصر الأموي مع الحجاز ارتباطاً شديداً على وجه الخصوص، ولم يأت هذا الارتباط من فراغ، بل له إشكاليات ومعطيات منذ الفتوح الأولى إلى نهاية العصر الأموي، ولم يكن الأمويون في الشام على منأى من هذه الملاهي، فبعض خلفاء بني أمية انغمسوا بها إلى أبعد الحدود ومنهم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد. فما هي الأسباب التي أدت إلى تفشي اللهو والمجون في الحجاز؟ وما هي أشكال هذا اللهو؟ وما هي تصرفات خلفاء المجون الذين اشتهروا به؟

رغم أنّ اللهو بجميع أشكاله قد تفشى في أكثر حواضر البلاد العربية مثل دمشق والبصرة والكوفة ومكة والمدينة والطائف، إلا أنه أكثر ما ظهر في مدن الحجاز لعدة دواعي أبرزها: أن الحجاز كان الموطن الأول لقيام أول دولة عربية، وباعتبار أن المدينة هي عاصمة لهذه الدولة فقد تدفقت عليها الأموال كالسيل، ومثال على تلك الأموال: ما بلغته الغنائم التي قُسمت بعد موقعة القادسية إذ وصل سهم الفارس إلى أربعة عشر ألفاً، بينما وصل سهم الراجل إلى سبعة آلاف ومئة (١)، وفي هذا الصدد يعلق المسعودي على ضخامة ثروات أهل المدينة بقوله: « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيما تملك من الأموال في عهد عثمان » (٢). وترادف دخول الأموال إلى المدينة مع دخول العبيد والرقائق، الذي كان يُسبى في الحروب من رجال ونساء، ومن المعروف ما حمله هؤلاء من عادات وتقاليد بلادهم.

أما بالنسبة لمكة وهي المعروفة بثرائها من قبل الدعوة، نتيجة لموقعها، ووجود الكعبة فيها ونتيجة تجارتها، لكنّ طريقاً آخر فُتح أمامها غير طريق القوافل، كان طريق الحروب التي انتهت بالعرب إلى كنوز بلاد فارس والعراق والشام، حيث كان القرشيون مميزين في هذه الفتوح، وكثير منهم كان يترأس الجيوش والحملات، فجمعوا أكثر كنوز الأرض في جحورهم وعاشوا أعلى درجات البذخ والتترف (٣). ولما صارت الخلافة إلى الأمويين نقل معاوية بن أبي سفيان العاصمة إلى دمشق، ومن أجل إسكات أهل الحجاز عن هذا النقل، وعن مطالبة القرشيين بالخلافة؛ أي لإبعادهم عن السياسة، بذل لهم الأموال الطائلة، ولاريب أن هذه السياسة التي ابتدأها معاوية تدل على ذكاء، إذ ألهمت أهل المدينة ومكة في الثراء والإماء، حيث كانت غالبيتهم ضد الحكم الأموي، ولكي يبقى أهل الحجاز غارقين بالتترف أوصى معاوية من جاء بعده من الخلفاء باتباع هذه السياسة، ومن ذلك ما قام به الوليد بن عبد الملك عندما زار المدينة، وقسم فيها رقيقاً كثيراً بين الناس، كما قسم أنية من الذهب والفضة، بالإضافة إلى تقسيم الأموال (٤)، ويبدو أن هذه الأموال لم تكف تصل إلى يد هؤلاء إلا وتتبدد في شتى سبل العبث، فبعد الله بن جعفر كان يفد على معاوية في دمشق فيغمره بالأعطيات، وما إن يعود إلى الحجاز حتى تكون قد تبددت عن بكرة أبيها (٥) فلا عجب والحال كذلك أن تغدو مدن الحجاز مقراً للذة واللهو، ويضاف إلى الأسباب السابقة الذكر مواسم الحج وغيرها من المواسم التي كانت سهلت للشباب سبيل اللهو، وعبدت لهم

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٤٥، والطبري، تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٢٨.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٣) الحاج حسن، حسين، حضارة العرب في العصر الأموي، ص ١٤٨.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٩. وابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٣٠١.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٣٢١.

طرقاً سلكوها مطمئنين، لكنهم شطوا في لهوهم إلى درجة الفسق، ففي الحج كان بعض الشباب يتعرضون للحاجات، ومن أشهرهم الشاعر عمر بن أبي ربيعة الذي اشتهر بتشبيهه بالنساء(١)، ويتضح من بعض شعره ولعه بالحج من أجل لقاء المرأة الحاجة، والتعرض لها، لدرجة أنه وصف أهمية الحج بحضور صاحبتة ، ومن ذلك قوله:

أومت بعينيهما من الهودج لولاك في ذا العام لم أحجج
في الحج إن حجت وماذا منى وأهله إن هي لم تحجج(٢)

ولما سمع أحد فقهاء الحجاز هذا الشعر قال: لعنة الله عليه ما أفسقه، الخير كله في منى إن هي حجت أو لم تحج(٣).

وبلغ الأمر بأحد الشعراء أنه رأى في ازدحام الحجاج على الحجر الأسود فرصة للاحتكاك بالنساء ويقول في ذلك:

يا حبذا الموقف من موقفٍ وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الركن الأسود

ولما بلغ خالد القسري وهو والي مكة قال : أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا اليوم أبداً، ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف(٤).

كما بلغ فتیان المدينة من اللهو مبلغاً ومن الذين أخذهم اللهو أيضاً العرجي ، رغم أنه كان فارساً جواداً ، لكنه أظهر الفسق، وله في ذلك قصصٌ كثيرة تدل على خلاعته وتهتكه. وكانت نهايته مؤلمة، حيث أدى به مجونه وتعرضه للنساء إلى الضرب بالسوط وأقيم على البلس، وصُبَّ على رأسه الزيت وسجن إلى أن مات في سجنه(٥). و النهاية نفسها كانت للشاعر الأحوص الذي ذكرت عنه أخبار في منتهى الفسق والخلاعة(٦). ولم يكن أمر الفسق والمجون مقتصرأ على الرجال دون النساء، ومن اللواتي اشتهرن به كانت قريبتا مروان ابن الحكم، حتى أن معاوية أرسل إليه وكان عامله على المدينة يقول له «اكفني إياهما»(٧).

كما كان المخنثون في الحجاز من أكثر الناس مجوناً وتهتكاً، ومنهم الدلال والغرييض وغيرهم ممن ذُكروا في الأغاني وذكرت قصصهم، ومما ذُكر عن الدلال مثلاً انه صلى مرةً في مكة خلف الإمام فقرأ الإمام ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾(٨) فقال الدلال: لا أدري والله! فضحك الناس وقطعوا الصلاة، فلما قضى

(١) شيبب بالمرأة : قال بها الغزل ، ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٨١.

(٢) عبد الحميد ، محمد محي الدين، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٥٢، ص٤٧٩.

(٣) الأصفهاني ، الأغاني ، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج١، ص٤٠٧.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص١٢٤.

(٥) الأصفهاني، لأغاني، ، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج١، ص٤١١. والبلس هي غرائر من مسوح يجعل فيها التين ويشهر عليها من ينكل به وينادى عليه ، ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٣٠.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج٤، ص٢٤٠ وما بعد ، ج٦، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، ص٢٥٨.

(٧) العظم، أسيمة، المجتمع في العصر الأموي، ص١١٧.

(٨) سورة يس ، آية ٢١.

الوالي صلته دعا به وقال له : وبلك، ألا تدع هذا المجون والسفه؟ فقال له: قد كان عندي أنك تعبد الله، فلما سمعتك تستفهم ظننت أنك قد شككت في ربك فثبتك، فهدده الوالي وأمره ألا يعاود(١). فالمغنون إذاً كان لهم دور سلبي ، حيث ساعدوا أو كانوا جزءاً من الماجنين في ذلك العصر ، كما أكبَّ شبان ذاك العصر على الخمر الذي كان له الأثر الكبير على مجونهم ، وراحوا يتعاطونه دون أن يتقيدوا بشرائع الإسلام التي نهى عنه بآياتٍ عدة منها: ﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾(٢) ، ورغم ذلك أقبل بعض ولاة وأشرف العصر الأموي على الشراب ومنهم: أمية بن عبد الله ابن أسيد الذي دخل على عبد الملك، وفي وجهه أثر، فقال له: ما هذا؟ فقال أمية: قمت في الليل فأصاب الباب. وجهي، فقال عبد الملك:

رأتني صريع الخمر يوماً بسوقها ولشاربيها المدمنين مصارع(٣)

كما غصت مجالس الشراب عند الخاصة بالشعراء والمغنين، فأسرف بعضهم بالشرب إلى حدٍّ يجعله يضيع باب داره ويدخل إلى بيت جيرانه، كما حصل مع الشاعر ابن هرمة الذي عاتبه جيرانه في اليوم التالي على ذلك فقال لهم :

أسأل الله سكرةً قبل موتي وصياح الصبيان يا سكران(٤)

ومن أشرف القوم الذين اشتهروا بالشرب إلى حد الفسق الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخو عثمان لأمه، مع أنه كان من فتيان قريش وشعرائها وشجعانها، إلا أنه كان يشرب الخمر بكثرة، ويروى عنه أنه صلى يوماً بأهل الكوفة الغداة أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال: أأزيدكم؟ وتقياً في المحراب(٥)، كما كان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان مصاحباً لابن سيحان(٦) في شربه وكان يعقد في بيته مجالس للشراب ، وكان ابن سيحان يحضره، فحقد مروان بن الحكم على ابن سيحان هذا، فرصده مرةً في المسجد وقت السحر وهو خارج من بيت الوليد ثملاً فأخذه مروان، وأشهد بعض الناس على سكره، فضرب وسُجن(٧) .

ولم يكن عامة الناس أحسن حالاً من الخاصة في الانغماس في السكر، إذ أدمنوا على شرب الخمر إما في البيوت، ، وإما في الحانات (٨) إذاً في عز الخلافة الأموية وفي فجر التاريخ الإسلامي كان الفسق والفجور سافراً يحدث بين صفوف المسلمين، فقد انتشر الخمر والخلاعة واللواط والتخنث والتشبيب بالنساء(٩). ولم تخلُ

(١) الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج٤، ص٢٧٧.

(٢) سورة المائدة، آية، ٩٠.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٨ ، ص٥٣، وأميه بن عبد الله بن أسيد أموي قرشي، كان من أشرف عصره ولي خراسان لعبد الملك بن مروان، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٤٥، والذهبي، سير أعلام، ج٤، ص٢٧٢.

(٤) ابن هرمة هو ابراهيم بن علي بن سلمة الكناني القرشي، شاعر غزل من سكان المدينة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مدح الوليد بن يزيد، توفي على الأرجح سنة(١٧٦هـ/٧٩٢م) انظر: الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج٤، ص٣٩٧. و البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٢٧، والمعيد، محمد جبار، ديوان ابن هرمة، مطبعة الآداب ، كالפורنيا، ١٩٦٩، ص ٥٤.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٩٥٢، ج١، ص٢٠.

(٦) ابن سيحان هو عبد الرحمن بن أرطأة او ابن سيحان شاعر و آل سيحان من المواليين لحرب بني أمية، الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٧، ج٢، ص٢٤٢.

(٧) الاصفهاني، الأغاني مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٧، ج٢، ص٢٤٧.

(٨) العظم، أسيمة ،المجتمع في العصر الأموي، ص١٠٦.

(٩) العشماوي، محمد سعيد ، الخلافة الإسلامية، ص١٤٧.

حاضرة من الحواضر من المجون فالعراق مثلاً كان الفسق فيه واضحاً وخاصة في البصرة، عندما قدمها زياد بن أبيه والياً لمعاوية، ولذلك خطب فيهم خطبته البتراء (١) التي أشار فيها إلى انتشار الفسق . ولم تخلُ الشام من ظواهر الفسق واللهو والمجون ويأتي الخلفاء على رأس الهرم في ذلك، وقد شهدت قصور بعض الخلفاء الشيء الكثير من ذلك .

لكن لا بد هنا من القول بأنه في كل مجتمع هناك ظواهر سلبية كهذه الظاهرة في العصر الأموي ولا يمكن تعميم السلبية على كل المجتمع فهي بنسب مختلفة بين إقليم وآخر وبين مدينة وأخرى، حسب ظروف ومعطيات ذلك الإقليم وتلك المدينة، وهي بشكل عام نسب ليست بالكثيرة، لكن المستغرب هو انتشار هكذا ظواهر في مجتمع حديث العهد بالإسلام ، وكذلك بين خلفاء هذه الدولة، على الرغم من أن بعضهم لتصف الاتزان والصلابة كمعاوية وعبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز وهشام ومروان بن محمد إلا بعض الخلفاء شذوا عن القاعدة ومنهم:

١-خلفاء اللهو والمجون: لقد بالغ بعض خلفاء بني أمية في لهوهم، وبانت المفاصد في أحوالهم وفي قصورهم سواء أكان ذلك في دمشق في مجالس غنائهم وشربهم، أم في قصورهم خارج دمشق في البوادي، فهل للبيئة التي عاشوا بها تأثير فيما وصلوا إليه من خلاعة ؟ أم انشغال الآباء عنهم أثر في سوء تربيتهم؟ أم كان لرفقة السوء نصيب في ذلك؟ فمن الخلفاء الذين تربعوا على عرش الخلاعة؟

أ- يزيد بن معاوية: والذي على ما يبدو ولع باللهو قبل الخلافة وبعدها، حتى أنه عُرف بيزيد الخمرور، يزيد القرود ويزيد الفهود الفاسق (٢)، هذا ما وصفه به أبو حمزة الخارجي (٣) في خطبة له طعن فيها الأمويين ومنهم يزيد هذا الذي هام بالصيد، حتى أنه كان غائباً في البوادي عندما مات والده معاوية، وربما كان مع ندمائه يلهو ويصيد ويسابق، وفي ذلك يقول الشاعر عبد الله بن همام السلولي (٤)، يعيب على الخلفاء رغبتهم في الصيد وعلى الأخص يزيد:

خشينا القيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا (٥)

وكان يزيد يعتني بمظهر كلابه، إذ ألبسهم الأساور الذهبية، والأجلة (٦) المنسوجة بالذهب، وأقام على كل كلب من كلابه عبداً يتعهد ويخدمه (٧). كما بلغ من حبه للصيد والكلاب أنه ربي قرداً وأسماه أبا قيس، ولذلك سمي بأبي القرود، وكان هذا القرد المدلل يحضر مجلس منادمته ويُطرح له متكاً ويحمل على أتان وحشية وعلى

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص٦١، و الزبير بن البكار الأخبار الموفقيات، ص٢٥٣، و الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص١٩٧، و ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٣٠٤.

(٢) الزبير بن البكار، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٣) أبو حمزة الخارجي، هو المختار بن عوف الأزدي من البصرة، أحد نساك الخوارج الإباضية وخطبانها، خرج على مروان بن محمد وقتل في المدينة سنة (١٣٠هـ/٧٤٧م) انظر: الطبري، ج٤، ص٣٠٢.

(٤) السلولي هو من بني مرة بن صعصعة، أدرك معاوية وبقي إلى أيام سليمان وكان يقال له العطار لحسن شعره، مات سنة (١٠٠هـ/٧١٨م) انظر، الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الثاني، ص٦٢٤-٦٣٢.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٢٢.

(٦) الأجلة من جلل والجلال كل شيء غطاؤه، ابن منظور، لسان، ج١١، ص١١٩.

(٧) ابن البكار، الأخبار الموفقيات، ص٢٨٦، و ابن الطقطقا، الفخري، في الأدب السلطانية، ص٥٥، وابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص٢٢٣.

روضت لذلك بسرج ولجام، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، وكان على أبي قيس من الحرير الأحمر والأصفر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير(١). وإن صح عن يزيد هذه الأمور فهو يعلل سبب استيلاء بعض المسلمين، إن لم يكن غالبيتهم، من تولية معاوية له بالخلافة، وفي ذلك قال الوفد الذي أرسله عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي المدينة إلى الشام لرؤية يزيد عندما سألهم الناس عنه بعد عودتهم: «إنا قدمنا من عند رجلٍ ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، ويطرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان. «(٢) وللحق هنا يجب ذكر ما رد به يزيد على هذا القول الذي ورد من المنذر بن الزبير أخو عبد الله بن الزبير بن العوام: «اللهم إني آثرته وأكرمته وفعل ما قد رأيت فاذكره بالكذب والقطيعة»(٣). ومهما كان الأمر من صحة ما روي عن يزيد فإن كتب التاريخ لم تذكر نزاهته من ذلك.

ب- يزيد بن عبد الملك: أو كما يقال يزيد الثاني، وربما جاء تشبيهه بيزيد بن معاوية جده لأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، من جهة اللهو والاستهتار بالسلطة، هذا الأمر الذي جعل عمر بن عبد العزيز يتردد في توليته للخلافة (٤) حيث هدد بني مروان بالانسحاب إلى المدينة ليجعل الأمر شورى(٥) ويُذكر عن يزيد أنه أشهد أربعين رجلاً من مشايخ دمشق عندما ولي الخلافة ليحلفوا له أنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب في الآخرة(٦) ويرتبط دائماً ذكر يزيد بن عبد الملك بذكر جاريتين هام بهما، وارتمى في حضنهما، وهما حباة وسلامة القس تاركاً وراءه أمور حكم البلاد، لا بل ربما أشرك حباة في أمر السلطنة، والأصح ترك لها أمور الحكم ومن ذلك قوله لها: قد استخفنتك على ما ورد عليّ ونصبت لذلك مولاي فلاناً فاستخفنيه لأقيم معك أياماً وأستمع بك، فقالت: فإني قد عزلته، فغضب عليها وخرج من مجلسها فلما ارتفع النهار وطال عليه هجرها احتال حتى مرت به، فقال لها: قد عزلته، وهي تقول: قد استعملته، فعزل مولاه وولاه وهو لا يدري(٧). وكان يزيد يطرب لغناء حباة إلى حد الجنون، فقد شقَّ حلته مرةً بعد غنائها وقال لها: اتأذنين لي أن أطير؟ قالت: وإلى من تدع الناس، قال إليك(٨). بل بلغ به شغفه بها إلى أن كانت أحد أسباب موته، فبعد موته اعتكف على نفسه باكياً إلى أن مات(٩). هذا بعض ما روي عن أخباره مع هذه الجارية التي استطاعت أخذ قلبه ولبه، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدل على ما بلغته بعض الجوارى من دور في لهو بعض الخلفاء وفسادهم.

ولم يقتصر أمر يزيد على شغفه بالجوارى فقط، بل وصل الأمر به إلى أن يصبح مهرجاً يرقص ويستخف أمام ندمائه وخدمه، ومن ذلك أنه «أرسل إلى المغني معبد، فلما حضر غناه لحناً فطرب وصاح أحسنت والله، أعد فداك أبي وأمي، فأعاد، فردّ عليه مثل قوله الأول، فأعاد ثم قال له: أعد فداك أبي وأمي فأعاد، فاستخفه الطرب حتى وثب وقال لجواريه: افعلن كما أفعل، وجعل يدور ويدورون معه، ولم يزل يدور كما يدور

-
- (١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٥٠، والقلنسوة من ملابس الرأس، ابن منظور، لسان، ج ٦، ص ١٨١.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣٥، وابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٧، محمد، نبيلة، تاريخ الدولة العربية، ص ١٩٨ و العش، يوسف، الدولة الأموية، ص ١٧٤.
(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣٥١، وابن كثير، ج ٨، ص ٢٠٤.
(٤) كانت توليته بالعهد من أخيه سليمان أو من أبيه عبد الملك، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٤٥.
(٥) ابن سعد، الطبقات، ص ٣٤٤.
(٦) العشماوي، الخلافة الإسلامية، ص ١٤٥.
(٧) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٩، ص ٣١١.
(٨) البلاذري، أنساب، ج ٨، ص ٢٥٩، و، الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ١٤٢، و، الطبري، ج ٤، ص ١١٠،
(٩) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٩، الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ١١٠، و، الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ٥، ص ١٥١، وتاريخ الإسلام، حوادث ووفيات سنة (١٠١-١٢٠هـ/٧١٩-٧٢٧م) ص ٢٨١.

الصبيان حتى خرّ مغشياً عليه ووقعن فوقه فابتدره الخدم وأقاموه وجواريه وحملوه»(١). قد بلغ الأمر إذاً بخليفة المسلمين أن يصبح أضحوكة خدمه وجواريه.

ج- **الوليد بن يزيد بن عبد الملك:** سار على نهج أبيه في الخلافة، بل زاد عليه الشيء الكثير، هذا الخليفة الذي نشأ نشأةً مترفةً في قصر والده بدمشق في أجواء سادها اللهو والمجون والمباهج ومعاقرة الخمر، وسماع القيان والغناء والجواري، ورغم وصفه بالفصاحة والشعر، إلا أن وصفه بالفسق والإدمان على شرب الخمر والتهاك بالحرمان(٢) طغى على كل وصف، فقد صورته معظم المصادر بصور شنيعة، تجعل قارئ هذه الأوصاف يشك في المدارك العقلية لهذا الخليفة، فإن كان منزعه عبثياً فهو مبالغٌ فيه، وإن كان شهوانياً فقد تجاوز الحد الذي تفرضه العقيدة والأخلاق والأعراف، ومهما كان أمر تبرير تصرفاته من قبل البعض ومنها تأثير مربيه عبد الصمد بن عبد الأعلى الذي كان ماجناً لاهياً(٣)، أم من اجتماع بطانة أبيه عليه، فهذا لا يعفيه من الاستهتار والمجون، رغم أن الذهبي ينفي عنه تهمة الزندقة إذ يقول: «ولم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة، نعم اشتهر بالخمر وبالتلوط وخرجوا عليه لذلك»(٤). ويبدو من كل الروايات أنها لا تعفي الوليد من المجون الذي وصف به، وإن اختلفت عن نسبة مجونه وانحلاله، والروايات عن انحراف هذا الخليفة كثيرة وشنيعة، وسيتم ذكر بعضها، سواء إن كان صحيحاً، أو مبالغاً فيه، وذلك لإعطاء فكرة على ما كان عليه هذا الخليفة، الذي دفع حياته ثمناً للهوه وللذة. فقد كان الوليد سكيراً من الدرجة الأولى، إذ ذكر صاحب الأغاني أنه كان يشرب من المساء حتى مطلع الفجر سبعين قدحاً(٥) وهنا تبدو المبالغة في الرواية لكن الغرض منها على ما يبدو إظهار مجونه، ويبدو أنه أمعن في غيّه حتى أنه عندما أمره الخليفة هشام بن عبد الملك، لما كان ولياً للعهد، بالحج سنة (١١٦هـ / ٧٣٤ م) حمل معه كلاباً في الصناديق وتشاغل بالمغنين والشراب وأمر مولى له فحج بالناس(٦)، بل قيل أنه أراد نصب بيتاً له فوق الكعبة ليجلس فيها ويشرب لكنه نُصح ألا يفعل ذلك(٧)، بل لقد تعدى الأمر إلى أبعد من ذلك، إذ تذكر الروايات أنه شرب مرة حتى ثمل مع إحدى جواريه، ولما حان موعد صلاة الجمعة حلف أن تصلي هي بالناس فلبست ثيابه وصلت بالمسلمين(٨)، كما بلغ به المنكر إلى الإساءة للقرآن الكريم وذلك بعد أن سكر وفتح المصحف على الآية «واستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيد»(٩) فمزق المصحف ضرباً بالسهم وهو يقول:

أتوعد كل جبارٍ عنيد فما أنا ذاك جبارٍ عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ فقل يارب مزقني الوليد(١٠)

والمتتبع لأخبار الوليد يُذهل من فداحة تصرفاته، ومن انحلاله، فلقد هيا بركةً خاصةً به للخمر كان يتصرف فيها تصرفات الجنون في حضرة المغنين والندماء والخدم، وهناك روايات كثيرة تبين فسقه ومنها على سبيل

(١) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج٧، ص٢٣.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٣٣٣، والمقدسي، البدء والتاريخ، ج٦، ص٥١، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٥٠.

(٣) البلاذري، أنساب، ج٩، ص١٢٩، والطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٢٣، وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٦٧.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ١٢١-١٤٠هـ، ص٢٩٤، و السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٥١.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج٧، ص٢٣.

(٦) ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص٢٩٤.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٦٧، و الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ١٢١-١٤٠هـ، ص٢٩٠.

(٨) الأصفهاني، الأغاني، الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ج٧، ص٤٣.

(٩) سورة ابراهيم، آية ١٥.

(١٠) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص١٥٥، وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٤٨٦، وجبريالي، ف، ديوان الوليد بن يزيد، ص٣٩.

الذكر لا الحصر: أنه كتب إلى عامله بالمدينة لما استخلف وأمره بإحضار المغني عطرده إليه، ويروي عطرده ما حدث: «فأدخلت عليه وهو جالس في قصره على شفير بركة مملوءة خمراً ليست بالكبيرة، ولكنها يدور الرجل فيها سباحة، فوالله ما تركني أسلم عليه حتى قال: أعطرده! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: كنت إليك مشتاقاً يا أبا هارون فغنني:

هي الحمول بجانب الغزل إذ لا يلائم شكلها شكلي

قال: فغننيته إياه، والله ما أتمته حتى شق حلة وشي كانت عليه لا أدري كم قيمتها، فتجرد منها ورمى نفسه بالبركة، فنهل منها حتى تبيّنت أنها قد نقصت نقصاناً بيناً وأخرج منها وهو كالميت سكرًا فأضجع وغطّي فأخذت الحلة وانصرفت. ولما كان اليوم الثاني أرسل بطلبي فغننيته:

أيذهب عمري هكذا لم أنل بها مجالس تشفي قرح قلبي من الوجد

فشق حلة وشي عليه كانت تلمع بالذهب التماعاً ثم ألقى نفسه في البركة فنهل منها أكثر من اليوم الفائت فأخرج كالميت سكرًا وألقي وغطّي فنام، فأخذت الحلة وانصرفت»(١)

وتتضح المبالغة في رواية الأصفهاني هذه إذ كيف يستطيع شرب هذه الكمية الكبيرة من الخمر في وقت واحد وعلى مر ثلاثة أيام متتالية، لكن على الرغم من ذلك وبعد تجريدها من المبالغة التي تدل على رمزية تصوير مجون الوليد المبالغ به تدل هذه الرواية على الحد الذي وصل إليه هذا الخليفة من اللهو والمجون وعلى سوء استغلال الغناء الذي كان للسماح بانتشاره أثر حضاري، لكن استخدامه في الخلاعة أساء لهذا العامل القوي سلباً.

وإن صح ما قيل عن هذا الخليفة من روايات، فحريٌّ بأمةٍ هذا قائدها أن لا يطول مقامها أكثر مما كانت عليه.

ومما سبق ذكره في هذا الفصل يتضح ان الأمويين احترمو دولتهم عندما عاملوا غير المسلمين بطريقةٍ حضاريةٍ تليق بدولة عظمى كالدولة الأموية، إذ منحهم الحقوق الاجتماعية والدينية وحتى الإدارية، وكان لهم وجود في مؤسسات الدولة واحترام معتقداتهم ومشاركتهم في الحياة العامة.

كما ويتجسد المفهوم الحضاري للأمويين من خلال معاملتهم للمرأة، إذ أثبتت الوقائع علو مكانة المرأة في هذه الدولة بما يتناسب مع وقائع هذه الدولة، فقد كانت المرأة أديبة وعالمة ذات شأن وكلمة مسموعة، كما لم يكن انتشار الفنون في هذا العصر إلا دليلاً على مدى التفهم الحضاري الذي كان لدى الأمويين، والذي تجسد في مفهومهم للصحة التي مثل الاهتمام بها انعكاساً لهذا المفهوم، فقد أولوا القطاع الصحي من الاهتمام ما جعلهم يفكرون في إقامة بعض البيمارستانات، وإن كانت على مستوى يتناسب مع المعطيات الحالية للعصر، لكنها جسدت مدى نظرهم إلى دور الصحة في المجتمع.

وعلى الرغم من ذلك لم يسلم الجانب الاجتماعي من بعض الممارسات الخاطئة والتي تجسدت بسوء معاملة الموالي، هذه المعاملة التي سببت الكثير من الإساءة للأمويين الذين اعتقدوا أن معاملتهم السيئة للموالي تصب في باب الحفاظ على عروبته صافية وعلى دولتهم عزيزة من التدخلات غير العربية والتي قد تنهي هذه الدولة.

ويُضاف إلى هذا تمادي بعض الخلفاء باللهو والابتعاد عن حكمة الإدارة، إلى أن أخذهم المجون واللهو إلى طرقٍ انتهت وأنهت دولتهم بنهايتهم.

(١) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩، ج٣، ص٣٠٨.

الفصل الرابع: مظاهر القوة والضعف في المجال الاقتصادي:

أولاً: مظاهر القوة في المجال الاقتصادي:

- ١- الاهتمام بالزراعة وطرق الري كمصدر أساسي للاقتصاد.
- ٢- الحرص على زيادة الإنتاج لتحقيق الاكتفاء الذاتي.
- ٣- اعتماد سياسة ضرائبية خاصة بمناطق الإنتاج.
- ٤- الاهتمام بالصناعة المرتبطة بالجيش.
- ٥- الاهتمام بالصناعة المرتبطة بعامة الناس.
- ٦- عدم سيطرة الحكام على مجمل الصناعات.
- ٧- الاهتمام بالتجارة وتسويق الإنتاج.
- ٨- اعتماد أسس أخلاقية ناظمة للتجارة.
- ٩- تنشيط وسائل الاتصال مع التجار في الداخل والخارج.

على الرغم من انشغال الأمويين بتوطيد أمور دولتهم العامة، وتوسيع نطاقها الجغرافي والسياسي إلا أنهم لم يهتموا الجانب الاقتصادي لدولتهم ، فقد أدركوا ضرورته كركن أساسي من أركان الدولة العربية الإسلامية وتصدرت الزراعة قائمة الأولويات الاقتصادية كونها تشكل البنية الأساسية له، ولذلك ركز الأمويون على توسيع الأراضي الصالحة للزراعة من خلال حفر الأنهار فيها وتحفيز الناس على استثمارها لزيادة الرقعة الزراعية، فانعكس ذلك على الإنتاج الزراعي من محاصيل مختلفة تستوفي متطلبات السوق واحتياجات الناس كما وضعت الدولة في حساباتها تناسب الضرائب طرداً مع القدرة الإنتاجية للأرض .

ولأن الدولة الأموية هي دولة عسكرية بالدرجة الأولى فقد أولت قطاع الصناعة وخاصة الصناعة التي تدعم الجانب العسكري اهتماماً خاصاً كونها تؤمن السلاح المطلوب لحروبهم المستمرة، كما دعم الأمويون الاتجاه الآخر للصناعة والمتمثل بصناعة الحاجات المعيشية على اختلاف أشكالها، ولم يتدخل الحكام في كثير من معطيات الصناعة إذ تركوها لأصحابها.

ولقد كان للتجارة التي تمثل العمود الثالث في الاقتصاد حصة كبيرة من سياسة الدولة الأموية ويتجلى ذلك بالاهتمام بتصريف الإنتاج من خلال إعداد أسواق ملائمة لهذه الغاية، وإنشاء شبكة طرق أو إعادة تأهيل بعض الطرق التجارية كي يستطيع التجار القيام بمهمة نقل البضائع من خلالها، وكذلك إقامة منشآت حيوية لهذه الغاية كما اهتموا بمراقبة الأسواق لمنع كل وسائل الغش من قبل التجار. ومع كل هذا الاهتمام بالناحية الاقتصادية من قبل الأمويين إلا أن الإفراط في حب التملك لدى الطبقة الحاكمة وخاصتها من الأمويين كان الطابع المسيطر على سياستهم الاقتصادية، إذ اندفعوا إلى الاستحواذ على معظم الأراضي الخصبة وزيادة غلاتهم وبالتالي السيطرة على الوسائل التجارية التي يمكنها تصريف المنتجات.

١-الاهتمام بالزراعة وطرق الري كمصدر أساسي للاقتصاد :

إذا كان الاقتصاد عمود الدولة فالزراعة هي عمود الاقتصاد، فلقد شغلت الزراعة دوراً بارزاً وأساسياً في حياة الإنسان، فهي المورد الأساسي لحاجات الناس في غذائهم، وهي أيضاً المورد الأساسي للصناعة وبالتالي للتجارة، إذ إن الرابط وثيق ومتشعب بين هذه العوامل الثلاث، أي الزراعة والصناعة والتجارة. وكلّ منها يكمل الآخر، إلا أنّ للزراعة قيمتها الأسمى كونها المصدر الأساسي للدولة العربية الإسلامية.

ولأن الزراعة هي مصدر الثروات بالنسبة للدولة إذ ترفد بيت المال بالإضافة إلى أنها الحرفة الأولى المعتمد عليها من قبل السكان، بدأ الاهتمام بها منذ العصر الراشدي إذ ركز الخلفاء على العناية بها وبمشاريعها ومن ذلك ما قام به الخليفة عمر بن الخطاب من توصيات بإحياء الأرض الموات بأن أعطى فرصة لمن أخذ أرضاً مواتاً ثلاث سنين، فإن لم يقوَ على عمارتها، انتزعت منه، أو انتزع الجزء الذي لم يقوَ على عمارته منها، وأعطاهما لغيره ليعمرها.(١) كما ألزم عمر الفلاحين على العناية بالطرق والجسور والحرث(٢). بالإضافة إلى حفر عدة أنهار في عهد عثمان بن عفان ومنها نهر نافع ونهر الأساورة في العراق(٣).

(١) ابن سلام ، الأموال، ص ٤٠١، وقدامة بن جعفر أبو الفرج،(ت٣٣٧هـ/٩٤٨م)،الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق، محمد حسين

الزبيدي، العراق، دار الرشيد،ص٢١٤، وبطائية، الحياة الاقتصادية،ص١٠٦

(٢) محمد ضياء، عمر بن الخطاب، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٦٣.

(٣) البلاذري، فتوح، ص٣٥٤، و٢٧٣ و٣٥٣ و٣٥٤، نافذ هو مولى عبد الله بن عامر ، الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٥٤.

ولقد ازدادت العناية بالمشاريع الزراعية في العصر الأموي فكيف عالج الأمويون المشكلات الزراعية ؟ وما هو الهدف من هذه المعالجة ؟ وهل كانت جميع المشاكل متشابهة أم أنه كان لكل إقليم خصوصيته وعقبته المختلفة؟

يبدو أن التركيز كان على الأقاليم المحورية كالعراق والشام ومصر ، ربما لأن المصادر تركز عليها أكثر من غيرها أو لأن الأمويين دعموا الزراعة لزيادة وارداتهم منها أو ربما هدفوا ، وخاصةً في العراق إلى إشغال سكانه بالعمل كونه أكثر هذه الأقاليم ثورات وفتن، وأياً يكن الهدف فالمهم هنا الإجراءات التي اتخذوها من أجل الزراعة.

والبداية ستكون من العراق الذي نال قسطاً كبيراً من العمل من أجل تحسين وضعه الزراعي والعقبة الأكبر كانت في مشكلة البطائح (وهي تقع بين دجلة والفرات من جهة الجنوب) وأساس هذه المشكلة، كان بسبب تفرع نهري دجلة والفرات عند مصبيهما في شط العرب إلى نهيرات كثيرة ومتشعبة، وكانت هذه النهيرات قليلة العمق لذلك كانت المياه تفيض على الجانبين فتغرق الأراضي الزراعية المجاورة، وهذه المشكلة كانت قائمة منذ الحكم الساساني، هذا الأمر الذي جعل معاوية يهتم باستصلاح هذه الأراضي، لذلك ولّى مولاة عبد الله بن دراج خراج العراق، وأمره بمكافحة الفيضانات وتجفيف البطائح، وبالفعل قام بذلك واستخرج له منها أراضٍ كثيرة، بلغت غلتها خمسة آلاف ألف درهم(١) ، إذ قُدرت مساحة هذه البطائح بخمسين ميلاً في مئتين طولاً(٢) ولقد رأى الأمويون ضرورة العودة إلى تجفيف تلك البطائح بين الحين والآخر لأنها تعود إلى ما كانت عليه لذلك قام الحجاج بإعادة البعض منها وأوكل هذه المهمة إلى كاتبه حسان النبطي(٣) وأعاد خالد القسري تجفيف البطائح في عهده على يد حسان النبطي أيضاً(٤) .

واستمر الأمويون في متابعة أحوال العراق الزراعية من خلال المسح نظراً لأهميته في الكشف عن طبيعة الأرض والتمهيد لمعرفة قابليتها الزراعية ولمعرفة خراجها، ومن عمليات المسح هذه ما قام به زياد بمسح العديد من أراضي السواد مستخدماً قياساً جديداً عُرف بالذراع الزيادةية(٥) ويبدو أن المسح شمل بعض المناطق ومنها سكة المرید حيث أمر بهدم كل ما زيد فيها كي لا تقل مساحة الأرض الصالحة للزراعة، كما قام عمر ابن هبيرة في عهد يزيد بن عبد الملك (عام ١٠٥هـ / ٧٢٣ م) بمسح أرض السواد(٦) .

ويبدو أن الأمويين استغلوا وجود نهري دجلة والفرات دائمي الجريان في توفير الماء اللازم للزراعة من خلال حفر أنهار عديدة وإقامة سدود وأحواض وإنشاء جسور وقناطر، ومن تلك الأنهار ما قام زياد بحفره كنهري الأبلّة الذي حُفر سابقاً في عهد عمر بن الخطاب لكنه رُدم فأعاد زياد حفره(٧) هذا بالإضافة إلى أنهار عديدة

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٨، و اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢١٨، و الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٤٨، و الخربوطي، علي، تاريخ العراق في العصر الأموي، دار المعارف، مصر ١٩٥٩، ص٣٣٩،

(٢) الرئيس، الخراج والنظم المالية، ص١٨٨.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٣٤.

(٤) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٦٥.

(٥) الذراع الزيادةية هي الذراع الهاشمية أي ذراع الملك ، الماوردي، الأحكام السلطانية ص١٩٥. وتعادل هذه الذراع في الوقت

الحاضر ٦٦و٥سم، مها الشعار، الري في العراق في العصر الأموي، جامعة حلب، ١٩٩٤، ص١٣٧ .

(٦) البلاذري، الأنساب، ج٥، ص٢٣١، والرواضية، زياد بن أبيه، ص١٧٨. والمرید سوق بالقرب من البصرة وهو أشهر محالها كانت بدايته سوقاً للإبل ثم أصبح سوقاً تجارية وأدبية ، الحموي، ياقوت، ج٥، ص٩٨.

(٧) ابن فقيه، البلدان، ص١٩٠.

سُميت بأسماء من قام بحفرها كنهـر ديبس ونهر حرب بن مسلم ونهر أم حبيب ونهر مرة (١) وغيرها ، ويتضح حرص زياد على توفير الماء اللازم من خلال سؤال أهل البصرة بشكل دائم عما يحتاجون إليه من حفر للأنهار أم إصلاح للفناطر أو تسهيل عقبة ما (٢) كما جدد زياد بعض الأنهار القديمة ومنها نهر شيلي المنسوب إلى شيلي ابن فروخ زادن المروزي وعُرف هذا النهر بنهر زياد(٣) . أما في الكوفة فيبدو أن مشاريع زياد كانت أقل من البصرة إذ أنشأ جسراً(٤) ضخماً لمنع فيضان الماء وبقي هذا الجسر طول العصر الأموي مع استمرار تجديده من قبل الولاة(٥) والسؤال هنا لماذا اهتم زياد بمشاريع البصرة أكثر من الكوفة؟ ربما عاد ذلك لثلاثة عوامل : الأول أن معظم أرض البصرة عشرية، أي إنها تدفع الصدقة لا الخراج، لأنها أرض موات أحياء المسلمين فتملكوها، بينما اعتبرت الكوفة من الأراضي الخراجية، لأنها أرض عامرة فتحها العرب عنوة(٦)، لذلك لا يجوز بيعها في نظر الفقهاء، وإنما هي فيء للمسلمين(٧). والثاني :كانت الأرض التي تحيط بالبصرة مواتاً تتطلب الإحياء، وكان بإمكان أي شخص أن يطلب إقطاعه منها(٨) . وذلك لأن إحياءها يتطلب أموراً كثيرة، بينما كانت الصوافي في الكوفة عامرة، لذلك أقطع زياد من أرض البصرة بلا معارضة منه. أما العامل الثالث: فيعود لقصر المدة التي حكم زياد فيها الكوفة، حيث لم تتجاوز الثلاث سنوات (٥٠-٥٣هـ/٦٧٠-٦٧٣م) وهي مدة قصيرة نسبياً، إذا ما قورنت مع ولايته على البصرة، والتي بلغت حوالي تسع سنين(٤٥-٥٣هـ/٦٦٥-٦٧٣م). وربما لأن مياه البصرة مالحة وتحتاج إلى عناية زائدة.

وتابع الحجاج سياسة زياد في حفر الأنهار حيث حفر نهر الصين بناحية كسكر ، والزابي، ونهر النيل في واسط في منطقة تقع شمال بابل وسماه النيل تيمناً بنيل مصر(٩).

ولم يكن عمر بن عبد العزيز بالبعيد عن أهمية الري في العراق لذلك كتب إلى عامله عدي بن أرطاة بأن يحفر نهراً لأهل البصرة وسمي هذا النهر بنهر عدي(١٠) كما قام عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد بن عبد الملك بإصلاح الجسر الذي كان زياد قد أقامه في الكوفة وبنى قنطرة عظيمة(١١) .

وفي ولاية خالد القسري بلغت حركة المشاريع أوج عزاها (١٠٥-١٢٠هـ / ٧٢٣-٧٣٧ م) إذ كان خالد شغوفاً بالزراعة، ربما لأنه محباً لجمع المال منها ، ومهما يكن فالأنهار التي حفرها كانت كثيرة ومنها نهر جامع بالقرب من الكوفة ، ونهر المبارك من جهة واسط ، ونهر خالد ونهر الصلح... (١٢) كما أقام السدود على نهر

- (١) البلاذري، فتوح، ص ٣٥٣ و ٣٥٤، وياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٤٠٤ .
(٢) الفقيه، البلدان، ص ١٩١ وابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد(٥٦٢هـ/١١٦٦م) التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٨١، م١، ص٤٠٧ .
(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص٥، ص٣٢١، وابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، ج٣، ص١٤٠٣ .
(٤) الجسر: هو الطريق المرتفعة التي تقام على ضفاف الأنهار لمنع فيضانها، عمارة، محمد قاموس المصطلحات، ص١٤٩ .
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٥٣ .
(٦) الاضطخري، المسالك، ص٨٧، وابن حوقل، صورة الأرض، قسم أول، ص٢٢٤ .
(٧) يحيى بن آدم ، الخراج، ص٦١ .
(٨) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٩ ،
(٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٨، والرئيس، الخراج، ص٢١٤، وطهوب، موسوعة التاريخ الإسلامي(العصر الأموي)، ص١٥٦ .

(١٠) البلاذري، فتوح، ص ٣٦٢، وابن عبد الحق، مرصد، ج٣، ص١٤٠٤ .

(١١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٥، و ابن فقيه، البلدان، ص١٨٣ .

(١٢) البلاذري ، الفتوح، ص٢٨٩، والطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص١٨٨ .

دجلة لمنع الفيضانات وكان يفخر بأنه أول من أقام هذه السدود(١) .

وتتضح الجهود المبذولة فيما يخص البصرة من خلال ما ذكر من أن عدد أنهارها كثيرة(٢) وبالرغم من المبالغة في الأرقام إلا أنها تعبر عن كثرة الأنهار والأراضي المستصلحة في البصرة ومن المرجح أن تكون هذه الأرقام احتوت كل الترع والقنوات الصغيرة. والملاحظ في مشاريع الولاية في العراق أن قوة الوالي انعكست إيجاباً على تنفيذ تلك المشاريع.

أما في الشام فيبدو أن المشاريع كانت أقل منها في العراق ، ربما لأن الزراعة فيها اعتمدت بشكل أساسي على الأمطار، لذلك ركز الخلفاء على بناء السدود من أجل السقاية في فصل الصيف، إذ يشير المقدسي إلى بناء ثلاث برك كبيرة في بيت المقدس(٣) ومما يؤكد أن هذه البرك هي سدود بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكن أغلب المصادر أغفلتها ، ربما لأن هذه السدود كانت بركاً وأن إنشاءها في الأودية لا يحتاج إلى تقنية عالية . كما أنشئت بركة كبيرة إلى الشمال الشرقي من قصر الحلابات الواقع شرقي مدينة الزرقاء في الأردن ، والتي لا يُستبعد أن يكون الماء الواصل إليها قد جُلب من الأزرق، بالإضافة إلى ما يجتمع بها من مياه الأمطار، إذ ثبت بالاستصلاح الزراعي أن هذه المنطقة التي تقع على تخوم البادية كانت لا تزال أرضاً زراعية(٤) كما قام هشام بن عبد الملك بترميم سد خريقة الذي أنشئ منذ أيام الرومان وهو يقع إلى الجنوب من قصر الحير الغربي الواقع جنوب غربي تدمر وكانت المياه تتجمع في بحيرة صناعية خلف هذا السد والتي بلغت مساحتها ٨٠٠ × ١٥٠٠ م تقريباً ويبدو أن خصوبة التربة كانت جيدة في المنطقة المحيطة بالسد من جراء الرواسب الطينية.

ولم يكتفِ الأمويون بإنشاء السدود في الشام بل قاموا بحفر الأنهار الصغيرة المتفرعة عن الأنهار الكبيرة فقد قام يزيد بن معاوية بإيصال المياه إلى الأراضي التي لا تصل إليها وذلك بإعادة حفر وتوسيع نهر سُمي باسمه وهو يتفرع عن نهر بردى، وكان هذا النهر رافداً صغيراً بالكاد يروي ضيعتين في الغوطة فقام الخليفة بتوسيعه وتعميقه، الأمر الذي أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها بحيث أصبح يكفي لري أراضٍ واسعة في الغوطة(٥) وهذا ما أتاح المجال أمام الفلاحين للقيام باستصلاح بعض الأراضي المتروكة والعمل على استغلالها، وفي الجزيرة قام مسلمة بن عبد الملك بحفر الأنهار وإحياء الأراضي بتشجيع من أخيه الخليفة الوليد(٦)، كما أحيا الخليفة هشام أراضٍ واسعة في الرصافة بحفره نهريين فيها هما نهر الهني والمري(٧) وأمر بالإشراف على توزيع المياه على الأراضي بانتظام كي يتاح ري أكثر ما يمكن من الأراضي واستغلالها، وجاء هذا العمل بناءً على طلب من الأهالي الذين راجعوا الخليفة نظراً لحاجتهم إلى الماء فأمر الخليفة هشام بضخ الماء بالروافد

(١) الطبري، تاريخ الأمم ج٤، ص١٨٣.

(٢) الاصلطخري، المسالك ،ص٨٥، وابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي(ت٣٦٦هـ/٩٧٦م) صورة الأرض ،دار صادر، بيروت، مطبعة ليدن، ١٩٨٢، القسم الأول، ص٢٥، والادريسي، محمد أبو عبد الله(ت٤٩٩هـ/١٢٥١م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٩، ج١، ص٣٨٣، ولسترنج، كي، بلدان الخلافة الإسلامية، ص٦٧

(٣) المقدسي، محمد بن أحمد(ت٣٩٠هـ/٩٩٩م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠، ص١٤٤، و بدور، سليمان، فلسطين في العهد الأموي (الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية) رسالة دكتوراه، الأردن المكتبة الوطنية، ٢٠٠٤، ص٥٠.

(٤) طوقان، فواز ، الحائر في العمارة الأموية(من المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام) الجامعة الأردنية، عمان، والدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص١١٠

(٥) رحال، عاطف، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، دار بيسان، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، ص١٣٦.

(٦) طهوب، موسوعة التاريخ، ص١٥٤.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم، ج٤، ص٣٤، والحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤١٩.

العديدة المتفرعة عن نهر بردى والتي بلغت أربعة عشر رافداً في الغوطة (١) ، وفي الأردن حُفر نهر في عهد الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (٢) ، ويتضح استغلال الأمويين وجود نهر الفرات من أجل حفر وجر الأنهار الصغيرة ومنه ما قام به الأمير مسلمة بن عبد الملك، عندما حفر نهر مسلمة وقد امتد من الفرات لإرواء أراضي أهل بالس (مسكنة) والقرى القريبة منها (٣) .

ولم تكن قصور أمراء الأمويين للنزهة فقط، بل كانت مراكز للاستثمار الزراعي، حيث أنشئت حولها منشآت للري من قنوات، وصهاريج، ومجاري لإرواء حقول ومشاريع زراعية في المنطقة الواقعة بين الصحراء والأرض المزروعة على الحد الشرقي لبادية الشام، وإن كانت هذه المشاريع على آثار مشاريع سابقة، إلا أنها تدل على تقدير الأمويين لأهمية الأرض، وضرورة إحياء أراضي خالية بعد الفتح (٤) . ويضاف إلى هذه الأراضي المرافقة للقصور أراضي البساتين، التي كانت حول الكنائس والأديرة، والتي أورد المؤرخون والجغرافيون ذكرها، إذ ذكر الشابشتي كروم دير الطور بين طبريا واللجون (ويسمى دير التجلي)، والتي ترتوي من عين تتدفق بالماء (٥) كما كان لدير مارون بظاهر حلب على سفح جبل جوشن بساتين جلييلة (٦) وكذلك دير كفتون في طرابلس (٧) يضاف إليها دير صليبا بدمشق، وهو مطل على الغوطة كثير البساتين والمياه (٨) .

ولقد امتاز الإقليم المصري بغناه بثروته الاقتصادية، حيث يتضح هذا الغنى من فحوى كلام عمرو بن العاص الذي جاء في الرسالة التي أرسلها إلى عمر بن الخطاب عندما طلب منه أن يصف له مصر، ومما ذكره عمرو: « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء (٩)، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر يكتنفها جبلٌ أغبر، ورملاً أفر، يخط وسطها نيلٌ مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر،... فإذا أحرق الزرع وأشرق سقاه الندى، وغداه من تحت الثرى...» (١٠) وبسبب معرفة عمرو أهمية مصر قام ببعض المشاريع فيها، كحفر الخلجان، وإقامة الجسور وبناء القناطر (١١)، وعلى هذا فالعرب اهتموا منذ الفتح بزراعتها لما فيها من خيرٍ وثروات، ويدل على ذلك قول عمرو بن العاص

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص٣٧٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٤٥.

(٣) البلاذري، فتوح، ص١٥٦، وابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج١، ص١٦-١٧.

(٤) عرفة، ثريا، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٩، ص١٦٩ .

(٥) الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ/٩٩٨م) الديارات، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦، ص١٣٣.

(٦) ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص٤١٢.

(٧) العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت٥٩٩هـ/١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق عبد الله بن يحيى

السريحي، المجمع الثقافي، أبو طيبي، ٢٠٠٣، ج١، ص٤٢٢.

(٨) ياقوت، معجم، ج٢، ص٥٦٩.

(٩) غبراء، كثيرة الأشجار، ابن منظور، لسان، ج٥، ص٦.

(١٠) ابن زولاق، الحسن بن ابراهيم أبو محمد (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق علي محمد عمر،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص٧٩. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة

في ملوك مصر القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، ج١، ص٣٢. و ابراهيم حسن، حسن، تاريخ

عمرو بن العاص، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٩٤.

(١١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص٢٠٤.

«ولاية مصر، جامعة، تعدل الخلافة» (١) ، ولذا أدرك العرب أنّ واجبهم كواجب أية حكومة تحكم مصر، في الإشراف على أمور الري والزراعة، لأن هذا النظام يحتاج إلى حكومة موحدة، تنظم الإنتاج، والري، إذ تحفر الترعة وتقسّم الأحواض، وتهتم بالجسور لدفع خطر فيضان النيل (٢) ، وغير ذلك من الأمور. ولعلّ أبرز ما اهتمّ به الأمويون هو قياس نهر النيل، كي يعرفوا نقصان أو زيادة ماءه، نظراً لارتباط نظام الري بفيضان النيل ومقداره. فالاهتمام بمقاييس النيل كان منذ التاريخ القديم لمصر، وما قام به العرب هو إدخال تعديلٍ جوهريٍّ على طول الذراع الذي يقاس به ارتفاع ماء الفيضان، إذ كان طول الذراع في المقاييس القديمة ٢٤ إصبعاً، والنهياتان اللتان تخيفان هما النقصان والزيادة أو الظمأ والاستبحار ١٢ ذراعاً و ١٨ ذراعاً وتوديان إلى الاحتكار وزيادة الأسعار، فأدخل التعديل في بداية الفتح على طول الذراع ذاته بأن جعل ٢٨ إصبعاً لكل ذراع من أولها إلى ١٢ ذراعاً، وبعدها عاد الذراع إلى طوله ٢٤ إصبعاً (٣) ويكون الري غير كافٍ إذا كان ارتفاع الماء أقل من ١٦ ذراعاً، حيث يتبقى جزء من الأراضي بلا ري، بينما يكون ري الأراضي كلها على ما يرام بما فيها الأراضي العالية إذا بلغ الارتفاع ١٧ ذراعاً، فإذا بلغ الارتفاع ١٨ ذراعاً كانت الغاية القصوى ويحدث الضرر الشامل إن زاد على ذلك (٤) ، ولهذا السبب تظهر ضرورة إقامة السدود وحفر الترعة والخجان. ومن هذه الأهمية لمقاييس النيل إذاً يتضح اهتمام العرب بها منذ الفتح، حيث قام عمرو بن العاص ببناء المقاييس في حلوان وأسوان ودندرة، كما بنى مقياساً في أنصنا (٥) ، كما وقام عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته لمصر ببناء مقياس بحلوان، التي اتخذها عاصمة للديار المصرية (٦) ، ويضاف إليه ما بناه أسامة بن زيد التنوخي عامل خراج مصر في خلافة سليمان من مقياس بجزيرة الروضة عام (٧٩٦هـ / ٧١٤م) لأن المقياس الذي قبله سقط، فبني هذا المقياس الجديد مقسم إلى درجات وسمي المقياس الكبير أو المقياس الهاشمي (٧)

وتندر التفاصيل عما قام به العرب من أعمال للري في صدر الإسلام، وإن كان أمر استمرارهم بالعناية بها أمر غير مشكوك فيه، نظراً لخضوع عمال مصر وخراجها خضوعاً مباشراً لسلطة الخلافة المركزية، واهتمامهم بأمر الخراج الذي يعتمد على القطاع الزراعي، والذي مثّل المعيار في استخدام الولاية في العصر الأموي (٨) . ومهما يكن فالاهتمام الأكبر للمشاريع في مصر كانت على ما يبدو في الوجه البحري، وذلك للانتفاع من ماء الفيضان، فقد خُصصت لذلك الأموال الكثيرة التي قُدرت بقيمة ثلث أو ربع الخراج، وقيل إن ١٢ ألف عامل مجهزين بالأدوات والآلات لهذا العمل طوال العام (٩) ، وترد بعض المعلومات عن أعمال ولاية مصر والتي ذكر فيها قيام بعضهم بمشاريع زراعية ولو أنها خاصة، فإنها تساهم في العملية التنموية للزراعة، ومنها ما قام به عبد العزيز بن مروان من غرس الكرم والنخيل في حلوان، بالإضافة إلى بنائه قنطرة في الفسطاط سنة (٦٦٩هـ / ٦٨٨م) (١٠) كما قام قره بن شريك باستنبات إصطبل من أرض موات وأحياء وغرسه

(١) النجوم الزاهرة، ج١، ص٣١. ويقصد بالجامعة جمع الإمارة مع وظيفة الخراج .

(٢) كاشف، سيدة، مصر في فجر الإسلام، ص٢٦٧.

(٣) أبو المحاسن، النجوم، ج٢، ص٣١١، و صالح، محمد، دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية (عصر الولاية) مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠، ص٥٧.

(٤) المرجع السابق، ص٥٧.

(٥) نظير، وليم، الزراعة في مصر الإسلامية من عهد الخلفاء الراشدين إلى عهد الثورة، ١٩٩٦، ص١٩.

(٦) ابن زولاق فضائل مصر، ص٧٨.

(٧) المقرئ، الخطط، ج١، ص١٧٠، وليم نظير، الزراعة، ص٢١.

(٨) صالح، محمد، دراسات اقتصادية، ص٥٩.

(٩) المرجع السابق، ص٥٨.

(١٠) الكندي، الولاية والقضاة، ص٥٠.

قصباً، فكان يسمى إصطبل القاس أي القصب (١) . ولقد قام الخليفة هشام بن عبد الملك بتشجيع القبائل العربية على مزاوله مهنة الزراعة، وخصوصاً قبيلة قيس(٢) .

ونظراً لطبيعة الحجاز الجافة والصحراوية وانعدام الأنهار دائمة الجريان باستثناء عددٍ من الوديان التي تجري فيها المياه إثر سقوط الأمطار، وهي مؤقتة وكثيراً ما تسبب السيول الجارفة ، كل ذلك جعل الري في الحجاز يعتمد بالدرجة الأولى على المياه الجوفية، التي قد تكون قرب سطح الأرض، أو تظهر على ذلك السطح، ولذلك أمر الوليد بن عبد الملك واليه على الحجاز عمر بن عبد العزيز بحفر الآبار فيها(٣) ويضاف إلى هذه الآبار وجود بعض العيون، حيث ذكر الأزرقى أن معاوية اتخذ عشرة بساتين في مكة لكل منها عينٌ، وجاء الأزرقى على ذكر مواقع هذه البساتين المزروعة نخلاً وزرعاً (٤). ولأن الوديان المؤقتة كانت تسبب الفيضانات في موسم الأمطار، كان لابد من وضع السدود لتلافي هذه المشكلة، ومن هذه السدود السد الذي بني في خلافة معاوية عند الطائف، والذي امتد ستة أميال شرقي الطائف، وكان مبني من الجرانيت(٥) ، يضاف إليه السد الآخر الذي بناه معاوية أيضاً بين المدينة والرحضية في شعب فوفر، وفيه ماء كثير(٦) . كذلك أنشأ عبد الله بن عثمان ابن عفان سداً على رانونا لرفع الماء من أجل ري مزارعه(٧).

كما اهتم الأمويون بالأراضي في أذربيجان ، إذ قام مروان بن محمد في أثناء ولايته على أرمينية وأذربيجان (١١٤-١٢٦هـ/٧٣٢-٧٤٣م)ببناء قنطرة ورتان، فأحيا بها أرضاً منها (٨) .

٢-الحرص على زيادة الإنتاج لتحقيق الاكتفاء الذاتي :

لقد أثمرت الجهود التي قام بها الأمويون لإنماء الثروة الزراعية، وزيادة إنتاجها من الغلات، فالمشاريع التي أقاموها والتي استحدثوها، أو التي استمروا في تحديثها أنت ثمارها، إذ تطورت الزراعات التي كانت قائمة في مختلف الأقاليم بالإضافة إلى استقدام أنواع مختلفة من المزروعات غير المعروفة.

فما هي الإجراءات التي اتخذها الأمويون من أجل التحفيز على العمل الزراعي؟ وما هي الطرق التي اتبعت من أجل استغلال الأرض والعمل بها؟ وكيف استطاع الأمويون تأمين جميع المناطق بما تحتاجه من المحاصيل؟

بدايةً لقد اتخذ خلفاء بني أمية وخاصة عبد الملك وولده الوليد وسليمان عدة إجراءات لتشجيع الفلاحين على الزراعة بأن خصصوا الأموال التي دفعها الأشراف ثمناً لشراء الأراضي الخراجية لمساعدة الفلاحين، وذلك

(١) الكندي، الولاية والقضاة، ص ٦٥.

(٢) الكندي، الولاية، ص ٧٧. وانظر من أجل القبائل العربية الريطي، ممدوح عبد الرحمن ، دور القبائل العربية في مصر، ص ٧٥ وما بعدها.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٦٧٧، وابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٤٧، وابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٢٨٥،

(٤) الأزرقى، محمد بن عبد الله بن أحمد(ت ٢٥٠هـ/٨٦٤م)أخبار مكة وما جاء بها من الآثار ،تحقيق رشدي ملحس، مكة، ط ٤، ١٩٨٣، ج ٢، ص ١٦٧.

(٥) العلي، صالح ، الحجاز في صدر الإسلام (دراسات في أحواله العمرانية والإدارية) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص ١٥٦.

(٦) السمهودي، علي بن عبد الله ب أحمد الحسني(ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م)خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ،دمشق، ١٩٧٢، ص ٤٨٥

(٧) السمهودي، خلاصة الوفا، ص ٤٩٨.

(٨) البلاذري، فتوح، ص ٣٢٥، وياقوت الحموي، ج ٥، ص ٣٧١، وطهوب، الموسوعة، ١٥٤.

بتقديم القروض لهم(١) كما قدم الخليفة عمر بن عبد العزيز القروض للفلاحين من بيت المال إذ قال «لا نريدهم لعام ولعامين»(٢) وكذلك قام بعض الولاة الأمويين ببعض الإجراءات المشجعة للزراعة، فزياد بن أبيه أحسن التصرف مع الفلاحين وأمر بمراعاة ظروفهم والعناية بهم(٣)، كما أنه عاقب كل من تسبب بأذى للشجر أو الزرع، إذ غرّم رجلاً عقراً نخلاً، فدفعت عن كل نخلة ألف درهم(٤). و قام الحجاج الثقفي بتقديم القروض للفلاحين، فأقرضهم مليوني درهم(٥) ويضاف إلى ذلك ما قام به في واسط من احتفالات عظيمة عند ظهور بعض المحاصيل(٦). ومن أجل تشجيع الفلاحين على زراعة الأماكن البعيدة والوعرة قام ولاة العراق بإعفاء ثمار الجبال والأودية من الخراج والعشر(٧).

أما فيما يخص الأساليب المتبعة في استثمار الأرض فكانت العادة المتبعة إما مباشرة من قبل المالك بالذات، إذا كانت الملكية صغيرة، وإما بواسطة عمال زراعيين يتقاضون أجورهم، إذا كانت الملكية كبيرة. لأن المعروف أن كبار الملاكين عاشوا في المدن وأوكلوا أمر الأرض إلى وكلاء عنهم يستثمرونها، لقاء أجر يتفقون عليه، أو مما تنبته الأرض، مع تقديم الملاكين للبذور أو للمساعدات المالية، ولقد تعددت طرق استثمار الأرض والتي بموجبها قامت الشراكة بين مالك الأرض والفلاح الذي يقوم بالعمل لقاء جزء من المحصول، وأهم هذه الطرق : المزارعة، والمساقاة، والإجارة.

١- **المزارعة:** كانت الأكثر انتشاراً في العصر الأموي(٨)، وهي عبارة عن اتفاق بين مالك الأرض والمزارع على أن يعمل المزارع في أرضه لقاء حصة من الغلة تتراوح نسبتها بين الربع والثلث(٩)، وربما وصلت النسبة إلى النصف أحياناً، إذا ساهم المزارع بتقديم المعدات اللازمة والبذور، مناصفةً مع المالك، أو إذا جاء المزارع بالحيوانات لحرثة الأرض(١٠) وكان لطريقة سقاية الأرض تأثير على النسبة المتفق عليها، فإذا كانت الأرض تُروى بمشقة غير الأرض التي تُروى بالمياه الجارية أو بماء المطر(١١) وكان عمر بن عبد العزيز يأمر بإعطاء أرض الصوافي بالمزارعة لقاء نسبة في الحصة تتراوح بين النصف والعشر أحياناً حسب أوضاع الأرض، وذلك كي لا تُترك بدون استغلال(١٢).

- (١) رجال، عاطف، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ١٣٨-١٣٩.
- (٢) أبو عبيد ابن سلام، الأموال، ص ٣٦٤.
- (٣) الرواضية، زياد بن أبيه، ص ١٨٤.
- (٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٢٢.
- (٥) ابن رسته، الأعلام، ص ١٠٥، وابن الفقيه، البلدان، ص ١٩٠، وزيادة، محمود، الحجاج الثقفي المفترى عليه، دار السلام، ط ١، ١٩٩٥، ص ١١١.
- (٦) الخربوطي، تاريخ العراق، ص ٣٤١.
- (٧) أبو يوسف، الخراج، ص ٥٥، والخربوطي، تاريخ العراق، ص ٣٥٣.
- (٨) رجال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٣٠.
- (٩) الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤/١٩٩م) الأم، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، ١٩٠٣، ج ٤، ص ٥٠، و أبو يوسف، الخراج، أبو عبيد ابن سلام، الأموال ١٤٤ و ١٥١، والطبري، محمد بن جرير، اختلاف الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٤٤-١٤٥.
- (١٠) أبو يوسف، الخراج، ص ٥١، والطبري، اختلاف الفقهاء، ص ١٥١.
- (١١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٣٦، وابن رجب الحنبلي، الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن (ت ٧٩٥/١٣٩٢م) الاستخراج لأحكام الخراج دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥، ص ٧١.
- (١٢) ابن رجب، الاستخراج، ص ٧٢، ويحيى بن آدم (ت ٢٠٣/٨١٨م) الخراج، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧، ص ٩٩.

٢- **المساقاة:** فهي قريبة الشبه بالمزارعة من حيث الحصة التي ينالها المزارع والتي تتراوح بين الربع والثالث وتصل غالباً إلى النصف، ولكن العمل هنا يخص الأشجار المثمرة، كما أنه يجب على المزارع الاهتمام بتخصيب الأرض للاعتناء بها، بعد أن يقدم مالك الأرض المعدات اللازمة للعمل، ويقوم بتوفير المياه مسبقاً (١) ٣- **الإجارة،** وهي بمعنى **الضمان:** وتعني إبرام عقد بين صاحب الأرض وشخص ما يقوم بضمان الأرض والبستان لقاء مبلغ من المال أجرة له نتيجة لاستغلاله للشجر والزرع، وينتهي العقد في نهاية موسم القطاف (٢). ويتضح من عقود الإيجار في أوراق البردي التي تعود إلى عصر الولاة في مصر بأن المؤجر يشترط على المستأجر شرطاً يتضمن «ما يورث فعليك خراجه» (٣) أي أنه يلزمه بدفع الخراج من الأراضي التي يتركها دون زراعة، وبالتالي تصبح أرضاً بوراً، ومن الطبيعي ألا يترك المزارع أرضاً بوراً ويدفع خراجها دون أن يستفيد منها، وبهذا الشرط يتحفز المزارع على العمل الدؤوب، وعدم إهمال الأرض، وبذلك تكون الدولة قد شجعت على الزراعة، بعدم إعفاء الأرض البور من الخراج.

واستطاع الأمويون تأمين المناطق بما تحتاجه من محاصيل من خلال زيادة إنتاج كل منطقة بما يوجد فيها من محاصيل، كي تفي حاجتها وتصدر الفائض إلى المناطق التي لا تُزرع فيها أو تُزرع بمقادير قليلة، كما ويظهر دور الأمويين من خلال دعم الزراعات المعروفة ومن خلال التشجيع على زراعة المحاصيل الجديدة أو المعروفة على نطاق ضيق.

ومن المحاصيل المعروفة القمح والشعير والزيتون والكرام والتمور، والمحاصيل التي أُدخلت هي الأرز وقصب السكر والقطن وسيتم الحديث باختصار عن هذه المزروعات لإعطاء صورة ولو بسيطة عنها:

فالحبوب من قمح وشعير -التي تعتبر من أهم المحاصيل بسبب اعتماد الناس في غذائهم عليها- ولأنها تنمو في المناطق غير المروية فقد انتشرت في مناطق مختلفة من بلاد الشام (٤) التي صدرت قمحها إلى الحجاز (٥) كما زُرِع في مصر التي اشتهرت بتصدير قمحها إلى الحجاز بعدما كان يصدر إلى القسطنطينية قبل الفتح (٦) وهذا لا يعني انعدام وجود القمح في الحجاز وإنما أنتج بكمية قليلة وخاصة في اليمامة (٧) (الرياض وما حولها) وتبرز أهمية هذا المنتج بالنسبة لمكة عندما استخدمه نجدة الحنفي الخارجي كوسيلة ضغط عندما خرج في اليمامة ضد ابن الزبير في مكة (٨).

ونظراً لأهمية الزيتون وزيتته فقد تم تشجيع زراعته في المناخ الذي يناسبه حيث اعتدال الحرارة في الشام

-
- (١) أبو عبيد، الأموال، ص ١٥١، وأبو يوسف الخراج، ص ٥٢، والطبري، اختلاف الفقهاء ص ١٥٣ .
 - (٢) أبو يوسف، الخراج، ص ٨٩، والطبري، اختلاف الفقهاء، ص ١٥٥.
 - (٣) Grohman، Adolf; Arabik Papyri in the Egyptian Library ,Cairo 1934-1936-1938, Vol II, pp 45-48.
 - كاشف، مصر في فجر التاريخ، ص ٢٧٠، وكاشف، سيدة وسرور، جمال و عاشور، سعيد، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١٣٤.
 - (٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦١، ناصر خسرو (ت ٣٩٤هـ/١٠٠٣م)، سفرنامه، تحقيق يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ص ٤٥، لوبون، غوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة، ط ٣، ١٩٥٦، ص ١٥٤.
 - (٥) عاطف رجال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٤٨.
 - (٦) كاشف، سيدة، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٦٦، أرشيبالد، لويس، القوى، ص ١٢٤.
 - (٧) ابن فقيه، البلدان، ص ٣٨.
 - (٨) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٢ .

والمغرب ، وكانت فلسطين أكثر مناطق الشام زراعةً له(١) ونظراً لوفرة الزيتون في المغرب الأدنى (تونس) فقد تم تصدير زيتها وخاصةً الصفاقصي منه إلى المغرب العربي ومصر وصقلية وبلاد الروم(٢) كما عرفت بعض مناطق الأندلس ومنها إشبيلية زراعة الزيتون(٣).

وتم دعم زراعة الكروم وما تنتجه من أعناب لتلبي حاجات السوق فانتشرت زراعته في مناطق واسعة من الشام (٤) حتى أن فلسطين صدرت الزبيب الذي اشتهرت به إلى مناطق متعددة(٥) كما زُرعت الكروم في دلتا النيل وكذلك في السهل التونسي والمناطق الجنوبية من الأندلس(٦)، أما النخيل الذي ينتج التمر الذي يمثل الغذاء الأساسي للسكان بالإضافة إلى استخدام أوراقه في بعض الصناعات، فقد تم التركيز على زراعته في الحجاز والعراق لأن التمر كان من الموارد الهامة، فهو ينمو في أماكن مختلفة من الحجاز، ومنها : ينبع(٧) والطائف والمدينة(٨) وغيرها من الأماكن. و اشتهرت اليمامة بكثرة نخيلها(٩) وكان من النوع الجيد ولذلك كان يباع في أسواق التمور في شبه الجزيرة العربية(١٠) و اشتهرت العراق بزراعة النخيل، وكانت البصرة أول مدنه إنتاجاً له(١١)، وانتشر في جميع مناطق العراق، وبخاصة السواد، ونظراً لجودته فقد تفاخر أهل العراق بتمورهم(١٢).

أما بالنسبة للزراعات الجديدة التي انتشرت في المناطق التي تناسب زراعتها مثل الأرز فقد عُرف قبل الإسلام لكن بحدود في المناطق المفتوحة، إلا أنها اشتهرت بعد الفتح في المناطق التي تكثر فيها المياه كالبصرة، التي صنع أهلها خبزهم من دقيق الأرز(١٣) كما زُرِع في غور الأردن وخاصة بيسان والبحر الميت وبحيرة طبرية(١٤) هذه المناطق التي تتوفر فيها شروط زراعة الرز، من انخفاض الأرض ورطوبة الطقس والشروط نفسها توفرت في بعض مناطق مصر ولذلك انتشرت فيها زراعة الرز ومن تلك المناطق: الفيوم والواحات

- (١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٧٢، والاصطخري، مسالك الممالك، ص٥٨، وابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي(١٣٧٧/هـ٧٧٩م) رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكناني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨٤، ج١، ص٨٠.
- (٢) نزهة المشتاق، ج١، ص٢٣٠، وسفاقس أو صفاقص مدينة في تونس تقع على الساحل الشمالي لخليج قابس وهي عاصمة جنوبي تونس الإدارية ومن أهم مراكزها الاقتصادية..
- (٣) زيود، محمد أحمد، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٥١،
- (٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٥٨-٦٣ والمقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧١.
- (٥) المقدسي، أحسن، ص١٦٤.
- (٦) زيود، المرجع السابق، ص٥١.
- (٧) ابن حوقل، ج١، ص٢٢، والمقدسي، أحسن، ص٩٧ ينبع تقع بين مكة والمدينة ، وهي من أرض تهامة، انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج٤، ص١٤٠٢، والحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٥٠.
- (٨) العلي، صالح أحمد، الحجاز في صدر الإسلام (دراسات في أحواله العمرانية والإدارية) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص١٦٦.
- (٩) الهمذاني، لسان اليمن الحسن بن أحمد(ت بعد ٩٥٥/هـ٣٤٤م) صفة جزيرة العرب، تحقيق حمد بن علي الأكوغ الحوالي، مكتبة الإرشاد صنعاء، ط١، ١٩٩٠، ص٢٧٥، و ابن حوقل صورة الأرض، ص٢١، والإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٥٩.
- (١٠) ابن الفقيه ، البلدان، ص٣٩.
- (١١) الاصطخري، مسالك الممالك، ص٨٢، وابن حوقل، صورة الأرض، ص٢٢٦.
- (١٢) ابن الفقيه، البلدان، ص١٢١.
- (١٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢٢١.
- (١٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٣، وبيسان منطقة منخفضة تقع إلى شمال غور الأردن في الضفة الغربية لنهر الأردن، وتقع بين حوران وفلسطين انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج١، ص٢٩٢، ياقوت، معجم، ج١، ص٥٢٧، والشامي موسوعة المدن، ص٩٥.

الجنوبية، وعلى طول وادي النيل الأعلى(١) . وبالإضافة إلى مصر زرع الرز في الأندلس أيضاً (٢) .

أما قصب السكر والقطن فهما من منشأ استوائي لكن ظروف زراعتهما تتوفر في بعض مناطق الدولة العربية الإسلامية، فقصب السكر أدخلت زراعته إلى بلاد الشام في سنة(٦١١ هـ / ٦٨٠م) (٣) وبخاصة في قرى الغور وأريحا وساحل الشام(٤) ولأن زراعته كانت تقتضي إمكانات كبيرة، تفوق إمكانات الملاكين الصغار، لذلك زرع في ملكيات كبيرة، وفي الأراضي التي تخص الدولة . ولم تقتصر زراعته على الشام فقط بل زرع في مصر أيضاً، إذ نُسب إلى الإمام الشافعي الذي عاش بمصر في أواخر القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي قوله: «لولا قصب السكر ما أقيمت بمصر»(٥) ، ويُعتقد أن يكون العرب قد نقلوا زراعة قصب السكر منذ القرن الأول أو الثاني الهجري لبلدان المغرب العربي وصقلية والأندلس(٦).

أما القطن فقد انتشر بشكل واسع عقب الفتوحات العربية- وإن كان العرب قد عرفوه لكن بشكل ضيق- لكن زراعته انتشرت بشكل أوسع بعد الفتوحات العربية فأول ما أدخلت زراعته إلى شمالي العراق(٧)، ثم توسعت بعد ذلك في المنطقة الممتدة من الفرات إلى حلب، وهي الامتداد الطبيعي لمناطق زراعته في شمالي العراق المحاذية لها. ثم بدأت زراعته تتسع وتمتد إلى بعض مناطق الشام الجنوبية الملائمة لزراعته، وذلك في منخفض غور الأردن الحار والرطب، وغوطة دمشق أيضاً(٨)، كما زرع في مصر أيضاً(٩) وشاعت زراعته في المغرب والأندلس وصقلية على مدى القرون الثلاثة الأولى من العصور الوسطى(١٠). ولا بد من الإشارة إلى التشجيع الذي لاقته زراعة الأشجار غير المثمرة المستعملة لأغراض صناعية مختلفة والتي تنوعت أنواعها، وتعددت المناطق التي زُرعت فيها والتي استعملت أخشابها في الصناعات المختلفة، حيث نمت الغابات على سفوح الجبال الساحلية لبلاد الشام و مصر و المغرب والأندلس والتي غصت بأشجار السنديان والصنوبر والزان والتوت (١١) ، كما انبثقت في جبال لبنان الشرقية أنواعاً عديدة من الأشجار، والتي منها: البلوط والسرو والشوح والأرز(١٢) .

ونتج عن انتشار هذه الزراعات في الدولة الأموية وفرة في المحاصيل دلت عليها مقادير الخراج التي جُبيت

- (١) الفيوم كانت من أقدم المدن المصرية أيام الفراعنة، وهي اليوم مركز محافظة الفيوم وتقع إلى الجنوب الغربي من القاهرة وتبعد عنها بنحو ١٢٠ كم، على الضفة الغربية لنهر النيل، شامي، موسوعة المدن، ص٢٢٤.
- (٢) الحميري، مجمد بن عبد المنعم(ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٧٤، ص٣٤ .
- (٣) مولا ،علي ،الموسوعة العربية الميسرة، ج٥، ص٢٥٦٢.
- (٤) المقدسي، أحسن، ص١٥٠، و-ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢١٦.
- (٥) الذهبي، سير، ج١٠، ص٥٦، السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر(ت٩١١هـ/١٥٠٥م) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦، ج٢، ص٤٣٧،
- (٦) زيود، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٥٦.
- (٧) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٧٣.
- (٨) كرد علي، محمد، خطط الشام، ج٤، ص١٣٩ Lombard ,M.,;L' islam dans as premiere grandeur, Paris, 1971, p201.
- (٩) خطط المقرئزي، ج١٠، ص٢٩٣.
- (١٠) سعيد، خليفة، تاريخ المنسوجات، القاهرة، ١٩٦١، ص١٩٢ .
- (١١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٢ وابن حوقل، صورة، ص١٧٢.
- (١٢) قطار، الياس، لبنان، ص٣٩..

في مختلف الأقاليم والتي رفدت بيت المال بالأموال وهذا أدى إلى دعم اقتصادها وانتشار المحاصيل تلبية لحاجات الدولة والمجتمع.

٣- اعتماد سياسة ضرائبية خاصة بمناطق الإنتاج:

حدد التشريع الإسلامي الضرائب على الأرض وإنتاجها الزراعي، والحديث هنا لن يتطرق إلى نوعية الأرض بتقسيماتها، بل إلى طبيعة الأرض من جودة وأنواع المزروعات وكيفية الري والجهد المبذول في ذلك وقربها وبعدها عن الأسواق. فهل كان لهذه الضريبة الخاصة بالأرض أساس وضعه الخلفاء الراشدون؟

من المتفق عليه أنّ ضريبة الأرض التي كانت تُجبي من قبل الدولة كانت على نوعين : ضريبة العشر وضريبة الخراج ، فقد فرض العشر منذ عهد الرسول ﷺ على أرض الحجاز واليمن وأرض العرب(١) وفرضها الخلفاء الراشدون خارج شبه الجزيرة العربية على كل من أسلم عليها أهلها وأرض الموات التي أحيها المسلمون والأراضي الموات التي هجرها أهلها فأقطعت للعرب المسلمين(٢) . وكان صاحب أرض العشر يدفع العشر إذا كانت أرضه تُسقى بماء المطر أو العيون أو سباحاً ويدفع نصف العشر إذا كان يتكلف مؤونة في سقيتها بالسواني أو بالنضح أو بالدالية(٣) ، أما ما يؤخذ منه الزكاة من أصناف الغلات فإن بين الفقهاء في ذلك اختلافاً، فمنهم من يقول إنها في الحنطة والشعير والتمر والزبيب والذرة، وزاد آخرون بأنها من جميع ما يمكن ادخاره ويتهياً بقاؤه في أيدي الناس عاماً على الأقل ولا يؤخذ ما لا يمكن فيه ذلك(٤) . وربما إنه لا يؤخذ عشر إلا على ما بقي في أيدي الناس مما يكال بالقفيز ويوزن بالأرطال(٥) مثل الحنطة والشعير والذرة واللوز... فإذا أخرجت الأرض من ذلك خمسة أوسق(٦) أو أكثر ففيه العشر ، إذا كانت الأرض تُسقى سباحاً أو سقتها السماء ، ونصف العشر إذا كانت تُسقى بقرّب أو دالية أو سانية ، وإذا نقص عن خمسة أوسق لم يكن فيه شيء(٧) . ولم يكن يُراعى في صدقة الزرع الحول، بل كانت تُجبي حيث يبدو صلاح الزرع والثمر(٨) .

(١) أبو يوسف الخراج ،ص٦٩.

(٢) قدامة بن جعفر، الخراج ص٢١٠.

(٣) قدامة بن جعفر ، الخراج، ص٢٢٠، وأبو يوسف، ص٥٠، و، الرحيبي، عبد العزيز بن محمد الحنفي (ت ١١٨٤هـ/١٧٧٠م) فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، تحقيق، أحمد عبيد كبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣، ج١، ص٣٦٨-٣٦٩. والسيح بفتح السين المشددة وسكون الياء هو ما على ظهر الأرض من ماء يسقي من غير آلة، محمد عمارة، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٣٠٠، والسواني مفرداً سانية وهي الناقة التي يُسقى عليها الماء للزرع والحيوان، محمد عمارة، المرجع السابق، ص٢٧٧-٢٧٨. والنضح بفتح النون المشددة وسكون الضاد هو الفوران للماء من العين أو ما شابهها ، محمد عمارة، المرجع نفسه، ص٥٩٣، أما الدالية فهي من أدوات السقي في الزراعة.

(٤) يحيى بن آدم، الخراج، ص١٣٨، والمنتظر يآيت الله حسين علي، الزكاة، مكتب الإعلام الإسلامي، ط١، ١٩٨٣، ج١، ص١٤٦.

(٥) القفيز، هو في المكايل يساوي ٣٣ ليتراً أي ٢ كيلو في المكايل الحالية، محمد عمارة، قاموس المصطلحات، ص٤٦٤، والأرطال مفرداً رطل وقد اختلفت مقاديره في الزمان والمكان باختلاف الموزون به أيضاً وهو يساوي الآن ١٢ أوقية زنة كل أوقية ١٢ درهماً ، محمد عمارة ، المرجع نفسه، ص٢٥٠.

(٦) أبو يوسف الخراج، ص٥٢، و الحاج حسن ،حسين، النظم الإسلامية ، ص٢٦٣ والسوق هو الحمل وهو ستون صاعاً، الرئيس، الخراج، ص٣٣٣، والصاع يساوي بالتر ٠٤٢٩، ٦ لتراً، عمارة، محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص٣٢٤.

(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٥٠ والقرب ، مفرداً القربة وهي التي يُحمل فيها الماء، عمارة، محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص٤٤٩.

(٨) أبو عبيد ابن سلام، الأموال، ص١٣٨، و المزيني ،أحمد عبد العزيز ، الموارد المالية في الإسلام، دار ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٩٩٤، ص١٧٣.

أما ضريبة الخراج : فقد فُرِضت على الأراضي التي فُتحت عنوة كسواد العراق والأراضي الريفية في الشام ومصر، ولذلك فإن كل الروايات المتعلقة بالضريبة الزراعية هي ما يخص أرض العنوة سواء التي استصفاها الخليفة عمر بن الخطاب أم التي تركها بأيدي أصحابها لتكون فيئاً للمسلمين بدلاً من أن يقسمها بين المقاتلة كما تُقسم الغنيمة (١) والجريب كمقياس للأرض يساوي شرعاً ١٠٠ قسبة مربعة، وبذلك يكون الجريب على وجه التقريب ١٥٩٢ كم (٢). ولقد جعل عمر الخراج على الأرض التي تغل من ذوات الحب والثمار والتي تصلح للغلة من الغامر والعامر ، وعطل من ذلك المساكن والدور التي هي منازلهم، فلم يجعل عليها شيئاً (٣) ، وعلى الرغم من اختلاف الروايات الواردة في كتب الأموال والخراج حول ما فُرض على جريب الكرم والأشجار المثمرة والنخل والرطب، فإن هناك اتفاقاً على أن عمر وضع على كل جريب عامر أو غامر يبلغه الماء درهماً وقفيزاً (٤)، ومن المتوقع أن ضريبة الدرهم والقفيز لا تجد قبولاً عند بعض الفلاحين ، لأن الأراضي التي تُزرع فيها الأشجار المثمرة وبعض المحاصيل التي لها ميزة على غيرها أنها تعطي مردوداً مادياً أكبر من الأرض التي تُزرع قمحاً، وهذا ما دفع عمر بن الخطاب فيما بعد إلى أن يفرض على كل جريب أرض خراجية ما يتفق ونوع الزرع (٥) .

إن المدقق في الروايات الواردة في كتب الأموال والخراج يرى أن عمر لم يجعل ابتداء الخراج في العراق درهماً وقفيزاً على كل الأرض بل إنه ميز منذ البدء بين الأرض التي تغل من ذوات الحب والثمار والأرض التي تصلح للغلة من العامر والغامر أي أن عمر فرض على العامر من الأرض ؛ أي الأرض الصالحة للزراعة ولكنها غير مزروعة، وعلى الغامر من الأرض أي التي يصلها الماء درهماً وقفيزاً من القمح أو الشعير لكي يجبر أهل السواد على الزراعة لأن العامر غير المزروع كان كثيراً عند فتح العرب للبلاد (٦) فإذا اضطر صاحب الأرض أن يدفع درهماً وقفيزاً على كل جريب من الأرض الصالحة للزراعة دون أن يزرعه فإن الأرض ستصبح عبئاً عليه. أما اختلاف الروايات حول ما فُرض على الجريب من المحصول نفسه فعائد إلى أن عمر بن الخطاب حينما قَدَّر الخراج أخذ بعين الاعتبار ما تحتمله الأرض وما تطيقه (٧) ويكون تقدير الاحتمال تبعاً لعوامل تؤثر على زيادة نسبة ضريبة الخراج أو نقصانها ، منها ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها، ومنها ما يختص بالسقي والشرب، لأن ما التزم المؤونة في سقيه بالنواضح والدوالي لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقي السيوح والأمطار، ولذلك فإنه عندما بعث علي بن أبي طالب يزيد ابن أبي زيد الأنصاري على سقي الفرات أمره أن يضع على كل جريب زرع غليظ البر درهماً وعلى جريب رقيق الزرع ثلثي درهم ، وعلى الشعير نصف ذلك وأمره أن يضع على البساتين التي تحمل النخل والشجر على كل جريب عشرة دراهم، وعلى جريب الكرم إذا أتت عليه ثلاث سنين، ودخل في الرابعة وأطعم عشرة دراهم وأن لا يضع على الخضراوات شيئاً (٨) .

- (١) ابن سلام، الأموال، ص١٢١-١٢٢، ابن قدامة، الخراج، ص٢٠٦.
- (٢) هتس ، فالتر ، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المترى، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠ ص٥٦.
- (٣) أبو عبيد، الأموال، ص١٤٠،
- (٤) المصدر السابق، ص١٣٦، وابن آدم، الخراج ص١٣٨،
- (٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٨.
- (٦) أبو يوسف، الخراج، ص٤٨.
- (٧) أبو يوسف، الخراج، ص٣٦، و الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٩، و ابن رجب ، الاستخراج، ص٥٦.
- (٨) البلاذري، فتوح، ص٢٧٠، و ابن رجب، الاستخراج ، ص٩٠.

كذلك كان يُنظر بعين الاعتبار إلى اختلاف أنواع الزرع من الحبوب والثمار ، وبُعد المناطق عن الأسواق وقربها، واختلاف جودة الأرض من مكان لآخر (١) ، وبالإضافة إلى أرض العنوة التي أبقاها عمر بن الخطاب بأيدي أصحابها مقابل دفع الخراج عن أرضهم، والجزية عن رؤوسهم ، فقد وجدت أرض بقيت دون مالك لها إذ جلا عنها أهلها أثناء الفتوح، والتي كانت تابعة للملوك أو لرجال الدين والذين هجروها، وقد عُرفت بالصوافي لأن عمر بن الخطاب استصفاها وسميت أيضاً بالقطائع لأنها اقتطعت فيما بعد لمن يتعهد حرثها وهذه الصوافي بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث فلإمام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابي أحداً (٢) وقد يؤخذ من أرض القطائع الخراج إذا كانت تشرب من أنهار الخراج (٣) وهذا يعود إلى رأي الإمام، ويؤخذ العشر من أصحابها إذا اضطر إلى حفر الأنهار وبناء البيوت، وعمل الأرض لأن في هذا مشقة عظيمة على صاحب الإقطاع (٤) .

كيف تعامل الأمويون مع الأسس التي وضعها عمر بن الخطاب فيما يخص الضريبة الزراعية؟ لقد سار معظم الخلفاء الأمويين على سياسة عمر بن الخطاب، حيث كان الخراج قابلاً للزيادة والنقصان حسب الظروف. إلا أنهم أحدثوا بعض التعديل وقاموا بدور واضح في التنسيق، ولعل دورهم الأساسي كان في تحقيق نظام منسجم موحد للضرائب في الأمصار المختلفة من حيث الأسس ولدرجة بعيدة في التطبيق (٥). ونظراً لخصوصية كل إقليم من الأقاليم التي حكمها الأمويون، فسيكون الحديث عن كل إقليم منها بشكل منفرد، والبدء من العراق أول الأقاليم المفتوحة:

فعلى الرغم من أن تنظيم عمر للضرائب بقي طول العصر الراشدي وقسماً من الخلافة الأموية دون أي تغيير كبير، إلا أنّ الأمويين عملوا على توسيع وتطوير ما سنه عمر بن الخطاب ، وابتكروا وحدات قياسية جديدة لها أثر كبير في تحديد المساحات الأرضية، ومن ذلك المسح الذي قام به زياد بن أبيه (٦) ، كما شهد العراق أيام زياد استقراراً ملحوظاً في مقدار الخراج، وذلك بفضل معاملته الجيدة للفلاحين و يذكر البلاذري معلومات مفصلة عن مقدار الخراج وحجم المصروفات في العراق أيام زياد ، إذ يذكر أن زياداً كان يجبي من كور البصرة ستين ألف درهم ، ومن الكوفة أربعين ألف درهم سنوياً لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة (٧) والمجموع مئة مليون درهم، كما ذكر اليعقوبي أنّ خراج السواد استقر أيام معاوية على مئة ألف ألف وعشرين ألف درهم (٨) أي ١٢٠ مليون درهم ، كما ذكر المبرد أن زياداً جبي من العراق مئة ألف ألف وثمانية عشرة ألف (٩) أي ١١٨ مليون، بينما يذكر الصولي أن زياداً جبي السواد مئة ألف ألف (١٠) أي مليون، ويمكن الاستنتاج من مقارنة هذه الأرقام التي ذُكرت أن ما رواه البلاذري إنما هو تفصيل لواردات

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٩٠.

(٢) ابن آدم ص ٦٤، و الدوري ، عبد العزيز ، ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ١٩٦٠، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٣-٢٤.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٣٨، و ابن آدم، الخراج، ص ٦٦، و البلاذري، فتوح البلدان ، ص ٨٥.

(٤) ابن آدم، الخراج، ص ٦٦.

(٥) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص ٣١.

(٦) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٩٥، وهنتس ، المكايل، ص ٨٨.

(٧) البلاذري، أساب، ج ٥، ص ٢٢٧.

(٨) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٣،

(٩) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦١.

(١٠) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ/٩٤٧م) أدب الكتاب، تصحيح محمد بهجت الأثري، المكتبة العربية، بغداد، ١٩٢٢، ص ٢٢١.

ومصروفات العراق في سنة من سنين ولاية زياد، ولا ينطبق على جميع سنوات ولايته، وهذا ما يفسر الفروق البسيطة بين ما ذكره هؤلاء الرواة، وربما يكون ما نقله كل منهم يخص سنة معينة من سنوات ولاية زياد، وبقيت هذه النسبة من الخراج إلى عهد الحجاج حيث انكسر الخراج في عهد الحجاج، ويعود لعدة أسباب منها: حدوث هجرات منتظمة من الريف إلى المدن (١) ، وخروج بعض القرى التي كان خراجها يعد في خراج العراق وذلك إما بسبب سيطرة الخوارج عليها (٢) وإما بجعلها مكافأة لأحد القواد وتشجيعه على قتال الخوارج، كما حدث مع المهلب بن أبي صفرة، إذ إن عبد الملك أمر الحجاج بإطلاق يده في خراج فارس وبعض الكور الأخرى (٣) أما الأمر الثالث فهو انتقال كثير من الأراضي التي كانت خراجية إلى ملكية العرب، وبذلك تكون انتقلت من ضريبة الخراج إلى ضريبة العشر مما يؤثر سلباً على مستوى الخراج في العراق، وقام الحجاج بإرجاع الأراضي إلى ما كانت عليه من قبل وجعل الخراج عليها مهما كان نوعها (٤)، كما قام بإصدار أمر يقضي بإرجاع من هجر قريته إليها، وذلك بعد أن كتب له عماله يخبروه بانكسار الخراج، وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار (٥) وفي سنة (٩٥هـ/٧١٣م) توفي الحجاج تاركاً في بيت مال العراق مئة وبضعة عشرة مليون درهم (٦). ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل الحجاج، فسمح لمن أسلم أن يترك قريته متى شاء، لكن أرضه تصبح فيئاً للمسلمين (٧) إلا أن واليه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن ربط بين الهجرة و ظاهرة انكسار الخراج، فحاول معالجة هذا الأمر باستصفاء أراضي الفلاحين المهاجرين، لكن الخليفة لم يوافق على ذلك فكتب له: «أما بعد، فلقد بلغني كتابك ولعمري لئن لم تدع رجلاً خرج من أرض إلى أخرى، ومن قرية إلا أخذت أرضه، ثم عزلت وامت، ليقطعن صاحب الأرض عنها، وتبوء بإثمها، وما يجلوا رجلاً من أرضه إلا بأن يحمل فوق طاقته ... فتألف أهل الأرض فإن أراضيهم وبلادهم أحب إليهم من الجلاء، اعدل بهم وارفق فيهم" (٨).

أما بالنسبة إلى مقادير الخراج، فقد ميّز عمر بين العامر والخراب ولذلك كتب إلى عامله عبد الحميد: «ولا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب» (٩) وأقر أن يُؤخذ عن العامر وظيفة الخراج في رفق وتسهيل (١٠) ، كما أوصى بأن لا يُؤخذ شيء من عامر لا يعتمر، وهذا يعني وجود عامر معطل آنذاك نتيجة الثورات والأحداث وقرر أن يُؤخذ من الخراب على قدر احتمالته ومحاولة إصلاحه حتى يعمر باعتبار أن

-
- (١) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٤٨.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٨، و٤٩٩، و٥٠٠، و٥٢٧..
(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٩٠، والطبري، تاريخ، ج٣، ص٦١٢.
(٤) محفوظ الإدريسي، ألبان، الموارد المالية للدولة الإسلامية في العصر الأموي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٦، ص٢٠٥.
(٥) الطبري، تاريخ ج٣، ص٦٤٨،
(٦) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣١٧، وبطائنة، الحياة الاقتصادية، ص١٥٦، و الجومرد، محمود، الحجاج رجل الدولة المفترى عليه، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد، ١٩٨٥، ص٦٤.
(٧) ابن زنجويه حميد (ت٢٥١هـ/٨٦٥م)، الأموال، تحقيق شاکر ذيب فياض، حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٩٨٦، ج١، ص٢٠٩.
(٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٨، ص١٥٣،
(٩) المصدر السابق، ج٨، ص١٤٧، وأبو النعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ابن زنجويه، الأموال، ج١، ص١٧١
(١٠) ابن سلام، الأموال ص١٠٤، والطبري ج٤، ص٧٠.

الخراب ناشئ عن ظروف عامة(١) ، أما عبارة على قدر احتمالها، فتأخذ أبعاداً ثلاثة قد يكون لأحدها أو كلها مجتمعة، دور واضح في زيادة الخراج أو نقصانه، ويختص أولها بالأرض من جودة ورداءة، والثاني بالزرع وأنواعه(حبوب ، ثمار) والثالث بطرق السقي والري(٢) ، كما حافظ عمر على مردود أرض الصوافي، بأن أمر والي الكوفة بإعطاء أرض الصوافي بالمزارعة(٣) بنسب تتناسب وجودتها بين نصف الحاصل وعشره أو أن ينفق عليها من بيت المال، على أن لا يُقطع منها شيء. ولقد حافظ خراج العراق في عهد عمر على مستواه(٤) وفي عام (١٠٣-١٠٥هـ/٧٢١-٧٢٣ م) قام عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد بن عبد الملك بمسح السواد في سنة(١٠٥هـ/٧٢٣) ويذكر اليعقوبي إجراء مسحين اثنين في السواد(٥) فالأول كان في زمن عمر بن الخطاب والثاني في زمن يزيد بن عبد الملك، ولكن إذا أخذ بعين الاعتبار المسح الذي قام به زياد بن أبيه فيكون هذا المسح الذي قام به عمر بن هبيرة هو الثالث . وبحسب رواية اليعقوبي فابن هبيرة وبعد مسحه هذا وضع الخراج على النخيل والشجر وأضر بأهل الخراج، ويبدو أنه زاد في وظيفة الخراج المعروفة على الشجر والنخل وبغض النظر عن مسح ابن هبيرة فالأمويون على العموم حاولوا تثبيت ضريبة أرض الخراج في العراق حسب ظروفها.

أما بلاد الشام وجزيرتها: فمن المرجح أن مقدار ما كان يُجبي من الضرائب في بلاد الشام بقي ثابتاً طوال العصر الأموي، لأن هذه البلاد كانت مقر الدولة، وكان يسودها الاستقرار في أغلب أيامها ولم يحدث فيها تغيرات اقتصادية عنيفة، لذلك كانت الأموال التي تصل إلى بيت المال بدمشق تشكل مورداً ثابتاً إلى حدٍ كبير(٦). ويمكن معرفة تقديرات ضرائب الشام في زمن معاوية من قوائم الضرائب كقائمتي اليعقوبي والصولي وما تضمنته من معلومات حول مبالغ الخراج المفروضة آنذاك من دون الإشارة إلى طريقة التقدير(٧) فيذكر اليعقوبي أن خراج الشام كان موزعاً على أجناد الشام من دمشق والأردن وفلسطين وحمص وقنسرين والعواصم ما مجموعه ١.٨٨٠.٠٠٠ ديناراً (٨) بينما يشير الصولي إلى أن مجموع الضرائب في عهد معاوية قد بلغت ما مجموعه ١.٢٦٠.٠٠٠ ديناراً(٩) ويلاحظ انخفاضاً للخراج في زمن عبد الملك وربما يعود هذا الانخفاض إلى دخول بعض أهل الذمة في الإسلام من ناحية وتحول بعض الأراضي الخراجية إلى أرض عشرية لذلك أعاد عبد الملك تقدير الخراج في الجزيرة والشام والموصل على الغلات الرئيسية وهي الحنطة والكروم والزيتون، وحمل الأرض على قدر قربها وبعدها، وهذا إجراء أخذ به البيزنطيون من قبل(١٠) ففرض على المناطق القريبة ديناراً على كل مئة جريب حنطة، وديناراً على كل مئة شجرة زيتون، وديناراً عن كل ألف أصل كرم، أما المناطق البعيدة - مسيرة يوم أو يومين فأكثر- ففرض عليها ديناراً عن كل مئتي جريب حنطة وديناراً عن كل

- (١) خزنة كاتبي، غيداء ، الخراج من الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧، ص١٤٥.
- (٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٩.
- (٣) ابن آدم، الخراج، ص٩٩.
- (٤) ابن خردادبه، المسالك، ص١٤ وياقوت الحموي، معجم البلدان، والماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٢٨.
- (٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٥٢، و٣١٣.
- (٦) عبد الرؤوف، عصام الدين، الحواضر الإسلامية الكبرى، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٦، ص٦٧.
- (٧) Ulrichk Rebstock "Observation on the Diwan Al –Kharaj and the Assessment of Taxes in Umayyad Syria" VOL 11, P,230.
- (٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٣٤.
- (٩) الصولي، أدب الكتاب، ص٢١٩.
- (١٠) Walter A , Goffart, Caput and Colonate,; Tow ards a History of Late Roman Taxation (Toronto,Buffalo;Universty of Toronto Press, 1974)p33.

مئتي شجرة زيتون وديناراً عن كل ألفي أصل كرم(١) ويتضح من هذا التعديل أنه تم فرض ضريبة نقدية محددة على أرض الخراج وهذه المبالغ المفروضة هي قليلة بالقياس إلى الضرائب الأصلية في وقت أراد فيه عبد الملك زيادة الوارد بعد تراجع نتيجة اختفاء الصوافي والسماح بشراء الأرض الخراجية. والسؤال هنا هل أعيد النظر في خراج غلتين فقط، وهما الكروم والزيتون، أو أنه أعيد النظر في خراج غلات أخرى كالحنطة مثلاً إضافة إلى الكروم والزيتون، على اعتبار أن هذه الغلات الثلاث هي الغلات الرئيسية المألوفة لدافعي الضرائب واستثنيت بقية الغلات باعتبارها ليست أساسية، فاستمرت تدفع الخراج كما كان مفروضاً عليها عند الفتح من دون زيادة، يمكن القول إن رواية أبي يوسف عن الغلات الثلاث كان مقصوداً بها التخصيص وليس العكس، فكانت الإضافة النقدية مقبولة لا إرهاباً فيها. فضرائب أرض الشام إذاً بقيت نوعاً ما ثابتة.

أما فيما يخص مصر: فقد كان الخراج فيها يُجبي على أساس مساحة الأرض التي يمتلكها الشخص وحسب قدرتها الإنتاجية على أنه يراعى في ذلك فيضان النيل كل عام ويتضح مما ورد في أوراق البردي ومما ذكره المؤرخون أن الخراج في مصر كان يُجبي عيناً ونقداً ففي كتاب أصدره الوالي قره بن شريك إلى بعض القرى من نواحي كورة اشقوة يقول لهم: "...ومن ضريبة الطعام أحد عشر أردباً وثلاث الأردب" (٢) وضريبة الطعام هنا تعني الخراج أو جزء منه وتُدفع هذه الضريبة عيناً، حيث كان القمح من أهم ما يُجبي من ضريبة الطعام، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحياناً غير الغلال كالزيت والعسل وأنواع الطعام الأخرى(٣). وأتبع العرب في جبايتهم الضرائب الأسلوب الذي كان متبعاً في مصر من قبل البيزنطيين، حيث كانت القرية مسؤولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها(٤) ويتضح هذا الأسلوب من كتاب قره بن شريك في سنة(٩١هـ / ٧٠٩م) المرسل إلى صاحب كورة اشقوة يأمره بأن يجمع رؤساء كل قرية وذوي النفوذ فيها كي يختاروا رجالاً أمناء أذكفاء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الخراج على قدر استطاعتهم، وبعد أن يقوموا بهذه المهمة تحت إشراف صاحب الكورة يطلب منه أن يكتب أسماء وألقاب ومحل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وينذرهم بأنه إذا وجد أن قرية حُمّلت أكثر مما تتحمل من الضرائب، أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الأشخاص وصاحب الكورة أيضاً أشد العقاب(٥). وقد يكون من العسير على الأهالي سداد ما عليهم من الضرائب دفعة واحدة لذا كان الدفع يتم غالباً بالتقسيم ويحصل الأهالي على إيصالات عرفت في أوراق البردي باسم (براءة)(٦) وكما حدث في العراق من هجرة الفلاحين من القرى إلى المدن كذلك في مصر في عهد واليها عبد الله بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد بن عبد الملك، ولم تكن هذه الحركات جديدة في مصر، فكثيراً من الفلاحين هجروا قراهم في العصر البيزنطي فراراً من دفع الضرائب(٧). واتخذت حركة الهروب في مصر في ولاية قره بن شريك شكلاً واسعاً حتى أن أسراً بأكملها كانت تنتقل من مكان إلى آخر هرباً من الضرائب عندما كانت تزيد عن حدها،

(١) أبو يوسف، الخراج، ص٣٦.

(٢) Grohman, Arabic Papyri, Volii, p48. ، والأردب هو مكيال ضخم لأهل مصر وهو ٢٤ صاعاً ، علي محمد ،

المكاييل والموازين الشرعية، القدس للإعلان ، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١، ص٣٩

(٣) كاشف، سيدة، عبد العزيز بن مروان، المؤسسة المصرية العامة للنشر، دار الكاتب العربي، القاهرة ص٧١، والوليد بن عبد

الملك، ص٩٦.

(٤) كاشف، سيدة، عبد العزيز بن مروان، ص٨٤.

(٥) المرجع السابق، ص٨٥.

(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٧) عطا ، زبيدة محمد ، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، دار الأمين، القاهرة، ط١، ١٩٩٤ ، ص٤٨.

الأمر الذي دعا قره إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه(١). ولقد بقي خراج مصر دون الثلاث ملايين دينار باستثناء عهد الخليفة هشام، حيث ارتفع إلى أربعة ملايين دينار(٢)، و كان ذلك نتيجة اهتمام هشام بخراج مصر، حيث أمر عبيد الله بن الحباب السلولي، الذي تولى خراج مصر، بمسح أرض مصر وبناءً على هذا المسح، كتب الحباب إلى هشام يخبره أن أرض مصر تتحمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطاً (٢/١ من الدينار) (٣)، وبالرغم من أن هذه الزيادة ليست بالقدر الكبير ولم يتم في مصر أية زيادة إلا هذه لأنه وحسب هذا المسح تم إقرارها إلا أنه على ما يبدو لم ترق لبعض الكور، فثارت على الوالي. ولخراج مصر خصوصية، إذ يقول ابن حوقل بأن لها سنة لم تنزل منذ أيام فراعتها في استخراج خراجها، حيث لا يتم استيفاء الخراج من أهلها إلا عند تمام الماء وافتراشه على سائر أرضها وتطبيقها(٤)؛ إن ضريبة الأرض في مصر إذاً خضعت لظروف طبيعية وهي ترتبط بمياه نهر النيل ولهذا كان على الأمويين مراعاة هذا الجانب فإذا تجاوزوه حدثت ثورات وفتن ضدهم .

أما فيما يخص باقي الولايات فهناك بعض الإشارات المتناثرة عن وضع الضرائب الزراعية فمثلاً في الأندلس لا توجد معلومات كافية عن هذه الضرائب باستثناء المسح الذي قام به السمع بن مالك الخولاني وكان من بين أهدافه معرفة خراج الأندلس، أما في خراسان فقد وجد نصر بن سيار أن وضع ضرائب الأرض وغيرها غير ثابتة، فقام بتصنيف الأراضي ووضع عليها الضرائب في مواضعها، فعمرت خراسان في أيامه عمارة لم تُعمر قبله (٥) .

٤- الاهتمام بالصناعة المرتبطة بالجيش :

تعد الصناعة عنصراً أساسياً من عناصر اقتصاد أي بلد، ولقد وجدت عدة صناعات في الدولة الأموية، منها ما هو قديم وتم تحديثه ومنها ما استحدث وابتكر مع ما يتفق والحاجة التي ابتكر من أجلها، ولقد كان موقع الدولة الأموية عاملاً مساعداً في انتشار الصناعات، حيث بسطت سلطتها على ملتقى القارات الثلاث المعروفة آنذاك آسيا وإفريقيا وأوروبا، ويضاف إلى هذا العامل وجود تمازج حضاري بين رعايا الدول العظمى القديمة كالفارسية والبيزنطية مع العرب، هذا الأمر الذي أدى إلى انتقال معارف وخبرات أهالي البلاد المفتوحة لذوي المهارات والراغبين في التعلم من العرب، كما أدت كثرة الأموال في أيدي الناس إلى ارتفاع القدرة الشرائية لديهم، الأمر الذي أدى إلى نمو الأسواق الاستهلاكية للمنتجات الصناعية، بالإضافة إلى توفر المواد الخام وكذلك اتساع رقعة الدولة الذي سهل انتقال السلع وتبادلها بين مراكز الصناعات، كما كان لانخراط العرب في الأعمال اليدوية وقبولهم إياها بعد أن كانوا يرفضونها دوراً في تعزيز هذه الأعمال(٦)، و شجعهم على ذلك حث الرسول الكريم على ضرورة العمل، وضرب لهم الأمثال كي يحفزهم على العمل حيث قال لهم: «إن زكريا عليه السلام كان نجاراً»(٧). إذاً لقد كان للإسلام الفضل في الإقبال على الأعمال اليدوية، بالإضافة إلى حاجة

(١) الرئيس، الخراج، ص٢٥٦، وبطائنة، الحياة الاقتصادية، ص١٤٩.

(٢) الرئيس، الخراج، ص٢٤٧.

(٣) المقرئ، الخطط، ج١، ص٢٨٢.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٣٦.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٣٣٢.

(٦) عوض، حنفي، العمل وقضايا الصناعة في الإسلام، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، الاسكندرية، ص٤٧.

(٧) بدور، سليمان، فلسطين في العهد الأموي، ص٩٠.

الإنسان مع التطور الطارئ للمجتمعات وضرورة توفير مستلزمات الحياة التي تتناسب طرماً مع هذا التطور ولقد أشار ول ديورنت إلى أنّ الصناعة في الحقبة المبكرة من العصور الوسطى كانت ما تزال في مرحلة العمل اليدوي، يقوم بها الأهالي في البيوت والحوانيت وينتظمون في طوائف، وإنه من العسير العثور في البلاد العربية في ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث للكلمة، فالعالم كله في ذلك الزمن لم يصل إلى أفضل من ذلك باستثناء الطواحين الهوائية(١)، إذ لا يوجد أي دليل على ارتفاع الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية، ومن المؤكد أن التطور الصناعي في الدولة الأموية في ذلك الوقت، وقياساً بعالم ذلك الزمن كان مميزاً من حيث تنظيم الأسواق وطوائف الحرفيين والعمال، وتوفير المواد الخام ، وهذا ما يفسر إشادة ديورانت بالصانع العربي الذي كاد حسب تعبيره ، أن يجعل من كل صناعة فناً(٢) .

فالأمويون إذاً اهتموا بالصناعة وشجعوها بشكل عام، أما فيما يخص الصناعة العسكرية أو الصناعة الخاصة بالجيش : فقد اعتاد العرب في جاهليتهم على استخدام الأسلحة نظراً لكثرة حروبهم بسبب فقدان السلطة المركزية العليا، وبمجيء الإسلام تعزز الاهتمام بالأسلحة كونها دولة فاتحة ذات جيوش جرارة وبحاجة إلى السلاح بالأعداد الكبيرة وبالقوة اللازمة، ولقد تعرف العرب، نتيجة احتكاكهم أثناء فتوحاتهم بالروم والفرس، على الكثير من الأسلحة الهجومية والدفاعية حيث شاهدوا أعداءهم يحصنون أطرافهم بالحديد، ولا شك أنهم غنموا منهم دروعاً كثيرة ومن الطبيعي أن يعمدوا إلى تقليدهم وقد كثرت الأموال في أيديهم ، ولم يكونوا أقل منهم في أية ناحية من النواحي الحربية. وبذلك اهتم الأمويون بإنشاء جيش نظامي مدرب، فمعاوية مثلاً منذ أن كان والياً كان له جيش في صفيين سمي الخضرية بسبب اسوداده بالدروع والسلاح الضاربة إلى الخضرة(٣) ، كما كان سفيان بن عوف الأزدي لا يجيز في العرض إلا رجلاً بفرس وبرمح وخصف(٤) ومسلّة وترس... (٥) ولما أرسل مروان بن محمد عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي إلى المدينة لقتال حمزة الخارجي قدمها في أربعة آلاف فارس عربي منهم من عليه درعان أو درع وستور وتجافيف عدة لم يُرَ مثلها في ذلك الزمان(٦) ، ولقد اعترف الإمبراطور البيزنطي ليون ، وعلى الرغم من تحامله على العرب ، بأن الجندي العربي لم يكن يختلف عن الجندي البيزنطي في السلاح ووسائل الدفاع وآلاته(٧).

ولم يقتصر هذا التقدم على الأسلحة الخفيفة فقط بل شمل أيضاً الأسلحة الثقيلة ، والتي اشترك في استخدامها أكثر من جندي، ويمكن تصنيف الأسلحة إلى عدة أقسام كأسلحة القتال ومنها السيف والرمح والقوس والسهم، وأسلحة وقائية ومنها الدرع وملحقاته والترس، بالإضافة إلى الأسلحة الثقيلة كالمنجنيق والدبابة، ووسائل

-
- (١) قصة الحضارة،، ترجمة محمد بدران، دار الجيل ، بيروت، ج١٣، ص١٠٨. ولقد أحدث العرب الرحي الهوائية بالرياح المنمردة، وكان ذلك في سنة (٦٤٩/هـ٢٩م) في خلافة عثمان بن عفان، محمد عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن الأرقم، بيروت، ط٢، د.ت، ج٢، ص٤٦.
- (٢) ديورنت، ول ، قصة الحضارة، ج١٣، ص١٠٨.
- (٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٥١٨، وكان العرب يطلقون على الكتيبة المغطاة بالحديد كتيبة خضراء ، الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص١٥٨.
- (٤) المخصف مخز الإسكاف والجمع مخاصيف، ابن منظور، لسان، ج٩، ص٧٢.
- (٥) ابن عساکر، دمشق، ج٢١، ص٣٥٢.
- (٦) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٣٣١، والستور هي جملة السلاح، وخص بعضهم به الدروع أو ما كان من الحلق إلى الدرع، ابن منظور، لسان، ج٤، ص٣٨١،
- (٧) خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، ص٣٦٨.

الحصار كالسلام والحبال، وكذلك الأسلحة البحرية وما تمثله من السفن الحربية وأسلحتها.

١- الأسلحة البرية:

السيف: لقد كان السيف رفيق المحارب العربي ، فلقد ذاعت شهرة العرب في صناعته، فتكاد لا تخلو مدينة عربية من هذه الصناعة ولقد تميزت الشام وعلى الأخص دمشق بجودة سيوفها(١) ويضاف إليها السيوف اليمينية(٢) فقد طوّر العرب صناعتهم للسيوف وزادوا عليها حسب متطلبات الحروب، ووفقاً لراحة المحارب.

الرمح: اختار العرب لصناعة الرماح الأخشاب القاسية كالأبنوس وغيره من الأخشاب(٣) .

القوس والسهم: اعتمد عليها العرب في حروبهم ، وطورها حسب ما تحتاج إليه معاركهم، وتعددت أنواعها في العصر الأموي(٤) واشتهرت منها القسي الحجازية(٥) كما كان لمنطقة الرياض شهرة كبيرة في صناعة السهام، إذ اعتمد الحجاج الثقفي في تجهيز جنده على نبالها(٦) ويضاف إلى هذه الأسلحة الفردية سلاح الدبوس والمطرقة وهي قطع من الحديد وتستخدم هذه الدبابيس عند اقتراب المقاتلين من بعضهم حيث يتقاتلون بها(٧) بالإضافة إلى الفأس والبلطة.

الأسلحة الوقائية: لقد أولى العرب اهتماماً بحماية أجسادهم من الضربات، ولذلك اهتموا بتصنيع الدروع المختلفة القياسات، والتي كان منها ما يغطي كامل الجسم، وهي التي لبسها المشاة في العصر الأموي ، ومنها القصيرة إلى الركب، وكذلك التي تغطي الصدر فقط(٨)، واهتموا كذلك بحماية الرأس من خلال تصنيع خوذ مختلفة الأشكال ومنها ما يغطي منطقة الصدغين(٩) كما ويمكن القول بأن العرب صنعوا الأكف الحديدية ، إذ يذكر ابن الأثير رواية مفادها تلقي أحد المقاتلين لضربة سيف في يده خرقت الكف الحديدي(١٠) كما تقدم العرب في صناعة الترس والمجن، فاشتهرت منها الدمشقية والعراقية والغرناطية(١١)

وفيما يخص الآلات الثقيلة وآلات الحصار والتي كانت جماعية كالمجنجنيق (العرادة) والذي يشبه المدفعية في الوقت الحاضر، وكان عمرو بن العاص من أوائل صانعيها في الفسطاط(١٢) وطراً على هذا السلاح بعض

(١) سبانو، أحمد غسان، مكتشفات مثيرة تغير تاريخ دمشق القديم(إرم ذات العماد)سلسلة دراسات وثائق دمشق الشام رقم ٧ ، دار قتيبة، دمشق، ص ٢٥٥.

(٢) ابن الفقيه، البلدان، ص ٣٩ ، القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٦٩، و ثور، عبد الله أحمد، هذه هي اليمن، مطبعة المدني ، صنعاء، ١٩٦٩، ص ١٩٧.

(٣) محفوظ، جمال، فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج ٣ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٨، ص ٧٢.

(٤) ابن قيم الجوزية، كتاب الفروسية، تعليق سمير حسين حلبي، دار الصحابة للتراث ، طنطا، ط ١، ١٩٩١، ص ٧٤

(٥) محفوظ، جمال، المرجع السابق، ص ٦٩

(٦) الوشمي، صالح بن سليمان ،ولاية اليمامة دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٩٩٢، ص ٢٢٥

(٧) الدقوقي، الجندي، ص ٢٢٩.

(٨) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٢٧، و الكاظمي، رحيم، الحضارة العربية، ص ٨٩.

(٩) الدقوقي، الجندي في العهد الأموي، ص ٢٣٩، و محفوظ، جمال، فن الحرب، ص ٧٧.

(١٠) في حوادث سنة (١٠٢هـ/٧٢١م) أثناء قتال مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن المهلب انظر ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٤١.

(١١) الدقوقي، الجندي، ص ٢٤٠، و محفوظ، جمال، فن الحرب، ص ٩٧.

(١٢) الكاظمي، رحيم، الحضارة العربية، ص ٨٥

التعديلات ، من حيث الحجم كالمنجنيق الذي قاتل به الحجاج الثقفي والذي جعل له أوتار قوية وقاعدة من الكتل الخشبية الضخمة والتي تُجر على زحافات أو عجلات، كما شملت التعديلات نوع القذائف و كانت أغلبها من الحجارة ، ومن أمثلة ذلك رمي عبد الملك بن مروان لقرقيسيا بالحجارة أثناء حصاره لها في حربه مع مصعب ابن الزبير(١) وكذلك حصار الحجاج لعبد الله بن الزبير في مكة(٢) واستخدامها بشكل كبير في فتوحات العرب في الجهة الشرقية، كما استخدم مروان بن محمد آلاف الحجارة أثناء حصاره لحمص سنة(١٢٧هـ/٧٤٤م)(٣) ولم تكن القواذف من الحجارة فقط بل كانت من الكتل الحديدية وهي ما قذف به مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب أثناء حصاره لها(٤) وكذلك استخدموا النفط المشتعل ومن ذلك ما رمى به الجنيد بن عبد الرحمن الكيرج (القوقاز) سنة(١٠٧هـ/٧٢٥م)(٥) ونظراً لاعتماد الأمويين الكبير على المنجنيق، فقد قاموا بصنعها وفق أحجام مختلفة فمنها الضخم كالذي صنعه الحجاج الثقفي وسماه العروس لكبره، إذ احتاج إلى ٥٠٠ رجل للعمل به، واستخدمه محمد بن القاسم الثقفي في فتح مدينة الديبل(٦)(كراتشي)في سنة(٨٩هـ/٧٠٧م) كما قام العرب بتصنيع الدبابة والتي كانت على هيئة هودج كبير مصنوع من الخشب الصلب ومغلقة بالجلود المنقوعة بالخل كي لا تحترق (٧) ويبدو أنها خضعت لبعض التعديلات في العصر الأموي ، ومنها توسيعها بحيث تتسع لعشرة رجال أو أكثر، كما وضعوا على جانبيها الخشب السميك والحديد والرصاص(٨) وجعلوها على شكل برج مرتفع وركبوا على رأسه قطعة حديد سموها الكبش ، واستخدموها في دك الأسوار، كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن في حصاره لكيرج(٩) سنة(١٠٧هـ/٧٢٥م) .

و اهتم العرب بالسلام والحبال لما لها من فائدة في تسلق أسوار المدن والقلاع، وكان الزبير بن العوام من الذين استخدموها في أثناء فتح مصر(١٠) .

إذاً فالأمويون طوروا الأسلحة الفردية والجماعية واعتنوا بتفاصيلها نظراً لأهميتها في حروبهم بعد أن أصبحوا قوة تقع عليها أعباء كثيرة من فتوح وتوسيع للدولة ومقارعة الخصوم الداخليين أيضاً لأن السلاح هو من أدوات القوة العسكرية .

٢- الأسلحة البحرية: لقد أدرك العرب ضرورة الاهتمام بالسلاح البحري كونهم أصبحوا أصحاب دولة ذات شأن حربي، وهي تجابه دولة بيزنطة العريقة بالخبرة البحرية، ولذلك سعوا من أجل إيجاد قواعد بحرية تشمل الأحواض وأماكن بناء السفن ومواد البناء ، بالإضافة إلى البنائين المهرة، والملاحين المدربين، وجاءت معركة

(١) ابن الأعمش، الفتوح ج٦، ص٣٣١.

(٢) الأزرقى، محمد بن عبد الله بن أحمد(ت٢٥٠هـ/٨٦٤م)-أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، مكة، ٤، ١٩٨٣، ج٢، ص٣٦٠، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٤٥٦. والمقدسي، البدء والتاريخ، ج٦، ص١٥ .

(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٨٩ وابن الأثير ، الكامل، ج٥، ص١١ .

(٤) البلاذري، فتوح، ص٢٠٩ ومدينة الباب هي مدينة دربند وتقع على بحر قزوين في داغستان، شوقي أبو خليل، أطلس دول العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٣، ص١٧٨

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٣١٦. والكيرج تقع بين جبال القيج في الشمال وأرمينية و أران من الجنوب وهي القوقاز حالياً، أمين واصف، الفهرست موسوعة، ص٩٩. وشوقي أبو خليل، أطلس دول، ص٢٠١.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٢٤، و ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٥٠.

(٧) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص١٤٣

(٨) كاظمي، رحيم، الحضارة الإسلامية، ص٨٨.

(٩) البلاذري، فتوح، ص٤٢٩.

(١٠) ج.بنتلر، الفرد، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد بك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦، ص٢٩٨، و العدوي، ابراهيم أحمد ،مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، ص٤٣.

ذات الصواري سنة (٣٥هـ / ٦٥٥م) والتي انتصر فيها العرب على البيزنطيين لتقوي هذا الدافع لديهم، إذ كانت الإسكندرية قاعدة بحرية كاملة، لكن افتقار مصر إلى الأخشاب المناسبة لصناعة السفن أدى إلى استيرادها من جبال الساحل الشامي، لذلك اهتم العرب بتطوير دور الصناعة (١) بالإضافة إلى إنشاء دور جديدة، ولقد كان لمصر الدور الريادي في هذه الصناعة التي تركزت في جزيرة الروضة وتقع بين الفسطاط والجزيرة، ولذلك سميت بجزيرة الروضة (٢)، ويبدو أنه في سنة (٥٤هـ / ٦٧٣م) دعم العرب دار صناعة الروضة، إذ إنه في عام (٤٩هـ / ٦٦٩م)، وبعد هجوم الروم على السواحل الشامية، أمر معاوية ببناء دار للصناعة في عكا (٣) والتي يبدو أنها كانت معطلة منذ الفتح. ولقد أصبح هناك عدة دور لصناعة السفن في مصر والشام، نظراً لاتساع نشاط الأسطول الإسلامي، ونتيجة لتوفر مقومات هذه الصناعة في البلاد العربية، فالأخشاب التي كانت تُصنع منها ألواح السفن والصواري والمجاذيف كانت متوفرة في عدة مناطق من الشام ومصر، حيث أشجار الصنوبر القوي والأرز والبلوط والعرعر التي تزخر بها جبال لبنان وسوريا، وكذلك أخشاب السنت المصري (٤) الصالحة لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز والأثل وغيرها مما يصلح لصناعة المجاذيف والقرب التي اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور (٥) وكان بالإمكان استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن لصنع المسامير والمراسي والخطاطيف (٦) والفؤوس كما يتوفر بمصر القطران المستورد من ليبيا (٧) واستمر التعاون بين مصر والشام سواء في استخدام الأقباط كملاحين في سفن الشام أم في استيراد الأخشاب لبناء السفن من الشام، وعلى الرغم من بناء دار لصناعة السفن في عكا إلا أن أهمية صناعة مصر بقيت ذات شأن عظيم في العصر الأموي ويُسنتج ذلك من أوراق البردي العائدة لكوم إشقوة، والتي تعود لعهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث أظهرت هذه الوثائق أنّ الصناعة كانت مزدهرة في جزيرة الروضة والقلم والاسكندرية (٨) كما تكشف هذه الأوراق التي تعود لعهد الوالي قره بن شريك نظام العمل وشرح القواعد التي جرى على أساسها، إذ وجد مشرف عام يُدعى متولي الصناعة، وهو المسؤول عن تلقي المواد الخاصة ببناء السفن واستدعاء مهرة الصناع وغيرهم من العمال الذين تتطلبهم دار الصناعة، كما حددت السلطات أجره العمال ومقادير المواد الغذائية اللازمة لهم. وبفضل هذا سار العمل بدقة ونظام تام في بناء الأسطول العربي منذ أيامه الأولى، وساعد على ذلك حرص السلطات العربية الإسلامية على رفع كل غبن يقع على العمال المشتغلين في دار الصناعة وإعادة حقوقهم الضائعة (٩)، و لزيادة دعم هذه الصناعة أقيمت ثكنات للبحارة بجوار بناء

(١) أطلق العرب على أماكن صناعة السفن اسم الصناعة أو دار الصناعة، انظر: البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ٢، ص ٥٩١، كاشف، سيدة، مصر في فجر الإسلام، ص ٩٠،

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٢٣.

(٣) البلاذري، الفتوح. ص ١٢٤.

(٤) عطا، زبيدة محمد، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، ص ١١٥.

(٥) لوكاس، أ لفريد، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكي اسكندر ومحمد زكريا غنيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٩١، ص ٦٩٢-٧١٤، و عبد العزيز، السيد سالم والعبادي، البحرية، ص ٢٤.

(٦) الخطاطيف مفردتها خُطَاف وهو الحديد الملتوية تكون في جانبي البكرة فيها المحور، ابن منظور، لسان، ج ٩، ص ٧٧.

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، وسالم والعبادي، البحرية، ص ٢٤، والقطران مادة سوداء لزجة تستخدم في الطلاء، مولا، الموسوعة الميسرة، ج ٥، ص ٢٥٧٢.

(٨) كاشف، سيدة، مصر في فجر الإسلام، ص ٩١، بركات، وفيق، فن الحرب البحرية، ص ١٤٧. والقلم هي بلدة على ساحل بحر اليمن في أقصاه من جهة مصر وإليها ينسب بحر القلم (الأحمر) ويعرف اليوم موضعها بالسويس، المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٥٩٥.

(٩) حوراني، جورج، العرب والملاحة، ص ١٨٥.

السفن، ورغم أن مشكلة قلة الأخشاب في مصر بقيت من المشاكل التي لم تُحل نهائياً^(١) فإن دار صناعة عكا لم تجد فيها مشكلة نتيجة توفر المادة لديها، وبقيت عكا مركزاً لصناعة السفن إلا أن نقلها الخليفة هشام إلى صور^(٢) ورغم ذلك فالتعاون بقي مستمراً بين مصر والشام، ولم تبخل مصر بتقديم خبرة ملاحيتها وصناعاتها الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها^(٣) بالإضافة إلى الاعتماد على سكان اليمنيين الذين مهروا في ركوب البحر^(٤) ونظراً لاتساع مساحة الدولة العربية الإسلامية وإشرافها على البحر المتوسط وصراعها مع بيزنطة على إفريقيا وعمليات الكر والفر بينهم ، وجد الأمويون ضرورة إنشاء قوة بحرية مستقلة في إفريقيا، إذ ظل الروم يهددون العرب من البحر إلى أن نجح حسان بن النعمان في تخريب قرطاجة، وإنشاء قاعدة بحرية أمينة في تونس^(٥) حيث أوعز له عبد الملك بن مروان باتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية، كما كتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز والي مصر يأمره بتسيير ألفي قبضي مع أهلهم وأولادهم إلى معسكر تونس، لإنشاء دار صناعة فيها، وأمر البربر بجلب الأخشاب لإنشاء السفن^(٦) وبفضل هذه الدار استطاع العرب الإغارة على الجزر المتوسطية ، وفتح الأندلس أيضاً . ويمكن معرفة مدى القوة التي وصل إليها العرب في مجال البحرية من خلال معرفة عدد السفن التي شاركت في حصار القسطنطينية عام (٧٩٩هـ/١١٧م) والبالغ (١٨٠٠) سفينة حربية وسفن نقل المؤن أصغر حجماً^(٧).

ولقد تنوعت أشكال السفن وأحجامها بتعدد أغراضها ، وأكبر الظن أنها لم تكن تختلف عن السفن المعروفة لدى البيزنطيين وتدل أسماءها المختلفة على اختلاف حاجاتها ومن تلك السفن:

١-**الشواني:** وهي جمع شونة وتعد من أهم قطع الأسطول العربي الإسلامي، لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلين، وكانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم وكان متوسط ما تحمله الشونة ١٥٠ رجلاً^(٨) .

٢-**الحراريق:** ومفردها حراقة وهي نوع من السفن فيها مرامي نيران، كانت تُستعمل في حمل الأسلحة النارية^(٩).

٣- **المسطحات:** وهي أكبر سفن الأسطول، كان العرب يجرونها في البحار خلف السفن الصغيرة وهي تحمل السفن الصغيرة والأسلحة^(١٠) .

٤-**العشاريات:** مفردها عشارى وهي من توابع الأسطول وكان يسار بها في النيل وتُبحر بعشرين مجذافاً^(١١).

٥- **الشلنديات:** وهي جمع شلندي وهي مراكب بحرية كبيرة لحمل المقاتلة والسلاح وتعادل في أهميتها الشونة والحراقة^(١٢).

(١) أرشيبالد، القوى البحرية، ص ١١٢، و Wiet,G.L. Egypte Arabe,(Paris 1937) P 174-175.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ص ١٢٥، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٨.

(٣) الشيال، جمال الدين، وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي ، محاضرات جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨، ص ٩

(٤) عدوي، أحمد، قوات البحرية العربية في المتوسط، ص ٢٦.

(٥) مؤنس ، حسين، فتح العرب للمغرب، ص ٢٦٢، لويس أرشيبالد، القوى، ص ١١٥.

(٦) أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص ٣٨.

(٧) خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، ص ٣٧٨، و وسام العلاقات، ص ١٦٥-١٦٦.

(٨) محفوظ، جمال، فن الحرب عند العرب، ص ٩٨.

(٩) بركات، وفيق، فن الحرب البحرية، ص ١٥٣، و محفوظ، جمال، فن الحرب، ص ١٩٧.

(١٠) خماش، نجدة، الشام صدر الإسلام، ص ٣٨١.

(١١) الرفاعي، أنور، الإسلام في نظمه، ص ٢١٢.

(١٢) عبد الفتاح، عبادة، سفن الأسطول الإسلامي، ص ٦.

٦-البطس: مفردها بطسة وهي نوع من مراكب البحر الكبيرة وفيها عدد من القلوع وكانت تنقل المجانيق والمقاتلة والسلاح وتحمل مئات الرجال(١).

أما بالنسبة لسلاح السفن في العصر الأموي، فإن أغلبه كان خفيفاً كالتى تُستخدم في البرية بالإضافة إلى الأسلحة المستخدمة في البحر والتي منها:

٧-اللتوت: هي عمد من الحديد لها رؤوس مستطيلة الشكل مخرسة مصنوعة من الحديد، وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير، لكن خرزتها من الحديد وتلبس في المقبض، وقد تُدرس تدوير الخرزة أو تسنن(٢).

٨-الدبابيس:وهي لا تختلف عن اللتوت إلا في رؤوسها، فهي مدورة مخرسة وتُستخدم اللتوت والدبابيس كسلاح لت هشيم الخوذ المعدنية(٣).

٩- التوابيت: هي صناديق مفتوحة من أعلاها توضع في أعلى السواري يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخللة معلقة بجانب الصندوق، فيرمون العدو فيها وهم مستورون في التوابيت، أو يرمون قوارير النفط أو جرار النورة وهو مسحوق ناعم من مزيج من الكلس والزرنيخ، يرمون بها في مراكب العدو فيؤثر ذلك على رؤيتهم(٤).

١٠-الكلايب: وهي عبارة عن نوع من الخطاطيف الحديدية التي كان يستخدمها البحريون للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدّها والعبور إليها(٥).

١١-الباسليق: هي جمع باسليقيات وهي عبارة عن سلاسل في رؤوسها رمانة حديدية تكسر كل ما تقع عليه لشدة دفعها(٦).

١٢-اللجام: وهي أداة كالفأس كانت تُجعل في مقدمة المركب، وهي حديدة طويلة محددة الرأس جداً تدخل في خشبة بارزة تشبه سنان الرمح لطعن المراكب(٧).

كما استخدم العرب النفط البحري وهو خاص بإحراق المراكب ويجهز من قطران وكبريت ومواد مختلطة شديدة الالتهاب لا تنطفئ نيرانها التي تنشأ من قذف هذا النفط بلامسة الماء ويُطلق النفط من آلة من النحاس أو الحديد تُعرف بالنفاطة، وكثيراً ما يقذف النفاطون النفط بالسهام والنشاب(٨) وهذه النار اقتبسها العرب عن الروم وهي في الأصل من اختراع شرقي من قبل رجل من بعلبك اسمه كاليينكوس هاجر إلى القسطنطينية بعد الفتح

(١) بركات، وفيق، فن الحرب، ص١٥٤.

(٢) عبد الفتاح، عبادة، سفن، ص١٠.

(٣) عبد الفتاح، عبادة، سفن، ص١١.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢٦٧.

(٥) بركات، وفيق، فن الحرب البحرية، ص١٣٨، و الرفاعي، أنور، الإسلام في حضارته، ص٢١٤، و الحاج حسن، حسين، النظم الإسلامية، ص٤٧٢.

(٦) بركات، وفيق، فن الحرب البحرية، ص١٣٨.

(٧) حسين، الحاج حسن، النظم الإسلامية، ص٤٧٢، و الرفاعي، أنور، الإسلام في نظمه، ص٢١٤.

(٨) الرفاعي، أنور، الإسلام، ص٢١٤.

العربي لبلاد الشام(١) وكان العرب يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنظرون لرد أذى النفط(٢).

وهكذا أحرز العرب تقدماً واضحاً في مجال صناعة الأسلحة بكل أصنافها ، وشكلت هذه الأسلحة قوة للجيش الأموي.

٥- الاهتمام بالصناعة المرتبطة بعامة الناس :

تحتاج الصناعة إلى عدة عوامل لقيامها ومن أهمها توفر المواد الضرورية النباتية والحيوانية والمعدنية، بالإضافة إلى الأيدي العاملة ورؤوس الأموال وغيرها من متطلبات الصناعة .

ولقد تنوعت الصناعات تلبيةً لمتطلبات الحياة، كما طرأ عليها التحسين والفن نتيجة ارتقاء الذوق العام، ولم تكن هذه الصناعات طارئة أو جديدة، فالبلاد العربية عرفت الحرف، إذ كان في الشام صناعات ذات سمعة جيدة كذلك في مصر والحجاز واليمن وغيرها من البلاد، بالإضافة إلى الولايات حديثة الفتح سواء الشرقية أم الغربية، وإن كانت المعلومات عن صناعاتها ضئيلة. هذا وتنوعت الصناعات التي عُرفت في العصر الأموي وما قبله، حيث وجدت الصناعة النسيجية على أنواعها كافة القطنية والحريرية والكتانية والصوفية بالإضافة إلى السجاد والبسط، وكذلك صناعة الحلي ، و الصناعات الغذائية والخشبية وغيرها مما مورس في تلك الحقبة.

١-الصناعة النسيجية: لقد كانت الحياكة من الحرف القديمة والمهمة، وساعد على ذلك وفرة المواد الخام الأولية كالحرير الذي أُحضِر من الصين وانتقل باتجاه الغرب إلى شواطئ بحر قزوين وإقليم طبرستان وأرمينية والبلاد الإيرانية ، وعرفت بلاد الشام منذ أيام الرومان وانتشرت معاملته في دمشق وحمص وحمص (٣) لكن صناعته تضاءلت بسبب احتكار الرومان لها. وكذلك انتقل القطن من الهند إلى فارس فالعراق والشام وغيرها من البلاد العربية الإسلامية(٤)؛ ولكن الصوف كان منتشرًا في أغلب المناطق وذلك لوفرة تربية الحيوانات فيها. أما بالنسبة للكتان فقد كانت مصر أكثر البلاد صناعة له، وذلك لانتشار هذه الزراعة(٥) .

وعلى الرغم من انتشار الصناعات النسيجية بأنواعها كافة وبمختلف المناطق، إلا أنه يبدو أن كل إقليم اشتهر بنوع خاص من النسيج، ففارس والعراق والشام اشتهرت بالأنسجة الحريرية المشجّرة(٦)، واشتهرت مصر بالأنسجة الكتانية، كما اشتهرت بلاد فارس به أيضاً، وامتازت خراسان والعراق بالأقمشة القطنية، أما النسيج الصوفي فقد كان يُصنع في كل مكان تقريباً(٧) . ومما ساعد على انتشار الصناعات النسيجية عدا حاجاتها الضرورية، اهتمام الخلفاء والولاة بهذه الصناعة، حيث حرصوا على الظهور بهيئات فخمة، فقد كان معاوية في

(١) بركات، وفيق، فن الحرب، ص١٣٩، والرفاعي، أنور، الإسلام، ص٢١٤.

(٢) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن، ج١، ص١٦٢، والشب : حجر معروف يقديغ به الجلود، ابن منظور، لسان، ج١، ص٤٨٢، والنظرون: معدن يستخرج من الأرض منه الأحمر والأخضر، عمارة، قاموس، ص٥٩٤.

(٣) دوكوسو ، غستون، تاريخ الحرير في بلاد الشام ، مجلة المشرق، بيروت، السنة١٥، ١٩١٢، ص٢٨٠-٢٨١.

(٤) العبادي، أحمد مختار ،الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية ، ضمن دراسات تاريخ الحضارة العربية، مطبوعات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٥، ص٣٤١.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص١٥٣.

(٦) المشجّر: ما كان نقشه على هيئة الشجر، ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٣٩٦.

(٧) الرفاعي، أنور، الإسلام في نظمه، ص٣٠١.

أثناء ولايته للشام يلبس الثياب الباهظة الثمن(١) ، كما اهتم الخليفة سليمان بأناقة ملبسه ولكل من يدخل عليه حتى عماله وحجابه وخدمه بما فيهم طباخه(٢)، وعلى الدرب نفسه سار الولاة ، حيث لم يسمحوا لأحد بالدخول إلا بهذه الثياب الموشاة(٣) .

ومن أجل إعطاء صورة واضحة عن هذه الصناعة سيكون الحديث عن كل إقليم بصناعاته النسيجية المتنوعة والبدائية من مركز الدولة : بلاد الشام التي اشتهرت بمختلف الصناعات النسيجية ، وعلى رأسها الحريرية(٤) فقد كانت كل من عسقلان وغزة وبعلبك وحلب وصور وطبرية ودمشق من أهم مراكزها(٥) ومن الصناعات التي كانت الشام تفخر بها صناعة الشقق الحريرية والقطنية(٦) . وعلى الرغم من أن دمشق تربعت على عرش الصناعات النسيجية في الشام إلا أنها لم تكن الوحيدة في هذا المجال فكثيرة هي المدن والمناطق التي عرفتها ومنها بعلبك (٧) ، كما اشتهرت بيت لحم وطبرية بالثياب القطنية. هذا ويشير الحميري إلى وجود سوق للقطنيين في القدس(٨)،وقد ذاعت شهرة حلب بالثياب القطنية(٩)،وأنتجت حمص كميات كبيرة من الأقمشة المختلفة الأنواع،بحيث أنها حلت بعد الإسكندرية مباشرةً في إنتاج الأقمشة (١٠)، وأنتجت الرصافة الأكسية أيضاً ، فقد كان كل رجل فيها غنيها وفقيرها يغزل الصوف والنساء ينسجن(١١)،وكان للسجاد والبسط أيضاً شهرة في البلاد الشامية ، حيث صنعتها كل من دمشق وحمص وحلب وطبرية وطرطوس(١٢) .

وبالانتقال إلى العراق: وصناعاتها النسيجية فقد اشتهرت الكوفة بعمل الوشي والخز (١٣) ، وانتشر في البصرة إنتاج الخز والبز(١٤) ،وحاكت الموصل أنواعاً كثيرة من المنسوجات منها الوشي والمخامل والثياب الرقيقة من الكتان والقطن، بالإضافة إلى النسيج الذي كانت تُصنع منه الستائر الجيدة (١٥) وصنعت الحيرة أنسجة فاخرة من الحرير بالإضافة إلى الأقمشة الصوفية والقطنية، ولاقى سجادهما رواجاً كبيراً في الأسواق، وتطورت هذه الصناعة في العصرين الأموي والعباسي، وانتقل سجادهما إلى النعمانية ، واشتهرت تكريت بنسيج الصوف (١٦) ووجدت في الإبله صناعة الأنسجة الكتانية الرقيقة المطرزة، أو غير المطرزة(١٧) .وكان لميسان شهرة في صناعة البسط(١٨).

Lombard , M L' , islam dans as,p200(١)

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ١٢٤

(٣) المصدر السابق ، ج٢، ١٢٤.

(٤) المقدسي، أحسن، ص١٦٣ و Lombard ,M,;L' islam dans as ,pp202-203

(٥) الادريسي، نزهة المشتاق،ج١،ص٣٧٣.

(٦) محمد، كر علي ، خطط الشام،ج٤،ص٢٠٣.

(٧) ابن بطوطة، ، رحلة ابن بطوطة، ص٨٣.

(٨) الحميري،الروض المعطار ،ص٦٨.

(٩) المقدسي ،أحسن، ص١٦٤.

(١٠) كرد علي، محمد،خطط الشام،ج٤،ص٢٠١.

(١١) القزويني، آثار البلاد، ص١٩٨.

(١٢) كرد علي، محمد،خطط الشام، ج٤،ص٢٢٧، و Lombard ,M,;L' islam dans as p203.

(١٣) ابن الفقيه، البلدان، ص٢٥٢.

(١٤) المقدسي، أحسن،ص١٢٣ والخز ثياب تُنسج من صوف وحرير،ابن سيده، المخصص،ج٣،ص٣٨٣، ابن منظور، لسان، ج٥،ص٣٤٦.

(١٥) الكسيبي، حمدان عبد المجيد، حضارة العراق، مجموعة من الباحثين العراقيين،، بغداد، ١٩٨٥، ج٥، ص٢٧٨.

(١٦) لسترنج، بلدان الخلافة الإسلامية، ص٨١.

(١٧) الكسيبي، المرجع السابق، ص٢٧٨.

(١٨) ابن الفقيه، البلدان، ٢٥٣.

أما مصر: فقد بقيت شهرتها في الصناعات النسيجية ، حيث كانت هذه الصناعة في يد الأقباط، حتى أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطي(١)، وقد أطلق هذا الاسم على النسيج نظراً لقيام القبط بتلك الصناعة ، ثم أصبح يُستخدم كرمز لطريقة معينة استُخدمت فيها صناعة النسيج المزخرف(٢) ، وأكثر ما اشتهرت به مصر هو صناعة الكتان، المتوفر فيها، وهذا الكتان كان أبيضاً لا تلوين فيه، حتى أنه كان يُقال في العصر الأموي أن الأقمشة المصرية كالغشاء على البيض (٣) لرقنتها وشفافيتها، وقد وجد في دار الآثار العربية قطعة من الكتان الأبيض، تشبه كثيراً الأقمشة القبطية وعليها شريط من زخارف وتعود لسنة(٧٠٦هـ/١٣٠٦م) (٤). كما صُنعت في مصر أيضاً منسوجات قطنية وصوفية وحريرية، ولكن من المرجح أن القطن والحرير الخام في مصر لم يكفيا الاستهلاك المحلي، ولذلك استمرت مصر في استيرادها كما كانت تفعل قبل الفتح العربي(٥)، ومع ذلك لا يمكن نفي وجود القطن في مصر في هذا العصر(٦) وعلى العكس كان الصوف الذي توفر في مصر، فالقبائل العربية التي استقرت فيها اعتنت بتربية الماشية، الأمر الذي أدى إلى انتشار الصوف وصناعته ، حتى أن ابن الفقيه يذكر أن المصريين كانوا يقولون:«الصوف والكتان لنا، ليس لأحد من أهل البلدان مثلها»(٧) .

وعمل أهل تنيس النسيج الفاخر والثياب الرقيقة أي الشفافة (٨) . وهي المسماة بالقصب وكان هذا القصب يلون بتنيس، ويُعمل منه عمائم للرجال وملابس للنساء، وكان الأبيض منها يُصنع في دمياط(٩) . ومن ثياب تنيس الفاخرة البدنة ، وهي التي وصفت لمعاوية عندما كبر بالسن ولم يعد يشعر بالدفاء ، فألبسوه إياها (١٠). ونالت الإسكندرية أيضاً شهرة واسعة في صناعة النسيج الذي كما يصفه المقرئ بأنه لا نظير له(١١)، وعُرفت بهنسا بنسيج الصوف والقطن(١٢) و أنتجت قيس(وتقع الآن في محافظة المنيا) الثياب الصوفية العادية والناعمة التي لم يكن لها مثيل(١٣) وذاعت شهرة بعض المدن المصرية الأخرى في الصناعة النسيجية منها: أسبوط وأهناس وأشمونين(١٤) وتميزت إخميم بالمنسوجات الحريرية(١٥)، فلقد وجد فيها قطعة من الحرير كُتِب

- (١) المقدسي، ص ١٨٦.
- (٢) محمد، سعاد ماهر، النسيج الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٤.
- (٣) متز ، آدم، الحضارة الإسلامية، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريبة، دار الكتاب العربي، بيروت ج ٢، ص ٣٥٢.
- (٤) كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٨٤،
- (٥) كاشف، مصر، ص ٣٢٨٢.
- (٦) Johan ، Lamm, Carl ,Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East ,Paris ,1937,pp4-5
- (٧) ابن الفقيه، البلدان، ص ٦٩.
- (٨) تنيس تقع بجانب دمياط، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١
- (٩) متز ، آدم، الحضارة الإسلامية ، ج ٢، ص ٣٥٣، وعطا ، زبيدة محمد، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية ص ١٠٢.
- (١٠) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٤٩٩.
- (١١) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٧.
- (١٢) كاشف، سيدة، مصر، ص ٢٨٥.
- (١٣) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٥٧٢. والقيس كورة بمصر بجانب البهنسا ، فتحها قيس بن الحارث المرادي، فسميت على اسمه، المقرئ، نفس الصفحة ، والحموي، معجم، ج ٤، ص ٤٢٢. وهي الآن آثار بمحافظة المنيا.
- (١٤) الاضطخري، مسالك الممالك، ص ٥٣. وأسبوط مدينة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر، الحموي، مصدره نفسه، ص ١٩٣ وأهناس كورة في الصعيد، ياقوت، ج ١، ص ٢٨٤، والمقرئ، ج ١، ص ٦٥٩، وأشمونين تقع في صعيد مصر غربي النيل في محافظة المنيا حالياً.
- (١٥) كاشف، سيدة، مصر، ص ٢٨٥ تقع في الصعيد الشرقي وهي مدينة سوهاج حالياً.

عليها اسم الخليفة مروان ، وربما كان مروان بن الحكم أو مروان بن محمد (١)، فالمهم أنها تعود للعصر الأموي. كما كان في طرابلس ليبيا الكثير من الصوف، والأكسية الفاخرة(٢).

وانتشرت أقمشة وثياب اليمن في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، واكتسبت من خلالها شهرة بسبب جودة صنعها(٣). وفي منطقة اليمامة كان تتوفر الماشية أيضاً دور في قيام حرفة الحياكة ونسج البرد، وكذلك الخيام الضرورية لحياة البدو(٤) واستمر الحجازيون بحرفة النسيج خلال العصور الوسطى، رغم أنها لم تكن تسد الحاجات في الحجاز، لذلك تم استيراد المنسوجات من اليمن والعراق وبلاد فارس وبلاد الشام ومصر وغيرها (٥) وحظيت بلاد فارس وأرمينية وبخارى بشهرة كبيرة في صناعة الأقمشة، وبخاصة بالسجاد الصوفي(٦)، كما اشتهرت أرمينية بالبسط (٧).

٢- صناعة الخوص والجريد والحصر: لقد وفر النخيل المنتشر في الحجاز واليمن والعراق مادةً أولية في صنع الأثاث المنزلي، حيث استُخدمت أوراقه وسعفه في عمل حبال وخيوط لصنع السلال وأوعية متعددة لنقل وحفظ المواد، وقد امتازت الحجاز بهذه الصناعة(٨) بالإضافة إلى اليمامة(٩) واشتهرت بلاد الشام بصناعة الحصر من البردي وسعف النخيل وغيرها ، حيث كان لمدينة قَدَس شهرة خاصة بنسج الحصر وقتل الحبال(١٠) وفي العراق كانت حصر ميسان من أجود الحصر(١١) ونتيجة توفر البردي وخوص النخيل في واسط، صُنعت فيها القصب(١٢) وبما أن مصر موطن البردي فقد اشتهرت بصناعة الحصر فيها، بما فيها الفسطاط(١٣). ويُستنتج من كسوة الكعبة جودة أقمشة كل منطقة أو إقليم ، حيث كان يختار الأفضل منه لكسوتها ففي أيام الرسول الكريم كُسيت بالقباطي المصري ثم بالبرود اليمانية(١٤)، ثم كساها عمر بن الخطاب وعثمان بالقباطي أيضاً(١٥)،

- (١) كاشف، سيدة، مصر، ص ٢٨٥
- (٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٦٩، أرشيبالد، القوى البحرية، ص ١٢٩.
- (٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، ١٩٩٣، ج ٧، ص ٥٧٧.
- (٤) الوشمي، ولاية اليمامة، ص ٢٢٨.
- (٥) جريس، غسان بن علي، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤، ج ١، ص ٢٤١.
- (٦) ابن فقيه، البلدان، ص ٢٥١-٢٥٣ نوالاصطخري، مسالك الممالك، ص ١٨٤.
- (٧) الاصطخري، مسالك، ص ١٨٨، والسيد، أديب، أرمينية في التاريخ العربي، ط ١، ١٩٧٢، ص ٢٤٩.
- (٨) باغيس، بحوث، ص ٢٥٠.
- (٩) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، ص ٥٩٥، صالح بن سليمان الوشمي، ولاية اليمامة، ١٩٩١، ص ٢٣١.
- (١٠) المقدسي، أحسن، ص ١٦٣. وقَدَس قرية تبعد عن صفد ١٦ كم إلى الشمال منها، مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٦، ص ٢٢٥.
- (١١) الكسبي، حضارة العراق، ص ٢٧٩. وميسان تقع بين واسط والبصرة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥١٩.
- (١٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١٣) الإدريسي، نزهة، ج ١، ص ٧٢.
- (١٤) ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٢٥٥. والبرد جمع بردة وهي غطاء أسود مربع تلبسه الأعراب، الرازي، مختار الصحاح، ص ١٩، وابن منظور، لسان، ج ٣، ص ٨٧.
- (١٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٨، وسلامة، حسين عبد الله تاريخ الكعبة المعظمة. عمارتها كسوتها سدانتها، ط ١، ١٩٣٥، ص ٢٤٩.

وكساها معاوية مرتين كانت المرة الأولى من الديباج، والثانية من القباطي(١)، أما يزيد بن معاوية فقد كساها بالديباج الخراساني(٢) وكانت عملية الإكساء على ما يبدو هي عملية انتقاء للقماش الأفضل سواء أكان من خراسان أم من مصر أم من اليمن ، ويدل على ذلك قول الماوردي: أنّ بني أمية كسوا الكعبة في بعض أيامهم بالحلل التي كانت على أهل نجران في جزيتهم والديباج فوقها(٣).

٣- الصباغة: وعند الحديث عن النسيج لا بد من الحديث عن صباغته، ولقد امتازت الشام عن غيرها بهذه الصنعة، وعُرفت حرفة الصباغة بالعراق في بلاد الشام، وبخاصة على السواحل حيث سُمي شمال صيدا فورفيريون (أي مدينة الإرجوان) و تخصص أهلها في تصنيع الأصباغ الأرجوانية(٤) ولقد برع الفينيقيون باستخراج الأصباغ الأرجوانية من المحار(٥) بالإضافة إلى مواد أخرى نباتية أيضاً، وتطورت صناعة الصباغة في العصر الأموي مع زيادة الثراء والميل إلى الملابس المصبوغة، وليس أدل على ذلك من اهتمام الخليفة سليمان بالصباغة حيث أنشأ داراً للصباغين في الرملة(٦) ووجود هذه الدار في الرملة يدل على أن هناك كميات كبيرة من الخيوط والأقمشة والمنسوجات التي يتم صباغتها في هذه الدار المتخصصة، كما يدل على تنوع المنسوجات وتعدد الألوان ، وكذلك الخبرات و المتخصصين والأيدي العاملة التي تحتاجها مثل هذه المنشأة. وقد اعتبرت واسط أشهر محل للصيغ بالقرمز، وإن الصباغين بهذه المدينة كانوا قد تفننوا في صناعة الصباغة لإيجاد أنواع متعددة وجيدة من الألوان وذلك لإظهار رسوم القماش بألوان زاهية(٧) ، وكان العمل في دور الصباغين يمر بعدة مراحل حيث يبدأ بغسل المادة الخام ثم نفشها ومشطها وبعد ذلك حلجها وقتلها ومشقها وحياتها ثم نسجها وفي أثناء هذه المراحل كانت تتم الصباغة(٨)، فالصباغة تتم قبل الخياطة أو بعدها، ومن المواد المستخدمة في الصباغة نبات الوسمة(٩) التي يُستخرج منها النيلة، والحناء والقوة للون الأحمر (١٠) ونبات العفص للون الأسود، والذي يتم طبخه مع الخل العربي(١١)، كما عُرف في ولاية اليمامة نبات يسمى الحراض الذي يُنخذ منه القلي حيث يُحرز رطباً ثم يرش الماء على رماده فينعدق ويصير قلياً(١٢).

٤- الصناعات المعدنية: لقد تعددت الصناعات القائمة على المعادن، ويبدو أن أهل الشام اعتادوا العمل بها قبل الإسلام، ونشطوها بعده، فقد صنعوا من النحاس الدبابيس والأساور والأباريق والطشوت(١٣)، حيث اشتهرت

- (١) أبو البقاء محمد المكي الحنفي(ت٥٨٥هـ/١٤٥٠م) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء ابراهيم الأزهرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص١١٩،
- (٢) سلامة، حسين، تاريخ الكعبة المعظمة، ص٢٥٢.
- (٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٠٨.
- (٤) سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص٤٥، و مارزيل، جان، تاريخ الحضارة الفينيقية والكنعانية، ترجمة ربا الخش، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٩٩٨، ص٧١.
- (٥) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص٤٦، و غلاب، محمد، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافية والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩، ص١٧.
- (٦) البلاذري، الفتوح، ص٢٤٩، وابن الفقيه، البلدان، ص١٠٢.
- (٧) الكسيبي، حضارة العراق، ص٢٨٠.
- (٨) كرد علي، محمدخط الشام، ج٤، ص٢٠٠، ابن منظور، لسان، ج١٠، ص٢١.
- (٩) الوسمة شجر باليمن كان يُختضب بورقه الأسود، ابن منظور، لسان، ج١٢، ص٦٣٧.
- (١٠) القوة عروق يصيغ بها و، ولها نبات يسمى دقيقاً في راسه حب أحمر شديد الحمرة كثير الماء، الرازي، مختار الصحاح، ص٢١٦، وابن منظور، لسان، ج١٥، ص١٦٦.
- (١١) أحمد، موسى عبد الغفار، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين في العهد الأموي، جامعة القاهرة، ١٩٧٩، ص٢٧.
- (١٢) الوشمي، ولاية اليمامة، ص٢٢٩.
- (١٣) بدور، فلسطين في العهد الأموي، ص٩٩.

دمشق بأوانيها النحاسية المنقوشة منذ عصور قديمة(١)، كما صُنعت الإبر في بيت المقدس(٢) ويذكر الحميري وجود سوق للسراجين في بيت المقدس أيضاً ، حيث استخدمت هذه السراجات في إضاءة المنازل والمساجد وغيرها (٣) كما صُنعت المرايا أيضاً في الشام(٤) ورغم تلك النظرة الدونية التي كانت لدى العرب لمن يعمل في المهن المختلفة، والتي مارسها الموالي والعبيد، إلا أنه من يتفحص الدراسات الأثرية التي أجريت في مدينة الربذة (تقع إلى الجنوب الشرقي من المدينة المنورة على بعد ٢٠٠كم) يجد أنه قد عُثر على عدد من الآلات والأدوات الحديدية التي تعود إلى القرون الأولى من العصور الوسطى، وأغلبها صُنعت في الحجاز(٥) ، ورغم تواجد الحدادين في الحجاز إلا أنه لم يكن يوجد معادن فيها لتسد الحاجة المحلية لذلك كان هناك حركة تصدير للحديد من مناطق خارج وداخل شبه الجزيرة مثل بلاد فارس والهند واليمن واليَمَامَة وغيرها(٦). كما عرفت القيروان عمالاً ماهرين في إذابة المعادن وسبكها(٧) واشتهرت إيران بصناعة التحف المعدنية قبل الإسلام ويشهد على ذلك ما عُثر عليه من الصواني والأباريق والصحون ومعظمه وجد في شمال إيران جنوب روسيا(٨)، وقد احتفظت الآثار الإسلامية ببعض التحف التي تدل على دقة الصناعة، ومنها إبريق من البرونز يعتبر تحفة فنية ويُنسب إلى مروان بن محمد، بالإضافة إلى المباخر وأوان للماء تُنسب إلى بداية العصر الإسلامي(٩) ، ويضاف إلى هذه الأدوات ما استخدمه الفلاحون في عمل الأرض من فؤوس لحفر الأرض، والمنجل للحصاد والجاروف(١٠) وغيرها من الأدوات الزراعية.

أما بالنسبة للصياغة أي صناعة الحلي والمجوهرات والصناعة المنبتقة عنها، فلا بدّ بداية من التعريف بمناجم هذه المعادن النفيسة، ففي الشام كانت جبال اللاذقية تحتوي على معدن الرصاص الممزوج مع الفضة(١١) وكثرت الفضة في شمال بعلبك ومصيف، وعلى ضفاف العاصي فيما يلي أنطاكية(١٢) وحوث جرش على الذهب أيضاً(١٣) أما اللؤلؤ فقد تم استخراجُه من نهر الفرات عند مصبه في الخليج العربي(١٤) . أما في مصر فقد وجد الذهب في أسوان(١٥) و التبر كان في صعيد مصر، بين أسوان و عيذاب (١٦) ، واشتهرت جزيرة العرب واليمن بمعادنها(١٧) ففي الحجاز كان ذهب بني سليم الذي كان يقع في قبيلة بني سليم التي أشرفت عليه، وقد

(١) كرد علي، محمد، خطط، ج٤، ص٢١٥، والبدرى، أبو البقاء عبد الله(من القرن التاسع الهجري)نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٨٩٠، ص٢١٤.

(٢) المقدسي، أحسن، ص١٦٣.

(٣) الحميري، الروض، ص٦٩.

(٤) المقدسي، أحسن، ص١٦٣.

(٥) ALrashid , Saad, AL rabdhah(Riyadh,1986) p1 -41.

(٦) جريس ، بحوث ، ص٢٥٦.

(٧) زيتون، محمد ، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٨٨، ص١٥٤

(٨) حسن، زكي محمد ، فنون الإسلام ، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١، ص٥٠٨.

(٩) باشا حسن ، و فهمي ، عبد الرحمن و يوسف، عبد الرؤوف و عليوة ، حسين و نجيب ، محمد مصطفى ، القاهرة تاريخها وفنونها وأثارها ، مكتبة الاسكندرية ، ٢٠٠٠ ، ص٥٠٧.

(١٠) بدور، فلسطين في العهد الأموي، ص٧٤.

(١١) كرد علي ، محمد، خطط، ج٤، ص١٦٣.

(١٢) عرفة، ثريا حافظ ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، ص٢٠٤.

(١٣) كرد علي، محمد، خطط، ج٤، ص١٦٢، وجرش مدينة أثرية جبلية على طريق عمان الدولي، شامي، موسوعة المدن، ص١١.

(١٤) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص٨٧.

(١٥) الحاج حسن، حسين، النظم الإسلامية، ص٣٠٠.

(١٦) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص٣٣٤، و ميتر، الحضارة الإسلامية، ج٢، ٣٥٠.

(١٧) الرفاعي، أنور، الإسلام في نظمه، ص٢٩٥.

استُخدم في الحقبة المبكرة من العصور الوسطى، وكان له شأن في العصر الأموي (١) كما ذخرت الأقاليم الشرقية بالمعادن، وفي الأندلس وجدت المعادن منذ القديم حيث استُخرج من الرمال التي تحمل الذهب في بعض الأنهار وفي منطقة تدمير (٢) بالإضافة إلى وجود الفضة فيها أيضاً (٣) ولقد دعم وجود الذهب والفضة الاقتصاد المحلي للدولة وخاصة بعد عملية صك النقود وما احتاجته هذه العملية من ذهب وفضة بالإضافة إلى دخول هذين المعدنين وغيرهما في الكثير من الصناعات. ومما ساعد على كثرة الذهب والفضة في الدولة العربية الإسلامية ما حُمِل منها في الفتوحات سواء في المشرق أم المغرب. ويختصر البديري صياغة الذهب في دمشق بقوله: « في دمشق تُعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجروب والممدود والمرصوع (٤)، وقد عُثر في بلاد الشام على مجموعة من الحلبي أشار إليها أبو الفرج العشي، وتُنسب إلى العصر الأموي وهي مجموعة من أساور المعاصم وأساور العُضد والخلاخل والأقراط والأطواق والشكلات وبعض هذه الحلبي مصنوع بالضغط والتطويق لتبدو زخارفها بارزة، وبعضها مكون من أسلاك ذهبية مجدولة، والأخرى منسوج من خيوط رفيعة، وغيرها مرصع بالحجارة الكريمة... وكانت أكثر هذه الحلبي من الذهب الخالص وبعضها من الفضة (٥).

٥- الصناعات الخشبية: لقد ساعد انتشار الأشجار في بعض مناطق الدولة العربية الإسلامية على انتشار الصناعات الخشبية الثقيلة كالسفن والخفيفة كالأثاث وغيره من احتياجات المجتمع. ولقد برع العرب في صناعة الأبواب والصناديق الخشبية والأثاث (٦). كما توسع الأمويون باستخدام الأخشاب، فصنعوا منها سقوفاً للمنازل، ومهر الحرفيون في الأعمال الخشبية فرصعوا الخشب بالفسيفساء الكبار (٧) وزاد التعامل بالخشب بذخاً فطعموه بالذهب كما في سقوف المسجد الأقصى (٨). وامتازت الخشبيات في العصر الأموي بزخرفتها النباتية الهندسية والتي يدل عليها خشب الجامع الأموي (٩) كما عرف الناس الكراسي الخشبية فابن كثير يذكر في معرض حديثه عن الوفود التي قدمت إلى سليمان بن عبد الملك لتهنئته بالخلافة أنهم جلسوا على الكراسي في بيت المقدس (١٠) ويشير الحميري إلى وجود سوق الخشابين في القدس (١١) الأمر الذي يدفع إلى التصور بأن هذا السوق كان يتألف من مجموعة من الحوانيت ومحلات النجارة، وأصناف الأخشاب المختلفة ومستودعاتها، وكذلك محلات لبيع الآلات المستخدمة للأعمال الخشبية كالمناشير ثم حركة بيع وشراء واستيراد وتصدير، وهذا دليل على وجود حركة واسعة للصناعات الخشبية. واهتم العراقيون بالصناعات الخشبية، فالموصل كانت مورد الأخشاب في العراق وبذلك كانت الأولى في هذه الصناعة (١٢) بحكم موقعها على الأطراف الشمالية، وقد أدى وجود الجبال حولها إلى برودة الجو وهي تتناسب مع نمو الغابات، ولم تكن تكفي أخشاب العراق لهذا استوردوها من طبرستان ليصنعوا الآلات والأطباق والقصاص ثم تُحمل إلى الري لصقلها كي تعود إلى العراق

- (١) جريس، بحوث في تاريخ، ص ٢٤٥.
- (٢) ابن الفقيه، البلدان، ص ٨٧.
- (٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.
- (٤) البديري، نزهة الأنام، ص ٢١٤.
- (٥) العشي، أبو الفرج، آثارنا في الإقليم السوري، المطبعة الجديدة، دمشق، ط ١، ١٩٦٠، ص ١٦١.
- (٦) حامد الشريف، أحوال غير المسلمين، ص ١١٤.
- (٧) الكبار المفرط العظم، ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ١٢٦.
- (٨) المقدسي، أحسن، ص ١٥٧.
- (٩) لوبون، حضارة العرب، ص ١٧٠.
- (١٠) ابن كثير البداية، ج ٩، ص ١٧٦،.
- (١١) الحميري، الروض، ص ٢٦٨.
- (١٢) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٢١، وخربولي، حضارة العراق في العصر الأموي، ص ٣٥٩.

لتلوينها ونقشها(١). وتوفرت في مصر ثروة خشبية متمثلةً في أشجار النخيل والسنط والجميز والأثل والنبق والدوم ومع ذلك فهذه الأخشاب لم تكن تكفي للاستهلاك المحلي، فقد اعتمدت مصر منذ عصر الفراعنة على استيراد الخشب من بلاد أثيوبيا وفينيقيا(٢) لذلك كان خشب النخيل من أكثر أنواع الأخشاب انتشاراً حيث زُرِع في طيبة(٣)، وفي مناطق متناثرة من دلتا الإسكندرية(٤) ويبدو أن صناعة الأثاث المنزلي التي كانت قائمة قد استمرت، حيث حوت قوائم عقود الزواج والميراث على ذكر أسرة وأرائك ومقاعد ومناضد بعضها طُعم بالصدف والعاج وحُفر خشبه(٥) ويبدو أن العرب أدخلوا صناعة الخشب إلى الفسطاط منذ الفتح العربي، وقد ابتكروا طريقة الحفر المائل أو المشطوف على الخشب، وكانت الطريقة التقليدية في الحفر هي أن توزع الزخرفة على أقسام مستطيلة ومربعة داخل إطار خالٍ من الزخرفة(٦) ووجد في الحجاز أماكن فيها أشجار صالحة للنجارة، وهذه المناطق محيطة بمكة والمدينة والطائف، وغيرها من مناطق الحجاز(٧) ولقد استطاع النجارون إنتاج أشكال خشبية متنوعة ومتعددة الأغراض من هذه الأخشاب، وكان في مكة والمدينة أسواقاً خاصة لبيع الأخشاب(٨) ولم يقتصر على الأخشاب المحلية بل كان هناك بعض الأخشاب المستوردة من الهند وبلاد فارس(٩)، كما انتشرت الغابات في المغرب، التي أحضر منها البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن(١٠). ووجدت الأخشاب في خراسان، وبخاصة خشب العرعر أجود أنواعها، لذلك استعملها أغنياء المسلمين في بيوتهم في صدر الإسلام ، وفي الهند كان خشب الساج الذي استعملت منه معظم أدوات البيوت لعلية القوم وخشب الخلتج في قم الإيرانية، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة، وصُنِع منه أثاث المنازل، وصدرت إيران الكراسي الجيدة من هذا الخشب(١١) . وصُنِع من الخشب أدوات متعددة سواء أكانت آلات النسيج كالتول مثلاً، أم الأدوات الزراعية كالشادوف والدولاب والناعورة(١٢) . كما صُنِعَت من الأخشاب المكايل ، من شجر السدر بشكل خاص وكانت تُحفر الكتلة الخشبية التي يراد صنعها للمكيال، وتُشَدُّ بمسامير مع وضع طوق في أسفلها يحميها، أو تُرص الشرائح الخشبية بعضها جوار بعض على هيئة مخروط وتُشَدُّ بمسامير حتى تحتفظ بشكلها العام(١٣).

٦- صناعة الزجاج: هذه المادة الصلبة الشفافة التي عُرفت صناعتها منذ القديم، وقد اختلف حول منشأ صناعتها في مصر(١٤) أم في سواحل الشام؟(١٥) ومهما يكن فالمهم هو أن هذه الصناعة انتشرت بشكل كبير في كلٍّ من

- (١) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٧٦.
- (٢) عطا، زبيدة محمد، الحياة الاقتصادية، في مصر البيزنطية، دار الأمين، القاهرة والجيزة، ط ١، ١٩٩٤، ص ١١٤، ومحمد رأفت عبد الحميد، مصر في العصر البيزنطي، ص ٣٠١.
- (٣) طيبة: مدينة مصرية قديمة تقع شرقي النيل على بعد ٥٠٠ كم جنوبي منف، مولا، الموسوعة الميسرة، ج ٤، ص ٢١٧٨.
- (٤) عطا، زبيدة، المرجع السابق، ص ١١٤-١١٥.
- (٥) المرجع السابق، ص ١١٧.
- (٦) حسين، زكي محمد، بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية، مجلة جمعية الآثار القبطية، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٣-١٤.
- (٧) القزويني، آثار البلاد، ص ٨٥-٨٩.
- (٨) الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣٢.
- (٩) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، كتاب النبات، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة، ١٩٨٣، ج ٢، ص ٣١١.
- (١٠) أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص ٢٨.
- (١١) الحاج حسن، حسين، النظم الإسلامية، ص ٣٠١.
- (١٢) الدوري، تاريخ العراق في القرن الرابع، ص ٧٣.
- (١٣) فهيمي، سامح، المكايل الإسلامية في صدر الإسلام، المكتبة الفيصلية، مكة، ط ١، ١٩٨١، ص ٥٠-٦٨.
- (١٤) عبد الخالق، هناء، الزجاج الإسلامي في متاحف ومخازن العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦، ص ١٤.
- (١٥) حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ط ٣، د ٣، ج ١، ص ٩٩.

الشام ومصر، حيث نالت الشام شهرة كبيرة بصناعة الزجاج وضُرب به المثل حتى أصبح يقال لشيء رقيق أرق من زجاج الشام، وأصفى من زجاج الشام(١)، الذي تجسد بأشكال عدة منها القتاني والكؤوس والمزهريات والمصابيح وزجاج النوافذ، وأنواع أخرى متعددة من المصنوعات الزجاجية التي زُخرفت بمختلف طرق الزخرفة وذهبت(٢)، وتعددت أنواع الصناعات الشامية للزجاج، كما تنوعت أصنافها، فقد برع أهالي صيدا بصناعة الزجاج الشفاف غير الملون، والقائم الذي يشبه الخزف، ويسمح للضوء بالنفاذ، بالإضافة إلى الزجاج الذي لا يخترقه الضوء(٣)، وأخذت دمشق حصة الأسد من صناعة الزجاج ومنه الأكواب والأواني على اختلاف أنواعه، سواء أكان ذلك للاستخدام أم للزينة(٤) واشتهرت القدس وأريحا بصناعة المرايا، حتى أن المقدسي قال: "إن أجود المرايا ما عمل فيها"(٥) وصنعت قُدس الزجاج المخروط والخُرز(٦)، ودخلت الصناعات الزجاجية في القناديل التي تُعلّق في المنازل والمساجد، وتُستخدم للإضاءة، ويعرف مما ذكره كل من المقدسي والحميري عن القناديل المعلقة في المسجد الأقصى أنها كانت تُصنع في بيت المقدس(٧)، كما كان زجاج حلب مرغوباً ومطلوباً(٨)، ولقد وجدت في قصر هشام بن عبد الملك في الرصافة أنواعاً من الزجاج المتنوع والذي وجد في قصور الخلفاء وبيوت العرب(٩)، واستمرت صناعة الزجاج في مصر، وبقيت الاسكندرية مشهورة بها حيث توفر فيها الرمل الممتاز الصالح لصناعاته(١٠) كما اشتهرت الفسطاط بصناعة الزجاج المزخرف، مما يؤكد ذلك تلك الأنية الزجاجية التي عُثر عليها في أطلال المدينة والتي كتب عليها صنعت في الفسطاط سنة (١٥٥هـ/٧٧١م) (١١).

واستُخدم الزجاج في صناعاته المكاييل وخاصة التي تكيل السوائل ويؤكد هذا الاحتمال المكيال الزجاجي المحفوظ ضمن مجموعة متحف الفن الإسلامي في القاهرة وهو مؤرخ سنة (١٨٨هـ/٧٠٦م) (١٢) وهو أقدم مكيال زجاجي عُثر عليه في العالم العربي.

٧-صناعة الخزف: والتي نشطت في مختلف الأقاليم العربية الإسلامية، و تعود إلى عصورٍ قديمة، وبعد أن كان الخزافون العرب يتبعون الطرق القديمة في صناعاته ابتكروا تدريجياً أساليب جديدة في زخرفة الخزف(١٣) واشتهر خزف الشام بالرقّة وبالنقوش الدقيقة المطلية باللون الأسود ومنها الكؤوس والصحون وهي تشبه قشرة البيضة برقتها(١٤)، ولقد عُرف الخزف القاشاني وهو نوع من الخزف الصلب المموه بألوان وأصباغ بديعة

-
- (١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد(ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دت، ص١٥٧ و Lombard ,M.;L' islam dans as p207.
- (٢) عبد الخالق، هناء، الزجاج الإسلامي، ص٨٣.
- (٣) سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة صيدا، ص٤٦.
- (٤) كرد علي، محمد، دمشق مدينة السحر والشعر، دار الفكر، دمشق، ص١١٩.
- (٥) المقدسي، أحسن، ص١٦٣.
- (٦) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (٧) المقدسي، أحسن الأقاليم، ص١٦٠، والحميري، الروض، ص٦٩.
- (٨) القزويني، آثار البلاد، ص١٨٣-١٨٤.
- (٩) العش، أبو الفرج، آثارنا في الإقليم السوري، ص١١٥.
- (١٠) عطا، زبيدة، الحياة الاقتصادية، ص١١١، و Johnson, A, ,and West, L , Byzantine Egypt; Economic studies Princeton, 1949, p111.
- (١١) باشا، حسن، القاهرة، ص٣٣٢.
- (١٢) فهمي، سامح، المكاييل الإسلامية، ص٥٦.
- (١٣) ديمان، م. س، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد عيسى دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣، ص١٦٤.
- (١٤) عبد العزيز سالم، السيد، الدولة العربية، ص١٢.

ونقوش رائعة منسوبة إلى بلدة كاشان القريبة من أصفهان ، وانتقل هذا النوع منها إلى العرب بعد الاتصال بهم في صدر الإسلام(١)، وعُرف الخزف غير المدهون ، وهو من الأشكال التي صُنعت في أوائل العصر الوسيط وهي الأشكال المعروفة نفسها في العصر الساساني وهي أوان كبيرة لخرن الماء وأباريق صغيرة وزمزم، عُثر عليها بأماكن مختلفة في العراق وسورية وإيران(٢) . وبرع المصريون ومنذ القديم بصناعة الفخار، واستخدموا المطلي منه ،حيث انتشرت مصانع الخزف عبر وادي النيل وفي جميع مناطق مصر(٣).

ولم تكن العراق ببعيدة عن هذه الصناعة التي انتشرت فيه منذ الحضارات القديمة، حيث يكثر الطمي على ضفاف أنهارها ،وقد اشتهرت واسط في العصر الأموي بصناعة الجرار والأباريق والأواني الخزفية ذات الألوان ولا سيما اللون البني والأخضر، والتي نُقش عليها زخارف تحت دهان شفاف أخضر أو أزرق(٤) كما وجدت صناعة الفخار أو الخزف في الحجاز، حيث وجدت بعض الأماكن التي مورست فيها هذه الحرفة حيث أُحضرت من مكة والطائف المواد الأساسية كالطين وغيره من المواد اللازمة لصناعة الأواني الفخارية(٥).

٨- **دباغة الجلود وخرزتها:** لقد عُرفت هذه الحرفة منذ عصور مبكرة في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية وعلى نطاق واسع وصل إلى التجارة بها إلى أنحاء متعددة من العالم(٦) ، ففي الحجاز كانت الطائف هي المدينة الرئيسية في دباغة وتصنيع وتجارة الجلود الجيدة النوعية(٧) ، كما وجد من يزاول هذه المهنة في مكة والمدينة وإن لم تكن على المستوى نفسه في النوعية والكمية التي كانت في الطائف(٨) ، وربما كان لتوفر المواد الأساسية لهذه الحرفة في الحجاز ككل وفي الطائف على وجه الخصوص دوراً أساسياً في انتشار هذه الصناعة، حيث توجد الحيوانات والأشجار الضرورية للدباغة، فالدينوري وابن سيده يذكران قائمة بأسماء الأشجار والنباتات التي تُستخدم أوراقها في الدباغة(٩) ولعل أهم وأحسن هذه الأشجار الصالحة لهذه الصناعة والمتوفرة في المناطق الحجازية واليمن هي أشجار القرظ(١٠) كما كانت للمدن اليمنية شهرة كبيرة في إنتاج الجلود ولاسيما صنعاء(١١) وكذلك مدينة زبيد التي لم يكن لأديمها مثيل(١٢) بالإضافة إلى صعدة التي كانت مركزاً للدباغة ونبات القرظ(١٣) وتبع دبغ الجلود وتهيتها القيام بخزرتها أي خياطتها فكانت هذه الجلود المدبوغة تُصنع بأشكال مختلفة، وقد يكون من فئة الدباغين من يجيد حرفتي الدباغة والخزارة معاً أو أن يقوم الخزرون بعملهم

- (١) الحصني، محمد أديب، منتخبات التواريخ، ج٣، ص١١١٣.
- (٢) ديماندا، الفنون الإسلامية، ص١٨٠.
- (٣) عطاء، زبيدة، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، ص١١٩.
- (٤) الكسيبي، حضارة العراق ، ج٥، ص٢٨٠.
- (٥) الأزرق، أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٥.
- (٦) الجاحظ، التبصر والتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، بيروت، ١٩٦٦، ص٣٤، و علي، جواد، الفصل، ج٧، ص٥٨٧.
- (٧) صفة جزيرة العرب، ص٢٣٣، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٤١.
- (٨) ابن سعد ، الطبقات، ج٨، ص١٠٨، و٢٨٢، و الأزرق، أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٥-٢٦٣. و الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٢٣٣.
- (٩) الدينوري، النبات ، في مواضع متعددة، ج٣، ١٦٥-١٨٤، وابن سيده، المخصص، ج١، ص٤٠٥-٤٠٧.
- (١٠) القرظ ،شجر يشبه شجر الجوز ورقه أصغر من ورق التفاح وهو أفضل ما يصبغ به، ابن منظور، لسان، ج٧، ص٤٥٤.
- (١١) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص١١٢.
- (١٢) الهمداني، صفة جزيرة، ص١١، زبيد مدينة يمنية تقع على وادي زبيد قرب البحر الأحمر وهي مركز قضاء بمحافظة الحديدة، شامي، موسوعة، ص١٣٥.
- (١٣) الهمداني، صفة جزيرة، ص١١٦ ، وصعدة مدينة جبلية تقع أقصى شمال العاصمة صنعاء على الحدود اليمنية السعودية، شامي، موسوعة المدن، ص١٣٨.

بالانفصال عن الدباغين ، ويذكر مصعب بن الزبير هؤلاء الخزارين في المدينة(١)، كما وجدوا في مكة أيضاً(٢)، وأنتجت صنعا النعال والأنطاع(٣) واشتهرت حضرموت بصناعة النعال(٤)، وكان مما صنّع من الجلود أيضاً قُرب الماء وأوعية لحفظ الخمر والسمن(٥).

٩- الصناعات الغذائية: اعتمدت هذه الصناعات على الغلات الزراعية التي شجّع العرب على زراعتها، فصناعة الخبز التي اعتمدت على الحبوب المختلفة احتاجت إلى المطاحن الصغيرة المنزلية أو الكبيرة التي تُدار بواسطة الماء أو الحيوانات، وكان عمل هذه المطاحن يستمر طوال النهار(٦). أما بالنسبة لاستخراج الزيت فقد عُرف قبل الإسلام حيث استخرج في الشام منذ عصر الفينيقيين وتدل على ذلك أحجار المطاحن التي كانت تستخدم في هذه الصناعة الزيتية(٧)، حيث أدت وفرة الزيتون في بلاد الشام إلى استخراج الزيت منه ومن تلك المدن نابلس(٨) ووادي موسى قرب القدس(٩) وعرفت عسقلان أيضاً استخراج الزيت(١٠) وفي فلسطين عُصر السمس لاستخدام زيتته في الإضاءة(١١)، واشتهرت حران بالزيت(١٢) ، كما انتشرت معاصر الزيت في معظم الإقطاعات الكبرى في مصر وفي المغرب(١٣)، ويبدو أن المطاحن كانت تخصص لاستخراج الزيوت ولطحن الحبوب واستخراج السكر من القصب، ومن أشهر أنواع الزيت في الشام الزيت الركابي ، وسمي بذلك لأنه كان يُحمل على الإبل من الشام (١٤) .

ومن الصناعات الغذائية أيضاً صناعة السكر والحلويات ، فقد انتشرت صناعته، بأماكن زراعة القصب في غور الأردن، وفي أنطاكية وعكا ويافا(١٥) ، كما صنّع السكر في مصر فقد زرع قره بن شريك بركة الحبش بالقصب بعد استصلاحها هذا بالإضافة إلى انتشار هذه الزراعة في مناطق أخرى من مصر(١٦)، وصُنعت الحلويات المختلفة مثل الكنافة التي عرفت منذ أيام معاوية، كما كان سليمان بن عبد الملك يتسحر في ليالي رمضان منها(١٧) ، كما اهتم الناس بحفظ الفواكه، وذلك إما بتجفيفها مثل التين والزبيب والجوز والفسق(١٨)

- (١) الزبيري، مصعب، نسب قريش، ص١٧٨.
- (٢) الأزرق، أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٥-٢٦٣.
- (٣) الهمداني، صفة جزيرة، ص٣٢١.
- (٤) العلوي، صالح بن حامد، تاريخ حضرموت، دار الكتب ، بيروت، ١٩٧٦، ج١، ص٩٥.
- (٥) علي، جواد ، المفضل، ج٧، ص٥٨٨.
- (٦) زيود، التاريخ، ص٨٨، و عطا، زبيدة ، الحياة الاقتصادية، ص١٢٦.
- (٧) عرفة، ثريا ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٢٣٤.
- (٨) المقدسي، أحسن، ص١٦٣.
- (٩) القزويني، آثار البلاد، ص١٦٢.
- (١٠) الدباغ ، مصطفى مراد الموجز في تاريخ الدولة العربية في بلاد فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٢٢٥.
- (١١) كرد علي، محمد، خطط، ج٤، ص١٧٨.
- (١٢) الدوري، عبد العزيز- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص١٣١.
- (١٣) عطا، زبيدة، الحياة الاقتصادية، ص١٢٢. لويس أرشيبالد، القوى، ص١٣٠.
- (١٤) البخاري، التاريخ الكبير، العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط١، ١٩٤٣، ق٣، ص٢٨٢.
- (١٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧ و٤٩، والمقدسي، أحسن، ص١٥٠ ،
- (١٦) الكندي، الولاية والقضاة، ص٦٥ وسميت أيضاً اصطبل قامش واصطبل قورة، وتقع بجانب الفسطاط بين الجبل والنيل. والمقويزي، الخطط، ج٢، ص٧٢٣، والإدريسي، نزهة، ١٢٤، و١٣١.
- (١٧) القرمانى، أحمد بن يوسف(ت١٠١٩هـ/١٦١٠م) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيوط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢، م٢، ص٣٦.
- (١٨) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٣٢.

وإما بحفظها في عسل النحل لتبقى طازجة وكانت الجزيرة مركزاً هاماً لتجفيف الفواكه(١)، كما اشتهرت بعلبك بلواها وعسلها والتي أصبحت مضرب المثل(٢) واشتهر سواد الموصل بحفظ الجبن(٣).

١٠- صناعة الصابون: لقد تلازمت صناعة الصابون مع صناعة الزيوت ، وكان لبلاد الشام شهرة خاصة بها، إذ اتخذ صابون نابلس طابع الرقي(٤) كما صُنِعَ في حلب وبالس(٥) واعتُبرت الرقة معدن الصابون الجيد على حد تعبير المقدسي(٦).

١١-العطور: والتي أظهر العرب شغفاً كبيراً بالاهتمام فيها ، ومما يؤكد اهتمامهم بصناعة العطور ما ذكره ريسلر، من أن الناس في الأزمنة القديمة لم يعرفوا سوى عطور المشرق وأهمها المر والمسك والبخور وأن العرب هم الذين عرفوا العالم على استعمال العطور، وحقّزوا الكيميائيين على استخراجها من الأزهار(٧) وكانت الورود في الشام لها وجوداً ساحراً ، كما حُمِلَ الطيب من عدن إلى سائر الآفاق(٨)، واشتهرت بلاد فارس بالعطور أيضاً(٩).

إذاً لقد كان لهذه الصناعات دور كبير في دعم اقتصاد الدولة من خلال توفير فرص عمل وكذلك تأمين المواد اللازمة من غذائية وألبسة وأثاث وغير ذلك وهذا ما انعكس إيجاباً على الدولة والمجتمع ، بالإضافة إلى دعم القوة الشرائية في المجتمع وهذا يؤثر إيجاباً في دعم الاقتصاد.

٦- عدم سيطرة الحكام على مجمل الصناعات:

لقد مورست الحرف بدون معوقات، وببساطة ويسر، إذ لم يكن لدى حكام بني أمية هاجس السيطرة والمراقبة المباشرة للمشاغل الحرفية، إلا أنهم شعروا بضرورة التحكم ببعض الصناعات التي تتطلب قدرات كبيرة مثل صناعة السفن، أو التي تؤثر على مصالح الدولة كسك النقود، أو التي تلامس حاجاتهم الشخصية كالملابس الشخصية لهم .

وفيما يخص دار الصناعة، تبدو بعض التفاصيل الدقيقة حول عمل وشؤون دار الصناعة في مصر من خلال أوراق البردي التي تعود إلى تلك المرحلة ، حيث كانت الدار تحت رعاية الدولة التامة وبكل تفاصيلها، فقد عينت الدولة مشرفاً عاماً عليها يسمى متولي الصناعة(١٠)، كما كان يتم إرسال العمال والصناع والملاحين وتشهد تلك الأوراق بأن الوالي كان يتفق مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون في الأسطول المصري(١١) كما فُرض على الكور قدرماً من الأدوات والآلات المختلفة لصناعة السفن وتنظيمها، و فُرض عليها

(١) المقدسي، أحسن ،ص١٦٣.

(٢) تدمري، لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٩٩٠، ص١٨٦.

(٣) المقدسي، أحسن، ص١٣٣.

(٤) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٠، و p184 ، islam dans as، Lombard

(٥) المقدسي، أحسن ، ص١٦٣-١٦٤.

(٦) المقدسي، أحسن، ص١٣٤.

(٧) ريسلر، جاك ، الحضارة العربية تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط١، ١٩٩٣، ص١٢٩.

(٨) الرفاعي، أنور ، الإسلام في نظمه، ص٣٠٢.

(٩) الأصبخري، مسالك الممالك ص١٣٧

(١٠) بركات، وفيق ، فن البحرية، ص١٤٧.

(١١) كاشف، سيدة ، مصر في فجر الإسلام، ص٩٢.

تموين الملاحين الذين يعملون في إعداد الأسطول(١) وعلى ذلك يمكن استنتاج الأمر نفسه في دار عكا أولاً ثم دار صور ثانياً، عندما نقلها هشام إليها(٢) كما أشرفت الدولة على دار تونس التي أنشئت بأمر من عبد الملك ابن مروان ، الذي أمر بنقل ألفي قبطي مع عائلاتهم إلى هذه الدار للعمل بها(٣)تحت إشراف الدولة. ومن الصناعات التي أشرفت عليها الدولة سك النقود، التي تُعد من علامات الخلافة حيث يُضرب اسم الخليفة على النقود المتعامل بها(٤)، ويعود ضرب النقود إلى عهد عمر بن الخطاب الذي ضرب الدراهم مع استبقائه للعبارات الفارسية(٥) ، واستمر الضرب في عهد عثمان وعلي ومعاوية كما ضربها ابن الزبير(٦) ولكن العمل الهام قام به عبد الملك بن مروان، والذي لم يكن فقط إنشاء مصنع للنقود ، ونقل السكة من اللغات الأجنبية إلى العربية فحسب، بل ضبطت شكل ووزن النقود(٧) وبذلك سيطرت الدولة على مصادر عرض النقود، وضمنت تخليصها من الغش. هذا وضربت العملة في جميع أنحاء البلاد تحت إشراف الدولة ، إذ إن كثرة ضروب العملة الموجودة في بلد ما تدعو إلى الاضطراب في التعامل، ولذلك أرسل عبد الملك السكة إلى الحجاج الذي أمر عماله برفع تقارير شهرية إليه عن مقدار ما يضربونه من دراهم(٨)، وليس المهم هنا شكل النقود ووزنها وصفاتها ، بل المهم يكمن في حرص الدولة على ضرب النقود في ولاياتها تحت إشرافها حيث ضربت في دمشق وسُميت الخشنة(٩) كما ضرب موسى بن نصير النقود في تونس(١٠) ، وكذلك العراق الذي كان من المراكز الرئيسية لضرب لنقود، ولكن هشام بن عبد الملك أبطل السكك كلها باستثناء واسط، إلا أن مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة في حران(١١) .

وبالانتقال إلى صناعة لاقت لدى الخلفاء والأمراء والخاصة اهتماماً خاصاً كونها تتعلق بذوقهم الشخصي وبإظهار هيبتهم ، التي لمسوا مدى تعلقها بشكلهم وبمظهرهم، بالإضافة إلى استعمال منتجات هذه الصناعة في كسب ود من أرادوا كسب ودهم، ألا وهي صناعة الملابس، هذه الصناعة التي زادوا في إظهار فنها وجمالها، إذ أصبحت مصانع القماش التي تنسج للخليفة تسمى دار الطراز ، بل إنهم أسسوا لها ديواناً خاصاً بها ، وأصبح مركز هذه الدور في قصورهم، وعينوا لها قائماً على النظر بأمرها، وأطلقوا عليه اسم صاحب الطراز، حيث كان ينظر في أمور الصباغ والآلة والحياكة فيها، وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ، ومشاركة أعمالهم، وقُدِّم في ذلك خواص دولتهم وثقات مواليتهم(١٢) .

وكان الخلفاء ينفشون أسماءهم أو علامات تميّزهم ، كالألقاب وبعض الأدعية، على أثوابهم بخيوط من الذهب، أما الولاة والعمال والجند فكانوا يرتدون زيّاً طُرز عليه اسم الخليفة(١٣) ، وكانت كلمة الطراز تعني

(١) كاشف، الوليد بن عبد الملك، ص١٦٣-١٦٤.

(٢) البلاذري، فتوح ، ص١٢٥.

(٣) أبو عبيد البكري، المغرب، ص٣٨.

(٤) الرفاعي، أنور ، الإسلام في نظمه، ص٩٩.

(٥) الجيري، محمد عبد المتعال ، أصالة الدواوين والنقود العربية، مكتبة وهبة ، القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص٦٤

(٦) المرجع السابق، ص٦٧.

(٧) العث، يوسف ،الدولة الأموية، ص ٢٣٥.

(٨) المقرئزي تقي الدين، شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق محمود بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٦٣.

(٩) الجيري، أصالة الدواوين، ص٨٣.

(١٠) موسى، لقيال المغرب ص ٣٤

(١١) الخضري، الدولة الأموية، ص٣٥٨.

(١٢) ابن خلدون، المقدمة ص٢٦٧.

(١٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

التطريز وعمل المدبج(١) أو الشريط الكتابي الذي يَنسج في لحمة الثوب وسداه، ثم تطورت كلمة الطراز فأصبحت تعني المصنع الحكومي الذي يُصنع فيه الثياب(٢) ثم اتسع مدلول هذه الكلمة فأصبحت تُستعمل لما يُكتب على الورق والنسيج وزخارف سطح النسيج السادة المطرزة(٣). وعلى الرغم من أن الخلفاء الأوائل من بني أمية هم أول من اتخذ هذه الدور في قصورهم، إلا أن هناك إشارات تدل على وجودها في الإسكندرية والشام؛ أي أن الأمويين أخذوا الفكرة من اتخاذ مصانع الثياب في قصورهم من الفرس والبيزنطيين ثم طوروها بنقوش وكتابات عربية، بالإضافة إلى تطوير المواد والأقمشة.

وبعد ذلك انتشرت دور الطراز في كل الأقاليم العربية الإسلامية ، ففي مصر وُجدت قطعة من الطراز مؤرخة بعام (٧٠٦/٥٨٨م) وبذلك تعود لعهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهي موجودة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة(٤) كما صُنع الوشي الجيد للخليفة سليمان -الذي كان مولعاً بالثياب الفاخرة -في اليمن والكوفة والإسكندرية(٥) . ولقد استخدم خلفاء بني أمية هذه الملابس الفاخرة لخلعها على رجال الدولة الأموية، وعلى من أرادوا كسب وده واقتدى بهم في ذلك الأمراء وكبار الدولة، إذ لبس أنس بن مالك خلعة من الخز، فقيل له كيف تنهى عن لبس الخز وتلبسه أنت؟ فقال: " إن أمراءنا يكسونها فنحب أن يروه علينا" (٦). ومما يدل على الثياب الغالية ما قيل عن هشام بن عبد الملك من حبه للثياب واقتنائها (٧) واعتناؤه بتفاصيلها وجودتها.

٧- الاهتمام بالتجارة وتسويق الإنتاج:

لقد تأهل العرب منذ زمن بعيد للقيام بدور الوساطة والتوزيع في تجارة العالم القديم، وذلك بين الشرق الآسيوي والمنطقة المتوسطية، وكان من أسباب ذلك وجودهم في رقعة جغرافية محورية في قلب العالم القديم بين الصين والهند وفارس شرقاً، وبيزنطة وريثة الإغريق والرومان غرباً(٨)، ويمكن تلخيص دور العرب التجاري في هذا الموقع قبل الإسلام بأنهم احتكروا التجارة الشرقية منذ أيام الفينيقيين حيث كانوا ينقلون بضائع الشرق الآسيوي إلى موانئ البحر المتوسط، وهناك كان الفينيقيون يكملون مهمة التوزيع البعيد في كل أرجاء المتوسط الغربي وفي القرن الرابع ق.م كانت القوافل العربية المحملة بالتوابل والبهارات والطيب والبخور، بالإضافة إلى بضائع الحبشة من الذهب، والريش، والعاج، تشق طريقها نحو الشمال، ثم تعود تلك القوافل ببضائع شمالية متنوعة منها الدقيق، والزيت ، والخمر، والزبيب، والأقمشة، وغيرها . ويفضل طريق الشمال بين الشام واليمن ازدهرت مدن البتراء وجرش وإيلة إلى أن آل الأمر إلى مكة والمدينة في القرنين الخامس والسادس الميلادي (٩)، وبعد قيام الدولة العربية الإسلامية بشبه الجزيرة العربية وفتح العراق والشام وفارس ومصر والمغرب، أصبحت الدولة العربية الإسلامية هي الممر والمحور الأساسي للتجارة في ذلك الوقت إذ

- (١) المدبج من الدبج أي النقش والتزيين ومنها الديباج ، والتي تعني ضرب من الثياب،وهي كلمة فارسية ،بن منظور، لسان، ج٢،ص٢٦٣.
- (٢) سالم، السيد عبد العزيز ،الدولة العربية، ج٢، ص٤١٦.
- (٣) ماهر، سعاد ، النسيج الإسلامي،ص٨.
- (٤) باشا، حسن ، القاهرة،ص٣٩٠.
- (٥) الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف ، تاريخ الهند في العصر الإسلامي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٠٠.
- (٦) ابن سعد الطبقات ج٧،ص٢٤ ، Lombard, L' islam dans as p200
- (٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥،ص١٩٢،و ابن الجوزي، المنتظم، ج٧،ص٢٤٦
- (٨) سحاب ،فكتور ، إيلاف قريش ، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٤، ص٢٦٧.
- (٩) سحاب ،فكتور، المرجع السابق، ص٣٤٠٣٥، و سعيد، الأفغاني ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٢٧، ص١٣.

أصبحت الدولة متنوعة الموارد و غنية الخيرات بالإضافة إلى تحكمها بالطرق التجارية المختلفة. وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على أنّ الإسلام كان له موقفاً مشجعاً من التجارة، ويظهر ذلك من خلال تأكيد الأحاديث النبوية على أهمية التجارة ومنه قوله ﷺ: " أن تسعة أعشار الرزق في التجارة وعشر فيما تبقى من الأعمال" (١) ، وكانت التجارة هي المهنة التي لم يأنف العرب عن ممارستها كباقي المهن. و الدولة الأموية قامت بتشجيع التجارة والأسواق وتسهيلها من خلال عدة إجراءات، فما هي هذه الإجراءات وكيف انعكست هذه التسهيلات على عمل التجارة والأسواق؟

كان هناك عدة وسائل ساهمت في إنعاش التجارة ومن تلك الوسائل: القروض والصكوك (٢) والسفاتيح (٣) والمصارف :

١- القروض: لقد قدم الخلفاء وولاتهم الأموال للتجار كقروض مستردّة، ومنها ما قدمه الخليفة سليمان بن عبد الملك لعبد الله زيد الحكمي أحد معارفه والذي تعهد بإعادة المال من عطائه أو تؤخذ من ميراثه إن مات قبل حلول الأجل (٤)، كما اقترض المهلب بن أبي صفرة - أكبر تجار البصرة- ثلاثمئة ألف درهم من بيت مال البصرة (٥) هذا واقترض الجراح بن عبد الله الحكمي - والي عمر بن عبد العزيز على خراسان- من بيت مال الولاية مبلغاً تراوح بين عشرة أو عشرين ألف درهم ، وقال عندما عُزلَ عن خراسان، هي عليّ سلف أوديها للخليفة (٦)، وكانت هذه القروض، على ما يبدو، إلى أجلٍ محدود ودون فائدة مما شجع التجار على أخذ هذه القروض.

٢- الصكوك: لقد اعتبرت الصكوك من وسائل التعامل التجاري، وانتشرت ظاهرة استعمال الصكوك المالية بين التجار والناس وبيت المال، خاصة بعد أن بدأ المسؤول عن بيت المال أو ديوان العطاء يكتب للناس المسجلين في الديوان صكوكاً مكتوبة تشبه إلى حد كبير الشيكات في العصر الحديث، وهناك روايات تبين مدى شيوع الصكوك في التعامل في عهد عمر بن الخطاب فيما يخص توزيع الأرزاق على الناس (٧) أما بالنسبة لاستخدام الصكوك في العمليات التجارية فقد كان التجار يستردون بضائعهم أو أموالهم من بيت المال بموجب الصكوك التي كان يكتبها لهم رجال الدولة، فقد أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة متاعاً وبضاعة من التجار وكتب لهم مقابلها صكوكاً لصرفها من صالح بن عبد الرحمن مسؤول ديوان الخراج في العراق، لكن صالح رفض صرفها بسبب تكرار الأمر (٨) . كما اعتمد عمال الدولة على التجار بأن أخذوا منهم المال وأعطوهم مقابلته صكوكاً مالية لصرفها من بيت مال بلد آخر، ومن ذلك ما قام به عبد الله بن الزبير عندما أعلن نفسه خليفة، فأخذ الورق من التجار في مكة وكتب لهم بها صكوكاً لبيت مال البصرة أو الكوفة وبالفعل استردوها دراهم أجود من دراهمهم (٩)

(١) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين بن عبد الملك (ت ١٩٧٥هـ/١٥٦٧م) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تحقيق بكرى حيان وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٧٩، ج٤، ص٣٠.

(٢) الصك: جمع صكّك وهو كتاب يُكتب فيه عن مال مؤجل أو غيره، عمارة ، محمد، قاموس المصطلحات، ص٣٣٢.
(٣) السفاتيح جمع سُفْتَجَة وهي بمعنى الحوالة أي أن يكتب المستقرض للمقرض كتاباً يدفعه إلى نائبه ببلد آخر ليعطيه ما أقرضه على سبيل القرض لا الوديعة ، لأن ذلك التاجر لا يدفع عينه بل مثله، وفائدة هذا القرض هي سقوط خطر الطريق، عمارة ،محمد، قاموس المصطلحات، ص٢٨٦.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢٨ ، ص٣١٧.

(٥) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٤٨٤.

(٦) الطبري، ج٤، ص٦٥.

(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٥٤.

(٨) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٤٥.

(٩) السرخسي، المبسوط، ج٤، ص٤٥٧.

ويذكر البلاذري عن زياد بن أبيه قوله في الصكوك: " أن يجاور أحدكم أسد أجمة (١) خيرُ له من أن يجاور تاجراً إذا شاء أن سلفه أسلفه وكتب عليه صكاً" (٢) .

٣-السفاتج (الحوالات): استعملت السفاتج إلى جانب الصكوك، وكان لها دور في التخفيف من الصعوبات التي تحدث بسبب نقل النقود بين الأقاليم ، فهي خفيفة الحمل قليلة التكلفة آمنة من اللصوص، وظهر استخدامها في فحقة مبكرة من عمر الدولة العربية الإسلامية، ويذكر الأصفهاني أن الشاعر نصيب (٣) مدح عبد الرحمن ابن الضحاك الفهري والي المدينة ليزيد بن عبد الملك فأمر له بعشرة من الإبل وكتب بذلك حوالة مختومة إلى رجلين من الأنصار كي يتسلمها، فذهب واستلمها منهما(٤).

٤-المصارف: لقد ارتفعت وتيرة النشاط المصرفي بعد الفتوحات العربية الإسلامية ، والصرف هو شكل من أشكال البيع(٥) وهو إما بيع عملة بعملة أخرى أو تحويل هذه العملة إلى عملة أخرى أو بيع مبادلة عينية بمواد أخرى كبيع القمح بالشعير أو معدن بآخر وهكذا ..(٦) ولأن الصيرفة كانت ذات أهمية كبيرة في حل مشاكل الفروق بين نوعيات وأوزان وأسعار العملات في مختلف الأقاليم فقد انتشرت هذه المصارف أو حوانيت الصيرفة في الأسواق داخل المدن ومراكزها وبالقرب من المساجد، وفي النصف الثاني من القرن الأول الهجري وجدت أسواق خاصة بها في المدن، ومنها السوق الذي خصصه الحجاج لها في واسط عندما اختطها(٧). وكانت هذه المهنة مقتصرة في البداية على أهل الذمة، لكن العرب انخرطوا بها، واستمرت الصيرفة في أهميتها بالنسبة للتجار الذين كانوا على معرفة بأسعار الصرف في أعمالهم التجارية، ولقد استلّف الناس من الصيارفة، كما أودعوا أموالهم لديهم، ويشبه عمل الصيارفة البنوك في العصر الحديث، ولا تتحدث المصادر المختلفة عن طبيعة وشروط القروض ولا الإيداع ربما تحاشياً منهم للحديث عن أمور الفائدة التي كان يجنيها المودع أو الصراف للأموال، وكان دافع التجار للتعامل بصرف العملة هو بيع ذلك التاجر بضاعة في إقليم بدراهم ذلك الإقليم، واستيفاء أثمانها بإقليم آخر من دراهم أخرى(٨) أو قدوم تاجر إلى إقليم ما ومعه دراهم أو دنانير أخرى غير الدراهم والدنانير المستعملة في هذا الإقليم، أو بيع دراهم غير وافية أو فيها زيف بأخرى وافية(٩) وغير ذلك من الدوافع، التي أشارت إليها المصادر مبينة موقف الشرع منها ولعل أكثر ما ركزت عليه هذه المصادر هو الربا في وجوه الصرف، فمن الفقهاء من بيّن كراهيته له، ومنهم من حرّمه ، ومنهم من أجاز به بشروط(١٠) ويبدو أن الصيارفة قاموا بدور الوسيط بين الناس ودور الضرب في الأقاليم، ولا شك أن أمور الصرف تبلورت وتوضحت بشكل أفضل بعدما قام عبد الملك بن مروان بضرب النقود العربية، كما استمرت الدولة بضبط العملة والتشدد بالعقاب لمن يخالف ضرب سكة الدولة.

(١) الأجمة هي الشجر الكثير الملتف، ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٨.

(٢) البلاذري، أنساب، ج٥، ص٢١٣.

(٣) نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان من فحول الشعراء الأمويين مات سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ص٢٦٥.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٩، ج٩، ص٢١٠.

(٥) السرخسي، المبسوط، ج١٤، ص٣٥.

(٦) مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ط٤، ١٩٩٤، ص٢٦٣.

(٧) بحشل، تاريخ واسط، ص٣٩.

(٨) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٢، ص٣٢٨.

(٩) السرخسي، المبسوط، ج١٤، ص٤ و٩.

(١٠) مالك بن أنس، الموطأ، ص٢٦٣، وقدامة بن جعفر، الخراج، ص٦٢، والسرخسي، المبسوط، ج١٤، ص٩، والمنقي الهندي، كنز الأعمال، ج٤، ص١٩٠-١٩١.

كما قامت الدولة بدعم الأسواق فأعفت الأرض التي أقيمت عليها الحوانيت من الخراج، كما أعفيت الأرض الخراجية والتي ليس لها صاحب من الخراج في حال تحويلها إلى أسواق (١). وأعطيت للتجار بعض الصلاحيات منها على سبيل المثال ما طلبه أبو كثير -مولى أسلم من عبد العزيز بن مروان والي مصر- بأن توضع عنه العشور كلما دخل مصر بتجارته فوافق على ذلك (٢). وقد ساهم توفر هذه الصلاحيات وغيرها من العوامل كالعناية التي أولاها الأمويون للزراعة والصناعة في إنعاش الحركة التجارية، فالعرب حين اتحدوا وأزالوا الحواجز الحدودية كانوا قد أدركوا أن أفضل وسيلة لتسهيل المبادلات التجارية تكمن في تسويق لغة واحدة، غدت اللغة التجارية الممتازة، ومنذئذ شهد العالم تطوراً سريعاً وعضوياً للمدن والقرى بفضل التجارة، وعلى أثر هذه الحركة شهدت الأسواق نشاطاً كبيراً، حيث عجت بحياة جديدة، فالثراء العريض الذي نعمت به طبقة الحكام وحاشيتهم نما في نفوسهم حب البذخ والرفاهية، وبالتالي نما عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المنتجات الكمالية فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن مما زاد في فعالية التجار وازدهار التجارة (٣).

كما حرص الأمويون على استمرار الأسواق القديمة وبناء أسواق جديدة فعكست الأسواق قوة الدولة التي استطاعت مراقبتها، فالأسواق كانت من الأولويات لدى الدولة إذ حرصت على بنائها في المدن الجديدة التي بنتها، وكانت أيضاً واحدة من ثلاث مراكز كبيرة استندت إليها المدن إلى جانب الجامع ودار الإمارة (٤)؛ فقد بنيت وسط واسط والقيروان والرملة ففي واسط مثلاً بنى الحجاج فيها السوق وكان كبيراً امتد من القصر إلى دجلة، وكان هذا أول تنظيم واضح للسوق، حيث أنزل أصحاب الطعام واليزازين والسيارة والعتارين على الجهة اليمنى من السوق، وأنزل الخزازين على يسار السوق حتى دجلة، وهذا يدل على مدى الاهتمام بالناحية التجارية لما تشكله الأسواق من نواة للنشاط التجاري الداخلي، والجزء الأكثر حيوية في المدينة، فهو مركز البيع والشراء، وميدان لتصريف المنتجات الزراعية والصناعية.

ويتضح اهتمام الدولة بالأسواق من خلال تحديثها، فالأسواق كانت في البداية أرضاً فضاء ليس فيها أبنية وكان التجار والباعة يضعون بضائعهم في الأماكن التي يختارونها، ولم يكن هناك موضع محدد لكل بائع، ولما سئل عمر بن الخطاب عن ذلك قال: "الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعده فهو له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه" (٥) وكانت في بعض الأحيان توضع مظلات من القماش للوقاية من أشعة الشمس (٦) لكن الدولة حرصت على بناء الحوانيت حيث يُذكر أن عبد الله بن عامر قام بشراء عدد من الدور في البصرة فهدمها ثم بنى سوقاً بدلاً عنها (٧) وكان بناء الأسواق في بعض الأحيان من القصب والعمد، كما في الكوفة، ويُستدل على ذلك من طلب زياد بن أبيه من حرسه انتزاع عمد سوق الكوفة للقبض على حجر بن عدي وأصحابه (٨) ويُعتبر خالد القسري أول من بنى أسواق العراق بناءً محكماً وجعل لها سقوفاً معقودة بالأجر والجص (٩).

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٣٥.

(٢) البلاذري، أنساب، ج ٨، ص ٢٠٧.

(٣) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٦٧.

(٤) الدوري، عبد العزيز، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ٢، ١٩٦٠، ص ٨١.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٤٨٠.

(٦) الريطي، ممدوح، دور القبائل العربية، ص ١٩٥.

(٧) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٧.

(٨) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٢١.

(٩) البلاذري، فتوح، ص ٢٨٤.

ويدل اهتمام الدولة بتوزيع السوق من خلال إبعاد الأسواق التي تسبب إزعاجاً كأسواق الدباغة والصباغة والحدادة.. إلى خارج مركز المدينة(١) وهذا ما خلق التخصص في الأسواق وهذه الميزة لها حسناتها وسيناتها ومن تلك الحسنات أنها ثابتة مستمرة، ولم يكن التاجر الجشع يستطيع رفع سعر سلعته خوفاً من جيرانه المنافسين له بالسلعة نفسها، وفي هذه الحالة يقل حدوث الاحتكار، أو ارتفاع غير طبيعي في سعر البضائع، ثم إن المشتري يستطيع انتقاء أجود ما يحتاج إليه من هذا الصنف من السلع في وقت قصير لتقارب الدكاكين التي عُرضت فيها البضائع المتشابهة، ومن حيث النظام والترتيب فإن هذا الشكل أفضل من غيره ، حيث يعطي منظراً جميلاً للمدينة، ومدخلاً للتنافس النزيه(٢) أما بالنسبة لمساوئ هذه الظاهرة فأمهما: الجهد الذي يبذله مشتري الأصناف المتعددة من السلع، إذ يجب عليه التجول في المدينة كلها كي يستطيع جمع كل ما يحتاج إليه من الأسواق المنتشرة، وربما يعود سبب انفراد كل سلعة أو بضاعة بمكان مفرد بعيداً عن المدينة أو عن غيرها من الأسواق، من أجل المحافظة على الصحة العامة، فالمسالك والمدابع وغيرها من الصناعات التي تؤثر على البيئة كانت تقام في الأطراف، وعلى الرغم من تبلور هذه الظاهرة من التخصص في الأسواق، فإن ذلك لم يمنع وجود عدد من الأسواق الجامعة لبعض أصناف البضائع في آن واحد مثل السوق الكبير في دمشق(٣).

ونتيجةً للاهتمام الذي أولته الدولة للتجارة والأسواق فقد استمرت الأسواق القديمة وتطورت الأسواق المحدثه وانتشرت في مختلف أنحاء الدولة غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً، وليست الغاية هنا إحصاء جميع تلك الأسواق بقدر ما هي إعطاء صورة عن المدى الذي وصل إليه التسويق في العصر الأموي، ولكن لا ضير من تعداد بعضها على سبيل الذكر : ففي بلاد الشام أدى الاستقرار السياسي إلى انتعاش الأسواق التجارية في المدن(٤) كما أدى تدفق الأموال والسلع من الأمصار إليها إلى فتح باب العمل فيها وبالتالي جذب اليد العاملة ، هذا بالإضافة إلى ما شهدته العاصمة دمشق من علاقات تجارية مع المدن الساحلية والداخلية فأصبحت سوقاً تجارياً كبيراً لاعتماد المدن الساحلية مثل طرابلس وصور وعكا وغيرها على أسواقها الشاملة وعلى أنواع السلع جميعها، وكذلك المدن الداخلية كحلب وحمص وغيرها(٥) كما كانت حلب نفسها مجعماً تجارياً للبضائع والسلع التي تأتي من خراسان والهند والعراق ومصر والصين وجنوبي دمشق وغيرها(٦) هذا ولم تخلُ مدينة في الشام من الأسواق المتخصصة. واشتهرت العراق بأسواقها منها أسواق البصرة وعلى رأسها سوق المربرد (٧) وسوق واسط وأسواق الموصل التي اشتهرت بالاتساع والتعدد(٨) وقد اشتهرت أسواق الحجاز نظراً للأهمية التجارية والدينية وعلى رأس هذه الأسواق مكة والمدينة ، وأما شهرة أسواق اليمن فكانت منذ القديم وقد استمرت أيضاً

(١) الضمور ،حاتم نايل ، الأسواق في بلاد الشام في صدر الإسلام، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار،م٣، العدد١،عام ٢٠٠٩،ص١٧.

(٢) زكي، فهمي نعيم ،طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٧٣، ص٢٨، والحويري، أسوان، ص١٣٩.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص ٢٩٢، وابن كثير، البداية، ج٧، ص٢٨،

(٤) المعاينة، زريق، الأسواق في بلاد الشام في العصر الأموي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، آذار ١٩٩٠،الجامعة الأردنية،عمان،ص١-٢.

(٥) الضمور، الأسواق في بلاد الشام،ص١٨.

(٦) الأسدي، خير الدين ، أحياء حلب وأسواقها، تحقيق عبد الفتاح رواس قلجعي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق،١٩٨٤،ص٧٥.

(٧) الأفغاني، سعيد، أسواق العرب، ص١٧٤.

(٨) الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد،(ت٣٣٤هـ/٩٤٥م)تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، لجنة إحياء التراث الإسلامي،القاهرة،١٩٩٧،ص٢٤.

ومنها أسواق صنعاء(١) وسوق عدن وحضرموت وغيرها من الأسواق، و البحرين اشتهرت بسوق دارين الذي كان يُجلب العطور منه إلى مكة و الأنحاء كافة (٢). وفي مصر أيضاً انتشرت الأسواق في المدن كأسواق الفسطاط المختلفة ومنها ما سُمي بحسب بعض الجنسيات كسوق العراقيين نتيجة قدوم بعض أهل العراق منذ أيام زياد بن أبيه إلى الفسطاط واستقرارهم فيها(٣) ولقد كانت أسواق الفسطاط عامرة بمختلف السلع الواردة إليها من أنحاء مصر وبلاد الشام والمغرب وغيرها من البلاد، كما كان في أسوان سوقاً دائمة انتشرت فيها الحوانيت المتجاورة، والتي شملت السلع كافة(٤) .

وحرص العرب عند تأسيسهم لمدن المغرب على إنشائها على شاكلة المدن التي أقاموها في المشرق، ومنها القيروان التي انتشرت فيها الأسواق بجانب الجامع وسميت الكثير من أسواق القيروان باسم مؤسسها أو نسبة إلى أبوابها أو أحيائها(٥) ويضاف إلى القيروان تونس وما شغلته من دور بعد إنشاء دار الصناعة فيها.

وكذلك اهتم الأمويون بأسواق مدن الأندلس كقرطبة وإشبيلية حيث أقاموا الأسواق حول ساحات الجوامع (٦)

٨-١- اعتماد أسس أخلاقية ناظمة للتجارة:

لقد فُتح الباب على مصراعيه لممارسة التجارة، فعمّ النشاط التجاري المدن الإسلامية، فضلاً عن تجوال التجار خارج حدود الدولة الأموية، وورود تجار أجانب إليها لتبادل المنتجات مما تحتاج إليه السوق الاستهلاكية، ووجد مع هذا الانفتاح التجاري ضوابط للعمل تُحفظ الحقوق بمقتضاها حيث لم يغفل الإسلام هذه الجوانب الإنسانية من التعامل، فخضعت التجارة كغيرها لنظم تضبطها وترعى شؤونها، منعاً للغش والتدليس والاحتيال كما فرض التطور الحضاري وما تخلله من نمو اقتصادي، أساليب جديدة للتعامل، إذ إنَّ الأساليب دائماً تنمو طرداً مع التطور الحضاري، فالإنسان بفطرته ميال للتحديث وللتنوع الأفقي والعامودي مع متطلبات الحياة الإنسانية، وما التجارة إلا نوعاً من هذه المتطلبات يشملها التحديث والتطوير دائماً. وبترافق مع هذا التطور أساليب للتجار والهدف منها زيادة أرباحهم بطرق غير مشروعة، كالاختكار والغش في الميزان والمكيال بالإضافة إلى الغش في السلع وغير ذلك من أشكال الخداع التجاري، ولذلك مارس الأمويون ومن قبلهم الرسول الكريم والخلفاء الراشدين عمليات كبح لتلك الأساليب، إذ تجذر مفهوم العامل على السوق الذي عُرف فيما بعد بالمحتسب فوظيفة العامل على السوق هي التي مهدت لظهور وظيفة المحتسب والتي بدأ استعمال هذه التسمية في المشرق في أوائل العصر العباسي في أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إذ إن عاصم بن سليمان الأحول(ت١٤٢هـ/٧٥٩م) في عهد أبي جعفر المنصور كان في الكوفة على الحسبة من المكابيل والأوزان (٧) وهنا لا بد من التعريف بالحسبة التي تمثل سلطة تخول صاحبها حق مباشرة الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله بتفويض من الشارع أو تولية من الإمام وتوقع

(١) ابن عبد الحق، مراصد، ج٢، ص٧٥٥.

(٢) المبرد، الكامل، م١، ص٢٣٩.

(٣) سلام، حورية عبد المجيد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط حتى نهاية العصر الأموي، جامعة القاهرة كلية الآداب، ١٩٧٠، ص١٠٩.

(٤) الحويري، محمود محمد، أسوان في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٣٢.

(٥) موسى، لقبال، المغرب العربي، ص٣٤، ومحمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص٩٣-٩٤.

(٦) سالم، السيد عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٧، ج١، ص٣٢.

(٧) زيود، محمد أحمد، نظام الحسبة في الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، عدد ٢٩-٣٠، جامعة دمشق، ص١٥٣.

العقاب على المخالفين بمقتضى أحكام الشريعة في حدود اختصاصه(١) ووظيفة المحتسب ظهرت في وقت مبكر من عمر الدولة العربية الإسلامية إذ كان الرسول محمد ﷺ أول من قام بها- وإن لم يكن لها اسم الحسبة-حيث كان يمر على السوق يتفقد أحواله، وربما كان عمر بن الخطاب أول من وضع هذا النظام كجزء من العمل الإداري في المتابعة، حيث كان يقوم بنفسه بوظيفة المحتسب دون أن يطلق على نفسه هذه التسمية(٢) واستمر الأمر ببقية العصر الراشدي من مراقبة على السوق أو تعيين عمال لذلك، إلا أنه في العصر الأموي باتت عملية متابعة الأسواق ملحة أكثر من قبل حيث اتسعت رقعة الدولة وتعددت أجناسها وكذلك نظمها، ومع اتساع اقتصادها ازدادت عمليات الغش وتطلب الأمر من الحكام معالجة لتلك المواضيع الشائكة من تعدد للموازين والمكاييل في كل إقليم ومن معاملات اقتصادية جديدة مع اتساع الدولة، فتشددوا في مراقبة الأسواق والتي أكلوها إلى عمال أشداء لا يخافون في الله لومة لائم ، ويبدو أن زياد بن أبيه كان من أوائل من قام بتوكيل هذه المهمة إلى الجعد ابن قيس النميري(٣) وطلب من عامله ضبط الموازين والمكاييل، بالإضافة إلى فض المنازعات التي تنشأ بين التجار وأصحاب المهن(٤)، و قام زياد بالتشدد في مراقبة ضبط الأسعار وضمان عدم استغلال التجار لحاجة الناس إلى تجارتهم، حتى أنه عذب التجار الجشعين ومثل بهم، كما قام بقطع يدي تاجر(٥) ولجأ إلى دعم السلع الغالية بأن قام بطرح كميات كبيرة من السلع التي يطالها الغلاء بهدف إغراق السوق بها مما يؤدي إلى انخفاض أسعارها(٦) . كما قام مروان بن الحكم أثناء ولايته للمدينة سنة (٥٤-٥٧هـ/٦٧٣-٦٧٦م) بضبط وسائل البيع والشراء وعاقب كل من غش العملة أو أخل بسلامتها، ووضع حد معين للصاع في المدينة(٧) وكذلك فعل الحجاج من أجل تحاشي الغش في الموازين ، إذ وحدها في العراق(٨) .

ويبدو أن الدولة منحت العامل على السوق بعض الصلاحيات القضائية والتنفيذية كما زود ببعض الأعوان الذين ساعدوه في مهامه (٩) التي كانت تتركز في حل الخلافات التي تنشأ بين الباعة في السوق وكان مسؤول عن جباية بعض الضرائب على المبيعات ومراقبة الأوزان والمكاييل(١٠) لضمان سير عملية التجارة من غير تلاعب أو تزوير وعليه أيضاً مراقبة أصحاب الحرف والصناعات لمنع الغش ومنع الاحتكار، وعليه أن يتأكد من سلامة النقود وعدم تزييفها ، وأن يعمل على المحافظة على الآداب العامة(١١) .

وبالإضافة إلى عمل العامل على السوق قام الحكام الأمويون بتفقد أسواقهم بأنفسهم ، والاطمئنان على سير العملية التجارية،ومن ذلك ما قام به معاوية من جولات على أسواق دمشق والسؤال عن أحوال البيع والشراء(١٢) و التصرف نفسه قام به الوليد بن عبد الملك والذي كان يسأل البائع عن سعر السلعة ويطلب منه زيادة وزنها كي

-
- (١) الماوردي، الأحكام السلطانية،ص٣١٥ وما بعد، وابن خلدون المقدمة،ص٢٥٢.
 - (٢) ابراهيم، حسن،حسن، تاريخ الإسلام،ج١،ص٣٩٨.
 - (٣) البلاذري، أنساب،ج٥،ص٢٢٣.
 - (٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية،ص٤٦٥.
 - (٥) البلاذري، أنساب،ج٥،ص٢٢٣.
 - (٦) البلاذري، أنساب،ج٥،ص٢٢٤.
 - (٧) ابن سعد، الطبقات،ج٥،ص٤٣، والبلاذري، فتوح،ص٤٥٦، والرئيس، الخراج،ص٣٦٢.
 - (٨) فروخ، عمر ، الحجاج الثقفي،ص١٦.
 - (٩) زيود، محمد، نظام الحسبة في الإسلام،ص١٥٠.
 - (١٠) ابن سعد، الطبقات،ج٧،ص٢٥٦.
 - (١١) الماوردي، الأحكام،ص٢٤٩-٢٥٤.
 - (١٢) ابن كثير، البداية والنهاية،ج٨،ص١٤٠، والذهبي، سير،ج٣،ص١٥٢.

تناسب السعر (١) وكذلك فعل هشام بن عبد الملك (٢).

ولقد خدم عبد الملك التجارة خدمة كبيرة بتعريبه للعملة وتوحيدها، إذ ضبط بهذا العمل الغش الحاصل فيها فالعملة الجديدة والموحدة والتي تطورت من حيث الدقة والانضباط والعيار، أصبحت محل ثقة المتعاملين في الأسواق، ولاقت قبولاً سهلاً عملية التبادلات بشكل كبير، كما حل عدد النقود محل وزنها وبذلك كانت عملية الإصدار النقدي نقطة تحول في تطور التجارة الداخلية بشكل خاص.

٩- تنشيط وسائل الاتصال مع التجار في الداخل والخارج:

اهتمت الدولة الأموية براحة التجار التي انعكست على التجارة، حيث عملت على تأمين الطرق الداخلية والخارجية البرية والبحرية، والحرص على حصانة الموانئ بالإضافة إلى بناء خانات وقيساريات * لاستقبال التجار وإقامتهم.

وقد جمعت الدولة العربية الإسلامية قلب العالم القديم تحت لوائها، وتحكمت بطرق التجارة فيه سواء البرية أم البحرية، و تعددت هذه الطرق لتصل بين مدن الإقليم الواحد أو مدن الأقاليم المختلفة ، فما هي أهم الطرق التجارية سواء البرية منها أم البحرية؟

١- **الطرق البرية:** ومنها الطريق الواصل بين تبوك في شمال الحجاز إلى بصرى التي كانت من المدن التجارية الهامة في جنوب الشام، و ملتقى القوافل بين الخليج العربي والبحر المتوسط والحجاز (٣) ، كما كان هناك طريق آخر للقوافل نفسها، حيث كانت تتجه إلى أيلة(٤) ، ومنها طريق ممهد أنشأه الروم ينتهي إلى غزة وهناك طريق آخر يتجه من حوران ماراً بدمشق، ويتجه جنوباً إلى مآب ويلتقي بطرق القوافل القادمة من الحجاز، كما كانت القدس ملتقى لطريقين هامين أحدهما يصل بين بادية الشام شرقاً والبحر غرباً وثانيهما يصل بين مدينة الخليل جنوب القدس ونواحي رام الله شمالاً (٥)، هذا بالإضافة إلى الطريق الشمالية للقوافل التي تنتقل باستمرار بين الخليج العربي والبحر المتوسط، حيث تنتهي إلى مدينة طرابلس(٦) . وكانت هضبة الأردن الطريق الرئيس لتجار مكة إلى أواسط بلاد الشام، ولها منفذ إلى البحر، بالإضافة إلى طريق الشام البري في شمال الغور عبر مرج ابن عامر(٧) .

ومن الطرق البرية المشهورة في العراق : تلك الطريق الواصلة بين واسط والبصرة ، ومن البصرة إلى ثغر

(١) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٣٢٢.

(٢) البلاذري ، أنساب، ج٨، ص٤٠٨.

* القيسارية هي سوق التجارة في مدينة من المدن، محمد عمارة ، قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص٤٧٢.

(٣) الاصحري، المسالك، ص٢٠، ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٢.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٤٠.

(٥) أحمد، موسى عبد الغفار، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين، ص٥٩.

(٦) تدمري، عبد السلام ، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤،

ج١، ص٤٨.

(٧) زيادة، نقولا ، التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة

الأردنية، عمان، ١٩٨٣، ص٣٣.

الإبلية(١)، كما اتصفت الموصل بأنها محط رحال الركبان لجميع تجار الشام والعراق(٢) ، ومن الطرق المطروقة الرحال في العصر الأموي الطريق الواصلة بين البصرة ومكة، وبين البصرة واليمامة(٣) ، يضاف إليه طريق الجادة وهو الطريق الواصل بين الكوفة ومكة(٤) .

كما ظلت علاقة اليمن التجارية مع البلاد العربية في العصر الأموي على ما كانت عليه من الازدهار، حيث كانت تربطها مع بعضها طرق تجارية برية وأهمها الطريق الذي يصل بين اليمن والشام ماراً بمكة المكرمة حيث تنتقل القوافل ماراً بشبوة ومأرب وصنعاء، ثم تتجه شمالاً على طول الحافة الداخلية لجبال السراة (الحجاز)(٥) في محاذة ساحل البحر الأحمر مخترقة تهامة ومارة بمكة ثم المدينة، وهكذا إلى بلاد الشام ومصر ويعتبر هذا الطريق الممتد من أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية إلى أقصى شمالها من أهم طرق القوافل العربية(٦) . كما كان هناك طريق آخر للقوافل امتد من أقصى بلاد اليمن على طول وادي الدواسر (شرقي الطائف) إلى وسط بلاد العرب، حيث اتصل بطريق آخر خلال وادي الرمة(شرقي المدينة المنورة) إلى جنوب العراق، وكان هذا الطريق الوسيلة الرئيسة للاتصال بين اليمن والعراق(٧) ، وارتبطت اليمن مع بلاد الحجاز بعدة طرق تجارية(٨) .

وتميّز موقع مصر بأنه حلقة وصل بين الغرب والشرق حيث كانت ممراً للحجاج والتجارة، بالإضافة إلى طريق أيلة التي كانت عند موقع العقبة الحالية، وكانت القوافل تسير عبر طريق البر إلى القلزم ثم إلى أيلة فالحجاز(٩)، والطريق المار بالرملة بفلسطين، وبمدينة غزة ورفح والعريش والفرما وبلبيس ثم الفسطاط، بالإضافة إلى الطريق الذي يخرج من الفسطاط إلى برقة وإفريقية وبلاد المغرب، وطريق آخر يخرج من الفسطاط إلى المغرب دون المرور بالإسكندرية(١٠) .

كما نشطت الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق الأقصى بعد توطيد الفتوحات العربية الإسلامية، حيث كان الطريق يمر بأواسط آسيا وإيران وبلاد العراق ومنها عبر البلقاء إلى تدمر فمدن فلسطين وموانئها(١١) واستمر هذا الطريق في العصر الأموي، وكان لا بد للأمويين من حماية طرق القوافل- التي كانت مؤلفة من الجمال- وتسهيل طريقها، لذلك اهتموا بإجراء عمليات إصلاح دائمة لتأمين عملية التجارة ونشاطها، فأصلحوا الجسور

(١) القزويني، أخبار البلاد، ص٢٨٦-٢٨٧،

(٢) القزويني، آثار البلاد، ص٤٦١، و الخربوطلي، تاريخ العراق، ص٣٧٧.

(٣) ابن رسته، الأعلام، ص١٨٠-١٨٣. والخربوطلي، تاريخ العراق، ص٣٧٨.

(٤) الخربوطلي، تاريخ العراق، ص٣٧٨.

(٥) الباشا، حسن طرق التجارة العربية من عهد سبأ إلى صدر الإسلام ، مجلة المجلة، العدد الرابع، سنة ١٩٥٧، ص٥٩. وشبوة مدينة يمنية تقع في حضرموت وهي بشام الآن، انظر: كمال موريس شربل، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، دار الجيل، بيروت، ط١٩٩٨، ص٣١٧.

(٦) الباشا، حسن، طرق التجارة ص٥٩.

(٧) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٨) الاضطخري، المسالك والممالك، ص٢٦.

(٩) كاشف، سيده، مصر في فجر الإسلام، ص٣١١.

(١٠) قدامة بن جعفر، الخراج، ص١١٩-١٢٠.

(١١) فرح، نعيم ، أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العصر البيزنطي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٣، ص٣١.

Rostovtzzf , M, Social and Economic History of The Hellenistic World , Vol, 1,p 445.

وحفروا الآبار من ذلك ما كتبه الوليد بن عبد الملك إلى عماله على البلدان بإصلاح الطرق وحفر الآبار(١)، كما بذلت الدولة جهوداً طيبة في محاربة قطاع الطرق الذين كانوا يترصدون للقوافل التجارية على الطرق الممتدة من العراق إلى الحجاز أو من الشام إلى الحجاز أو من اليمن إلى الحجاز(٢) ، ونظراً للأهمية الدينية والتجارية لطريق الحج إلى مكة فقد تم الاهتمام به. استكمل الأمويون إذاً تشجيعهم للتجارة من خلال المحافظة على شبكات الطرق البرية ودعمهم لها.

واستكمالاً للعناية بالطرق انتشرت المنازل والخانات* على طرق القوافل واستقبال التجار الغرباء وغيرهم وكانت هذه المنازل تقام إما في أسواق المدن وإما في أطراف المدن وتعددت فيما بعد تسميات هذه الأماكن حيث سميت الخانات أو الفنادق أو القيساريات، وتكاد لا تخلو مدينة ذات أهمية تجارية من وجود هذه النزل، ففي دمشق كانت أشبه بالأسواق الكبيرة حيث يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في الأعلى(٣) ، كما وجد في حلب فنادق كثيرة(٤) هذا كما انتشرت الخانات في مناطق عدة ومنها ما كان على خط القوافل كخان تل السلطان- قرب حلب في الطريق إلى دمشق- حيث كان خاناً ومنزلاً للقوافل(٥)، كما كانت الغولة منزلاً للقوافل وهي تقع على مسيرة يوم بين حمص وقارة(٦) ووجدت في الرملة فنادق وحمامات(٧) وكانت الكسوة أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق متجهة إلى الحجاز أو مصر(٨) . وذكرت عدة قيساريات في فسطاط مصر منها قيسارية العسل المجاورة للمسجد الجامع(٩)، و تخصصت بعض القيساريات ببيع أنواع معينة من البضائع مثل قيسارية هشام(١٠) وقيسارية عبد العزيز بن مروان(١١) وغيرها من القيساريات، ويمكن الاستنتاج من رواية ابن دقماق أنّ بعض القيساريات كان لها أكثر من باب، حتى أنّ بعضها كان له ستة أبواب موزعة حسب اتجاهاتها وهذا يدل على اتساعها وكبر مساحتها(١٢) ، كما نذرت مدينة أشمونيين وطما بالقياسر والفنادق(١٣) .

٢-الطرق البحرية : لقد أدت سيطرة الدولة العربية الإسلامية على البحار والخلجان – البحر المتوسط والأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي- إلى انتعاش التجارة العالمية حيث التقت تجارة الشرق الأقصى، وتجارة الجنوب العربي وتجارة إفريقيا وأوروبا عبر موانئ رئيسة هامة وخطوط ملاحية شغلت دوراً هاماً في التجارة منذ أقدم العصور، فالخليج العربي والبحر الأحمر يعتبران نقطتي وصل بين حوض البحر المتوسط

-
- (١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٦٧٧، وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٤٧، وابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٢٨٥
 - (٢) السيف، عبد الله محمد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الرياض، ١٩٨٣، ص٨٨.
 - * الخان، كلمة فارسية وتعني النزل أو الفندق، ابن منظور، لسان، ج١٣، ص١٤٦، والرازي، مختار ص٨١.
 - (٣) عبد الرؤوف، عصام الدين، الهند، ص٥٢.
 - (٤) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص١٧٧.
 - (٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٢
 - (٦) المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٤.
 - (٧) المقدسي، أحسن ص١٥١.
 - (٨) مالكي، سليمان عبد الغني، طريق حجاج الشام ومصر، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، م٣٠-٣١، ١٩٨٣، ص٢٩.
 - (٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص١٨٥.
 - (١٠) المصدر السابق، ص١٨٦.
 - (١١) المصدر السابق، ص ١٨٥.
 - (١٢) ابن دقماق، الانتصار ج٤، ص١٢٤.
 - (١٣) المقرئزي، الخطط، ج١، ص٦٦٤.

والمحيط الهندي(١) واعتبر الخليج العربي من أهم الطرق الملاحية الناقلة لتجارة الشرق الأقصى والصين، حيث اشتهرت عدة موانئ مطلة عليه بأهميتها، وأولها البصرة العراقية الواقعة عند التقاء دجلة والفرات وحلت محل الإبل التي كان لها دور هاماً، وبذلك يضع البصرة بالمركز الأول للصادرات والواردات، كونها حاضرة العراق في معظم فترات الحكم الأموي، وقد تم وضع فنار يوقد ليلاً لهداية السفن القادمة إلى البصرة على مدخل نهر دجلة(٢)، و أبدى الأمويون اهتماماً بالثغور العراقية، كما قام هشام بن عبد الملك بتوجيه أوامره إلى ولاته بالعراق من أجل تقوية الثغور(٣)، و كان لميناء دارين في البحرين دوراً كبيراً في تجارة الخليج العربي وبخاصة مع الهند(٤)، وقصد التجار ميناء صحار- الذي يعد من أقدم موانئ عمان- وجلبت إليها بضائع اليمن، ومنها تسافر مراكب الصين(٥)، وكانت السفن تتوقف عند صحار ومسقط لتتزوّد السفن بالمؤن والمياه العذبة(٦) وكانت تجارة الهند والصين تسير في المحيط الهندي حتى ساحل عُمان، وتدخل البحر الأحمر عند ميناء عدن المسيطر على مدخل البحر الأحمر من جهة الجنوب(٧)، وقد ازدهرت على البحر الأحمر عدة موانئ منها ميناء الإيلة- العقبة الحالية- والتي كانت في نهاية الطريق البحري في الشمال، و باب بلاد الشام على البحر الأحمر والمحيط الهندي وإفريقيا والشرق، ومنها أيضاً إلى موانئ مصر على البحر المتوسط(٨) من هنا جاءت أهميتها التجارية والإستراتيجية، وأدى موقعها في فم رأس الخليج إلى جعلها تتحكم في طريق المواصلات البرية التي تربط مصر والشمال الإفريقي بالحجاز والجنوب العربي(٩)، كما ازدهر ميناء القلزم(السويس الحالية) وأصبح ميناء مصر الثاني بعد الإسكندرية(١٠) حيث كانت السفن تخرج منها، أيام الراشدين والأمويين، حاملة السلع والأطعمة والحجاج إلى ثغر الجار، الذي كان ميناء المدينة، وجدة التي كانت فرضة مكة(١١) أي ميناءها، ومما ساعد على ازدهار القلزم في العصر الأموي قربها من الفسطاط حاضرة مصر، ومن الشرق الدلتا حيث كان نفوذ العرب في الحوض الشرقي قوياً(١٢). ولقد أصبح البحر الأحمر بعد ازدياد نشاط العرب التجاري بحيرة عربية(١٣)، ومن أجل تنشيط تجارة الشرق عمل الخلفاء الأمويين على إنشاء محطات تجارية على الساحل الشرقي الإفريقي، ويشهد على ذلك ما قام به الخليفة عبد الملك بن مروان من إرسال قوات في سنة (٧٥هـ/٦٩٤م) إلى ساحل إفريقيا الشرقي، حيث اتخذت هذه القوات قاعدة لها في جزيرة لامو - الواقعة في

(١) قلنجي، قدري، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٤٠.

(٢) الخربوطلي، تاريخ العراق، ص ٣٧٦.

(٣) الخربوطلي، تاريخ العراق، ص ٣٧٧.

(٤) العاني، عبد الرحمن عبد الكريم، تاريخ عمان في العصور الإسلامية الأولى، دار الحكمة، لندن، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٧٦.

(٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٥٤.

(٦) عثمان، شوقي عبد القوي، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، تموز، ١٩٩٠، ص ٩١.

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٥٤ و الفقي، عصام الدين، اليمن في الإسلام، ص ٢٥٦.

(٨) يوسف، السيد محمد، علاقة العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٥٣، ص ٤. و العسكري، سلمان ابراهيم، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، مطبعة الميدان، القاهرة، ص ٤.

(٩) غوانمة، يوسف درويش، إيلة (العقبة) وعلاقتها الاقتصادية والتجارية مع الجنوب العربي وبلاد الشام حتى سنة ٦١٠م، المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٣، ص ٦.

(١٠) عبد العزيز، السيد سالم، البحر الأحمر، ص ١٢-١٣.

(١١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣١، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٣٨.

(١٢) السيد سالم عبد العزيز، البحر الأحمر، ص ١٤.

(١٣) القوسي، عطية، تجارة مصر البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٣.

المياه الساحلية بين الصومال وكينيا- بالإضافة إلى إنشاء عدد كبير من الموانئ التجارية على الساحل الإفريقي الشرقي لحماية تجارة الشرق في المحيط الهندي(١) .

وكان لموانئ البحر المتوسط أهمية اقتصادية، ومنها ما كان على الساحل الشامي و على الساحل المصري إذ كانت صور المركز السياسي والإداري وعاصمة لجنوب لبنان، وإحدى القواعد البحرية في العصر الأموي، بينما كانت صيدا ذات أهمية تجارية(٢) ، أما طرابلس فقد كانت من أهم المدن على الساحل السوري في العصر الإسلامي(٣) و لها أهميتها التجارية والبحرية منذ زمن بعيد، إذ تعتبر المنفذ الرئيس للطرق التجارية التي تصلها بأهم مدن الشام، ولذلك اهتم بها الخلفاء كونها الميناء الطبيعي لدمشق وحمص.

كما حافظت الإسكندرية-في الساحل المصري- على مكانتها التجارية العالمية التي كانت لها قبل الإسلام، حيث كانت ملتقى التجارة العالمية، إذ كان يتم تبادل البضائع فيها من قبل شعوب متعددة(٤)، ويتضح اهتمام الدولة الأموية بالتجارة البحرية من خلال الحرص على أمن تلك الطرق التجارية ومن صور ذلك، إرسالها جيش للقضاء على قرصنة كانوا يقطعون الطريق على تلك الخطوط البحرية(٥)، كما اهتمت بتحصين المدن التجارية وتطوير السفن التجارية لتصبح الرحلات التجارية أكثر أمناً وسرعة وأعلى كفاءة مما يشجع على رواج التجارة.

لقد أدى الاهتمام بالطرق البرية والبحرية وكذلك الاهتمام بالخانات والقيساريات إذأ إلى رواج التجارة بالإضافة إلى تأمين هذه الطرق من قبل الدولة الأموية.

(١) القوصي، تجارة مصر، ص ٣٢،

(٢) Hugh Kennedy " The towns of Bilad Al sham the Arab conquest ' , in the fourth international conference on the history of Bilad Alsham the university of sordom Amman, 1983, p9

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) كاشف، سيده، مصر، ص ٣١٠، و أرشيبالد، لويس، القوي، ص ١٢٦.

(٥) الصلابي، محمد علي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٩، ص ٥٤٨.

ثانياً: مظاهر الضعف في المجال الاقتصادي:

- ١ - سيطرة الخلفاء والولاة على الأراضي الخصبة.
- ٢ - سيطرة الخلفاء والولاة على مفاصل التجارة الهامة.

١- سيطرة الخلفاء والولاة على الأراضي الخصبة:

كانت البلاد التي فتحها العرب والتي تكونت منها الدولة العربية الإسلامية في معظمها أرضاً زراعية، قد اختلفت أحكام ملكيتها باختلاف طريقة الفتح، بين الأرض التي فُتحت عنوة و الأرض التي فُتحت صلحاً، ولهذا جاء تصنيف الأرض حسب طريقة فتحها فمنها الخراجية(١) ومنها العشرية(٢) بالإضافة إلى أرض الصوافي وهي التي اصطفاها الإمام لبيت المال من فتوح البلاد إما بحق الخمس فيأخذه باستحقاق أهله له وإما يصطفيه باستطابة نفوس الغانمين عنه(٣) وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب الذي اصطفاها؛ أي جعلها خالصة لبيت مال المسلمين، وسميت أرض الصوافي بالقطائع أيضاً لأنها أقطعت فيما بعد لمن يتعهداها(٤) وتكونت هذه الأرض من هجرة أصحابها عنها عند الفتح، سواء أكان ذلك في العراق أم الشام أم مصر(٥) .

ولقد اختلفت نظرة كل من الخليفين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان إلى هذه الأرض ، فعمر لم يسمح للعرب بامتلاك الأراضي خارج شبه الجزيرة العربية، كي لا ينشغل العرب عن رسالتهم الأساسية -الفتح- بالأعمال الزراعية، وبالتالي لم يسمح بإقطاعها(٦)، أما الخليفة عثمان فقد رأى ضرورة إقطاع أرض الصوافي لمن يعمرها ويقوم بخراجها، وهذا حسب رأيه أوفر لغلتها من تعطيلها(٧) وعلى الرغم من هذين الموقفين المتناقضين للخليفين عمر وعثمان، إلا أنّ الخليفة علي بن أبي طالب لم يُطع أحداً، ولم يغير من وضع أرض الصوافي التي أقطعها عثمان من قبله(٨) . فهل اختلف الأمر مع الأمويين؟ وكيف سيطروا على الأراضي؟

لقد عمل الأمويون على تنمية مواردهم الاقتصادية، وكانت لديهم التزامات من أجل استمالة القلوب بالمنح والعطايا، أضف إلى ذلك ما تتطلبه الخلافة من مصاريف، بعد تحول هذا المنصب في العصر الأموي إلى منصب الفخامة والأبهة، فقد وجد الأمويون السبيل إلى ذلك بامتلاك الأراضي الكبيرة في أماكن متعددة من أقاليم الدولة، وعملوا على امتلاك هذه الأراضي بعدة طرق منها : الإقطاع (المنح) والشراء والإلجاء والمصادرة.

١- الإقطاع: لقد كانت القاعدة الفقهية تنص على أن الإقطاع من أرض الصوافي العامرة يعد إقطاع استغلال فقط وللدولة الحق في استرجاعه، ولا يجوز لمن أقطع إليه التصرف فيه بالبيع أو التوريث، وليس له إلا حق استغلاله مقابل دفع ما يفرض عليه من إجاره، ويقول الماوردي عن أرض الصوافي: " فهذا النوع من العامر لا يجوز إقطاع رقبته، لأنه سار باصطفائه لبيت المال ملكاً لكافة المسلمين فجرى على رقبته حكم الوقوف المؤبدة وصار استغلاله هو المال الموضوع في حقوقه"(٩) ولكن الأمويين لم يلتزموا بهذه القاعدة، فاستولوا على

(١) أبو يوسف، يحيى بن آدم، الخراج، ص٦٣ الخراج، والماوردي، الأحكام، ص١٨٦ ،

(٢) أبو عبيد، الأموال، ص١٨٩-١٩٠، و الماوردي، الأحكام، ص١٩٢ .

(٣) الماوردي، الأحكام ، ص٢٥١ .

(٤) ابن قدامة، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٧، و أبو يوسف، الخراج، ص٥٧ .

(٥) ابن سلام الأموال ، ص٣٩٨ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٠٦ ابن عبد الحكم، فتوح مصر ، ص ٦٨ سيدة كاشف مصر في فجر الإسلام ، ص٥٣ .

(٦) الماوردي، الأحكام ، ص٢٢٦ وصفاء حافظ عبد الفتاح ضياع بني أمية ، ص ١٠ .

(٧) أبو عبيد، الأموال، ص٣٩٩ الماوردي، الأحكام ، ص٢٥١ .

(٨) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص١١٣، والحنبلي، الاستخراج لأحكام الخراج، ص١٩٨، ص١٢٩

(٩) الماوردي، الاحكام، ص٢٥١ .

الكثير من أرض الصوافي ، وامتلكوها ملكية كاملة، كما ورثوها لأولادهم. وسبق للأمويين امتلاكهم للصوافي قبل توليهم الحكم؛ أي منذ خلافة عثمان، حيث فازوا بالنصيب الأكبر من الإقطاعات، وكان هذا مما أخذ على عثمان (١) إذ أقطع معاوية في أثناء ولايته للشام أرض الصوافي التي كانت ببلاد الشام (٢) ، وتُرجم حب السيطرة على الأراضي لدى معاوية بعد حيازته للحكم، بما قام به من أعمال من أجل ذلك ومنها مسح الشامل لأرض الصوافي واستيلائه على الكثير منها، سواء له أم لأهل بيته وأينما كانت هذه الأراضي في الشام أم العراق أم الجزيرة الفراتية أم اليمن (٣) وكان من بين القطنع التي منحها لأهل بيته، والتي كانت في الشام وحصل عليها في خلافة عثمان، أرض أندركيسان بدمشق وقبيس بالبلقاء وجيعانا بحاضر حمص (٤)، كما استنصفي أخصب الأراضي بفلسطين في عسقلان وغيرها من المناطق المعروفة ببطنان (٥) بالإضافة إلى الإقطاعات الكبيرة في شبه الجزيرة (٦) ويضاف إليها إقطاعات مصر ، حيث منح ابنه يزيد قرية كاملة في قرى الفيوم، ولما استعظم الناس ذلك استعادها وردّها إلى ما كانت عليه (٧)، كما أقطع قرية فدك لمروان بن الحكم، مخالفاً بذلك ما سنه رسول الله، حيث اعتبرها معاوية من الصوافي (٨) هذا فضلاً عن قطائع بالمدينة وصوافي شاسعة بالحجاز (٩) ويتضح هنا ارتباط الأحداث التاريخية بعضها ببعض من خلال تداخل الأمور السياسية بالاقتصادية وبالعكس وذلك من خلال سياسة الأمويين فمعاوية كان قبل بيعة يزيد طلب من أمير المدينة مروان بن الحكم استثمار أموال له أرسلها إليه فقام مروان بشراء بساتين له تقع شمالي المدينة وأنفق على إصلاحها من الأموال التي أرسلها له معاوية ولكنه بعد ما ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة ليزيد وما لاقاه من جفاء أهلها قرر إيقاف العطاء لأهلها فقل المال ونتيجة ذلك اضطر أصحاب بعض الأراضي الذين لم يجدوا مالا لاستثمار أراضيهم أن يعرضوا بعض أراضيهم للبيع فاشترها عمال معاوية وبعض الأمويين الآخرين ومع استمرار هذا التضيق الاقتصادي هبطت أسعار الأراضي وازدادت الأسعار وأحس أهل المدينة بالضيق وربما كانت العوامل الاقتصادية إحدى أبرز أسباب ثورة المدينة على يزيد ويتضح السبب المباشر في ذلك من الاستياء من تسلط معاوية على الأراضي واستغلالها لصالحهم، فلقد قام المسؤول عن المزارع التي أنشأها معاوية في المدينة بجمع الغلال من الحنطة والتمر والشعير وكانت تنتج ١٥٠ ألف وسق من التمر و ١٥٠ ألف وسق من الحنطة وكانت الغلال شحيحة في المدينة وأسواقها فاعترضه بعض أهل المدينة ومنعوه من إخراجها فاشتكى هذا المسؤول إلى والي المدينة ليزيد عثمان بن محمد ابن أبي سفيان فأرسل عثمان بعض الجند ليحموه ويعينوه على إخراج الغلال وتطاول المسؤول عن المزارع على الناس وأغظ في القول فلم يحتملوه فضربوه ومن معه من الجند وطردهم ومنعوه من أخذ الغلال (١٠) وهكذا تتبين نتائج سياسة الأمويين في استغلال الأراضي لصالحهم بما أنتجته من

-
- (١) عبد الفتاح، صفاء، ضياع بني أمية، ص ١٤-١٥، والعريني، السيد الباز، الإقطاع في الشرق الأوسط، منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي، مرجع سابق، ص ١٢٠.
- (٢) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٠٦،
- (٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٤.
- (٤) العشي، عمار ، تاريخ بلاد الشام، م ١، ص ٣٩٨.
- (٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٦.
- (٦) البلاذري، فتوح، ص ١٨٩.
- (٧) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٧٥.
- (٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٨٨، والبلاذري، فتوح، ص ٤٤، و الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٢٠٥.
- (٩) الراشد، سعد ، منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة وصلاتها ببلاد الشام، مقال من أعمال المؤتمر الرابع لبلاد الشام، عمان، ١٩٨٧، ص ٤٧١.
- (١٠) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٠.

امتعض لدى الناس وأدى ذلك إلى تراكم الأسباب للثورات على الأمويين.

وورث يزيد عن أبيه ملكياته وأضاف إليها أملاكاً أخرى ، إذ منح ذريته أملاكاً بعذراء (عدرا) إحدى قرى دمشق قرب دوما، ولا يخفى خصوبة أراضي الغوطة، لكن عبد الملك بن مروان أقطع ما تبقى من أرض الصوافي في بلاد الشام لأهله حتى أنه لم يبق منها شيء(١)، وامتاز الوليد بن عبد الملك بحبه للضياع ، التي حاز على الكثير منها(٢) ومما أقطعه لأهله أرضاً بجزيرة العراق وكانت لأخيه سعيد(٣) ، واستولى سليمان بن عبد الملك على قرية خلف عذراء دمشق على بعد أربعة عشر ميلاً، سميت على اسمه السليمانية(٤)، وكما كان لمسلمة بن عبد الملك شهرته العسكرية كان له شهرته العقارية فقد امتلك عدة قرى في الاسكندرون، ونواحي الثغور الشامية المشرفة على أنطاكيا (٥)، لكن عمر بن عبد العزيز أدرك عدم شرعية امتلاك القطنع من أرض الصوافي امتلاكاً تاماً فحضر الأمويين على ردها، وسماها المظالم، كما رد القطنع التي كان قد ورثها عن آبائه للدولة، وعبر عن ذلك بقوله "إن أهلي قد أقطعوني ما لم يكن لي أن أخذه ولا لهم أن يعطوني"(٦)، لكن الأمويين امتعضوا من موقف عمر هذا، وسرعان ما عادوا إلى ما كانوا عليه بعد وفاته، إذ طلب يزيد بن عبد الملك من عمر بن هبيرة الفزاري، واليه على العراق وخراسان، أن يتخذ له قطائع في أرض البصرة، فجعل ابن هبيرة يأتي القطيعة فيسأل عنها فيمسحها ويجوز فضولها ليزيد حتى ضج الناس من ذلك(٧)، وكان هشام بن عبد الملك أكثر خلفاء بني أمية غنى بالثروة العقارية، فقد كانت له ضيعة خالصة قرب الرقة، وقرية أخرى تدعى سلعوس، ونصف قرية في كفر جدّا من نواحي الرها، حيث أقطع لابنته عائشة قطيعة تسمى رأس كيغا(٨) وأحيا أرضاً زراعية واسعة في الرصافة، وحفر نهر الهني والمري(٩) ومنح أولاده إقطاعات واسعة من الأراضي التي استصلحها حسان النبطي(١٠) وكان له أرض تسمى دورين بأرض الجزيرة(١١) بالإضافة إلى إقطاعته الواسعة في منطقة تسمى الرمان أو الرومان(١٢). وتركزت العقارات الشاسعة لمروان بن محمد حول حرّان بين الخابور والبليخ(١٣)، بالإضافة إلى قرية ريسون في الأردن(١٤)٠

وانتهج ولاة الأمويين السياسة نفسها التي اتبعها حكامهم في السيطرة على الأراضي ومنحها لأقربائهم، وخاصتهم، إذ منح الخلفاء ولاتهم حق الإقطاع لمن أرادوا، فزياد بن أبيه ورغم إقطاعاته للعامة، وهي نسبية بحيث لم تتعدّ الستين جريباً مع شرط الإحياء، فإن إقطاعاته له ولأقربائه وللأشراف كانت أكبر من ذلك، فقد

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٠٦.
- (٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص١٩٥. و ظهر مصطلح الضياع في العصر الأموي ومن معانيها الأرض المغلة أو المنازل والحرفة وغير ذلك من معاني التملك، ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٢٣٠.
- (٣) البلاذري، فتوح، ص ١٨٣، وياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٣٢١.
- (٤) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٢٥٣.
- (٥) البلاذري، فتوح، ص١٥٣.
- (٦) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٣٢٩، و الرئيس، الخراج، ص٢٢٧.
- (٧) البلاذري، الفتوح، ص٣٥٩.
- (٨) المصدر السابق، ص١٨٥.
- (٩) قدامة بن جعفر، ص٣١٥.
- (١٠) المصدر السابق، ص١٦٩.
- (١١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢١٩.
- (١٢) الطبري، تاريخ، ج٤، ص١٨٣، الرومان ناحية من نواحي العراق، ياقوت، معجم، ج٣، ص٦٧.
- (١٣) إبليسيف، نيكيتا، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، تعريب منصور أبو الحسن، دار الكتاب الحديث بيروت، ١٩٨٦، ص١٣٩.
- (١٤) ياقوت الحموي، ج٣، ص١١٢.

ركز في منحه القطائع على إخوته وأقاربه، وبعض أنصاره حتى شملت قطائعه عدداً من مواليه، ومما منحه لأقربائه أنه أقطع كل واحدة من بناته ستين جريباً(١) وأقطع آل بكرة المقربين إليه إقطاعات واسعة (٢)، كما كان لعمر بن العاص في فلسطين ضيعة في بيت جبرين تسمى عجلان وله ضيعة السبع القريبة منها(٣) . وأقطع الخلفاء الأمويين ولاتهم وقوادهم الأراضي مكافأة لهم لجهودهم وخدماتهم لهم، حيث أقطع يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياداً أرضاً في حلوان، كما أقطع عبد الملك بن مروان الحجاج الثقفي أرضاً في العراق، وأقطع الحجاج منها من شاء، فأقطع منها لبشار بن مسلم بن عمر الباهلي قطيعة مساحتها بين ٦٢٦,٨ كم إلى ١١٥,٤ كم(٤)، وأقطع سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ما تم استصلاحه من البطيحة، إذ صارت حوزاً فقبضها يزيد بن عبد الملك، ثم أقطعها هشام ولده (٥)، كما حصل عمر بن هبيرة على قطيعة المهلبان، وكانت مساحتها ٢٣٨٨ كم، وكان يزيد بن عبد الملك قد أقطعها إياها(٦) . ولقد حصل خالد القسري على لقب أكبر ملاكي ولاية الأمويين ، ولم ينافسه إلا الخليفة نفسه، إذ بلغت غلة أراضيهِ عشرين ألف درهم ومما يؤثر عنه قوله الذي يعبر عن المدى الذي وصلت إليه أراضيهِ " إنني والله مظلوم ما تحت قدمي من شيء إلا وهو لي " (٧)، حتى أن ابنه يزيد أصبح في أثناء ولاية والده، من أصحاب الملكيات الواسعة لدرجة أن عمه أسد بن عبد الله خشي من سماع الخليفة بأملكه فيكون ذلك سبباً للنقمة على خالد(٨)، وقام عبد العزيز بن مروان بمنح ابنه الأصغر بعض القطائع بمصر(٩) .

٢- الإلجاء: كان لهذه الوسيلة دورها في اقتناء الأراضي من قبل الأمويين المتنفذين، ويرجع هذا النظام إلى ما قبل الإسلام، إلى العصر الساساني والبيزنطي(١٠)، وعاد هذا الأسلوب في العصر الأموي، نتيجة لزيادة الضرائب المفروضة على الأرض الزراعية، وتشدد الجباة وقسوتهم في معاملة صغار الملاك من أصحاب الضياع، مما اضطرهم للالتجاء وطلب الحماية من الأشخاص الأقوياء ذوي النفوذ فيسجلون ضياعهم بأسماء هؤلاء في ديوان الخراج وبذلك يمنع الجباة من التعرض لهذه الضياع- لجباية خراجها- إلا من خلال المالك الجديد الذي غالباً لا يجرؤ الجابي على استعمال القسوة مع مزارعيه، إضافة إلى أن هؤلاء المتنفذين كانوا يدفعون ضرائب أقل من غيرهم، فيستفيدوا من فرق الضرائب المفروضة، وكانت ملكية هذه الأرض تتحول بمرور الزمن إلى ملكية هؤلاء الأقوياء، ويتبدل وضع المالك الحقيقي ليصبح مجرد مزارع فيها(١١) ولقد حصل العديد من الأمراء الأمويين على بعض الأراضي من خلال الإلجاء، حيث ألجأ الكثير من أصحاب الأراضي في منطقة البصرة ضياعهم لمسلمة بن عبد الملك(١٢) وكذلك فعل أهل بالس والقرى المحيطة بها، حيث تعززوا

-
- (١) البلاذري، الفتوح ص ٣٥٧، وياقوت، معجم، ج ١، ص ٤٣٥.
 - (٢) البلاذري، فتوح، ص ٣٩٠، و الروايبضية، زياد، ص ١٧٨.
 - (٣) البلاذري، فتوح البلدان ص ١٤٤،
 - (٤) البلاذري، الفتوح ص ٣٥٥، و حسين، فالح ، تطور ملكية الأراضي وأصنافها في العصر الأموي، بحث مقدم في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، بعنوان الإدارة المالية في الإسلام ، مؤسسة آل البيت عمّان، ١٩٨٩، ج ٢، ص ٤٥٩.
 - (٥) البلاذري، فتوح ، ص ٣٦٢.
 - (٦) المصدر السابق، ص ٣٦٠.
 - (٧) الطبري ، ج ٤، ص ١٧٣ و ١٨٣.
 - (٨) المصدر السابق ج ٤، ص ١٨٥.
 - (٩) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٩٦.
 - (١٠) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٥، و العريني ، السيد الباز ، مصر البيزنطية، دار النهضة العربية، ١٩٦١، ص ١٥.
 - (١١) العريني، السيد الباز ، الإقطاع في الشرق الأوسط، مقال سابق، ص ١٢١.
 - (١٢) البلاذري، فتوح، ص ١٥٥، وقدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣٠٥.

بمسلمة أيضاً(١) .

كما ألجأ أهل المراغة - من بلاد أذربيجان - ضياعهم إلى مروان بن محمد(٢) وبمرور الوقت امتلك الأمويون هذه الأراضي وتوارثوها، ومما يثبت ذلك، مصادرة هذه الضياع من الأمويين عندما أقام العباسيون دولتهم.

٣-الشراء: اعتمد الأمويون على شراء الأراضي الزراعية الخصبة لزيادة ثروتهم العقارية واشتهر معاوية من بين الخلفاء بكثرة شرائه للأراضي الجيدة، وخاصة في الشام لما لها من أهمية خاصة لديه ويعود ذلك لمركزية الشام، ولجودة تربتها، وقد حرص معاوية على انتقاء الأراضي الخصبة، فكتب إلى عامله على خراج فلسطين، يطلب منه شراء الضياع له واصفاً إياها بقوله(٣): " اتخذ لي ضياعاً لا تكن بالداروم المجداب(٤) ، ولا بقيسارية المغراق، واتخذها بمجاري السحاب، فاتخذ له البطنان(٥) من كورة عسقلان" كما رغب معاوية بشراء الأراضي في الحجاز أيضاً، وقد بالغ في دفع ثمنها، وربما هدف من وراء ذلك السيطرة على اقتصاديات هذا الإقليم الذي كان يعد من أهم مراكز المعارضة لحكم معاوية، ولذلك اشترى أرضاً بوادي القرى من أعمال المدينة(٦) واشترى في تيماء ضيعة ودفع ثمنها ستين ألف دينار(٧) وكذلك اشترى أرضاً في المدينة ، كثيرة النخيل غزيرة الماء تعرف بالبغبيغات(٨)، واشترى الأرض التي تعرف بالغابة، وهي بالمدينة ودفع ثمنها مليوني درهم(٩) واشترى العرصة وهي أرض مملوءة بالنخيل والآبار، ودفع فيها ثلاثة ملايين درهم(١٠)، أما في مكة فقد اشترى الكثير من الحواط(١١) الغنية بالمزروعات والنخيل (١٢)، كما قام بشراء أرض زراعية في مصر(١٣) .

وكان من الولاة الذين اهتموا بحيازة الأراضي بواسطة الشراء، الوالي عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته لمصر(١٤)، فعندما أراد تعمير حلوان اشترى من الأقباط أرضاً، مقابل عشرة آلاف دينار(١٥)، واشترى ابنه

(١) البلاذري، فتوح، ص١٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص٣٢٥.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٦.

(٤) الداروم، هي بلدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ، وهي غير التي في البحرين، ياقوت، معجم، ج٢، ص٤٣٢، والمجداب هي الأرض المجذبة ضد المخصبة، الأزهرى، تهذيب اللغة، ج١٠، ص٣٥٥، وابن منظور، لسان، ج١، ص٢٥٤ .

(٥) البطنان ،تعني الأودية أي المواضع التي يستريح فيها الماء، فيكرم نباتها، وهو وادٍ بين منبج وحلب، البكري، معجم ما استعجم ،ج٣، ص٨٧٢، وياقوت، معجم، ج١، ص٣٠٣.

(٦) البلاذري، فتوح، ص٤٨.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ج٣، مطبعة ددار الكتب المصرية، القاهرة، ص١٣٠، وتيماء مدينة في السعودية في وادي القرى على الطريق الذي يربط تبوك بخيبر فالمدينة المنورة إلى الجنوب وتبعد تيماء عن المدينة المنورة ٣٥٠ كم، انظر: شربل، كمال ، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، ص١٤٩.

(٨) البغبيغات هي عدد من العيون احتقرها علي بن أبي طالب بينبع، وتصدق بها، ثم أعطاها الحسين بن علي لعبد الله بن جعفر ليستعين بها على نفقاته على ألا يزوج ابنته ليزيد بن معاوية، فباع عبد الله تلك العيون لمعاوية ، انظر ابن شبة، أبو زيد عمر البصري(ت٢٦٢هـ/٨٧٥م) تاريخ المدينة المنورة، تحقيق، فهيم محمد شلتوت، دار الأصفهاني، جدة، ١٩٧٩، ج١، ص٢٢٠-٢٢١ .

(٩) السمهودي، وفاء الوفا، ج٤، ص١٢٧٥.

(١٠) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٥٦.

(١١) الحائط وتعني البستان وسمي به لأنه حائط لا سقف له، التعاريف، ص٢٦٣.

(١٢) الأزرقى، تاريخ مكة ،ج٢، ص١٧٠.

(١٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص٧٤.

(١٤) المصدر السابق، ص٧٦-٧٧-٨٢-٩٦.

(١٥) الكندي، القضاة والولاة، ٤٩-٥٠ وأبو المحاسن، النجوم ،ج١، ص١٨٥.

الأصبغ قطيعة ابن سندر من ورثته (في محافظة المنيا الحالية)، وعمّرها ، وعُرفت هذه الأرض بمنية الأصبغ وليس في أرض مصر قطيعة أفضل منها(١) . ويبدو أن إقبال الأمويين على توسيع ملكياتهم من الضياع عن طريق الشراء كان سبباً في سماح الخليفة عبد الملك بن مروان، وولديه الوليد وسليمان من بعده للمسلمين بشراء الأرض الخراجية(٢) ونشأ بذلك تحول هذه الأرض إلى أرض عشرية، ونتج عن ذلك فقدان الدولة جزءاً كبيراً من دخلها، من ضريبة الخراج، وهذا ما استدعى تدخل الخليفة عمر بن عبد العزيز، كي يعالج هذا الخلل فأصدر قراره المعروف بوقف تحويل الأرض الخراجية إلى أرض عشرية، واعتبار سنة (١٠٠هـ/٧١٨م) فصلاً لقانونية شراء الأرض ولم يجعل لهذا القرار أثراً رجعياً فما سبق شراءه يبقى على ما هو عليه، وألزم المسلم الذي يشتري الأرض الخراجية بدفع الخراج وليس العشر، ولكن هذا القرار لم يبقَ معمولاً به بعد موت عمر، إذ سرعان ما عاد الأمر إلى ما كان عليه قبلاً من شراء للأرض الخراجية(٣).

٤- المصادر: لقد زادت هذه الوسيلة من أملاك الأمويين العقارية، فبحجة معاقبة الخارجين عن إرادتهم كانوا يصادرون أملاكهم بما فيها أراضيهم(٤) ، إذ صادر الخليفة عبد الملك بن مروان ضياع آل الزبير بعد إخفاق ثورة عبد الله بن الزبير، وقتله في سنة (٧٣هـ/٦٩٢م)(٥) وبذلك استولى على ما كان لهم من ضياع في الحجاز(٦) ومصر(٧) ، كما صادر الخليفة الوليد بن عبد الملك ضياع أبي بكر بن عمرو بن حزم(٨). وقام يزيد ابن عبد الملك بمصادرة أملاك أسرة المهلب بن أبي صفرة ، حيث قبض على إقطاعات وأراضٍ عديدة لهم، كان سليمان قد اقطعها ليزيد بن المهلب في العراق، ومنها ضيعة عباسان التي كانت لزوجة يزيد بن المهلب(٩) ، بالإضافة لضيعة مهلبان التي كانت للمغيرة بن المهلب(١٠) . وصادر هشام بن عبد الملك أراضي خالد القسري، والتي كانت كثيرة في العراق(١١) .

ومهما تكن الأساليب التي اتبعتها الأمويون للسيطرة على الأراضي الخصبة، والمنتجة، فالظاهر أن استئثارهم لهذه الأرض قد تركز بالأخص في الغوطة بضواحي دمشق، وفلسطين، وبالجزيرة، إذ كانت أملاك يزيد وابنه خالد بغوطة دمشق ، كما استأثر سليمان وذريته بفلسطين وحمص، في حين ركّز هشام وذريته على قنسرين والرصافة، وتوسع محمد بن مروان وابنه مروان بن محمد بأراضي الجزيرة وثورها(١٢) .

وهكذا تحول بعض الخلفاء والأمراء والقادة الأمويين إلى رؤوس أرستقراطية، لا تقل خطورة عن أرستقراطية

-
- (١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص٩٦.
(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٠٧، وابن قدامة ، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد(ت١٢٢٣هـ/١٢٢٣م) المغني، تحقيق محمد رشيد رضا، نشر دار المنار، القاهرة، ط٢، ١٣٦٨، ج٣، ص٧٢٣.
(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٠٧-٢٠٨.
(٤) زيدان ، جرجي ،تاريخ التمدن، ج٢، ص١٢٥.
(٥) ابن الأثير، ابن طباطبا الفخري، ص١٢٣.
(٦) الازرققي، تاريخ مكة، ج٢، ص١٧٥.
(٧) ابن عبد الحكم، أفوح مصر، ص٨٢.
(٨) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٥٣٠، وكان أبو بكر تولى المدينة بعد عزل عمر بن عبد العزيز في سنة (٧٩٣هـ/٧١١م)، وكان قاضياً وفاضلاً ، ولاءه عمر المدينة في خلافته، ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٢٠٦.
(٩) البلاذري، فتوح ص٣٦٢.
(١٠) المصدر السابق، ص٣٦٠.
(١١) الطبري ، تاريخ، ج٤، ص١٨٢.
(١٢) العشي، عمار ، تاريخ بلاد الشام، م١، ص٤٠٦.

الفرس أو الروم، قبل الفتح، واستغلوا نفوذهم في السيطرة على الأراضي، ولم يقف التركيز العقاري على الشام والجزيرة فحسب، بل ظهر أيضاً في العراق، إذ كان لمعاوية وابنه يزيد ثم للوليد بن عبد الملك، ولهشام ولمسلمة أراضٍ فسيحة مستخرجة من بطائح السواد، وذات غلات وفيرة، ومصدراً للثراء، على الرغم من اعتبار السواد فيناً ووقفاً لكل الأمة.

٢- سيطرة الخلفاء والولاة على مفاصل التجارة العامة:

لقد كانت لدى بعض الخلفاء الراشدين أرضية تجارية قبل توليهم للخلافة فمنهم من تفرغ لأمر الحكم، ومنهم من استمر بالقيام بالأعمال التجارية، مثل الخليفة عثمان بن عفان الذي اعتبر من كبار تجار المسلمين وأشهرهم في أمور المضاربة^(١) كما كان معاوية بن أبي سفيان تاجراً، فقد عُرف بممارسته للتجارة وقيادته للقوافل التجارية مع والده أبي سفيان بن حرب أكبر تجار مكة قبل الإسلام، ومارس التجارة في أثناء ولايته للشام أيام عمر وعثمان، حيث عمل على المتاجرة بغنائم الجيوش العربية بشرائها وبيعها^(٢)، لكنه ربما وُكِّلَ تجاراً آخرين بأمر تجارتهم، وربما نتج عن استقرار الدولة، وتحول نظام الحكم إلى نظام وراثي، وبالتالي إخراج التجار بشكل عام من دائرة المنافسة على السلطة، وتحكم الخليفة ببيت مال المسلمين، إلى عدم ظهور مشاركة الخلفاء للتجار بشكل واضح بل ربما عن طريق غيرهم، ولكن الأمر غير منوط بولايتهم، الذين مارسوا التجارة، رغم أن عمر بن الخطاب كان قد نبه إلى خطورة ممارسة الوالي أيّاً كان منصبه للتجارة، حيث كتب إلى عماله منشوراً جاء فيه "إنّ تجارة الأمير في إمارته خسارة"^(٣)، وقد نوّه ابن خلدون إلى ذلك في مضمون كلامه عن الفرس الذين كانوا يشترطون على الملك عدم العمل بالتجارة كي لا يؤدي عمله إلى غلاء الأسعار في البضائع^(٤).

وعلى الرغم من ذلك فالمصادر تشير إلى الكثير من رؤوس الدولة ممن كونوا ثروة كبيرة، من خلال ممارستهم للتجارة في أثناء عملهم، فمن الخلفاء كان معاوية وهشام بن عبد الملك الذي تحكّم بالأسواق والأسعار، بحيث كانت تباع غلاته فيها أولاً^(٥). ولقد اعتبر خلفاء بني أمية أنفسهم مخولين للاستفادة من التجارة البحرية- على سبيل المثال- حيث اعتبروا أنهم الأولى بالبحار وما يسير فيها من سفن تجارية، هذا ما ورثه عن عثمان ابن عفان الذي حمى البحر، إذ لم تكن تخرج السفن منه إلا لتجارته^(٦)، ومارس معاوية السياسة الاحتكارية نفسها لتجارة البحر في خلافته^(٧)، ويبدو أنّ هذا الأمر ظلّ شائعاً خلال العصر الأموي، ويتضح ذلك من موقف عمر بن عبد العزيز- الذي وكعادته عمل على تصويب أخطاء الأمويين- حين استنكر ذلك وأرسل إلى عماله في الأقاليم كتاباً يقول فيه: "من عبد الله أمير المؤمنين إلى العمال، وأما البحر فإننا نرى سبيله سبيل البر، قال: الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله، فأذن أن يتجر فيه من يشاء، وأرى أن لا تحول

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٦٠، والسرخسي، الميسوط، ج٢٢، ص١

(٢) الأصبهاني، حلية الأولياء، ج٢، ص٢٩٧، وج٥، ص١٤٣، وابن قدامة المقدسي، عبد الله بن أحمد بن محمد (ت١٢٢٣هـ/١٢٢٣م) الاستبصار في نسب الصحابة الأنصار، تحقيق علي نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢، ص١٩٠.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ج٥، ص٧٥٧.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٨٢.

(٥) الطبري ج٤، ص٢١٧، وابن الأثير، ج٥، ص٥٠، وولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٧٩.

(٦) الديار البكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت١٩٦٦هـ/١٥٥٨م) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، مؤسسة شعبان، بيروت، د.ت، ج٢، ص٢٦٨. وأطلس، محمد، أسعد، تاريخ العرب، دار الأندلس (د.م) ط١٩٧٩، ج٢، ص٣١٩٦.

(٧) اليلادري، أنساب الأشراف، ج٥، ص١٦٧.

بين أحد من الناس وبينه، فإن البر والبحر لله جميعاً سخرها لعباده بيتغون فيها من فضله، فكيف تحول بين عباد الله وبين معاشهم" (١) .

ونظراً لانشغال الخلفاء وعمالهم بأمور الحكم ، فقد اعتمدوا على من يسير لهم أمور تجارتهم، من عبيد أو وكلاء. فقد شاع استخدام العبيد والغلمان في التجارة، والملفت للنظر أن الدولة أقرت كثيراً من التسهيلات وقدمت للعبيد الكثير من الامتيازات في أعمالهم التجارية، و يذكر أنس بن مالك ما يشير إلى ذلك عندما قال: " لا يؤخذ من عبيد المسلمين أو مكاتبهم زكاة إذا تاجروا " وقد أقر ذلك كل من عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جببر ، وسعيد بن المسيب (٢) ، ومن الملاحظ والمثير للاهتمام إعفاء العبد من دفع العشور سواء كان يتاجر بماله أم بمال سيده(٣) ، ويقول السرخسي في ذلك: " إذا مرَّ العبد بمال مولاه يتجر به لم يؤخذ منه العشر، إلا أن يكون المولى حاضراً" (٤) ، وبناءً على ذلك فقد كان إعفاء العبيد من العشور أو الضرائب عاملاً مساعداً في زيادة اقتناء المسلمين للعبيد، واستخدامهم في أعمالهم التجارية. كما اعتمد بنو أمية على الوكلاء لتسيير أمورهم التجارية، فقد وكل معاوية وكيلاً لبيع له أصنام ذهبية في الهند(٥)، ووكّل الخليفة الوليد ابن عبد الملك والي خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي بشراء فلفلًا ليهديه لملك الروم(٦)، كما قام الخليفة هشام ابن عبد الملك بتوكيل واليه خالد القسري ببيع غلاته(٧) ولم يقتصر استخدام الوكلاء على الخلفاء فقط، بل استخدمهم الولاة لتسيير أمورهم التجارية، حيث قام زياد بن أبيه بتوكيل رجلاً من الشام ليتاجر له بستين ألف درهم(٨) .

ولا شك أن الولاة استغلوا مناصبهم ونفوذهم لتسهيل أمورهم التجارية، إذ كانوا هم أنفسهم وكلاء أو غطاء للخلفاء، حيث مارسوا باسمهم التجارة، فكان ذلك لفائدة الخلفاء والولاة بالوقت نفسه، إذ كان بإمكانهم اقتراض الأموال من بيت المال لتوظيفها في تجارتهم الخاصة ، حيث اشتغل بها زياد بن أبيه في البصرة(٩) ويُذكر عن الحجاج الثقفي دفعه الأموال للتجار ليتاجروا بها لصالحه عن طريق المضاربة(١٠)، كما عمل عبيد الله بن أبي بكر- عامل الحجاج على خراسان - على شراء الطعام من بلاد العدو وبيعه لجيش الحجاج بسعر أعلى(١١) وبرزت شهرة محمد بن يوسف الثقفي -عامل الوليد بن عبد الملك على اليمن- بالتجارة وعرف عنه مقدرته على تنمية الأموال في أثناء ولايته ، فكتب الحجاج إلى الوليد بذلك لمحاسبته لكن الوليد كتب إلى الحجاج : إنما أصاب المال من تجارة (١٢).

- (١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص٨٢.
- (٢) ابن مالك، المدونة الكبرى، ج١، ص٢٤٩-٢٧٩.
- (٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٤٩-٢٥٩.
- (٤) السرخسي، المبسوط، ج٢، ص٢٠١.
- (٥) البلاذري، الأنساب، ج٥، ص١٣٧.
- (٦) ابن عبد الحكم، أخبار مصر، ص٧٣.
- (٧) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٧٩.
- (٨) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م١، ص١٧٥.
- (٩) المصدر السابق، نفس الصفحة.
- (١٠) العسكري، الأوائل، ص٣١٩.
- (١١) البلاذري، أنساب، ج٧، ص٣٠٧.
- (١٢) المبرد، الكامل، م١، ص٣٦٣.

وعلى الرغم مما ساهم به الخلفاء والولاة من إنشاء للأسواق التجارية، إلا أنهم استثمروا الكثير منها لصالحهم، بل إنهم امتلكوا معظمها، ومن تلك الممتلكات سوق الصياقلة الذي أقطعه الخليفة عبد الملك بن مروان لسفيان بن الأبرد بن أبي أمامة (ت ٧٠٣/٥٨٤ م) الذي تولى بعض الشام لبني أمية (١) كما كان لهشام بن عبد الملك سوقاً يدعى سوق العتيق بالجزيرة (٢) بالإضافة إلى أسواق أخرى لأقاربه كسوق أم حكيم زوجته في دمشق (٣) وسوق أخيه سعيد (٤) ، كما اشترى أو أسس ولاة بني أمية في أمصارهم أسواقاً منها: سوق البصرة الذي اشتراه عبد الله بن عامر- والي البصرة لمعاوية- ووهبه لأهله وأعفاه من الضرائب (٥) ، وسوق وردان بفسطاط مصر، وكان خاصاً بوردان الرومي مولى عمرو بن العاص وصاحب شرطته (٦) ، وكذلك سوق أسد بالكوفة لأسد بن عبد الله القسري (٧) ، وسوق يوسف بن عمر بن محمد والي العراق (١٢١-١٢٦هـ/٧٣٨-٧٤٣م) والذي كان بالحيرة (٨) . وما تقدم كان غيضاً من فيض استحوذ بني أمية وعمالهم على مفاصل التجارة، فهم أرادوا زيادة مواردهم بشتى السبل، وكانت التجارة سبيلاً منها.

وهكذا يتضح دور الأمويين في تنمية القطاع الاقتصادي بثالوثيته المعروفة وهي الزراعة والصناعة والتجارة، وتجلي الاهتمام بالزراعة من خلال قيام الدولة وتشجيعها أيضاً على حفر الأنهار وشق الترع لإرواء الأراضي، بالإضافة إلى استصلاح ما يمكن استصلاحه من السبخات وخاصة في العراق وبالفعل لقد أعطى هذا التوجه نتائج ملموسة على الأرض تجلت بزيادة الإنتاج الزراعي والذي انعكس على زيادة موارد الدولة، كما قام الأمويون بإجراء مسوحات عدة للأراضي لمعرفة جودة الأرض وقدرتها الإنتاجية، كما شجعت الدولة على نقل أصناف عدة من المزروعات إلى مناطق مختلفة من الدولة، بغرض خلق نوع من التنوع الزراعي يلبي الاحتياجات كافة، ولقد لاحظ الأمويون خطورة الهجرة الكثيفة من الأرياف إلى المدن على القدرة الإنتاجية للأرض فقام الحجاج الثقفي بإعادة المهاجرين إلى قراهم، كما وضع الأمويون في الحسبان ضرورة التمييز بين الأرض المنتجة والأرض غير المنتجة في عملية تحصيل الضرائب فمثلاً في مصر عملوا على مراعاة مواسم فيضانات النيل ، وزيادة في المراعاة كانوا يقبضون الضرائب بالتقسيط.

ونظراً لأهمية الصناعة في تلبية احتياجات الدولة والناس فقد نالت رعاية من الدولة وعلى المستويات كافة، ابتداءً من صناعة الأسلحة بقسميها البرية والبحرية، والتي جاءت استكمالاً لمعارف العرب بالأسلحة الفردية مروراً بالأسلحة الثقيلة والتي طورها العرب حسب الحاجات والمتطلبات وانتهاءً بصناعة السفن التي احتاجت

(١) سفيان بن الأبرد بن قابوس أبو يحيى الكلبي من بني نجار كان بدمشق يوم خطب الضحال بن قيس ودعا إلى بيعة ابن الزبير وكان مع عبد الملك حين حاصر عمرو بن سعيد، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢١، ص ٣٤١. وربما هو سوق الصقالين الذي يقع في النهاية الجنوبية لسوق البيرونية في دمشق القديمة، قتيبة الشهابي، معجم دمشق، ص ٤٣.

(٢) البلاذري، الفتوح ، ص ١٨٤.

(٣) ياقوت الحموي، معجم، ج ٤، ص ٣٥٥، والبغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ٤٣٣، وابن العديم، بغية الطلب، ج ٩، ص ٤١٤٦، وأم حكيم هي بنت يحيى، كانت زوجة عبد العزيز بن مروان فطلقها وتزوجها هشام فولدت له يزيد بن هشام كحالة، معجم النساء، ج ١، ص ٣٨٦.

(٤) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، ج ١٥، ص ١٥٠.

(٥) ابن حبيب، محمد (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) المحبر، تصحيح إبليزة ليختن شنتير ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت. ص ١٥٠.

(٦) ابن سعد ، الطبقات، ج ٧، ص ٥١١، ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٩٤، البلاذري، الفتوح ص ٢١٨، وياقوت الحموي معجم، ج ٣، ص ٢٨٤.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٢٨٤، ياقوت معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨٣.

(٨) البلاذري، الفتوح، ص ٢٨٠ ، وابن عبد الحق، مرصد الإطلاع، ج ٢، ص ٧٥٧.

لإقامة دور خاصة بها تمركزت في مناطق محددة من ساحل الشام ومصر وتونس، وكان لهذه المصانع الدور الريادي في إنعاش القدرة الحربية البحرية من خلال دعمها بالسفن التي شكلت أساطيل عربية ضخمة. واهتم الأمويون بتطوير الصناعات المختلفة منها ما اقتص بالنسيج وبالمعدن والخشب بالإضافة إلى الصناعات الاستهلاكية من غذائيات ومنظفات وحاجات كالمالية كالعطور وأدوات الزينة وغيرها.

ومن الملاحظ أن الدولة لم تضع يدها على كل الصناعات بل كان إشرافها على الصناعات التي تمس سيادة الدولة كالعملة والطرز مثلاً.

ومع حرص الدولة على الاهتمام بالزراعة وتصنيع المنتج إلا أنه كان لا بد لها من إيجاد سياسة اقتصادية من شأنها تسويق الإنتاج، وبالفعل جاء الاهتمام بدعم الأسواق المحلية والموسمية بالإضافة إلى تنظيمها كما فعل الحجاج الثقفي في أسواق واسط، وكذلك الاهتمام بالتخصص في الأسواق من أجل خلق منافسة شريفة، ولإراحة المستهلك من البحث الطويل، كما سعى الأمويون إلى إيجاد سبل من أجل راحة التجار وسهولة عملهم تمثلت بإصلاح الطرق وتأمين الماء والاستراحات عليها بالإضافة إلى تأمين وسائل الراحة في الأسواق داخل المدن. ووضعت الدولة في حساباتها وجود نفوس ضعيفة أمام المال فعملت على معالجة الأمور بحساسة كل محتال غشاش من التجار يحاول غش الميزان أو المادة الشرائية. ولقد خدم تعريب وتوحيد العملة العمليات التجارية وعزز الثقة فيها. لكن النظام الاقتصادي للدولة لم يخلُ من الهفوات فعلى الرغم من أن الأمويين استصلحوا الأراضي وحفروا الأنهار إلا أنهم استولوا على مساحات واسعة من تلك الأراضي وبعده طرق، كما أنهم استولوا على مفاصل التجارة من أسواق وغيرها مستغلين نفوذهم السياسي.

الفصل الخامس: مظاهر القوة والضعف في المجال العلمي:

أولاً: مظاهر القوة في المجال العلمي:

- ١ - تجذير حرية الفكر في المجتمع.
- ٢ - الاهتمام المبكر بعلم الكلام وولادة فكر الاعتزال.
- ٣ - بداية حركة التدوين والترجمة.
- ٤ - الاهتمام المبكر بالعلوم اللغوية والدينية بهدف خدمة التعريب.
- ٥ - الاهتمام المبكر بالعلوم التطبيقية.

لقد قدمت الحضارة العربية الإسلامية منجزات في شتى المجالات، وكانت العلوم المختلفة من أهم ما قدمته هذه الحضارة، فمنذ المراحل الأولى أقبل العرب على العلم والدراسة، وخاصةً أن الإسلام يدعو إلى العلم، كما جعل للعلماء مكانةً مميزة، وصحيح أن العلوم أُنعت في العصر العباسي، إلا أن الفضل يعود إلى الحاضر الأساسي لها، ألا وهو العصر الأموي- على الرغم من عدم القدرة على الفصل الزمني لسلسلة المعرفة- الذي انصهرت في بوتقته عوامل التشجيع، ودوافع البزوغ، فكان فيه بداية التأمل العقلي المتداخل مع الفلسفة والاستدلال سواء أكان في العلوم الدينية أو العقلية، ولم تكن هذه العلوم بمعزل عن محيطها، حيث أدى الاحتكاك والترجمة إلى التأثير والتأثر، فكانت بدايات التدوين التي أنتجت فيما بعد مكتبات تذخر بالعلم والمعرفة، وربما كان انشغال الخلفاء الأمويين بتوطيد أركان دولتهم، وفتوحاتهم العذر في بعض الهفوات المعرفية، للحفاظ على استمرارهم سواء أكانت عن قصد أم غير قصد .

١-تجذير حرية الفكر في المجتمع:

يُعد الإسلام مرحلة فاصلة أساسية في تاريخ الفكر العربي، والدعوة الإسلامية فكرية من أساسها، تعتمد على العقل والإدراك، حيث ركزت على أفكار أساسية محددة، تكرر ذكرها في القرآن الكريم، والتي كان لها الأثر القوي في توجيه الإسلام والمسلمين إلى العلم وأهميته، إذ تعددت الآيات التي تحض على طلبه ونشره، بالإضافة إلى السنة النبوية التي ألحت على طلب العلم والمعرفة .

لقد نال أبناء الأمة العربية الإسلامية ورعاياها حرية رأي ليس لها نظير بين الأمم الأخرى، وتمتع العلماء بمكانة مرموقة لدى الخلفاء والحكام بلغت درجة أن العالم لا يهاب حاكماً إذا تكلم في العلم. وظهرت مع حركة الفتوحات -التي انتشرت في القرن الهجري الأول- حركة علمية اتسع نطاقها تدريجياً بعد ذلك، فانتشرت في الآفاق العربية الإسلامية، حيث جاب العلماء وطلاب العلم العالم العربي .

واهتم العرب في هذه الحقبة بوضع أسس معرفة عربية انطلقوا فيها من روح الدعوة الجديدة المستمدة من القرآن والسنة، فظهرت الدراسات الإسلامية المتمثلة في القراءات والتفسير والحديث والفقه واللغة والمغازي والسير ونشطت مدارس الحُجاج في كل من مكة والمدينة اللتين كان لهما طابعهما المميز وسمتهما البارزة في مختلف الفروع، فبالمدينة تأسست دولة الإسلام واستقرت فرائضه واكتملت تعاليمه، فأهلها صحابة الرسول ومرافقوه وبذلك أصبحت مركزاً لدراسة الحديث الذي تحول إلى علم، كما ظهرت في المدينة أولى مدارس التشريع الإسلامي البحت، أما مكة فقد تميّزت بعلم التفسير أيضاً، بل وكان هذا العلم الأكثر شهرة فيها، ويضاف إلى ذلك دورها في علم الحديث . ولم يكن الأمر مقصوراً على مدارس الحجاز فحسب، بل كان للأمصار الأخرى دورها على يد الصحابة الذين أرسلهم عمر بن الخطاب لتعليم الناس وتفقيهم بالإسلام وتوطيد المعرفة العربية سواء أكان في البصرة، أو في الشام وتكونت حولهم حلقات من القراء، فكانوا روح الحركة العلمية الإسلامية. وتلاههم جيل التابعين الذين كان لهم دور مهم في تطور الفقه، حيث كانت لهم اجتهاداتهم بالرأي، إلى جانب الرجوع إلى الكتاب والسنة بنتيجة المشاكل الجديدة التي حلت بالدولة العربية الإسلامية، والرغبة في اعتماد المفاهيم الإسلامية في مختلف شؤون الحياة، كما ظهر الجرح والتعديل بعد كثرة الأحاديث الموضوعية، كما تطورت الدراسات وظهرت مدارس فكرية وفقهية(١)، وأدى التباين والتطورات والاختلاف في

(١)صقر، نادية حسني، العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩١، ص٢١.

الاجتهاد إلى ظهور أسلوبين في الفقه، فقه الرأي والفقه بالمأثور (١) وبدأت دراسة الحديث بين الصحابة وتركزت على السنة النبوية، وبدأ تسجيل وحفظ الحديث بصورة أولية أيام الصحابة والتابعين ثم انتقلوا إلى تدوين وجمع الأحاديث في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري (٢) .

أما الدراسات اللغوية فقد بدأت في وقت مبكر لأهمية اللغة في قراءة القرآن بصورة صحيحة، كون اللغة العربية هي لغة القرآن، وديوان العرب، فاللغة هي مقياس حضارة الأمة وميزان رقيتها وأجل مظاهر عظمتها، فمنذ اقبل الدعوة كانت العربية مرآة عاكسة لرقى متحدثيها. إذ يشهد الشعر الجاهلي ومن بعده الإسلامي على خير مفردات وأسلوب. وقد أدى انتشار الإسلام ودخول غير العرب فيه، وتزايد عدد السبايا في البيوت العربية أيضاً إلى ظهور اللحن حيث صار النشئ الجديد يسمع في التعبير عن المقاصد أساليب غير ما كانت تعبر به العرب ثم يسمع أيضاً أساليب العرب، فاختلط الأمر عليه وتسرب الخطأ على الألسنة، ولذلك وجد العرب ضرورة وضع قواعد للغة تحميها من الخطأ، وأدى ذلك إلى نشوء علم النحو العربي، وازدهرت فيه مدرستي الكوفة والبصرة، وكان أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٧٠هـ/٦٨٦م) من أوائل واضعي علم النحو في البصرة (٣)، وتبع النحو وضع أسس للمعاجم العربية، حيث أدى استخدام مفردات دخيلة على العربية إلى اختلاط المفردات وتشويهها، الأمر الذي استدعى البحث عن أصول المفردات ومعانيها، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ/٧٨٦م) السياق في جمع أول معجم للغة العربية (٤)، وبهذا تكون قواعد اللغة العربية قد أرسيت في هذا العصر .

لقد أدرك العرب أهمية علم التاريخ فخصّوه بجانب كبير من اهتمامهم لميلهم إلى معرفة مصائر الامم الماضية وحوادث الأزمان السابقة، وربما كان للآيات الواردة في القرآن الكريم والتي تتحدث عن مجتمعات غابرة دوراً بارزاً فما هي العلاقة بين التاريخ والسياسة في العصر الأموي؟ وكيف اهتم الأمويون بالتاريخ ولماذا؟ تبرز العلاقة واضحة بين التاريخ والسياسة من خلال اهتمام الخلفاء بمعرفة الأخبار الماضية والاستفادة منها في طريقة حكمهم فيها هو معاوية بن أبي سفيان يستقدم المؤرخين أو الإخباريين إلى بلاطه لسؤالهم عن الأخبار الماضية، ومن أولئك عبيد بن شريفة (ت ٦٧٠هـ/٦٨٦م) (٥) الذي استقدمه من صنعاء ليسأله عن ملوك العرب والعجم وسبب اختلاط الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد (٦)، وأمر معاوية بتسجيل ما يقول، يضاف إلى ذلك رغبة معاوية الدائمة بسماع الأخبار في كل ليلة ضمن برنامج اليوم، كي يستفيد من تجارب الملوك في سياسته، وهذا يدل على بعد نظر معاوية السياسي فمعرفة تجارب الملوك والأمم تصقل شخصية الحاكم،

(١) السائيس، محمد علي، نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، مجلد البحوث الإسلامية، ١٩٧٠، ص ٧٨، وأمير عبد العزيز، أصول الفقه الإسلامي، دار السلام، ٢٠٠٥م، ط ١، ١٩٩٧، م ١، ص ١٥-١٦ .

(٢) القطان، مناع، تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٩، ص ٣٨٧، و الدسوقي، محمد والجابر أمينة، مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي، دار الثقافة، قطر، ١٩٩٩، ص ١٤٣-١٤٤ .

(٣) اليزاز ابن أبي هاشم، عبد الواحد بن عمر بن محمد (ت ٣٤٩هـ/٩٦٠م) أخبار النحويين، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط ١، ١٩٨٩، ص ٢٠، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٨٣، و محمد، محمد الشاطر أحمد، الموجز في نشأة علم النحو، مكتبة الكليات، الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٣٨ .

(٤) الفراهيدي، هو أبو عبد الرحمن كان ذكياً استنبط من العروض ومن علل النحو ما لم يستنبطه أحد، انظر: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م) طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ص ٤٧-٥١ .

(٥) عبيد بن شريفة : راوية من المعمرين من اليمن ويعتبر من أوائل المصنفين من العرب أدرك النبي، ابن خلكان، وفيان، ج ٤، ص ٤١٧ .

(٦) النديم، محمد بن اسحق أبو الفرج (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٣٢ .

وكذلك فعل ابنه يزيد الذي اهتم بمجالسة الإخباري علاقة بن كريم الكلابي الذي كان عارفاً بأيام العرب وأخبارها ، ويتضح اهتمام الساسة الأمويين بالتاريخ من خلال حرصهم على استقدام الإخباريين ومنهم حماد الراوية ووهب بن منبه(١) الذي اختص بالإسرائيليات وبتاريخ اليمن، ويتضح الاهتمام بالتاريخ كونه يشمل بالإضافة إلى الأخبار الأنساب والسيرة والمغازي والفتوح ، فالأنساب كانت المحور الأساسي في تدوين الدواوين، وهنا ظهرت أهمية النسابة الذين برز عدد كبير منهم ومن بينهم دغفل بن حنظلة السدوسي، والذي كان أعلم أهل زمانه بالأنساب ، واعتمد عليه معاوية في معرفة أنساب العرب (٢) ومع أن أوائل خلفاء بني أمية ابتعدوا عن الخوض في السير والمغازي لأسبابهم الخاصة لكنهم ومع ذلك اهتموا في معرفتها كمروان بن الحكم الذي كان يحضر مجلس حكيم بن حزام ليسمع منه أخبار المغازي، وكان عبد الملك يطلب أخبار المغازي من التابعين وكان على صلة بعروة بن الزبير راوية التاريخ وكذلك اتصل عروة بابنه الوليد ويعمر بن عبد العزيز كما اهتم هشام بن عبد الملك بمعرفة التاريخ حيث وضع لابن شهاب الزهري(٣) كاتبين يكتبان عنه مدة سنة ، ويتضح الاهتمام بالتاريخ من خلال الاهتمام بتدوين المؤلفات وترجمة الكتب لحفظها ومعرفة تاريخ الأمم قدر الإمكان، لقد تبلور في هذا العصر إبدأ الشكل الأساسي للتاريخ والحق إن تاريخ العرب والمسلمين مدين بالاهتمام به وبروايته وتدوينه لسيرة الرسول الكريم وأخبار غزواته، وكانت المدينة ومكة المركز الرئيس لنشاط هذه الحركة، رغم تفوق المدينة في هذا المجال(٤) ،فالسيرة والمغازي كانت النواة الأولى للتاريخ، التي لاقت اهتماماً بالغاً وتطوراً ملحوظاً (٥) . ولقد نتج عن احتكاك العرب بغيرهم من الروم والفرس الشعور بالرغبة لمعرفة علوم ومعارف هذه الأمم، فلجأوا إلى الترجمة، وإن كانت بدايات محدودة، إلا أن لها أهميتها الخاصة في تاريخ حركة الترجمة، وفي الحضارة العربية، بصفة عامة ، إذ شكلت أول نقل في الإسلام، بل مثلت الاتجاه نحو نقل العلوم القديمة العقلية تمهيداً لما سيكون بعد ذلك من اتساع حركة الترجمة ثم ما تبعه من حركة التصنيف والتأليف عند المسلمين . ولقد اهتم الخلفاء الأمويين أنفسهم بعمليات الترجمة مثل عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وشجعوها.

وشهدت تلك الحقبة نشأة العلوم التجريبية لدى العرب، والتي استقت بعض مهاراتها نتيجة التفاعل الحضاري، ولقد اهتم العرب في بداية نهضتهم الثقافية والعلمية بعلم الكيمياء(٦) وعلم الطب(٧) ولم تقتصر الحركة الفكرية التي نشأت في صدر الإسلام على العلوم الدينية البحتة، بل امتزجت هذه المعارف بالفلسفة لتعطي فلسفة عربية إسلامية ، فقد تلقى العرب الأوائل أحكام الشرع في صدر الإسلام بتهدب وإعظام، وعقدوا عليها قلوبهم بلا بحث ولا انتقاد، غير أن من جاء بعدهم خالفهم في ذلك، وأكثروا من مجادلتهم حتى في عقائد الدين فنشأ عن هذا ما عُرف بعلم الكلام، والذي يبحث في المسائل العقائدية، وتأثر هذا العلم بأفكار من اعتنق

- (١) وهب بن منبه: الصنعائي أبو عبد الله مؤرخ كثير الإخبار عن الكتب القديمة عالم بأساطير الأولين بعد من التابعين أصله من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن وأمه من حمير ولد ومات بصنعاء، ابن خلكان، وفيات، ج٦، ص٣٥.
- (٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٣، ص٣٢٩.
- (٣) الزهري: هو محمد بن مسلم بن عبد الله من بني زهرة بن كلاب من قريش ويكنى أبي بكر أول من دون الحديث وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء وتابعي من أهل المدينة، الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٩٧.
- (٤) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٤٠، وابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٨٥، والسيوطي، طبقات الحفاظ، ص٢٩.
- (٥) الدوري، عبد العزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب ، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠، ص٧١.
- (٦) صقر ، نادية حسني ، العلم ومناهج البحث، ص٢٣. و الشكيل، علي جمعان، الكيمياء في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص٣٩.
- (٧) الشكيل، المرجع السابق، ص٣٩.

الإسلام وكان له خلفيات دينية سابقة، كاليهودية والمانوية والزرادشتية والصابئة.. (١) بالإضافة إلى التأثير بالفلسفة المسيحية، التي كان لهم جدلهم حول طبيعة المسيح وأمور كثيرة في العقيدة المسيحية. فالأحزاب السياسية والفكرية وحتى الأفراد العاديين إذاً تحدثوا بما اعتقدوه بدون خوف من السلطة الزمنية فالمعارف -ومهما كانت - طُرحت في الساحة الأموية ولم تضع الدولة الأموية قوانين أو ضوابط معينة تحدُّ من خلالها هذه الحرية، بل إنها سعت إلى انتشار الأفكار وفي شتى الاختصاصات ، فبعض العلوم الدينية كالمغازي على سبيل المثال لم يكن الأمويون على اتفاق معها -نظراً للخلفية التاريخية للأمويين قبل الإسلام- لكنهم لم يمنعوا انتشارها ، وحتى الأدب وبشكل خاص شعر الهجاء الذي قيل في معاوية أثناء حروبه مع الإمام علي، فقد قوبل بالرضا ، وهذا إن دل على شيء يدل على مدى الانفتاح الذي لاقتته المعارف في هذا العصر وإن كانت مخالفة لهم.

٢- الاهتمام المبكر بعلم الكلام وولادة فكر الاعتزال:

يعد علم الكلام فلسفة العرب على الحقيقة، تلك الفلسفة التي اتسمت بالأصالة والإبداع، وارتبط منذ نشأته ارتباطاً وثيقاً بالمشكلات الدينية والسياسية والثقافية التي أفرزها الواقع العربي في تطوره، وحاول من خلال اجتهاداته حول العقيدة أن يقدم حلولاً لهذه المشكلات، كما أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن العقيدة، وقد أبلى في ذلك بلاءً حسناً، واقتضت مهمته أن يستعين بكل معرفة ممكنة لإبراز ما كمن في الدين من قيم إيجابية تقف في مواجهة هذه التيارات العاتية، واستطاع بحق أن يكون من خلال اجتهاداته حول العقيدة "فلسفة العقيدة" التي اتسمت بالعقلانية في كثير من جوانبها.

و من أجل التعرف على ماهية هذا العلم وبواكيره لا بدّ من وقفة تشريحية لهذا العلم:

١- تعريف علم الكلام وأساس منشأه:

لقد تبلورت عدة آراء في تعريف علم الكلام تمحورت حول إسناده إلى الدين وأصوله، وفي أن مهمته تقف عند حد الدفاع عن العقيدة(٢) بإثبات أصولها.

ومن أشهر تعريفات علم الكلام ما عرفه به الفارابي(ت٣٣٩هـ/٩٥٠م) والذي ذهب فيه إلى أن علم الكلام هو صناعة وهو ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرته الأراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملّة، وتزييف لكل ما خالفها بالأقوال(٣) كما عرفه الإيجي(٧٥٦هـ/١٣٥٥م) بأنه علم يقتدر معه إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى محمد، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علم الكلام(٤)، وعرفه ابن خلدون(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) بأنه العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين على الاعتقادات من مذاهب السلف

(١) أحمد، علي، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٧، ص٦٣-٦٤.

(٢) الفارابي، أبو النصر محمد بن محمد(ت٣٣٩هـ/٩٥٠م) إحصاء علوم الدين، تحقيق علي بو ملح، دار الهلال، بيروت، ط١ ١٩٩٦، ص١٣١-١٣٢، والغزالي، الطوسي، محمد بن محمد (١١٥٥هـ/١٥٥٠م) المنقذ من الضلال، تحقيق سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الاسكندرية، ص١٣، وسعد الدين التفتازاني، مسعود بن عمر(ت٧٩١هـ/١٣٨٨م) شرح العقائد النسفية، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص٩-١١ والرازي، محمد فخر الدين(٦٠٦هـ/١٢٠٩م) التفسير الكبير، القاهرة، ط١، (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) تفسير سورة البقرة آية١٩-٢١.

(٣) الفارابي، إحصاء العلوم، ص ١٢١.

(٤) الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد الشيرازي،(ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) المواقف في علم الكلام، عالم الكتب ، بيروت، ص٨.

وأهل السنة(١) كما شاعت عدة آراء لسبب تسميته بعلم الكلام، تلخصت باعتباره بمنزلة المنطق من الفلسفة ربما لأن أهم أجزائه كانت مسألة الكلام التي تصل إلى حد المشاجرة فيورث ذلك قدرة على الكلام في شرعيات الخصم(٢) أو لأن هذا العلم يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، أو لأن أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله أهو مخلوق ، أم قديم؟ أو ربما كان مرد التسمية إلى السلوك الذي سلكه المتكلمون وهو منهج جدلي قائم على مناظرة الخصوم وفيه كان الكلام مادة المناظرة .

٢-عوامل نشأة علم الكلام: هل أثرت السياسة في انبثاق الأفكار الكلامية ؟ وهل كان للاحتكاكات الثقافية والدينية مع الشعوب الأخرى دور في تعزيز تلك الأفكار؟ وما هو دور السياسة الأموية في نشوء بعض الفرق ؟ وكيف تعامل الأمويون مع الفرق الكلامية؟ لقد ارتبط علم الكلام في نشأته الأولى بتلك المشكلات التي تفجرت في صدر الإسلام، وفرضت نفسها على الواقع الإسلامي، وهي في أغلبها مشكلات تفجرت لأسباب سياسية اجتهد المتكلمون الأوائل في تقديم حلول لها-أي للمشكلات، معتمدين في ذلك على فهم النصوص الدينية والاستناد إليها في تدعيم اجتهاداتهم، ومن طبيعة الاجتهاد التعدد فيما يُطرح من حلول، فبمقدار التنوع في الفهم، تتنوع الاجتهادات...فكانت هذه الاجتهادات هي البواكير الأولى لعقائد الفرق الكلامية التي تمثل علم الكلام، والتي بدأت في التكون والظهور منذ صدر الإسلام. وكانت قضية مقتل الخليفة عثمان وما تبعه من مسألة التحكيم والحروب بين الإمام علي ومعاوية والتي تمخضت عنها مسألة الإمامة والحكم قد فتحت الباب لكل فريق بأن يؤيد آراءه بالأدلة النقلية والعقلية(٣)، وخلقت هذه المشكلات خلافات أخرى حول النظرة إلى مرتكب الكبيرة وهي وإن كانت فقهية في جوهرها إلا أنها اتخذت بعداً سياسياً وارتبطت بطرفي معركة الجمل وصفين، وأيهما على حق وتوصيف رأي كل فريق من فريقَي الحرب، وهذا ما أدى إلى طرح سؤال حول مدى حرية الإنسان في أفعاله هل هي محتومة عليه أم هي باختياره؟

وُطرح كل هذه التساؤلات في ذلك الوقت المبكر وألفت بظلالها على تماسك الأمة، وكانت الإجابة عنها هي النقطة الأساسية لظهور الفرق والمذاهب الكلامية، إذ كانت هي البواكير الأولى للفكر الكلامي والمادة الأولى التي كونته. وعلى هذا فظهور علم الكلام جاء تلبيةً لحاجات المجتمع، فالهاجس الأكبر كان مفهوم أفعال الإنسان هل هي بحريته المطلقة أم بجبر محتوم؟ أم أن الأمر وسطي بينهما؟ كما قال الحسن البصري " كل شيء بقضاء الله وقدره إلا المعاصي" وكان الحسن قد مر بلص مصلوب فسأله عن سبب سرقة ففسر له ذلك بأمر الله فأجابته بأن ذلك كذب لأن الله لا يقضي على الإنسان بالسرقة ولا بالصلب(٤).

وبما أن علم الكلام يستند في استرساله على الفلسفة الأمر الذي سمح لتيارات عدة فكرية ودينية بالدخول على خطه، والتي أدت إلى إغنائها وتعددت هذه التيارات فمنها المسيحية المشبعة بالفلسفة اليونانية والتي مثلها

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٥٨ .

(٢) الإيجي، المواقف، ص ١٦، و التفتازاني ، شرح العقائد، ص٩

(٣) أبو ريان، محمد علي ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص٢٤٨. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣، ص٢٠٦، و المرزوقي، جمال ،دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١، ص٢١.

(٤) الهمذاني، القاضي عبد الجبار(ت٤١٥هـ/١٠٢٤م) المنية والأمل، جمعه أحمد بن يحيى المرتضى، تحقيق عصام الدين محمد علي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص٢٦.

يوحنا الدمشقي(١) أو من الديانات الأخرى كاليهودية والمانوية والزرادشتية وغيرها ممن أسلم أتباعها، ولجأوا إلى تفسير بعض الأمور بالتأثر بما كانوا عليه من أفكار سابقة، الأمر الذي أدى بالمفكرين إلى الاضطلاع بواجب المناظرة والنقد للرد على من يناظرهم، ونتج عن ذلك حدوث تداخل بين علم الكلام والفلسفة، لأن هدف الفلسفة معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه أما علم الكلام فهدفه تصحيح العقائد الدينية(٢) وبذلك فالقرآن هو المصدر الأساسي لعلم الكلام وفيما بعد دخلت مؤثرات أجنبية أدت إلى إنماء مباحثه وتطوره بالإضافة إلى تداخل الأمور السياسية أيضاً.

وبذلك لا يمكن فصل الواقع السياسي والثقافي والديني والاجتماعي عن منشأ العلوم وبخاصة علم الكلام، فلقد أغنى ذلك الواقع علم الكلام فنشأ متشابكاً ومتداخلاً ، ودعا أصحاب الفرق الكلامية بمجملها إلى العدل وربما جاء ذلك رد فعل على سياسة الأمويين التي رأى فيها أصحاب تلك الأفكار نهجاً استبدادياً، والمحرك لآرائهم وإن أيد الأمويون آراء بعضها كالجبرية كونها تخدم مصالحهم في الحكم إذ تتفق مع ما يذهبون إليه من أن الله قدر أن يصلوا إلى الحكم(٣) واعتمدوا في ذلك على الآيات والأحاديث التي تخدم هذه الفكرة ومن ذلك الآية الكريمة التي تقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسولَ وأولي الأمر منكم ﴾(٤) وكذلك الحديث الشريف الذي يقول: "من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع ، وإن جاء أحدٌ ينازعه فاضربوا عنق الآخر(٥) . فالأمويون إذأ روجوا لفكرة الجبر أكثر من غيرها من الأفكار وعلى الرغم من ذلك فقد انطلقت الآراء الكلامية بمختلف اشكالها فبالإضافة إلى الجبرية كان هناك القدرية والمرجئة والمعتزلة وهنا لا بد من الوقوف عند كل منها لرؤية معتقداتها وروادها والبداية مع:

أ- الجبرية: التي قال أصحابها بنفي إرادة الإنسان عن أفعاله وبأنه مجبر مثله مثل أي شيء في الطبيعة وأن الله ليس له صفات كصفات الإنسان(٦) وبأن القرآن مخلوق ومن رواد هذه الفرقة الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ويتضح تشجيع الأمويين لهذه الفرقة الكلامية من خلال تسمية مروان بن محمد بمروان الجعدي نسبة إلى الجعد بن درهم(٧) حيث كلفه محمد بن مروان بتأديب ولده مروان وقد انتشر هذا المذهب في الشام وفي دمشق بالتحديد والتي سكنها الجعد لكنه عندما غالى في آرائه تم قتله على يد خالد القسري في الكوفة التي هرب إليها(٨) وربما أراد الأمويون من قتله الظهور بمظهر المدافعين عن الدين كونه كان يقول أن موسى لم يكلم الله وأن

(١) كان والده سرجون الذي احتل مكانة بارزة لدى خلفاء بني أمية، وولد يوحنا في دمشق ولقب بدفاق الذهب وذلك لما تحويه مؤلفاته من كنوز أدبية وروحية انظر جوزيف نصر الله، منصور بن سرجون المعروف بالقدسي يوحنا الدمشقي، ص٤٣ و٨٠. و غوريه لويس، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، تعريب صبحي الصالح وفريد جبرن دار العلم

للملايين، بيروت، ١٩٦٧، ص٣١ Seal, Morris; Muslim Theology Luzic and company Limited

London ,1964, p32

(٢) المظفر، محمد رضا ، الفلسفة الإسلامية، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٧٧.

(٣) Macdonald,(Duncan.b) ; Development of Muslim theology, Jurisprudence and constitutional theory .London, 1927,p131

(٤)سورة النساء، آية ٥٩.

(٥) البيهقي، السنن الصغرى، ج٣، ص٢٩٣.

(٦) الشهرستاني، الملل والنحل، ١٩٩ ، ص٣٦. ، وابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تعليق، أبو مازن المصري وكمال سعيد فهمي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص١١٨.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٩، ص٢١٩، الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٣١٩، و النديم، الفهرست، ص٤٧٢ ، و المقدسي، البدء والتاريخ، ج٦، ص٥٤، وابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٢.

(٨) ابن الأثير، ج٤، ص٤٦٦ ، و ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣٠٧١

ابراهيم ليس خليل الله ، أما الشخصية الثانية التي قالت بالقدر فهي الجهم بن صفوان والذي يبدو أنه تطرف في مقالة الجبر، كما قال بأن الجنة والنار تقنيان(١) ويبدو أن الأمويين تركوه إلى أن حمل السلاح ضدهم وشارك الحارث بن سريج في ثورته ضد الأمويين في خراسان عند ذلك تم قتله مع الحارث في سنة (١٢٨هـ/٧٤٥م)(٢) فالأمويون إذاً وقفوا ضد من اتخذ من فكر الجبر وسيلةً للوقوف ضدهم .

ب-القدرية: فيبدو أنها جاءت رداً على الجبرية إذ قال أصحاب القدرية إن الإنسان حرٌّ بأفعاله ولو أنه كان مجبراً عليها لما كان هناك حساب(٣) وبرهنوا على ذلك من خلال إيراد بعض الآيات القرآنية التي تؤكد أفكارهم وكان من رواد القدرية معبد الجهني وغيلان القدري والسؤال هنا ما هو رد الأمويين عليهم؟ لقد ترك الأمويون أصحاب هذه الأفكار على حريتهم نوعاً ما والدليل على ذلك تنقل معبد الجهني وهو من أوائل القائلين بالقدر (ت٨٠هـ/٦٩٩م) بين البصرة ودمشق والمدنية(٤) وكذلك إقامة غيلان الدمشقي رائد القدرية في دمشق والذي أنكر تصرفات الأمويين الذين وقفوا ضده عندما اصطدم بسياستهم ، حيث رأى أن الإيمان ليس بالفطرة إنما يأتي بعد إدراك واستدلال وأن الإمامة تصلح في غير قريش ، وربما هيأ أصحاب الإرادة الحرة الجو للنقاش والاستفسار وطرح ماهية الأشياء لفهمها، أي أن هذا الفكر هو بمثابة الإرهاصات الأولى لفكر الاعتزال.

ج-المرجئة: إذا كان ظهور القدرية رداً على الجبرية فإن المرجئة جاءت رداً على الاثنتين معاً أو ربما كانت حداً فاصلاً بينهما فالإرجاء هو بمعنى التأخير، أي أن حساب الإنسان على أفعاله يؤجل إلى يوم الحساب، وأن الله هو وحده من يحاسب، وتشدق أصحاب هذا الحزب بأرائهم هذه كحل وسط لما عانتها الأمة من مشكلات سياسية سببت شرخاً فيها ، بين مؤيد ومعارض لما حدث بعد مقتل عثمان، فجاء موقف المرجئة متوازناً بين الشيعة الذين رفضوا الانضواء تحت راية الخلافة، وبين الخوارج الذين تشددوا في إيمانهم معتبرين أنهم وحدهم المؤمنون ومن هنا رفض المرجئة السيف حلاً للمشكلات، وجعلوا اختيار الخليفة حقاً مشروعاً عن طريق الشورى(٥) وفضل المرجئة الابتعاد عن الخلافات السياسية، ونظروا إلى حكام بني أمية -حتى من نُسب إليه الفسق منهم- أنهم خلفاء شرعيين ما دامت لهم بيعة . ولقد بالغ المرجئة في آرائهم والتي جاءت رداً على الفرق الأخرى، وذلك بإخراج العمل من دائرة الإيمان، أي أن أفعال الإنسان لا تزيد أو تُنقص من إيمانه، وأن الإنسان الذي يؤمن بالله واليوم الآخر هو مؤمن مهما ارتكب من خطايا(٦) . ولقد أسهمت خلافاتهم التي دارت حول تعريف الإيمان في النظرة إليهم، وعلى هذا تم تقسيمهم إلى أكثر من تيار: الأول: قال بالإرجاء والإيمان والقدر وسُموا مرجئة قدرية، و الثاني قال بالإرجاء وبالإيمان وبالجبر في الأعمال على مذهب الجهم بن صفوان،

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص١٨٦، و محمود، عبد الحليم، التفكير الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ص١٥٣-١٥٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٩٥، و البغدادي، الفرق بين الفرق، ص١٨٦. وابن الأثير، ج٥، ص١٨.

(٣) أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص٢٨٣، و غلاب، محمد ، ينابيع الفكر الإسلامي وعوامل تطوره، المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية، القاهرة، ص٣١،

(٤) أبو زهرة ،-محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية(في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية) دار الفكر العربي، القاهرة، ص١٠٦.

(٥) هويدي، يحيى، دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩ ص٩٧.

(٦) هويدي، دراسات، ص٩٨، و أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص٢٨١ نقلاً عن ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الظاهر(ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد ابراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٦، ج٢، ص٢٦٦.

والثالث خارج عن القدرية والجبرية، أي مرجئة خاصة بأرائها(١) وكان ممن قال بالإرجاء في العصر الأموي: الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب(ت ٧٩٩هـ/١١٧م) حيث قيل إنه أول من قال به إذ كتب كتاباً إلى الأمصار يدعو فيها إلى الإرجاء، ووضح معنى الإرجاء عنده ولم يؤخر العمل على الإيمان، بل قال: "أداء الطاعات وعدم ترك المعاصي فليس من الإيمان ولا يزول بزوالها"(٢)، ومن الذين قال بالإرجاء أيضاً بعض الذين حملوا السلاح ضد الأمويين، إذ وجد هؤلاء الثوار في فكر الإرجاء صيغة يشجبون بها فكراً موقفاً للدولة الأموية، فكان ذلك بدء النشأة لتيار المرجئة، وللإرجاء في صفوف المعارضة لبني أمية بعد أن نشأ فكراً في صفوف هذه الدولة وأنصارها، واعتُبر سعيد بن جببر من المرجئة الجبرية، والذي شارك ابن الأشعث في ثورته، فقتله الحجاج الثقفي(٣) ، كما كان الجهم بن صفوان من مفكري الإرجاء وكان معه الحارث بن سريح في الثورة التي قاموا بها ضد الأمويين، الذين قتلوهم(٤) لأنهم حملوا السلاح ضدهم.

د-المعتزلة وبداية ظهورهم: يُقصد بالمعتزلة جماعة من المفكرين نشأت في البصرة منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري وانتشرت حركتهم انتشاراً سريعاً بلغ الذروة في عهد الخلفاء العباسيين، أي إن هذه الأفكار أِينعت في العصر العباسي إلا أن بذورها قد زُرعت في بيئة أموية محضة.

ولقد أسهم هؤلاء في توطيد دعائم علم الكلام وإغنائه، إذ صاغوا مشكلات وعالجوها معالجة جادة هي أقرب إلى روح التفلسف.

ويتضح الارتباط بين اسم المعتزلة وبين نشأتهم، فجميع الروايات التي تبرر تسميتهم وبالتالي ظهورهم تنصب حول رأيهم في مرتكب الكبيرة هل هو مؤمن بالمطلق أم كافر بالمطلق، وعلى إثر هذا الرأي اندرجت عدة روايات تتمحور في اعتزال واصل بن عطاء وجماعته حلقة الحسن البصري(٥)

بينما علل البعض سبب التسمية والظهور إلى أصل سياسي وهو اعتزال البعض للحرب التي دارت بعد مقتل عثمان، وما تلاه من نشوء فرقتي الشيعة والخوارج، إذ اعتزل بعض الصحابة الحرب ولم ينحازوا إلى أي طرف من المتصارعين(٦) .

وبغض النظر عن سبب التسمية سواء أكان من فعل خصومهم ليصفوهم بالانعزال والاستنكار، أم هم من أطلقوها على أنفسهم من باب الانعزال عن البدع. ومهما كان الأمر في موضوع المعتزلة، وإذا كانت حادثة خروج واصل على الحسن أو حتى رأي واصل بصدد فاعل الكبيرة، فإن التفسير العقلي هو وحده الذي يفسر قيام المعتزلة، والدور الذي قامت به في الفكر الإسلامي، إذ يمكن اعتبار المشكلة الأساسية التي انبثقت عنها

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ٦٠، والبغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٧٨ .

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ٦١، والفيومي، محمد ابراهيم، الخوارج والمرجئة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢٠٠٣، ص ١٣٦.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢٦٥، والطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢٣، و الذهبي، سير أعلام، ج ٤، ص ٣٤٠ ورياض عيسى، الحزبية السياسية، ص ٢٤١.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢٩٥، و البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨٦. وابن الأثير، ج ٥، ص ١٨

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٧٥، الهمداني، المنية والأمل، ص ٨، و الشهرستاني، الملل، ص ٢٢-٢٣، والسمعاني أبو سعد عبد الكريم التميمي(ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) الأنساب تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، ط ١، ١٩٨٨، ج ٥، ص ٣٣٨، و النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط ٩، ج ١، ص ٣٧٥.

(٦) النوبختي، الحسن بن موسى، والقمي، سعد بن عبد المنعم، وهما من علماء القرن الثالث الهجري، فرق الشيعة، تحقيق، عبد المنعم الحفني، دار الراشد، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٨

المعتزلة، باعتبارهم أصحاب النظر العقلي، هي في الإسلام كما هي سائر الأديان: ففي كل دين كتاب مقدس وأقوال مأثورة، ولكن ماذا لو تعارض ظاهر النص مع الفعل؟ أيهما المرجح؟ تقديس النص والنأي عن النظر العقلي، أو تأويل ظاهر النص كما يتماشى مع العقل فيتسنى إقناع المخالفين خصوصاً من أصحاب الديانات الأخرى، وبهذا الرأي قال المعتزلة. ولقد أدرج اسم الحسن البصري(١) في قائمة المعتزلة كون مجلسه كان نقطة الاتصال ثم الانفصال، فكان النواة الأولى لانبثاق فكرة المنزلة بين المنزلتين، ولأن آرائه معتدلة وأجوبته تحرت الإقناع والتعليل، واعتبره المعتزلة قائلاً بالعدل نافعاً للجبر، بالإضافة إلى أن رأيه في مرتكب الكبيرة كان في أنه منافق لا كافر ولا مؤمن(٢) ولقد اعتُبر واصل بن عطاء(٨٠-١٣١هـ/٦٩٩-٧٤٩م) رأس المعتزلة ومؤسسها الأول وهو مولى لبني هاشم في المدينة أو لغيرهم، انتقل إلى البصرة، وانضم إلى حلقة الحسن البصري، ولزم مجلسه إلى أن قال رأيه في مرتكب الكبيرة، إذ اعتزل على إثرها مجلس الحسن(٣)، وربما وُلد احتكاكه بالمخالفين له سواء من كان منهم على دين مخالف كالنصارى والمناوية أم كان على مذهب مخالف كالجهم بن صفوان الذي كان يقول بالجبر، أم من كان ينشر التحلل والزندقة كالشاعر بشار بن برد(٤)، وفي ذلك وصفه صاحبه عمرو بن عبيد بن باب(٥) بقوله: "لم يكن أحداً أعلم منه بطرق المخالفين"(٦) كما تدل على ذلك أسماء كتبه: مثل: "أصناف المرجئة" و"الثنوية" و"المنزلة بين المنزلتين" و"خطبته التي أخرج منها الرأء"- كونه كان يلثغ بحرف الرأء- وكتاب "ما في القرآن" و"السبيل إلى معرفة الحق" وكتاب "الدعوة" و"أصل العلم والجهل"(٧) واستطاع واصل بعد اعتزاله مجلس الحسن بلورة الآراء التي سبقته للفرق المختلفة في مذهب قائم، فمن آرائه: نفي الصفات الإلهية والقول بالقدر-كمعبد وغيلان- ثم القول بالمنزلة بين المنزلتين، وأخيراً القول بتخطنة أحد الفريقين في الجمل وصفين(٨) ولازم عمرو بن عبيد (٨٠-١٤١هـ/٦٩٩-٧٥٨م) واصل بن عطاء في مجالسه وفي آرائه.

ووضع المعتزلة لحزبهم قواعد خمسة سموها الأصول، وهي التي رسمت ملامح فكرهم وهي تمثل لب علم الكلام:

١- التوحيد: الذي يمثل بالأساس المبدأ الأول في الإسلام، وركز المعتزلة في هذا الأصل على وحدة الذات

(١) عبد الجبار، المنية، ص ٢٥. وفروخ، عمر، تاريخ الفكر العربي، ص ٢١٧، و العوا، عادل، المعتزلة والفكر الحر، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط ١٥٧-١٦٠.

(٢) عبد الجبار، المنية، ص ٢٦-٢٧، و التوحيد، علي بن محمد(٤١٤هـ/١٠٢٣م)، أخلاق الوزيرين، تحقيق محمد بن تاويع الطنجي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٧٣، وأحمد محمود صبحي، في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، ج ١، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥، ص ١٨٢.

(٣) المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٥، ص ١٤٢، و الذهبي، سير، ج ٥، ص ٣٨٣، وابن خلكان، وفيات، ج ٦، ص ٧ وما بعدها. و عيسى، رياض، الحزبية السياسية، ص ٢٢٣، و نشار، سامي، نشأة الفكر، ج ١، ص ٣٩٥، و صبحي، أحمد محمود، في علم الكلام ص ١٨١ (٤) بشار بن برد هو مولى لبني عقيل أو غيرهم ويكنى أبا معاذ قتله، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٥١٣، و الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٢٤، و البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٧، ص ١١٢، و .

(٥) عمرو بن عبيد مولى لبني تميم أو غيرهم وكان شيخ معتزلة عصره وفقهها واه أخبار مع المنصور الخليفة العباسي، مات بالقرب من مكة، انظر: ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٢٧٣، و البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٢، ص ١٦٦، وابن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٥٨، ابن خلكان، وفيات، ج ٣، ص ٤٦٠.

(٦) ابن المرتضى، أحمد بن يحيى بن المرتضى(ت ٤٣٦هـ/٨٤٠م) طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديفلد، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٣٢.

(٧) ابن خلكان، وفيات، ج ٦، ص ١١.

(٨) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٣، وأبو الريان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ٢٨٥، و صبحي، في علم الكلام، ج ١، ص ١٨٤، و عمر فروخ، تاريخ الفكر، ص ٢٢٣.

الإلهية، ونزهوا الله عن التشبيه بصفات الإنسان، كما رأوا أن القرآن مخلوق، وبذلك فالله قديم ، وانفراد الله في الألوهية تقضي انفراده في القدم، والقول بحدوث القرآن أو خلقه(١)

٢- العدل: وهو في رأي المعتزلة الصلة بين الله والإنسان والتي تقوم على العدل المطلق، وبذلك فالإنسان هو المسؤول عن أفعاله وأن حسابه من قبل الله سيكون على ما فعل(٢)، وبذلك يكون المعتزلة قد ردوا على الجبرية التي رأت أن الإنسان مسير لا مخير. ولقد شكل التوحيد والعدل ثنائياً مفضلاً لدى المعتزلة ،لذلك أحبوا أن يسموا بهما أي أهل العدل والتوحيد.

٣-الوعد والوعيد: لقد ربط المعتزلة بهذا الأصل بين العمل والإيمان، الذي قالت به المرجئة، فالوعد والوعيد هو أن يكون الله قد وعد المؤمنين من خلقه بالثواب، وتوعد الكافرين منهم بالعقاب. وربط المعتزلة بين هذه العقيدة وبين مفهومهم للعدل الإلهي، الذي يفترض بموجبه أن لا يعامل المؤمن والكافر على حد سواء، فالله صادق في وعده ووعيده، لا يغفر الكبير إلا بعد التوبة، فإذا تاب المؤمن قبل موته عن الكبيرة غفر له، وإن لم يتب خُلد في نار جهنم(٣) .

٤- المنزلة بين المنزلتين: وتعتبر من أولى الإضافات التي قدمها واصل بن عطاء، وبنتيجه أحدث ذلك الانشقاق في صفوف القائلين " بالعدل والتوحيد" وبه نشأت المعتزلة كفرقة مستقلة هي أخص من القائلين بالعدل والتوحيد، ويعني هذا الأصل أن مرتكب الكبيرة الذي أجمع كل من الخوارج والمرجئة وأهل العدل والتوحيد على تسميته بالفاسق، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فقال الخوارج: هو فاسق كافر، وقالت المرجئة: هو فاسق مؤمن، وقال الحسن البصري وأصحابه هو فاسق منافق، بينما هي عند المعتزلة الآخذ بما اتفق الجمع من أن مرتكب الكبيرة هو فاسق ورفض ما عدا ذلك من الآراء المختلف فيها وعليها، ثم القول بأن هذا الفاسق هو في منزلة الوسط بين منزلتي الكفر والإيمان لمباينته درجات الكفار وأحكامهم، ودرجات المؤمنين وصفاتهم، وأنه بعد ذلك مخلد في النار، وإن يكن من العذاب دون درجة المشركين والكفار(٤).

٥-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يعتبر هذا المبدأ من المسلمات به لدى جميع المسلمين، وفي ذلك تجسيداً لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾(٥) وهذا الأصل هو مبدأ عام أوجبه المعتزلة على كل مسلم. وقد بلغ مقام هذا الأصل عند المعتزلة إلى الحد الذي جعلوه أصلاً عظيماً من أصول الدين، وقالوا عنه إنه أصل شريف...وعده أشرف من جميع أبواب البرّ والعبادة(٦).

فعلم الكلام بأصنافه المختلفة إذاً ولد من رحم السياسة والمعرفة والدين فالمشكلات السياسية والموقف منها

(١) الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل(ت٣٢٤هـ/٩٣٥م)مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تصحيح هلموت ريتز، دار النشر فرانز شتابر بفيسدان، ط٣، ١٩٨٠، ص١٥٥-١٥٦، و الهمداني، عبد الجبار، الأصول الخمسة، تحقيق فيصل بدير عون لجنة التأليف والتعريب، جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٨، ص٦٧-٦٨، والشهرستاني، الملل، ص٢٢.

(٢) عبد الجبار، الأصول الخمسة، ص٧٠، و صالح، السيد محمد، مدخل إلى علم الكلام، ص٢٥٧، و عون ، فيصل، علم الكلام ومدارسه، دار الثقافة، القاهرة، ص٢٢٠، و الفاخوري ،حنا ، و الحر، خليل، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٩٩٣، ج١ ص١٥٠.

(٣) المغربي، علي عبد الفتاح، الفرق الكلامية الإسلامية(مدخل ودراسة) مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥، ص٢٢٨، صالح، محمد السيد، مدخل إلى علم الكلام، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١، ص٢٤٢.

(٤)البغدادي، الفرق، ص١٠٨، و بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، (المعتزلة الاسماعيلية القرامطة النصيرية)دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧، ص٦٤-٦٥.

(٥) سورة آل عمران، آية ١٠٤، وسورة لقمان، آية ١٧.

(٦) عمارة، محمد، تيارات، الفكر الإسلامي دار الشروق، القاهرة، ١٩٩١، ص ٥٤.

سواء أكان قبل الأمويين أم أثناء حكمهم توضح انبثاق تلك الأفكار التي أيدهم أو عارضتهم بالإضافة إلى دور الثقافات الأخرى، والتي تتضح من خلال شخصيات معظم من قال بعلم الكلام وهم من أصحاب خلفيات ثقافية غير إسلامية وهذا يدل على مدى التأثير بتلك الثقافات، يضاف إلى ذلك دور الدين الإسلامي الذي كان محوراً التقت حوله أفكار أصحاب علم الكلام في التفسير والشرح والاستدلال، ويتضح موقف الأمويين من علم الكلام من خلال استيعاب جميع آرائهم والسماح لها بالتغلغل في المجتمع إلا إذا مسّت سياستهم عند ذلك اعتبروها معارضة لهم فردوا عليها بحسب رؤيتهم.

٣- بداية حركة التدوين والترجمة:

أ-التدوين في العصر الأموي:

إن جذور الدولة العربية ضاربةً بعمق في مجال الكتابة عمق التاريخ، فالكتابة لم تكن طارئة عليها بل تطلبتها الحاجة والضرورة، منذ القدم، وازدادت الضرورات للكتابة مع وضع الدواوين وتوزيع العطاء(١) ، ولقد كتب القرآن الكريم وبأعداد كبيرة وربما وصلت كما في معركة صفين(٦٥٧/٥٣٦م) عندما رُفعت المصاحف إلى ٥٠٠ مصحف(٢) .

وربما كان السبب الذي أدى إلى نفي أو تأكيد مسألة تدوين العلوم المختلفة في بداية القرن الهجري الأول كان في النظرة إلى تلك المعارف والتي كانت تُروى شفويًا، الأمر الذي طرح إمكانية عدم تدوينها، بالإضافة إلى المفهوم الذي كان سائدًا عند العرب في تلك المرحلة وهو احتمال اختلاط تدوين الحديث والعلوم الدينية بالقرآن الكريم ومما يدل على ذلك ما رواه الزهري عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، ثم تردد وقال: "كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرتُ قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً"(٣)، وهذه الخصوصية في النظرة إلى الحديث جعلت الكثير ممن دونوا الحديث إما أن يمحوه بعد أن يحفظوه(٤) وإما يتلفوها خوفاً عليها من أن تصل إلى من هو ليس أهلاً لها من غير أهل العلم فيسيء إليها، كما فعل الحسن البصري إذ أتلف ما كتب قبل موته بحيث لم يبقَ لديه إلا صحيفة واحدة(٥)، وهذا لا ينفى وجود مدونات للحديث، فعبد الله بن عمر بن الخطاب(ت٥٧٣/٦٩٢م) كان لديه كتباً ينظر إليها قبل الخروج على الناس(٦) كما كان أنس بن مالك يلقي ما عنده من أحاديث إذا كثرت الناس عليه ويقول لهم: "كتبتها عن رسول الله"(٧) أما عبد الله بن زيد الجرمي(ت١٠٤هـ/٧٢٢م) المشهور بأبي قلابة، فيبدو أنه ترك كتباً بحمل بغل(٨) على حد تعبير الذهبي إلا أن التدوين الرسمي؛ أي بتكليف من الحاكم الأموي شخصياً

(١) شراب، محمد حسن ، تاريخ الكتابة وتدوين العلم في العصر الجاهلي والقرن الأول الهجري، دار الصديق، دمشق، ط١، ٢٠٠٥، ص١١٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٥٢٠، محمد أسعد حسن المراغي، دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث، دار العلوم العربية، بيروت، ط١، ص٢٩.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٢٨٧.

(٤) البغدادي، أحمد أبو بكر، تقييد العلم، تحقيق يوسف العث، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ط٢، ١٩٧٤، ص٥٨-٦١. والطبري ، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٧٠ .

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص١٧٤-١٧٥.

(٦) الذهبي، سير أعلام، ج٣، ص٢٢٢.

(٧) الواسطي، تاريخ واسط، ص٦٣-٦٤.

(٨)الذهبي، سير، ج٤، ص٤٦٩، والكتب مصنوعة من الرق ومن الجلد المكشوط والمدبوغ، ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٤٨٨، والرازي، مختار الصحاح، ص١٠٦.

للحديث حدث عندما كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم واليه على المدينة من أجل تدوين أحاديث رسول الله (١) فكتاب الحديث كثر، ولو أنّ كتابات البعض كانت بسيطة- وربما لم تُعتبر مدونات بالمعنى الواسع للكلمة؛ أي كتب بما تعنيه هذه الكلمة، لأنه لا يوجد ضابط لكلمة كتاب، حيث لا يوجد حد مقرر لحجم الكتاب، فالكتاب هو في الأصل المكتوب بصرف النظر عن محتواه أو حجمه (٢) وعلى الرغم من ذلك فوجود هذه المدونات هو دليل على وجود التصنيف والتأليف قبل التاريخ الذي يحدده بعض المؤرخين بعد عام (١٤٨هـ/٧٦٥م) (٣) ويبدل على ذلك المدونات التي وجدت في النسب والتفسير والفقهاء وغيرها من العلوم والمعارف، ولم يكن هناك فصل أو تحييد كل علم عن الآخر في هذه المرحلة لكن هذا الأمر تم لاحقاً، ففي مجال التفسير وعلم القرآن : تمت كتابة عدة مدونات، ومنها ما نُسب إلى عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ/٦٨٧م) في التفسير (٤) وكتاب آخر له بعنوان "أحكام القرآن" (٥) ويتضح من رواية ذكرها ابن سعد في طبقاته العدد الذي لا بأس به من المدونات عند ابن عباس والتي يصفها بأنها تبلغ حمل بعير (٦) ، وهناك كتاب أيضاً لسعيد بن جبير (٧) كما قام الحسن البصري بتأليف كتاباً في التفسير (٨) ، ويُذكر عدداً من كتاب التفسير منهم: الضحاك بن مزاحم (٩) (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م) وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م) ، بالإضافة إلى تأليفه كتاب بعنوان "الناسخ والمنسوخ" و"عواشر القرآن" (١٠) ، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨هـ/٧٣٦م) (١١) الذي قام بتدوين شروح عبد الله بن عباس في كتاب عُرف باسم "غريب القرآن" (١٢) بالإضافة إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة المعروف بالسدي (ت ١٢٧هـ/٧٤٤م) (١٣) وعمرو بن عبيد الذي ألف كتاباً في التفسير (١٤) ، واعتمد فيه على الحسن البصري عندما كان يحضر مجلسه، و محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ/٧٦٣م) (١٥) وربما يعود هذا الكتاب إلى ابن عباس (١٦) . ولقد سُجل فيما يخص الفقه لمكحول الشامي (ت ١١٤هـ/٧٣٢م) كتابين الأول بعنوان "السنن في الفقه" والثاني "مسائل في الفقه" (١٧) ويضاف إليهما كتاب لمحمد الزهري بعنوان "الناسخ

-
- (١) ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٣٨٧ و ج ٨، ص ٤٨٠، و القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، ص ٨٠
- (٢) العلي، صالح أحمد ، دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ٨٩، وكلمة كتاب في اللغة هي اسم لما كُتِبَ مجموعاً ، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٦٩٨ .
- (٣) ابن خلكان، وفيات، ج ٣، ص ١٦٤، والذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٦١
- (٤) النديم، الفهرست، ص ٥٠ .
- (٥) النديم، الفهرست ، ص ٥٧ .
- (٦) ابن سعد، الطبقات ، ج ٥، ص ٢٩٣ .
- (٧) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢٥٨ .
- (٨) النديم، الفهرست، ص ٥٠ .
- (٩) النديم ، ص ٥٠ ، سيزكين، فؤاد ، تاريخ التراث، ترجمة محمود فهمي حجازي، مراجعة عرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم، جامعة الأمير محمد بن سعود، الرياض، ١٩٩١م، ج ١، ص ٧٥-٧٦ .
- (١٠) سيزكين، تاريخ التراث، م ١، ج ١، ص ٧٢
- (١١) قتادة بن دعامة بن قتادة: مفسر حافظ ضرير كان من أحفظ أهل البصرة وكان رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب مات بواسط بالطاعون، ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٢٢٩ .
- (١٢) سيزكين، المرجع نفسه، م ١، ج ١، ص ٧٤
- (١٣) سيزكين، تاريخ التراث، م ١، ج ١، ص ٧٥-٧٦، والسدي هو تابعي حجازي الاصل سكن الكوفة كان عارفاً بالوقائع وأيام الناس، الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٣١٧ .
- (١٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٦٢ .
- (١٥) محمد بن السائب بن بشر الكلبي أبو النضر، نسبة راوية عالم بالتفسير والأخبار وبأيام العرب من الكوفة عاش ومات فيها ، ابن خلكان، وفيات، ج ٤، ص ٣٠٩ .
- (١٦) ابن النديم، ص ٥٠ وسيزكين، تاريخ التراث م ١، ج ١، ص ٨٠ .
- (١٧) النديم، الفهرست، ص ٣١٨ .

والمنسوخ في القرآن" (١) وذكر ابن حجر العسقلاني أن أبو زناد عبد الله بن ذكوان القرشي (ت ١٣١هـ/٧٤٨م) ألف كتاباً في الفقه (٢). وورد ذكر عدة مؤلفات في العقيدة الإسلامية منها كتاب الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب (٧٩٩هـ/٧١٧م) "الإرجاء" بالإضافة إلى عدة كتب له تحمل العنوان نفسه وأرسلها إلى مختلف الأقاليم (٣). وفي القدر فقد وجد لوهب بن منبه (١١٤هـ/٧٣٢م) كتاباً بالعنوان نفسه أي "القدر" (٤) ويضاف إليها الكتب العديدة التي كتبها واصل بن عطاء والتي وردت سابقاً.

وفي مجال تدوين السير والمغازي والتي تعتبر توأم الحديث التي لم تنفصل عنه إلا لاحقاً، فالمغازي لا تقتصر على الحملات العسكرية للرسول بل سرداً لحياة الرسول بصفة عامة، وهذا ما أُطلق عليه فيما بعد السيرة النبوية، (٥) ولقد اعتُبر عروة بن الزبير (ت ٩٥هـ/٧١٣م) من أوائل الذين كتبوا بالمغازي إذ ألف كتاباً حول حياة الرسول ﷺ كما اهتم بحوادث عهد الخلفاء الراشدين (٦)، وقد تحدث ابنه هشام عن كتب أبيه قائلاً: "أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي" (٧)، ووجدت لوهب بن منبه قطعة من كتابه "المغازي" وهي موجودة في هيدرلبيرج في ألمانيا (٨) بينما كان الزهري أول من استعمل لفظ السيرة تعبيراً عن حياة الرسول، وهو الذي منح السير إطارها الذي عُرف فيما بعد، وكان أول من دَوّن العلم (٩) ويتضح مدى الكم الذي قام الزهري بتدوينه، من رواية زوجته التي تقول فيها: "والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر" (١٠). كما كان لموسى بن عقبة (ت ٤١هـ/٧٥٨م) (١١) كتاباً في المغازي كتبه عن الزهري ويعتبر حسب رأي ابن حجر من أصحاب الكتب (١٢) ويقول الذهبي أنه ألف المغازي في مجلد، فكان أول من صنف في ذلك (١٣) ويلاحظ هنا العبارات التي تقول: أول من صنف أو أول من كتب وهذا يدل على مدى التباين في مفهوم التدوين، وقد كُشف عن قطعة من كتاب موسى في السيرة طُبعت مع ترجمة ألمانية في سنة ١٩٠٤م (١٤)، هذا واعتبر محمد بن اسحق عمود كتابة السيرة النبوية (ت ١٥٢هـ/٧٦٩م) (١٥).

(١) سيزكين، تاريخ التراث، ج ٢، ص ٧٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، تهذيب التهذيب، تحقيق ابراهيم تليزيق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٩٩٦، ج ٢، ص ٣٣.

(٣) الشهرستاني، الملل، ص ٦١، و الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٨١-١٠٠هـ/٧٠٠-٧١٨م) ص ٣٣٢.

(٤) الذهبي، سير أعلام، ج ٤، ص ٥٤٨.

(٥) انظر كتاب Abbot, Nabia; Studies in Arabic Literary Papyri (1, Historical Letxts) of Chicgo prees, Chicago 1957

(٦) هوروفتس، يوسف، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠١، ص ٤٠.

(٧) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ١٧٩.

(٨) هوروفتس، يوسف، المغازي، ص ٤٦.

(٩) مصطفى، شاكر، التاريخ العربي، ج ١، ص ١٥٧، وعبد العليم عبد الرحمن خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر العربي، ط ٢، ١٩٩٥، ص ٨٦.

(١٠) ابن خلكان، وفيات، ج ٤، ص ١٧٨، وابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ١، ص ١٦٣.

(١١) موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي بالولاء أبو محمد مولى آل الزبير عالم بالسيرة النبوية من ثقات رجال الحديث من أهل المدينة مولده ووفاته فيها، الزركلي، الأعلام، ج ٧، ص ٣٢٥.

(١٢) ابن حجر، تهذيب، ج ٤، ص ١٨٤.

(١٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ١١٤.

(١٤) هوروفتس، يوسف، المغازي، ص ٨٧.

(١٥) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن شمس الدين (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٩، ص ١٦٠، والجبوري، يحيى وهيب، الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ص ٥١.

وبالانتقال إلى تدوين العلوم الإنسانية والآداب فهي متنوعة منها ما اختص في التاريخ أو الأنساب أو المثالب أو الشعر، ولقد كان للتاريخ اهتمام واضح حتى من قبل الحكام أنفسهم وتجلّى ذلك من خلال إحضار معاوية بن أبي سفيان لعبيد بن شرية اليمني، إلى دمشق وتدوين ما يقوله من الأخبار الماضية وسجلت المعلومات في كتاب سمي "الملوك وأخبار الماضيين" (١) وتم طبع هذا الكتاب في حيدر آباد سنة (١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م) بعنوان "أخبار عبيد بن شرية" وقد ضُم هذا الكتاب إلى كتاب التيجان لابن منبه وهو من الصفحة ٣٢٥ حتى الصفحة ٤٩٩ (٢) واختص وهب بن منبه بكتابه لتاريخ اليمن إذ ألف كتاباً سماه "الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم" وقد رآه ابن خلكان في مجلد واحد (٣)، كما كان له كتاب آخر بعنوان "التيجان" برواية حفيده عبد المنعم بن إدريس (٤) (ت ٢٢٩هـ / ٨٤٣م)، ويُذكر لوهب مدونات أخرى منها "قصص الأنبياء" أو قصص الأخبار و"حكمة وهب" و"موعظة" و"زبور داوود" (٥). ومن المؤرخين المرموقين أبو مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ / ٧٧٣م) (٦) وهو إخباري من الكوفة وله مدونات بلغ عددها تقريبا (٣٢) مدونة هي عبارة عن رسائل يمكن أن تؤلف تاريخاً مفصلاً يكمل بعضه البعض للحقبة الممتدة من عهد أبي بكر حتى أواخر العصر الأموي مع بعض الثغرات، ومن هذه الكتب "فتوح الشام" (٧) و"الأخبار" (٨) بالإضافة إلى عدد آخر منها (٩).

أما الاهتمام بالأنساب التي مثلت حقيقة اجتماعية و سياسية واقتصادية، لأن العرب بفطرتهم ميالون إلى معرفة الأصول، بالإضافة إلى الاهتمام بها من أجل الديوان الذي استحدثه عمر بن الخطاب لتقرير ما يُفرض لكل مسلم عربي من إعطيات بيت المال، و إلى الخصومات القبلية وما وُلدته من إثبات النسب، فتدوين كتب الأنساب بكر في ظهوره على قائمة المؤلفات ومن تلك الكتب التي ورد ذكرها كتاب "السيرة" لدغفل الشيباني (ت ٦٥٥هـ / ٦٩٥م) (١٠) وكتاب "التظافر والتناصر" وكتاب "التشجير" (١١) كما كان لكل من مشجور بن غيلان الضبي (ت ٨٥٥هـ / ٧٠٤م) ولزيد بن الكيس النمري كتاباً في الأنساب (١٢)، وحسب رواية لحمام الراوية يتضح منها تدوينه -أي حماد- كتاباً عن قريش وثقيف، وكان يطلع عليه قبل ذهابه إلى الخليفة الوليد بن يزيد الذي كان يطلبه للاستفسار منه عن الأنساب (١٣)، ولقد أدى الاهتمام بالأنساب إلى الاهتمام بنقيضها؛ أي

-
- (١) النديم، الفهرست، ص ١٣٢، والعسقلاني، الإصابة، ج ٥، ص ١١٥، مصطفى، شاکر، التاريخ والمؤرخون، ج ١، ص ١٢٦.
 - (٢) مصطفى، شاکر، التاريخ والمؤرخون، ج ١، ص ١٢٦، وانظر وهب بن منبه، كتاب التيجان، تحقيق مركز الدراسات والأبحاث، د.ت.
 - (٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣٥.
 - (٤) سيزكين، تاريخ التراث العربي، م ١، ج ٢، ص ١٢٢.
 - (٥) المرجع السابق، م ١، ج ٢، ص ١٢٥.
 - (٦) أبو مخنف، الأزدي رواية عالم بالسيرة والأخبار غمامي من أهل الكوفة له تصانيف كثيرة في تاريخ عصره وما كان قبله يبسير، الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٢٤٥.
 - (٧) ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٦.
 - (٨) المصدر السابق، ص ١٣٦.
 - (٩) النديم، الفهرست، ص ١٣٦، و الكتيبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، م ٣، ص ٢٢٥. وشاکر مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج ١، ص ١٧٨-١٧٩.
 - (١٠) دغل بن زيد بن عبدة الذهلي الشيباني نسابة العرب غرق يوم دولا ب بفراس في وقعة مع الازارقة، ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٤٠.
 - (١١) سيزكين، تاريخ التراث، م ١، ج ٤١، و العلي، صالح أحمد، الحركة الفكرية، ص ٩١.
 - (١٢) زيد من بني عامر بن كلاب كان بأيام يزيد بن معاوية عارف بأيام العرب وأحاديثها، النديم، الفهرست، ص ١٣٢.
 - (١٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢١٠.

بالمثالب والتي تعني سلبيات طرف ما، و يعتبر تأليفها كرد فعل على الأنساب، وبدأ بهذا النموذج من الكتابات زياد بن أبيه رداً على ما نُسب إليه من طعن بنسبه فكان كتابه "مثالب العرب" (١) ورداً على هذا الكتاب أمر الخليفة هشام بن عبد الملك النضر بن شميل الحميري(ت١٢٢هـ/٧٤٠م) وخالد بن سلمة المخزومي(ت١٣٢هـ/٧٥٠م) بتأليف كتاب بعنوان "الواحدة في مثالب العرب ومناقبها" (٢) كما كان للأمثال حضورها في هذا العصر ويتضح ذكر العديد من الكتب التي تحمل عنوان الأمثال منها كتاب لصحار العبدي بن عباس(٥٤٠هـ/٦٦٠م) (٣) وكذلك كتاب لعبيد بن شرية الجرهمي(٤) وآخر لعلاقة بن كريم الكلابي يقع في خمسين ورقة رآها النديم (٥) .

وبالانتقال إلى ما يهواه العرب ألا وهو الشعر-الذي شُغِف به العرب قبل وبعد الإسلام، فقد طلب الوليد بن يزيد جمع أخبار العرب وأنسابها وأشعارها ويبدو أنه استعار من حماد وجناد(٦) دواوينهما، حيث قام بنسخها وردها إليهما(٧)، ولكن الفضل الأكبر في تدوين الشعر يعود ليونس الكاتب(٥١٣هـ/٧٥٢م) الذي كان السباق في تأليف كتاب جامع للشعر الغنائي العربي، وله من الكتب كتاب "مجرد يونس" و"القيان والنغم" وكان الفضل لهذه الكتب الغنائية في شهرته(٨) وذكر الأصفهاني أن كتاب يونس في الأغاني كان أحد مصادره الأساسية (٩)، وكانت محاولة يونس هذه هي الأولى لجمع ألحان العرب وأشعارها.

وفيما يخص تدوين العلوم التطبيقية، والتي كان لها مكانتها أيضاً بين تلك المدونات، ففي الكيمياء ذكر خالد بن يزيد بن معاوية من المؤلفين الأوائل في هذا الحقل، وأبرز ما ذكر له فيها ما رآه النديم من "شعر في الصنعة" ويتألف من حوالي خمسمئة ورقة، بالإضافة إلى رؤيته لكتاب "الحرارات" وكتاب "الصحيفة الكبرى" و"الصحيفة الصغرى" وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة(١٠). وإن صحت نسبة هذه الكتب إلى خالد، فهو إذاً من أوائل من وضعوا بصمتهم في الحضارة العربية في علم الكيمياء، أما الطب فهناك عددٌ ممن دونوا فيه وإن كانوا من المسيحيين - فلا غرو في ذلك إذ كلهم من رعايا الدولة- فالطبيب بولس الأجنبي كتب كتاباً يتألف من تسع مقالات ، وكتاب آخر في علل النساء(١١) كما كتب الطبيب تياذوق كتاب" كناش "لابنه، وكتاب " أبدال

-
- (١) النديم، الفهرست، ص١٣٦، و بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم نجار، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ج١، ص٢٥٠.
- (٢) سيزكين، تاريخ التراث، م١، ج٢، ص٣٦. والنضر بن شميل بن خرشة التميمي أبو الحسن أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة ولد بمرو وانتقل إلى البصرة مع أبيه وأصله منها ، ابن خلكان، وفيات، ج١، ص١٦١. وخالد بن سلمة بن العاص كوفي حث عن سعيد بن المسي والشعبي وغيرهما هرب إلى واسط من بني العباس قتل فيها مع عمر بن هبيرة، ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص٣٤٧.
- (٣) ابن النديم ، ص١٣٢ ، صحار العبدي: من بني القيس خطيب مقوّه له صحبة وهو أح النسابين كان ممن شهد فتح مصر وشهد صفين مع معاوية سكن البصرة ومات فيها، ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج٣، ص٤٠٨.
- (٤) ابن النديم، الفهرست، ص١٣٢.
- (٥) النديم، الفهرست، ص١٣٢.
- (٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٧٢. وابن خلكان، وفيات، ج٢، ص٢٠٦، والذهبي، سير، ج٧، ص١٥٧، جناد هو أبو محمد بن واصل الكوفي مولى بني أسد ، كان من أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها ، ابن النديم، الفهرست، ص١٣٥.
- (٧) النديم، الفهرست، ص١٣٥.
- (٨) النديم، الفهرست، ص٢٠٧، ويونس بن سليمان بن كرد بن شهريار من ولد هرمز كاتب وشاعر بارع في صناعة الغناء نشأ وعاش بالمدينة ، الزركلي، الأعلام، ج٨، ص٢٦١.
- (٩) الأصفهاني، الأغاني، ، ج١٧، تحقيق علي الجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص٢٣٢ و٣٠٢.
- (١٠) النديم، الفهرست، ص٣٣٨.
- (١١) القفطي، أخبار العلماء، ص١٧٢، وابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص١٧٦.

الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها" وثالث بعنوان "شيء من تفسير أسماء الأدوية" (١) . ولم يغب تفسير الأحلام عن ساحة التدوين في هذا العصر، إذ ورد ذكر عدد منها عند النديم لمحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ/٧٢٨م) وهي كتاب "الإشارة في علم العبارة" أو "الإشارة في تفسير المنامات" و"تعبير الرؤيا" (٢) .

كما وردت أسماء لكتب بعنوانين مختلفة منها كتاب "عراة ذات الأباطيل" لصالح بن عمران الصغدني (٣) وكتاب "سليم بن قيس الهلالي" (ت ٨٥هـ/٧٠٤م) (٤) وهو تأليف سليم بن قيس الهلالي الكوفي بالإضافة إلى ما كتبه الحسن عن مكة بعنوان " فضائل مكة والسكن فيها" (٥) وهو عبارة عن رسالة أرسلها الحسن إلى أحد الزهاد الذين كانوا يسكنون مكة ، بعد سماعه أنه يريد ترك مكة، فكانت هذه الرسالة بمثابة ترغيب له للبقاء في مكة، وتألف هذا الكتاب أو الرسالة من ست وثلاثين ورقة. وكتاب أسنان الخلفاء للزهري، وقد ذكر عمر بن شبة هذا الكتاب عندما تحدث عن محمد بن يحيى، إذ قال بأن الزهري كتب لجدته هذا الكتاب (٦)؛ أي لجد محمد بن يحيى. كما صنف الزهري كتاباً في نسب قريش، وكتاباً في النسب بشكل عام، إذ طلب منه خالد القسري ذلك ولكنه لم يكمله لاختلافهم حول طريقة العرض (٧). وهذه هي الإشارات الصريحة بأسماء الكتب التي بقيت أسماءها في روايات المصادر، عدا عن الإشارات التي ترد والتي تقول وجدت في كتاب أبي أو كتاب آبائي، وهذا هو بعض من نتاج العصر الأموي الذي يوصف بالجدب والقحط في مجال التأليف، ففي دولة وليدة النشوء وعلى عاتقها تقع مهمات التأسيس والتوسع نشأت هذه الميول للتدوين، هذا عدا عن الكتب التي تُرجمت، والتي سيأتي ذكرها لاحقاً، هذا فضلاً عن عوادي الزمن، التي تؤثر في الكتب أياً كان نوعها فالكتب هي عرضة للتلف الزمني، يضاف إلى ذلك التلف المقصود، أي العباسيين الذين قضوا على كل ما يمت للأمويين بصلة، ولا غرابة في ذلك فهذه هي سنة السياسة.

ب- الترجمة: تعني هذه الكلمة العربية الفصيحة تفسير الكلام بلسان آخر (٨) ، ولم يكن العرب يعيدون عن نقل المعارف، إذ خبروه من قبل مجيء الإسلام، حيث كانوا على صلة وثيقة بحضارة العالم القديم، إذ كانت الصلات قائمة بينهم وبين الفرس والروم والهنود، وقد أتيح للعرب الكثير من الوسائل التي جعلتهم يستفيدون من خبرات الأمم الأخرى وعلومها، فمن ذلك الأسواق والمواسم، التي كانت تقام في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة، ومن البديهي أن تلقى الثقافات والعقول، فقد كان العرب يسافرون إلى بلاد الروم والفرس والأبحاش للتجارة، كما كان للجاليات الأجنبية التي تقد إلى شبه الجزيرة العربية دورها في التمازج الحضاري أيضاً. ولكل هذه العوامل وغيرها، والتي أدت إلى الاحتكاك بين العرب وغيرهم من لسان آخر، دورها في الاهتمام باللغات الأخرى،

(١) ابن أبي أصيبعة، ص ١٨١، والشحات السيد زغلول، السريان والحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٥، ص ١٤٧.

(٢) النديم، الفهرست ص ٤٣٩ و العلي، صالح أحمد ، الحركة الفكرية، ص ١١٢، ابن سيرين هو بصري أنصاري بالولاء أبو بكر إمام وقته في علوم الدين بالبصرة تابعي ولد ومات بالبصرة اشتهر بالورع وتفسير الرؤيا، الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٢، ص ٢٦٣، وابن خلكان، وفيات، ج ٤، ص ١٨١.

(٣) النديم ، ١٣٣، و العلي، صالح أحمد ، الحركة الفكرية، ص ١١٢.

(٤) النديم ، الفهرست، ص ٣٠٧.

(٥) الحسن البصري بن يسار، (ت ١١٠هـ/٧٢٨م) فضائل مكة والسكن فيها، تحقيق سامي العاني، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٧٩.

(٦) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣٦٢.

(٧) الصفحة ٣٣ من مقدمة كتاب المغازي النبوية لمحمد بن مسلم الزهري (١٢٤هـ/٧٤١م) تحقيق وتقديم سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١.

(٨) الرازي، الصحاح، ص ٩٩ ابن منظور، لسان، ج ١٢، ص ٢٢٦.

بالإضافة إلى الحاجة السياسية التي انبثقت من الإسلام، فالرسول الكريم كان يرسل الرسائل إلى مختلف أمراء وملوك شبه الجزيرة، وهذه الرسائل كانت بالعربية، وقام المترجمون بترجمتها إلى الفارسية والرومية، وفي أثناء الفتوح والانطلاق إلى مناطق جديدة، كان لابد من الاختلاط بأقوام مختلفة، مما حفّز العرب على معرفة لغات هذه الأقوام، وولدت معرفتهم هذه الرغبة في التعرف على ثقافتهم، ويضاف إلى ذلك مكانة كل من الشام والعراق ومصر، حيث كانت الشام ومصر بيئة ثقافية مشبعة باليونانية، كما كانت العراق مرتع المعرفة الفارسية وبغض النظر عن ماهية الترجمات فالمهم هنا ترجمة المعارف والعلوم وإغناء المعرفة العربية الإسلامية في العصر الأموي.

ومثلما كانت بداية التدوين في هذا العصر كذلك كانت ولادة الترجمة، في عهد معاوية، والذي كان يرغب لسماع أخبار الأمم والملوك وسيرهم (١) ولا بد أنه وجد له من يترجم له هذه الكتب، كما أهدى له ملك الصين كتاباً ترجم بعدئذٍ (٢). ولقد لمع في هذا العصر نجم خالد بن يزيد بن معاوية في حقل العلوم العقلية (٣) وترجمتها، وكان عمله بالكيمياء بإرشاد راهب نصراني، فأمر بترجمة كتب في الكيمياء من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي (٤) كما قام الطبيب ماسرجويه بترجمة كتاب في الطب وكان بعنوان "كناش" - أي مجموعة مقالات مختلفة في الطب - وكان عدد مقالات هذا الكناش حوالي ثلاثين مقالة أضاف إليها ماسرجويه مقالتين (٥). ويبدو أن ترجمته كانت في أيام بني مروان (٦) ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأخرجه إلى المسلمين، أو ربما تُرجم بأمر من عمر بن عبد العزيز كي يستفاد منه الناس (٧). كما قام عمر بن عبد العزيز بتكليف الطبيب عبد الملك الأبرج الكناني، بنقل الطب إلى العربية (٨).

ولا بد هنا من ذكر وهب بن منبه الواسع الاطلاع، وإطلاعه هذا يسوق فكرة معرفته لعدد من اللغات، ويذكر سيزكين أن هناك رسالة وصلت في حاشية مخطوط قديم يوجد في باريس تحت رقم ٢٥٧٨ لكتاب هرمسي بعنوان هرمس الهرامسة، تفيد أن وهب ذكر هذا الكتاب (٩)، بالإضافة إلى ترجمته لكتاب زبور داوود (١٠) ويؤكد ذلك ما كتبه كرونلينو من أنه وجد نسخة من كتاب "عرض مفتاح النجوم" وهو منسوب إلى هرمس (١١) في جملة من نيف وألف وستمئة مجلدة عربية خط يد اقتنتها في عام ١٩٠٩ المكتبة الأميروسانية في ميلانو من مدن إيطاليا وتعود ترجمته إلى سنة (١٢٥هـ/٧٤٢م). ومن المهتمين بالترجمة أيضاً الخليفة هشام بن عبد الملك، ولقد ترجم له سالم بن عبد الرحمن أبو العلاء كاتب ديوان الرسائل والمعروف بالفصاحة والبلاغة، حيث

- (١) المسعودي، مروج، ج٣، ص٢٣.
- (٢) جبوري، يحيى، الكتاب في الحضارة، ص١٣٩.
- (٣) صاعد الأندلسي أبو القاسم بن أحمد (ت٤٦٢هـ/١٠٦٩م) طبقات الأمم، نشره وفهرسه لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢، ص٤٨، ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص٢٠٩.
- (٤) النديم، الفهرست، ص٣٣٨، De Boer, T, Jones, History of Philosophy in Islam, London, 1933, p17 و عبد الغني، مصطفي، الكيمياء عند العرب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥، ص٢٥.
- (٥) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص٢٣٢.
- (٦) القفطي، أخبار العلماء، ص٢١٣، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٩٢.
- (٧) ابن جليل، طبقات الأطباء، ص٦١.
- (٨) جمعة، ابراهيم، جامعة الاسكندرية والنقل منها وتأثير العقل العربي بعلمها، مطبعة كومستاموس، القاهرة، ١٩٤٤، ص١٤٢.
- (٩) سيزكين، فؤاد، تاريخ التراث، م١، ج٢، ص١٢٥.
- (١٠) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١١) هرمس هناك اختلاف حول شخصيته، وهو اسم لآلهة يونانية، وربما كانت شخصية خيالية، انظر: نجيب، حكمت، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص١٨٢.

نقل له وأصلح مجموعة رسائل نحو مئة ورقة إذ نقل من رسائل أرسطاليس إلى الاسكندر (١) وكان لسالم ولد يدعى جبلة وقام أيضاً بترجمة كتابين الأول بعنوان "رستم وأسفيندار" والثاني "بهرام شوبس" فهذه المدونات والترجمات التي ظهرت في العصر الأموي أغنت كتب التاريخ بالمعارف والعلوم.

٤- الاهتمام المبكر بالعلوم اللغوية والدينية بهدف خدمة التعريب:

ظهر الإسلام بلغة نبيه محمد ، العربية، فنضح كتاب الإسلام المقدس بأبلغ العبارات، وأجزل البيانات، وعلى هذا القرآن ارتكزت كثير من المعارف اللغوية والدينية، لفهم هذا القرآن الذي انبرى المسلمون العرب والموالي على دراستها والخوض فيها لفهم الدين الجديد الأمر الذي رسخ العربية ونشرها بين المسلمين كونها لغة القرآن، وبالتالي لغة الدين والتشريع الذي كان لا بد من فهمه من خلال فهم لغته وعلومه التي استنبط منه ومن حديث الرسول هذا الدين.

١- العلوم اللغوية: إن اللغة العربية هي لغة جيل من الناس يسكن بلاد العرب، فكل من سكن جزيرة العرب، ونطق بلسان أهلها هم عرب (٢). وبهذه اللغة نزل القرآن، وقد مرت هذه اللغة بعدة تطورات قبل أن تغدو على الشكل الأخير، وتداولها أقوام كانوا يحدثون فيها شيئاً من التغيير بالإضافة إلى اختلافات طفيفة تسمى اللهجات ومهما كانت هذه الفروق فهي الطفولة المبكرة للعربية.

ولقد حافظت هذه اللغة على الإسلام، كما حافظ هو عليها، حيث حرص العرب على أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً سليماً إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة، وخاصة بعد أن فشا اللحن (٣) على الألسنة هذا بالإضافة إلى خشية العرب على لغتهم من الذوبان في بوتقة اللغات الأخرى ومن الفساد، وهم الذين يعتزون بعروبيتهم أشد الاعتزاز فسارعوا إلى وضع ضوابط للغتهم كي يحافظوا عليها ويُلْم بها من يريد اتقانها من المسلمين الوافدين على الإسلام، وبالتالي على العربية، وهذا ما دفعهم لوضع النحو.

أ- النحو: هو قواعد اللغة العربية وقد وضعت أسسه وتأسست مدارسها في العصر الأموي، وكانت مدرسة الكوفة أشهرها.

أما أسباب وضع هذه القواعد فالروايات عديدة، وأغلبها يصب في سبب تفشي اللحن بين الناس، والذي نتج عن الاختلاط مع الأعاجم بعد الفتوح، هذا الاختلاط الذي تجسد في البيوت والأسواق والمناسك والمساجد، وكذلك التصاهر بين العرب وغيرهم من المسلمين، ولقد ظهرت بوادر هذا اللحن منذ العصر الراشدي، بل ربما القول منذ عهد الرسول، لكنها تفاقمت في العصر الأموي، حيث الاتساع الواسع للفتوحات، الأمر الذي استدعى التفكير في حل لحماية لغة القرآن من الزلات ، فتم وضع النحو لأن اللحن لم يقتصر على الداخلين في الإسلام من غير العرب فحسب بل ظهر على ألسنة العرب، حيث ذُكرت روايات وأمثلة عديدة على ذلك ومنها أن أحد الكتاب في عهد عمر بن الخطاب كتب له كتاباً فلحن فيه، فكتب عمر إلى الوالي : قنع كاتبك سوطاً(٤) ، ومع مضي المعرفة العربية في انتشارها سرت جرثومة اللحن، على ألسنة العديد من الناس في العصر الأموي بمن

(١) كرلونينو، علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما، ١٩١١، ص ١٤٥. ويقال سالم بن عبد الله أبو العلاء كان على ديوان الرسائل لهشام وهو أستاذ عبد الحميد الكاتب ، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٩، ص ٤١٤٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٩٦.

(٣) اللحن هو الخطأ في الإعراب ، ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٣٨١.

(٤) ابن خلكان، وفيات، ج ٦، ص ٣٥٧، و الطنطاوي ،محمد ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ص ١٧، ضيف، شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط ٧، ص ١١.

فيهم الفصحاء كالحجاج الثقفي الذي سأل يحيى بن يعمر (١): أسمعني ألحن فقال له: لا إلا أنه سبقك لسانك في أن وأن، قال: إذا كان ذلك فعرفني (٢) وإذا كان الحجاج صاحب الباع الطويل في الخطابة يلحن ، فكيف بغيره من العرب وغيرهم وعلى ذلك ازداد اللحن انتشاراً على ألسنة الذين نشأوا في الحواضر البعيدة عن البوادي وبنابيعها الفصيحة، ومن أمثلتهم الوليد بن عبد الملك (٣) ، كما كان هناك الكثير من أبناء العرب الذين ولدوا لأمهات غير عربيات فتأثروا بهن وبنطقهن، ومن أولئك عبيد الله بن زياد بن أبيه (ت ٦٧هـ/ ٦٨٦م) (٤) حيث قال مرة: افتحوا سيوفكم ويريد بها سلوا سيوفكم (٥) . ومن هذه الأمثلة الشيء الكثير، وقد اعتبر أبو الأسود الدؤلي بالإجماع واضع علم النحو، مع الإشارة إلى أنه أخذ عن الإمام علي بن أبي طالب (٦) وربما ذكر البعض تأثر الدؤلي بالسريان في وضع النحو (٧) ويذكر النديم أنه رأى أربع ورقات ضمت كلاماً في الفاعل والمفعول وهي عن أبي الأسود بخط يحيى بن يعمر (٨)، ومهما كان أمر الاختلاف في ذلك فلإمام علي فضل الهداية إلى الأساس ولأبي الأسود فضل القيام بوضعه على ضوء هدى الإمام.

ومن المتفق عليه أيضاً أن أبا الأسود هو الذي ضبط المصحف بالشكل، حيث كانت الأحرف العربية بلا حركات تميز الرفع عن النصب أو الجر، ويذكر أن زياد بن أبيه طلب منه وضع علامات من أجل قراءة صحيحة (٩) فجعل الدؤلي هذه الحركات على شكل نقاط توضع على الحرف دليل الفتح، وإلى جانبه دليل الضم، وتحتة للكسر، وهذا العمل اقتصر على القرآن ، حيث طلب من زياد بن أبيه كاتباً وطلب من الكاتب أن يحمل صباغاً أحمر وقال له: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه وإن ضمنت فانقط بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت،، ففعل ذلك (١٠) ، وكانت هذه الحركات بلون غير لون الكتابة كي تتميز عنها، ولقد وجد في جامع عمرو بن العاص مصحفاً كوفياً منقط على هذه الطريقة (١١)، ولقد اقتصررت هذه الطريقة على المصحف، أما في الكتب العادية كان العرب يفضلون ترك الحركات (١٢). وتابع اللغويون جهود

(١) يحيى بن يعمر هو من عدوان كان حليف بني ليث، وهو عالم فصيح ، يروى عنه الفقه، وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي توفي عام (١٢٩هـ/ ٧٤٦م) انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٤-٢٧. والأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن محمد (ت ٥٧٧هـ/ ١١٨١م) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق ابراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، ج ٢، ص ٢٤،

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٨، ص ٧٦، و ص ٧٧، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٤) كانت أمه فارسية واسمها مرجانة، انظر فك، يوهان، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٥.

(٥) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٢١١.

(٦) النديم، ص ٥٩، و الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢١، الأنباري، نزهة الألباء ، ص ١٨ ، و أمين ، أحمد ، فجر الإسلام، ص ٢٨٦ ، ومحمد الشاطر أحمد محمد الموجز في نشأة النحو ، ص ١٥.

(٧) سالم، السيد عبد العزيز، الدولة العربية، ج ٢، ص ٤٢٤.

(٨) النديم ، الفهرست، ٦١.

(٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٣٧، وابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩٧.

(١٠) النديم، الفهرست، ص ٥٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٣٧.

(١١) زيدان، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، دار الهلال، دم، ص ٢٢٣، و مصطفى ، محمود ، الأدب العربي وتاريخه في عصري صدر الإسلام والدولة الأموية، ج ١، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط ٢ ١٩٣٧، ص ١٧٣.

(١٢) حمودة، محمود ، تاريخ الكتاب الإسلامي، مكتبة غريب، مصر، د.ت، ص ٩٣، ومصطفى محمود ، الأدب العربي وتاريخه، ص ١٧٣.

الدولي فيما بدأه من تمييز الحركات التي تفرق بين الفعل والفاعل والمفعول.. وكان في مقدمة تلاميذه نصر بن عاصم الليثي(١) وعبد الرحمن بن هرمز(ت١١٧هـ/٧٣٥م) (٢) ويحيى بن يعمر(ت١٢٩هـ/٧٤٦م)(٣) وعنبسة الفيل(٤) وميمون الأقرن(٥) واستمرت هذه الجهود إلى أن صاغها أحمد بن الخليل الفراهيدي(٦) على شكل علامات الضبط التي لا تزال مستعملة حتى اليوم، حيث أخذ من حروف المد صورها مصغرة للدلالة عليها، فالضمة واو صغيرة في أعلى الحرف، والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوقه(٧) .

ولقد كان لنصر بن عاصم ويحيى بن يعمر الفضل في تنقيط بعض الأحرف العربية؛ أي إزالة عجمة الحرف وبنيته، ولهذا سميت حروف الهجاء العربية حروف المعجم، أي وضع نقط لتمييز الحروف المتشابهة في الرسم فمثلاً حروف الباء والتاء والثاء لها الشكل نفسه(ر) والذي لا يميز إلا بالقراءة، حيث لم يكن لها نقط من قبل. الأمر الذي أدى إلى انتشار التصحيف وبخاصة في العراق، مما استدعى من الحجاج الثقفي الطلب من كتابه وضع علامات يمكن من خلالها تمييز الأحرف عن بعضها، فقام نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بذلك(٨) إذ وضعوا النقط بنفس لون المداد الذي كُتب فيه، مع استمرار حركات الإعراب التي وضعها الدولي باللون الأحمر، ولقد وُجِدَتْ في معرض الكتب المصرية كتابة عربية في صحيفة من البردي مؤرخة (٧٠٩هـ/٩١١م) فيها تنقيط لكنه قاصر على الصور المتشابهة للباء للتمييز بينها وبين التاء والثاء، وصورة حرف الشين لتمييزها عن السين بثلاث نقط مصفوفة على استواء واحد(٩) وهذا يشير أن التنقيط لم يشمل كل الأحرف. ومن الأسماء السابقة الذكر يتضح دور العراق بشكل عام والبصرة بشكل خاص، في نشأة القواعد الأولى للعربية، إذ شكلت البصرة مدرسة في هذا العلم، رغم أن هذه الكلمة لم تكن واردة آنذاك، وغلب عليها اسم هذا المذهب، وفي هذا الصدد يقول ابن سلام: كان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنحو ولغات العرب وللغريب عناية(١٠) كما قال النديم: "إنما قدمنا أهل البصرة أولاً لأن علم العرب عنهم أخذ"(١١)، واستطاعت الكوفة فيما بعد مجاراة البصرة في هذا العلم ، حتى غدا الأمر تنافساً بينهما.

-
- (١) كان نصر فقيهاً عالماً بالعربية ويفلق بالعربية تقليقاً انظر: الزبيدي، طبقات النحويين، ص٢٧، والأنباري، نزهة الألباء، ص٣٢، الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب(ت١١٧هـ/٤١٤م)البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، جمعية إحياء التراث العربي، الكويت، ط١، ١٩٨٦، ص٢٣٢، والسيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩، ج٢، ص٣١٣-٣١٤.
 - (٢) كان عبد الرحمن من أول من وضع العربية، وكان أعلم الناس بالنحو وأنسب العرب، انظر: الزبيدي، طبقات النحويين، ص٢٦، والتميمي، مشاهير علماء الأمصار، ص٧٧، الذهبي، سير، ج٥، ص٧٠. والفيروز آبادي، البلغة، ص١٣٤.
 - (٣) ويحيى بن يعمر أبو سليمان أو أبو سعيد العدوان البصري كان تابعياً لقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وغيرهما وهو أحد قراء البصرة انتقل إلى خراسان وكان عالماً بالقرآن والنحو ولغات العرب، ابن خلكان، وفيات، ج٦، ص١٧٣.
 - (٤) ابن أبي هاشم البزاز، ص٢٠، ابن خلكان ، وفيات، ج٦، ص٤٩١، والفيروز آبادي، البلغة، ص١٦٦، وعنبسة بن معدان مولى مهرة أصله من ميسان، الزبيدي، طبقات، ص٢٩.
 - (٥) إمام مقدم بالعربية أخذه عن أبي الأسود، انظر، الزبيدي، طبقات، ص٣٠، والسيوطي بغية الوعاة، ج٢، ص٣٠٩.
 - (٦) الزبيدي، طبقات، ص٤٧-٥١، والأنباري، نزهة الألباء، ص٤٤-٤٦، و السمعاني، الأنساب، ج٤، ص٣٥٧، الفيروز آبادي، البلغة، ص٩٩، وابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١، ص٥٥٢-٥٥٣.
 - (٧) شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص٣.
 - (٨) الطنطاوي، نشأة النحو، ص٧٢.
 - (٩) زيدان، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية، ص٢٢٥.
 - (١٠) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص١٢.
 - (١١) النديم، الفهرست، ص٩١.

ونبع جيلٌ آخر من النحاة الذين سطرُوا علامات فارقة في مجال النحو إذ اعتنوا بالقياس ووضعوا الكثير من أصول النحو ومسائله، ومنهم عبد الله بن أبي إسحق (ت ١١٧هـ/٧٣٥م)، (١) وسار على نهجه تلميذه عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٦هـ/٧٦٣م) (٢) الذي مكّن قواعد النحو التي اعتمدها تلميذه الخليل بن أحمد، ومن تلاه من البصريين، وكان من تلاميذ عيسى أيضاً أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ/٧٧٠م) (٣) وهو أحد القراء الذين اعتنوا بلغات العرب وغربها وأشعارها وأيامها ووقائعها، ولقد ذُكرت له بعض الآراء النحوية، مع أنها كانت قليلة (٤) وبلغ الخليل الفراهيدي، الذي ولد في البصرة الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو، وهو الذي بسط النحو ومد أطنا به وانتهى إلى أبعد غاياته (٥) فللخليل إذاً فضل القيام بهذا العلم كما لأبي الأسود الفضل في تكوينه، فالخليل هو من وضع علم الموسيقى العربية وعلم العروض والقافية وأول من دون معجماً في اللغة بتأليفه وهو معجم "العين" (٦) والذي أكمل فيما بعد (٧) وبهذا تكون الأصول الأولى للنحو العربي والفكرة الأولى للمعاجم التي حفظت العربية. كما اعتنى خلفاء بني أمية بمختلف أشكال الأدب من شعر وخطابة ونثر إمعاناً في تثبيت العربية وتوطيد مركزها وتقويتها، إذ دخرت مجالس الخلفاء والولاة وخاصة القوم بالمنظرات الأدبية وبالشعر، بل إن أكثر ما اهتم به الأمويون بعد السياسة كان الأدب ولذلك جاءت أخبارهم الأدبية بالمرتبة الثانية بعد الأخبار السياسية كما كانت البضاعة الأدبية هي الرائجة في الأسواق كسوق المربد قرب البصرة والذي أقيمت فيه المناشدات والمفاخرات الأدبية.

ب-الخطابة: فقد كانت كالإعلام المتحرك وكان لها دور في فض المشاكل وقطع الخصومات وتهدة النفوس الثائرة وإثارة الحماسة في ذوي النفوس الفاترة والمراد منها التأثير في نفس السامع ومخاطبة وجدانه وإثارة إحساسه ليذعن للحكم ويسلم به تسليماً (٨) ولقد أغنت الأحداث السياسية والدينية الخطابة، إذ كانت الخطابة الوسيلة التي استخدمها الخطيب للتأثير كما كان لشخصية الخطيب دوراً بارزاً في ذلك من خلال استخدام مفردات وجمل تخدم الفكرة التي يخطب من أجلها، وتعددت أشكال الخطابة بين السياسية والدينية والاجتماعية وكان لكل منها وظيفته فالسياسية استخدمت لردع المعارضة من قبل الأمويين، واستخدمت ضدهم من قبل معارضاتهم، فالأمويون وخاصة الخلفاء وولاتهم استخدموا الخطابة للتهديد والوعيد كما فعل عبد الملك بن مروان في مكة بعد قضائه على عبد الله بن الزبير، أو كما فعل وولاتهم كزياد بن أبيه والحجاج الثقفي واللذين كان لهما خطبهما القاسية والقوية التي دلت على شخصيتهما القوية، كما كان لكل حزب سياسي خطبائه الذين تكلموا بخطب عكست آراءهم وأفكارهم، ومن أولئك الخوارج الذين أطالوا خطبهم واعتنوا بصناعة كلامهم ليكون

-
- (١) هو أبو بحر البصري كان مولى آل الخضر يانظر: الزبيدي، طبقات، ص ٣١-٣٢، والأنباري، نزهة الألباء، ص ٢٦، وابن حجر، تهذيب، ج ٢، ص ٣٠٣. والسامرائي، ابراهيم، المدارس النحوية، دار الفكر، عمان الأردن، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٧.
- (٢) عيسى بن عمر مولى خالد بن الوليد نزل ثقيف وكان يطعن على العرب، الزبيدي، طبقات، ص ٤٠-٤٥، والأنباري، نزهة الألباء، ص ٢٨-٣٠، والياضي، أبو محمد عبد الله اليمن (ت ١٣٦٦هـ/٧٦٨م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣، ج ١، ص ٣٠٧.
- (٣) أبو عمر اسمه زبان بن عمار المازني بصري كان واسع العلم بكلام العرب ولغاتها وغربها كان منجلة القراء الموثوق بهم، الزبيدي، طبقات، ص ٣٥-٤٠، والأنباري، نزهة الألباء، ص ٣٠-٣٥، والياضي، مرآة الجنان، ج ١، ص ٣٢٥-٣٢٩.
- (٤) شوقي ضيف، المدارس، ص ١٨.
- (٥) ابن حنبل، مسائل الإمام أحمد، ص ٤٤٧، وابن خلكان، وفيات، ج ٢، ص ٢٤٤، والذهبي، سير، ج ٧، ص ٤٢٩، و ابن حجر، تهذيب، ج ١، ص ٥٥٢.
- (٦) ضيف، شوقي، المدارس، ص ٣٠، والطنطاوي، نشأة، ص ٧٨.
- (٧) سقال، ديزيرة، نشأة المعاجم العربية وتطورها، دار الصداقة، بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ص ٣٧.
- (٨) أبو زهرة، محمد، الخطابة وأصولها وتاريخها في أزهي عصورها عند العرب، ط ١، ١٩٣٤، ص ١٥.

أسرع إلى القلوب وكانوا يضيفون مواعظ تصور عمق تدبيرهم وتمسكهم بالعروة الوثقى(١) وكذلك اشتهرت الخطابة الدينية وكانت بهدفين إما خطابة دينية مبطنة بلهجة سياسية وخاصة عند أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين وإما دينية خالصة بهدف الوعظ، هذا بالإضافة إلى خطابة المحافل والتي اعتمد عليها الوافدون للتهنئة أو التعزية أو الشكاية.

ج- الكتابة: ازدهرت جنباً إلى جنب مع الخطابة ، فالأسباب والدوافع واحدة عندهما، إلا أن الكتابة أُعطيت دفعة من التقدم بعد استحداث الدواوين وما أثر ذلك على أطرها العامة، حتى غدت الكتابة في نهاية هذه الدولة صناعة محكمة لها نظمها وقوانينها، وكان من بين الذين جهدوا في الكتابة سالم بن عبد الرحمن مولى هشام بن عبد الملك، الذي أسس مدرسة الكتابة الفنية التي برز فيها عبد الحميد الكاتب(١٣٢هـ/٧٥٠م)(٢) مولى بني عامر والذي أصبح رئيس ديوان الرسائل لهشام، وكان تلميذاً لسالم، فقد تميز عبد الحميد بأنه أول من مهد سبيل البلاغة في الترسل، وأول من استخدم التعميمات في فصول الكتب(٣) حتى أنه وضع للكُتاب شروطاً ونصائح في الكتابة وذلك من خلال الرسالة التي وجهها إليهم يوصيهم فيها بمعرفة كتاب الله والفرائض وعلم العربية والأشعار والتاريخ..(٤). وكان لاتساع الكتابة وقوة وجودها، أن استعملت في الرسائل الشخصية، وهذا ما عُرف بالرسائل الإخوانية التي كتبها الناس فيما بينهم، والتي ظهر فيها الإبداع والسجع وازدواج التقسيم.

د- الشعر: لقد راج في هذا العصر لأنه بالأساس يمثل ديوان العرب، ومكان فخرهم وأسلوب بوحهم عما يدور في خلدكم، بالإضافة إلى العناية التي أولاهم الخلفاء والأمراء والولاة، إذ أرسلوا وفودهم للشعراء لالتماس المدح والتناء أو بعثوا إليهم في المناسبات الحافلة يطلبون منهم إنشاد المديح والقصائد، بل إنه كان لكل حاكم أموي باستثناء عمر بن عبد العزيز شاعر مفضل أو مجموعة شعراء مفضلين، يحصلون على الجوائز مقابل شعرهم الذي قالوه لخدمة أهدافهم، لأنهم في نظر الأمويين وسيلة إعلامية رائجة تؤثر على الناس بالقدر الذي يؤثر الشعر فيهم(٥)، ونظراً لطبيعة المرحلة الأموية وما أفرزته من صراعات أدت إلى تبني الشعراء للتيار الذي ينتمون إليه وبالتالي الدفاع عنه وتمجيده، كما كان لانتشار الرفاهية التي وفدت إلى العالم العربي مع اتساع مساحته، ومشاركة غير العرب نواحي نشاطه، ووفرة الغنائم وكثرة الأموال- خاصة في الحجاز لأغراض سياسية أرادها الأمويون- دورها في تهيج مشاعر الشعراء الذين توهجت عواطفهم فأفرغوا جهودهم في شعر الغزل الصريح على وجه الخصوص، وكان أشهرهم(٦) عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة(٧) وكثير عزة. أدت الأحداث والظروف والمعطيات إذاً إلى تنوع الشعر بين السياسي والحزبي والنقائض وغيرها. ومهما كانت دواعي الشعر في هذا العصر فلقد سما وتألق وتعددت أساليبه وبياناته.

(١) ضيف، شوقي ، الفن ومذاهبه، ص٦٨.

(٢) عبد الحميد الكاتب بن يحيى بن سعد العامري بالولاء عالم بالأدب من أئمة الكتاب يضرب به المثل بالبلاغة أصله من قيسارية سكن الشام وكتب لمروان بن محمد، ابن خلكان، ج٣، ص٢٢٨.

(٣) المسعودي، مروج، ج٣، ص١٨٠.

(٤) ابن خلكان ،وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٢٨، ابن خلدون، المقدمة، ص٢٤٨.

(٥) خفاجي ،عبد المنعم، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل ،بيروت، ١٩٩٠، ص٤٤٣. و محمود مصطفى، الأدب العربي، ج١، ص٢٦٨.

(٦) محمد، سراج الدين ، الغزل في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص٢٠.

(٧) جميل بن عبد الله بن معمر أحد عشاق العرب المشهورين صاحبه بثينة وهو من قبيلة عُذرة(ت٨٣هـ/٧٠٤م)انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٤٣٤-٤٤٤، وابن سلام، طبقات فحول، السفر الثاني، ص٦٦٩، وابن خلكان، ج١، ص٣٦٦-٣٧٢.

٢-العلوم الدينية: كان القرآن الكريم والحديث الشريف المستند الأساسي للعلوم الدينية، وأدى التأمل ودراسة أحكام القرآن والسنة إلى ضرورة فهم العبارة، وبذلك نشأ علم التفسير، وأدى اختلاف القراء للقرآن إلى نشوء علم القراءات ، وبإسناد السنة إلى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين نشأ علم الحديث، ثم كان لا بد من استنباط هذه الأحكام وأصولها، وهو علم أصول الفقه ثم الفقه.

أ-علم القراءات: وهو علم كيفية قراءة القرآن، وهي ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقراءات جمع قراءة، وتعريفه هو العلم الذي يبحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن، والاختلاف في قراءته لحمايته من التحريف والتغيير(١)، ولقد تم الاعتماد على القراءة الأولى التي شهد بها زيد بن ثابت وكتبها لرسول الله، ثم نسخها سبعة نسخ بأمر من عثمان بن عفان الذي أرسلها إلى مختلف المدن العربية(٢) واحتفظ بنسخة الأصل في المدينة سماها المصحف الإمام(٣).

ومع توسع الدولة العربية الإسلامية ظهرت قراءات عديدة وكانت جميع هذه القراءات ترجع إلى حرف واحد هو الحرف الذي جُمع عليه القرآن في خلافة عثمان ومنشأ هذه القراءات يعود إلى اختلاف اللهجات وكيفية النطق بها، وذلك كالترقيق والفخم والإدغام والمد وغير ذلك من طرق الأداء(٤) وبما أن مصاحف عثمان كانت غير منقوطة وغير مشكولة، فلم يكن هناك تمييز بين الحروف المتشابهة، وكان هذا الوضع مقبولاً في تلك الأيام لقرب الناس من زمن تلقي ومشاهدة النبي لكن الأمر تغير بمضي الزمن حيث ظهرت بواعث الخطأ في القراءة والتصحيح(٥) في الكتابة، وبلغ الأمر مداه في عهد عبد الملك بن مروان وخاصة بالعراق، فقام الحجاج كما سبق القول بالطلب من نصر ويحيى بوضع النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة.

ولقد اشترط العلماء أو القراء فيما بعد شروطاً للقراءة السليمة أولها: أن تكون موافقة للغة العربية، و أن تكون موافقة للمصحف الإمام وصحة السند في تواترها عن الرسول أو أحد الصحابة. ولقد اشتهر سبعة من القراء منهم عبد الله بن عامر اليحصبي إمام أهل الشام(ت١١٨هـ/٧٣٦م)وتولى مشيخة الإقراء بدمشق(٦)عبد الله بن كثير المكي(ت١٢٠هـ/٧٣٧م)وهو إمام القراءة في مكة لم ينزعه فيها أحد حتى مات(٧) ، وعاصم الكوفي أبو بكر الأسدي(ت١٢٧هـ/٧٤٤م)بالكوفة وكان أحد القراء المشاهير وشيخ الإقراء بالكوفة(٨)، وأبو عمرو بن العلاء البصري زبان كان إمام البصرة ومقرؤها ، وهو إمام في العربية والإقراء(٩).

(١)محاسنة، محمد ، بناء الدولة العربية الإسلامية ،مطبعة البهجة، إربد، ١٩٩٩، ص٢١٦، و جولدتسهر، اجنتس، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحلیم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥٥، ص٨.

(٢) الأمصار هي مكة الشام واليمن والبحرين والبصرة انظر: كرو، الهادي ، أصول التشريع الإسلامي، الدار العربية للكتاب، تونس ط٣، ص٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص٢٧.

(٤)عبد العزيز، أمير ، دراسات في علوم القرآن، دار الفرقان، عمان، ص٩٤.

(٥) التصحيح يعني الخطأ في الصحيفة أي الكتابة، ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص١٨٦.

(٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص٣٦٣،وعبد الله اليحصبي أحد القراء السبعة ويكنى أبا عمر أخذ القرآن عن عثمان بن عفان وهو من الطبقة الأولى من التابعين من أهل دمشق مات فيها، النديم، الفهرست، ص٤٣.

(٧) عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة وهو مولى عمرو بن علقمة الكناني وهو من أبناء فارس وهو من الطبقة الثانية من التابعين، مات بمكة، ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٤١،والذهبي، سير أعلام، ج٥، ص٣١٨-٣٢٢.

(٨)وعاصم هو أبو بكر النجود بهدلة مولى بني جذيمة أحد القراء السبعة، ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٩،

(٩) الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد(ت١٣٤٧هـ/٧٤٨م) معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار، تحقيق، بشار عواد معروف، وشعيب الأرنؤوط، وصالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص١٠٠،والذهبي، سير، ج٦، ص٤٠٧، و

ج١، ص١٠٠،والفيروز آبادي، البلغة، ص١٠١

ب- التفسير: لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا يفهمونه ويدركون أغراضه ومراميه، وإن تفاوتوا في هذا الفهم والإدراك تبعاً لاختلاف درجاتهم العلمية ومواهبهم العقلية، ولعل ابن خلدون كان مبالغاً حين ذهب في القول بأن الصحابة جميعاً كانوا في فهمه سواء (١) كما ورد عن ابن مسروق قوله: "جالست أصحاب محمد فوجدتهم كلًاخذ (٢)، فالإخاذ يروي الرجل ، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ" (٣) . فالنفسير هو العلم الذي يبحث في أحوال القرآن الكريم من حيث دلالاته وعلم نزول الآيات القرآنية من حيث أسباب نزولها، وترتيبها مكية أو مدنية، ومحكمها ومشابهها، وناسخها ومنسوخها ومحكمها وعمها، ونهياها وأمثالها.. (٤)، وكما قال الزركشي التفسير علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه (٥) ، وكان الصحابة إذا أشكل عليهم معنى من معاني القرآن يلجؤون إلى الرسول فيشرحها لهم، وفي عصر الخلفاء الراشدين كان المسلمون على علم بمناسبات النزول، ومقاصد الآيات فكانوا يفهمون ويدركون معانيه بسهولة ويسر، وعندما اتسعت الدولة العربية الإسلامية وانتشر العرب في الولايات البعيدة ودخلت أقوام كثيرة في الدين الإسلامي، كان يصعب على بعضهم فهم معاني الكثير من الآيات ومغزاها دون شرحها وتوضيحها، لاسيما وأن القرآن الكريم جاء على أعلى مستوى من البلاغة اللغوية فظهرت الحاجة إلى تفسير الآيات بتبسيط وبيان معناها ودلالاتها، وأسباب نزولها غير أن الصحابة كانوا متفاوتين في قراءتهم على تفسير القرآن تبعاً لمقدار سماعهم التفسير عن الرسول ، ولمقدار ما شاهدوا عن أسباب النزول (٦) ، ولقد اشتهر بالتفسير عدد كبير من الصحابة منهم: الإمام علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري، هذا بالإضافة إلى عدد من التابعين منهم: سعيد بن جبير (ت ٧١٣هـ/٩٥٥م) ومجاهد بن جبير (ت ١٠١هـ/٧١٩م) وهو من أوثق تلاميذ ابن عباس (٧) وزيد بن أسلم (ت ١٣٦هـ/٧٥٣م) وعن هؤلاء أخذ تابعو التابعين وسفيان الثوري (٩) (ت ١٦١هـ/٧٧٧م) كسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ/٨١٣م) (١٠) وغيرهم ويصب تفسير القرآن في تيارين: الأول: ما عُرف بالتفسير المأثور (١١) أي أنه إذا رجع التفسير إلى بيان أسباب النزول، أو كان ما لا مجال للرأي فيه، فهو في حكم المرفوع إلى النبي، ومن هنا يجب الأخذ به. أما الثاني: فهو تفسير بالرأي وهو أن يكون للرأي في التفسير مجال موصوف عليه، ما

(١) المقدمة، ص ٢٤٨.

(٢) الإخاذ بالكسر شيء ما كالغدير، الرازي، مختار الصحاح، ص ٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٣٤٣، وابن الجوزي، صفة، ج ١، ص ٤٠٤ .

(٤) السيوطي، جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، مطبعة بابي الحلبي، القاهرة، ج ٢، ص ٧٤.

(٥) محاسنة، محمد حسين ، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي، العين، ٢٠٠١، ص ٦١.

(٦) شحاتة، عبد الله، علوم التفسير، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١، ص ١٥.

(٧) جولدتسهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٨٢.

(٨) زيد بن أسلم المدني، أبو أسامة أو أبو عبد الله، كان له حلقة في المسجد النبوي ، ابن حجر، تهذيب، ج ١، ٦٥٨، و السيوطي،

طبقات الحفاظ، ج ١، ص ٦٠.

(٩) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٧، ص ١٢٤٧ وابن حجر ، التهذيب، ج ٢، ص ٥٦-٥٩ . وجولدتسهر، مذاهب التفسير الإسلامي،

ص ٨٢، وابراهيم، حسن، التاريخ السياسي، ج ١، ص ٤١. ومحاسنة، أضواء على تاريخ العلوم، ص ٦٤، وسفيان الثوري هو سفيان

ابن سعيد بن مسروق من مضر أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد ونشأ في

الكوفة وتقل بين مكة والمدينة ومات في البصرة مستخفياً، ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ٣٧١، وابن خلكان، وفيات، ج ٢، ص ٣٦٦.

(١٠) سفيان بن عيينة بن أبي عمران، صحب الزهري، وكان ثقة، ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٩٧، ابن حجر، تهذيب، ج ٢،

ص ٥٩-٦١،

(١١) جولدتسهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٨٢، والخربوطلي، الحضارة، ص ٢٧١، ومحاسنة، أضواء، ص ٦٤.

لم يسنده إلى رسول الله، والأخذ بهذا التفسير غير واجب، لأن الصحابي هنا مجتهد، قد يصيب وقد يخطئ، وليس له امتياز في هذا الموقف على بقية الناس. وبإمكانية الرأي هذا أصبح التفسير مفتوحاً على الاحتمالات من ديانات أخرى كاليهودية والمسيحية، نظراً لما تحدث القرآن عنه من قصص الغابرين، ومن الذين أثروا في التفسير، كعب الأخبار ووهب بن منبه (١).

وتوزع المفسرون الأوائل، حيث كان يجلس إليهم في كل إقليم أو مدينة من يحب الأخذ عنهم، ومن هنا نشأت مدارس للتفسير، والتي على الأغلب كانت تنتمي إلى أحد من الصحابة الذين أخذ عنهم التابعون، وأبرز هذه المدارس ثلاثة هي: مدرسة العراق، وأصحابها كانوا تلاميذ عبد الله بن مسعود، ومنهم مسروق بن الأجدع الكوفي (٢) (ت ٦٢٣/هـ ٦٨٢م) والأسود بن يزيد (٣) (ت ٦٩٥/هـ ٧٥٥م) وعامر الشعبي (ت ٧٢٣/هـ ١٠٥م) أما المدرسة الثانية فهي مدرسة مكة، وكان مفسروها تلاميذ عبد الله بن عباس ومنهم مجاهد بن جبير المكي وعكرمة مولى ابن عباس (ت ٧٢٣/هـ ١٠٥م) وعطاء بن أبي رباح (ت ٧٣٢/هـ ١١٤م)، ومدرسة المدينة ورجالها تلاميذ أبي بن كعب (ت ٦٤٢/هـ ٦٤٢م) (٤) وأبو العالية رفيع بن مهران الرباعي (٥) (ت ٧٠٨/هـ ٧٠٨م) أصحاب زيد بن أسلم (ت ٧٥٣/هـ ١٣٦م) ومنهم محمد بن كعب القرظي (٦) (ت ٧٣٦/هـ ١١٨م). وفي هذا الوقت كان التفسير بمثابة توأمة للحديث، بل اعتُبر التفسير جزءاً من الحديث، أو فرعاً من فروعها، فلم يكن التفسير قد أُفرد في مدونات خاصة به، تتناوله سورة سورة، وآية آية، بل كان جزءاً من الروايات التي يجمعها رواة الحديث (٧).

ج- علم الحديث: هو كل ما قاله الرسول شفويّاً في موضوع ديني أو دنيوي، ولقد اشتهر عدد لا بأس به ممن حفظوا أحاديث الرسول، ومنهم أبو هريرة (ت ٦٧٧/هـ ٥٨م) (٨) وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله (ت ٦٩٧/هـ ٧٨م) (٩) وعبد الله بن عباس والحسن البصري ومحمد الزهري. ولكن لا بد من التذكير بأن الحديث قد طاله الغش على إثر الانقسامات والصراعات التي حدثت للأمة العربية الإسلامية، فالمصالح السياسية والفكرية وغيرها رأت ضرورة تثبيت مواقفها بأحاديث للرسول الكريم وهذا أدى إلى ظهور واضعي الحديث

-
- (١) جولدستهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٧٦، و ابراهيم، حسن، التاريخ السياسي و، ج ١، ص ٤١٠،
 وكعب الأخبار هو ابن مانع بن ذي هجن الحميري أبو اسحاق تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم زمن
 (٢) مسروق بن مالك بن الأجدع الهمداني أبو عائشة تابعي فقيه من أهل اليمن، قدم المدينة في أيام أبي بكر وسكن الكوفة وشهد
 حروب علي: ، و ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٥٧، ص ٣٩٦-٤٤٠، والذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٢٤٣، ٢٣٥.
 (٣) الأسود بن يزيد بن قيس النخعي تابعي فقيه من الحفاظ كان عالم الكوفة في عصره، انظر: الأصبهاني،
 حلية، ج ٢، ص ١٠٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٣٥٩، وابن حجر، تهذيب، ج ١، ص ١٧٣
 (٤) الذهبي، معرفة القراء الكبار، ج ١، ص ٢٨، وابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٩٧.
 (٥) أبو العالية كان مولى لبني تميم أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم بعد وفاة الرسول بسنتين الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٩٣،
 انظر ، وابن عساكر، ج ١٨، ص ١٥٩، والذهبي ، سير، ج ٤، ص ٢٠٧.
 (٦) محمد بن سليم أبو حمزة أو أبو عبد الله المدني من حلفاء الأوس كان أبوه كعب من سبي بني قريظة سكن الكوفة فالمدينة،
 الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٧، ص ٤٦٤، وابن حجر، تهذيب، ج ١، ص ٦٨٤.
 (٧) ابراهيم، حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٤١٠، والخربوطلي، الحضارة، ص ٢٧١-٢٧٢.
 (٨) أبو هريرة اسمه عبد الرحمن بن حجر الدوسي وكان اسمه في الجاهلية عبد شمس أسلم وكان إماماً وفقهياً كثير الحديث،
 التميمي، مشاهير علماء الأمصار، ص ١٥ وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٧، ص ٢٩٥-٣٩١، والذهبي، وسير أعلام
 النبلاء، ج ٢، ص ٥٧٨، ،و الصالحي، أبو عبد الله بن محمد عبد الهادي، دمشق، (٤٤٤/هـ ١٣٤٣م) طبقات علماء الحديث، تحقيق،
 أكرم البوشي، و ابراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٦، ج ١، ص ٩١-٩٢، .
 (٩) جابر بن عبد الله بن عروة بن جشم من الخزرج شهد العقبتين مع أبيه وشهد بديراً ، التميمي، مشاهير، ص ١١، والصالحي ،
 طبقات علماء الحديث، ج ١، ص ٩٧، و ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ١، ص ٤٣٥.

الشريف ، إذ ألفوا المقالات وصاغوها على هيئة أحاديث ونسبوا إلى الرسول(١) وهناك مواقف عديدة تدل على أن عملية الكذب على الرسول في وضع الحديث عن لسانه بدأت منذ عصر مبكر(٢) هذا بالإضافة إلى ما أجازته الوعاظ المرشدين لأنفسهم في إطار الترغيب والوعظ، وضع الأحاديث التي تساعد على التمسك بالفضائل(٣)، ومن أجل حفظ الحديث من الضياع والفوضى أمر عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث (٤) وبالفعل بدأ بتدوين الأحاديث، ففعل ذلك ابن جريج(٥)(ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) في مكة، ومحمد بن إسحق(ت ١٥١هـ/٧٦٨م)(٦) ومالك بن أنس(ت ١٧٩هـ/٧٩٥م) وغيرهم.

د-الفقه: يبحث هذا العلم في الأحكام الشرعية من مصادرها الأصلية ، وهي الكتاب والسنة، أو التوصل إلى رأي قانوني، فيما يُعرض من مسائل، حين لا يوجد جواب للمسألة الفقهية المعروضة؛ أي هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية(٧) ، ويتفق هذا المعنى الاصطلاحي مع المعنى اللغوي للفقه، والذي يعني العلم بالشيء والفهم له والفتنة(٨).

وفائدة هذا العلم هي القدرة على نصب الأدلة السمعية على مدلولاتها ومعرفة الأحكام الشرعية بتطبيق قواعدها على الأدلة التفصيلية، التي تستنبط منها الأحكام، والقضاء على ذلك أو الاجتهاد فيه يعتمد على العقل والتبرير وحقق الأمور واستخراج الدليل من الكتاب والسنة. ولقد ترك الرسول جملةً من الأصول والقواعد والتشريعات في القرآن والسنة، وكانت تكفي العرب آنذاك، حيث كان عددهم قليل، ويقتصر وجودهم على شبه الجزيرة العربية إلا أن هذه النظم لم تعد كافية بعد التوسع الهائل الناتج عن حركة الفتوحات، فاحتاج العرب إلى التشريع، حيث برزت مشكلات تحتاج إلى بيان حكم الشرع، فقد قضى الخلفاء الراشدين بالرجوع إلى القرآن والسنة، فإن لم يجدوا جمعوا أهل الرأي واستشاروهم أو اجتهدوا في ذلك، لكنهم كانوا يشددون في الاجتهاد(٩) ومع ازدياد حركة التوسع العربي انتشر الصحابة في البلاد المفتوحة يحملون الفكر العربي، والناس يسألونهم في مختلف الأمور فيجيبونهم كل حسب حفظه-أي الصحابة- وما أدى إليه اجتهاده، فكثرت أقوال الصحابة في الأمصار، فقد أثروا في تلاميذهم من حيث طريقة التفكير وتفسير القرآن ورواية الأحاديث، وقد أسهم في تنوع هذه التقاليد اختلاف الأوضاع في تلك الأمصار(١٠)، وبالتدرج أخذت تتكون مدارس حول الفقهاء والتابعين، الذين وعوا لأراء الصحابة وحفظوا من أحاديث الرسول وأضافوا إلى ذلك آراءهم الشخصية، وتميز في كل بلد من البلاد العربية إمام منهم، مثل سعيد بن المسيب في المدينة، وعطاء بن أبي رباح في مكة، وإبراهيم النخعي(ت ١٣٧هـ/٧١٣م)(١١) في الكوفة، كما برزت في الدولة العربية الإسلامية مدرستان فقهيّتان: الأولى :

(١) رفعت ، فوزي ، المدخل إلى توثيق السنة، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٨، ص١٢٦، و خلف الله ،محمد أحمد، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج٢، المؤسسة العامة للنشر، ط١، ١٩٩٥، ص١٦٩

(٢) خلف الله ،موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج٢، ص١٧٠.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص١٧٠.

(٤) المرجع السابق، ١٧٣.

(٥) ابن جريج هو عبد الملك بن عبد العزيز أبو خالد القرشي بالولاء ، ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٤٩١، التميمي، ومشاهير علماء الأمصار، ص١٤٥، والذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج٦، ص٣٢٥.

(٦) محمد بن اسحق بن يسار ، أصله من الموالي وله السيرة النبوية التي هذبها ابن هشام ،وله عدة مؤلفات، سكن بغداد ومات فيها، انظر: ، ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص٣٢١، البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص٢٣٣، وابن خلكان، وفيات، ج٤، ص٢٧٦.

(٧) شبلي، محمد مصطفى ، المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٢-٣٣.

(٨) ابن سيده، المخصص، ج١، ص٢٦٠، ابن منظور، ج١٣، ص٥٢٢.

(٩) محمد علي السائيس، نشأة الفقه الاجتهادي، ١٩٧٠، ص٦٥.

(١٠) فرشوخ، محمد أمين ، المدخل إلى علوم القرآن والعلوم الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٥٠، ص١٨٥.

(١١) الصالحي، طبقات علماء الحديث، ج١، ص١٤٥.

مدرسة للرأي (العراق) والتي رأى أصحابها أن أحكام الله معللة بعقل ،وأنها شُرعت لغايات فتبعت علل الأحكام، ومالوا إلى استعمال الرأي إذا لم يجدوا نصاً في القرآن أو السنة، مستندين إلى فعل كبار الصحابة، ولذلك سموا أهل الرأي، وكان مقرهم في الكوفة والبصرة(١). والثانية: مدرسة الحديث (الحجاز) والتي وقف أصحابها عند النصوص، وتوقفوا عن الإفتاء إذا لم يجدوا نصاً، واعتمدوا الحديث ونادراً ما اتجهوا إلى الرأي والقياس إلا في الحالات الضرورية جداً، وذلك بسبب تأثرهم بشيوخهم مثل عبد الله بن عمر، في تعلقهم بالآثار وتورعهم عن الأخذ بالرأي وقلة ما يُعرض عليهم من الحوادث، وكانوا إذا استفتوا في مسألة عرضوها على كتاب الله ثم على السنة ثم على آثار الصحابة(٢) .

كما كان للفقهاء مصادرهم التي تحكم قواعدهم والينابيع التي يستقي منها المشرعون قوانينهم، فمنها مصادر ثابتة لا تتغير، ومنها مصادر مرنة متطورة، تختلف باختلاف العصور، فالمصادر الأساسية الأربعة التي استنبط منها الفقه ، وهذه المصادر هي:

١- القرآن الكريم، ٢- السنة النبوية. ٣- الإجماع، وهو اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة الرسول على حكم شرعي(٣) ، ٤- القياس: وهو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه، لعلّة جامعة بينهما(٤). وهكذا كان الفقه الركيزة الأساسية والبوابة الواسعة للقضاء في مفهومه الواسع. وبذلك ترسخت في هذا العصر العلوم اللغوية والدينية على جميع المستويات وأعطت لهذا العصر القوة في المجال العلمي.

٥- الاهتمام المبكر بالعلوم التطبيقية:

إنّ دين الإسلام الذي بلغت دعوته إلى العلم حداً لم تصل إليه ديانة أو مذهب قبل الإسلام، لا يمكن أن يحول دون حضارة أو يعمل على عرقلة الرقي، فالحضارة العربية الزاهرة نهضت على سواعد المهتمين من العرب، حيث لم تكن العلوم الدينية واللغوية هي وحدها التي نالت شغف العرب المسلمين ، بل أيضاً كان للعلوم التطبيقية حيزاً من الاهتمام، حيث اتجه العرب بمنازعهم الفكرية إلى ميادين العلوم كافة، منذ المطالع الأولى لصدر الإسلام، فكما كانت العلوم الدينية علاجاً للروح كذلك كانت العلوم التطبيقية علاجاً للجسد، ، فلذلك حض الإسلام على الاهتمام بجميع مناحي الحياة حفاظاً على العنصر البشري، وإمعاناً في تطويره، وقد كانت أسس تحديد المواقيت واتجاه القبلة بواكير العناية بعلم الفلك ومتطلباته، بالإضافة إلى علم الكيمياء وشغف البعض فيه.

ولا بد من التذكير بأن هذه العلوم لم تأت من فراغ حضاري فالعرب أمة شغوفة بالمعرفة، فلقد كان لها بعض الاهتمامات الطبيعية والفلكية، قبل الإسلام، ولكن سلطان الأدب يبدو أنه طغى على كل سلطان للمعرفة آنذاك، كما كانت هذه المعارف مبعثرة الجوانب، فجاء الإسلام ، ليبنى ركيزة الدولة العربية الإسلامية التي بسطت لهذه المعارف الأرضية لتنمو فيها العلوم التي أثمرت على مدى القرون التالية.

١- الطب* : لقد مرّ ذكر الطب أثناء الحديث عن الصحة في العصر الأموي.

- (١) شلبي، محمد مصطفى، المدخل في تعريف، ص ١٢٧.
- (٢) شلبي، محمد مصطفى، المدخل، ص ١٢٧، ومحمد الدسوقي و جابر ،أمانة، مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي ص ١٢٠، والسائيس،نشأة الفقه، ص ٨٥ بعد.
- (٣) أبو زهرة، محمد، أصول الفقه، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٥٦،
- (٤) المرجع السابق، ص ١٧٢، ومحاسنة، أضواء على تاريخ العلوم، ص ٨٦.
- * انظر فقرة الاهتمام بالشؤون الصحية في الفصل الثالث.

٢-الكيمياء: هو أحد العلوم التي مارسها الإنسان منذ القديم، ولكن تاريخه في العالم القديم يكتنفه الغموض، فقد عرفها كثير من الشعوب القديمة، كالمصريين الذين مزجوا النحاس بالقصدير للحصول على النحاس الأصفر وكذلك صناعة الزجاج، كما عالجوا الحديد الخام للحصول على الفولاذ واستخدموا القصدير في طلاء الأواني النحاسية لمنع التآكسد وحدث الصدأ، بالإضافة إلى فن التحنيط، وصناعة الأصباغ لتلوين الثياب والأواني الفخارية(١) ، ويبدو أنهم احتفظوا بتقوهم في هذا المجال حتى ظهور الإسلام، حيث يذكر القفطي أن روم المصري الكيميائي كان بمصر قبل الإسلام، وله في الكيمياء كتب جلية(٢)، كما كان للفينيقيين معرفة للأصباغ وصناعة الزجاج(٣) كالمصريين وغيرهم من الشعوب الغابرة.

ومع هذا التفكير ظهر ما يُسمى الصناعة، حيث سيطرت على المشتغلين بها فكرة تحويل المعادن كالنحاس والرصاص والحديد إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة، وحلم المهتمون بعلم الكيمياء اكتشاف إكسير الحياة الذي اعتقدوا الحصول عليه ليطيل العمر ويعيد الشباب، وبقي هذا العلم شاغل الناس طيلة العصور القديمة، كما سرى تياره إلى بعض علماء العرب في العصور الوسطى، حتى إن ابن خلدون وحاجي خليفة قصدوا بالكيمياء تحويل المعادن المختلفة إلى ذهب(٤) .

وهناك خلاف حول هذه الكلمة ومعناها(٥) وأغلب الظن أن لفظة الكيمياء هي عربية الأصل، (Alchemy) بدلالة وجود أداة (ال) التعريف الخاصة باللغة العربية(٦)، ومهما يكن من أمر أصل الكلمة ومعناها، فالمهم هنا معرفتها في العصر الأموي، حيث اقترنت هذه المعرفة بخالد بن يزيد بن معاوية، رغم أن بعض المؤرخين ينكرون على خالد هذه الصناعة، ومنهم ابن خلدون(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) الذي يدعي وجود شبه في الاسم، أي أنه ليس المقصود به خالد بن يزيد الأموي، لأنه يعتبر أن خالد الأموي قريب العهد بالبدو: "فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها"(٧)، والمتتبع لأراء ابن خلدون يلاحظ إنكاره على العرب المعارف باستثناء اللغة والأدب، وسبق ابن خلدون في هذا الرأي كل من ابن الأثير(٨)(ت٦٠٣هـ/١٢٠٦م) والذهبي(٩)(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، لكن بمقابل هؤلاء المؤرخين هناك عدد آخر من المؤرخين الذين يذكرون فضل خالد في العلم عامة وفي الكيمياء على وجه الخصوص ومنهم الجاحظ(ت٢٥٠هـ/٨٦٤م) والأصفهاني(ت٣٥٦هـ/٩٦٦م) والنديم(ت٣٨٥هـ/٩٩٥م) وصاعدا الأندلسي

(١) لوكاس، المواد والصناعات عند المصريين القدماء، ص٢٥٨ وما بعد، و صالح، أحمد ، التحنيط فلسفة الخلود في مصر القديمة، جماعة حور الثقافية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ص٥٩.

(٢) القفطي، أخبار العلماء، ص١٢٧.

(٣) مازيل، جان، الحضارة الفينيقية والكنعانية، ص٦٩.

(٤) المقدمة، ج٢، ص٣١٠، وحاجي، ج٢، ص١٥٢.

(٥) لقد قيل في أصل تسميتها أنها اشتقت من لفظة شمس أو هو مشتق من لفظة كيم أو كيمت ومعناها الأرض السوداء) ومنها الحرق أو الأرض السوداء ولقد قورن هذا الاسم بمصر حيث عرفت مصر قديما بالأرض السوداء، أو أنها حورت عن اللغة العبرية من لفظة شامان وتعني السر والغموض، لما اكتنف هذه الصناعة من السرية، أو ربما أن هذه الكلمة (كيمياء) في اللغات الأوروبية والمشتقة من اليونانية (خيما) التي تعني سبك المعادن أو صهرها انظر: الطائي،فاضل أحمد ، الكيمياء والصيدلة، من موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت١٩٩٥، ج١، ص٢٦١، و فؤاد باشا، أحمد ، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٣، ص١٤٨.

(٦) Holmyrd, E,J,, Alchemy, Pelican Books,1957,p17.

(٧) المقدمة، ص ٥٠٥.

(٨) سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٨٣.

(٩) الفهرست، ص٣٣٨ وطبقات الأمم، ص٤٨.

(ت٤٦٢/هـ١٠٦٩م) (١) لكن هذه الشهادة من قبل هؤلاء المؤرخين أنكرها عدد من المؤرخين الغربيين ومنهم Dommely الذي اعتبره من الأساطير (٢). ويبدو أن بداية خالد مع هذا العلم كانت مما ترجمه له مريانوس من كتب الكيمياء، بعد سماعه عن مريانوس ببراعته بالكيمياء فأحضره إلى دمشق، وكان مريانوس تتلمذ على يد ستيفانس (٣) وبهذه الترجمات وفر هذا العلم ومعرفته لمن أراد ارتشافه من العرب، وغير العرب الذين يحسنون اللغة العربية، وبعد قراءة خالد لهذا العلم بإمعان شغف به.

وعند مناقشة أسباب اهتمام خالد بالكيمياء تظهر عدة آراء منها:

ما يقوله النديم عن خالد بأنه: "كان جواداً، .. وقيل له: لقد جعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة-أي الكيمياء- فقال: إنما أطلب ذلك إلا أن أغني أصحابي وإخواني، إني طمعت بالخلافة فاخترت دوني فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصنعة، فلا أحوج أحداً يعرفني يوماً وعرفته إلا أن يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة، ويقال والله أعلم أنه صح له عمل الصنعة" (٤) ويعني هذا الكلام أن يأس خالد من تحصيل الخلافة هو الذي دفعه نحو الكيمياء، أي أنه لم يحصل على شهرة الخلافة ونفوذها فاتجه إلى الكيمياء ليحقق المال والشهرة، رغم أن النظرة إلى هذه الصنعة كانت نظرة دونية، بحيث كان تعلمها لا يليق بالحكام والسادة (٥). وهناك رأي آخر يقول أنه طمع بتحصيل الذهب اللازم ليحصل به على الخلافة (٦)، ولكن لا تظهر على شخصية خالد هذه النزعة الثورية. وهناك رأي ثالث يقول بأن خالد أنفق الأموال الضخمة في طلب الذهب، واستحصال آلاته (٧) وأنه أفنى حياته في هذه الصنعة، ولماذا لا يكون حباؤها.

ولم يكن اهتمام خالد بالكيمياء من أجل الذهب فقط، بل لقد اهتم بالتجارب، وباستحضار بعض العقاقير الطبية (٨) وربما يعود التركيز على خالد كونه أميراً، لكن هذا لا يعني عدم وجود غيره، إذ إنه ترجم كتباً في الطب والكيمياء، كما ألف كتباً عديدة في الكيمياء، وهذا يدل على أن هذا العلم كان معروفاً في هذا العصر.

٣-الصيدلة: ارتبطت بالكيمياء، هذا المصطلح الذي ارتبط بالطب والكيمياء على حد سواء، حيث عرفها العرب باسم العطار، بحيث كان الطبيب هو من يركب الأدوية التي يحتاجها المريض (٩) فلقد عرفوا الأعشاب وفوائدها الطبية لكل مرض، ويتضح من كتاب تياذوق الذي بعنوان "إبدال الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها" معرفتهم لأنواع الأمراض والدواء اللازم للتركيب من أجل معالجتها، كما ذكر ابن سعد في طبقاته أن رجلاً كان يروي عن أدوية يتداوى بها (١٠) ويبدو أن الرازي استقى في كتابه الحاوي أكثر من مئة وصفة طبية

(١) ابن الأثير الكامل، ج٣، ص٤٦٤.

(٢) دوميلي، العلم عند العرب، ترجمة عبد الحكيم النجار ومحمد يوسف موسى، دار القلم، ط١، ١٩٦٢، ص٩٩.

(٣) من الممكن أن يكون هو اصطفن الذي ترجم لخالد كتب الكيمياء، النديم، الفهرست، ص٣٤٠.

(٤) النديم، الفهرست، ص٤٩٧.

(٥) عبد الله الدفاع، علي، إسهام العلماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٨٣.

(٦) الشطي، شوكت أحمد، الطب، ص٨٣.

(٧) إبراهيم، حسن، التاريخ السياسي، ج١، ص٤١٧.

(٨) حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية في العصور الوسطى، إشبيلية للدراسات، دمشق، ١٩٩٥، ص٢٧، والشكيل، علي جمعان، الكيمياء في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص٣٩.

(٩) نجيب عبد الرحمن، حكمت، دراسات في، ص٣٣٩، و أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي، ص١٨٧.

(١٠) الطبقات، ج١، ص١٢٢.

عن الطبيب ماسرجويه(١)، ويضاف إلى ذلك الركيزة الأساسية التي استقى منها المسلمون تداويهم ألا وهي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حيث وردت فيهما النصائح الطبية عن الأعشاب وفوائدها.

٤- الفلك (علم الهيئة): وهو العلم الذي يبحث في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة، ولقد أبدعت الحضارات القديمة في مجال العلوم الفلكية، فالمصريون القدماء اهتموا بمواعيد فيضانات النيل، كما عرفوا المزولة(الساعة الشمسية) (٢) بالإضافة إلى البابليين والكلدانيين والفرس(٣)، ولم يكن العرب بالبعيد عن هذا العلم منذ بداية العصور الوسطى، وربما من قبل الإسلام، على الرغم من أن معرفتهم اقتصرت على ملاحظة حركات الكواكب والنجوم ومعرفة أحوال الرياح وحوادث الجو على مدار فصول السنة، وتحديد مواعيد الرحلات التجارية والمناسبات الدينية والاجتماعية، فكونوا ملاحظتهم الفلكية بمحاولة استطلاع أحوال الكون ومعرفة الغيب والتنبؤ بالحظ، وأمور المستقبل، وهو ما عُرف بالتنجيم(٤) الذي نهى عنه الإسلام، فقد أتجه الاهتمام بالفلك على أثر الإسلام اتجاهاً آخر وذلك لفهم الآيات القرآنية، وربما كان لهذه الآيات الدور الكبير في قيادة العلماء العرب والمسلمين إلى علم الفلك، الذي يخدم بعض أركان الإسلام في تحديد أوقات الصلاة وتحديد القبلة والأشهر وغير ذلك من الأمور، حيث وردت آيات كثيرة تتحدث عن الفلك والكون ومنها: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾(٥) وكذلك ﴿والسما ذات البروج﴾(٦). وكان ممن اهتم بالفلك خالد بن يزيد بن معاوية، إضافة إلى ما سبق ذكره من اهتمامه بالمعارف الأخرى، حيث تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء(٧) ومما نُسب إليه من كتب في الفلك كتاب "ديوان النجوم" وهو عبارة عن أبيات شعرية في التنجيم(٨) وهذا يدل على اهتمام خالد بالنجوم وما يتعلق به، ويدل على ذلك ما ذكره القفطي عن ابن السبدي - أحد علماء الفلك- أنه كان في خزانة الكتب في القاهرة سنة(٤٣٥هـ/١٠٤٣م) كرة نحاسية من عمل بطليموس(٩) وقد كُتبت عليها حُملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية(١٠) وهذا إن صح فهو دليل على مدى الاهتمام الذي لاقاه هذا العلم على يد خالد. والذي على ما يبدو تتوج ببناء مرصد في هذا العصر وكان على جبل قاسيون(١١) والذي يمكن اعتباره المرصد الأول في الإسلام.

وممن كانت لهم بعض الخبرات الفلكية خبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوام(ت٩٣هـ/٧١١م) حيث يذكر ابن

-
- (١) الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، (ت٣١٣هـ/٩٢٥م) كتاب الحاوي، شرح محسن عقيل، دار المحبة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص٦٤.
 - (٢) الزؤل، الحركة، أي تحرك ظل الشيء، ابن منظور، لسان، ج١١، ص٣١٣.
 - (٣) عبد الله الدفاع، علي رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض، ط٢، ١٩٩٣، ص١١ وما بعدها و فؤاد باشا، أحمد، التراث العلمي، ص٩٤،
 - (٤) فؤاد باشا، أحمد، التراث العلمي، ص٩٦، و طوقان، قدرتي حافظ، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، دار الكاتب العربي، بيروت، ص٦٤.
 - (٥) سورة الأنبياء، آية، ٣٣.
 - (٦) سورة البروج، آية١.
 - (٧) النديم، الفهرست، ص٤٩٧.
 - (٨) بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ج١، ص٢٦٢.
 - (٩) بطليموس الفلوزي، يوناني ولد في صعيد مصر نبغ في الفلك والجغرافية، وله نظريات عدة في الفلك منها أن الأرض ثابتة، توفي على الأرجح في سنة ١٧٠م، انظر: علي عبد الله الدفاع، رواد علم الفلك، ص٢١.
 - (١٠) أخبار العلماء، ص٢٨٦.
 - (١١) العث، يوسف، الدولة الأموية، ص٣٤٨، والدفاع، رواد علم الفلك، ص٣٢، و محمد بن محمد محمود، الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار العلم، بيروت، ١٩٨٣، ص١٢٥.

الجوزي عنه أنه كان يعلم علماً كثيراً، لا يعرفون وجهه ولا مذهبه، يشبه ما يدّعي الناس علم النجوم(١)، ومما يدل على وجود الاهتمام بعلم الفلك الترجمة الموجودة لكتاب "عرض مفتاح النجوم" إلى العربية وهو منسوب لهرمس الحكيم، وهذا الكتاب هو عبارة عن تحويل سني العالم وما فيها من الأحكام النجومية(٢).

ومما يوضّح أيضاً الأرضية التي كانت موجودة لعلم الفلك تلك المناقشات أو بعض الأقوال التي كان يعتقد بها البعض في هذا العصر، والتي يفهم منها وإن كانت أموراً مختلطة مع بعض الخيال، إلا أنها تثبت إدراكاً للأجرام السماوية، ومنها قول عطاء بن أبي رباح(ت ١١٤هـ/٧٣٢م): "الشمس والقمر طولهما وعرضهما تسعمئة فرسخ في تسعمئة فرسخ، وعظم الكواكب اثنا عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخاً"(٣)، كما قال عكرمة مولى ابن عباس: "سعة الشمس مثل الدنيا وثلثها، وسعة القمر مثل الدنيا سواء"(٤).

في هذا العصر إذاً وضعت الثوابت للعلوم العملية والتي ارتقت فيما بعد لتكوّن علماً قائماً بحد ذاته.

-
- (١) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٣١٠.
 - (٢) كرلونيلنو، علم الفلك، ص ١٤٢، محاسنة، أضواء على تاريخ العلوم، ص ٢٠٣.
 - (٣) المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٢، ص ١٧.
 - (٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧.

ثانياً: مظاهر الضعف في المجال العلمي:

- ١ - عدم تمكن الأمويين من الفصل بين الاهتمام بالعلوم والاهتمام بالسياسة.
- ٢ - عدم تخصيص مبالغ مالية لدعم حركة تطوير العلوم.
- ٣ - وقوف معظم الخلفاء الأمويين ضد القدرية وقتل غيلان الدمشقي.

١- عدم تمكن الأمويين من الفصل بين الاهتمام بالعلوم والاهتمام بالسياسة:

انتشرت الثقافة العربية في الدولة الأموية برقعة هائلة في البلدان وفي مختلف القارات ، وكان العصر الأموي عصر نمو للحضارة العربية الإسلامية وهذا كله يبعث على التقدير والإعجاب، لاسيما وأنها حدثت في الوقت الذي كان فيه الأمويون يصارعون معارضة ناصبتهم العداوة وحقدت عليهم أشد الحقد، مما جعل الدولة تعيش معظم أيامها في صراع داخلي، والعجيب أن هذه الثورات والأحزاب المعارضة لا يجمعها هدف واحد سوى العداوة لبني أمية والقضاء على دولتهم، فكان الخوارج وثوراتهم المتعددة والشيعية وثوراتهم، وبعضها كان بدافع الطموح الشخصي مثل ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ويزيد بن المهلب والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وبعضها كان سببه عرقياً مثل حركات الموالى الذين لم يظهروا كحزب معارض له كيانه واستقلاله، بل كانوا ينضمون للأحزاب المعارضة للدولة والخارجة على سياستها، ويرون في ذلك متنفساً لهم وسبيلاً إلى تحقيق آماله في إضعاف الكيان العربي ومحاولة القضاء عليه، وقد عملت هذه الأحزاب والثورات على تكبيد الدولة خسائر مادية ومعنوية، وأخذها في اتجاه عسكرة الدولة أي صبغها بالصبغة العسكرية التي رافقت هذه الدولة طوال عمرها، وبذلك انشغلت الدولة الأموية بمقارعة الخصوم على اختلافهم ، الأمر الذي جعل الصورة القتالية تصبغ الحياة الأموية صبغة أبعدها رغم شموليتها واتساعها عن الاهتمامات الأخرى، وصحيح أن البوادر الفكرية والعلمية قد برزت في هذا العصر إلا أن الأمر كان من تلقاء نفسه؛ أي أن العلماء سواء الدينيين أم اللغويين وسواهم قد انطلقوا في هذا العصر لكن هذه الانطلاقة كانت بدافع شخصي، حيث حداثة الدين والنزعة للعربية التي تميز بها العرب والأمويون خاصة ، والتي استحقت بجدارة اسم الدولة العربية.

وعلى الرغم من شغف الدولة الأموية بالعلم إلا أنه يمكن القول بأنها قامت بتسييس العلم ؛ أي إن الأمويين صبوا العلم في بوتقة السياسة التي تصب هي الأخرى في مصالحهم، حيث دعموا كل ما وافق سياستهم وشرع سلطتهم، أما ما خالفها فقد نبذوه وكرّوهوا الناس به بل وصل الأمر إلى استصدار بعض الأحاديث التي تؤيد حكمهم ومنها على سبيل الذكر لا الحصر " الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً بعد ذلك" (١) .

ولم يفكروا بعمل رسمي تُجمع فيه أحاديث رسول الله لدراستها وحفظها من الزيادة والنقصان باستثناء ما قام به عمر بن عبد العزيز ، والذي طلب من واليه على المدينة أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم رواية الحديث (٢) بل إنهم جندوا ما استطاعوا من الجهرة الإعلامية والأدبية والفكرية لخدمة حكمهم وتسويقه ابتداءً من الشاعر الذي كان الإعلامي النشط بالنسبة لهم، الأمر الذي رفع من الشعر السياسي، حيث أصبح لكل حزب ولكل فرقة شعراؤهم المتكلمون باسمهم. ولعل محاولة الأمويين ابتداءً من معاوية بشكل خاص- كونه حكم عشرين عاماً - التشديد على مسألة الاختيار الإلهي للخلفاء الأمويين، ثم جعل هذه المحاولة بمثابة حقيقة نفسية- عمل على غرسها في الأذهان والنفوس- محاولة جديرة بالتأمل، إذ من المعلوم أن أول من قال في الجبر وأظهره كان معاوية، حيث أظهر أن ما يأتيه من قضاء الله وخلقه، ليجعله عذراً في مايفعله ، وليوهم بأنه مصيب فيه، وأن الله

(١) أحمد الطبري، الرياض النضرة، ج١، ص٢٥٥، ومحمود، ابراهيم ، الفتنة المقدسة، ط١، ١٩٩٩، ص١١٧، ويبدو أن وضع الأحاديث كان سياسة معتمدة من كثير من الأطراف المتصارعة في ذلك الوقت، لتبرير مآربها ، انظر في ذلك: أحمد أمين ، فجر الإسلام، ص٢١٣ وما بعدها..

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٣٨٧ و٣٨٨، ص٤٨٠، والقطن، تاريخ التشريع الإسلامي، ص٨٨.

جعله إماماً وولاه الأمر، وتفشى هذا الأمر في ملوك بني أمية(١)، فسلطوا الضوء على الأفكار القائلة بالجبر وبالتأجيل (المرجئة) واستغلوا لصالح مبادئهم، حيث كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة، لاعتباراتهم السياسية والدينية. ولكنهم كانوا يقضون على محرك هذه الحركات عندما يشعرون بخطرهم على دولتهم، كما فعلوا بالجهم ابن صفوان، إذ وجدت الثورات التي قامت ضد الأمويين في هذه الأفكار صيغة يشجبون بها فكرياً موقف الدولة الأموية، فكان ذلك بدء النشأة لتيار المرجئة والإرجاء في صفوف المعارضة لبني أمية، بعد أن نشأ مبكراً في صفوف هذه الدولة وأنصارها(٢).

هذا ورأى الأمويون أن بإمكانهم توظيف عمل القصاص(٣)، الذي يعتبر من العلوم التاريخية، لخدمتهم في المساجد، حيث أمر معاوية القصاص بان يرفعوا من مكانة الأمويين في عيون العرب(٤) ومن مظاهر التفات معاوية إلى أهمية القصاص أنه عين قاصاً بعد الصبح وبعد العصر(٥)، وبهذا تبنت الدولة القصاص وجعلتها لأغراض سياسية بحتة؛ أي وظيفة رسمية، حيث أوكلا إلى المحتسب مراقبة القصاص والقصاص(٦) ولم يكن يُسمح للقاص بالتحدث إلا بعد موافقة الدولة، فقد سمح معاوية لكعب الأحبار بأن يقص لأنه كان مؤيداً للدولة(٧)، فلقد كان هناك نوعان من القصاص إذاً: الأول قصاص الخاصة والذين كانوا من جماعة السلطة حيث كانوا يعظون ويتحدثون ويعبرون عن وجهة نظر الدولة، وهؤلاء دُعي إلى الاستماع لهم والأخذ عنهم، والثاني قصاص العامة، ومنهم كان قصاص المعارضة، الذين يمثلون الفرق والأحزاب المختلفة، وقد نهى الأمويون السماع لقصاصهم(٨)، وهذا يعني أن القصاص اتخذت بعد أحداث الفتنة الأولى في القرن الأول الهجري صبغة سياسية. وعندما سئل عطاء بن يسار(٩) قاص أهل الكوفة عن خطبة الجمعة قال: "إنما كانت الخطبة تذكيراً"(١٠) ويريد بذلك أنها كانت في بداية الإسلام للعتة والعبادة ولم تكن مسيئة كما أصبحت في أيامه. وباستثناء أيام عمر بن عبد العزيز الذي أراد فصل الخطبة عن السياسة، أي أن تكون مجالس القصاص غير قاصرة على الصلاة والدعاء للخلفاء وأمرائهم وأن تحقق الهدف الاتعاطي منها ويتضح ذلك من الرسالة التي

(١) عبد الجبار الهمذاني، المغني في أبواب التوحيد، القاهرة، ج ٨، ص ٤.

(٢) عمارة، محمد، تيارات الفكر، ص ٣٦.

(٣) كانت القصاص في بداية الإسلام قاصرة على قراءة القرآن وحفظه وتفهم معانيه، وكانت القصاص في القرن الأول للهجرة لا بأس بها، وذلك لأن فنونه رجعت إلى القرآن والحديث، ولم يكن يشوبه إلا ما يتعلق بأخبار الأمم السالفة المأخوذة عن أهل الكتاب ممن أسلم منهم، وقد عمل القصاص على توجيه المجتمع إلى الكر الديني، ولكن الأمر تغير بعد مقتل عثمان وأحداث الفتنة، حيث استخدمت القصاص لأغراض سياسية، انظر من أجل ذلك: أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص ١٥٩-١٦٠، و الرفاعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ج ١، ص ٢٩٩-٣٠٢. و جودة، جمال، القصاص في صدر الإسلام بين الواقع التاريخي والنظرة الفقهية، مجلة دراسات تاريخية، عدد ٣٣-٣٤ أيلول-كانون الأول، سنة ١٩٨٩، ص ١٠٥-١٤١.

(٤) أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٠، ص ٣١٠.

(٥) أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص ١٦٠.

(٦) ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي(ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمد سفيان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ٤٣٢.

(٧) ابن حجر، الإصابة، ج ٥، ص ٦٥٠.

(٨) جودة، جمال، القصاص، ص ١٢٥.

(٩) عطاء بن يسار الهلالي المدني مولى ميمونة كان قاضياً ثقة كثير الحديث(ت ١٠٣هـ/٧٢١م) انظر: ابن حنبل، مسائل الإمام

أحمد، ص ١٢٥، والذهبي، سير، ج ٤، ص ٤٤٨، والسيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٤١

(١٠) جودة جمال، القصاص، ص ١٢٥.

وجهها إلى الأمصار وجاء فيها: "...فإن أتاكم كتابي هذا فمر قصاصكم فليصلوا على النبي ﷺ وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ثم فليصلوا على المؤمنين والمؤمنات وليستنصروا الله ولتكن مسألتهم عامة للمسلمين.."(١) وإذا كان بعض خلفاء بني أمية قد شجعوا الإخباريين لشعورهم بالحاجة في سياسة دولتهم إلى التعرف على أخبار الملوك في الأمم السابقة وسياستهم ونظامهم، بالإضافة إلى إعمار مجالسهم بالسمر بغرض معرفة هذه الروايات الإخبارية، فإنهم كرهوا رواية سير الخلفاء الراشدين ومغازي رسول الله طوال القرن الأول للهجرة وبخاصة في الشام مركز حكمهم وربما لو استطاعوا ذلك في غيره من الأقاليم أيضاً لفعلوا ذلك، وكان دافعهم إلى ذلك، شعورهم بأنهم ليسوا كالخلفاء الراشدين في الصفات، كما أن الناس لم تبقَ على ما كانت عليه أيام الراشدين، ولأن ماضيهم مع الإسلام غير مشرف، في بدايته، فقد عارضوا الإسلام ورسوله، كما شعروا بأن أهل الشام سيرفضون سياستهم وممارساتهم للسلطة إذا ما اطلعوا على سير الخلفاء الراشدين بتفاصيلها، وقارنوها بسير الأمويين، ويتجلى موقف الأمويين من سير الخلفاء الراشدين مما قاله عبد الملك بن مروان، عندما سمع جماعة من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب: "أنهى عن ذكر عمر فإنه مرارة للأمرء ومفسدة للرعية"(٢) فرواية المغازي والسير من وجهة نظر الخلفاء الأمويين تهيج الضغائن الكامنة، وتحرك الحزازات والعداوات القديمة بينهم وبين الأنصار، نظراً لتاريخ الأمويين في بداية الإسلام(٣) ، وكان معاوية هو البادئ بهذه السنة أي كتم أخبار المغازي والسير عن أهل الشام خاصة، وأخذ بها مروان بن الحكم وعبد الملك ابن مروان الذي تعصب لهذا الموقف(٤) وكتمان المعرفة هنا يأتي تماشياً مع سياسة بني أمية. ولكن عمر بن عبد العزيز وكعادته في مخالفة بني أمية عندما يستحق الأمر المخالفة، قرر منح رواية السير والمغازي حقها من العلم والانتشار إذ قال لعاصم بن عمر بن قتادة: " إن بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه"(٥) وطلب منه الجلوس في مسجد دمشق والتحدث عن مغازي رسول الله وسير الصحابة، كما طلب من سالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب أن يكتب له سيرة عمر بن الخطاب(٦).

وعلى الرغم من هذا المنع الذي أثره أغلب الخلفاء الأمويين إلا أن التابعين وتابعيهم لم يكتروا به، ورأوا ضرورة التحدث به ونشره.

وبالتوجه إلى العلوم التطبيقية فيمكن رؤية اهتمام الأمويين بالطب مثلاً للحاجة إليه في الصحة من أجل الصحة العامة، بالإضافة إلى رغبتهم في التخلص من الأعداء عن طريق السم الذي أعدّه لهم هؤلاء الأطباء(٧) ولكن السؤال الآن إذا كان هذا هو موقف الأمويين من العلم؟ فكيف كانت نواة المعرفة في هذا العصر؟ إن هذا السؤال واختلاط العلوم في العصر الأموي لا يمكن فهمه إلا في إطاره التاريخي، فالإسلام كان حديث العهد والناس كانت شغوفة لتلقف علومه، وكثيراً من الصحابة وتابعيهم كانوا ما يزالون في هذا العصر، فمن الطبيعي اهتمامهم بالعلوم ، وخاصةً الدينية منها، وصحيح أن بعض الخلفاء اهتموا ببعض العلوم لكن هذا الأمر كان أحياناً لأغراض غير علمية، ومهما كان هذا الاهتمام فهو لم يرقَ إلى مستوى الدولة، ولم يكن بشكل

(١) ابن عبد الحكم، عبد الله، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٧.

(٢) ابن كثير، البداية، ج ٩، ص ٧٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٣٦٤ وما بعدها.

(٤) عطوان، حسين ، رواية الشاميين للمغازي والسير في القرنين الأول والثاني الهجريين، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٢.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ١٢٣.

(٦) الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٩٤، و ج ٥، ص ٢٨٦، وابن خلكان، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٠٩، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٧٢، و ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠.

رسمي أيضاً. واقتناء الكتب عند بعض العلماء هو دليلٌ على هذه المحاولات الفردية منهم، إذ لم تقم الدولة بأية محاولة لإيجاد مكتبات ولو حتى شبه عامة، وباستثناء مكتبة قصر الخضراء الذي أسسها معاوية في قصره والتي سميت بيت الحكمة(١) لم يكن هناك خزائن للكتب إلا ما حوته بيوت العلماء أنفسهم، وخزانة الخضراء على ما يبدو بقيت في القصر لخالد بن يزيد المولع بالمعرفة، ويبدو أن هذه الخزانة حوت على الكتب التي تم ذكرها سابقاً، من تأليف وترجمة، ومما يدل على عدد الكتب التي كانت فيها ما ذكر بعد موت الوليد الثاني(١٢٥هـ/٧٤٢م) من أمر الدفاتر التي حُمِلت على الدواب والتي كانت في معظمها أحاديث شريفة وروايات الزهري(٢).

وبالإضافة إلى هذه المكتبة التي كانت حكرًا للخلفاء لم تُعرف مكتبات أو بالأحرى خزائن للكتب إلا عند الخاصة الذين رغبوا في اقتناء العلم، ومنهم عروة بن الزبير(٣) وأبو قلابة الذي ترك من الكتب حمل بغل(٤)، بالإضافة إلى الحمل الآخر لابن عباس والذي كان عند مولاه عكرمة(٥) وكذلك ما ألفه أبو عمرو بن العلاء من الكتب والتي بلغت السقف(٦) ويضاف إليهم كتب الزهري(٧) والحسن البصري(٨).

٢- عدم تخصيص مبالغ مالية لدعم حركة تطوير العلوم:

في دولة بلغت من الاتساع مساحة إمبراطورية، ومن القوة ما بلغته من مبلغ جعلها دولة ذات شأن، أمطرت عليها الفتوح من الغنائم ما يوصف وما لا يوصف، وبمقارنة مالية الدولة بالنفقات يتضح عدم إعطاء العلوم والمعارف من النفقات، ما تستحق في دولة كالدولة الأموية باستثناء الشعر، حيث مثل بالنسبة لهم، عدا عمر بن عبد العزيز، الدعاية الإعلامية المتحركة والتي بإمكانها تحسين صورتهم في شتى المجالات.

ولن يتم التطرق إلى نفقات الدولة من أجل الفتوح التي كان لابد منها لضمان نشر الثقافة العربية الإسلامية، هذا بالإضافة إلى النفقات العسكرية من أجل قمع الثورات التي اعتبر الأمويون أنفسهم على حق في ضربها لضمان وجودهم، لكن الحديث هنا سيكون عن النفقات الأخرى التي زادت عن حدها، وإغفال مجال العلوم من هذه النفقات.

فمعاوية اهتم بفن الدعاية والإعلان، وكان يقول: "أحبّ الناس إليّ أشدهم تحببياً لي إلى الناس"(٩) ومما يدل على السياسة التي اتبعها الأمويون من أجل استمالة القلوب بالنفقات ما قاله معاوية: "غير أنني سلكت طريقاً لي فيه منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكلٍ فيه مؤكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم

(١) العث، يوسف، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد الشام والعراق ومصر في العصر الوسيط، ترجمة نزار أباطة ومحمد صباغ، دار الفكر بيروت، ودمشق، ط١، ١٩٩١، ص٤٣.

(٢) ابن سعد، القسم المتمم من الطبقات، ج٣، ص٣٦١.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٧٨.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٦٩.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٢٩٣، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٩٠.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٦٦.

(٧) ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص١٧٨. وابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١، ص١٦٣ سيزكين، تاريخ التراث، م١، ج٢، ص١٧٨.

(٨) ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص١٧٤-١٧٥.

(٩) البلاذري، أنساب، ج٥، ص٥٨.

تجدوني خيركم فأنا خير لكم(١) وقد أتبعه في ذلك بقية الخلفاء الأمويين باستمالة عشرات الشعراء وإغداق المال عليهم، كي يشيدوا بهم في الخلافة وصلاحها لهم، ووجوب طاعتهم ونصرتهم، نظراً لأن الشعر كان أهم وسيلة إعلامية في ذلك العصر وقد بالغ الأمويون في أعطيات الشعراء وهذا ما عابه عليهم كل ورع تقي(٢) فهذه الأعطيات هي وقف على المجاهدين في سبيل الله، ومن أجل تمكين الدولة بالأساس، واستمرت هذه الأعطيات في عهد عبد الملك وغيره من الخلفاء بالإضافة إلى ولاتهم كالحجاج الثقفي ويزيد بن المهلب وخالد القسري وغيرهم ولكن عمر بن عبد العزيز فجع الشعراء في أمالهم، ورفض إجازتهم من بيت المال(٣)، وعلى الرغم من محبة الأمويين للشعر وتشجيعهم له رغبةً فيه، لكن الرغبة الأقوى في تشجيعه كانت من أجل الاستعانة بالأسنة الشعراء على تقوية سلطتهم(٤)؛ وكان عبد الملك بن مروان أكثر خلفاء بني أمية اهتماماً بالتأثير الإعلامي للشعر في كسب الأنصار والهجوم على خصومه، لذلك وظّف الشعراء لمدحه ومدح دولته وكذلك مدح بني أمية، ولم يبخل عليهم بالعطاء ، لذلك كان كبار شعراء عهده من الأمويين مثل الأخطل والفرزدق وجريز يتهاقتون على بابيه ، ويتضح دور الإعلام من خلال إخفاق حركة ابن الزبير والتي لم يبذل فيها الأموال لا إعلامياً ولا لكسب الأطراف، فكانت من بين الأسباب التي أدت إلى إخفاقه. وقد كان أخوه مصعب في العراق يؤلف قلوب زعماء القبائل بالأموال، فنجح في ذلك نجاحاً باهراً، ثم حضر إلى مكة سنة(٧١هـ/٦٩٠م) وأحضر معه للقاء أخيه عبد الله جماعة من وجوه أهل العراق فقال: " يا أمير المؤمنين قد جئتك بوجوه أهل العراق... فأعطيهم من هذا المال، فقال عبد الله : جئنتي بعبيد أهل العراق وتأمرنى أن أعطيهم من مال الله! لا أفعل وإيم الله لو ددت أن منهم رجلاً من أن أصرفهم كما تُصرف الدنانير والدرهم... " فلما انصرف مصعب ومعه ذلك الوفد ولم يلب ابن الزبير طلبهم، سُدت قلوبهم فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه وكتبوا إلى عبد الملك أن أقبل إلينا(٥) ، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى أهمية الدعم المادي الذي أولاه الأمويون للمجال الأدبي، وما نتج عنه من بريق للأدب ، وبخاصة الشعر والخطابة، هذا الدعم الذي لم يشمل العلوم الأخرى من دينية أو تطبيقية، باستثناء الطب الذي اعتبره الأمويون مادة لتقوية سياستهم، بل إنهم رأوا العلوم من منظار مصالحهم الخاصة ، فالطب مثلاً كان في نظر معاوية غاية تحقق الوسيلة، حيث طلب من الأطباء كابن أثال تحضير السم ليتخلص من أعدائه، حتى أنه أعطاه مقابل ذلك خراج جند حمص لعام كامل(٦) .

أما عن المعارف الدينية والفلسفية فقد نشطت من تلقاء نفسها، فالحركة الدينية ازدهرت بسبب الباعث الديني، والفلسفية لأن الدين في آخر عهد الأمويين اضطر إلى استخدام الفلسفة لمجادلة اليهود والمسيحيين ولمحاربة الفرق الإسلامية بعضها لبعض(٧) .

وفي غمرة هذه العطايا لا يُذكر دفع مبالغ مالية من قبل الأمويين لا إلى معلم في مسجد ولا إلى عالم يتحرى نشر الدين والعلوم على الرغم من العدد الكبير للعلماء في مدن الولايات العربية الإسلامية كافة والذين نشطوا في الحجاز والعراق والشام وحتى في القيروان، واهتموا بالعلوم الدينية واللغوية بشكل خاص، إلا الذين أرسلهم

-
- (١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج٣، ص١٤٨.
 - (٢) مصطفى ، محمود ، الأدب العربي، ج١، ص٢٦٩.
 - (٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٣٣٣.
 - (٤) زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن، ج٢، ص١١٤.
 - (٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص٣٢.
 - (٦) الطبري، ج٣، ص٢٠٢، وابن الاثير، الكامل، ج٣، ص٢٠٩.
 - (٧) أمين، أحمد ، فجر الإسلام، ص١٦٥.

عمر بن عبد العزيز لينشروها في المغرب(١) ، ومع أن التعليم في المساجد انتشر بشكل أكبر من غيره، أو في بيوت بعض العلماء وفي الأماكن العامة(٢) إلا أن النفقات التي خُصت لدور العلم في صدر الإسلام كانت قليلة، فالمدرسون اكتفوا مما كانوا يصيبونه من الفيء والصدقة، وقد اقتصرت نفقات دور العلم على المساعدات المالية التي كان يقدمها الخلفاء إلى الزهاد، والذين حبسوا أنفسهم في المساجد للعبادة والعلم، ومما يذكر في هذا السياق ما كتبه عمر بن عبد العزيز لوالي حمص: "انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقهِ وحبسوها في المسجد من طلب الدنيا فأعطي كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت المال حين يأتيك كتابي هذا، فإن الخير أعجله والسلام"(٣) .

٣-وقوف معظم الخلفاء الأمويين ضد القدرية وقتل غيلان الدمشقي:

إذا كان الأمويون قد تركوا العلماء ينهلون العلم وينشرونه دون أن يكون لهم المباشرة ، أو الدعم الكافي في ذلك فإنهم وقفوا في وجه الأفكار التي تعارض سلطتهم، لأن همهم الأكبر كان توطيد هذه السلطة، فناصروا العداء لكل من شعروا بخطرهم على هذه السلطة، ومن هنا وقفوا بوجه الحركات الفكرية التي لا تتلقى مع أهوائهم ولا تصبّ في تيار أفكارهم، واعتقدوا ، أو بالأحرى حاولوا إثبات، أن كل شيء قد كُتِبَ في سجل القدر قبل وقوعه، وبالتالي ليس في وسع الفرد إلا أن يخضع لهذا القدر المحتوم، فقد سخطوا على القائلين بحرية الإنسان بأفعاله، وحاربوه وقضوا عليه.

وكانت نشأة القدرية كرد فعل مباشر لتفشي القول بالجبر خاصةً على الصعيد السياسي، مما جعل الراضين لبعض الانحرافات المخالفة للشريعة في عهد بعض الخلفاء الأمويين يبدأون إصلاحهم بمحاولة هدم التبرير العقائدي الذي استخدمه الخلفاء وهو القول بالجبر من مشيئة الله في كل ما يقع على العباد من العباد.

وبتأكيد القدريين الأوائل على القدرة البشرية في الفعل ومسؤولية الاختيار، إنما يحملون الظالمين من الحكام تبعاً أفعالهم ويستنهضون المظلومين من المحكومين للخروج عليهم استرداداً لحقوقهم(٤) . ويعتبر معبد الجهني(٥٨٠هـ/٦٩٩م) بإجماع مؤرخي الفرق، أول من قال من المسلمين بنفي القدر، وكان ذلك في آخر أيام الصحابة، ويبدو أن قول معبد هذا كان بقصد مناهضة الجبرية، شأنه في ذلك شأن كثير من مخلصي التابعين الذين وجدوا في إنكار القدر حلاً للقضاء على هذا الظلم الواقع على الناس مادام السلطان يرتكز على تأكيد الجبر، وأن أفعال العباد من الله تعالى، ودليل ذلك قول معبد وصاحبه عطاء بن يسار للحسن البصري: "يا أبا سعيد، هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون أموالهم، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى"(٥) واعتقد معبد بأن إنكاره للقدر يمكنه من تحرير الإرادة الإنسانية والفاعلية البشرية من الجبرية الإلهية التي حاول بعض حكام بني أمية وبعض أهل الأهواء تكبيل الناس بها، ودفعهم إلى الشر والفسق، بإيجاد العذر لهم في عقيدة القدر، وانخرط معبد في الثورة التي قادها ابن الأشعث ضد عبد الملك والحجاج، وهو برأيه يقاوم

(١) ابن عذاري، البيان، ج١، ص٤٧، والخشني، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ثعلبة(٢٨٦هـ/٨٩٩م) طبقات علماء إفريقيا، تحقيق محمد زينهم، ومحمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص٢٠.

(٢) معروف، بشار عواد ، أسس الفكر التربوي، بحث في كتاب حضارة العراق، ج٨، ص٢٢.

(٣) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٩٥، وإبراهيم حسن، حسن، التاريخ السياسي، ج١، ص٤١٦، و خليل ، عماد ، ملامح الانقلاب الإسلامي، ص١٨٤.

(٤) الدسوقي، فاروق أحمد ، القضاء والقدر في الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥، ج٢، ص١٤٧.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص٤٤١.

انحرافاً في العقيدة والحكم، فلاحقه الحجاج وسجنه ثم قتله صبراً (١) أي منع عنه الطعام والشراب إلى أن مات وكان قبل موته يعذبه ويرغب بالتشفي به ، حيث يطلب من أتباعه إحضاره وسؤاله، فقال له: "يا معبد كيف ترى قسم الله لك :قال: يا حجاج، خلّ بيني وبين قسم الله، فإن لم يكن لي قسم إلا هذا رضيت به، فقال له: يا معبد أليس قيديك بقضاء الله، قال يا حجاج: ما رأيت أحداً قيدي غيرك، فأطلق قيدي، فإن أدخله قضاء الله رضيت به" (٢). ويتضح الموقف من قتل معبد إذا علمنا بأن مذهبه انتشر بين هجاء رواة أهل البصرة قروناً كما انتشر مذهبه بين أهل المدينة حتى لم يبق منهم إلا شردمة من العلماء (٣). كما يظهر أثر معبد فيمن تلاه من حركات فكرية، ومن هنا يمكن الربط بين معبد الجهني وواصل ويرى أن الاثنين كونا مبدأ الاعتزال، وهذا يدل على أثر القديين الأوائل في المعتزلة.

ولم تعد دمشق- التي كانت مركزاً للجبرية- نصيراً للحرية الإنسانية يقف في مواجهة الجبر السائد فيها حينئذٍ ذلك هو عمرو المقصوص الذي بلغ في كفره بالجبرية وإيمانه بمسؤولية الإنسان كاملة عن أفعاله، أنه استطاع أن يؤثر في معاوية الثاني الذي كان تلميذه فرفض الخلافة بعد موت أبيه يزيد، خوفاً من مغبة تبعاتها أمام الله تعالى، إيماناً بفاعلية الإنسان واختياره وكفراً منه بالجبر، فلقد أجابه المقصوص عندما سأله عن رأيه بالأمر قائلاً: إما أن تعدل وإما أن تعتزل، فاعتزل معاوية فوثب بنو أمية على المقصوص وقالوا له : أنت أفسدته وعلمته، ثم دفنوه حياً (٤).

أما الشخصية القدرية الأبرز التي قُتلت بسبب آرائها في حرية الإرادة، فكانت لغيلان الدمشقي، الذي اشتهر بفصاحته وبلاغته، وتفانيه في عقيدته، وكان الحسن بن محمد بن الحنفية يقول عنه عندما يراه: هو حجة على أهل الشام، ولكن الفتى مقتول (٥) ، وكأنه أحس بخطورة آرائه على الأمويين وبالتالي استنتاج نهايته على يدهم.

وبرز نشاط غيلان في مقالة القدر في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، حيث ناقشه كثيراً لكنه لم يؤذنه وتُظهر المناقشات العقائدية التي جمعت بينهما (٦) تفوق عمر الذي مثل رأي الجبر على غيلان الممثل لحرية الإرادة، حيث أورد كل منهما آيات تؤيد موقفه وتوضح الرسالة التي أرسلها غيلان لعمر بعد تسلمه الخلافة مبادئ العدل الإلهي التي يقول بها وفحوى هذه الرسالة "أبصرت يا عمر وما كدت، ونظرت وما كدت... اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً ورسماً عافياً، فيا ميتاً بين الأموات، ألا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتسمع، وطفا أمر السنة، وظهرت البدعة أيخيف العالم فلا يتكلم ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت... فإنك لا تجد داعياً يقول : تعالوا إلى النار، إذ لا يتبعه أحد، ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله، فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب أو يعذب على ما قضى أو يقضي على ما يعذب عليه، أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه، أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة ، أو يعذبهم على الطاعة، أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس

(١) الذهبي، سير، ج٤، ص١٨٦

(٢) ابن المرتضى، طبقات، ص٣٣٤، النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص٣١٩

(٣) ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) تبيين كذب المفتري مما نسب إلى الإمام الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) ص ١١ في المقدمة التي كتبها الكوثري

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٩٠-١٩١.

(٥) ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص٢٥

(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٨، ص١٨٦-٢١٢.

على الظلم والتظالم، وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب أو التكاذب بينهم؟ كفى بيان لهذا بياناً، وبالعمى عنه عمى.."(١) .

وسواء استجاب عمر أم لم يستجب فهذه دعوة منه للعدل والتقوى وطلب إعانة لأمر المسلمين حيث سأل غيلان عمر أن يوليه بيع الخزائن ورد المظالم ففعل ذلك(٢) وربما هذا الأمر يستدعي التساؤل عن مدى العلاقة بين عمر وغيلان، فلطالما طلب عمر من غيلان الإقلاع عن القول بالقدر، فهل قال بالقدر؟ ولماذا يعتمد عليه؟ وهنا لا بد من القول بأن عمر كان عادلاً ولم يكن قديراً، إذ إن المناقشات التي كانت تدور بينهما كانت تدل على أن عمر كان يقنع غيلان بالإقلاع عن أفكاره، ولكن هذا لا ينفي أنه رأى فيه الصدق والأمانة وخاصة أنه وعده بالإقلاع عن القول بالقدر. إذاً فأمر غيلان في عهد عمر لم يتجاوز أكثر من تنبيهه من قبل عمر لغيلان كي يكف عن قوله بالقدر وتعهد من قبل غيلان، لكن الأمر تغير بعد موت عمر، حيث انههر سيل غيلان بمقالة القدر. ومهما يكن من أمر فقد وقف غيلان في سوق دمشق يبيع حوائج بني أمية وهو يقول: "تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سيرته وسنته" وكان يصيح وهو يبيع الخزائن" من يعزرنى ممن زعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا مقامهم، والناس يموتون من الجوع" ومر هشام بن عبد الملك فغضب لهذا القول وقال: "أرى هذا يعينني ويعيب أبائي والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه"(٣) .

وبعد موت عمر غادر غيلان دمشق إلى أرمينية مع الاستمرار بالتشهير بظلم بني أمية، باسم الحق الإلهي أو الجبر الذي لا مرد له، ولا يُذكر عن يزيد بن عبد الملك الذي كان منغمساً بما يليه عن هذه الأفكار، أي تعاطف لموضوع غيلان، وعلى العكس منه كان هشام بن عبد الملك الذي أرسل إلى أرمينية في طلب غيلان وصاحبه صالح، حيث سأله هشام: زعمت أن ما في الدنيا ليس في عطاء من الله لنا، فقال له غيلان: أعود بجلال الله أن يأتمن خواناً أو يستخلف الخلفاء من خلقه فجاراً، إن أئمة القوامون بأحكامه، الراهبون لمقامه، الذين كابدوا بالعدل الدول، وخافوا مقاماً لا يجدون عنه حولاً، ولا يتعللون بالعلل، باتوا ومقامهم المحمود دليلهم المشهود بطول القيام والسجود، لم يول الله وثاباً على الفجور، ولا ركاباً للمحذور، ولا شهاداً لزور، ولا شراباً للخمر. وبعد هذا الكلام أمر هشام بحبسها"(٤).

ومن سجنه أخذ يرسل الرسائل إلى أصدقائه وأتباعه، ويعلم فيها مبدأه في العدل، وكان هشام قد قرر قتله فرأى هشام ضرورة إضفاء نوع من الشرعية على مقتله، فدفع به إلى الأوزاعي ليناقشه ويفتي في أمره، حيث ناظره وأفتى بتعذيبه وقتله(٥)، فأمر هشام بإخراج غيلان وصالح من السجن، وبقطع أطرافهما، لكن لسان غيلان بقي يشنع ببني أمية، فقد استمر يقول للناس: "قاتلهم الله كم من حق أماتوه، وكم من باطلٍ قد أحيوه، وكم من ذليلٍ في دين الله أعزوه، وكم من عزيزٍ في دين الله أذلوه" فذهب الأمويون إلى هشام وقالوا له: قطعت يدي غيلان ورجليه، وأطلقت لسانه، فقد بكى الناس حوله، ونهبهم على ما كانوا غافلين عنه، فأمر بقطع لسانه فمات(٦) . و قتل غيلان لم يكن من أجل الدين، لأن هشام لم يكن أكثر تحمساً للدين من عمر بن عبد العزيز،

(١) ابن المرتضى، طبقات، ص٢٥-٢٦.

(٢) ابن المرتضى، طبقات، ص٢٦.

(٣) ابن المرتضى، طبقات، ص٢٦.

(٤) المصدر السابق، ص٢٧.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٨، ص٢١٠-٢١١.

(٦) ابن المرتضى، طبقات، ص٢٧.

حيث تكلم غيلان في عهده بالقدر ولم يصب بأذى، بل القتل كان بسبب آراء غيلان بالإمامة(١) ، وبسبب تشنيعه بني أمية على ظلمهم وجورهم، ثم لأنه داعية مفوه إلى القول بالاختيار ، ونفي الجبر الذي يدعو إليه بنو أمية.

وإذا كان معظم حكام بني أمية قد ناصبوا القدرية العدا، فإن هناك اثنين من خلفائهم ، قد اعتقدوا بهذه الآراء وهما معاوية بن يزيد الذي كان قدرياً على يد عمر المقصوص، والذي ربما نتيجة لهذه النظرة تخلى عن الخلافة، بالإضافة إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك، والذي على ما يبدو ثار على الوليد وقضى عليه(٢) (١٢٦هـ/٧٤٣م) بحافز من أفكار القدرية، وتوضح مبادئ القدرية من خلال خطبته التي ألقاها بعد قتل الوليد والتي قال فيها: "إن لكم عليّ ألا أضع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة، ولا أكرى نهراً ولا أكثر مائلاً ولا أعطيهِ زوجة ولا ولداً ولا أنقل مائلاً من بلدة إلى بلدة حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله.. ولا أغلق بابي فيأكل قويمكم ضعيفكم..."(٣) وتفوح من هذه الخطبة ريح آراء غيلان ، الذي كان له بمشاركة معبد ، الأثر الواضح في الفكر الإسلامي، وبذلك اعتبر من المبشرين الحقيقيين بمذهب القدر الذي اعتنقه المعتزلة.

لقد زُرعت في هذا العصر المعارف والقيم الثقافية والعلمية في شتى الاختصاصات من دينية ودنيوية، و كان للحكام الأمويين دوراً بارزاً في ذلك، من خلال تمهيدهم الأرضية المناسبة لتوطيد الاهتمام بالعلم، فنغلغت الفلسفة إلى رحم علم الكلام بأصنافه كافة القدرية والجبرية والجهمية و أدى الأمر إلى ولادة الاعتزال وترسيخ جذوره في نهاية هذا العصر.

وفيه تمت الخطوات الأولى لتدوين العلوم، ويدل على ذلك العدد الذي ذُكر عن بعض الكتب المدونة، وهو عدد ليس بقليل بالنسبة إلى انطلاقة التأليف في هذا العصر، وبالإضافة إلى التدوين تم ترجمة بعض العلوم والمعارف الأجنبية بهدف التعرف على أفكار الآخرين والاستفادة منها.

ولأن الأمويين كانوا حكاماً يحترمون عربيتهم وبيئتهم فقد ركزوا على دعم العلوم اللغوية ابتداءً من قواعد اللغة العربية مروراً بالشعر والخطابة والنثر، ولأنهم خلفاء لم يستطيعوا إغفال العلوم الدينية من قراءة للقرآن الكريم والحديث الشريف والتفسير والفقهاء.. إذ سمحوا للعلماء بالتغلغل في هذه العلوم وحرية الخوض فيها.

ومن أجل استكمال الصورة العلمية كان لا بد من الاهتمام بالعلوم التجريبية، والتي يحتاجها المجتمع على اختلافها في ذلك العصر من علوم طبية إلى كيميائية إلى فلكية.

ويبدو أنه وعلى الرغم من الاهتمام الذي لاقته العلوم من الخلفاء الأمويين إلا أنهم لم يعطوا هذه العلوم حقها عندما دمجوها بسياساتهم ، كما أنهم لم يخصصوا لها أمكنة ولا مبالغ مادية خاصة بها ، ولأنهم لم يستطيعوا الفصل بين السياسة والعلم، فإنهم خافوا من أي أفكار قد تؤثر على سلطتهم، ومن ذلك ما فعلوه بغيلان الدمشقي الذي قال بالقدر، الأمر الذي أخاف الأمويون على حكمهم من تغلغل هذا المبدأ ووصوله إلى العامة وكيفية وصول الأمويين إلى الحكم.

(١) أبو ريان، محمد ، تاريخ الفكر الفلسفي، ص٢٦٢، ومحمود عبد الحليم، التفكير الفلسفي، ص١٤٨.
(٢) الطبري تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٣٥، اليعقوبي تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٤، و، ابن كثير، البداية، ج١٠، ص٨٠
(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٥٦.

الفصل السادس: مظاهر القوة والضعف في مجال البناء والعمران:

أولاً: مظاهر القوة في مجال البناء والعمران:

١- سياسة البناء والعمران (الهدف منها):

أ- في مجال بناء المدن.

ب- في مجال بناء المساجد والشواهد الدينية.

ج- في مجال بناء القصور.

د- في مجال مؤسسات الخدمة العامة والمرافق.

٢- اعتماد تقانة متقدمة في مجال هندسة الري.

لقد سيطرت على المظهر العام للأمويين العلامات السياسية والعسكرية، وطغت على تاريخهم أكثر من أي جانب إلا أن بعض الآثار الباقية، التي تحمل اسم بعض خلفائهم شهدت على ما قام به هؤلاء الحكام من أبنية مختلفة الأنواع، والتي من خلالها يمكن فهم المنهج العام الذي اتبعوه في البناء والذي قام على أغراض وغايات مختلفة في كل شكل من أشكال البناء سواء في المدن أم في المساجد والمباني الدينية أم في قصورهم التي بنوها بعيداً عن المدن على حواف الصحراء ، كما أنهم لم يغفلوا -على الرغم من انشغالهم الكثيرة - بعض ما يمكن تسميته المرافق العامة من بيمارستانات وحمامات ودور إمارة وجسور وغير ذلك وفي هيكليّة تناسب ذلك العصر، إلا أن التقانة المتبعة في شبكات الري جاءت متطورة نوعاً ما.

ومما يلاحظ على الأمويين في سياستهم العمرانية هو التركيز الكبير على منشآتهم الخاصة والعامة في بلاد الشام وإهمالها في باقي الأقاليم.

١- سياسة البناء والعمران: الهدف منها:

تتميز العمارة عن العلوم والآداب والفنون بأنها أهم المراجع وأصدقها لتجسيم مراحل التاريخ، وتطور الحضارات، وإذا كانت العلوم والآداب العربية قد ازدهرت في العصر الأموي، فإن العمارة العربية تكونت في هذا العصر وبصيغة عربية إسلامية واضحة المعالم، هذه المعالم التي مازال قسمٌ منها شاهداً حياً على هندسة العمارة في هذا العصر، هذه الهندسة التي اقترن وجودها- إذا ما تم التطرق إلى آراء ابن خلدون في الحضارة - بازدهار العلوم، فحسب رأي ابن خلدون يتلاقى العمران بازدهار العلوم(١) ، هذا بالإضافة إلى أهمية ظاهرة المدينة في الفكر الخلدوني للعمران؛ أي للوجود الإنساني والجماعي، ولهذا لا يمكن تفسير حضورها بمجرد عملية التصارع مع عالم البداوة، بل لأنها تدخل أساساً في العمران جنباً إلى جنب مع ظاهرة البداوة، وظاهرة الحكم، وظاهرة الثقافة، والاقتصاد، وأنذ يتبلور فيها مفهوم الحضارة بالمعنى الخلدوني؛ أي الشكل الأخير للعمران.

وإذا كان الإسلام قد نشأ في بيئة شبيهة الجزيرة العربية- لا تتوفر فيها مقومات العمارة بالشكل الكافي، لا من حيث الكمية، ولا المؤهلات، حيث كان الهم الأكبر لدى الرسول الكريم والخلفاء الراشدين، توطيد أركان الإسلام وكيفية نشره، وتجسيد الدين، وترسيخه في القلوب(٢) إذ اهتموا ببناء ما هو ضروري، من حيث تمصير المدن، كالبصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر، والمسجد النبوي الشريف في المدينة(٣)، لغايات الفتح أو بناء مساجد بسيطة لأداء مناسك الإسلام، لكن ما إن انتقلت الخلافة إلى الأمويين من المدينة فالكوفة ثم دمشق، حتى ظهرت وبسرعة مذهلة هندسة للبناء، ذات قيم عملية وجمالية ، إذ كان حكم الأمويين أقرب إلى السياسة من الدين.

ولقد ساهم الرخاء المادي والانتعاش الذي عاشته الدولة العربية الإسلامية بعد الفتوحات العربية واتساع الدولة بإعداد أرضية خصبة لنمو مفاهيم تخطيطية جديدة في بنية المدينة العربية، وما نجم عن ذلك من ظهور لمنشآت بنائية متعددة ذات مضمون ووظائف متنوع، فتوسيع التجارة والمبادلات التجارية التي حظيت باهتمام كبير من

(١) ابن خلدون المقدمة، ص٣٤٣.

(٢) بهنسي، عفيف ، تاريخ الفن والعمارة (من البداية حتى عصر النهضة) مؤسسة الصالحاني، دار الشرق، ط١، ٢٠٠٣، ص٢٨٤، والخربوطلي، الحضارة، ص٢٨٩.

(٣) حركات، ابراهيم، السياسة والمجتمع في عصر الراشدين، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥، ص٣١٢-٣١٣، و يوسف، شريف ، المدخل لتاريخ فن العمارة الإسلامية وتطورها، دار الجاحظ، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، ١٩٨٠، ص٢١.

قبل الأمويين في دولتهم الجديدة، وشق الطرق الجديدة لتلك الغاية بالإضافة إلى إدخال تسهيلات لخدمات بريرية منتظمة، وجعلها شبكة محكمة تربط بين أجزاء الدولة، كل ذلك أثمر في تسريع هجرة الأفكار التصميمية وتسهيل مهمة انتقال العمال المهرة من مكان إلى آخر (١). وبذلك كان التوجه العمراني بالاتجاهات كافة، ويضاف إليه الاستفادة مما كانت تذخر به مدنات البلاد التي فتحوها، حيث تأثر أسلوبهم بالأساليب الفنية التي كانت زاهرة في كل من سورية والعراق وإيران والهند وغيرها من البلاد، إذ على الرغم من تجذر الفن الساساني في بلاد فارس والفنون الإغريقية الرومانية في الديار الشامية، وفي إفريقيا الشمالية، إلا أن الفن العربي تمكن في العصر الأموي من اكتساب هويته الخاصة والنهائية تدريجياً (٢).

لقد وجد الأمويون في الشام إذاً بيئة فضائية رحبة للفن المعماري، والذوق الرفيع، ولأنهم لم يستطيعوا المضي في طريق فهم على حساب غيرهم، رأوا ضرورة ابتكار أشياء جديدة بأنفسهم، ولذلك اتجهت جهودهم إلى الابتكار وعدم الاكتفاء بالأخذ عن الآخرين، وبذلك أثبت العرب أنهم أمة سريعة التطور والنمو، شديدة الطموح واسعة المقدر، إذ لم يستسلم الأمويون للراحة والافتناع بالحياة المترفة التي كانت في بلاد الشام وسواد العراق، بل أخذوا يباهون بمنجزات أفضل، ثم انطلقوا خارج هذه الحدود التي لم تكن سياستها وإدارتها بالأمر السهل (٣) بالإضافة إلى أن نزعة التغيير والرغبة بإجراء تحولات عميقة في بنية الفضاء الإبداعي الملازمة للمشهد الثقافي لدولة بني أمية الجديدة، وبناءً على المستجدات العميقة والشاملة التي طرأت على مناحي الحياة، والتي أسهمت في خلق مناخ تجديدي واجتهادي ألقى بظلاله على مقاربات الفكر والثقافة عموماً، فاتجه الأمويون لتدعيم سياسة البناء المتمثلة بكل أشكال البناء التي عرفوها آنذاك، وأحدثوا مدناً جديدة كما رمموا المدن القديمة حسب متطلبات المدنية، بحكم أنهم تولوا حكم دولة مترامية الأطراف واسعة الأرجاء، فكان لا بد لهم من إنشاء حواضر لقضاء مصالح رعاياهم، وكى تستوعب التزايد السكاني المستمر (٤)، فثمة دوافع سياسية وإدارية وعسكرية تكمن في توجهات الأمويين في بناء المدن، وربما اجتمعت كل هذه العوامل متفقة في هدف البناء فهيكلية الدولة تطلبت بناء عدة مدن في مناطق مختلفة لتكون مركزاً لنشر الثقافة العربية والتعايش المشترك بالإضافة إلى تمكين هيبة الدولة- كالقيروان مثلاً- (٥) أو لتكون توحيداً للتشتت الإداري وعاصمة للعراق الذي كان فيه الوالي يقسم السنة إلى نصفين يقيم النصف الأول في الكوفة والنصف الآخر في البصرة (٦) فجاءت واسطاً توسيطاً للعراق إدارياً ومركزاً للجيش. أو لتحقيق رغبة شخصية في حب فن البناء ولتكون عاصمة لجنود فلسطين كمدينة الرملة التي بناها سليمان بن عبد الملك (٧)، أو كما فعل عبد العزيز بن مروان والي مصر لعبد الملك ببناؤه مدينة حلوان (٦٧٥هـ/٦٨٦م) التي تقع جنوب الفسطاط حوالاً ١٠ كم، لتكون متنزهاً له وليقيم فيها للراحة

- (١) الشامي صالح أحمد، الفن الإسلامي (التزام وإبداع) دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٠، ص٢٨٧، والسطلاني، خالد، العمارة في العصر الأموي (الإنجاز والتأويل) دار المدى، دمشق، ٢٠٠٦، ص٣٠.
- (٢) الصيداوي، حيان، الإسلام وفنونه تطور العمارة العربية، دار المتنبي، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٥٧.
- (٣) البهنسي، عفيف، جمالية الفن العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت فبراير، ١٩٧٩، ص١٢٧.
- (٤) lambard.; The Golden Age of Islam translated by joan spencer (Netherland 1975) p18

,Benet, F, The Ideology of Islam Urbanization in International journal of comparative 19,135 Sociology. Vol IV, 1963 pp211-226.,

- (٥) المالكي، رياض النفوس، ج١، ص١٠، ابن عذارى، البيان، ج١، ص١٩.
- (٦) البلاذري، أنساب، ج٥، ص٢١٥، الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٢٠٧، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٣١٧.
- (٧) حامد الخطيب، قصة مدينة الرملة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الإعلام والثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، ص٣١. و Smith,G,A ,Historical Geography of holy Land ,Newyork ,1907,p150

والاستجمام لكن ظهور الطاعون في الفسطاط سنة (٦٨٩/هـ٧٠م) جعله يتخذ حلوان مقراً له وأصبحت بذلك مدينة عامرة بالدور والعمران (١) .

ولأن المدن تتوسع بسبب ازدياد عدد السكان، كان لا بد من توسيع أو بناء مساجد وجوامع تتفق مع هذا الازدياد، ولأن الجوامع كانت بمثابة مدارس في ذلك العصر جاء الاهتمام بها متزايداً بالإضافة إلى أهميتها لممارسة الشعائر الدينية، ومن أجل صب كل معالم الإتقان والتقن في تجميلها، وهذا ما يشمل المشهد الديني الذي بناه عبد الملك بن مروان في القدس ألا وهو قبة الصخرة التي مثلت تحفة فنية بيد عربية أموية وعلامة مميزة للخليفة عبد الملك.

وتوّج الأمويون عناصر الفخامة ببنايتهم للقصور المتعددة، والتي جاءت انعكاساً لطموحاتهم ومتطلباتهم ، فهم أحبوا العيش برفاهية ونعيم فأنشأوا قصوراً فخمة على تخوم الصحراء وعلى مقربة من الوديان ليسكنوا في جو يناسبهم، وكى يقيموا مزارع لها عدة غايات ، وللتمتع بالطبيعة وجمالها في بناء فخم من تشييدهم ، وليحموا أنفسهم من غدر الغادرين في المدن التي عاشوا فيها، ولذلك أنشأوا حاميات لهم بالقرب من قصورهم.

ويضاف إلى ذلك الحاجة لبناء القناطر والجسور من أجل التنقل لغايات اقتصادية . وكذلك الأسواق كانت توضح الضرورات الاقتصادية أيضاً، ونظراً لأهمية الحمامات التي تعكس مدى الوعي الصحي فقد جاء بناؤها بأعداد لا بأس بها في المدن بالإضافة إلى حمامات القصور التي امتزجت بها الرفاهية من خلال تصميماتها حيث يمكن القول بأنها متطورة قياساً بزمنها كما أثبتت البيمارستانات التي بنيت في هذا العصر وإن كانت قليلة على ذلك الوعي الصحي أيضاً(٢).

ولم يغفل الأمويون ضرورة مؤسسات الدولة في سياستهم البنائية من ذلك دار الإمارة ودار توزيع العطاء(٣) على سبيل المثال . وغير ذلك مما بناه الأمويون لأهداف شتى تتضح مع بنائها. ومهما يكن من أمر فليس من الممكن إنكار مقدار استعانة العرب في أوائل نهضتهم برجال الفن والصناعة من أهل البلاد التي كانت ذات حظ وافر من الحضارة في ذلك الزمن، فالفن العربي تأثر بفنون الحضارات التي احتواها تأثراً خلاقاً إذ كانت ثمة عبقرية عربية من القوة بمكان حيث تتلقى وتضيف وتقدم جديداً، فما من شك في أن الأمم كلها مدينة لبعضها البعض في الكثير من ثقافتها وفنونها وعلى هذا يمكن القول بأن فن العمارة الأموي هو فن أصيل نشأ عن تقاليد الحياة العربية ووفق الظروف المناخية القاسية والمواد المتاحة المنسجمة مع هذه الظروف والتقاليد، كما أنه استعار متفنناً في عمارته بما انتقاه من تقاليد زخرفية ومعمارية شائعة، رومانية أو ساسانية أو بيزنطية، بل من الصواب الملاحظة بأن الفن الهلنستي وبخاصة الفنون التي اشتقت عنه قد أخذت قسماً من خصائصها من الشرق، كما أنها تشربت بالتقاليد الشرقية(٤). وشمخت العماير الأموية مع توافر متطلبات البناء من يد عاملة منفذة للبناء، ذات خبرة فنية وتقاليد عريقة، وهذه اليد هي في الغالب محلية قوامها أهل الشام الذين أتقنوا صناعة البناء، بالإضافة إلى العمال والفنيين المهرة من مختلف الأقطار التي انضوت تحت لواء الدولة العربية

(١) عزب، خالد ، الفسطاط النشأة الازدهار والانحسار، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص٣٦.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص٢٩، و عيسى أحمد ، البيمارستانات، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٨١، ص١٠.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ، ص٣٤٣-٣٤٤ و ابن الفقيه، البلدان، ص١٩١. رمضان، هويدا عبد العظيم ، المجتمع في مصر

الإسلامية من الفتح إلى العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ج٢، ج٢، ص٤٦

(٤) عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي، بحث في مجلة عالم المعرفة، الكويت، شباط ١٩٧٩، ص١٣٣.

الإسلامية (١) كما ساعد المهندسون السوريون وسواهم من رعايا الدولة العربية الإسلامية في تطبيق أصول البناء وفقاً للاحتياجات الاجتماعية والدينية وفي نطاق المظهر الشرقي (٢) وساعد وجود مواد البناء من حجر، سائد الاستعمال في الشام، والآجر أو اللبن في بعض المناطق كالبادية والجزيرة إضافة إلى الخشب والرخام والفسيفساء، ومهد الأرضية لهذه النهضة المعمارية ذلك التراث المعماري القائم أمام أعين العاملين، حيث غدا مصدراً للاقتباس ومادةً صالحةً للتطوير والتحوير (٣).

وكما زخر العصر الأموي بالفتوحات، فإنه زخر بحركة عمرانية واسعة شملت منشآت مدنية ودينية تمثلت بإنشاء المدن والمساجد والقصور، ولقد عمل العرب على خلق نوع من الانسجام مع طبيعتهم وحال معيشتهم، فكان لطرز عمارتهم طابعاً جديداً بما أدخل فيه من عناصر فنية مختلفة، حيث امتازت العمارة العربية بالأعمدة والمنحنيات والقباب والمآذن، وهي ربما تماثل رغبتهم في السماء وفي النخيل الذي هو أعز شيء عند العرب (٤) كما وتجسد حبهم للسماء والمساحات الواسعة بهندسة مدنهم وبيوتهم بحيث يبقى للهواء وللضوء مساره إليها.

أ- في مجال بناء المدن:

لقد كانت عمليات الفتوح في العراق ومصر وفارس والمغرب تترافق بهجرة قبائل عربية عديدة استقرت في الأمصار التي مصرّها العرب، وفي كثير من المدن التي اختطت، وكانت أولى عمليات التمسير في العراق لقربه من شبه الجزيرة العربية، وبذلك وجد العرب الحاجة ماسة لاتخاذ القواعد المتقدمة في الأمصار المفتوحة، التي تكفل استمرار قوة الجيوش العربية الإسلامية الفاتحة في الشرق والغرب، فخلف وضعهم الجديد في الأمصار المفتوحة اختلافاً بين المراكز الجديدة التي أنشأوها كالبصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر والقيروان بتونس لتكون دور هجرة لهم ولأسرهم وعيالهم، وهي مدن عربية أساساً ذات نمط عسكري وديني خالص، وبين مدن قديمة عامرة ذات تراث محلي وخارجي، اتخذوا فيها مراكز لقوتهم مثل أجناد الشام وفلسطين، وأجناد مرو بخراسان (٥).

ويبدو أن هذه المعسكرات التي أوجدتها الجيوش العربية في عهد عمر بن الخطاب كانت طلائع المدن العربية في العراق وغيره من المناطق، حيث أسس العرب في زمن عمر عدة أمصار (٦) ثلاثة منها في العراق، وهي: البصرة والكوفة والموصل، بالإضافة إلى الفسطاط في مصر، وغدت هذه الأمصار قواعد عسكرية، ومناطق انطلاق.

كان الهدف إذاً عسكرياً للمدن الناشئة، فما هي أسباب بناء المدن في العصر الأموي؟ لقد تعددت الأسباب في ذلك فبالإضافة إلى السبب العسكري يضاف الهدف الإداري، والذي تجسد في مدينة واسط، التي بناها الحجاج الثقفي (٧٠٢/هـ ٨٣م) واختلطت هذه الأهداف مع الهدف الثقافي والديني في إنشاء القيروان (٥٠/هـ ٦٧٠م) أو ربما كان الهدف لغايات شخصية تنصهر في هذه الغاية عدة غايات كما في مدينة الرملة التي بناها سليمان بن عبد الملك (٧١٦/هـ ٩٨م). ولقد أنشأ العرب مدنهم بذكاء في مواضع ومواقع تتأكد فيها بصورة واسعة النطاق

-
- (١) الريحاي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية (خصائصها وأثارها في سورية) دار البشائر، دمشق، ط٢، ١٩٩٩، ص٤٤، والريحاي، العمارة في الحضارة الإسلامية، مركز النشر العلمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ص١٥.
 - (٢) سامح، كمال الدين، العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٧.
 - (٣) الريحاي، عبد القادر، العمارة العربية، ص٤٤.
 - (٤) الخربوطلي، الحضارة، ص٢٩٣.
 - (٥) الدوري، عبد العزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص١٧.
 - (٦) معروف، ناجي، عروبة المدن الإسلامية، مجلة كلية الآداب البغدادية، عدد ٧، ١٩٦٤، من ص٥-٥٨، الصفحة ٧.

جوانب الموارد والثروة المتمثلة بالتربة الخصبة والطرق المتعددة والمياه الوفيرة- أو التي يمكن توفيرها- وخامات البناء، وعلى هذا فرّق جغرافيو المدن بين مصطلحي الموضع والموقع(١)، فالموضع يعني الصفات الطبيعية أو المقومات للمكان الذي تمثله المدينة من حدودها، بينما يعني الموقع جميع الارتباطات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية بين المدينة والمناطق المحيطة بها.

وتم تسجيل بناء ثلاثة مدن في العصر الأموي هي القيروان وواسط والرملة، وهذه المدن أموية بامتياز، ولكن هذا لا يعني أن الأمويين لم يهتموا بالمدن التي كانت قائمة، وبالتالي إجراء بعض التحسينات عليها، وسيكون الحديث هنا عن المدن الأموية الثلاث وكيفية بنائها والهدف منه وآليته، وستكون البداية مع أول مدينة شُيّدت في العصر الأموي :

١- مدينة القيروان :

لماذا بنى الأمويون مدينة القيروان؟ عندما خرج العرب من شبه الجزيرة العربية مصرّوا البصرة والكوفة وواسط ثم الفسطاط لتكون معقلاً لهم ومنطلقاً عسكرياً لقواتهم من أجل الفتح، والأمر ذاته كان بالنسبة للمغرب، حيث وُلدت الحاجة بناء مركز لهم فيها، لأن العرب كانوا يخرجون للفتح، ويعودون منتصرين تاركين الأماكن التي انتصروا فيها في إفريقية، الأمر الذي كان يؤدي إلى انتفاض أهل إفريقية بعد مغادرة الفاتحين لها، مما استوجب معه بناء المدينة، التي جاء تأسيسها تحقيقاً لهدف عسكري حربي وثقافي (٢) فالغاية من بناء القيروان كانت تأمين وجود عربي عسكري قوي في المغرب، يكون مركزاً لانطلاق الفتوحات في الشمال الإفريقي، وكي يشكل قاعدة أموية تعمل على تدعيم التعريب ونشر الثقافة العربية في كل أرجاء المغرب، والتي انطلقت إلى الأندلس وشمالها.

ويدل موقع المدينة على أسباب اختيارها، والذي تجسد في الحماية والأهمية العسكرية والثقافية والاقتصادية، وبما أن الهدف كان توطيد مركز الدولة في المغرب، والحذر من ضربات البيزنطيين، لذلك كان قرب القيروان من الداخل يوضح الهدف، في التقرب من أهل البلاد وعلى هذا تم الاتفاق بين عقبة وبعض رجالاته الذين كانوا معه على موضع وسط للمدينة، بحيث لا تكون على الساحل عرضةً لغزوات البيزنطيين، ولا موعلةً في الداخل، خشية تحريك القبائل المغربية المتقلبة الأهواء، وأن تكون قريبة من المراعي لتتمكن إبلهم من الرعي بأمان (٣) .

وبعد أن استقر رأي عقبة ومن معه على بناء القيروان واختيار المكان شرع في تمهيده للبناء، الذي يشبه في تصميمه باقي المدن التي بُنيت في مواقع مختلفة من البلاد العربية الإسلامية، وتم البناء بالمواد الموجودة في المكان دون عناء كبير، فقد كانت أبنية القيروان في أول أمرها على غاية من البساطة، حيث استعمل في تشييدها قراميد الأجر، لوجود الطين المناسب على عين المكان، ولخلو ضواحي المدينة من الحجارة(٤) وامتازت

(١) Mayer, H,M ;Editors, Reading in the urban Geography , Chicago, 1965,p265

Cibbs ;Jack Editors Urban research Method, van Nastrand privceton1964,p324
, Chabot , G , Urban Geography ,London, 1967,p 236

(٢) المالكي، رياض النفوس، ج١، ص١٠، ابن عذارى، البيان، ج١، ص١٩.

(٣) المالكي، رياض، ج١، ص١٠.

(٤) عبد الوهاب، حسن حسني، ورفقات في الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، مكتبة المنار، تونس، ١٩٦٥، ص٤٤، وموسى لقبال، المغرب العربي، ص٣١.

شوارعها بالاتساع مقارنةً بالعواصم العربية القديمة، وكذلك أسواقها كانت منتظمة ومرتبطة (١) وبطبيعة الحال لم يتم بناء هذه القاعدة دفعةً واحدة، وفي وقت قصير بل استمرت من سنة (٥٠-٥٥٥ هـ / ٦٧٠-٦٧٤ م) وبعد هذا التاريخ استمر التجديد من قبل الولاة الأمويين تباعاً، إذ قام حسان بن النعمان بتجديد مسجدها، كما زاد في عمرانها بما أقامه من مصالح حكومية، أما موسى بن نصير فقد اهتم بتوسيعها وانشأ داراً للضرب فيها (٢) .

فالهدف من بناء القيروان إذاً كان عسكرياً بالدرجة الأولى ثم أصبح حاجة ثقافية دينية اجتماعية.

٢- مدينة واسط:

بناها الحجاج الثقفي، وهي ثاني مدينة تُبنى في هذا العصر وُسِّمَت واسطاً لأن موقعها يتوسط الكوفة والبصرة والأهواز (٣) ويؤكد على هذه التسمية كل من البلاذري و بحشل و المقدسي وياقوت الحموي (٤). ومن المرجح أنها بُنيت ما بين سنة (٨١-٨٣ هـ / ٧٠٠-٧٠٢ م) على إثر ثورة ابن الأشعث (٥). فما هي أسباب بناء هذه المدينة؟ لقد كانت لدى الحجاج أسبابه التي دفعته إلى بناء هذه المدينة وهي:

١- ازدواجية الإدارة: فعندما جاء الحجاج والياً على العراق، أخذ ينتقل في إقامته كسابقه من الولاة بين الكوفة والبصرة، حسبما تقتضي الظروف الحربية، وكان يعين نائباً يقوم مقامه بإدارة المصر الآخر (٦) لذلك رأى أنه من الضروري اتخاذ مكان وسط بين المدينتين، يؤمن من خلالها السيطرة الكاملة على الولاية.

٢- التمرد والفتن: أيد أهل الكوفة والبصرة معظم الفتن التي قامت ضد الحجاج، وآخرها كان قبل بناء واسط ثورة ابن الأشعث، ولذلك لم يكن بوسع الحجاج أن يتخذ من الكوفة والبصرة مقراً لحكمه، إذ كان يدرك تماماً حقد سكان هاتين المدينتين عليه، لذلك فإن اتخاذه لمقر بين أي جماعة لا تدين له بالطاعة نوعاً من المجازفة والمخاطرة (٧) .

٣- عزل جند الشام عن أهل العراق : إن الوجود العسكري الشامي الذي استتجد به الحجاج لقمع الاضطرابات التي شارك فيها أغلب أهل العراق ضد حكم بني أمية فرض على الحجاج فكرة نقل العاصمة إلى مكان آخر غير الكوفة والبصرة، حيث رغب الحجاج بعزل جند الشام عن أهل العراق، ليحول دون اختلاط الجند الشامي بأهل العراق، بسبب آراء أهل هذين المصرين المعادية للأمويين، لذلك بنى معسكراً خاصاً لجند الشام، يعتمد عليه في قمع الحركات التي تقوم عليه مستقبلاً (٨) ولقد بقيت واسط طيلة حكم الأمويين المدينة الرئيسية للعراق (٩)

(١) الجنحاني، الحبيب ، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨، ص٥٨.

(٢) عبد الوهاب ، حسني ، ورفقات، ص٥١.

(٣) ابن النجم، اسحق بن الحسين (ت٦٥١هـ/١٢٥٣م) أحكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، تحقيق كودازي، روما، ١٩٢٩، ص٧. والياضي، امرأة الجنان، ج١، ص١٩٤.

(٤) فتوح البلدان، ص٢٨٨، و تاريخ واسط، ص٣٨، والتاريخ، ج٤، ص١٠١، ومعجم البلدان، ج٥، ص٣٤٧.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص٤٤، والبلاذري، فتوح، ص٢٨٨، واليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢٧٩.

(٦) البلاذري، أنساب، ج٥، ص٢١٥، الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص٢٠٧، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٣١٧.

(٧) ولهاوزن، الدولة العربية، ص٢٠٣.

(٨) ولهاوزن، ص ٢٠٣، و الموسوي ، مصطفى عباس ، العوامل التاريخية لنشأة تطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد، العراق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٢، ص١١٥.

(٩) بحشل، تاريخ واسط، ص٤١.

وبُنيت واسط على شاطئ دجلة، وأنشأ الحجاج المسجد ودار الإمارة في القسم الغربي الذي على ما يبدو أنه حُصص للعرب، إذ لم يُسمح للعجم بالاختلاط بالعرب(١) ولقد احتوى القسم الغربي على عمارات ذات شأن حيث أقام الحجاج قصره الذي اشتهر بقبته الخضراء المشرقة والتي كانت تُرى على بعد ٣٩ كم (٢) وبُنيت دار الإمارة عند الجدار القبلي للمسجد الجامع، وبالقرب منها أُقيمت دواوين الحكومة ودار الرزق والسجن(٣) ومثلت هذه المباني الحكومية والدينية جزءاً من المدينة له كيانه الخاص، ويقع على الأغلب في وسط المدينة وترك الحجاج فراغاً حول هذا الجزء عُرف بالرحبة، وشُرع منه الطرق وإليه تُقضي الشوارع، ثم عين مكان السوق العام منه، ثم شرع المخططون يقطعون القطائع ويقيمون فيها المرافق، فاخذت كل قبيلة المكان المخصص لها(٤). ومما امتازت به واسط سوقها التجارية الكبير الذي كان يزدحم بالبضائع والتجار، وقام الحجاج بتخصيص مكان لكل صنف وبضاعة(٥) وكانت سعة هذا السوق بحيث امتدت من القصر حتى شاطئ دجلة شرقاً، وكان شطرا المدينة محاطين بسور يليه خندق على امتداد هذا السور الذي تكاملت استحكاماته بشاطئ دجلة، جعلت من الصعب دخول الناس إلى المدينة إلا من الأبواب الرئيسة لها(٦). ولقد بلغت تكلفة بناء هذه المدينة خراج العراق لخمس سنوات(٧).

٣-مدينة الرملة:

بُنيت الرملة في عام(٩٨هـ / ٧١٦م) على يد سليمان بن عبد الملك الذي كان والياً على جند فلسطين في عهد أخيه الوليد بن عبد الملك، وتعتبر الرملة المدينة الثالثة التي شُيدت في هذا العصر، وأول مدينة أموية في بلاد الشام لكن لماذا قام بهذا البناء طالما أن للقدس مكانتها المرموقة في فلسطين؟ إن هيئة المدينة لا تدل على أن سبب تأسيسها كان عسكرياً كمدينة القيروان وواسط، بل ربما كان لأن موقعها يشرف على الطريق التجاري الهام الذي يربط الشام بمصر! (٨) وربما وعلى الأرجح كانت رغبة سليمان بالشهرة والتخليد هي الدافع القوي لبنائه مدينة الرملة التي نقل إليها الحياة المدنية(٩) بعد تسلمه الخلافة(٩٦هـ / ٧١٤م) وتم بناء المدينة في مكان تغلب عليه الرمال، ويعتقد البعض أن سبب اختيار الاسم يعود إلى أن سليمان مر بامرأة فأكرمه فسألها عن اسمها فقالت: رملة، فدعا المدينة التي بناها باسمها(١٠). وربما دل على ذلك عروبة هذا الاسم، وتقع الرملة إلى الغرب من مدينة القدس على الطريق المؤدية من القدس إلى مدينة يافا على ساحل البحر الأبيض المتوسط(١١). وجاء تخطيط بناء الرملة مشابهاً لتخطيط مدن الشام، حيث كان يقسمها شارعان رئيسان يتقاطعان في الوسط بزواوية قائمة، واتخذت كل قبيلة حياً خاصاً بها، وتوسط المسجد ودار إمارة المدينة، وانتشرت الصنائع داخلها

(١) بحشل، تاريخ واسط، ص٤١.

(٢) يوسف، شريف، المدخل إلى تاريخ العمارة، ص٤٦

(٣) بحشل، المصدر نفسه، ص٣٨، وابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص١٨٩، و الموسوي، مصطفى، العوامل التاريخية، ص١١٨-١١٩.

(٤) الموسوي، العوامل التاريخية، ص١١٩.

(٥) بحشل، مصدره السابق، ص٣٩.

(٦) أحمد علي، و زعرور، ابراهيم، ص٢١٣.

(٧) بحشل، مصدره نفسه، ص٣٩.

(٨) Smith,G,A ,Historical Geography of holy Land ,p150

و الخطيب، حامد، قصة مدينة الرملة، ص٣١

(٩) الخطيب، حامد، المرجع السابق، ص٢٩.

(١٠) مخلص، عبد الله، منذنة الجامع الأبيض في الرملة، بيروت، دبت، ص١٦. و آغا، نبيل خالد، مدائن فلسطين(دراسات ومشاهدات) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص١٣٨.

(١١) أحمد، علي و زعرور، ابراهيم، تاريخ العصر الأموي، ص٢٣٢.

وفق نظام الاختصاص، ويُعتقد أن مواد بنائها كانت من الطوب والحجارة، وكانت تُسقى من عين تُجر مياهها بواسطة قناة برودة التي شقها الخليفة سليمان، وتصب المياه في صهريج رئيس يقع وسط المدينة ويشرب منه أهالي المدينة، وبقيت هذه القناة صالحة حتى العصر العباسي(١)

فالغايات من بناء المدن إذًا كانت مختلفة بين العسكرية والأمنية والاجتماعية والدينية و أحياناً للرغبة الشخصية.

ب- في مجال بناء المساجد والمشاهد الدينية:

إنّ المسجد هو مهد فن العمارة العربية الإسلامية، وهو الدعامة الأولى لنشأة هذا الفن، الذي ينبع أصله من العقيدة الدينية، ولهذا فالمساجد كانت أول شيء بناه العرب من العمارة.

كما حمل المسجد عدة مؤهلات جعلت منه بالإضافة إلى كونه مكاناً دينياً، مركزاً للاجتماع؛ أي مجلس شورى، ومركزاً للانتخابات واتخاذ القرارات، والخطب السياسية، ومقر تنصيب الوالي، فعلى منبره كان الوالي يعلن خطبه السياسية لأهل ولايته، هذا بالإضافة إلى دور المسجد العلمي والثقافي، الذي اضطلع به، إذ يمكن القول بأنه غدا مدرسة لتدريس العلوم والآداب.

ولقد تطور بناء المساجد -مثلها مثل أي عمل يبدأ بفكرة بسيطة، ثم يأخذ شكل الفخامة والتنظيم- مع الزمن حتى وصل في العصر الأموي إلى الروعة التي احتفظ بها مع بعض التعديلات، إلى الوقت الحاضر. ولما لم تكن للمسجد مواصفات خاصة به فمن المرجح أن المساجد الأولى في الإسلام كانت في غاية البساطة حيث كان بناؤه من اللبن المجفف، وسُقف جزء منه من جريد النخيل، وأقيم على أعمدة من سيقان النخيل وتُرك الباقي مساحة فضاء(٢) وعلى هذا النحو بُنيت المساجد الأولى كمسجد البصرة، في سنة(١٤هـ/ ٦٣٥م) ومسجد الكوفة(١٧هـ/ ٦٣٨م) ومسجد القسطنطينية(٢١هـ/ ٦٤١م)، ولم تكن لتلك المساجد محاريب محددة بكوى ولا منابر ولا مآذن، وهذه أحدثت في العصر الأموي، هذا بشكل عام ما اتصفت به المساجد التي بُنيت في المدن التي بناها العرب، أما في المدن والمناطق التي كانت معمرة كبلاد الشام مثلاً، قام العرب بتقاسم الكنائس مع أهل البلاد، أو اخذوا الكنيسة وحولوها إلى مسجد، لأداء الصلاة بعد أن يتم نقل اتجاهه من الشرق إلى الجنوب بحيث تصبح الساحة الطويلة المحاطة بالأعمدة صحناً عريضاً، كما أقيم المحراب في المسجد للدلالة على جهة الكعبة(٣).

ولا غرابة أن يتأثر بناء المساجد في بعض نواحي العالم العربي بالطرز السائدة فيها قبل انصوائها تحت راية الإسلام، فالمآذن التي أقيمت من الممكن أن تكون قد تأثرت بالأبراج التي كانت في تدمر، كما تأثر شكل المحراب بحنية الهيكل في صدر الكنيسة(٤).

وحققت عمارة المساجد قفزة نوعية في العصر الأموي، مقارنةً مع العصر الذي سبقه، إذ كان للاستقرار والفتوحات العظيمة، وما رافقها من ازدهار اقتصادي وتطور اجتماعي أثره في تألق بناء المساجد، والتركيز

(١) الخطيب، حامد، قصة مدينة الرملة، ص٣١.

(٢) عكاشة، ثروت، القيم الجمالية في العمارة العربية الإسلامية، بيروت، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص١٠٦، و الصالح، محمد، المسجد جامع وجامعة، الرياض، ط١، ٢٠٠٠، ص١٠٩-١١٠.

(٣) خمّاش، نجدة، دراسات في الآثار الإسلامية، منشورات جامعة دمشق، ط٣، ١٩٩٤، ص١٦، و أحمد، علي و زعرور ابراهيم، تاريخ العصر الأموي، ص٢٣٤.

(٤) أرنست، كونل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، ص١٧.

على عظمة هذا البناء الذي مَجَّد الأمويين ، فقد انكب الأمويون على بناء المساجد ، كما تفننوا في هذه الأبنية التي أتت ثمارها بحيث خلّدت بانيتها عبر التاريخ. وسيتم التطرق إلى بعض ما جده الأمويون من مساجد كان قد أنشأها العرب في المدن التي بنوها، بالإضافة إلى التركيز على ما قاموا ببنائه من معالم دينية ما تزال خالدة كقبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس والجامع الأموي في دمشق والتجديد الكبير في المسجد النبوي في المدينة.

١- تجديد وبناء بعض المساجد: لقد أدرك ولاة الأمويين كخلفائهم ما يحمله المسجد من معاني الدين والدنيا، إذ عملوا وحسب الإمكانيات المتاحة لإضفاء رونق جديد للمساجد التي كانت قائمة في ولاياتهم، فقام بعضهم بزيادة أو إعادة بناء بعض المساجد، كما فعل زياد بن أبيه بمسجدي البصرة والكوفة، فقد زاد في مسجد البصرة واستبدل سقفه بخشب الساج(١) وأعاد بناءه بالأجر والجص، وبنى أعمدته من حجر أحضرها من جبل الأهواز وبنى منارته من الحجارة، وجعل الرواق بخمسة صفوف قائمة على أعمدة من رخام(٢) .

ولقد طال التجديد جامع عمرو بن العاص على يد والي مصر لمعاوية مسلمة بن مخلد الذي كتب إلى معاوية يخبره بأن المسجد ضاق بالمصلين في سنة(٥٣هـ/٦٧٢م)، فأمره معاوية بزيادته شرقاً وشمالاً، وجعل له مسلمة رحبة في شماله، وزخرف جدرانه وسقفه، وفرش أرضه بالحصر، وبنى له أربع صوامع للأذان(٣)

وتشهد مئذنة مسجد الرملة- المسمى الأبيض- الذي بناه سليمان بن عبد الملك والتي مازالت قائمة(٤) على إتقان فن عمارة المساجد عند الأمويين .

ولأن جامع القيروان الذي بناه عقبة ، لم يعد يتسع للمصلين، أمر الخليفة هشام بن عبد الملك في عام(١٠٥هـ/٧٢٣م)بزيادته، وما تزال أعمدته وتيجانه وأقواسه شاهدةً على أسلوبه الأموي(٥). ولم ينس الوليد ابن عبد الملك، رأس العمارة الأموية، الزيادة في بناء جامع صنعاء وإحكام بنائه بشكل جيد(٦)، الذي بُني عام (٦٢٧هـ/٦٢٧م).

كما بنى الخليفة سليمان بن عبد الملك جامعاً في حلب داخل ساحة كنيسة، عمل ما بوسعه ليكون مشابهاً لجامع الوليد في دمشق(٧)

هذا بعض مما قام ببنائه الأمويون ، إذ بنوا الكثير من المساجد والجوامع ، فلم تخلُ مدينة ولا تجمع سكاني من المساجد، ويصعب التطرق لذكرها كلها، ولكن لا بد من ذكر الأبنية التي تشهد على ما وصلوا إليه من إتقان للفن وفنٍ للإتقان، وهي حسب تسلسلها التاريخي:

٢-قبة الصخرة في القدس: تعلو هذه القبة فوق الصخرة التي تقع في وسط الحرم القدسي، وهي أقدم الآثار الإسلامية التي ما زالت قائمة تحافظ على تخطيط بنائها منذ تدشينها، وبنائها الخليفة عبد الملك بن

(١) البلاذري فتوح،ص٣٤٢،و ياقوت، معجم البلدان،ج١،ص٤٣٣،و كريزويل، كييل أرشيبيلد، الآثار الإسلامية، نقله إلى العربية عبد الهادي عبلة،دار قتيبية دمشق، ص٢٨.

(٢) البلاذري،فتوح ،ص٣٤٣، خماش،نجدة ، دراسات في الآثار، ص١٩، و يوسف ،شريف ، المدخل، ص٢٦-٢٧.

(٣) كريزويل، المرجع السابق، ص٢٩.

(٤) بهنسي، عفيف ، جمالية الفن، ص١٣٠.

(٥) حسين، قصي ، موسوعة الحضارة، ص٣٠٥، و شريف ،يوسف ، المدخل، ص٥١.

(٦) الصنعاني، أحمد بن عبد الله أبو العباس الرازي(ت٤٦٠هـ/١٠٦٧م) تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبد الله العمري، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٩، ص١٣٥، و إيمان محمد بيضاني، صنعاء في كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين في القرن الهجري الرابع، دار الثقافة العربية، الشارقة، ط١، ٢٠٠١، ص١٣٥.

(٧) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج١، ق١، ص١٠٤، و شريف ،يوسف ، المدخل، ص٣٢.

مروان سنة (٦٧٢ هـ / ٦٩١ م) على هذا الشكل الفني العظيم، في مكان له قدسية خاصة لدى المسلمين، لما له من ارتباط وثيق بقصة الإسراء والمعراج للرسول محمد (١) ﷺ ولهذا سُميت قبة الصخرة (٢) وتقول روايات بعض المؤرخين بأن هذا المكان هو موقع المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب والذي كان بسيط البناء (٣)، فلماذا بنى عبد الملك قبة الصخرة؟ ربما فتح اليعقوبي باباً للجدال حول ذلك عندما أرجع السبب إلى صرف أهل الشام عن الذهاب إلى مكة والحج إلى البيت الحرام (٤) لئلا يلتقوا مع ابن الزبير الذي خرج على عبد الملك، واعتصم بالكعبة، وبايعه أهل الحجاز والعراق.، ويذكر ابن الحنبلي العلمي في الأنس الجليل أن عبد الملك أراد إشغال الناس بعمارته هذه عن الحج إلى مكة (٥) لكنه لم يذكر أن الغرض هو الحج إلى قبة الصخرة، وربما يشير كريزويل إلى مشروعية رأي اليعقوبي وذلك لمناسبته للوضع السياسي آنذاك (٦)، كما قوبل رأي اليعقوبي بالرفض من قبل الكثيرين الذين رأوا في عبد الملك رجلاً تقياً ورعاً لا يُقدم على تعطيل حكم رباني يخرج من الملة، وفي رأيهم أن من روج لفكرة الحج هم من خصوم الأمويين فيما بعد (٧) كما أن بناء كبير فوقه قبة كبيرة عالية كان يحتاج إلى جهد ووقت طويل وبالفعل استغرق بناؤه ما بين (٦٨-٧٢ هـ / ٦٨٧-٦٩١ م) وقوام تصميم قبة الصخرة هو حائط مئمن الأضلاع تليه دائرة وسطية الدعائم والأعمدة تحيط بالصخرة التي تتوسط المبنى، وترتكز عليه قبة خشبية، ويفصل بين التتمينة الخارجية ودائرة القبة تتمينة وسطية من الدعائم تعلوها عقود دائرية مدببة، وقد نجم عن التتمينة الوسطية رواقان خارجي وداخلي غُطيا بسقف خشبي أما القبة فكانت من الخشب تغطيها من الخارج طبقة من الرصاص، ومن الداخل طبقة من الجص، وكان للبناء أربعة أبواب ولقد كُستت الواجهات من الداخل بالبلاط الرخامي الأبيض، كما كُسي القسم العلوي الخارجي بالفسيفساء المزخرفة (٨). ويشهد هذا البناء بكل صدق وإكبار على ما تحلى به المعماريون السوريون من ذوق وفن معماري مع التأثير بالعمارة السائدة في بلاد الشام، فالأركان والأعمدة بنيت بشكل محروف، حتى أن الداخل إلى المسجد من أي جهة تظهر أمامه جميع أطراف المكان، دون أن يقاطع بصره شيء من الأبنية، حيث يرى القسم القريب والبعيد مما أكسب البناء روعةً وجمالاً وجلالاً واتساعاً، أكثر مما هو عليه في الحقيقة، ولا شك أن راصفي الفسيفساء لم يكونوا أقل مهارةً وخبرةً من البنائين. هذه المهارة في البناء وهذا الجمال في التصميم والتنفيذ ترجمه الرحالة والجغرافيون بما وصفوه من مشاهدتهم لهذا الصرح العربي، وكان ممن وصفه ابن الفقيه وابن عبد ربه والاصطخري والمقدسي وابن بطوطة والإدريسي (٩) وغيرهم مما جاءت به كتاباتهم لتشهد لعبد الملك بعلو الكعب في الذوق والإتقان، هذا الإتقان الذي حاول المأمون نسبه إليه عندما أراد تحريف الكتابة التي في

-
- (١) شبير، محمد عثمان، بيت المقدس وما حوله، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١، ٩٨٧، ص٦٢.
- (٢) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، القدس دراسة تاريخية حول المسجد الأقصى والقدس الشريف، دار المريخ، الرياض، ٢٠٠٠، ص٦٦.
- (٣) غارودي، روجيه، فلسطين أرض الرسالات السماوية، ترجمة قصي أتاسي، وميشيل واكيم، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨، ص١٢٥.
- (٤) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢٦١.
- (٥) العلمي مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص٢٧٢.
- (٦) كريزويل، الآثار الإسلامية، ص٣٤.
- (٧) عليّة، عبد الفتاح، المرجع السابق، ص٧١، وشبير، المرجع السابق، ص٩١.
- (٨) كريزويل، الآثار، ص٣٤-٥٥ و عبد الفتاح عليّة، المرجع نفسه، ص٧٠.
- (٩) العقد الفريد ج٧، ص٢٩٠-٢٩١، والبلدان، ص١٠٠-١٠٣ و مسالك الممالك، ص٥٧، و أحسن التقاسيم، ص١٥٨، و نزهة المشتاق، ص٣٦٠، ورحلة ابن بطوطة، ج١، ص٧٧.

المبنى والتي تقول: "بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة (٥٧٢هـ/٦٩١م) تقبل الله منه ورضي عنه" (١) ويظهر التحريف جلياً في شكل ولون وضيق الخط المكتوب به الاسم المزور، بالإضافة إلى أن خلافة المأمون في سنة (٥٢١٦هـ/٨٣١م) وليس (٥٧٢هـ/٦٩١م).

٣- المسجد الأقصى في القدس: هو أولى القبليتين و ثالث الحرمين الشريفين، ومن المتعارف عليه أن المسجد الأقصى هو الجامع المبني في صدر المسجد الذي به المنبر والمحراب الكبير فقط، لكن اسم الأقصى يشمل جميع المكان مما دار عليه السور (٢) فالمسجد الأقصى (المسجد المسقوف) الذي بناه الوليد بن عبد الملك إذاً هو على الهضبة نفسها التي بنيت عليها قبة الصخرة، ويبعد عنها حوالي خمسمئة متر إلى الجنوب منها. فمن هو باني المسجد الأقصى؟ ، ينسب البعض بناءه إلى عبد الملك (٣) والبعض الآخر ينسبه إلى ابنه الوليد (٤)، وربما يرجع هذا الاختلاف إلى عدم وجود نص تذكاري يثبت ذلك كما هو الحال في قبة الصخرة، بالإضافة إلى أن المؤرخين والجغرافيين في العصور الوسطى لم يثبتوا ذلك بدقة (٥) ، ولكن ربما يعود الفضل إلى أوراق البردي التي اكتشفت وأضاءت من خلال المعلومات التي فيها على الخليفة الذي كان في الحكم وقت تنفيذ هذا البناء ألا وهو الوليد بن عبد الملك، فقد عُثر بين أوراق البردي على بردية عُرفت باسم أفرديتو وهي عبارة عن رسالة رسمية من قرة بن شريك والي مصر للوليد بن عبد الملك (٩٠-٩٦هـ/٧٠٨-٧١٤م) إلى أحد حكام الصعيد، وتتضمن إرسال العمال والمواد وأثمان بعض المواد للأقباط الذين اشتركوا في بناء مسجد بيت المقدس (٦).

وسواء أكان عبد الملك هو البائد في البناء الذي أكمله الوليد أم أن الوليد هو من بدأ وأكمل بناء المسجد، فكلاهما الأب والابن، من عمالقة العصر الأموي في هندسة العمارة، إذ أعطيا بيت المقدس ما يستحقه من المكانة كونه كما يقول ابن العمري عن المسجد الأقصى- وما يعني هذا المصطلح من إضفاء للجزئية على الكلية للمكان- "هو معهد الأنبياء ومعهد الأولياء وثالث البيت الحرام في البناء وأول القبليتين حال الإبتداء ، ومن صخرته المقدسة المعراج.. (٧) فالقدس إذاً لها من المكانة الدينية للمسلمين الجزء الأكبر، وربما هذا هو الأمر الذي دعا الوليد لتشييد المسجد الأقصى، لما للمكان من قدسية ، وكي يكسب محبة المسلمين ويخلد اسمه في سجل التاريخ.

ومهما يكن من أمر فالمسجد الأقصى يمثل نمطاً جديداً في العمارة العربية (٨) ومن تلك الميزات خلو المسجد من الصحن أو الفناء الداخلي المكشوف، وهي ميزة نادرة في المساجد، ولاسيما التي ترقى إلى صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي، والتي كان الصحن المفتوح من خصائصها الهامة. كما امتاز المسجد الأقصى بعدم توسط محرابه لجدار القبلة، وبهذا شدّ عن القاعدة العامة لأغلب المساجد الإسلامية، التي روعي فيها توسط المحراب لذلك الجدار، رغم أنها لم تكن قاعدة ثابتة، بالإضافة إلى أن البلاطات (الأروقة) كانت بصورة عمودية

(١) محمد هاشم غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ص ٢٩. و أسيمة العظم، المجتمع، ص ٥٥.

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامه، ص ٦١، و حتي ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٣١، و الصالح ، محمد ، المسجد جامع وجامعة، ص ١٣٠.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦ ياقوت، معجم، ج ٥، ص ١٦٩ .

(٤) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٢٧.

(٥) رجب ،غازي ، المسجد الأقصى بالحرم الشريف ببيت المقدس، مجلة سومر ، م ٢٨٠، سنة ١٩٧٢، ص ١٣٨.

(٦) كريزويل، الآثار، ص ٦٦، وعبد الفتاح عليّة، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٧) العمري، مسالك الأبصار ،السفر، ص ١٨٠.

(٨) Rice , D, T, Islamic Art ,London ,1965, p13 .

على جدار القبلة، وليست موازية له، وبهذا يكون المسجد الأقصى قد خالف من هذه الناحية أيضاً مساجد العصر الأموي، وغالبية المساجد اللاحقة التي كانت بلاطاتها موازية لجدار القبلة، وليست كغيرها من المساجد كمسجد واسط، والمسجد الأموي بدمشق... (١) ٠ ولقد تعرض هذا المسجد للتدمير نتيجة الزلزال الذي أصابه سنة (١٣٠هـ/٧٤٧م) ولم يبق منه إلا القسم المحيط بالمحراب (٢) وما يعرف أن أبوابه كانت ملبسة بصفائح الذهب والفضة، ذلك أن الخليفة أبو جعفر المنصور أمر برفع هذه الصفائح وصرفها دنائير للإنفاق على إصلاح المسجد، وقبة الصخرة بعد تصدعها من جراء الزلزال (٣).

٤- الجامع الأموي في دمشق: وصلت العمارة العربية ببناء هذا الجامع إلى ذروة التآلق والعظمة، على يد الخليفة الوليد بن عبد الملك، الذي أضاف لمجاده مجداً على مجد، فبينما كانت جيوشه تخرق الشرق والغرب معلنة نشر الثقافة العربية الإسلامية، كان هو يجسد هذا النصر في بناء خلدته مع أسرته الأموية، فلماذا بنى الوليد هذا الجامع؟ لقد رأى الوليد أن الضرورة ملحة لتشييد مسجد جامع للمسلمين الذين ازداد عددهم في دمشق- وكل البلاد الإسلامية- قلب الدولة الإسلامية، ووقع اختياره على وسط المدينة، وعلى مكان تهيمن عليه صفة القداسة بالإضافة إلى تمتعه بتاريخ عريق، حيث تعاقبت على هذا المكان معابد مختلفة، آرامية ورومانية، ومع قدوم المسيحية واحتضان دمشق لها تحول المكان إلى كنيسة للقدوس يوحنا المعمدان (يحيى) حيث شغلت هذه الكنيسة الجزء الغربي من المعبد، ولما جاء الفتح العربي لدمشق، ونتيجة لافتتاح المدينة مناصفة عنوة وصلحاً من قبل كل من خالد بن الوليد وعبيدة بن الجراح (٤) اقتسم العرب المعبد مع المسيحيين لأداء شعائرهم الدينية، وبذلك أخذ المسلمون القسم الشرقي، دون أن يقوموا بإجراء أي تغيير معماري فيه، واكتفوا باتخاذ موضع القبلة في الجدار الجنوبي (٥) ٠

واستمر الحال على ما هو عليه إلى أن قرر الوليد بناء جامع للمسلمين في عاصمته، ويكون على قدر عظمة المدينة، ويليق بهيبة دولته، ويتناسب مع التطور الحضاري الذي وصلت إليه دولته، ومن أجل ذلك فاوض الرعايا المسيحيين كي يتخلوا عن نصف المعبد، وبالفعل تم له ذلك بعد مفاوضات طويلة (٦) وقبل أن يبدأ الوليد ببناء الجامع أمر بهدم الكنيسة وكل ما في المعبد من أبنية، باستثناء السور والأبراج الأربعة، على الرغم من أن البعض شكك في أن يكون الوليد قد أمر بهدم شيء، بل ربما كان المسجد الحالي باستثناء القبة إنما هو كنيسة بذاتها (٧)، وتصدى كريزويل لمناقشة هذه القضية ببعض الاستفاضة، مؤكداً على رواية المسعودي والتي ذكر فيها أنه قرأ في سنة (٣٣٢هـ/٩٤٣م) كتابة بالذهب على اللازورد في حائط المسجد تقول: "ربنا الله لا نعبد إلا الله، أمر ببناء المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين" (٨) ٠

-
- (١) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) القاهرة، حاشية رقم ١٠٦، ص ٢٥٩. و خماش، دراسات، ص ٢٤.
(٢) يوسف، شريف، المدخل، ص ٣٤-٣٥، و خربوطلي، شكران و مصطفى، فوزي و العلي، عبد الكريم، الحضارة العربية الإسلامية (آثار وفنون) جامعة دمشق، ٢٠٠٨، ص ٤٢،
(٣) العلمي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٢٨١، العلية، المرجع السابق، ص ٨٢.
(٤) ابن الأعمش، الفتوح، ج ١، ص ١٢٧-١٢٨، وابن عساكر، ج ٢، ص ١١٢ و ابن كثير، البداية، ج ٩،
(٥) الريحاي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٥٤.
(٦) الطنطاوي، علي، الجامع الأموي في دمشق، دار المنارة، جدة، ط ١، ١٩٩٠. والريحاي، العمارة العربية الإسلامية، ص ٥٥.
(٧) تذكر خماش، نجدة عدداً ممن قالوا بذلك، انظر دراسات، ص ٢٧.
(٨) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١١٢، وكريزويل، الآثار الإسلامية، ص ٩٥ وما بعد.

ولقد أبدع الوليد بناء هذا المسجد وانفرد فيه كما قال: "أريد أن أبني مسجداً لم يبين من مضى من قبلي ولن يبني من يأتي بعدي مثله" (١) ومن أجل تحقيق هذا التفرد وضع إمكانات مادية عظيمة، فجاء بناؤه آية في الفن وروعة في الزخرفة والجمال، إذ كان محرابه مرصعاً بالجواهر، وعليه قناديل الذهب والفضة، ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية حتى أن رؤوس الأعمدة التي فيه ورغم كثرتها طليت بالذهب ورُصعت القناطر بالفسيفساء، بل إن بعض أرضيته غُطت بالفسيفساء أيضاً (٢).

وأخذ هذا الصرح من الجهد والمال والوقت الشيء الكثير، حيث يقال أن الوليد أنفق على عمارته خراج الدولة لمدة سبع سنين (٣) ليغطي نفقة آلاف العمال والفنيين الذين استقدمهم من فارس والهند وغيرها بالإضافة إلى الخبرات المحلية، كما استمر العمل في هذا البناء من سنة (٨٧ هـ / ٧٠٥ م) إلى سنة (١٤٠٦ هـ / ٧١٤ م) وهي السنة التي توفي فيها الوليد. ومما يدل على المكانة التي وصلت إليها العمارة العربية ما قاله سفير بيزنطة إلى دمشق في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما رآه: "إنا معشر أهل رومية نقول: إن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبلغونها" (٤) وهذا المدح من الخصم هو دليل على المهارة التي وصلت إليها هندسة البناء الأموية.

فلقد شُيد الجامع وفق مخطط مبتكر ومتجاوب مع شعائر الدين الجديد، من اتجاه نحو الكعبة، وأغراض الحياة العامة، إذ كان مستطيل الشكل، أبعاده ٩٧ × ١٥٦ متراً يحتل قسمه الشمالي صحن مكشوف تتوزع فيه قبتان بديعتا العمدة والتيجان، وبركة يحف بها من الجانبين عموداً أبراج لإنارة الصحن، ويؤدي إلى الصحن ثلاثة أبواب، تصله بجهات المدينة الثلاث، الشرقية والغربية والشمالية، ويحيط بالصحن من الداخل رواق مسقوف، ويحتل مكان الصلاة (الحرم) الطرف الجنوبي، وهو قاعة مستطيلة مؤلفة من ثلاثة أروقة تمتد من الشرق إلى الغرب وينتظم فيها صقان من الأعمدة، ويقطع الأروقة الثلاثة من الشمال إلى الجنوب مجاز قاطع بالغ الارتفاع يحمل في وسطه قبة النسرة الشامخة، ولقد أطلق العرب على الحرم اسم النسرة، إذ كانت القبة رأسه والمجاز جسمه والأروقة عن يمينه وشماله جناحاه، وفي جدار الحرم الجنوبي باب يصل الجامع بالمدينة، حتى يصبح متصلاً بها من جهاته الأربع، ويحتل المحراب الرئيسي إحدى فتحات هذا الباب، وإلى جانبه ينتصب المنبر، كما يرتفع فوق مبنى الجامع مآذن ثلاث تتوسط الأروقة الشمالية، وهي المعروفة بمئذنة العروس، على حين بُنيت الائتنتان الأخريان في زاويتي مكان الصلاة الشرقية والغربية، فوق اثنتين من أبراج المعبد الوثني الذي تحول إلى كنيسة النبي يحيى وسُميت الشرقية بمئذنة عيسى (٥).

٥- مسجد الرسول في المدينة: وبالتزامن مع بناء مسجد دمشق كان عمر بن عبد العزيز والي المدينة يشرف على إعادة إعمار مسجد الرسول في المدينة المنورة، بتكليف من الخليفة الوليد بن عبد الملك، فلماذا أراد الوليد تجديد هذا البناء؟ لقد وجد الوليد أن هذا البناء لا يتناسب مع عاصمة الإسلام الأولى، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد وبنائه، بالإضافة إلى هدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها بينائه وتوسيع المسجد

(١) عكاشة، ثروت، القيم الجمالية، ص ١١٠

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٢٨٧-٢٨٢، والقزويني، آثار العباد، ص ١٨٩-١٩٠

(٣) ياقوت معجم، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٤) العمري، مسالك، السقر الأول، ص ٢٤٧.

(٥) عكاشة، ثروت، القيم الجمالية، ص ١١٠، والريحاوي، العمارة العربية، ص ٥٦، ٦٠، و بهنسي، عفيف، الشام الحضارة (دراسة تاريخية) وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٨٦، ص ١٤٧-١٤٩.

لتصل مساحته بعد التوسيع إلى ٢٠٠×٦٧ ذراعاً(١) بحيث ازدادت مساحته من جهة الغرب اسطوانتين أي نحو عشرة أمتار، وزاد من جهة الشرق ثلاثة اسطوانات أي خمسة عشر متراً ،كما شملت الزيادة جهة الشمال، وكان بناؤه من الحجارة المنقورة، التي حُشيت بعمد الحديد والرصاص، كما جُعِل للمسجد سقفان علوي وسفلي(٢) وامتازت هذه التوسعة ببناء المآذن الأربعة وزخرفة الجدران من الداخل بالرخام والذهب والفسيفساء، وتذهيب السقف ورؤوس الأساطين وأعتاب الأبواب وفتح عشرين باباً للمسجد بالإضافة إلى المحراب المجوف(٣) أي جعل المحراب على شكل فجوة في الجدار، وهذه ميزة جديدة أدخلت إلى المساجد(٤) ولقد استغرق العمل في هذا المسجد قرابة ثلاث سنوات من (٨٨-٩١هـ/٧٠٧-٧١٠م) وكان الوليد يرسل إلى عمر كل ما يحتاجه من أجل إتمام البناء ، حيث أرسل له المال والفسيفساء والرخام ، بالإضافة إلى ثمانين صانعاً من الروم والقيط ، من أهل الشام ومصر(٥) .

ج- في مجال بناء القصور:

لقد أدت التنقيبات الأثرية إلى الكشف عن قصور بناها الأمويون واعتنوا بفنها ،وها هي بلاد الشام ببواديها تشهد للأمويين على كثرة وعظمة مبانيهم من القصور التي عمروها ،والتي بفضل هذه القصور أصبحت البادية أكثر حياةً ،ويبدو أن الصحراء كانت أكثر وفاءً للأمويين من المدن، حيث احتفظت ببعض الآثار المندثرة في ثناياها بعكس المدن التي غابت فيها قصورهم بشكل نهائي، وإن كانت بعض المصادر تذكر عدداً من القصور لشخصيات أموية(٦) ولعل أهمها قصر الخضراء، الذي يُعتبر أول قصر أموي وإسلامي بُني في بلاد الشام بعد الفتح، واستمر هذا القصر يتوارثه الخلفاء الأمويون، إذ أصبح بمثابة دار الإمارة، بعد أن اشتراه عبد الملك بن مروان(٧) ، وموقعه كان بجوار الجامع الأموي، عند جداره الجنوبي، ويبدو أنه ضاهى أعظم القصور بحسب وصف بعض المؤرخين والرحالة(٨) ، ولعل ما تم اكتشافه في عام ١٩٧٠م من آثار لقصور أموية يُرجح إمكانية قبول فكرة وجود بقايا أبنية أموية في المدن، رغم أن بقاء آثارها في القدس، ربما يدل على قدسية المدينة ويُظهر ما نالته من اهتمام الخلفاء الأمويين، ليقيموا مثل هذه القصور التي خبا التراب بعض بقاياها، والتي كانت متوضعة تحت مدينة البنات التي هُدمت في حي المغاربة، وذكر عالم الآثار بندوف أن القصور الثلاثة هي طبق الأصل لما وجد في قصور الأردن وفلسطين، مما وصفه كريزويل(٩) ومع ذلك فالمدن ولأنها في اتساع دائم ومركز حركة دائمة، فإن ملامحها تختلف باختلاف الأشخاص والحكومات والظروف على عكس البادية

-
- (١) اليعقوبي تاريخ، ج٢، ص٢٨٤، والطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٧٦، وابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٤٦، و عبد الغني ،محمد إلياس ، تاريخ المسجد النبوي الشريف، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٦، ص٤٧. و العظم ،أسيمة ، المجتمع، ص٥٩.
- (٢) عبد الغني ،محمد إلياس ، مرجعه السابق، نفس الصفحة.
- (٣) ابن النجار، محمد محمود(ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) أخبار مدينة الرسول ﷺ ، تحقيق محمد صالح جمال، مطابع دار الثقافة، مكة، ص٩٨-١٠٣.
- (٤) كريزويل، الآثار، ص٦٧-٦٨.
- (٥) البلاذري، فتوح ص٢١.
- (٦) مثل قصر عبد العزيز بن مروان بن الحكم، العمري، مسالك، السفر الأول، ص٣١٩٨٠، وقصر مسلمة بن عبد الملك، ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٢٤٤، وقصر أم حكيم زوجة هشام بن عبد الملك، ياقوت، معجم، ج٤، ص٣٥٥، ابن كثير، البداية، ج١٢، ص١٦٩.
- (٧) ابن عساكر، ج٢، ص٣٥٩.
- (٨) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني(ت٦١٤هـ/١٢١٧م) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص٢٣٥، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٣٦-٢٤٩.
- (٩) الحسين، قصي ، موسوعة الحضارة العربية(العصر الأموي)ص٣١٤-٣١٥.

التي تبقى تحتفظ نوعاً ما بذكرى ساكنيها، على الرغم من تقلبات الزمن، ولهذا بقيت بعض الملامح التي تدل على القصور التي بنيت عليها، إذ انتشرت هذه القصور على مساحات ومناطق مختلفة من بوادي الشام، فلقد ذكر حوالي ثلاثين قصراً أموياً، شيدت في العصر الأموي (١) ، والسؤال المطروح لماذا اختار الأمويون البوادي لبناء هذه القصور؟ وللإجابة على هذا السؤال يمكن القول أنه لا يمكن نكران محبة الأمويين للبادية التي تعتبر بالنسبة لهم المنشأ والأصل، وطبعاً هذا لا يعني انتقاصاً من حضارة العرب التي تذخر بالعمائر الشاهدة على الرقي من قبل الإسلام في اليمن والحيرة وكذلك حضارة الأنباط على حدود الشام، حيث كانت تقوم عمارة الغساسنة، التي ما تزال شاهدة على الفن المعماري لدى العرب ، فرغبة العيش في البادية إذاً كانت لدى الأمويين للتمتع بالهدوء والراحة وللاستمتاع باللهو والصيد والمرح، وما أكثر ما سجلته موضوعات الزخرفة التي حفلت بها أغلب هذه القصور من مناظر الصيد والرقص والموسيقى (٢) ويضاف إلى ذلك ما تتمتع به الصحراء من نقاء الهواء وخلوه من الأمراض والأوبئة التي كانت تعاني منها المدن وبالأخص دمشق (٣) بالإضافة إلى رغبة الخلفاء في التقرب من أهل البادية الذين كانوا من القبائل العربية التي تربطهم بالخليفة روابط الألفة أو العادات، وربما كمنت غاية مبطنة تتجسد في مراقبة حركات البدو ونشر الاستقرار وربما كان من بين الأسباب أيضاً رغبة الخلفاء الأمويين في الابتعاد عن أعدائهم في المدن خوفاً منهم من الاغتيال أو الحيل، ويضاف إلى ذلك غايات كل خليفة أو أمير أو والي لاختيار مكان تشييد قصره أو قصوره فعلى سبيل المثال يلاحظ الانتشار الواسع للقصور التي بناها الخليفة الوليد بن عبد الملك والتي تعكس الروح العمرانية التي سيطرت على الوليد بالإضافة إلى الرفاهية والتطور الحضاري الذي عاشه هذا الخليفة، أضف إلى ذلك ما يعكسه هذا الانتشار من تنوع في المواقع الجغرافية ما بين حافة الصحراء في قصر عمرة إلى الجو اللطيف في عنجر (٤) لبنان، إلى التمتع ببحيرة طبرية في فلسطين. أما هشام بن عبد الملك فالملاحظ أن قصره اللذين اكتشفا في الصحراء يدلان على خوفه وهربه من أوبئة دمشق، في حين تتضح رغبة الابتعاد وحب التسلية والهروب من الواقع لدى الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ، والذي لقي من عمه هشام معاملة سيئة كونه ولي العهد (٥) ويتضح ذلك من بنائه لقصر الطوبة الذي بُني بعيداً عن العمران (٦)، فهو أبعد قصور الأمويين إلى الجنوب . هذه بعض الملاحظات حول الأهداف التي ربما تكمن بين بقايا هذه القصور المندثرة، والتي يستشف مما تذكره المصادر، بالاعتماد على مواقع هذه القصور، وطريقة بنائها، السبب من هذا البناء. والآن سيتم التطرق للحديث عن عدد من القصور الأموية لإعطاء فكرة عنها وعن أسلوب بنائها، ومنها وحسب التقدير التاريخي لكل قصر:

١- قصر المنية: يقع هذا القصر بالقرب من الشاطئ الشمالي الشرقي لبحرية طبرية في فلسطين، وتتألف بقاياه من مربع أبعاده ٧٥ × ٦٧ م، وأقيم في كل زاوية من زواياه برج، ويقع مدخله الرئيسي في الجهة الشرقية، أما المسجد فقد بُني في الجهة الجنوبية الشرقية منه، ولقد اكتشفه الألمان ما بين سنتي (١٩٣٢-١٩٣٩ م) فدخلوه من بوابته الشرقية واكتشفوا المحاريب المزخرفة على الواجهتين، كما تم التعرف على الطابق السفلي بجميع

(١) بهنسي، عفيف، جمالية الفن، ص ١٣٢.

(٢) عكاشة، ثروت، القيم، ص ٧٩.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٥٠ و ٣٢٨، و الطبري، ج ٢، ص ٤٩٦، و ج ٤، ص ١٥٢ و ج ٤، ص ٢٢١، الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٠٩، و بهنسي، جمالية الفن، ص ١٣٤، و سالم، السيد عبد العزيز، الدولة العربية، ص ٤٣٥.

(٤) كان اسمها عين الجر وهي موضع معروف بالبقاع بين دمشق وبعليك، ياقوت الحموي، معجم، ج ٤، ص ١٧٧.

(٥) أراد الخليفة هشام تعيين أحد أولاده ولياً لعهد بدلاً من الوليد لذلك لجأ إلى الإساءة إلى الوليد انظر: الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢٢٢، وابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٦٧.

(٦) خماش، دراسات في الآثار، ص ٣٧.

غرفه، بالإضافة إلى الدرج الذي يوصل إلى سطح القصر، وكان للمسجد باب يدخله المصلون من الخارج، ومن الواضح أن الجدران كانت مغطاة بالرخام من الأسفل، أما في الأعلى فكانت الفسيفساء تغطيها، ووجد في القصر كميات كبيرة من الفخار والنقوش العربية، وكان أهمها دينار ذهبي ضُرب سنة (٨٩هـ / ٧٠٧م) باسم الوليد بن عبد الملك، بالإضافة إلى قطعة رخامية كُتبت عليها بخط كوفي أن هذا القصر هو من بناء الوليد بن عبد الملك، حيث كان يقضي فيه الشتاء (١). وما بقي منه هو جزء من السور بارتفاع ٤.٥ م.

٢ - قصر عمرة: إنه قصر صغير يبعد عن العاصمة الأردنية عمان نحو ٥٠ ميلاً، حيث يجثم في الصحراء بوادي البطم، ويعود بناؤه إلى عهد الوليد بن عبد الملك ما بين عامي ٧٠٥-٧١٥م (٢) ويشتمل هذا القصر على قاعة استقبال وحمام، تفتتح على الجانب الجنوبي منها غرفتان أشبه بالمخدعين، وزينت أرضية الغرف والقاعة بالفسيفساء التي تمثل زخارف نباتية، أما الغرف الأخرى فقد اكتست بالرخام، والملفت للنظر أن جدران المخدع تزدهن برسوم تمثل صوراً لعددٍ من أعداء الإسلام في ذلك الوقت، وقد كُتبت أسماءهم باليونانية وبالخط الكوفي ومنهم الإمبراطور رودريك آخر ملوك القوط في إسبانيا، وكسرى ملك الفرس والنجاشي ملك الحبشة وغيرهم (٣) وهذه الرسوم تعطي فكرة عن مدى تجسيم ما يدور في خلد الخليفة وما يمثل ذلك من تخليد للانتصارات عن طريق التصوير، هذا بالإضافة إلى الرسوم والزخارف المتنوعة التي تصور نشاطات متعددة تبرز نقوش لأول مرة عند العرب، وهي تصوير للفلك السماوي، منقوش على أحد السقوف، وتظهر فيه النجوم المختلفة وأبراجها ومنازلها (٤)، وما تزال آثاره باقية إلى الآن بهيئة جيدة.

٣- قصر جبل أسيس: يقع هذا الجبل في منتهى المرتفعات البركانية الشمالية الشرقية المتفرعة من جبل العرب، وعلى بعد ١٠٥ كم من دمشق باتجاه الجنوب الشرقي، وهو شبيه بالقصور الأموية من حيث البناء، فهو مربع الشكل طول ضلعه ٦٦ م، تتوضع في زواياه أبراجاً دفاعية مستديرة، وفي منتصف كل واجهة برج شبه اسطواني (٥) ويعتبر هذا القصر من أقدم قصور البادية الأموية، وكان يضم جامعاً وحماماً ويرجع بناؤه للخليفة الوليد بن عبد الملك (٦) و آثاره باقية إلى الآن.

٤- قصر عنجر: يقع في البقاع اللبناني على الحدود اللبنانية السورية، ولقد كان هذا القصر منتجعاً للخليفة الوليد بالإضافة إلى الأهمية الاقتصادية لمدينة عنجر كونها على الطريق التجاري الهام، ووجد في هذا الموقع أكثر من قصر، الأول قصر صغير مقابل المسجد، وقصر آخر كبير كان يحيط بمساحة مربعة طولها ٤٠ م تحف بها القناطر شاطرة القصر إلى قسمين متماثلين وشبّه هذا القصر بقصر المنية (٧)، وبقي منه بعض الأطلال.

-
- (١) الريحاوي، العمارة في الحضارة، ص ٧٦-٧٧، وبهنسي، الشام الحضارة، ص ٢٠١-٢٠٢، وخماش، دراسات في الآثار ص ٣٨-٤٠، و الدباغ، مصطفى مراد، موسوعة بلادنا فلسطين، ج ٦، ق ٢، ص ٣٦٥.
- (٢) لانكستر هاردنج، آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، اخرجته مجلة رسالة المعلم، ص ١٥٧. والسيد عبد العزيز سالم، الدولة العربية، ج ٢، ص ٤٣٥ ن عفيف بهنسي، الشام، ص ١٩٨.
- (٣) لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ص ١٥٨.
- (٤) لانكستر هاردنج، المرجع السابق، ص ١٥٧-١٥٨، و سالم، السيد، الدولة العربية، ج ٢، ص ٤٣٥-٤٣٦، و عبد الحميد، سعد زغول، العمارة والفنون في دولة الإسلام، دار المعارف، الإسكندرية، ص ٣١٠.
- (٥) العش، أبو الفرج، آثارنا في الإقليم السوري، ص ٦٦.
- (٦) الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص ٩٠، وبهنسي، الشام، ص ٢٠٢-٢٠٤. نجدة خماش، دراسات في الآثار الإسلامية، ص ٤٨-٤٩.
- (٧) التدمري، لبنان، ص ١٩٣، قطار، إلياس، لبنان في العصور الوسطى، ص ٦٥، الريحاوي، العمارة في الحضارة، ص ٧٥، ودافيد تاليوس رابيس، الفن الإسلامي، ترجمة منير صلاحي الاصبحي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٧٧، ص ١٦.

٥- قصر الحرائة: يقع هذا القصر على مسافة ٦٤ كم شرقي عمان على الطريق المؤدي إلى قصر عمرة، ويُستدل من بنائه أنه ربما بني لأهداف دفاعية، لأن شكله يبدو مصمماً على شكل قلعة مربعة مهيبية المنظر، يقوم في كل زاوية من زواياه برج مستدير بالإضافة إلى برج نصف مستدير بين كل زاويتين تتضح الجدران العالية وقد فتحت فيها شقوق للسهم ونوافذ صغيرة فوقها(١) أما داخل القصر فهو صحن محاط بغرف في طابقين، وفيه اصطبلات ، ومما عُثر عليه في هذا القصر ودل على أن تاريخ بنائه يعود لعهد الوليد هي تلك الكتابة الكوفية الملونة، والتي كانت فوق باب إحدى حجرات الطابق الثاني، وتحمل تاريخ سنة (٩٢هـ / ٧١١م) (٢) ، وهذا القصر مازال بحالة يمكن من خلالها معرفة أنه مؤلف من طابقين. ويوضح هذا العدد من القصور التي بناها الوليد الأول المدى الذي وصل إليه من الرغبة في البناء وربما كان للفتوح دور في ذلك ، فالأموال الناجمة عن الفتوح شجعت الوليد على هذه الرغبة، كما تتضح الغاية من التنوع في مكان بناء قصوره بين البادية ومرتفعات لبنان، حيث التبدل في الإقامة صيفاً وشتاءً.

أما ما بناه يزيد بن عبد الملك ومنها:

٦- قصر الموقر: يقع على الطريق المؤدية إلى عمان على بعد ٣٥ كم غربي قصر الحرائة، ومن الصعب تحديد ملامحه بسبب التهدم الشديد الذي حصل له، باستثناء بعض الدلائل التي بينت أن القصر كان مزداناً بأعداد كبيرة من الأعمدة وتيجانها، التي كُتبت على إحداها كتابة كوفية تذكر تاريخ البناء الذي يعود إلى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك(٣) ، وهو اليوم مهدم تماماً لم يبق منه إلا أنقاض. وربما جاء بناء هذا القصر كي يخلو الخليفة يزيد لحياته الخاصة مع حيابة. ومما امتاز به هشام بن عبد الملك أيضاً حبه لبناء قصور فخمة وكبيرة، ولعل أهمها ما تم اكتشافه :

٧- قصر خربة المفجر: الذي يبعد ٢ كم شمال أريحا في فلسطين، وكان للقصر مدخلاً رئيساً وساحات وغرف محيطة بالساحات، وقسم للرجال وآخر للنساء، بالإضافة إلى قاعة للرقص وغرف للاستراحة وحمامات، ومسجد، فالقصر إذاً مؤلف من قسمين(٤) قسم خارجي مخصص للرجال وهو ذو طابقين، وقسم داخلي مخصص للنساء وهو من طابق واحد بالإضافة إلى ساحة في الجهة الشرقية، ويحيط بالقصر سور طول كل ضلع منه ٢ كم والقصر مدعم بالأبراج التي تُستعمل للحراسة والمراقبة، وكان بناؤه مؤلفاً من رخام وبلاط وحجارة رملية، ولعل أبداع ما في القصر مخدع الخليفة الداخلي، والذي كان على شكل نصف دائرة، رُصفت بأجمل فسيفساء في العالم، وكانت على شكل رسوم نباتية وحيوانية(٥)، كانت بمنتهى الروعة التي وضحت حب هشام للزخرفة وفنها، في هذا المكان الذي كان بمثابة مشتي له، وتم التأكد من هوية هذا القصر العائد إلى هشام من بلاطة رخامية نُقش عليها بالخط الكوفي عبارة : ولا إله إلا الله محمد رسول الله، واسم هشام بن عبد الملك، كما كُشف عن تمثال يُعتقد بأنه لهشام ، ولكن يده اليمنى مبتورة، بالإضافة إلى آية قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي على عمود ضخم(٦) وأمكن للباحثين التعرف عليه من خلال آثاره القليلة الباقية.

(١) لانكستر، آثار الأردن، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) بهنسي، الشام، ص ٢٠٥.

(٣) لانكستر، المرجع السابق، ص ١٦٤، و خماش، نجدة ، دراسات، ص ٤٨.

(٤) توفيق، مرعي ، قصة مدينة أريحا، سلسلة المدن الفلسطينية، تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ص ٩٦ ، وخالد السلطاني، العمارة، ص ١٠٣.

(٥) خربوطلي، شكران وآخرون، الحضارة، ص ٦٠-٦١-٦٢، ولانكستر، المرجع السابق، ص ١٨٠-١٨٩.

(٦) توفيق، مرعي ، المرجع السابق، ص ٩٨

٨- **قصر الحير الغربي:** ومرةً أخرى يثبت هشام شغفه ببناء القصور، والتمتع برفاهية الحياة، وذلك من خلال بنائه لقصر الحير الغربي في سنة (١٠٩١هـ/٧٢٧م) جنوب غرب تدمر على بعد ٤٥ كم، وإلى الشرق من بلدة القريتين الحالية^(١)، والقصر محصن ببرج دائري في كل زاوية، وبرجين نصف دائريين على جانبي الباب، والقصر مربع الشكل طول ضلعه ٧١م مؤلف من طابقين، وكان حتى ارتفاع مترين مبني من الحجر الكلسي، ثم اكتمل البناء بصفوف من اللين، واحتوى الطابق الأرضي على منازل مؤلفة من مقاصير، وتألفت زخارفه من عنصرين رئيسيين، هما النقوش الجصية، التي زينت النوافذ والمناور، بزخارف نباتية، والرسوم التي ألقت لوحات كبيرة على جدران الغرف^(٢).

ولقد ألف هذا المبنى عمل عمراني متكامل، بحيث ضم إلى جانب القصر البساتين والحمام والخزانات بالإضافة إلى الخان الذي كُتب على بابه بخط كوفي " بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له أمر بصناعة هذا العمل عبد الله هشام أمير المؤمنين، أوجب الله أجره، عمل على يد ثابت بن أبي ثابت في رجب سنة تسع ومائة"^(٣)، ولقد تم نقل بعض عناصره المعمارية والزخرفية إلى متحف دمشق الوطني، وأهمها بوابة القصر.

٩- **قصر الحير الشرقي:** يتضح الهدف الاقتصادي من بناء هذا القصر من النص الذي كُتب عليه " بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ومحمد رسول الله، أمر بصناعة هذه المدينة عبد الله، أمير المؤمنين، وكان هذا من عمل أهل حمص على يد سليمان بن عبيد سنة عشر... " أي سنة ١١٠هـ/٧٢٨م^(٤) ويتضح من هذا دور أهل حمص في بنائه بالإضافة أن بناءه الدفاعي يشير إلى تلك الأهمية، ويبتعد هذا القصر حوالي ١٠٠ كم إلى الشمال الشرقي من تدمر، ومسافة ٦٠ كم جنوبي الرصافة، ويتألف الموقع من قصرين، أحدهما صغير مربع غير منتظم، ويشبه في تصميمه قصر الحير الغربي^(٥) أما البناء الثاني فهو كبير مربع أقيمت حوله العديد من البيوت بحيث شكلت شبه مدينة، والقصران مدعمان بأبراج نصف دائرية، وجد في كل ضلع برج، بالإضافة إلى أبراج الزوايا الأربعة، تنتهي في أعلاها بغرف خاصة للمراقبة، ويضاف إليها وجود شرفة بارزة خلف الرواق الذي توجد خلفه البيوت، وهذه الشرفة مزودة بسقاطين لصب السوائل المغلية^(٦) في حال التعرض لخطر ما، ويعتبر هذا أقدم عنصر من نوعه في العمارة العربية. وما يلفت النظر في قصور هشام هو وجود البساتين، التي تبرهن على مدى حبه للزراعة. ومن مواقع هذه القصور يتضح رغبة هشام في الابتعاد عن المدن لخوفه من الأوبئة، وهذا يوضح حرصه على صحته، كما يتضح حبه لبناء القصور في البادية وليس نحو الجنوب كغيره، ويبدو أنه استغل القصور وما حولها كمزارع له.

١٠- **قصر المشتى:** لقد اعتاد الوليد الثاني منذ أن كان أميراً على بناء القصور ومنها هذا القصر، الذي يُنسب إليه، وهو في بادية الأردن، على بعد ٢٠ ميلاً جنوبي عمان، وأحاط بالقصر سور مربع طول ضلعه ٤٤م وكانت أبراجه دائرية، عدا برج المدخل، إذ كانا نصفي مئمنين، والقصر مقسم إلى ثلاثة أجنحة، ومما يمتاز

(١) الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص ٧١.

(٢) خماش، نجدة، دراسات، ص ٥٣، والريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص ٧٥. والعش، أبو الفرج، آثارنا في الإقليم السوري، ص ١١٤.

(٣) بهنسي، الشام، ص ١٣٦، وخماش، دراسات، ص ٥٣.

(٤) بهنسي، الشام، ص ٢١٦.

(٥) السلطاني، العمارة، ص ١٦٥.

(٦) شكران خربوطلي وآخرون، الحضارة، ص ٦٦.

به هذا القصر بأنه من أكثر القصور الأموية زخرفةً ، والواضح من مخطط هذا القصر أن بناءه لم يكتمل (١) ولقد سبب انعدام وجود أي نوع من الكتابة فيه إلى خلق خلاف بين الباحثين حول باني هذا القصر ، إلا أن معظمهم اتفق على أن طراز البناء يعود إلى أواخر الدولة الأموية(٢) وليس قبله كما ادعى البعض، والدليل على ذلك وجود قاعة للصلاة مع المحراب(٣) ، وما بقي منه عبارة عن أطلال.

١١- قصر الطوبية: يقع هذا القصر على بعد ١٠ كم جنوب شرق عمان، في وادي الغداف، ويعتبر هذا الموقع أكبر قصر أموي بعد الحير الشرقي والمفجر، وتألقت مادة بنائه من الحجر والطوب، ولم تدخل في بنائه مادة الآجر لذلك سمي الطوبية(٤) وتدل أساساته أن له جناحين، متماثلين، أو يمكن القول بأنه عبارة عن قصرين متطابقين لكنهما متعاكسان في الصورة، ويربط بينهما ممر، وبنتيحة الشبه الواقع بينه وبين قصر المشتى يمكن اعتباره من تشييد الوليد بن يزيد(٥) ، وبقي منه بعض الأطلال، إذ تهدمت أكثر أقسامه.

١٢- قصر حمام الصرح: موقع لقصر صغير أنشئ ليكون منطلقاً لرحلات الصيد الخاصة بالخليفة، وضم هذا القصر حماماً يشبه في تصميمه وفي صورته الملونة حمام قصر عمرة، وكان أعظم ما في الحمام القبة المضلعة التي تقوم فوق قاعة المدخل(٦) ، ولقد اختلف الباحثون في إرجاع بنائه لهشام بن عبد الملك أم الوليد بن يزيد، لكن المرجح أنه من بناء الوليد الثاني، قبل استلامه للحكم، في سنة (١٠٨هـ/٧٢٥م)(٧)، وهو مهدم لم يبق منه شيء يذكر.

تعكس هذه القصور إذاً رغبة الوليد الثاني في الابتعاد عن عمه هشام وعن الازعاجات التي سببها له عمه كما أنه فضل بناء قصوره في بادية الأردن بعيداً عن قصور عمه هشام. ويضاف إلى هذه القصور ما بناه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في حران والذي أنفق على بنائه ١٠ ملايين درهماً(٨)، ويبدو أنه اهتم به على إثر نقله العاصمة إلى حران .

هذا جزء من كل مما بناه الأمويون من قصور، أقاموها على الأغلب لراحتهم واستجمامهم، والتي يمكن القول بأنها قامت وفق أنموذج متشابه، وشكل معماري واحد يقوم على مبدأ السور المحيط، والصحن الداخلي الذي تشرف عليه أروقة تتبعها غرف في طابق أو طابقين، كما يلاحظ أن السور الخارجي أخذ صفة الحصن من غير فتحات وزخارف، وهذا يدل على الاهتمام بالناحية الأمنية إذ الأبراج العالية والمدعمة وكذلك الشرف المخصصة لصب السوائل المغلية في حال أي هجوم، وبشكل عام يمكن القول إن هذه القصور كانت بدايات العمارة العربية الإسلامية التي قدمت إثباتاً لشخصية معمارية أصيلة كانت سائدة منذ القدم ثم انتشرت وترسخت خارج الشام وبخاصة نحو المغرب العربي، حيث انتقل هذا الطراز في بناء المنشآت السكنية إلى الأندلس ، هذا النموذج الذي حمل بصماتٍ عربية، بغض النظر عن التأثير بفن البناء السائد، وما تلك الأسماء التي بقيت على بعض القصور إلا دلالة على ذلك، ومنها ثابت بن أبي ثابت الذي بنى الخان الذي كان بالقرب من قصر الحير الغربي، وكذلك سليمان بن عبيد الذي تولى بناء قصر الحير الشرقي .

(١) الريحاوي، العمارة في الحضارة، ص٨٢-٨٣، ولانكستر، المرجع السابق، ص١٦٥.

(٢) لانكستر، آثار الأردن، ص١٦٥.

(٣) خماش، نجدة ، دراسات، ص٤٦.

(٤) بهنسي، الشام، ص٢٢٥.

(٥) لانكستر، المرجع السابق، ص١٥٥، وبهنسي، الشام، ص٢٠٦.

(٦) كريزويل، الآثار الإسلامية، ١٣٩-١٤١، والريحاوي، العمارة في الحضارة، ص٨٧.

(٧) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص١٧٨.

(٨) السلطاني، العمارة، ص١٨٢.

د- في مجال مؤسسات الخدمة العامة والمرافق:

لا بدّ أن تلك الآثار التي أخرجتها الرمال من جوفها تعطي صورة، ولو أنها غير كاملة الملامح، عن اهتمام الأمويين بالحالة العمرانية على مختلف الأصعدة والمناحي، في مختلف المدن العربية، ومع أنها لم تكن منشآت ترقى إلى هذا الاسم إلا إن القول دائماً، بأن العمر القصير لهذه الدولة، وقوة الدفع نحو الفتوحات التي تمسكت بها، بالإضافة إلى الجهود التي بذلتها من أجل إخماد الفتن والثورات التي خرجت ضدها، كل ذلك ربما أثر فيها، أو شغلها عن الجوانب الحضارية-والتي لم تعدم- لكن الشاغل الأكبر، ربما كان السياسة والعسكرة التي غلبت حتى على كتابات المصادر التاريخية.

ومع ذلك ستكون في هذه الفقرة جولة ، خجولة، على بعض ما أسسه الأمويون من أبنية خدمةً للعامة. أما بالنسبة للبيمارستانات فقد هذا الأمويون فيها حدو بيمارستان جنديسابور، و قد أقيم بإيحاء من البيمارستانات التي أقيمت في كل من الإسكندرية وأنطاكية(١) وظل هذا البيمارستان قائماً أيام الأمويين، ولا بد أن هذا أوحى لحكام بني أمية بضرورة إنشاء المستشفيات على الرغم من بساطتها، إلا أنها خطوة مهمة في هذا المجال، فمعاوية بنى بيمارستاناً لكنه لم يصمد كثيراً حتى أن المؤرخين المتأخرين لم يروه(٢) لكن الوليد بن عبد الملك أخذ دور الريادة في مجال بناء البيمارستانات، حيث يعتبر أول من بنى بيمارستاناً في العصور الوسطى، بإجماع جميع أقوال المؤرخين(٣) كما ذكر أيضاً بيمارستاناً في مدينة الفسطاط بمصر (٤)

وبالانتقال إلى الحمامات وما نالته من اهتمام فإنه يمكن إدراك التفنن في تقنية بنائها لحمامات القصور وما أعطته من معلومات تفصح عن طريقة بنائها، وبذلك يمكن توقع بناء الحمامات على شاكلتها، فقد مثل حمام قصر عمرة الأول من نوعه في بلاد الشام، والذي تألف حسب بقاياها من قاعة ذات ثلاثة أجنحة، تنتهي بقاعة تحاذيها على الجانبين مقصورتان ذات قائمتين من الخارج، وتنتفح القاعة إلى اليسار على غرفتين، كل واحدة منهما مغطاة بقبة، وتنتفح هذه القاعة من الشرق على قاعة ثلاثة ذات قبة ولها مقصورتان، وتتصل هذه القاعة بدلهيز إلى قاعة كبيرة يبدو أنها لم تكتمل(٥) ، كما ويشابهه من حيث التخطيط والتصميم والصفات حمام آخر هو حمام الصرح، ومما لاشك فيه أن أكثر -إن لم يكن كل- القصور الأموية كانت تحوي حمامات مماثلة، إلا أن حمام خربة المفجر يعتبر الأكثر فخامة بينها، حيث تألف من قاعة واسعة ، ويقع في جانبها الجنوبي بركة ماء، وفي هذا القصر كغيره غرف ساخنة وأخرى باردة، بالإضافة إلى غرفة بخار، إذ اعتمد على التسخين بواسطة مجاري هوائية من الآجر ، تُمد تحت الأرضية، ثم تصعد مع الجدران عبر قساطل فخارية مازال بعضها في موضعه حتى الآن، كما كانت فوق الموقدة فجوة تحتوي على صهريج يسخن الماء فيه من أجل غرفة البخار(٦) والملفت للنظر استخدام العرب لهذه التقانة العالية في التسخين، وغرفة البخار في حمام المفجر كانت تقع إلى الشرق، حيث كانت تمر قناة ماء حول ثلاثة جوانب منها، وفوقها دكة تخترقها ثقب مستطيلة على مسافات

(١) عكاوي، رحاب، الموجز في تاريخ الطب، ص ١٥٨. ووجدت يسابور، كانت قاعدة إقليم خوستان وما بقي منها اليوم فهو آثار انظر: لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٢٧٣. و واصف، أمين ، معجم الخريطة، ص ٤٧.

(٢) الحنبلي، شذرات، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ٢٩. وعيسى، أحمد ، البيمارستانات، ص ١٠.

(٤) ابن دقماق، الانتصار، ص ٩٩، و رمضان، هويدا عبد العظيم، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح إلى العصر الفاطمي، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٥) بهنسي، الشام، ص ١٩٢.

(٦) لانكستر، آثار الأردن، ص ١٨٨-١٨٩.

منتظمة كي يندفع البخار منها إلى الغرفة(١) ، فهناك إذاً تقانة عالية في تصميم الحمامات، وفي توزيع الماء عليها، ولقد انتشرت الحمامات بكثرة في كل المدن العربية وقد سبق التطرق لها(٢)، إذ إن كثرتها في دمشق مثلاً كانت مبعث مفخرة للدمشقيين حسب ما قاله لهم الوليد الأول(٣) .

كما كان لدار الإمارة حيز هام في مشروع البناء لدى الأمويين، فقد غدت هذه الدار المكان المخصص لإقامة الوالي وأهله طيلة مدة ولايته، كما أنها كانت مركز لتصريف شؤون الإدارة وما تتطلبه من مقابلة المراجعين من الأفراد والوفود والجماعات، ولقد استمر في دمشق قصر الخضراء الذي بناه معاوية داراً للإمارة، كما نقل زياد بن أبيه دار الإمارة في البصرة إلى قبلة المسجد، وكان بناؤها من لبن وطين، وأراد الحجاج تخليد اسمه عليها وذلك ببنائها بالجص والأجر، فقيل له إن هذا العمل يزيد من اسم زياد عليها، فهدمها وبقيت كذلك حتى بناها والي خراج العراق لسليمان، صالح بن عبد الرحمن، بالأجر والجص (٤)، وكانت على الرغم من بساطتها إلا أنها واسعة، وكانت تحظى بالتطوير على أيام كل والي، وكذلك الأمر بالنسبة لدار إمارة واسط التي بناها الحجاج الثقفي، والتي كانت على الجدار القبلي من المسجد(٥) ، وفي الفسطاط بنى عبد العزيز بن مروان داراً للإمارة في سنة (٦٧هـ/٦٨٦م)، وكانت تقع غربي المسجد الجامع وكانت ذهبيةً ، إذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفاً على بصره، كما عُرفت بالمدينة لسعتها وعظمتها(٦) . وبنى عقبه في القيروان داراً للإمارة ، حيث استمرت هذه الدار مقراً للولاة من قبل الأمويين والعباسيين إلى أن انتقل عنها إبراهيم بن الأغلب في سنة (١٨٦هـ/٨٠٢م) (٧) .

ولقد نالت الأسواق جانباً مهماً كونها العماد الاقتصادي في المدينة، بالإضافة إلى دورها الاجتماعي والثقافي، لذلك نالها التطور والتنظيم تبعاً بدءاً من بلاد الشام مروراً بالعراق ومصر والمغرب وغيرها. ومن أجل تنظيم توزيع العطاء بنيت دور للرزق، وكان زياد بن أبيه السباق إلى بنائها في البصرة، وكانت تقع في الجزء الجنوبي من المدينة وهي عبارة عن مخزن للحبوب(٨) والشيء نفسه فعله الحجاج في واسط(٩) ولأن الدولة في حالة حرب دائمة ومهاجمات، كان عليها تدعيم وإقامة حصون وأسوار حول المدن وبالأخص الساحلية، ولذلك اهتم معاوية بتحسين مدن صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعكا وغيرها(١٠) ، بالإضافة إلى ما قام به عبد الله بن عبد الملك بن مروان من بناء للمصيصة في سنة(٨٤هـ/٧٠٣م) كما بنى هشام بن عبد الملك حصن قطرغاش وحصن مورة وبغراس(١١) ويضاف إليها العديد من المسالح والنواطير على سواحل الشام

- (١) لانكستر، آثار الأردن، ص١٨٩ والريحاوي، العمارة في الحضارة، ص٨٢.
- (٢) انظر فقرة الاهتمام بالشؤون الصحية، من الفصل الثالث .
- (٣) ابن كثير، البداية، ج٩، ص١٥٧. والعمرى مسالك الأبصار، السفر الأول، ص٢٤٢.
- (٤) البلاذري، فتوح البلدان ، ص٣٤٣-٣٤٤.
- (٥) بحشل، تاريخ واسط، ص٣٨ .
- (٦) عبد العظيم، هويدا، المجتمع في مصر، ج٢، ص٤٦.
- (٧) زيتون، محمد ، القيروان، ص٨٩، وإبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي ثاني الأغالبة بعد أبيه ممن تولى إفريقية لبني العباس استمرت ولايته ١٢ سنة و٤ شهور ومات بالعباسة التي بناها بالقرب من القيروان، الزركلي، الأعلام، ج١، ص٣٣.
- (٨) ابن حنبل، المسند، ج٣، ص٣٢٩. ابن الفقيه، البلدان، ص١٩١.
- (٩) الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدينة، ص١.
- (١٠) البلاذري، فتوح، ص١٧١،
- (١١) الدقوقي، الجندية، ص٢١٦. وحصن قطرغاش، من أعمال الثغور قرب المصيصة، ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧٣، وحصن مورة في جبال(الكام) الأمانوس، البلاذري، فتوح، ص١٧١، وبغراس مدينة في جبل الامانوس بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ على يمين امتجه إلى أنطاكية من جلين، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٦٧

ومصر وأفريقيا(١).

٢- اعتماد تقانة متقدمة في مجال هندسة الري:

لقد سبق الحديث عن اهتمام الأمويين بوسائل الري واستصلاح الأراضي، هذه الوسائل التي أقاموها لإيصال المياه إلى الأراضي، وكثيرة هي القنوات التي أقاموها في معظم البلاد العربية ، ولقد قدمت المكتشفات الأثرية التي عُثر عليها في البادية، بما فيها شبكات الري في القصور، معلومات عن تقانة هذه القنوات، فكيف اتضح الاهتمام بها؟ ظهرت تلك التقانة خاصة في قصر الحير الغربي و الحير الشرقي اللذين كان حولهما البساتين المتعددة التي تُزرع بفضل هذه الأقبية، ففي الحير الغربي أُقيم خزان وسد على أحد الأودية يدعى وادي خريفة، ومُدت من هذا السد قناة رئيسة تجري تحت الأرض ثم تتفرع عنها قنوات صغيرة وتنتهي إلى بركة تقوم مقام الخزان، ثم تتجه نحو بستان القصر(٢) ، أما بالنسبة للحير الشرقي فقد عُثر في بقايا أسوار البساتين والمزارع الواسعة على قناطر لمرور مياه الري، وكانت المياه تصل بواسطة قناة مبنية بالحجر المنحوت، وهي على مسافة ٣٠ كم، كما عُثر في القصر على مستودعات للمياه ، كانت تحت الأرض وهي مبنية من الآجر وقد سُميت هذه القنوات بالفقر في الحجاز(٣) وُدكر العديد منها(٤). وكانت المياه تجر إلى هذه القنوات من خزانات أو صهاريج تُبنى تحت الأرض كما في المدينة المنورة(٥) أو مدينة الرملة(٦) وكذلك آبار ابن حديج في القيروان(٧) أو من السدود التي كانت تقام على الأودية والأنهار، ولقد اعتبر معاوية أول حاكم أموي يقوم ببناء سد في سنة (٦٧٧/٥٥٨م) على بعد ٣٢ كم شرقي الطائف، وما زال بوضع جيد(٨) . ويمكن استنتاج طريقة تخزين المياه وتوزيعها ما قاله ابن جبير(٩) عن مدينة نصيبين كأنموذج رائع لتوريد المياه إلى المدن، حيث كانت الأنظمة الأنموذجية تصرف المياه عن طريق نهر ثم عن طريق قناة إلى داخل المدينة، حيث يتم تخزين هذه المياه في صهاريج، ومن ثم تأخذ معظم القنوات المياه من الصهاريج إلى أماكن متعددة من المدينة، ثم يخرج الماء الفائض إلى خارج المدينة ليخدم نظام الري.

ولقد قدمت البصرة-على سبيل الذكر لا الحصر- مثلاً عن أنظمة شبكات الري المتعددة، حيث كانت البصرة تعاني من مشاكل الفيضانات والمسطحات المائية الكبيرة، مما استدعى إقامة نظام توريد للمياه وشبكات وقنوات متعددة، حيث أنشئت قناتان رئيستان فيها وهما نهر مالك ونهر اليوبولا Alubbulla وكانت هناك قناة تربط بينهما و عدة قنوات عظيمة للري جعلت البصرة مركزاً زراعياً مزدهراً (١٠) .

(١) الخربوطلي والعلي ومصطفى، الحضارة، ص٦٩.

(٢) الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص٧١.

(٣) المرجع السابق، ص٨٨-٨٩.

(٤) العلي، أحمد صالح، الحجاز في صدر الإسلام، ص١٤٧-١٤٨.

(٥) الدهاس، فواز علي بن جنيد، مروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني في الدولة الأموية، مكة المكرمة، ط ١، ٢٠٠٤، ص٥٧.

(٦) الخطيب، حامد ، قصة مدينة الرملة، ص٨١.

(٧) زيتون، محمد، القيروان، ص٩٠.

(٨) حسيني، سيد وقار أحمد ، الفكر الإسلامي في تطوير مصادر المياه والطاقة، ترجمة أحمد سمية زيتوني، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط١٩٩٨، ص٢١١.

(٩) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٠.

(١٠) حسيني، سيد وقار، المرجع نفسه، ص٢٣٨.

ثانياً: مظاهر الضعف في مجال البناء والعمران:

- ١ - معظم منجزات الأمويين العمرانية كانت في الشام.
- ٢ - إهمال الأمويين المغرب الكبير وبلاد ما وراء النهر والسند في مجال العمران.

١-معظم منجزات الأمويين كانت في بلاد الشام:

لقد كانت الشام بالنسبة للأمويين العدة والعتاد، والمنطلق والمستقر، فأرضها كانت محط ركابهم، ومنها انطلقت توسعاتهم، وقوة حكمهم، ونظراً لهذه المكانة التي حظيت بها الشام عندهم، فقد نالت كل الاهتمام وبخاصة المعمارية التي تجلت بوضوح، بكونها مستقر الخليفة والأسرة الحاكمة، لذلك حاولوا تجميلها على قدر استطاعتهم بالأبنية التي ما زالت شاهدة على ذلك، فمن القصور التي تناثرت في بقاع الشام إلى جامع دمشق إلى قبة الصخرة فالمسجد الأقصى، استأثرت القدس بالاهتمام كما دمشق وكلاهما غدتا مدينةً مأثورة لدى الأمويين، فدمشق أحيطت بهالة من الفخار منذ القديم، والتي تجسدت بذكر الكثير من الأحاديث التي تذكر فضل الشام ككل، بما فيها القدس أيضاً، التي اعتبرت دينياً ثالث مدينة بالأهمية بعد مكة والمدينة(١) ويضاف إلى هذا المركز السياسي والديني لبلاد الشام ذلك المركز الاقتصادي والعسكري، الأمر الذي أدى إلى تسليط الأمويين اهتمامهم ببلاد الشام، فبغير بلاد الشام يستطيع المرء إحصاء الأبنية التي تمت إشادتها في العراق ومصر وشبه الجزيرة العربية واليمن، ففي العراق شيدت مدينة واسط كمثال على المدن، وكانت الكوفة والبصرة قد شيدتا قبل الدولة الأموية، ولقد جاء بناء واسط لأسباب عسكرية إدارية بحتة، وعلى الرغم من تعداد الكثير من المساجد التي بُنيت في العراق إلا أنه يلاحظ عدم وجود مسجد جامع على غرار الجامع الأموي بدمشق على سبيل المثال ويتضح ذلك من أسماء المساجد التي يحصيها ابن الفقيه في البصرة على عهد زياد والتي بناها زياد لكنها بأسماء أشخاص آخرين، ومنها مسجد الأساورة ومسجد بني عدي ومسجد بني مجاشع ومسجد حدان(٢) وهذا ينطبق على القيروان وما فيها من مساجد بأسماء بانيها ومنها أيضاً: مسجد الأنصاري بمحرس الأنصار وبني سنة (٦١٧/هـ٤٧م) قبل اختطاط القيروان كمحرس، ومسجد أبي ميسرة، ومسجد الحبلى بدرب أزهر قرب باب تونس بناه أبو عبد الرحمن الحبلى في سنة(٧١٨/هـ١٠٠م) ومسجد حنش الصنعائي(٣) والأمر ذاته ينطبق على مساجد الفسطاط، حيث بنتها القبائل العربية التي نزلتها ومنها مسجد القلعة، ومسجد بادي، ومسجد ابراهيم، ومسجد القراط ومسجد سيبان، ومسجد الأحذب ومسجد عبد الله بن عبد الملك بن مروان(٤)، وهكذا الحال لكن الصوت يخفت عندما ننتقل إلى اليمن، فباستثناء جامعها في صنعاء ومسجدين خاصين هما مسجد طاووس بن كيسان(ت٧٢٤/هـ١٠٦م) ومسجد وهب بن منبه(ت١١٤/هـ٧٣٢م)(٥) لا تُذكر أبنية أخرى.

فكل إقليم من الأقاليم باستثناء الشام إذاً يلاحظ فيه تركز البناء بمدينة أو اثنتين على الأكثر.

-
- (١) بيضون، ابراهيم، تاريخ بلاد الشام إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية، دار المنتخب العربي، ديم، د.ت، ص ٢٤٣.
 - (٢) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٩١.
 - (٣) زيتون، محمد، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص ٨٨.
 - (٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٨٦-٨٧-٨٩.
 - (٥) السباعي، حسن، معالم الآثار اليمنية، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ١٩٨٠، ص ٢٣-٢٤.

٢- إهمال الأمويين المغرب الكبير وبلاد ما وراء النهر والسند في مجال العمران:

كان من الحري على حكام كالأمويين افتتحوا بلاداً وممالك ككبيرة كالمغرب العربي وبلاداً لها عراقه كالسند والهند، إبلاءها بعضاً من الاهتمام العمراني ، كتجسيد لقوة حكمهم ، وبناء الكثير من المساجد لنشر الثقافة العربية الإسلامية، التي حملوها في فتوحاتهم، وتبدو الأبنية القليلة التي شُيدت في تلك المناطق لا ترق إلى المستوى الجغرافي للبلاد، ولا إلى قوة الدولة، فالدولة الأموية وصحيح أنها كانت تنفق الكثير من الأموال على الفتوحات ، لكنها بالمقابل كانت تجني الكثير من الاموال أيضاً من هذه الفتوحات، أضف إلى ذلك الضرائب التي كانت تُفرض عليها. ونظراً لذلك وبملاحظة الأبنية في المغرب يتضح أنها تركزت في مدينة القيروان، بالإضافة إلى جامع الزيتونة في تونس(١)، أما الأندلس هذا الإقليم الذي فُتِح دون عناء كبير، والذي استطاعت الحضارة العربية الإسلامية أن تضرب في جذوره قروناً عدة، ابتدأت بالأمويين لكنها لم تكن على المستوى المطلوب من ناحية إعمار هذا الإقليم، فالمساجد التي ترمز إلى انتشار الإسلام في إقليم ما لا يمكن ملاحظتها ، في هذا الإقليم الغني بكل تفاصيله، فالعرب شاركوا نصارى قرطبة بعد فتحها في كنيستهم الكبرى، وأقاموا في شطرنهم مسجداً ركزوا قبلته، ولما كثر المسلمون في قرطبة، وضاق بهم مسجدها، علقوا فيه أسقف متتابعة يقل ارتفاعها تدريجياً تبعاً لارتفاع مستوى سطح الأرض، كلما اتجهوا شمالاً بعيداً عن الوادي الكبير، وكان المصلون يجدون صعوبة في دخول بيت الصلاة، لقصر ارتفاع الأسقف(٢) وظل هذا المسجد على هذا الحال حتى نهاية الدولة الأموية في المشرق. وهنا يتضح إهمال بناء بيوت الله في هذا الإقليم البعيد والغني بمقوماته وكذلك المستهدف من قبل الغرب. وحتى فيما يخص البنية التحتية، يلاحظ أنهم قاموا بتجديد قنطرة قرطبة، والتي كانت تصل بين مدينة قرطبة وربضها المعروف شقندة، حيث قام السمع بن مالك الخولاني بإعادة بنائها من أحجار السور الروماني القديم(٣).

وفي بلاد ما وراء النهر والسند وخراسان وجرجان، والتي لاقى بها العرب من العنف والمقاومة، ما لاقاه أكثر من أي إقليم آخر، فاللغة كانت غريبة بالمطلق ، إذ انتشرت اللغة الإيرانية والتركية ، بالإضافة إلى اللغات الآرية في منطقة السند(٤)، ويضاف إلى هذا صعوبة التفاهم مع معطيات هذه الشعوب، التي كانت لها انتماءاتها وحضاراتها، أي إن العرب حاربوا في هذه البلاد أناس كانوا على سلطانهم، وليس كالشام وشبه الجزيرة والعراق ومصر حاربوا فيها انتماءات خارجية زالت مع زوال الفرس والروم، ولذلك توجب على العرب شراسة القتال، والعودة إليه كلما استدعت الحاجة إلى ذلك، بسبب الردة التي اعتادها سكان هذه الأقاليم، وكان من الأولى بهم تأسيس مدن لإقامة العرب المسلمين بها، لتوطيد أركان دولتهم، وتقوية بنيانها، بالإضافة إلى بناء المساجد.

ولقد قام الأمويون بعدة محاولات -كان باطنها نشر الدين الإسلامي- ولكنها لم تغط هذه البلاد على أي مستوى، فعلى سبيل المدن يُذكر أن الحكم بن عوانة بنى مدينتي المحفوظة والمنصورة على شاطئ الهند(٥) . كما بنى محمد الثقفي شيراز التي كانت على أيام عمر بن الخطاب عبارة عن معسكر للجيش المنطلقة نحو اصطخر(٦).

(١) جوهر، حسن محمد ، تونس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٨ و ٤٠.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز ، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٦٢.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٨، و عبد العزيز السالم، المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

(٤) فلوتن، فان، السيطرة العربية، ص ٤٧.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٣٠-٤٣١ ، والفي، عصام الدين عبد الرؤوف ، تاريخ الهند في العصر الإسلامي ص ١١.

(٦) الاصطخري، مسالك، ص ١٣٥.

ولكنها في العصر الأموي أصبحت قصبه فارس، أما القصور فهناك ذكر لقصر بناه كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي وسماه قصر كثير(١). واستطاع قتيبة بن مسلم بناء مسجد في سمرقند في سنة (٩٣هـ / ٧١١م) (٢)، كما بنى داخل حصن بخارى مسجداً آخر في سنة ٩٤هـ / ٧١٢م (٣) ولأن استقرار العرب تمركز في سمرقند وبخارى يبدو أن هذه الأبنية القليلة تمركزت فيها، دون غيرها ، إذ بني مسجد باسم بني حنظلة(٤) ويتضح من اسمه أنه خاص بقبيلة معينة.

أما دبيل فقد بنى فيها محمد الثقفي قصراً ومسجداً في النيبرون(٥)

ويمكن القول بعد ما تقدم ذكره عن العمران بأنه كان للأمويين طاقة ببناء على التجديد في الإبداع، وتأسيس كيان المدنية التي دبت في روح دولتهم، التي عملوا ما بوسعهم، في هذا المجال، لإثبات روحها العربية الإسلامية في مبانيهم التي تنوعت بالتناسب مع متطلبات الدولة والمدنية، فامتزجت الذات الشخصية للخلفاء، من خلال القصور التي بنوها مع دوافع البقاء المتمثلة في بناء المدن كواسط والقيروان، مع الرغبة في التمييز كالرملة التي بناها سليمان بن عبد الملك، ويضاف إلى هذا المزيج تلبية حاجات دولتهم ومؤسساتها من دور إمارة وبیمارستان وحمامات.

ولقد أفسح الأمويون العنان لأفكارهم بالانطلاق، فأبدعت أفكارهم طرازاً حمل بصمتهم في المساجد التي بنوها، وتجسد ذلك في الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة في القدس والمسجد النبوي في المدينة.

وإن أصاب الأمويون أهدافهم والمتمثلة في إثبات وجودهم في الشام، إلا أنهم أغفلوا تكريس هذا الوجود في البلاد الأخرى، وبشكل خاص البعيدة عن مركز الدولة، هذا الإغفال الذي تناقض مع فكرهم العربي الساعي إلى بلورة العروبة في جسم دولتهم.

-
- (١) البلاذري، فتوح، ص ٣٠٥، وكثير هذا لقب ذي الغصة لغصة كانت في حلقه، وكان سيد مذبح في الكوفة، ولي الري لمعاوية، انظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ١٤٩، ابن حجر والعسقلاني، الإصابة، ج ٥، ص ٥٧١.
- (٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٤، ص ١٤، و فامبيري، وأرمينوس ، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة أحد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، ص ٦٦.
- (٣) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٧٨، و فامبيري، المرجع السابق، ص ٦٨،
- (٤) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٨٤.
- (٥) ELLiot ,H, M , and Dowson, John, The History of India As Told by Its own Historians Volume I ,Lahore, Islamic Book , 1976, pp 157-158.

الخاتمة:

وهكذا وبعد وضع الدولة الأموية في ميزان التاريخ ظهرت فيها أساسات قوة كما اتضحت فيها ثغرات الضعف، وتباين الضعف والقوة فيها كخط بياني علا وانخفض حتى على مستوى المجال الواحد، وكان ذلك نتيجة اختلاف نماذج الخلفاء، وبسبب الظروف التي رافقت كل خليفة وربما بسبب اختلاف الأجيال والتفكير، فالذي كان يسري على معاوية لا يمكن أن يسري على مروان بن محمد كمثال على ذلك، وحتى البنية الشعبية اختلفت باختلاف المفاهيم، وبالتعمق في مبدأ السلطة، فالأمر إذاً معقد وشائك لأن الحديث هو عن حقبة زمنية ليست بالقريبة، ولذلك فالحكم على تصرفات الأشخاص وحيثيات الأحداث يُستخلص من الكتابات التي وردت عنهم وعن بيتهم وعصرهم، وبناءً على تلك الكتابات يقوم التحليل والنقد، وبالتالي الحكم الذي يجاري الوقائع والحقائق حسب الإمكان.

فالأُمويون وإن أخفقوا في أشياء فهم بالمقابل نجحوا في أخرى، وما من دولة استطاعت بلوغ الكمال المطلق مهما كانت ظروفها ومعطياتها، إذ إن المدينة الفاضلة هي من خيال من ينسجها. فكيف بالدولة الأموية التي ولدت منبوذة من قبل الكثيرين وحاولت جاهدة تثبيت أقدامها في خضم صراعات متعددة، وهنا يمكن تشبيه الدولة بالإنسان الذي يصيبه مرض، فإما أن يتعافى وإما أن يموت، وعلى قدر استجابته للدواء يكمن المصير، وإذا كانت الدولة الأموية قد زالت فذلك لأسباب شتى تشابكت فيها الأحداث، ولم يكن الزوال دليل ضعف، فمروان بن محمد آخر حكامها لم تنقصه الشجاعة والقوة لكن تعارض الأحداث والاستهانة بخفايا الظروف بالإضافة إلى مكائد الأسرة الحاكمة أدت إلى زوال هذه الدولة التي ربما استحققت أن تستمر أكثر.

وبناءً على ذلك يُستنتج هنا في كل مجال من مجالات الدولة ما حققته وما أخفقت فيه وما هي دوافع القوة وأين هي فجوات الانحلال:

ففي السياسة كان الأمويون من أهلها قبل الدعوة، وإن كانت الزعامة هي الرسم التوضيحي لشكل الحكم آنذاك، إلا أن ملامح القيادة كانت متجذرة في بني أمية واتضح ذلك بقدرة مؤسس الدولة الأموية- معاوية- على التغلغل في صميم الحكم وتغلغل الحكم فيه، إذ رأى أن من مصلحته البقاء في الشام لاعتبارات كثيرة منها الابتعاد المكاني عن الحجاز والعراق، ولخبرته بأهل الشام الذين شكّلوا له المعين الأكبر في حكمه، ومن دمشق استطاع تأسيس الدولة التي كادت الفتنة الأولى أن تودي بمفهوم الحكم بأكمله، وبالفعل أثبت معاوية أنه دبلوماسي من الطراز الرفيع، إذ أدرك من أين تؤكل الكتف، فساس دولته بحنكة، لكن هذه الصفات لم تنطبق على ولده يزيد الذي اختلف في طبيعته عن أبيه، وما رفض الكثيرون لتوليته الحكم من قبل أبيه إلا دليلاً على ذلك، وهذه السلطة التي اختارها معاوية لابنه من غير مشاورات، وحتى من شاورهم استخدم معهم أسلوب الترغيب أو التهيب، كادت أن تفك عقد الدولة الأموية الناشئة، ما بناه معاوية خلال عشرين عاماً من الخلافة إذاً كاد أن يهدمه في هذا التصرف، إذ يتضح إدراكه لفعلة هذه من وصيته لولده بقتل أو على الأقل بإجبار من لا يبايعه على ذلك، وبالفعل أمضى يزيد حكمه القصير بصراعات مع معارضيه، وزاد الأمور سوءاً موته، إذ قام بتولية ولده معاوية خليفة، ومعاوية هذا وإن وصف بالضعف، لكنه قال كلمة حق وهي أنه لا يرضى أن يكون في موضع لا حق له فيه، ودفع حياته ثمناً لذلك الموقف، الذي رأى فيه بنو أمية إغاء لهم. فازدادت الأمور بعد موته تعقيداً لأن منصب الخلافة بات شاغراً، وبعد قتل الحسين بن علي أصبح ابن الزبير قاب قوسين أو أدنى من الفوز بالمنصب لولا تمسكه بالبقاء في الحجاز، فالشام كانت مركز الثقل وهي التي حددت الخليفة الجديد ألا وهو مروان بن الحكم بعد صراعات ومساومات لكن موته السريع لم يحسم الأمور، لأن الحجاز والعراق كانتا خارج السيطرة، مما جعل مهمة ولده عبد الملك الذي ولاه بعده في غاية الصعوبة، لكن مروان

كان موفقاً في اختياره لخليفته، الذي اتصف بالجرأة وحسن التدبير، واستطاع التخلص من جميع المعارضين له، بما فيهم الخوارج في الشرق نتيجة لاختياره قادة جبارين كالمهلب بن أبي صفرة والحجاج الثقفي، واتضح النفس القيادي والسلطوي الطويل لدى عبد الملك من خلال ما واجهه من صراعات وتمكنه من التغلب عليها، بما فيها ثورة عبد الرحمن ابن الأشعث الذي كان والياً على سجستان ومأموراً من قبل الحجاج الذي لم يرضَ عن تكتيكة العسكري في معاركه، فأهانته، الأمر الذي أدى إلى ثورته التي كانت في ظاهرها نصرة للعراقيين من ظلم الحجاج، وفي باطنها رد اعتبار له. واستمرت الأوضاع السياسية هادئة نسبياً- باستثناء ثورة يزيد بن المهلب التي جاءت نتيجة تصفيات حسابات أيضاً- إلى أيام هشام بن عبد الملك الذي انشغل بقمع عدة تمردات في خراسان وفي مصر وفي المغرب التي تزعم الخوارج فيها للحركات المناوئة له.

فهيبة الدولة ووحدتها إذا بقيت مصانة بفضل قدرة كل من معاوية وعبد الملك وهشام على قمع المناهضين لهم ولو بالقوة لأنهم اضطروا إلى تطبيق المثل القائل الغاية تبرر الوسيلة، هذه الوسيلة التي كان باستطاعة الأمويين تجنبها وذلك باستيعاب المعارضة أو حتى على الأقل مهادنتها أو احتضانها. ولم يكن بمقدور هؤلاء الخلفاء إعادة توحيد دولتهم لولا الاعتماد على ولاية سايروا الركب الأموي في منهجهم، واتضح ذلك بكفاءة زياد بن أبيه في ضبط العراق والمنطقة الشرقية برمتها، وبالعودة إلى تاريخ زياد يمكن ملاحظة أن إخلاصه كان غامضاً لأنه كان من مناصري الإمام علي لكنه وبعد محاولات عدة من معاوية في إقناعه بالانضمام إليه اصطف مع معاوية، ويمكن تفسير ذلك بأنه وعد بالسلطة والمال والجاه والنسب الذي كان يفتقده، ففضل ذلك على الخوض في معركة قدّر أنها خاسرة ضد معاوية، وعلى الرغم من المكاسب التي حققها الأمويون بفضل سياسة الحجاج الثقفي، إلا أنها كانت على المدى البعيد ذات آثار سيئة عليها، وخاصة بما يخص القسوة في معاملة الموالي، وعلى عكس الحجاج كان خالد القسري سلساً في التعامل مسائراً للأمور مصلحاً للأحوال، أما ولاية المغرب الذين كانت لديهم فرصاً كبيرة للاستقلال، شأنهم في ذلك شأن الولاة في الأقاليم البعيدة، خاصة وأن ظروف فتح المغرب كانت استثنائية في صعوبتها، فقد عملوا على بسط نفوذ بني أمية فيه.

ولا يمكن أثناء الحديث عن العصر الأموي الفصل بين السياسة الداخلية للأمويين في الحفاظ على وحدتهم، وبين سياستهم الخارجية في العمل على مد نفوذهم في كل الاتجاهات سواء في المشرق أم المغرب من خلال دعم الفتوحات، فالظروف الداخلية المضطربة لم تمنعهم من السعي من أجل تأسيس امبراطورية عربية، ويمكن القول أن وجود قواد عظماء كمحمد الثقفي وقتيبة الباهلي وطارق بن زياد وموسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقي كان له الفضل الكبير في تحقيق هذا التوسع. ومهما كانت غاية الفتوح سياسية أو دينية أو اقتصادية فهي في النهاية خدمت العروبة في تربعها على مساحة جغرافية كبيرة، وزادت من قوة الدولة السياسية والاقتصادية ومكنتها في أن تكون نداً للقوة البيزنطية التي كانت مهيمنة على البحر المتوسط، وهنا لا بد من الثناء على جهود معاوية في شحذ همة العرب وتقويتهم في الحروب البحرية، والذي أدرك هو وخلفاؤه أن الدولة البيزنطية لم تتقهقر كالدولة الفارسية ولذلك لا بدّ للدولة العربية الإسلامية من تقوية المناطق المتاخمة لبيزنطة لإعاقة مهاجمتها لهم، بالإضافة إلى مد جسراً بحرياً من خلال فتح الجزر المتوسطية، ومحاولتهم فتح العاصمة القسطنطينية أكثر من مرة وإن كانوا قد أخفقوا فيها فيكفيهم شرف المحاولة، وبأنهم فكروا بأسلوب عسكري إستراتيجي وهو وضع بيزنطة بين فكي كماشة من الغرب والشرق. وأنهم أبطلوا القول الشائع بأن البحر المتوسط هو بحر الروم.

أما بالنسبة لشكل الحكم الأموي والذي خضع لسجلات كثيرة عن كونه ديني أم مدني فالموضوع بنظر الأمويين كان بأنهم خلفاء أو رؤساء، أي أن الخليفة يمثل رأس الهرم الوظيفي في الدولة ولا يمثل رجل دين، لأن الأمة بحاجة لسلطة زمنية تسيّر أحوال الرعية، لأنه بغير صفة دينية لا يمكن لحاكم دولة تالية للحكم

الراشدي أن يحكم، وهذا لا يعني تنصل الأمويين عن الدين، بل أنهم رأوا في الخلافة الوسيلة للحكم، أي أنهم احتفظوا بجوهر الدين مع الاختلاف بألية الحكم وطريقته، إلا إذا تم استثناء عمر بن عبد العزيز، الذي حاول إعادة إحياء تلبس الدين بالسياسة وهو ما خالف المبدأ الأموي العام في الحكم، ويمكن القول بأن الأمويين أسهموا إلى حدٍ معين في تأسيس مبدأ السلطان أو الحكم المتمثل في القوة والقدرة الذي يضمن تنفيذ القرارات وضبط المجتمع.

أما قضية العصبية- والتي يتم الحديث عنها من خلال استغلالها من قبل بعض الخلفاء و تجنبها من بعضهم الآخر- يمكن تفسيرها بأنها حالة مصلحة بالدرجة الأولى، وصراع على الامتيازات بين القيسية واليمينية، أي أن المتصارعين ألبسوا صراهم قناع العصبية لتغطية أهدافهم، وهنا يبرز دور الخلفاء في هذا الأمر، فمعاوية وعبد الملك أمسكا عصا هذا الصراع من المنتصف أما غيرهم من الخلفاء- باستثناء عمر بن عبد العزيز- انخرطوا في ذلك الصراع المبطن اعتقاداً منهم أنهم ذلك يقوي مركزهم، لأن الصراع هو في جوهره حول كسب رضا الحاكم من أجل المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبالتالي فالخليفة يشعر بأنه محور الصراع وغايته، وهذا يقود للقول بأن شخصية الخليفة هي التي تحدد موقفه من العصبية. أي عندما يشعر بالحاجة إليها كان يثيرها .

ومع أن الأمويين استطاعوا بسط نفوذهم في الداخل والخارج إلا أن الهفوات مست سياستهم العامة، حيث استمروا في مفهوم رئيس القبيلة لكن بشكل أكثر اتساعاً ونفوذاً مع إغفالهم لمتطلبات الرئاسة من تنظيم لأمر الحكم بالشكل والمضمون فعلى سبيل الذكر كان مقر الخليفة هو للحكم والإقامة، والحكم لديهم أساسه المزاج والرغبة لا القانون والحاجة، هذا الأسلوب هو الذي أعاقهم عن إحقاق العدل بين الناس سواء كانوا عرباً أم غير عرب فتميزهم كان على مستوى الأشخاص وعلى مستوى المناطق، إذ ميزوا أهل الشام عن غيرها من الأقاليم، بالإضافة إلى نظرهم المتعالية ومحاباتهم للأرسنقراطيين، وترتيبهم جاء حسب الولاء للدولة.

وهم إن ميزوا أهل الشام في المعاملة فهم أيضاً ميزوا أهل المغرب كذلك لكن بالاتجاه المعاكس لأنهم نظروا إلى المغرب على أنه أرض مكاسب ومصالح، وهذا ما يفسر نقمة المغاربة على الأمويين وانحيازهم لأعدائهم الخوارج، الذين رأوا العدل في مبادئهم التي تغلغت في المغرب، بعد ما لاقوه من ظلم عمال الإدارة الأموية واستهتار الخلفاء بهم، وربما كان سبب هذه المعاملة من قبل الأمويين الرغبة في الانتقام من المغاربة بسبب تعسر فتح المغرب، وطالت سياسة الانتقام هذه آل البيت أيضاً فمعاوية طلب من جميع ولاته شتم الإمام علي على المنابر - اعتقاداً منه بذلك يتم انتصاره عليه- وربما أراد غرس البغض في نفوس الناس تجاه الإمام علي وبالتالي آل بيته، واتضح غاية الأمويين من الطريقة التي قُتل فيها الحسين بن علي، ومعاملة آل البيت من قبل الخلفاء وولاتهم، باستثناء عمر بن عبد العزيز، وذلك لأنهم رأوا فيهم المنافس الذي يراودهم على الحكم وأسلوب الأمويين هذا هو الذي زاد النقمة بين الطرفين وكان الأجدى بهم استيعابهم أو على الأقل تجنب الإساءة لهم لما يمثلوه من مكانة عند الناس، كما كان باستطاعة الأمويين كسب المعارضة بطرق سياسية أو على الأقل بإشراكهم في القرارات، وبالتخفيف من وطأة ظلمهم ومن القتل جزافاً إما لرغبة كما فعل سليمان مع كبار الفاتحين، وإما الخوف من آراء فكرية قد تسبب لهم المتاعب، ولكنهم وبسبب التمسك بالاستمرارية رأوا أن الحكم الفردي هو الأقوى، إذ لا يحق للناس محاسبة الخليفة على أعماله لأنه وحسب المعتقد الأموي الخليفة هو ظل الله على الأرض.

وتجاهل الأمويون أو ربما لم يفتنوا إلى أهمية كسب الناس من خلال حسن المعاملة، بل على العكس كان الاستبداد وسيلتهم للبقاء في السلطة، وعدم إشراك أحد فيها حفاظاً عليها لذلك حاولوا تجسيد فكرة إطاعة أولي

الأمر من غير اعتراض، لأن أي اشتراك مع أحد في الحكم كان يعني لهم الديمقراطية التي لا تتسجم مع سياستهم في بقاء الحكم فيما بينهم، حتى على مستوى الولاة والعمال حاولوا قدر المستطاع حصرهم في دائرتهم الأسرية اللهم إلا في الأقاليم التي يخشونها كالعراق مثلاً.

ومثلت ولاية العهد الشكل الأكثر وضوحاً لابتعادهم عن الشورى، فالخليفة هو من يختار ولي عهده حتى ولو لم يستحق هذا الشخص ذلك المنصب، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك وهو عقد ولاية العهد لأكثر من شخص أو ابن وبالتالي فكل خليفة فضلّ ابنه على أخيه وشغل هذا الأمر دوراً هاماً في الصراعات العائلية في آخر عصر الدولة الأموية.

وحتى دمشق التي مثلت مهد الدولة الأموية لم تلقَ الوفاء المرجو من الأمويين ومهما كانت الأسباب سواء صحية أم أمنية وغير ذلك فقد أثر عدم البقاء في دمشق بشكل سلبي على آلية الحكم وشكلياته، فأمن الدولة من أمن العاصمة وتوضّح ذلك عندما نقل مروان بن محمد العاصمة رسمياً إلى حران في شمال بلاد الشام نتج عن هذا إهمال سكان جنوبي بلاد الشام للدفاع عن دمشق كونها لم تعد العاصمة، وإذا كان الأمويون قد جافوا دمشق غير مدركين لمخاطر ذلك، فإنهم أيضاً لم يحاولوا توزيع أو نشر العنصر العربي في أرجاء دولتهم الواسعة كي ينطبق عليها بالفعل دولة العروبة وكي يقوى فيها النفوذ العربي. وإذا كانت قد جرت محاولة من قبل زياد بن أبيه لنقل أسر من العراق إلى خراسان، فهو قصد منها التخلص منهم لأنهم من مثيري الشغب، وبما أنهم كذلك فهم أثروا فيما بعد في النزاعات التي حدثت في خراسان، بل إن ما فكر به عمر بن عبد العزيز ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ أراد إعادة العرب من الأندلس، بحجة الخوف عليهم، وكان بإمكانه دعم هؤلاء بعددٍ أكثر.

وبنظرة شاملة على السياسة العامة للدولة الأموية نرى أن المصلحة العامة قد تحققت من خلال الفتوحات العربية وبلورة حكم كان أساسه تسيير أمور الناس، وإن أخفق الحكام الأمويين في الآلية، فهم حكام دولة حديثة التأسيس، أحبوا الاستمرار والبقاء، وكلمة حق تقال إن نظرتهم في الاستمرارية صبّت في خدمة استمرار العروبة وثبتت ركائزها وحضارتها.

أما في المجال الإداري فقد اتضحت ملامح تلك الحضارة من خلال وضع أسس إدارية تتناسب مع متطلبات الدولة التي قامت في الشام ذات الإرث الإداري العريق، ولا ضرر في ذلك لأن الحضارات تقوم على التأثير والتأثر، ولذلك استحدث الأمويون الدواوين من أجل التخصيص، أي لكل ديوان عملاً خاصاً به، والاختصاص: هو من علامات المقدرة الإدارية. ولقد نبهت الأحداث التي سبقت وصول الأمويين وخاصة مصير الخليفين عمر بن الخطاب والإمام علي، إلى أهمية الحرص على سلامة الحكام من الغدر بهم، وإذا كان أعداء عمر والإمام علي معدودين فأعداء الأمويين لاحصر لهم، وهذا ما دفعهم إلى إقامة أركان إدارية جديدة تحميهم وتنظم الأمور، ونظراً لخصوصية الشام السياسية والعسكرية فقد قُسمت إلى أجناد حسب الظروف، ودل هذا على حسن إدارتها، إذ كان لكل جند مجالاً له على الساحل الشامي، ولقد مثلت هذه الأجناد الخزان العسكري للدولة الأموية، ومن أجل ضمان ولاء هذه الأجناد فقد تمت توليتها لأقاربهم المقربين كالأخ أو الابن.

ولقد قام الأمويون بجهود من أجل ترسيخ العروبة ونشرها في دولتهم المترامية الأطراف، فصبغوا جميع مفاهيم دولتهم باللون العربي، وكان عبد الملك السباق إلى ذلك فقوى الدولة العربية الإسلامية سياسياً واقتصادياً وحضارياً، ومن أجل العروبة التي كانت تسري في دمائهم فقد فُسرت تصرفاتهم على أنها تعصب للعروبة ولقد اتضحت النظرة المدنية التي تميز بها الأمويون من فصل الدولة عن الدين، واتضحت هذه النظرة بفصل القضاء عن الدولة لما يمثله القضاء من معيار صلاح الدولة أو فساده، لأنهم رأوا ضرورة تطبيق الشريعة في القضاء.

كما أيقن الأمويون أن قوة دولتهم من قوة جيشهم وتماسكه، لأنه الحامي والضابط للأمور داخلياً وخارجياً، ومن هنا انطلقوا في تقويته، وما كانت الفتوحات العربية لتكون لولا ذلك الاهتمام الذي أولاه الأمويون لجيشهم البري والبحري وقادته، وهنا لابد من ذكر الخبرة العسكرية التي تميّز بها مروان بن محمد وربما كانت هذه الخبرة- لولا الظروف التي رافقته - لغيرت معادلة الدولة الأموية.

كما كان في جدار الإدارة بعض الثغرات التي جعلته يبدو بصورة غير متينة وصلبة، فالثقة الزائدة في ولايتهم خلفت تجاوزات كثيرة من قبل الولاة، سواء أكان ذلك بحق الناس أم بحق العمال بعضهم لبعض وظهرت نماذج عدة لذلك، وتغاضى الأمويون عن ذلك عندما كانت الأمور تجاري سلطتهم، ولذلك حاولوا تقوية هذه السلطة بمختلف السبل كالرشاوى والهدايا وغير ذلك ابتغاء جمع المال من أجل تسخيره للحفاظ على بقائهم معتبرين خزينة الدولة هي ملك مبارك لهم من الله، وإذا كان كبير القوم على هذه الشاكلة فلا عجب مما قام به بقية العمال من الفساد غير أبهين للرادع الأخلاقي ولآداب المهنة ولا بأوضاع الناس والتي كثيراً ما جاروا عليها، من زيادة في الضرائب ، متجاوزين بذلك القواعد الأساسية التي وضعت من قبل، الأمر الذي أضرّ بالناس وبسمعة الدولة، لكن عمر بن عبد العزيز حاول تصحيح أخطاء سلفه، لكن حكمه القصير والعودة فور وفاته إلى السياسة المتبعة أضاع جهوده، ويلاحظ المنتبع للأمويين الثروات الهائلة التي ملكوها فيدرك مدى الإساءة في استخدام السلطة لديهم.

فإدارة الأمويين إذاً وإن نجحت في الشكل فإنها أخفقت في المضمون، فهم لم يوفقوا في استخدام آليات الحكم بالوجه الأمثل أو على الأقل كما ينبغي لدولة مسؤولة عن سلوكياتها.

وبالنسبة للجانب الاجتماعي فقد آمن الأمويين بفكرة الدولة وكيانها ومكوناتها البشرية، التي مثلت جزءاً لا يتجزأ من هذا الكيان، ومن هذا الإيمان انطلقوا في معاملتهم لأهل الذمة- في التعبير التاريخي- وغير المسلمين في المفهوم العام- فهم لم يُضطهدوا، إنما كانت تسري عليهم القوانين التي تسري على غيرهم، وبالتالي كان عليهم واجبات، ولم يختلفوا عن المسلمين إلا بما تستوجبه التعاليم الدينية، بل يمكن القول بأنهم لاقوا من المعاملة ما يشابه تقريباً ما يعامل به الأقليات في الفترات اللاحقة، لا بل أن يقوم خليفة مثل يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان بتكليف مسيحيين بتعليم ذويهم يدل على مدى اتساع مفهوم الدولة في نظر الأمويين، فالمواطن عند الأمويين له احترامه وتقديره سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، ورجلاً كان أم امرأة، وتم تتبع بعض النماذج حول معاملة الأمويين للمرأة ومدى احترامها وتقديرها، ومشاركتها بأسلوب مباشر أو غير مباشر في توجهات الخلفاء، كما أنها سُمح لها الانخراط في تكوين الجيش حسب قدرتها، ووصلت إلى درجة عالية في المضمار الثقافي والفكري.

وانطلاقاً من منظور الأمويين لحق المواطن رأوا بأن الناس في دولتهم لهم الحق في الحرية الاجتماعية والتعبير عن الرغبات الروحية والتي تجسدت في الفن، الذي له أبعاد ومقاييس فضفاضة، وتركز الحديث عن الغناء وما رافقه من موسيقى ورقص، والتي ملأت كتب الأدب في الحديث عن العصر الأموي، وأظهرت مدى شيوعه في هذا العصر الذي أحب الجمال فكان الفن لباسه، وإن كان فيما قيل عن الأمويين ودورهم في إشغال أهل الحجاز عن الحكم بإترافهم وبالتالي انتشار الغناء فيه شيء من الصحة ، فإنه لمن سمات الرقي الجمع بين العلم والفن في وقتٍ ومكانٍ واحد، كما دلت كلمات معاوية التي قالها بعد سماعه لأحد المغنين وتحريك قدمه: "إن الكريم طروب"^(١) على ذلك الرقي الذي لا يتعارض مع الإسلام طالما أنه لا يחדش الحياء العام.

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٦٨.

وكان للأمويين بصمتهم في قطاع الصحة ، ولعل أبرز ما قاموا به هو ترسيخ قاعدة جدية لبناء بيمارستانات وما ذكر عنها، مع أنه لم يرق إلى المستوى المطلوب أو المأمول منهم، بالتناسب مع إمكانيات الدولة، إلا أن المعلومات المتناثرة قد أعطت صورة لا بأس بها عن انتشار ثقافة صحية لدى الأمويين. وظهر الشرخ الاجتماعي في هذا العصر في ظاهرتين الأولى في النظرة الدونية للمسلمين من غير العرب أي للموالي، والثانية في تفشي المجون واللهو، وإن كانت الظاهرة الأولى واضحة فهي ربما أتت من غير قصد؛ أي أن الأمويين أرادوا تكريس ظاهرة العروبة بكل أبعادها فصب ذلك في غير مصلحة الموالي، لأن العروبة مثلت عند الأمويين قمة الفخر وعنوان البقاء، فعملوا على الحفاظ على نقاء الدم العربي، ففسر ذلك بالحق على الموالي كونهم غير عرب، وربما لم يثق الأمويون ثقة تامة بولاء الموالي، ورافقهم هذا الهاجس طول أيام حكمهم، وبالفعل جاءت الضربة القاسمة بمشاركة الموالي في الثورة العباسية، ولقد كان لدى الأمويين أحد أمرين إما تمسكهم المتين بالعروبة وعدم إفساح المجال للموالي، وإما منح الموالي الامتيازات فيؤثر ذلك على حكمهم، ولقد أثبتت التجربة العباسية بعدهم إخفاق هذا الأمر، وصواب الأمر الذي اختاره الأمويون. أما الظاهرة الثانية التي تخص انتشار اللهو والمجون : فهي إن كانت مسوغة -وهي غير مسوغة- عند الصبية أو بعض العامة فهي أمر غير مقبول لولي عهد أو خليفة، إذ كيف يمكن الجمع بين الخلاعة والسيادة؟ فالتناقض واضح بينهما، ومن هنا يظهر صحة رأي من نادى بتأهيل ولي العهد، أو عدم تسليم الخلافة إلا لمن هو أهل لها، لكن الحق الإلهي الذي أعطاه الأمويون لأنفسهم بمنع الناس من المحاسبة حال دون ذلك، فجاءت المحاسبة من الأسرة الحاكمة نفسها وتداعت الحسابات إلى صراعات أودت بحياة دولتهم.

لقد أرخى مفهوم المدنية إذاً عند الأمويين بظلاله على الحياة الاجتماعية بشكل عام.

كما تمت ملاحظة التوجه الاقتصادي للدولة والذي كان نحو الزراعة بالدرجة الأولى، لأنهم أدركوا أنه من خلالها يكمن الاهتمام بالصناعة والتجارة. فالمساحة الواسعة للأراضي ساهمت في هذا التوجه، فحاولوا استغلالها في تنمية الزراعة من خلال الاهتمام بالبنية التحتية لها من حفر أنهار وإقامة سدود وغير ذلك مما تطلبه الاستصلاح الزراعي، وخاصة في العراق بسبب طبيعتها الجغرافية ، وإن كانت معظم مشاريع الأمويين لتنمية مواردهم الشخصية وبشكل خاص هشام بن عبد الملك من الخلفاء وخالد القسري من الولاة، فهي في نهاية المطاف صبت في خدمة الزراعة التي بدورها أمنت منتجات زراعية حققت نوعاً من الاكتفاء الذاتي للدولة، إذ ازدادت المحاصيل الزراعية كماً ونوعاً بعد الفتوح العربية وانتقال أصناف جديدة إلى كل إقليم، أما الضرائب الزراعية - وإن كانت مضطربة في ذكرها فيما سبق فهي لم تشمل الزراعة فقط ، بل كانت تشمل ضرائب متنوعة وأحياناً مستحدثة- وبشكل عام اعتمد الأمويون في جبايتها على أسلوب زراعة الأرض وجودة التربة، بالإضافة إلى طريقة فتحها وأسلوب ربيها وغير ذلك من معطيات تخص الزراعة، وهذا الاهتمام الكبير في الزراعة لم يؤثر على العناية بالصناعة والتي كانت مكملة لها في السياسة الاقتصادية، فظهر انتعاشاً للصناعة في أغلب المناطق، وإن تباين هذا الانتعاش بين منطقة وأخرى حسب ما تتوفر فيها من مواد أولية، ويدل التنوع الصناعي- على الرغم من بساطة الأدوات والإمكانات المادية و المالية، فهذا ما كان متاحاً في ذلك العصر- على ازدياد القوة الشرائية، التي تدل على الانتعاش المالي وعلى ازدياد الطلب على المصنوعات، التي ترك الأمويون للصناعيين حرية مزاولتها ولم يتدخلوا فيها إلا تلك التي تحتاج لمراقبة حكومية، كصناعة السفن وصناعة العملة، وصناعة الطراز.

ولقد لاقت التجارة الداخلية والخارجية، رواجاً بحكم الحاجة و توزع الأقاليم، ومما كان ملاحظاً ولا يخفى على أحد توفر الخبرة والإرث التجاري عند الأمويين، والعناية بالأسواق التي انتشرت في مختلف المناطق، والتي تجلت في تحديثها وبناء الحوانيت، مما أدى إلى زيادة فرص العمل، ونتيجة لهذا الواقع الاقتصادي رأت

الدولة الأموية وضع معايير تنظّم عمل التجار لحماية الناس من الغش والاحتيال، وربما كانت بداية عمل المحتسب (مراقب الأسواق) في هذا العصر. وازداد النشاط التجاري بفضل ما قام به الأمويون من توفير للطرق البرية والبحرية لمزاولة هذه المهنة، إذ عملوا على بناء الاستراحات وحفر الآبار وبناء المنارات على الشواطئ لهداية السفن وغير ذلك، ومما يلاحظ على التجارة الخارجية البحرية نشاطها باتجاه الشرق أكثر من الغرب والشمال، نتيجة الحروب المستمرة مع بيزنطة، مع استمرار التجارة في البحر المتوسط.

وطرّق الضعف باب الاقتصاد أيضاً فتجلى ذلك في حب التملك الذي اشتهر به الأمويون، وخاصة للأراضي الزراعية مستعملين الأساليب كافة من أجل ذلك، الأمر الذي أدى إلى زيادة الملكية العقارية للخلفاء وولاتهم وذويهم. ووظف البعض منهم أموالهم في الأعمال التجارية، وإن لم تكن أغلبها بأسمائهم.

والصفة العامة للاقتصاد العربي في العصر الأموي كانت الانتعاش، على الرغم من استغلال ذلك من الحكام.

وبالانتقال إلى الجانب العلمي يمكن القول أن العصر الأموي كان الركيزة الأساسية، أو بمعنى آخر، وضعت فيه الأسس الأولى للعلوم بمختلف اختصاصاتها، وليس كما أشيع عن العصر الأموي بأنه عصر جاف خالٍ من الثقافة والفكر، فإذا كان العصر العباسي عصر نضوج فكري فذلك لأن البذور الأولى عُرسّت في العصر الأموي، ففيه كانت انطلاقة الفكر الفلسفي العربي الإسلامي الذي تمثل في علم الكلام الذي مثل فن المجادلة واستنباط الأقوال وإيراد الأفكار، والذي جاء نتاجاً لواقع سياسي وفكري وثقافي وديني انصهرت كلها لتكوّن فكراً فلسفياً تباينت فيه الآراء واختلفت، فأنتجت تياراتٍ عديدة انصبت في مجملها حول الخالق والمخلوق وتفسير تصرفات الإنسان وحرية، ومن تلك التيارات كانت القدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة وهذه الأخيرة هي التي جمعت بين جميع الآراء ونتج عنها، فيما بعد، حركة فكرية تطور معها الفكر الكلامي باتجاه مزيد من الوعي والعمل والتعقل. ومن هنا يتضح مدى اتساع الأفق الفكري في هذا العصر الذي انطلقت فيه التيارات الفكرية. ومع هذا التوفر في المادة الفكرية لا بد إذاً من وجود المدونات، وإن كانت بسيطة، فهي تتناسب مع مواد ذلك العصر، ويمكن ملاحظة التنوع في التدوين بين جميع الاختصاصات، حسبما ذكرته المصادر ونتج عن ذلك دحضٌ للمفهوم الذي أنكر التدوين في العصر الأموي، هذا العصر الذي لم تنحصر فيه الثقافة والعلوم في مجال واحد بل تعددت فيه العلوم، بين لغوية أنشأت قواعد لحفظها من الأخطاء، وأدبية اهتمت بالشعر والكتابة والخطابة، إلى دينية تشرح وتفسر وتوضح ما كان غامضاً أو فيه لبس، وكل ذلك قدم خدمة للعروبة حيث عمل على تجديدها وتعميقها وحفظها، إلى علوم اعتمدت على التجربة كبرهان لها وتم ذكر الطب في هذا العصر واستخداماته والكيمياء وروادها والفلك وميزاته، وهذه العلوم وإن لم تكن مستحدثة، فهي لاقت بعض الاهتمام أيضاً، وتجلت الهفوات العلمية من خلال مواقف بعض الأمويين الذين وظفوا العلوم لخدمة سياستهم، فقد رأوا أن الأدب، وخاصة الشعر نظراً لسرعة انتشاره بين العرب، يدعم سياستهم ويبيض صفحاتهم، كما رأوا في وظيفة القاص نشراً لأمجادهم، وحاولوا قدر استطاعتهم التعنيم على ما يسيء إلى تلك الأمجاد وبشكلٍ خاص تاريخهم الديني، وحتى الطب استغلوه لخدمة سياستهم وبشكلٍ خاص معاوية، بل إنهم وعلى الرغم من كثرة الأموال التي تصرفوا بها لم يقوموا بمحاولات جادة ترعاها الدولة من أجل تخديم العلوم، وتوظيفها للصالح العام، اللهم إلا في بعض المحاولات البسيطة من عمر بن عبد العزيز والتي رأى فيها خدمةً للدين، بل حاولوا تجسيد فكرة الإجماع والتي من خلالها أرادوا تكريس مشيئة الله في حكمهم، فقمعوا كل فكرٍ يناهز بحرية الإرادة، كونه يتنافى مع مشيئتهم، بحجة أن ذلك يصب في وعاء الكفر، وظهرت نماذج مختلفة عن تصفية كل من نادى بذلك وعلى رأسهم غيلان الذي قال آراءه في قلب الشام بيئتهم الحاضنة لهم ومع ذلك فلم يكن كل الخلفاء ضد فكر القدر، الذي شغل حيزاً كبيراً من التفكير فتأثر بعضهم بآراء القدريين وربما لم تطل أعمار من تأثر بهم

كعواوية بن يزيد وعمر بن عبد العزيز الذي رأى فيه أفكار غيلان دعاءً للإصلاح، ويزيد بن الوليد الذي قُتل ربما لتأثره بأراء القدرين.

وعلى ذلك فالعلوم في هذا العصر لاقت انتشاراً في الجانب الديني بين الناس بحكم الدين، وانتعاشاً للعلوم الأدبية رغبةً من الحكام وقبولاً وتشجيعاً من المحكومين، وظهر فجراً للفلسفة والتأويل نظراً للاختلاط واختلاف المفاهيم، على المستوى السياسي والديني والاجتماعي والثقافي.

وإذا كانت الأحداث والمعطيات قد تشابكت وتداخلت في المجالات السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، فإنه في المجال العمراني كانت الأمور أكثر وضوحاً، لأن أطلال البناء التي ذُكرت في مجال العمران تشهد على الباني الذي استطاع من خلالها تكريس مفهوم البقاء والاستمرارية، هذه الغاية التي شكلت محور الدولة الأموية والتي في فلحها دارت وسائل الأمويين. فالعمران كان بالنسبة لهم إثبات وجود وتحديد هوية، وبه أرادوا مناقشة الخلود، فتعددت نماذج أبنيتهم بالتناسب مع تعدد الغايات، بين المشهد الديني والرؤية المدنية. فالاحتكاك بين الحضارات ليس نقصاً أو عيباً للتالي، وليس زهواً وفخراً للسابق، وإذا أمكن هنا تطبيق المبدأ الفيزيائي القائل بأن الاحتكاك يولد الطاقة، يمكن فهم نظرية التفاعل بين الحضارات حيث تعطي نمواً لكلا الأطراف المتفاعلة، ومن هنا استفاد الأمويون من أفكار البناء التي كانت لكنهم استطاعوا خلق نماذج جديدة حملت بصمتهم، وأكدت قدرتهم على الخلق والإبداع، سواء كان ذلك في نماذج المدن التي بنوها في أماكن تطلب واقع دولتهم ببناءها، أم في دور العبادة التي تفاخروا فيها وطرزها، أم من خلال قصورهم التي تشبعت بالرفاهية والترف الذي عكس الروح المتجددة لدى الأمويين، والبعد الحضاري الذي نما عندهم، كما أنهم لم يغفلوا عن تلبية متطلبات الدولة والمدنية من خلال بناء دور الإمارة أو الحمامات والحصون وغيرها، ومما يلفت النظر في بقايا آثار قصورهم الأسلوب المتطور في طرازها وبشكل خاص الحمامات التي أظهرت عناية فائقة في مدها بمتطلبات الحضارة.

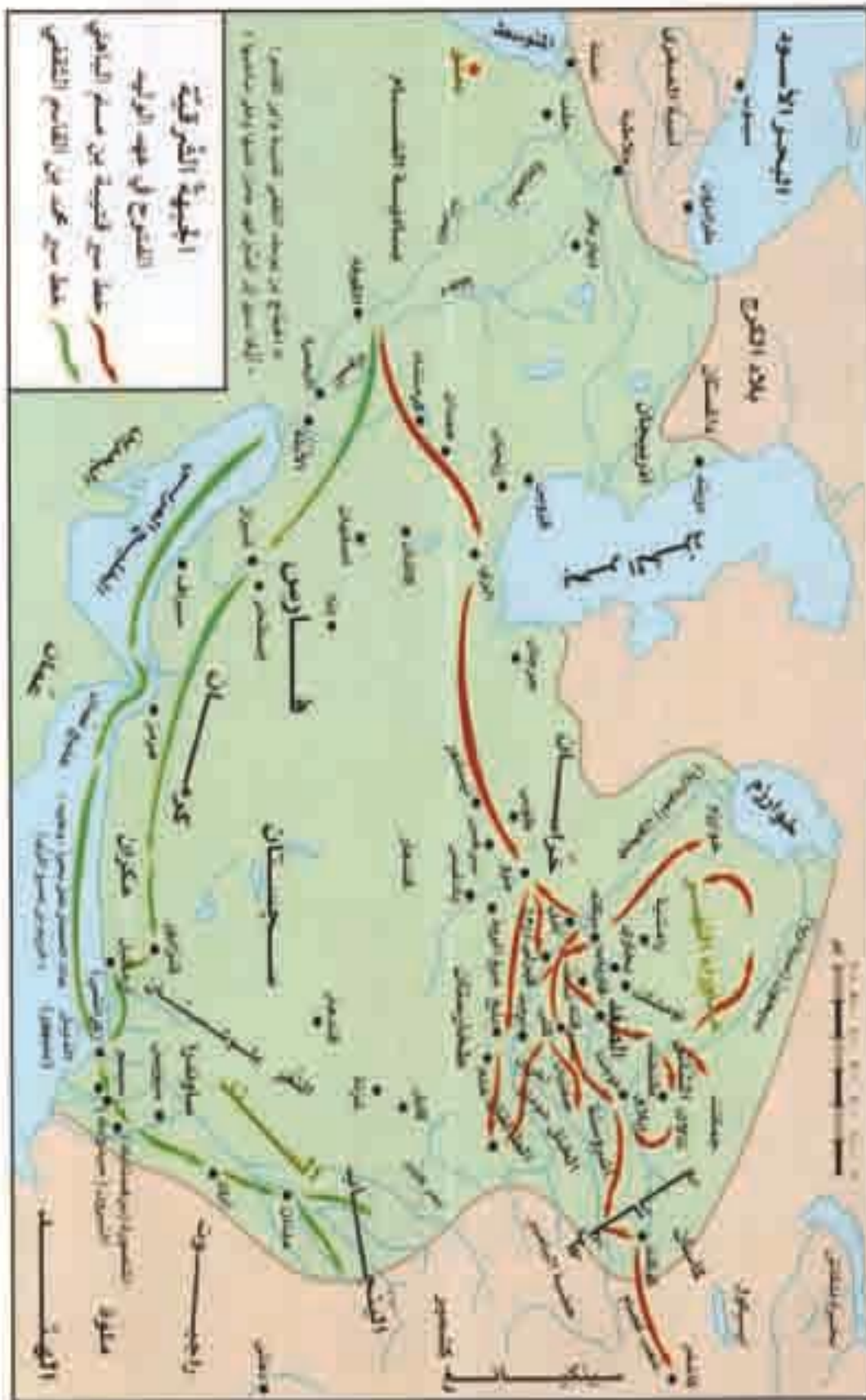
كما ظهرت العناية بشبكات الماء وبفنها في مجال العمران.

وعلى الرغم من الوجود العمراني الوافر في بلاد الشام إلا أن الأمويين دعموا هذا الوجود من خلال أبنيتهم التي تركزت فيها، وإذا حق لهم ذلك، نظراً لما مثلته الشام بالنسبة لهم كمنطلق ومصير، فإنه كان من واجهم تجذير ذلك الوجود في المناطق كلها في الشرق والغرب، طالما أن الإمكانيات متاحة، لكن الإغفال عن ذلك - مثلما كان الإغفال عن توطين العرب- أثر في الهيئة العامة للدولة.

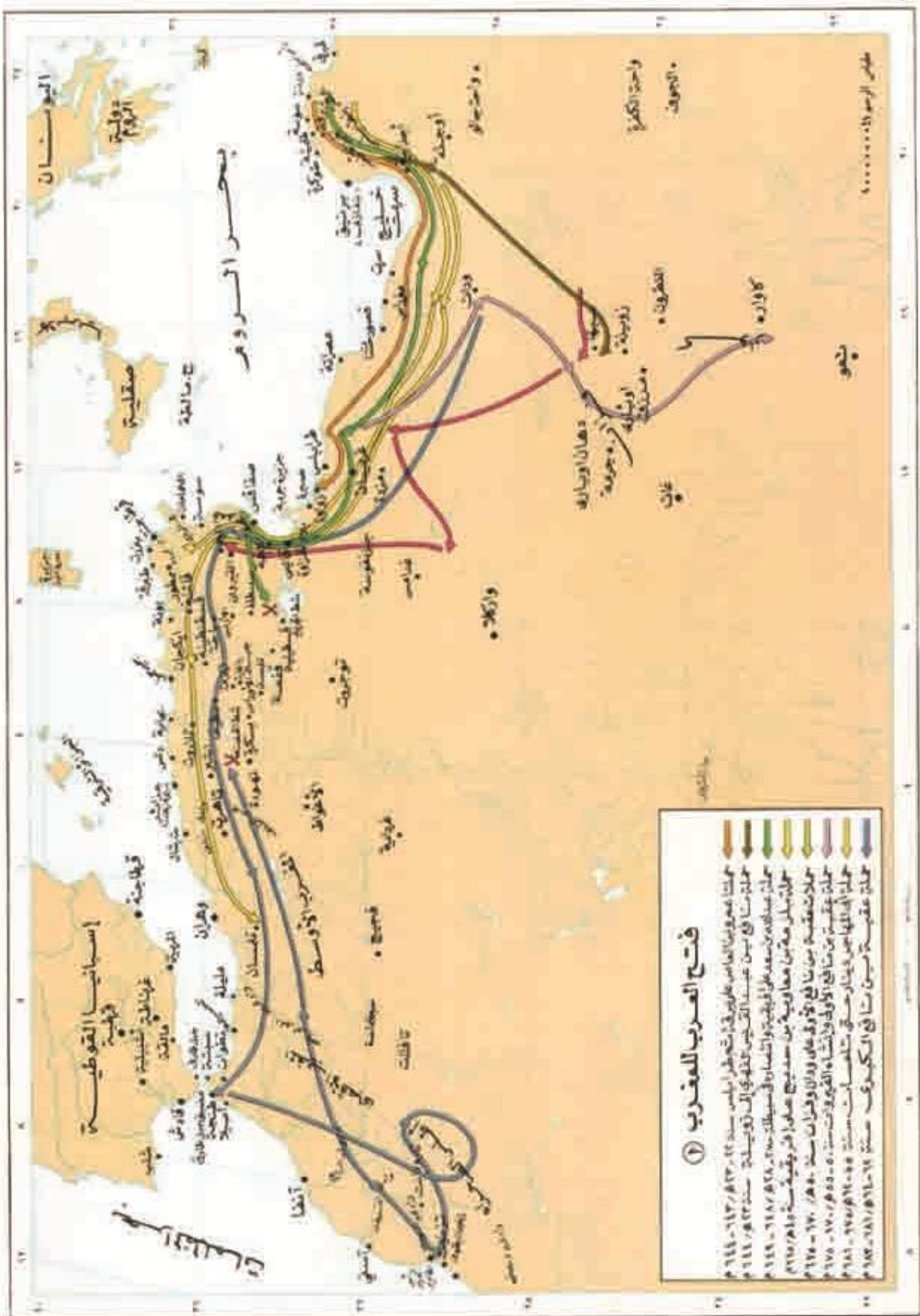
الملاحق

الخلفاء الأمويون وسنوات حكمهم

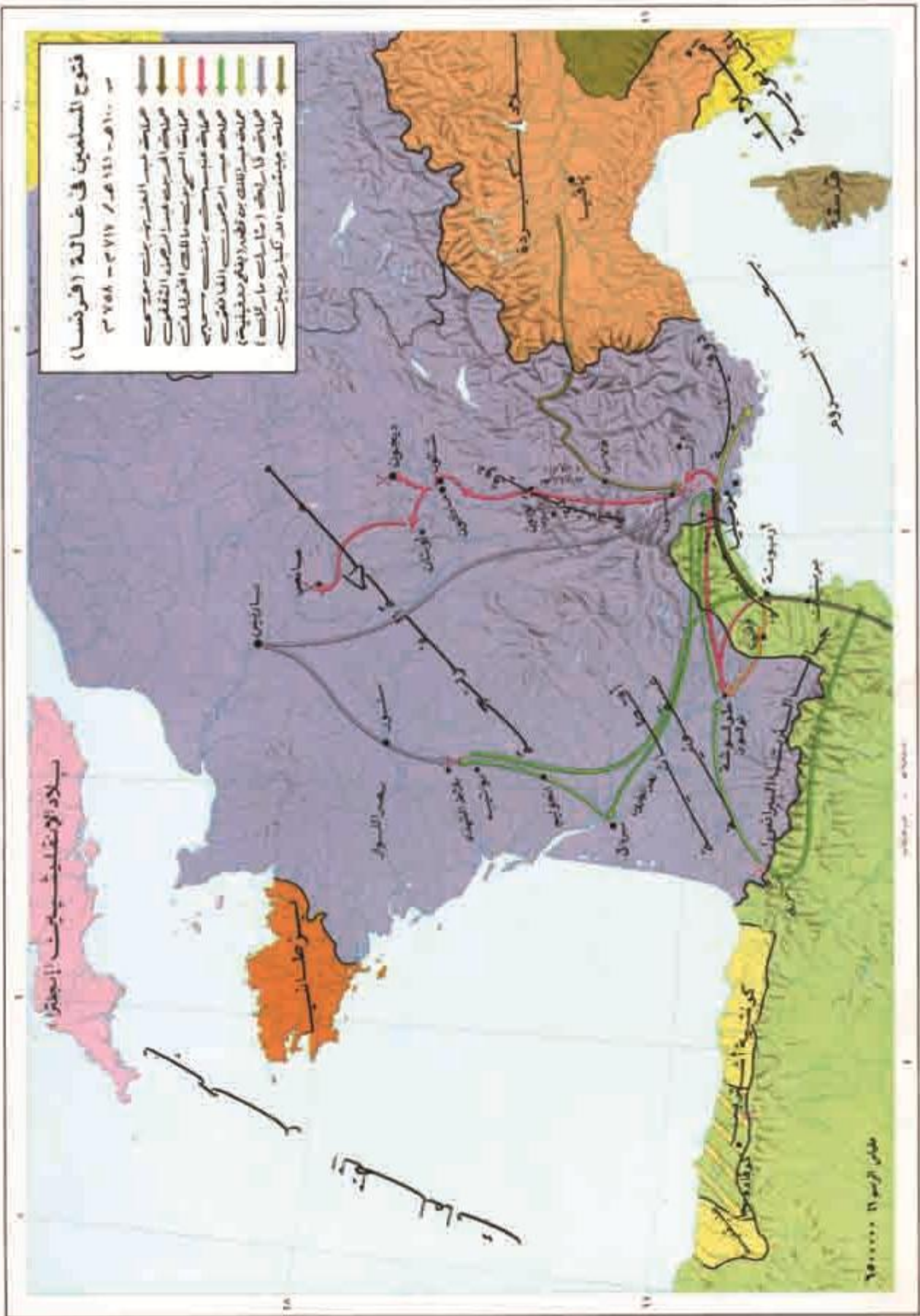
٦٧٩-٦٦١/ ٤١-٦٠ هـ	معاوية بن أبي سفيان
٦٨٣-٦٧٩/ ٦٤-٦٠ هـ	يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
٦٨٣/ ٦٤ هـ	معاوية بن يزيد بن معاوية
٦٨٤-٦٨٣/ ٦٥-٦٤ هـ	مروان بن الحكم بن العاص
٧٠٥-٦٨٤/ ٨٦-٦٥ هـ	عبد الملك بن مروان
٧١٤-٧٠٥/ ٩٦-٨٦ هـ	الوليد بن عبد الملك
٧١٧-٧١٤/ ٩٩-٩٦ هـ	سليمان بن عبد الملك
٧١٩-٧١٧/ ١٠١-٩٩ هـ	عمر بن عبد العزيز
٧٢٣-٧١٩/ ١٠٥-١٠١ هـ	يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني)
٧٤٤-٧٢٣/ ١٢٥-١٠٥ هـ	هشام بن عبد الملك
٧٤٣-٧٤٢/ ١٢٦-١٢٥ هـ	الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني)
٧٤٤-٧٤٣/ ١٢٧-١٢٦ هـ (سنة أشهر)	يزيد بن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث)
٧٤٤/ ١٢٧ هـ (سبعون يوماً)	ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك
٧٥٠-٧٤٤/ ١٣٢-١٢٧ هـ	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم



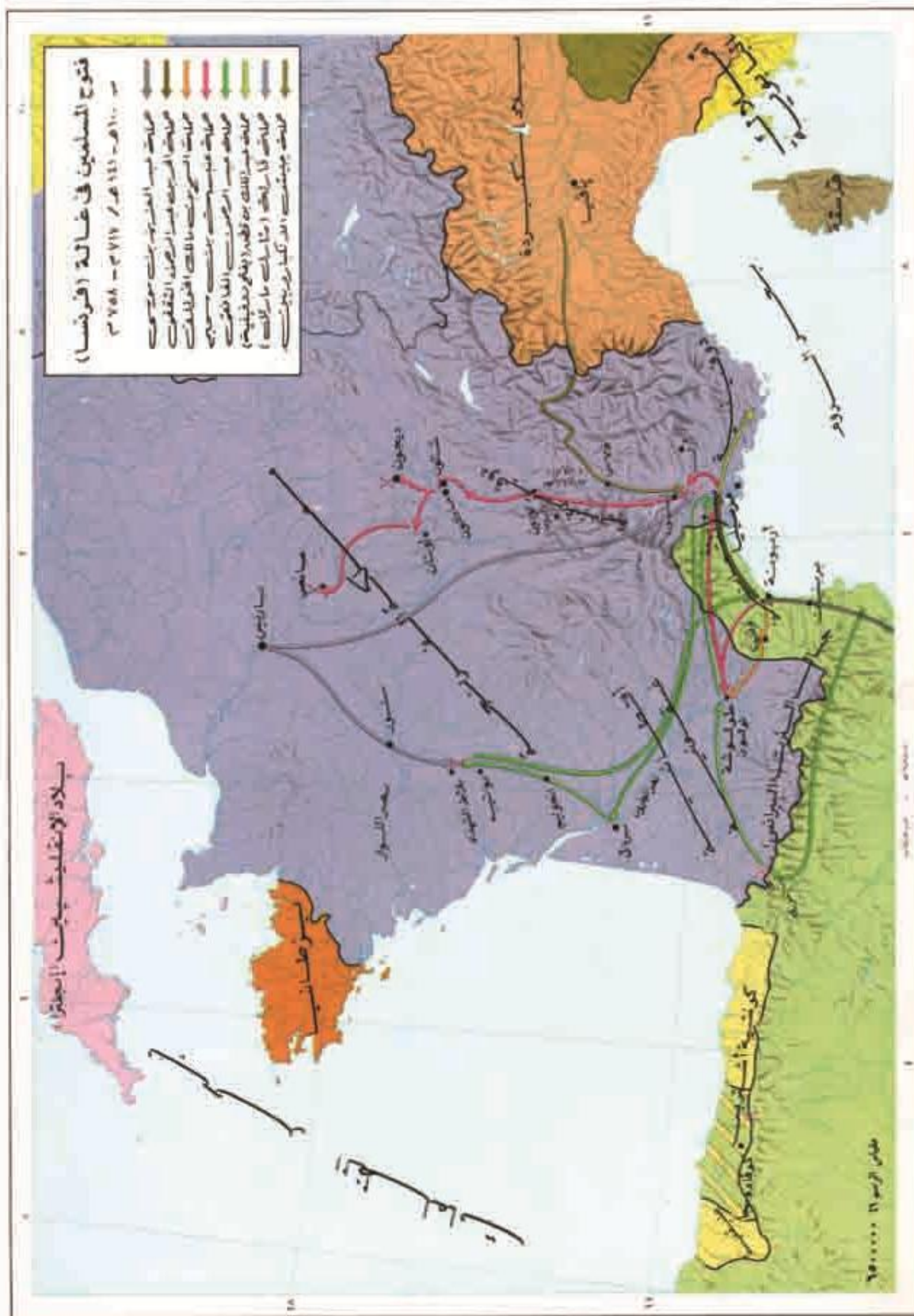
نقلًا عن شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص ٤٧



نقلًا عن حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٢٠



نقلاً عن حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٢٤



نقلًا عن حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص 124



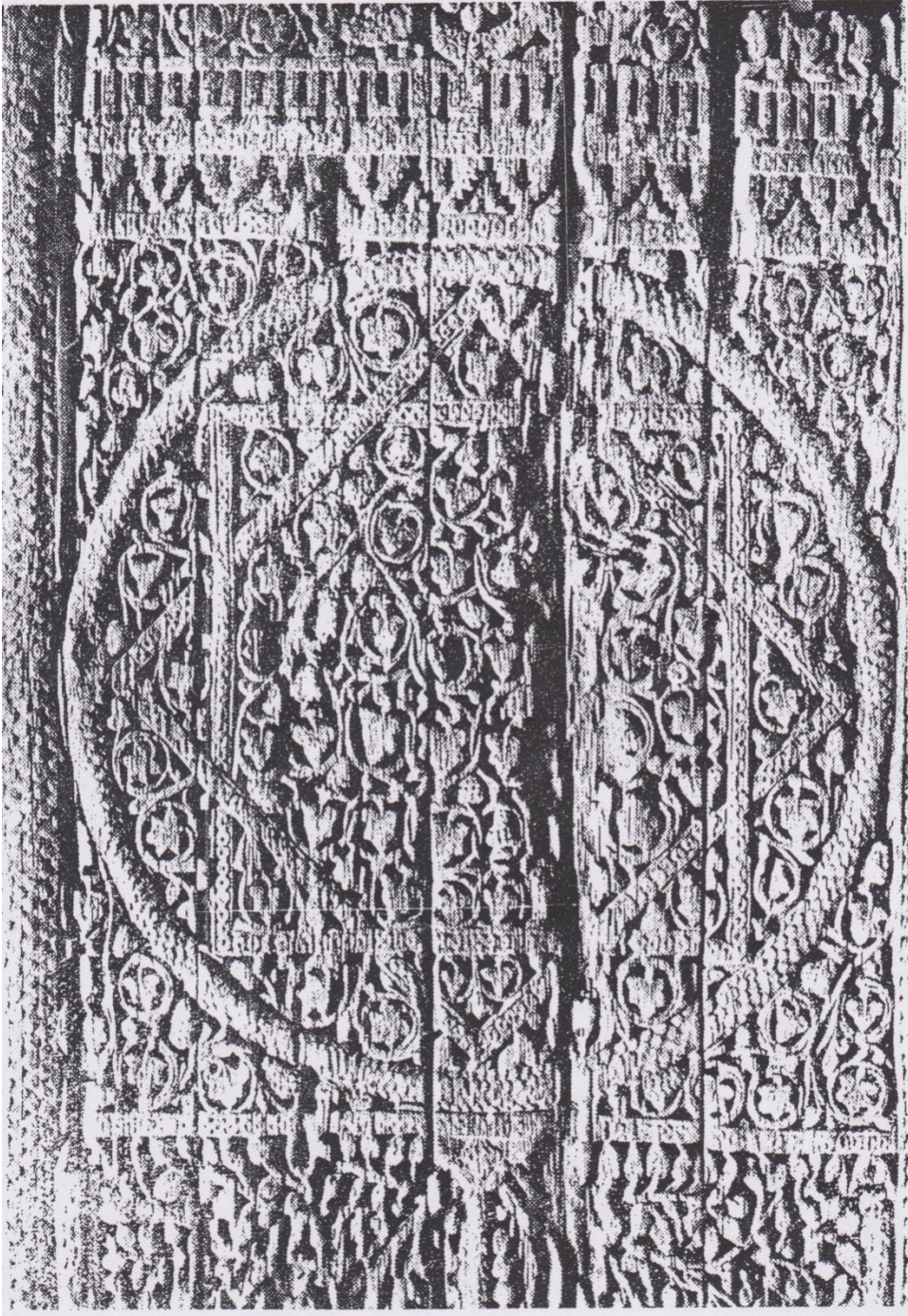
نقلاً عن حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، (ص 142)



إبريق من البونر ينسب إلى الخليفة الأموي مروان الثاني من القرن الأول الهجري / السابع الميلادي

محفوظ في دار الآثار العربية في القاهرة

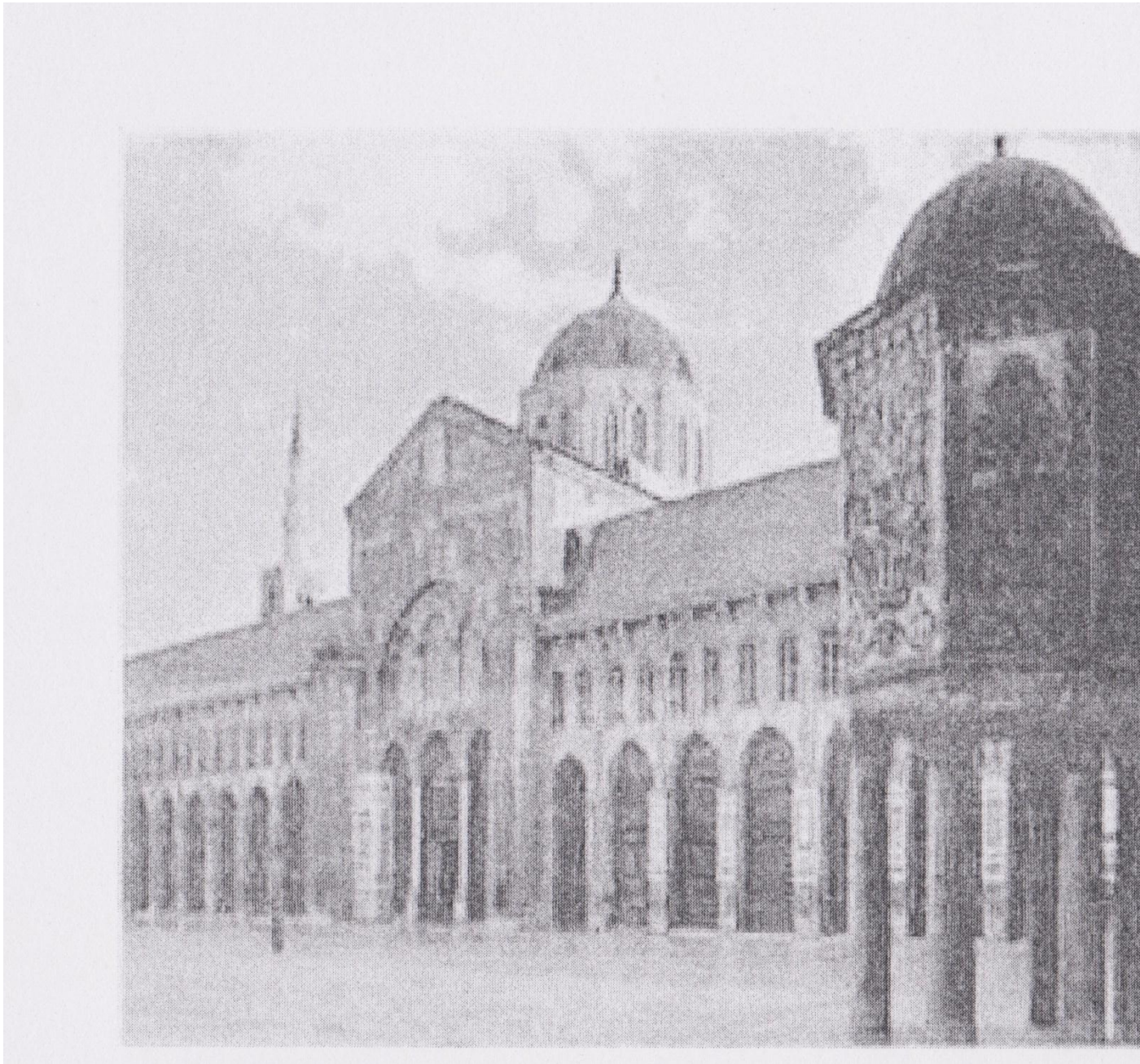
نقلًا عن زكي محمد حسن ، فنون الإسلام (ص ٢)



رسم تفصيلي في باب خشبي من نهاية العصر الأموي أو بداية العصر العباسي

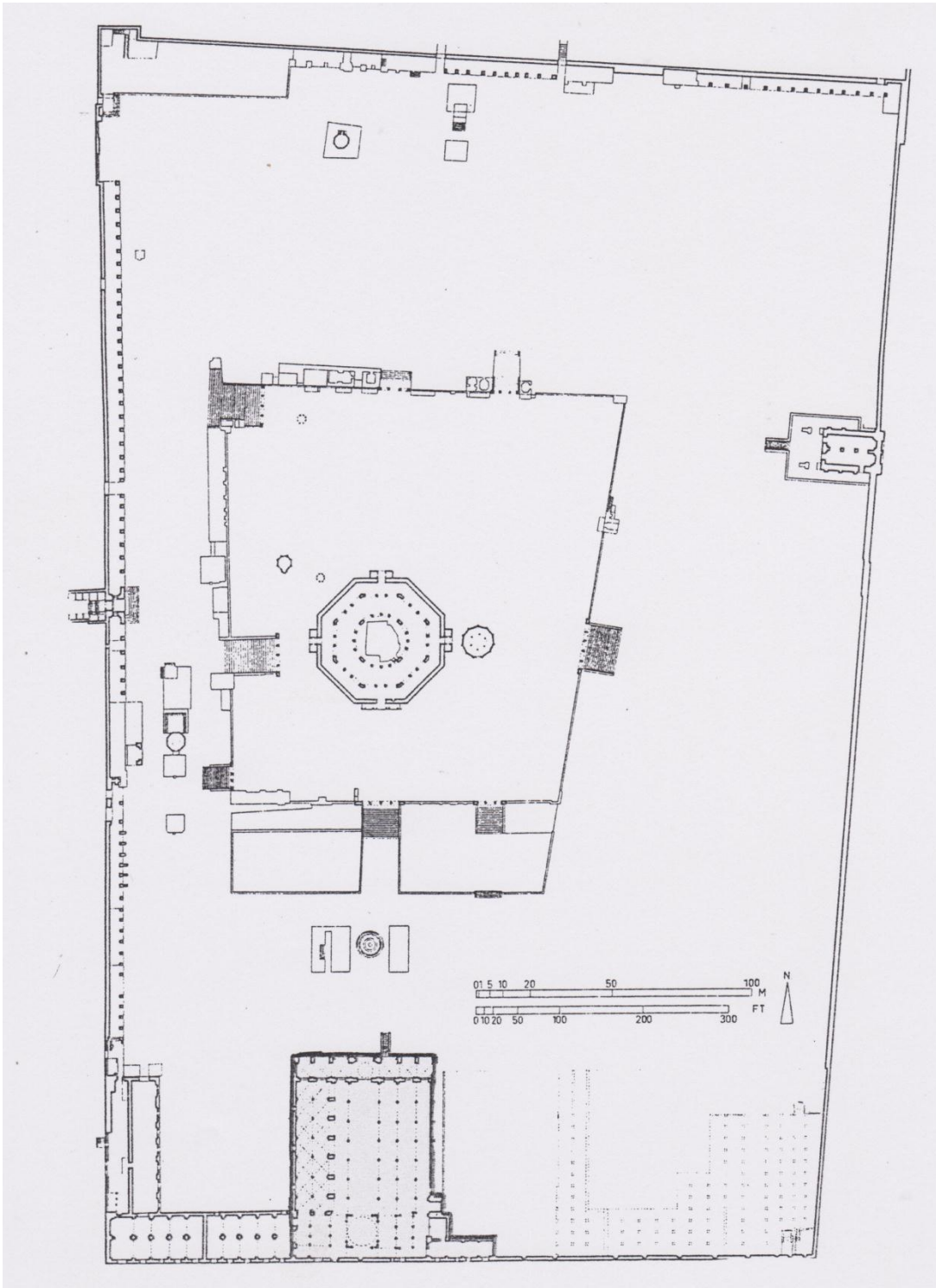
و محفوظ في متحف بناكي في أثينا

نقلًا عن زكي محمد حسن (ص ٤٤٤)



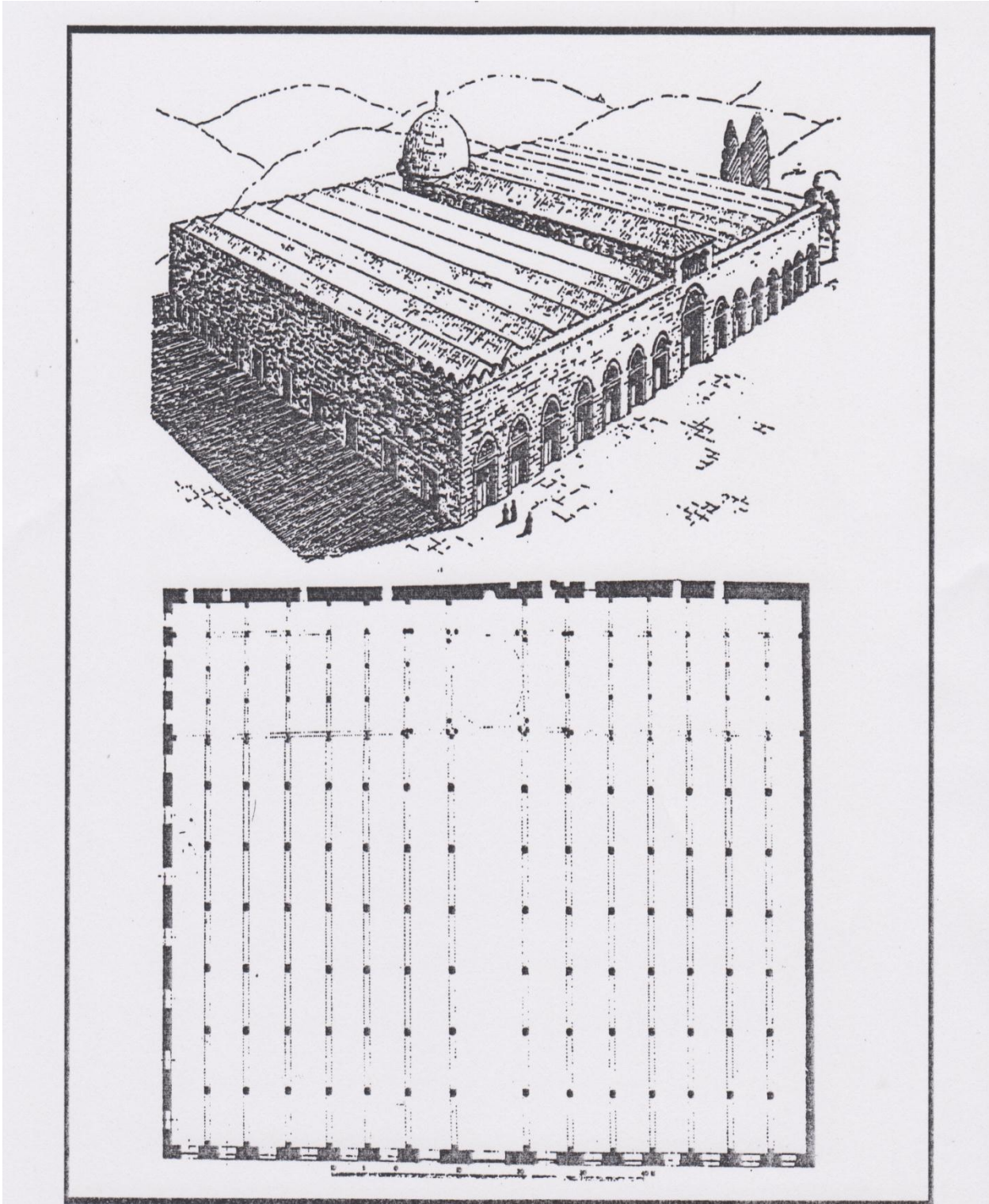
الجامع الأموي الكبير في دمشق

نقلاً عن عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي، ص ٢٢٩



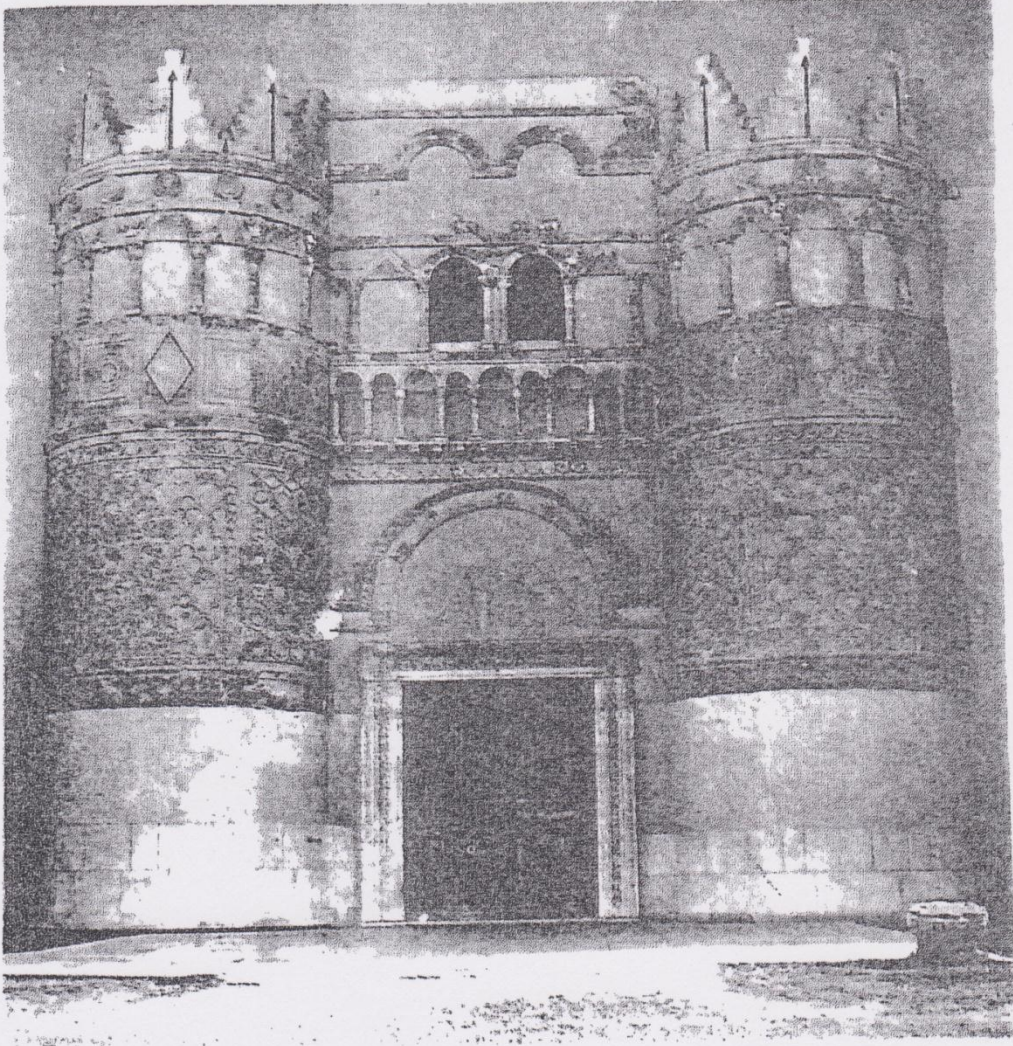
المسجد الأقصى المسقوف

نقلًا عن محمد هاشم موسى، تاريخ المسجد الأقصى ص ١٢



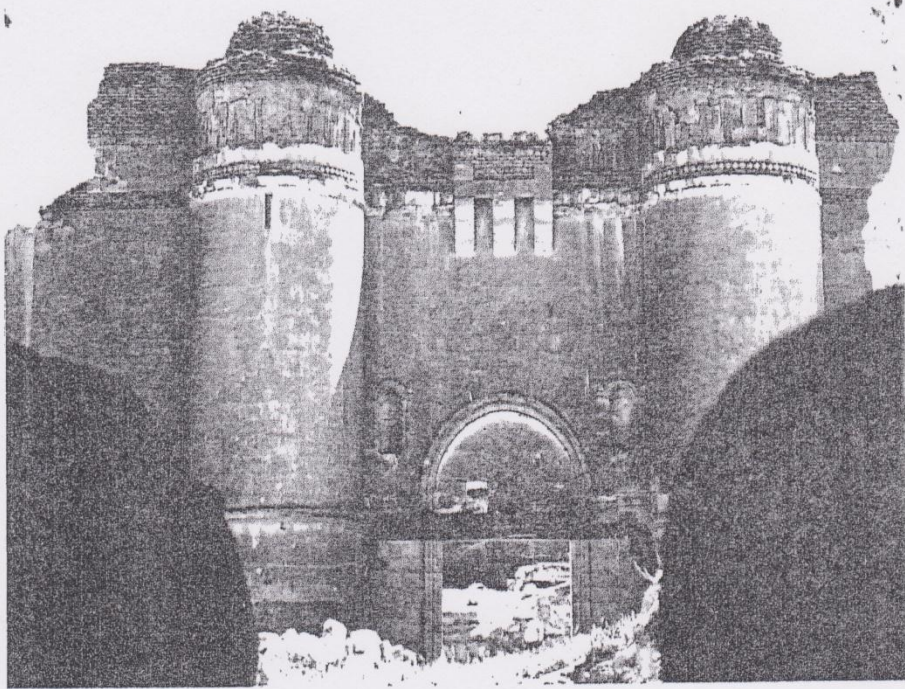
مخطط المسجد الأقصى المسقوف في صدر الإسلام

نقلاً عن محمد هاشم موسى غوشة، تاريخ المسجد الأقصى ص ١٣



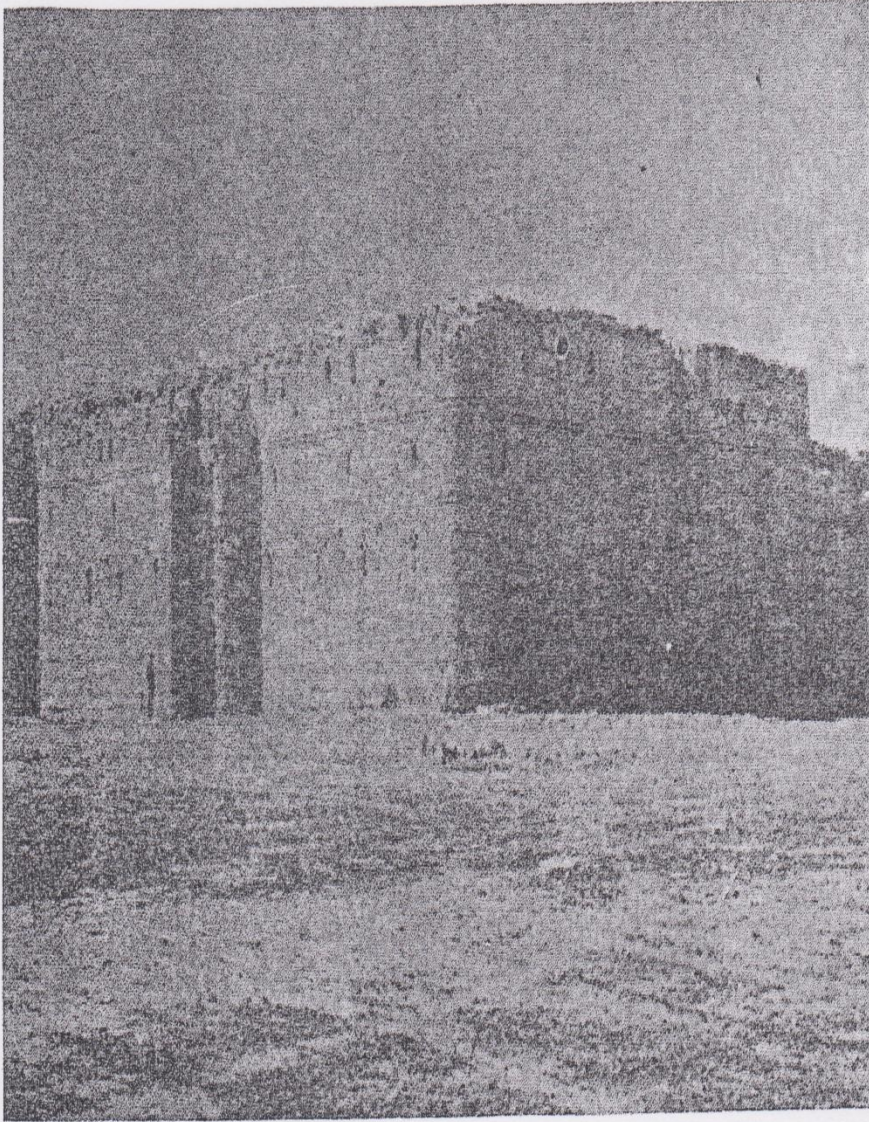
قصر الحجر الغربي - بادية الشام

نقلًا عن عفيف بهنسي، الشام الحضارة، ص ٢٠٨



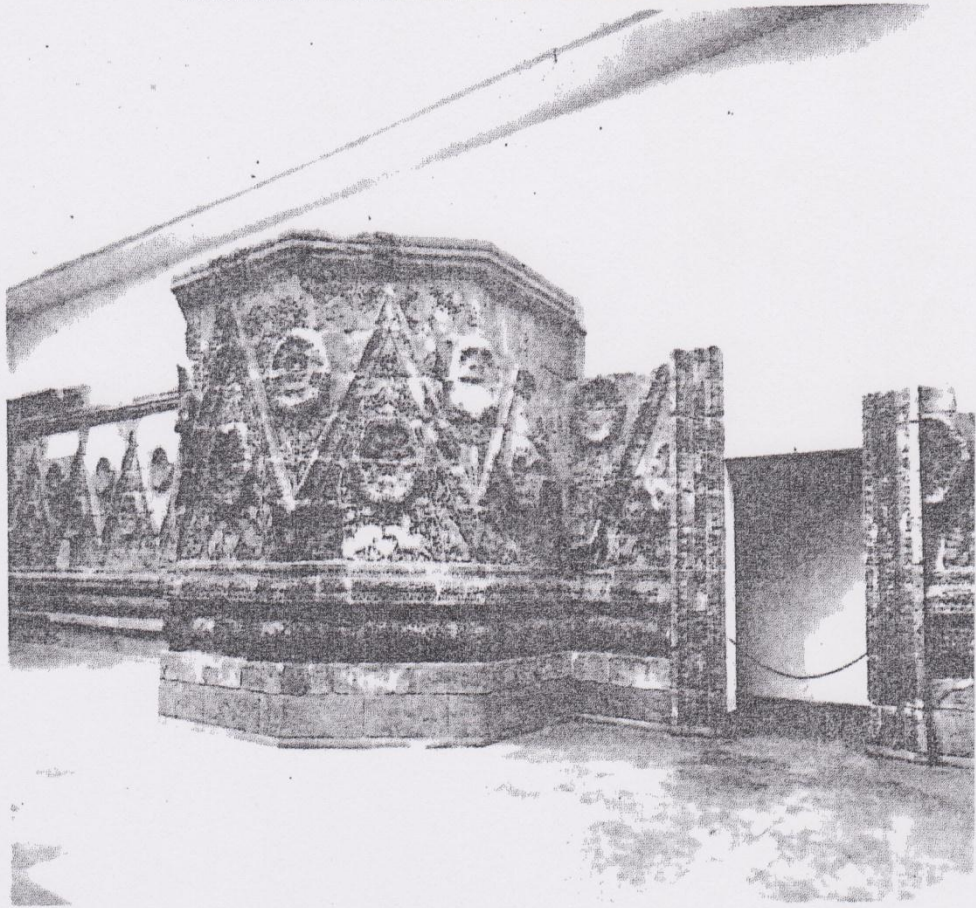
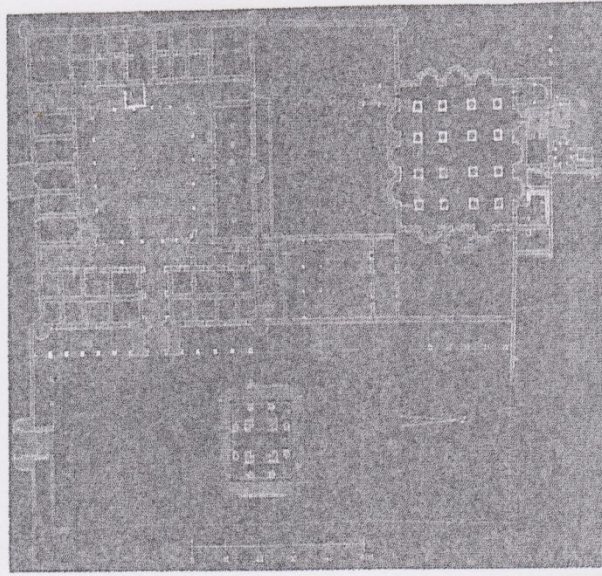
واجهة قصر الحير الشرقي

نقلًا عن عفيف بهنسي، الشام الحضارة ص ٢١٨



قصر الحرانة

نقلاً عن عفيف بهنسي، الشام الحضارة، ص ٢٢٤



واجهة قصر المشتى - مع المخطط

نقلًا عن عفيف بهنسي، الشام الحضارة، ص ٢٢٣



لوحة فسيفسائية - ارضية قاعة الاستقبال في حمام قصر المفجر

نقلاً عن عفيف بهنسي، الشام حضارة، ص ٢١٩

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

أولاً: المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- الإبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٥٨٥٠هـ / ١٤٤٦م)

- المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق سعيد محمد جمعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦.

- ابن الأثير علي بن محمد الشيباني (٥٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)

٣- الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥.

٤- أسد الغابة، تحقيق عادل أحمد الرفاعي، دار التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٦.

٥- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م)

- معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمد سفيان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

٦- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد (ت ٥٣٣هـ / ٩٤٥م)

٧- تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧.

٨- الأزدي، عبد الغني بن سعيد أبو محمد (ت ٤٠٩هـ / ١٠١٨م)

- المتوارين الذين اختفوا خوفاً من الحجاج بن يوسف الثقفي، تحقيق مشهور حسن محمود سلمان، دار القلم، والدار الشامية، دمشق، بيروت، ط ١، ١٩٨٩.

٨- الأزرق، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ / ٨٦٤م)

- أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، مكة، ط ٤، ١٩٨٣.

١٠- الأزهر، أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م)

- تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠١.

١١- الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٥م)

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تصحيح هلموت ريتز، دار النشر فرانز شتابر بفيسبادن، ط ٣، ١٩٨٠.

١٢- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م)

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٤.

١٣- الاصطخري أبو اسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)

- المسالك والممالك دار صادر ، بيروت، نقلاً عن طبعة ليدن، ١٩٢٧.
- الأصفهاني، علي بن الحسين أبو الفرج (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م)
- ١٤- مقاتل الطالبين، تحقيق السيد أحمد صقر، منشورات الشريف الرضي.
- ١٥- الأغاني، وتم الاعتماد على أكثر من نسخة منها:
- ج٢٠، تحقيق علي ناصيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢،
- ج٤، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٤.
- ج٨، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥.
- ج١٢، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠.
- ج٣، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩.
- ج٢، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٨.
- ج١، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢.
- ج١٥، طبعة دار الكتب المصرية، ٩٥٩١.
- ج١٧، تحقيق علي البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.
- ج٩، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦.
- ج٢١، تحقيق عبد الكريم العزباوي، ومحمود غنيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
- ج١٦، تحقيق محمد السقا، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦١.
- ١٦- ابن أبي أصيبعة ، أبو العباس موفق الدين (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م)
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة بيروت، ط١.
- ١٧- ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد (٩٢٦هـ/١٥٣١م)
- الفتوح، تحقيق علي الشيري، دار الأضواء.
- ١٨- الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن محمد (ت٥٧٧هـ/١١٨٢م)
- كتاب نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق ابراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن.
- ١٩- الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد الشيرازي، (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)
- المواقف في علم الكلام، علام الكتب ، بيروت، د.ت.

- ٢٠- بحشل، أسلم بن سهل الرزاز(ت٢٩٢هـ/٩٠٤م)
-تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ١.
- البخاري، محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله(ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)
٢١-صحيح بخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، ط١، ٢٠٠١.
٢٢- التاريخ الكبير، العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط١، ١٩٤٣.
- ٢٣- البدرى، أبو البقاء عبد الله(من القرن التاسع الهجري)
-نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٨٩٠.
- البغدادي، احمد بن علي أبو بكر(ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)
٢٤-تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ٢٥- تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.
- ٢٦- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر(ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)
-الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥.
- ٢٧- البكري الأندلسي، عبد الله بن عبد العزيز أبو عبيد(ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)
-معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٢.
- البلاذري أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)
٢٨- أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ط١، ١٩٩٦.
٢٩-فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.
- البيهقي، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين،(ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م)
٣٠-السنن الكبرى، وفي ذيله الجواهر النقي لابن التركماني، علاء الدين بن علي المارديني(ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢.
- ٣١- السنن الصغرى، تحقيق بهجة يوسف محمد أبو الطيب، دار الجيل، بيروت، ط١، ص١٩٩٥.
- ٣٢- التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي(ت٥٠٢هـ/١١٠٨م)
- ديوان الحماسة، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، د.ت.
- ٣٣- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)
-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.د.ت.

٣٤- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (ت ١٣٨٨/٥٧٩١م)

-شرح العقائد النسفية، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٨.

٣٥- التميمي، محمد بن حيان بن أحمد أبو حاتم (ت ٩٦٥/٥٣٥٤م)

-مشاهير علماء الأمصار، تحقيق م. فلا يشهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٩.

٢٦- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن علي (٤١٤/٥٢٣م)

-أخلاق الوزيرين، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢.

٣٧- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ١٠٣٧/٥٤٢٩م)

-لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٨٦٨/٥٢٥٥م)

٣٨- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨.

٣٩- الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

٤٠- التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، د.ت.

٤١- التبصر والتجارة، ترجمة حسن حسني عبد الوهاب، بيروت، ١٩٦٦.

٤٢- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناي (ت ١٢١٧/٥٦١٤م)

-رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت.

٤٣- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (كان حياً سنة ٣٧٧/٥٩٨٧م)

-طبقات الحكماء والأطباء، تحقيق فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.

٤٤- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عيروس (٣٣١/٥٩٤٢م)

- الوزراء والكتاب، تحقيق ابراهيم الأبياري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٨٣.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت ١٢٠٠/٥٥٩٧م)

٤٥- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد ومصطفى عبد الرحمن عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

٤٦- صفوة الصفوة، تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس قلنجي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.

٤٧- سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح، محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، القاهرة.

- ٤٨- الحراني، أبو عربة الحسين بن أبي معشر بن ودود (٣١٨هـ/٩٣٠م)
- الأوائل، تحقيق، مشعل بن باني المطيري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- ٤٩- ابن حبيب، محمد (٣٤٥هـ/٩٥٦م)
- المنق، دائرة المعارف الإسلامية، الهند، ١٩٦٤.
- ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)
- ٥٠- تهذيب التهذيب، تحقيق ابراهيم تليزيق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- ٥١- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٦٢.
- ٥٢- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الظاهر (٤٥٦هـ/١٠٦٣م)
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد ابراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٦.
- ٥٣- الحسن البصري بن يسار، (١١٠هـ/٧٢٨م)
- فضائل مكة والسكن فيها، تحقيق سامي العاني، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٧٩.
- ٥٤- ابن حمدون، محمد بن الحسين بن محمد (٥٦٢هـ/١١٦٦م)
- التذكرة الحمدونية، تحقيق، إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- ٥٥- الحميري، مجمل بن عبد المنعم (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد (٢٤١هـ/٨٥٥م)
- ٥٦- المسند، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٩.
- ٥٧- مسائل الإمام أحمد، تحقيق فضل الرحمن دين محمد، الدار العلمية، مدينة دلهي، ط١، ١٩٨٨.
- ٥٨- الحنبلي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (٧٩٥هـ/١٣٩٢م)
- الاستخراج لأحكام الخراج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- ٥٩- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (توفي بعد ٣٦٦هـ/٩٧٦م)
- صورة الأرض، دار صادر، بيروت، مطبعة ليدن، ١٩٨٢.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (٣٠٠هـ/٩١٢م)
- ٦٠- المسالك والممالك، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩.

- ٦١- اللهو والملاهي، نشر الأب أغناطيوس عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ت.
- ٦٢- الخشني، أبو عبد الله محمد بن الحارث القيرواني (ت ٣٦١هـ/٩٧١م)
- قضاة قرطبة، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة وبيروت، ط ٢، ١٩٨٩.
- ٦٣- الخشني، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ثعلبة. (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م)
- طبقات علماء إفريقيا، تحقيق محمد زينهم، ومحمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
- ٦٤- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)
- الإحاطة، بأخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣.
- ٦٥- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
- المقدمة، دار القلم، بيروت، ط ٥، ١٩٨٤.
- ٦٦- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (٦٨١هـ/١٢٨٢م)
- وفيات الأعيان، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨.
- ٦٧- خليفة بن خياط الليثي العصفري، (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)
- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٦.
- ٦٨- الديار البكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦هـ/١٥٥٨م)
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، مؤسسة شعبان، بيروت، د.ت.
- ٧٩- ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم، محمد، أيدمر (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣.
- الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢هـ/٨٩٥م)
- ٧٠-الأخبار الطوال، تصحيح فلاديمير جرجاس، ط ١، لندن، ١٨٨٨.
- ٧١- كتاب النبات، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة، ١٩٨٣.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
- ٧٢- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٩٩٢.

- ٧٣- تاريخ الإسلام ، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط١، ١٩٨٨.
- ٧٤- معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار، تحقيق، بشار عواد معروف، وشعيب الأرنؤوط، وصالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- ٧٥ - الرازي، محمد بن أبي بكر(٥٦٦٠هـ/١٢٦١م)
- مختار الصحاح تحقيق محمود خاطر ،مكتبة لبنان ناشرون ،بيروت ، ١٩٩٥
- ٧٦- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، (ت٣١٣هـ/٩٢٥م)
- كتاب الحاوي، شرح محسن عقيل، دار المحبة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤
- ٧٧- الرازي، محمد فخر الدين(٥٦٦هـ/١٢٠٩م)
- التفسير الكبير، القاهرة، ط١، ١٨٩٠
- ٧٨- الرحبي، عبد العزيز بن محمد الحنفي (ت١١٨٤هـ/١٧٧٠م)
- فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، تحقيق، أحمد عبيد كبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣.
- ٧٩- ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر(ت٥٣١٠هـ/٩٢٢م)
- الأعلام النفيسة ،طبع في مدينة ليدن، ١٨٩٣.
- ٨٠- الرقيق القيرواني، أبو اسحق ابراهيم بن القاسم (ت حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)
- تاريخ افريقية والمغرب، محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ط١، ١٩٩٤.
- ٨١- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن(ت٣٧٩هـ/٩٨٩م)
- طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ٨٢- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق(ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)
- تاج العروس في جواهر القاموس، دار الهداية ، تحقيق مجموعة من المحققين، د.ت.
- ٨٣- الزمخشري، محمود بن عمر(ت٥٣٨هـ/١١٤٣م)
- الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د.ت.
- ٨٤- ابن زنجويه حميد(ت٢٥١هـ/٨٦٥م) ،

-الأموال، تحقيق شاكر ذيب فياض، حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٩٨٦.

٨٥- الزهري، محمد بن مسلم ال (١٢٤/٥١٧٤م)

-المغازي النبوية، تحقيق وتقديم سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٨١.

٨٦- ابن زولاق، الحسن بن ابراهيم أبو محمد (٣٨٧/٥٩٩٧م)

- فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢/٥٩٦٤م)

٨٧- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٨٨- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٩.

٨٩- ابن سعد محمد بن منيع أبو عبد الله البصري (٢٣٠/٥٨٤٤م)

- الطبقات، دار صادر، بيروت، د.ت.

٩٠- السكتواري، علاء الدين علي دده، فرغ من تأليف كتابه سنة (٩٩٨/٥٨٩١م)

- محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨.

٩١- ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن السلام (٢٢٤/٥٨٣٨م)

- كتاب الأموال، تحقيق أبو أنس سيد بن رجب، دار الهدى النبوي، مصر، ط ١، ٢٠٠٧.

٩٢- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (٢٣١/٥٨٤٥م)

-طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، د.ت.

٩٣- السلمي، محمد بن الحسين بن محمد أبو عبد الرحمن (٤١٢/٥١٠٢١م)

-طبقات الصوفية ويليهِ النسوة المتعبدات الصوفيات، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨.

٩٤- السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (١٣١٥/٥١٨٩٧م)

- الإستقصا لأخبار الدول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٧.

٩٥- السمعاني أبو سعد عبد الكريم التميمي (٥٦٢/٥١٦٦م)

-الأنساب تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، ط ١، ١٩٨٨.

- ٩٦- السمهودي، علي بن عبد الله ب أحمد الحسني(ت١٥١٦/٥٩٢٢) -
-خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، دمشق، ١٩٧٢.
- ٩٧- ابن سيده، أبو الحسن علي النحوي الأندلسي(١٠٦٥/٥٤٥٨م)
-المخصص، تحقيق، خليل ابراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر(ت١٥٠٥/٥٩١١م)
٩٨- تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٥٢.
- ٩٩- طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
- ١٠٠- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقارة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦.
- ١٠١- الإتقان في علوم القرآن، مطبعة بابي الحلبي، القاهرة، د.ت.
- ١٠٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩.
- ١٠٣- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد(ت٩٩٨/٥٣٨٨م)
-الديارات، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦.
- ١٠٤- الشافعي، أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري(ت١٢٩٤/٥٦٩٤م)
-الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق عيسى عبد الله محمد مانع، الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- ١٠٥- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس(ت٨١٩/٥٢٠٤م)
-الأم، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، ١٩٠٣.
- ١٠٦- ابن شبة، أبو زيد عمر البصري(ت٨٧٥/٥٢٦٢م)
- تاريخ المدينة المنورة، تحقيق، فهيم محمد شلتوت، دار الأصفهاني، جدة، ١٩٧٩.
- ١٠٧- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم(ت١٢٨٥/٥٦٨٤م)
- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٨.
- ١٠٨- الشوكاني، محمد علي(ت١٨١٠/٥١٢٢٥م)
-القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، تحقيق عبد الرحمن عبد الخالق، دار العلم، الكويت، ط٣، ١٩٨٣.
- ١٠٩- الشهرستاني أبو الفتح(ت١١٥٣/٥٥٤٨م)

- الملل والنحل، عرض حسين جمعة، دار دانة،دمشق،ط١، ١٩٩٠.
- الشيرازي، ابراهيم بن علي بن يوسف أبو اسحق(ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م)
- ١١٠-طبقات الفقهاء، تحقيق خليل الميس، دار العلم، بيروت، د.ت.
- ١١١-المهذب ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٢٤.
- ١١٢- ابن أبي شيبة ، عبد الله بن محمد بن القاضي الكوفي المكي المكنى بأبي بكر(ت٢٣٥هـ/٨٤٩م)
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق ، مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٩٨٧.
- ١١٣- صاعد الأندلسي أبو القاسم بن أحمد(ت٤٦٢هـ/١٠٦٩م)
- طبقات الأمم ، نشره وفهرسه لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢.
- ١١٤- الصالحي أبو عبد الله بن محمد عبد الهادي الدمشقي (٤٤٤هـ/١٣٤٣م)
- طبقات علماء الحديث، تحقيق، أكرم البوشي، و ابراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦.
- ١١٥- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- ١١٦- الصنعائي، عبد الرزاق بن همام، (ت٢٢٠هـ/٨٣٥م)
- الأمالي في آثار الصحابة، تحقيق مجدي السيد ابراهيم، مكتبة القرآن القاهرة، د.ت.
- ١١٧-الصنعائي ، أحمد بن عبد الله أبو العباس الرازي(ت٤٦٠هـ/١٠٦٧م)
- تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبد الله العمري، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٩.
- ١١٨- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى(ت٣٣٦هـ/٩٤٧م)
- أدب الكتاب، تصحيح محمد بهجت الأثري، المكتبة العربية، بغداد، ١٩٢٢.
- ١١٩- ابن طباطبا، محمد بن علي الطقطقي (٣٢٢هـ/٩٣٣م)
- الفخري في الآداب السلطانية، والدول الإسلامية، دار صادر بيروت، د.ت.
- الطبري،، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)
- ١٢٠-تاريخ الرسل والملوك ندار الكتب العلمية ،بيروت ط١، ١٩٨٦.
- ١٢١- اختلاف الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ١٢٢- الطوسي محمد بن محمد (٥٥٠هـ/١١٥٥م)

- المنقذ من الضلال، تحقيق سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الاسكندرية، د.ت.
- ١٢٣- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت ٥٣٩٥هـ/١٥٤٦م)
- الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء أهل الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٦.
- ١٢٤- طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م)
- بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن، مطبعة مدرسة والده عباس الأول، القاهرة، ١٩٠٨.
- ١٢٥- ابن عبد البر أبو عمر يوسف القرطبي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩١.
- ١٢٦- ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م)
- مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، وهو مختصر معجم البلدان لياقوت، تحقيق علي البجاوي، دار الجيل بيروت، ط ١، ١٩٩٢.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م)
- ١٢٧- فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت.
- ١٢٨- سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح، أحمد عبيد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، د.ت.
- ١٢٩- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)
- العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٢.
- ١٣٠- أبو عبيد البكري، (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)
- المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ١٣١- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفلرج بن أهرون الطبيب الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
- تاريخ مختصر الدول تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤.
- ١٣٢- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)
- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨٨.
- ١٣٣- ابن عذارى محمد المراكشي (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م)

-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.سزكولان وإ.ليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.

- ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن (ت ١١٧٥/٥٧١م)

١٣٤- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد العمروي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥.

١٣٥- كذب المفترى مما نُسب إلى الإمام الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق ١٩٥٩.

١٣٦- العسكري، الحسن بن عبد الله بن هلال (ت ١٠٠٤/٣٩٥م)

-الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا، ط ١، ١٩٨٧.

١٣٧- العليمي، مجير الدين الحنبلي (١٥٣١/٩٢٨م)

- الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

١٣٨- ابن عماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد العسكري الدمشقي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨م)

-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٣٩- العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ١٣٤٨/٥٧٤٩م)

-مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٣.

١٤٠- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ١١١١/٥٠٥م)

- إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة كرياضة فوترا سماراغ، أندونيسيا، د.ت.

١٤١- الفارابي، أبو النصر محمد بن محمد (ت ٩٥٠/٣٣٩م)

-إحصاء علوم الدين، تحقيق علي بو ملحم، دار الهلال، بيروت، ط ١، ١٩٩٦.

١٤٢- الفاكهي أبو عبد الله محمد بن اسحق (ت ٨٨٨/٢٧٥م)

-أخبار مكة، تحقيق عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ط ١، ١٩٩٣.

١٤٣- أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد (ت ١٣٣١/٥٧٣٢م)

-تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.

١٤٤- ابن فرحون المالكي، محمد بن فرحون (ت ١٣٩٦/٥٧٩٩م)

- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٤٥- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت ٩٥١/٥٣٤٠م)

-تاريخ البلدان، طبع في مدينة ليدن، مطبع بريل، ١٨٨٤م.

- ١٤٥- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب(ت٨١٧هـ/١٤١٤م)
- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، جمعية إحياء التراث العربي، الكويت، ط١، ١٩٨٦.
- ابن قتيبة، أبو محمد بن عبد الله بن مسلم(٨٨٣هـ/٢٧٠م)
- ١٤٦- الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، ط١، ١٩٩٠.
- ١٤٧- عيون الأخبار، دار الكتب للوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦.
- ١٤٨- الشعر والشعراء، مراجعة محمد عبد المنعم عريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٣، ١٩٨٧.
- ١٤٩- المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت.
- ١٥٠- قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد(ت٣٢٩هـ/٩٤٠م)
- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١.
- ابن قدامة، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد(ت٢٢٣هـ/٦٢٠م)
- ١٥١- المغني، تحقيق محمد رشيد رضا، نشر دار المنار، القاهرة، ط٢، ١٩٤٨.
- ١٥٢- الاستبصار في نسب الصحابة الأنصار، تحقيق علي نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢
- ١٥٣- القرماني، أحمد بن يوسف(ت١٠١٩هـ/١٦١٠م)
- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيظ وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- ١٥٤- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)
- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ١٥٥- ابن القفطي، جمال الدين، أبو الحسن (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تصحيح محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٨.
- ١٥٦- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(٨٢١هـ/١٤١٨م)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار النشر المصرية، القاهرة، ١٩٢٢.
- ١٥٧- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر(ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)
- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب المصري، بيروت، دارالكتاب اللبناني، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩.
- ١٥٨- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله(ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)
- أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف البكري، وشاكر العاروري، الرمادي للنشر، الدمام السعودية، ط١، ١٩٩٧.

- ١٥٩- الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود (ت ٥٨٧/هـ ١١٩١ م)
-بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، المطبعة الجمالية بمصر ، القاهرة، ط١، ١٩١٠.
- ١٦٠- ابن كثير الحافظ (ت ٥٧٧٤/هـ ١٣٧٢ م)
-البداية والنهاية نحقق أحمد عبد الوهاب فتيح ،دار الحديث القاهرة ،ط١، ١٩٩٢.
- ١٦١- محمد بن شاكر الكتبي(ت ٥٧٦٤/هـ ١٣٦٢ م)
-فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ١٦٢- الكندي ،أبو عمر محمد بن يوسف(ت ٣٥٥/هـ ٩٦٥ م)
-الولاية والقضاة ،تصحيح رفن كست ،مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ، ١٩٠٨.
- ١٦٣- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد(٤٧٤/هـ ١٠٨١ م)
-رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية..، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي ،بيروت، ط٢، ١٩٩٤.
- ١٦٤- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(ت ٤٥٠/هـ ١٠٥٨ م)
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ط١ ، ١٩٨٩.
- ١٦٥- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(ت ٢٨٥/هـ ٨٩٨ م):
- الكامل في اللغة، تحقيق أحمد محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٧.
- ١٦٦- المتقي الهندي، علي بن حسام الدين البرهانپور(ت ٩٧٥/هـ ١٥٦٧ م)
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ن تحقيق بكرى حيان وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٧٩.
- ١٦٧- ابن المرتضى، أحمد بن يحيى بن المرتضى(ت ٨٤٠هـ ٤٣٦ م)
-طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنه ديفلد- فلزر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦/هـ ٩٥٧ م)
١٦٨-مروج الذهب ومعادن الجوهر، تدقيق يوسف البقاعي ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت، ط١، د.ت.
- ١٦٩- التنبيه والإشراف، طبع مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، ١٨٣٩ م.
- ١٧٠- مصعب الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله(ت ٢٣٦/هـ ٨٥٠ م)
- نسب قريش، تصحيح إ. ليفي بروفنسال، ط٣، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ١٧١- المقدسي، محمد بن أحمد(ت ٣٩٠/هـ ٩٩٩ م)

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق غازي طليمات ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠.

١٧٢- المقدسي، المطهر بن طاهر(٥٠٧/١١١٣م)

-البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

١٧٣- المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني(٤١٠/١٦٣١م)

-نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

- المقرئ تقي الدين أحمد بن علي(٤٥٠/١٤٤١م)

١٧٤-الخطط المقرئية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشراوي، مكتبة المدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.

١٧٥- النزاع والتخاصم فيما بني أمية وبني هاشم، إعداد وتعليق صالح الورداني، الهدف للإعلام والنشر، القاهرة، د.ت.

١٧٦- شذور العقود في ذكر النفود، تحقيق محمود بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

١٧٧- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم(٧١١/١٣١١م)

-لسان العرب، دار صادر بيروت، ط١، د.ت.

١٧٨- الموصلي الحنفي، عبد الله محمود بن مودود (٦٨٣/١٢٨٤م)

- الاختيار بتعليق المختار ، تحقيق محمود أبو دقيفة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٧٩- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩.

١٨٠- ناصر خسرو (٣٩٤/١٠٠٣م)

- سفرنامه، تحقيق يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٣، ١٩٨٣.

١٨١- النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله المالقي(٧٧٦/١٣٧٤م)

-قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والعليا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٥، ١٩٨٣.

١٨٢- ابن النجار، محمد محمود(٦٤٣/١٢٤٥م)

-أخبار مدينة الرسول ﷺ ، تحقيق محمد صالح جمال، مطابع دار الثقافة، مكة، د.ت.

١٨٣- ابن النجم، اسحق بن الحسين(٦٥١/١٢٥٣م)

-أحكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، تحقيق كودازي، روما، ١٩٢٩.

- ١٨٤- النديم، محمد بن اسحق أبو الفرج (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م)
-الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.
- ١٨٥- النرشخي أبو بكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م)
-تاريخ بخارى، تعريب أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د.ت.
- ١٨٦- النعيمي الدمشقي، عبد القادر بن محمد (ت ٩٧٨هـ/١٥٧٠م)
-الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
- ١٨٧- النوبختي، الحسن بن موسى، والقمي، سعد بن عبد المنعم، وهما من علماء القرن الثاني الهجري،
-فرق الشيعة، تحقيق، عبد المنعم الحفني، دار الراشد، القاهرة، ط١، ١٩٩٢.
- ١٨٩- ابن هشام، عبد الملك أبو محمد (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م)
- السيرة النبوية، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١، ١٩٩٥.
- الهمذاني، القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ/١٠٢٤م)
١٩٠-المنية والأمل، جمعه أحمد بن يحيى المرتضى، تحقيق عصام الدين محمد علي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٥.
- ١٩١- الأصول الخمسة، تحقيق فيصل بدير عون،، لجنة التأليف والتعريب، جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٨.
- ١٩٢- المغني في أبواب التوحيد، القاهرة، د.ت.
- ١٩٣- الهمذاني، لسان اليمن الحسن بن أحمد (ت بعد ٣٤٤هـ/٩٥٥م)
- صفة جزيرة العرب، تحقيق حمد بن علي الأكوح الحوالي، مكتبة الإرشاد صنعاء، ط١، ١٩٩٠.
- ١٩٤- الواقدي، محمد بن عمر أبو عبد الله (ت ٢٠٦هـ/٨٢١م)
-فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- ١٩٥- وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م)
-أخبار القضاة، مراجعة سعيد محمد اللحام، بعالم الكتب، القاهرة، د.ت.
- ١٩٦- وهب بن منبه (١١٤هـ/٧٣٢م)
- كتاب التيجان، تحقيق مركز الدراسات والأبحاث د.ت.
- ١٩٧- اليافعي، أبو محمد عبد الله اليمن (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)
-مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣.

١٩٨- ياقوت الحموي، بن عبد الله (ت ٥٦٣٦هـ/١٢٣٨م)

-معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د.ت.

١٩٩- يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٧م)

-الخراج، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٧.

٢٠٠- اليعقوبي، أحمد بن اسحاق أبي يعقوب بن جعفر العباسي (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م)

- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢٠١- أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م)

-الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩.

ثانياً: المراجع العربية الحديثة:

١- إبراهيم، قطب محمد السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.

٢- أبو جيب، سعدي، مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢.

٣- أبو خليل، شوقي أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط٥، ٢٠٠٢.

٤- أبو الذهب، أشرف طه المعجم الإسلامي الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢.

٥- أبو ريان، محمد علي تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦.

- أبو زهرة، محمد

٦- تاريخ المذاهب الإسلامية (في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية) دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

٧- أصول الفقه، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٥،

٨- الخطابة وأصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب، ط١، ١٩٣٤

٩- أبو زيد، علا عبد العزيز، الدولة الأموية دولة الفتوحات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦.

١٠- أبو عليّة، عبد الفتاح حسن القدس دراسة تاريخية حول المسجد الأقصى والقدس الشريف، دار المريخ، الرياض، ٢٠٠٠.

١١- أبو غدة، حسن، أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام، مكتبة المنار، الكويت، ط١، ١٩٨٦.

- أبو النصر، عمر

١٢- عبد الملك بن مروان، المكتبة الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٦٢.

- ١٣- الأيام الأخيرة للدولة الأموية، المكتبة الأهلية ، بيروت، ط١، ١٩٦٢.
- ١٤- أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٠.
- ١٥- أحمد، موسى عبد الغفار، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين في العهد الأموي، جامعة القاهرة، ١٩٧٩.
- أحمد، علي
- ١٦- تاريخ المغرب العربي الإسلامي، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢.
- ١٧- مظاهر التعريب في دول المنطقة العربية في العصور الوسطى، وزارة الإعلام، دمشق، ٢٠٠٩.
- ١٨- تاريخ الفكر العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٧.
- ١٩- أحمد، علي و زعرور، إبراهيم، تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٦.
- ٢٠- الإدريسي، ألبان محفوظ، الموارد المالية للدولة الإسلامية في العصر الأموي، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٦.
- ٢١- الأسدي، خير الدين، أحياء حلب وأسواقها، تحقيق عبد الفتاح رواس قلعة جي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٤.
- ٢٢- اسماعيل ، عادل ،المردانيون (المردة) دار النشر للسياسة والتاريخ ،بيروت، د.ط، د.ت.
- ٢٣- اسماعيل ، محمود، قضايا في التاريخ الإسلامي ،منهج وتطبيق، دار العودة، بيروت، ط٤ ، ١٩٧٤.
- ٢٤- محمد حسين الأعرجي، جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية، دار المدى والثقافة والنشر ، دمشق، ط١، ١٩٩٨.
- ٢٥- آغا، نبيل خالد، مدائن فلسطين (دراسات ومشاهدات) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- ٢٦- الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٢٧.
- ٢٧- أكرم، رضا، الطب النبوي، دار الوفاء للطباعة القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.
- ٢٨- أمين، أحمد ، فجر الإسلام، يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩.
- ٢٩- باشا، أحمد فؤاد، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٣.

٣٠- باشا، حسن و فهمي ، عبد الرحمن و يوسف ، عبد الرؤوف و عليوة ،حسين و نجيب ،محمد مصطفى ،القاهرة تاريخها وفنونها وأثارها ،مكتبة الاسكندرية، ٢٠٠٠.

٣١- بدوي، عبد الرحمن ، مذاهب الإسلاميين(المعتزلة الاسماعيلية القرامطة النصيرية)دار العلم للملايين، ١٩٩٧.

٣٢- البراقي، حسين بن أحمد ،تاريخ الكوفة ،دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

٣٣- بركات، وفيق، فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، جامعة حلب، ١٩٩٥.

- بطاينة، محمد

٣٤- الحضارة العربية الإسلامية، دار الفرقان، عمان، دبت.

٣٥-الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي، إربد، دار طارق، عمان

٣٦- بلوش، ن ،أ ،فتح السند، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩١.

- بهنسي، عفيف

٣٧-تاريخ الفن والعمارة (من البداية حتى عصر النهضة) مؤسسة الصالحاني، دار الشرق، ط١، ٢٠٠٣.

٣٨-الشام الحضارة(دراسة تاريخية) وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٦.

٣٩- بيضاني، إيمان محمد ،صنعاء في كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين في القرن الهجري الرابع، دار الثقافة العربية، الشارقة، ط١، ٢٠٠١.

- بيضون، إبراهيم

٤٠-ملاح التيارات السياسية في القرن الهجري الأول، دار النهضة العربية،بيروت، ١٩٧٩.

٤١-تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دار إقرأ، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

٤٢- تاريخ بلاد الشام إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية، دار المنتخب العربي، دم، دبت،

٤٣- بيهم، جميل، المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة ، دار النشر للجامعيين، ط١، ١٩٦٢.

٤٤- تدمري، عبد السلام

٤٥-تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.

٤٦-لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٩٩٠.

٤٧- توفيق، مرعي ، قصة مدينة أريحا، سلسلة المدن الفلسطينية، تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، دبت.

- ٤٨- تيمور بك، أحمد، الموسيقى والغناء عند العرب، ديم، ط١، ١٩٦٣ .
- ٤٩- الثعالبي، عبد العزيز، سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- ٥٠- ثور، عبد الله أحمد، هذه هي اليمن، مطبعة المدني، صنعاء، ١٩٦٩.
- ٥١- الجبري، محمد عبد المتعال، أصالة الدواوين والنقود العربية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٩.
- ٥٢- جبريالي. ق، ديوان الوليد بن يزيد، تقديم خليل مردم بك، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٧
- ٥٣- الجبوري، يحيى وهيب، الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- ٥٤- جريس، غسان بن علي بن ، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤ .
- ٥٥- جعيط، هشام، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت، ط١، ١٩٨٦.
- ٥٦- جمعة، ابراهيم، جامعة الاسكندرية والنقل منها وتأثر العقل العربي بعلمها، مطبعة كومستاموس، القاهرة، ١٩٤٤.
- ٥٧- الجحاني، الحبيب، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨.
- ٥٨- الجندي، أحمد، من تاريخ الغناء العربي، وزارة الثقافة دمشق، ١٩٨٨.
- ٥٩- الجنزوري، عليّة عبد السميع، الثغور البرية الإسلامية على الحدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
- ٦٠- جوهر، حسن محمد، تونس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١.
- الحاج حسن ، حسين،
- ٦١-النظم الإسلامية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٧.
- ٦٢-حضارة العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت، ط١، ١٩٩٢ .
- ٦٢- حافظ، أشرف الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي، دار نخلة، طرابلس الغرب، ط١، ١٩٩٩.
- ٦٤- حتي، فيليب ، وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف، بيروت، ط١ ١٩٥٢.
- ٦٥- حجاب، محمد نبيه، الشعبوية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٦١.
- ٦٦- حركات، ابراهيم، السياسة والمجتمع في عصر الراشدين، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥.

- ٦٧- حسن ،إبراهيم حسن ،
- ٦٨- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل بيروت ،دار النهضة المصرية، القاهرة، ط١٤، ١٩٩٦.
- ٦٩- تاريخ عمرو بن العاص، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦.
- حسن، ابراهيم حسن و حسن، علي ابراهيم
- ٧٠- النظم الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة، ط١، ٢٠٠١.
- ٧١- حسن، زكي محمد ،فنون الإسلام، دار الرائد العربي،بيروت، ١٩٨١.
- ٧٢- حبيب، سعد عبد السلام ،عمر بن عبد العزيز، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.
- ٧٣- حسين ،طه ،الفتنة الكبرى (علي وبنوه) دار المعارف، القاهرة، ط١٣.
- ٧٤- حلاق ،حسان ، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري ، القاهرة، ط١ ، ١٩٧٨.
- ٧٥- الحمد، عبد الحميد ،صابئة حران وإخوان الصفا، الأهالي لطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٨.
- ٧٦- حميدان ،زهير ، أعلام الحضارة العربية في العصور الوسطى، إشييلية للدراسات، دمشق، ١٩٩٥.
- ٧٧- الحميدي ، عبد العزيز بن عبد الله ،عمر بن عبد العزيز الإمام الزاهد والخليفة الراشد، دار الدعوة، الاسكندرية، ٢٠٠٤.
- ٧٨- حمودة، محمود، تاريخ الكتاب الإسلامي، مكتبة غريب، مصر، د.ت.
- ٧٩- الحوفي ، أحمد محمد ،سماحة الإسلام ، القاهرة ١٩٨٥.
- ٨٠- الحويري، محمود محمد، أسوان في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠.
- ٨١- خربوطلي، شكران و مصطفى ،فوزي و العلي ،عبد الكريم ،الحضارة العربية الإسلامية(آثار وفنون) جامعة دمشق، ٢٠٠٨.
- ٨٢- خربوطلي، علي حسني
- ٨٣- الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦.
- ٨٤-الإسلام وأهل الذمة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩.
- ٨٥-تاريخ العراق في العصر الأموي، دار المعارف، مصر ١٩٥٩.
- ٨٦- خضر، عبد العليم عبد الرحمن، المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر العربي، ط٢، ١٩٩٥.

٨٧- **الخضري بك، محمد**، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة الأموية، تحقيق محمد العثماني دار القلم ، بيروت ، د.ت.

٨٨- **الخطيب ، حامد** ، قصة مدينة الرملة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الإعلام والثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، د.ت.

٨٩- **الخطيب، حنيفة**، الطب عند العرب، دار الأهلية للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

٩٠- **خفاجي ، عبد المنعم** ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل ،بيروت، ١٩٩٠.

٩١- **خفاجي، عبد المنعم و شريف عبد العزيز** ، معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي(٤١-١٣٢هـ) الدار المصرية اللبنانية-القاهرة، ط١، ١٩٩٢.

- **خماش ، نجدة**

٩٢- **الشام في صدر الإسلام**، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧.

٩٣- **دراسات في الآثار الإسلامية**، منشورات جامعة دمشق، ط٣، ١٩٩٤.

٩٤- **الإدارة في العصر الأموي**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٠.

٩٥- **الدباغ، مصطفى مراد**، الموجز في تاريخ الدولة العربية في بلاد فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٠.

٩٦- **الدسوقي، فاروق أحمد**، القضاء والقدر في الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥.

٩٧- **الدسوقي، محمد و الجابر، أمينة**، مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي، دار الثقافة، قطر، ١٩٩٩.

٩٨- **الدسوقي، محمد عزب**، القبائل العربية في بلاد الشام، منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.

٩٩- **الدفاع، علي عبد الله**، إسهام العلماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

- **الدوري، عبد العزيز**

١٠٠- **النظم الإسلامية**، بغداد، ١٩٥٠.

١٠١- **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي**، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٦٩.

١٠٢- **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام** ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط٢، ١٩٦٠.

١٠٣- **نشأة علم التاريخ عند العرب** ، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠.

٢٠٤- **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥.

- ١٠٥- **الدهبي** ، ادوار **غالي**، معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، مكتبة غريب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- ١٠٦- **الدهاس**، **فواز علي بن جنيدب**، مروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني في الدولة الأموية، مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠٤ .
- ١٠٧- **ديوز**، **محمد علي**، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٣ .
- ١٠٨- **رحال**، **عاطف**، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، دار بيسان، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- ١٠٩- **رشيد**، **صبحي أنور**، مدخل إلى تاريخ الغناء العربي، دار علاء الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٠.
- ١١٠- **الرفاعي**، **أنور** ، الإسلام في نظمه الإدارية والسياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧.
- ١١١- **الرفاعي**، **مصطفى صادق**، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.
- ١١٢- **رفعت**، **فوزي**، المدخل إلى توثيق السنة، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٨.
- ١١٣- **رمضان** ، **عبد العظيم**، الصراع بين العرب وأوروبا منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.
- ١١٤- **رمضان**، **هویدا عبد العظيم**، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح إلى العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
- ١١٥- **الرواضية**، **صالح**، زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام، ط١، ١٩٩٤.
- **الريحاوي**، **عبد القادر**
- ١١٦- **العمارة العربية الإسلامية (خصائصها وآثارها في سورية)** دار البشائر، دمشق، ط٢، ١٩٩٩.
- ١١٧- **العمارة في الحضارة الإسلامية**، مركز النشر العلمي، جامعة الملك سعود، الرياض. د.ت.
- **الريس**، **محمد ضياء الدين**
- ١١٨- **النظريات السياسية الإسلامية**، دار التراث، القاهرة، ط٧، د.ت.
- ١١٩- **عبد الملك بن مروان**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٢.
- ١٢٠- **الخراج والنظم الإسلامية للدولة الأموية** ، دار التراث ، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥ .
- ١٢١- **الريطي**، **ممدوح عبد الرحمن**، دور القبائل العربية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية (٢١-٣٥٨هـ/٦٤٧-٩٦٩م) مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، د.ت.
- ١٢٢- **الزاهد**، **أحمد**، الغزو العربي لشمال إفريقيا، تاوت، تامغناست، د.ط، د.ت.
- ١٢٣- **الزحيلي**، **محمد**، تاريخ القضاء في الإسلام، دغر الفكر، دمشق، وبيروت، ط١، ١٩٩٥.

- ١٢٤- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٥، ٢٠٠٢.
- ١٢٥- زغلول، الشحات السيد، السريان والحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٧٥.
- ١٢٦- زكي، فهمي نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٧٣.
- زيدان، جرجي :
- ١٢٧- تاريخ التمدن الإسلامي، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ١٢٨- تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، د.م، د.ت.
- ١٢٩- زيدان، عبد الكريم، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٩٨٢.
- زيتون، محمد
- ١٣٠- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.
- ١٣١- المسلمون في المغرب والأندلس، ١٩٩٠.
- ١٣٢- زيود، محمد أحمد، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي، جامعة دمشق، ١٩٩٤.
- ١٣٣- سامح، كمال الدين، العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- ١٣٤- السامرائي، ابراهيم، المدارس النحوية، دار الفكر، عمان الأردن، ط١، ١٩٨٧.
- ١٣٥- السامرائي، خليل ابراهيم و طه ذنون، عبد الواحد و مطلوب، ناطق صالح، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط١، ٢٠٠٠.
- ١٣٦- سقال، ديزيرة، نشأة المعاجم العربية وتطورها، دار الصداقة، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- سالم، السيد عبد العزيز
- ١٣٧- تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٦.
- ١٣٨- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧.
- ١٣٩- تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، د.ت.
- ١٤٠- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٥.
- ١٤١- السابيس، محمد علي، نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، معهد البحوث الإسلامية، ١٩٧٠.
- ١٤٢- السباعي، حسن، معالم الآثار اليمنية، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ١٩٨٠.

- ١٤٣- سحاب، فكتور، إيلاف قريش ، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٤.
- ١٤٤- سعيد، خليفة، تاريخ المنسوجات، القاهرة، ١٩٦١.
- ١٤٥- سلام، حورية عبد المجيد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط حتى نهاية العصر الأموي، جامعة القاهرة، كلية الآداب، تموز، ١٩٧٠.
- ١٤٦- سلامة، حسين عبد الله، تاريخ الكعبة المعظمة، عمارتها كسوتها سدانتها، ط١، ١٩٣٥.
- ١٤٧- سلطان، عبد المنعم عبد الحميد، آل المهلب في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحزبي حتى سقوط الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة، الإسكندرية، ١٩٩٠.
- ١٤٨- السيد، أديب، أرمينية في التاريخ العربي، ط١، ١٩٧٢.
- ١٤٩- السيد ، مجدي فتحي، تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٩٩٨.
- ١٥٠- السيد، محمد صالح محمد، مدخل إلى علم الكلام، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١.
- ١٥١- السيد ، محمود ، تاريخ الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٢.
- ١٥٢- السيف، عبد الله محمد ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الرياض ، ١٩٨٣.
- ١٥٣- الشامي، صالح أحمد ، الفن الإسلامي (إلتزام وإبداع) دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٠.
- ١٤٥- شاكر، محمود ، التاريخ الإسلامي(العهد الأموي)المكتب الإسلامي،بيروت،ط٧، ٢٠٠٠.
- ١٥٥- شاهين، حمدي، الدولة الأموية المفترى، دار القاهرة، للكتاب، ٢٠٠١.
- ١٥٦- شاهين، عبد الصبور و الرفاعي، إصلاح عبد السلام ،مصر في الإسلام، دار أنباء، القاهرة، ٢٠٠٠.
- ١٧٥- شراب، محمد حسن، تاريخ الكتابة وتدوين العلم في العصر الجاهلي والقرن الأول الهجري، دار الصديق، دمشق، ط١، ٢٠٠٥.
- ١٥٨- الشرقاوي، عبد الرحمن ،الفاروق عمر بن الخطاب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٧.
- ١٥٩- الشريف ،حامد محمد ،أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي، مكتبة عبد الحميد شومان، عمان الأردن، ٢٠٠٧.
- ١٦٠- الشريف، قاسم عون، نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ دراسة في وثائق العهد النبوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨١.
- ١٦١- شريف، عمر ، نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩١.

- ١٦٢- الشطشاط، علي حسين، تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١.
- ١٦٣- شعبان ، محمد عبد الحي ، صدر الإسلام والدولة الأموية ، بيروت، ١٩٨٧ .
- ١٦٤- الشكيل، علي جمعان، الكيمياء في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط١، ١٩٨٩.
- ١٦٥- شلبي، محمد مصطفى، المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.
- ١٦٦- شلق ، الفضل ، الأمة والدولة، دار المنتخب، بيروت، ١٩٩٣ .
- ١٦٧- شهاب، حسن صالح، أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٨١.
- ١٦٨- الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩.
- ١٦٩- الشيال، جمال الدين ،وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي ، محاضرات جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.
- ١٧٠- شبير، محمد عثمان، بيت المقدس وما حوله، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٧.
- ١٧١- صالح، أحمد ، التحنيط فلسفة الخلود في مصر القديمة، جماعة حور الثقافية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠.
- ١٧٢- صالح ،أمين ،دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية (عصر الولاة) مطبعة الكيلاني، القاهرة ١٩٧٥.
- ١٧٣- الصالح ،صبحي ،النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، منشورات الشريف الرضي ،إيران، ط١ ، ١٩٩٦.
- ١٧٤- الصالح ،محمد ، المسجد جامع وجامعة، الرياض، ط١، ٢٠٠٠.
- ١٧٥- صبحي، أحمد محمود، في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، دار النهضة العربية، بيروت، ط٥، ١٩٨٥.
- ١٧٦- صقر، نادية حسني، العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩١.
- الصلابي، علي محمد،
- ١٧٧- صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهر فكر الخوارج) دار البيارق، لبنان، ط١، ١٩٩٨.
- ١٧٨- الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩.
- ١٧٩- الصمد ،واضح، ديوان ليلي الأخيلية، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- ١٨٠- الصيداوي، حيان، الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، دار المتنبي، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- ١٨١- الصيني ،بدر الدين ، العلاقات بين العرب والصين ،مكتبة النهضة المصرية ،ط١، ١٩٥٠.

- ١٨٢- **ضو ، بطرس** ، تاريخ المواردنة، دار النهار، بيروت، ١٩٧٠.
- ١٨٣- **ضيا، محمد**، عمر بن الخطاب، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- **ضيف ، شوقي**
- ١٨٤- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط١١، د.ت.
- ١٨٥- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، دار الثقافة للطباعة، د.ت.
- ١٨٦- التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ١٨٧- المدارس النحوية، دار المعارف ، القاهرة، ط٧، د.ت.
- ١٨٨- **طروادة ، حجازي حسن علي**، مظاهر الاهتمام بالحج والحرمين الشريفين في العصر الأموي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢.
- ١٨٩- **طقوش، محمد سهيل**، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس ،بيروت، ط٦، ٢٠٠٨.
- ١٩٠- **طلس، محمد أسعد** ، تاريخ العرب، دار الأندلس، (د.م) ط٢، ١٩٧٩.
- ١٩١- **الطنطاوي، محمد**، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت.
- ١٩٢- **الطنطاوي، علي**، الجامع الأموي في دمشق، دار المنارة، جدة، ط١، ١٩٩٠
- ١٩٣- **طوقان، قدرى حافظ**، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت.
- ١٩٤- **عادل، كمال أحمد** ، الطريق إلى دمشق، (فتح بلاد الشام) دار النفائس ، بيروت، ١٩٨٥.
- ١٩٥- **عادل ، العوا**، المعتزلة والفكر الحر، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط١، د.ت.
- ١٩٦- **عافل ، نبيه**، خلافة بني أمية ، جامعة دمشق، ١٩٧٣.
- ١٩٧- **العاني، عبد الرحمن عبد الكريم**، تاريخ عمان في العصور الإسلامية الأولى، دار الحكمة، لندن، ط١ ١٩٩٩ .
- ١٩٨- **العبادي، أحمد مختار ،و سالم ، السيد عبد العزيز**، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- ١٩٩- **العبادي، عبد الحميد**، صور في التاريخ الإسلامي ، مكتبة الآداب ،الاسكندرية، ١٩٤٧.
- ٢٠٠- **عباس، إحسان**، ديوان كثير عزة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١.
- ٢٠١- **عبد الحميد ، محمد محي الدين**، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٥٢.

- ٢٠٢- عبد الخالق، هناء ، الزجاج الإسلامي في متاحف ومخازن العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦
- ٢٠٣- عبد الرحمن ، حكمت نجيب ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الموصل، ١٩٧٦.
- ٢٠٤- عبد الرحيم ، عبد الحسين مهدي، دراسات في تاريخ العراق وحضارته(الجيش والسلاح) جامعة بغداد، ط١، ١٩٨٨.
- ٢٠٥- عبد الرؤوف، عصام الدين، الحواضر الإسلامية الكبرى، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٦.
- ٢٠٦- عبد السلام، أحمد ، دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، تونس، د.ط، ١٩٧٨.
- ٢٠٧- عبد الشافي ، عبد الطيف ،العالم الإسلامي في العصر الأموي دار الوفاء ،القاهرة ط١، ١٩٨٤.
- ٢٠٨- عبد شلبي ،عبد الجليل ،الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧.
- ٢٠٩- عبد العزيز، أمير، أصول الفقه الإسلامي، دار السلام، د.م، ط١، ١٩٩٧.
- ٢١٠- محمد عبد الغني ،عبد الرحمن ،أرمنية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين ٦٥٣- ١٠٦٤م الاسكندرية ، ١٩٨٣.
- ٢١١- عبد الغني، مصطفى ، الكيمياء عند العرب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥.
- ٢١٢- عبد الغني، محمد إلياس ، تاريخ المسجد النبوي الشريف، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٦.
- ٢١٣- عبد الفتاح، صفاء حافظ ،ضياح بني أمية في عصر الخلافة، ١٩٩١.
- ٢١٤- عبد القادر، محمد فريد، معارك فاصلة في تاريخ الإسلام، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٢١٥- عبد الله ، وديع فتحي ،العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠.
- ٢١٦- عبد الوهاب، حسن حسني ،ورقات في الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، مكتبة المنار، تونس، ١٩٦٥.
- ٢١٧- العجلاني، منير، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، دمشق ، ط١، د.ت.
- العدوي، إبراهيم أحمد
- ٢١٨- قوات البحرية العربية ،مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ،القاهرة، د.ت.
- ٢١٩- النظم الإسلامية ومقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الإسلام والعصر الأموي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، د.ت.
- ٢٢٠- مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية ،د.ط، د.ت.
- ٢٢١- عرنوس، محمد تاريخ القضاء في الإسلام، مكتبات الكليات الأزهرية، مصر، د.ت.
- ٢٢٢- العروي، عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب، ط٣، ١٩٩٢.

- العريني، السيد الباز

٢٢٣- مصر البيزنطية، دار النهضة العربية، ١٩٦١.

٢٢٤- الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٥.

٢٢٥- العسكري، سلمان ابراهيم ، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، مطبعة الميدان، القاهرة، د.ت.

٢٢٦- العش، أبو الفرج، آثارنا في الإقليم السوري، المطبعة الجديدة، دمشق، ط١، ١٩٦٠ .

-العش، يوسف

٢٢٧-الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ، دار الفكر ،دمشق ، ط٢ ، ١٩٩٨.

٢٢٨- دُور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد الشام والعراق ومصر في العصر الوسيط، ترجمة نزار أباطة ومحمد صباغ، دار الفكر بيروت، ودمشق، ط١، ١٩٩١.

٢٢٩- العشماوي ،محمد سعيد ، الخلافة الإسلامية ،سينا للنشر، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٢.

٢٣٠- العشي ،عمار ،تاريخ بلاد الشام ،تاريخ بلاد الشام في القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري ،دار الينابيع دمشق ،ط١ ، ٢٠٠٩ .

٢٣١- عطا، زبيدة محمد ،الحياة الاقتصادية، في مصر البيزنطية، دار الأمين، القاهرة والجيزة، ط١ ، ١٩٩٤.

- عطوان ، حسين،

٢٣٢- الأمويون والخلافة ،دار الجيل ،بيروت ،١٩٨٦.

٢٣٣- رواية الشاميين للمغازي والسير في القرنين الأول والثاني الهجريين، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦.

٢٣٤-الفقهاء والخلافة في العصر الأموي، دار الجيل ، بيروت، ط١ ، ١٩٩١.

٢٣٥-الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٧ .

٢٣٦- العظم ، أسيمة، المجتمع في العصر الأموي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

٢٣٧- عكاشة ،ثروت ،القيم الجمالية في العمارة العربية الإسلامية، بيروت، القاهرة، ط١، ١٩٩٤.

٢٣٨- علي، جواد ،المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، ١٩٩٣.

- العلي، صالح أحمد ،

٢٣٩-الحجاز في صدر الإسلام (دراسات في أحواله العمرانية والإدارية) مؤسسة الرسالة،بيروت، ط١، ١٩٩٠.

٢٤٠-دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

- ٢٤١- علي، عبد الرحيم محمد عبد الحميد، عمرو بن العاص القائد والسياسي، دار زهران، عمان، ١٩٩٨.
- ٢٤٢- العلوي، صالح بن حامد، تاريخ حضرموت، دار الكتب، بيروت، ١٩٧٦.
- ٢٤٣- العمري، أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، المدينة المنورة، د.ت.
- ٢٤٤- عمر، عبيد الفضل، الطب عبر القرون، دار الشواف، الرياض، ط١، ١٩٨٩.
- عمارة، محمد
- ٢٤٥- تيارات، الفكر الإسلامي دار الشروق، القاهرة، ١٩٩١.
- ٢٤٦- قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- عمر، فاروق،
- ٢٤٧- طبعة الدولة العباسية، دار الإرشاد بيروت، ط١، ١٩٧٠.
- ٢٤٧- الثورة العباسية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٨.
- ٢٤٨- عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي) دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٠.
- ٢٤٩- عزب، خالد، الفسطاط النشأة الازدهار والانحسار، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- ٢٥٠- العودات، حسين، العرب النصارى، الأهل للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٢.
- ٢٥١- عوض، حنفي، العمل وقضايا الصناعة في الإسلام، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، الاسكندرية، د.ت.
- ٢٥٢- عون، كمال أحمد، المرأة في الإسلام، ط٢، د.ت.
- ٢٥٣- عويس، عبد الحليم، الدولة الأموية بين السقوط والانتحار، شركة سوزلر، القاهرة، ط١، ١٩٨٧.
- ٢٥٤- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.
- ٢٥٥- عيسى، أحمد البيمارستانات، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٨١.
- ٢٥٦- الغزالين، محمد، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، القاهرة، ط١٢، ٢٠٠١.
- غلاب، محمد
- ٢٥٧- الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافية والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩.
- ٢٥٨- ينيابيع الفكر الإسلامي وعوامل تطوره، المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية، القاهرة، د.ت.
- ٢٥٩- غوشة، محمد هاشم، تاريخ المسجد الأقصى، فلسطين، د.م، ط١، ٢٠٠٢.

- ٢٦٠- فاعور، علي ،سيرة عمر بن عبد العزيز، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- ٢٦١- فرج، محمد ،الفتح العربي للعراق وفارس، دار الفكر العربي، ١٩٦٦.
- ٢٦٢- فرح، نعيم ،تاريخ بيزنطة السياسي ،منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢.
- ٢٦٣- فرشوخ، محمد أمين المدخل إلى علوم القرآن والعلوم الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٥٠.
- فروخ ، عمر
- ٢٦٤-الحجاج بن يوسف الثقفي ،بيروت، ١٩٤١.
- ٢٦٥-تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية دار العلم للملايين، بيروت ، ط ٥، ١٩٨١.
- ٢٦٦-العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، ط٢، ١٩٨١.
- ٢٦٧-تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣.
- ٢٦٨- الفقي ،عصام الدين عبد الرؤوف ،تاريخ الهند في العصر الإسلامي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠.
- ٢٦٩- فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها(المدخل) ، القاهرة د.ت
- ٢٧٠- فهمي، سامح ، المكايل الإسلامية في صدر الإسلام، المكتبة الفيصلية، مكة، ط١، ١٩٨١.
- ٢٧١- فيصل، شكري، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٢.
- الفيومي، محمد ابراهيم
- ٢٧٢-الخوارج والمرجئة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- ٢٧٣- الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، دار الشروق، القاهرة، د.ت.
- ٢٧٤- القطار، الياس، لبنان في القرون الوسطى، كلية الآداب الجامعة اللبنانية، بيروت، ٢٠٠٣.
- ٢٧٥- القطان، مناع، تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٩٨٩.
- ٢٧٦- قلجعي ،قدري ، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- ٢٧٧- القلماوي ،سهير ، أدب الخوارج في العصر الأموي، مطبعة لجنة الأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٤٥.
- ٢٧٨- القوصي، عطية، تجارة مصر البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦
- ٢٧٩- كاتبي، غيداء خزنة، الخراج من الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧.

- كاشف، سيدة اسماعيل

٢٨٠- الوليد بن عبد الملك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٥.

٢٨١- مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.

٢٨٢- عبد العزيز بن مروان، المؤسسة المصرية العامة للنشر، دار الكاتب العربي، القاهرة.

٢٨٣- الكتاني، محمد عبد الحي، التراتيب الإدارية، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط٢، د.ت.

٢٨٤- كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.

- كرد علي، محمد، الإسلام والحضارة الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦،

٢٨٥- خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٢، د.ت.

٢٨٦- دمشق مدينة السحر والشعر، دار الفكر، دمشق، د.ت.

٢٨٧- كزّو، الهادي، أصول التشريع الإسلامي، الدار العربية للكتاب، تونس ط٣، د.ت.

٢٨٨- الكسيبي، حمدان عبد المجيد، حضارة العراق، مجموعة من الباحثين العراقيين، بغداد، ١٩٨٥.

٢٨٩- الكعكي، يحيى، مكانة المرأة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

٢٩٠- لقبال، موسى، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢، ١٩٨١.

٢٩١- ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين) ط٣، ١٩٦٦.

- محاسنة، محمد حسين

٢٩٢- أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي، العين، ٢٠٠١.

٢٩٣- بناء الدولة العربية الإسلامية، مطبعة البهجة، إربد، ١٩٩٩.

٢٩٤- محمد، سراج الدين، الغزل في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، د.ت.

٢٩٥- محمد، سعاد ماهر، النسيج الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٧.

٢٩٦- محمد، محمد الشاطر أحمد، الموجز في نشأة علم النحو، مكتبة الكليات، الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٣.

٢٩٧- محمد، علي، المكايل والموازن الشرعية، القدس للإعلان، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١.

٢٩٨- محمد، نبيلة حسن، تاريخ الدولة العربية دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣.

٢٩٩- محمد، محمد محمود، الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار العلم، بيروت، ١٩٨٣.

٣٠٠- محمود، ابراهيم، الفتنة المقدسة، ط١، د.م، ١٩٩٩.

- ٣٠١- مخلص عبد الله، مؤذنة الجامع الأبيض في الرملة، بيروت، دت.
- ٣٠٢- المراغي، محمد أسعد حسن ، دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث، دار العلوم العربية، بيروت، ط١، دت.
- ٣٠٣- المرزوقي، جمال ، دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١.
- ٣٠٤- المزيني، أحمد عبد العزيز ، الموارد المالية في الإسلام، دار ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٩٩٤.
- ٣٠٥- مشرفة، عطية ،القضاء في الإسلام، شركة الشرق الأوسط، مصر، ١٩٦٦.
- ٣٠٧- مصطفى محمود ، الأدب العربي وتاريخه في عصري صدر الإسلام والدولة الأموية، ج١، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط٢ ١٩٣٧.
- ٣٠٨- المظفر، محمد رضا، الفلسفة الإسلامية، دار الصفاة، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- ٣٠٩- مقداد، محمود ، الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨.
- ٣١٠- المعاينة، زريق مرزوق ،نشأة الدواوين وتطورها في صدر الإسلام، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠.
- ٣١١- المعيد، محمد جبار، ديوان ابن هرمة، مطبعة الآداب ، كالفورنيا، ١٩٦٩.
- ٣١٢- المغربي، علي عبد الفتاح، الفرق الكلامية الإسلامية(مدخل ودراسة) مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥.
- ٣١٣- مكي، محمود، تاريخ الأندلس السياسي ، دراسة شاملة منشورة في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الجيوسي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨.
- ٣١٤- الملوحى، عبد المعين ، الحب بين المسلمين والنصارى في التاريخ العربي، دار الكنوز، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- ٣١٥- مولوي، حسني، الإدارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، ١٩٥٨ .
- ٣١٦- الموسوي، مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة تطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد، العراق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٢.
- مؤنس ، حسين ،
- ٣١٧-فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.
- ٣١٨-فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.
- ٣١٩- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧.
- ٣٢٠- المنتظري، آيت الله حسين علي، الزكاة، مكتب الإعلام الإسلامي، ط١، ١٩٨٣.

- ٣٢١- الناصري ،سيد أحمد ،الروم والمشرق العربي مركز النشر بجامعة القاهرة،١٩٩٢ .
- ٣٢٢- الناطور ،شهادة و عودات ،أحمد و بيضون ،جميل ،مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، دار الأمل للنشر، إربد الأردن، ط١، ١٩٨٩ .
- ٣٢٤- النبراوي ،فتحية ،تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨ .
- ٣٢٥- النجار ،حسين فوزي ، الإسلام والسياسة، القاهرة، د.ت.
- ٣٢٦- النجار ،محمد مصطفى ، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة الأزهر، ١٩٥٣ .
- ٣٢٧- النجار، محمد الطيب ،الدولة الأموية في الشرق، ط ٤ ، ١٩٩٨ .
- ٣٢٨-النجار، عبد الوهاب ،قصص الأنبياء مطبعة مصر، ط٤، ١٩٥٥ .
- ٣٢٩- النشار ،علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف ، القاهرة،ط٩، د.ت.
- ٣٣٠- النص، إحسان ،العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٣ .
- ٣٣١- نظير، وليم ، الزراعة في مصر الإسلامية من عهد الخلفاء الراشدين إلى عهد الثورة، ١٩٩٦ .
- ٣٣٢- النقشبندي، ناصر ، الدينار الإسلامي في المتحف العراقي ، بغداد، ١٩٥٣ .
- ٣٣٣- نوار ،صلاح الدين ، نظرية الخلافة أو الإمامة، دار المعارف الإسكندرية ، ١٩٩٦ .
- ٣٣٤-النويخ، سعد فهد، ديوان الحارث بن خالد المخزومي، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩٦
- ٣٣٥- الهاشمي، رحيم الكاظم و شنقارو ،عواطف محمد ، الحضارة العربية الإسلامية ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة المكتبة الجامعية، غريان، ليبيا، د.ت.
- ٣٣٦- الهاشمي ،عبد المنعم ،الخلافة الراشدة، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٢ .
- ٣٣٧- هميسة ،بدر عبد الحميد ، المرأة في ظل الإسلام ، ٢٠١٠ .
- ٣٣٨- الهوني، فرج محمد، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية، الدار الجماهيرية للنشر، ليبيا، ط١، ١٩٨٦،
- ٣٣٩- هويدي ،فهيم ، مواطنون لا ذميون ، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩ .
- ٣٤٠- هويدي، يحيى ،دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩ .
- ٣٤١- واصف بك، أمين ،الفهرست معجم الخريطة التاريخية للمالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- ٣٤٢- واصل، نصر فريد محمد ،السلطة القضائية ونظام القضاء في الإسلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.

٣٤٣- وسام، فرج عبد العزيز، دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية، من ٣٣٤-١٠٢٥م مطبعة مصنع الاسكندرية، الكراس، ١٩٨٢

٣٤٤- يوسف، شريف، المدخل لتاريخ فن العمارة الإسلامية وتطورها، دار الجاحظ، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، ١٩٨٠.

ثالثاً: المراجع الحديثة المعربة:

١- أرشيبالد، لويس. ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط (١٠٥٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

٢- أرنولد، توماس . و. ، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١.

٣- إيليسيف، نيكيتا ، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط ، تعريب منصور أبو الحسن، دار الكتاب الحديث بيروت، ١٩٨٦.

٤- بروكلمان، كارل ، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحلیم نجار، دار المعارف، القاهرة، ط٥، د.ت.

٥- بتلر، الفرد، ج ، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد بك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦.

٦- ترتون، أس، ، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف القاهرة، ط٢، ١٩٦٧.

٧- جولدتسهر، اجنتس ، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحلیم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة المثني، بغداد، ١٩٥٥.

٨- حتي، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ط٣، د.ت.

٩- حسيني نسيب وقار أحمد ، الفكر الإسلامي في تطوير مصادر المياه والطاقة، ترجمة أحمد سمية زيتوني، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط١، ١٩٩٨.

١٠- حوراني، جورج فضلو ، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، دار الكتاب، القاهرة، د.ت.

١١- ديمان، م. س . ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣.

١٢- دوميلي، العلم عند العرب، ترجمة عبد الحكيم النجار ومحمد يوسف موسى، دار القلم، ط١، ١٩٦٢.

١٣- ديورانت، ول ، قصة الحضارة،، ترجمة محمد بدران، دار الجيل ، بيروت ، د.ت.

١٤- دينيت ، دانيل ، الجزية والإسلام، ترجمة فوزي فهم جاد الله، منشورات دار الحياة، مؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٦٠.

- ١٥- راييس، دافيد تاليوس، الفن الإسلامي، ترجمة منير صلاحي الاصبحي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٧٧.
- ١٦- روجيه، غارودي، فلسطين أرض الرسالات السماوية، ترجمة قصي أتاسي، وميشيل واكيم، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨.
- ١٧- ريسلر، جاك، الحضارة العربية تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط١، ١٩٩٣.
- ١٨- سيزكين، فؤاد، تاريخ التراث، ترجمة محمود فهمي حجازي، مراجعة عرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم، جامعة الأمير محمد بن سعود، الرياض، ١٩٩١.
- ١٩- العث، يوسف، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد الشام والعراق ومصر في العصر الوسيط، ترجمة نزار أباطة ومحمد صباغ، دار الفكر بيروت، ودمشق، ط١، ١٩٩١.
- ٢٠- فامبيري، أرمينوس، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة أحد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، د.ت.
- ٢١- فلوتن، ج، فان، السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية، ترجمة إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦.
- ٢٢- كرلونينو، علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما، ١٩١١.
- ٢٣- كريزويل، كيبيل أرشيبيلد، الآثار الإسلامية، نقله إلى العربية عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق.
- ٢٤- كونل، أرنست، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر بيروت.
- ٢٥- لسترنج، كي، بلدان الخلافة الإسلامية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
- ٢٦- لوكاس، ألفريد، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكي اسكندر ومحمد زكريا غنيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١.
- ٢٧- لويس، غوريه، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، تعريب صبحي الصالح وفريد جبرن دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧.
- ٢٨- مارزيل، جان، تاريخ الحضارة الفينيقية والكنعانية، ترجمة ربا الخش، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٩٩٨.
- ٢٩- مارسيه، جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٩.
- ٣٠- متر، آدم، الحضارة الإسلامية، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- ٣١- مولوي، حسني، الإدارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، ١٩٥٨.

٣٢- نصر الله ، جوزيف منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي، نقله إلى العربية أنطون هبي، المكتبة البوليسبية، بيروت، ط١، ١٩٩١.

٣٣- هاردينج، لانكستر ، آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، أخرجته مجلة رسالة المعلم، د.ت.

٣٤- هل، ي ، الحضارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي وحسين مؤنس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

٣٥- هتس، فالتر ، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠.

٣٦- هوروفتس ، يوسف ، المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة حسين نصار مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١.

٣٧- ولهاوزن ، يوليوس ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة يوسف العش، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٦.

٣٨- يوهان فك، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠.

رابعاً: الرسائل الجامعية:

١- بدور، سليمان، فلسطين في العهد الأموي (الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية) رسالة دكتوراه، الأردن المكتبة الوطنية، ٢٠٠٤.

٢- التلاوي ،حسين ،الكوفة حتى نهاية العصر الأموي، رسالة دكتوراه ، جامعة دمشق

٣- الدقدوقي ،وفيق ، الجندية في عهد الدولة الأموية، رسالة ماجستير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

٤- الزعبي، محمد السعود ، القضاء والقضاة في الدولة العربية الإسلامية منذ قيامها حتى نهاية العصر الأموي، رسالة دكتوراه ،دار حسان، دمشق، ط١ ، ١٩٩٢.

٥- عرفة، ثريا ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، رسالة دكتوراه ،جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٩.

٦- عيسى ،رياض ،الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية رسالة دكتوراه ،ط١، ١٩٩٣.

٧- فرج ،وسام عبد العزيز، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، رسالة دكتوراه، الهيئة المصرية العامة للكتاب،الإسكندرية، ١٩٨٩.

٨- الوشمي ،صالح بن سليمان ، ولاية اليمامة دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مكتبة الملك عبد العزيز العامة،الرياض، ١٩٩٢.

خامساً الموسوعات:

- ١- بدوي ،خليل ، موسوعة شهيرات النساء ، دار أسامة للنشر ، الأردن ، ط ١ ، ١٩٩٨ .
- ٢- الحسين، قصي ، موسوعة الحضارة العربية(العصر الأموي) دار الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ .
- ٣- خلف الله ،محمد أحمد ،موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العامة للنشر، ط١، ١٩٩٥ .
- ٤- الدباغ، مراد مصطفى ، موسوعة بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١ .
- ٥- زيبب، نجيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير ،بيروت، ١٩٩٥ .
- ٦- شامي ،يحيى ، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣ .
- ٧- شربل، كمال مورييس ،الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٨ .
- ٨- الطائي، أحمد ، الكيمياء والصيدلة، من موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٥ .
- ٩- طهوب، صلاح ، موسوعة التاريخ الإسلامي(العصر الأموي) دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩ .
- ١٠- عكاوي، رحاب ، موسوعة عباقره الإسلام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٥ .
- ١١- كاشف، سيدة و سرور ،جمال و عاشور ،سعيد ،موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .
- ١٢- محفوظ، جمال ، فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٨ .
- ١٣- مولا، علي ،الموسوعة العربية الميسرة ،الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٩ .

سادساً: الدوريات العربية والأجنبية:

- ١- الباشا، حسن ، طرق التجارة العربية من عهد سبأ إلى صدر الإسلام ، مجلة المجلة، العدد الرابع، سنة ١٩٥٧ .
- ٢- بدر ، أحمد ، التنظيم العسكري عند العرب، بحث في مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع، ١٩٨١ .
- ٣- Benet ,F, The Ideology of Islam Urbanization in International journal of comparative Sociology. Vol. IV, 1963 .
- ٤-البهنسي، عفيف، جمالية الفن العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير، ١٩٧٩ .

- ٥-جمال، جودة ، القصص في صدر الإسلام بين الواقع التاريخي والنظرة الفقهية، مجلة دراسات تاريخية، عدد٣٣-٣٤ أيلول-كانون الأول، سنة ١٩٨٩.
- ٦- حسين، زكي محمد ، بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية، مجلة جمعية الآثار القبطية، القاهرة، ١٩٣٧.
- ٧- فالح الحسين ،مشاركة العناصر غير العربية، في الجيش والإدارة الأموية، بحث في بحوث ودراسات مهداة إلى عبد العزيز الدوري ،ص٢٢٨-٢٥٥، المعهد الدبلوماسي الأردني، عمان، ١٩٩٨.
- ٨- تطور ملكية الأراضي وأصنافها في العصر الأموي، بحث مقدم في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، بعنوان الإدارة المالية في الإسلام ، مؤسسة آل البيت عمّان، ١٩٨٩.
- ٩- درادكة، صالح ، الحرس والشرطة في صدر الإسلام ، بحث في مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، مجلد ١٤، العدد الرابع، نيسان، ١٩٧٨.
- ١٠- الدوري ،عبد العزيز ، نظام الضرائب في الإسلام، بحث نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد٤٩، عام ١٩٧٤.
- ١١- دوكوسو، غستون ، تاريخ الحرير في بلاد الشام ، مجلة المشرق، بيروت،السنة١٥، ١٩١٢.
- ١٢- الراشد، سعد ،منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة وصلاتها ببلاد الشام، مقال من أعمال المؤتمر الرابع لبلاد الشام، عمان، ١٩٨٧.
- ١٣- رجب، غازي، المسجد الأقصى بالحرم الشريف، ببيت المقدس، مجلة سومر، م٢٨٠، سنة١٩٧٢.
- ١٤- زيادة، نقولا ، التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٣.
- ١٥- الضمور، حاتم نايل ، الأسواق في بلاد الشام في صدر الإسلام، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، م٣، العدد ١ ، عام ٢٠٠٩.
- ١٦- طوقان، فواز، الحائر في العمارة الأموية(من المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام) الجامعة الأردنية، عمان، والدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤.
- ١٧- عثمان، شوقي عبد القوي، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، تموز، ١٩٩٠.
- ١٨- عياش، عبد القادر ، مشاركة مدن الفرات في سورية، من أعمال المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية عمان، والدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤.
- ١٩- " Kennedy ,Hugh " The towns of Bilad Al- sham the Arab conquest ' , in - fourth international conference on the history of Bilad Al -sham the the university of Jordan, Amman 1983

٢٠- مالكي، سليمان عبد الغني ، طريق حجاج الشام ومصر، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، م ٣٠-٣١، ١٩٨٣.

٢١- زيود، محمد، نظام الحسبة في الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، عدد ٢٩-٣٠ جامعة دمشق.

٢٢- المعاينة، زريق ، الأسواق في بلاد الشام في العصر الأموي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، آذار ، ١٩٩٠، الجامعة الأردنية، عمان.

٢٣- معروف، بشار عواد ، أسس الفكر التربوي، بحث في كتاب حضارة العراق، ١٩٨٥ .

٢٤- معروف، ناجي ، عروبة المدن الإسلامية ، مجلة كلية الآداب البغدادية، عدد ٧، ١٩٦٤ .

٢٥- الوقاد، محاسن محمد علي ، الطب في بلاد الشام زمن الخلافة الأموية، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، ط١، ٢٠٠٩ .

٢٦- Ulrichk, Rebstock "Observation on the Diwan Al –Kharaj and the Assessment of Taxes in Umayyad Syria " Paper presented at ; The International conference on Bilad AL-Sham ,4, 1987 , VOL 11.

٢٧- يوسف، السيد محمد ، علاقة العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٥٣ .

سابعاً: المراجع الأجنبية

1- ALrashid , Saad, AL rabdhah(Riyadh,1986)

2- Abbot ,Nabia ,; Studies in Arabic Literary Papyn1 (,Historical texts)of Chicago prees ,Chicago 1957.

3- Barthold ,W , Turkestan down to the Mongol Invasion , Translated by the author with the assistance of H,A,R Gibb

4- Brown ,G, A,Edward ,Literary History of Persia London, 1909,V1

5- Bernard ,Lewis, The Arabs in History (New York ; Harper ;Row Publishers ,1960).

6 - Bell, H.I .: ,Translations of the Greek Aphtodito Papyri in the British museum (Der Islam Band II, Strassburg 1911)

7 - BURY, J,B, A History of The Later Roman Empire , Vol 2, London ,1931.

8-Chabot, G ; Urban Geography ,London, 1967

- 9 - Crone ,Patricia .;Slaves on Horses, The \evolution of the Islamic Policy , Cambridge 1980.
- 10- Caput ,A ,Walter , Goffart, and Colonate,; Towards a History of Late Roman Taxation (Toronto,Buffalo;Universty of Toronto Press, 1974)
- 11- ELLiot, H, M, , and John Dowson , The History of India As Told by Its own Historians ,Volume I ,Lahore, Islamic Book , 1976,
- 12- Farmer, H , History of The Arabian Music, London, 1929 ,
- Finlay G ,
- ,13- History of Greece,7,(Oxford ,1977)
- 14- Byzantine Empire Oxford, 1878
- 15-Fooed ,E, The Byzantine Empire (London 1911).
- 16-Gerttrud ,Bell, Palace and Mosque at UKhaidir ,OXord ,
- 17-Grohman ,Adolf; Arabik Papyri in the Egyption Library ,Cairo 1934-1936-1938,Vol2.
- 18- Hebraeus ,Bar; The chrnography of Greoy Abul Faraj ,V1, Englsih Translathon ,London,1932
- 19- Hell ,Joseph ,The Arab civilization ,United publishers VII 1973.
- 20- Hodgson, Marshall,G,S, The Venture of Islam Vol 1 ,The classical Age of Islam (chicago, London :The Universty of chioago press 1974)
- 21- Holmyrd, E,J, Alchemy, Pelican Books,1957
- 22 - Johnson ,A, and L ,West , Byzantine Egypt ; Economic studies, Princeton, 1949,
- 23- Jack, Cibbs ; Editors Urban research Method, van Nastrond privceton 1964.
- 24- Jones ,De , Boer, T , ,History of Philosophy in Islam ,London, 1933
- 25- Johan ,Lamm Carl ,Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East . ,Paris ,1937.
- 26-Lane , Peole; the Muhammadon Dynasties, Paris,1935

- 27- Levy , Reubens ,THE Social Stucture of Islam 2nd Edition,
-Cambridge University. Press
- Lombard, M,L, ,
- 28 -islam dans as premiere grandeur,Paris,1971
- 29 - The Golden Age of Islam translated by joan spencer
(Netherland1975)
- Mayer, H,M, ;Editors, Reading in the urban Geography , Chicago, 1965 .
- 30-Macdonald,(Duncan.b) ; Development of Muslim theology, Jurisprudence
and constitutional theory .London, 1927
- 31- Moss ,H,St,.The Formation of East Roman Empire, 330-717 in C,M H
Vol Iv B Cambridge (1966).,
- 32- Majumdar, R,c, ;The Arab Invasion of India ,Lahor, AL-Makka
press,1974. ,
- 33- Nicholson.A, R ; Literary History of the Arabs ,,London ,1923
- 34 - Ostrogolosky ,G, History of the Byzantine State ,Trans ,Joan -
Hussey (Oxford)1956.
- 35- Rice , D, T, Islamic Art ,London ,1965
- 36-,Rostovtzzff M , Social and Economic History of The Hellenistic World , Vol
1(Oxford ,1941).
- 37- Sanhoury ,A, Le califat Librairie Orientaliste ,paris,1926,
- 38- Shaban, M ,A ,The Abbasid Revolution , Cambridge , 1970,
- 39-Seale, Morris; Muslim Theology . Luzac and company Limited.
London ,1964.
- 40- Smith, G,A, Historical Geography of holy Land ,New york ,1907,
- 41- Wiet, G, L , Egypte Arabe,(Paris 1937.

state as the employment sciences for the public interest, except of some simple attempts by Omar Ibn Abdulaziz for the purpose of religion. They tried to embody the idea of force in which they wanted to dedicate the will of God in their rule, so they repressed every mind that proclaimed free will, since it is contradicted to their wish claiming it pours in the line of atheist, we had several examples talking about killing each person who called for this idea, first of them was Ghilam who expressed his belief in the center of Al-Sham, which was Umayyad setting surroundings. Thus, not all Caliphs were against the idea of fate which occupied long time of thinking, some were influenced in fate believes, and it was clear that Caliphs who had this opinion, their life was very short, such as Moawya Ibn Yazeed and Omar Ibn Abdulaziz who found in Ghilan's believes a claim of reform. Also, Yazeed Ibn Alwaleed who might be killed influenced by the believes of fate.

So sciences, in this age extended in the religious side of people, refreshing the literary sciences as a wish of rulers, acceptance and encouragement by people. We had seen a start of philosophy and interpretation because of different and mixture of concepts on the political, religious, and social level.

Since the events had interlocked and interfered in the political, administrative, social, economic and scientific fields, also, in the urban field, things were very clear because outlooks of buildings that mentioned in the urban field and dedicated the concept of continuation and survival; this target was mostly the concern of Umayyad state where all things cycled cases of Umayyad. For them, urbanization was a proof of existence and identity by which they wanted to claim eternity. The pattern of buildings defined due to several aims as we have seen between the religious scene and civil look. As we mentioned before that friction among civilizations was not a defect or a fault for the next generation or a proof of the past, and if we applied the physical principle that says "friction generates energy", we could understand the theory of interaction among civilizations which gave growth to all interactive parties. Therefore, Umayyad benefited of building theories but they created new styles of their own impression and insured their ability of creation and invention, either in the styles of cities built in their state, or in the worship places that were rich of art and decoration, even through their palaces that were full of welfare and luxury. They indicated the revived spirit of Umayyad and the civilized dimension that grew deeply, in addition to providing the requirements of services of civil state through building houses of emirates, baths, castles etc. what paid more attention regarding the left ruins of the palaces is the advanced style of model, even baths that showed great care of civilization requirements.

Also, they showed great concern in the water networks, which were understandable in the study of economy, and we talked about in the field of civilization.

In spite of the civilizational existence in Bilad Al-Sham, Umayyad supported this existence through the buildings constructed over there. They had right of concern because of what Al-Sham represented to them as starting and destiny. So it was their duty to expand heredity in all regions; east and west. Since the capability was available, but as they ignored all that – as they ignored the homeland of Arabs before – the public features of state were affected.

observers who started there. The trading activities increased by the virtue of Umayyad efforts of opening the land and sea roads to practice these activities. , Moreover, they built restaurants, dig wells and built beacons on beaches to guide ships, etc. In regard to the external marine trade, it is important to mention that its activities towards east more than west and north, because of the continuous wars with Byzantine, but there was continuous trade activity in the Mediterranean Sea.

Moreover, weakness affected economy, it was noticeable in the wish of possession, which was famous in Umayyad age, especially for the farming lands, they used all methods that increased the real-state properties of Caliphs, rulers and their relatives, and some others employed their money in trading mostly under different names.

The general feature of Arab economy in the Umayyad age was refreshment in spite of exploitation by rulers.

Moving to the scientific side, we have seen that the Umayyad age was the main foundation, in other words, in the foundation that deposited first basis of sciences with different specializations. On the contrary of what was said before that it was dry age and free of culture and thinking. Since the Abbasid age was of mental mature because of the first seeds planted in the Umayyad age, we noticed beginning of the Arab philosophic mentality represented in the science of speech, the art of disputation, elicitation of sayings and thoughts creation, that came, as we have seen, the product of political, mental, cultural and religious reality which all melted together to establish the philosophic mind full of contrasted opinions produced several currents that poured entirety about The Creator and human being, interpretation of behavior and freedom of human being. Some of these currents were fate, fatalistic, delay, solitary; and the last one combined amongst people, and later resulted in a mental movement that developed the mind of speech towards more awareness, work and rationalness. From this point it was clear the high level of mental horizon of this age where the mental currents began. In regard to the availability of mental material, there should be recorders, which was very simple but suitable to that age. We have seen variety writings in various specializations, the thing that disproved the concept that denied writing in Umayyad age, in which culture and sciences were of multi-specializations; such as linguistics that set grammar to be preserved of errors, and literary concerned at poetry, writing, and speech, in addition to religious explained, interpreted, and cleared the abnormal. All what have been mentioned presented favor to Arabism and contributed in its rooting, getting deeper and maintaining. Sciences depended on experiment as a proof by which we introduced the medicine and its applications, as well to the Chemistry and its early scientists, the astronomy and its features. Sciences that had not yet been started, they found great concern, while the scientific errors recognized though some Umayyad attitudes as they employed sciences to serve their policies, in addition to literature, especially poetry because of the wide spread among Arabs, supported their policies and whiten their individual record. Moreover, they also found in the narrator job circulate of glories trying to darken at cases of insult to glories, in particular their religious history, even medicine is exploited by Moawya to serve policies. In spite of the availability of the money in this age, they did not perform serious attempts under the supervision of

hatred to the non- Arab people. I think that the Ummays people did not completely trust “the Moaly”, this was can be explained when “the Moaly” participated with the Abbasid revolution. The Umayyad had to choose between two things: either to ensure their Arabism to the most not to give any chance to “the Moaly”, or to give “the Moaly” privileges which affect their authority. The Abbasid experience proved that Umayyad peoples were right. Concerning the second problem, which was the spread of immorality, this was accepted to the boys and ordinary people. However, it was not for people in authority. The Caliphs could not bring together the immorality and the authority since they were completely contradicted. That is why it was crucial for the Caliph to have all the characteristics of people of authority. The Umayyad did not allow people to interfere in their matters. The interference was from the ruling family itself. This led a lot of conflicts caused the destruction of their state.

Briefly, in general the social life had an important consequence at the urban concept in the Umayyad state.

The economical direction of state was mainly based on agriculture, since they realized that it enabled them to care about the importance of manufacture and trade. The availability of huge areas of land considered an important factor, so they tried to take advantage of development of agriculture throughout their concern of infrastructure such as, digging rivers, building dams and other demands of agriculture reform, especially in Iraq because of its geographical nature as mentioned before. Most Umayyad projects were of personal demands, in particular; the Caliph Hisham Ibn Abdul Malik and the ruler Khalid Alkassri. Finally these projects were benefited the agriculture that secured agricultural products which provided the state of self-sufficiency. The agricultural products increased in quantity and quality after the Arab conquests and transferred new sorts to each territory. Regarding the agricultural taxes – as we have mentioned that before, the confusion taxes did not only cover the agriculture but also various taxes and sometime the new issued taxes – even there was a confusion of tax, but Umayyad depended on the sort of tax collecting in general; such as, the quality of soil and fertility, as well the way of opening and irrigation and other matters related to agriculture. This great concern of agriculture did not affect the manufacture that was complementary in the economic policy, so we noticed relatively refreshment of manufacture in most regions, this refreshment contrasted from one area to another due to the raw materials. The manufactured variety indicated - even though the simple tools and material capabilities not financial- the increased buying force that indicated to the financial refreshment and the increased demand of goods. So Umayyad left to manufactures freedom of practicing and did not interfere except for matters that needed a governmental control, such as making of ships, money and style models.

The external and internal trade achieved prosperity because of requirement and spread of regions, it was clear the availability of experience and trade inheritance in Umayyad state. They also paid attention to the building of markets which spread in different regions with renew and modern shops that reached to increase the chances of job. In the light of this economical situation, the Umayyad state had set rules to coordinate the job of merchants and to protect the consumer from cheating and fraud, so it was expected that the market

in many ways as bribery and gifts for collecting money to maintain survival, considering treasury is possession blessing by God, so if their Chief was of this manner, workers would do more corruption not caring to moral, professional morality or the situation of people who suffered of additional taxes, exceeding basic regulations, which injured people and the fame of state; so, Omar Ibn Abdulaziz tried to correct errors happened during the past period, but his short rule missed his efforts. Observer to the Umayyad age would notice that the authority had abused the huge prosperity of Umayyad.

Thus, the Umayyad administration succeeded in form and failed in content, and they did not succeed in using techniques of rule in the optimum figure or at least the state that was responsible for its performance.

Concerning the social aspect, we have seen that the Umayyad people believed in the idea of the state, its structure, and its people that represented a very important part of this structure. Hence, their treatment to the non-Muslims was highly affected by this belief. Non-Muslims were treated like others people and they were not oppressed. Instead, they have responsibilities to do. There was no difference between them and the Muslims except for the religious aspect. We can say that they were treated the same way minorities are treated nowadays. Furthermore, some Caliphs; such as Yazeed Ibn Moawya and Abdul Malik Ibn Marwan hired Christian to teach their people. This indicated the comprehensiveness of the aspect of the government and state in the Umayyad age. Thus, individuals had their respect and appreciation whether they were Muslims or not. In addition, there was no discrimination between men and women, and we had seen many examples that prove the high status that was given to women and how women also participated directly and indirectly in the Caliphs matters. They were allowed also to participate in the army and were highly educated.

During the Umayyad age all individuals had the right to live social freedom and to express their spiritual desires that were represented by art as of wide domains; we had focused on singing, music and dance. These domains were very popular among books of literature that talked about the Umayyad age and showed how this age appreciated beauty that was expressed in arts. It is true that people were occupied with the idea of arts and singing. However, the compensation of science and arts in one place and one time in a feature of highness. Moawya said once when hearing one of the singers: “ the generous man is a singer”. These words referred to the highness, which does not contrast with the Islam, as it is conventional. Regarding health, people in the Umayyad age played an important part in this domain. The most important thing was building hospitals, although it was not as it was hoped – it was consider the status of state, the available information ensured that there was a good health education.

The social breach was highly represented in two aspects: the first one was the inferior look towards the foreign Muslims i.e. who were not Arabs (Al Moaly). The second one was the spread of immoral phenomenon. The first one was clear, but it was not at function. in this respect, Umayyad wanted to establish the idea of Arabism in all places, which was not of the interest of the foreigners (the Moaly). Arabism was a source of proud to the Umayyad people; they worked hard to keep the purity of the Arab blood. This was illuminated as

Omar Ibn Abdulaziz went farther in thinking when he wanted to return Arabs from Andalusia claiming fear at them, otherwise he can support them with additional numbers.

However, in a comprehensive look of the public policy of Umayyad state, we had seen that the public interest achieved through Arabic conquests, and the polarization of rule depended mainly to run the requirements of people, even the Umayyad rulers failed in techniques, they were rulers of a newly established state, and they liked continuation and surviving. The right word is being said that the Umayyad look in continuation promoted servicing continuation of Arabism and fixed its foundation and civilization.

In the administrative field, the aspects of civilization became clear through setting up administrative basis to fit the requirement of the state which established in Al-Sham that had the ancient administrative inheritance. Since civilization arises in effects and influence, the Umayyad constituted ministries and specialization that each ministry had special job, and specialization is the mark of administration ability.

Prior to Umayyad arrival to rule, the events alerted to the importance of protection and safety of rulers from betrayal, especially the destiny of the two Caliphs Omar Ibn Alkhatib and Emam Ali; the enemies of Umayyad were not limited that led to establish a new administrative staff for protection and organization. In regard to the specialty of Al-Sham, politically and military, it was divided into raise troops due local circumstances, which indicated to well organization; each troop had an area in Al-Sham coast. These troops considered the military force of Umayyad state and for ensuring these troops; they were under leadership of relatives such as brothers and sons.

We noticed the efforts paid by Umayyad for Arabism stabilization and spread it in their wearing state; they dyed the whole concepts of their state in Arabic color, Abdul Malik was the first who strengthened the Arabic state politically, economically and civilizational. For the Arabism that was running in their reins, their acts were elucidated as fanaticism for Arabism.

Also, we had seen the civil look that distinguished Umayyad in separating between state and religion, which became clearer in separating between jurisprudence and state since the jurisprudence is the criteria of reform or corruption of the state, and noticed that law is super authority except Caliphs.

Moreover, Umayyad recognized that the force of their state is the force and solidarity of army because it is protector and controller all issues internally and externally, hence they started to support army. This concern of army led to Arabic conquests due to the concern of Umayyad to this army in land, sea, and leadership; here we should mention the military experience that distinguished Marwan Ibn Mohamad, this experience could change the equation of Umayyad state- only the circumstances were associated with him.

We had seen in administrative structure, some gaps which were not firm and solid. The excessive confidence of rulers left many violations by rulers either regarding the right of people or the right of workers themselves as mentioned before. Umayyad ignored these violations as they were going far with their power. Umayyad tried to strengthen this power

discriminated persons and regions, in particular Ahl Al-Sham from other territories, in addition to their transcendent looks and their close render dearly-loved to Aristocratic according to obedience to State.

Thus, since they distinguished Ahl Al-Sham in treatment, on the contrary they also made a distinction among Al Maghreb as it was the land of merits and interests, which explained the hatred of Moroccan towards Umayyad and align with dissidents, the enemies, but found justice in their principles that spread in all Al Maghreb. They met oppression in Umayyad administration and carelessness of Caliphs; this treatment by Umayyad was the desire of revenge from Al Maghreb peoples as a result of unsuccessful conquest of Al Maghreb. The policy of revenge reached to Ahl Albait, too, Moawya asked all his defenders to curse Emam Ali at platforms believing that he could defeat him, or to plant hatred amongst people towards Emam Ali and Ahl Albait. The goals of Umayyad became very obvious through the way they killed Alhussein Ibn Ali, and the treatment of Ahl Albait by Caliphs and defenders, except Omar Ibn Abdulaziz, since they found them definite competitions in ruling. Umayyad regime increased hatred between the two parties, where it should rather to assimilate or at least avoid impair for their position and what they represented among people. They could acquire opposes in diplomatic ways or at least share in decision making, or even reducing the level of oppression, and random killing, which was for desire as Suliman did with great conquests, or fear of mental opinions that might cause troubles. Since they chose continuation, they thought that individual rule is the strongest as none could call the Caliph for account because as Umayyad doctrine “ Caliph is the shadow of God in earth”.

Umayyad ignored or might forget the importance to join up people through well conducts, on the contrary, oppression was the method followed to seize the authority without partnership. Therefore, they tried to embodiment the idea “obey ruler with no objection”, they thought sharing rule would represent democracy that was incompatible with their power of possession of authority even on the level of rulers, and they tried to detain the workers within the family sector except the territories they are afraid of such as Iraq.

The period of rule clearly represented far democracy since the Caliph selected ruler even if he did not deserve this position. Also they went farther in contracting the rule for several persons or sons; this meant that each Caliph preferred his son rather than brother this matter occupied an important role in the family struggles at the end of the Umayyad age.

Even Damascus that formed the cradle of Umayyad state, it did not meet the required loyalty by Umayyad, not on the level of healthy or security. So not residing in Damascus, affected negativity on the techniques of forms of rule. Security of state is the security of capital which was clear when Marwan Ibn Mohamad transferred the capital officially to Harran, north of Syria that resulted in ignorance and to defend the south of Bilad Al-Sham Damasucs that had not been the capital. If Umayyad abandoned Damascus not considering risks, also they did not try to distribute Arab elements in all over their wide state to be actually called Arabic states and to strengthen the Arabic power. Although Ziad Ibn Abieh tried to transfer families from Iraq into Kharassan in order that he could get rid of them as they raised troubles, and these families affected in the disputes took place in Kharassan.

leaders such as Mohamad Thaqafi, Qutaiba Albahli, Tareq Ibn Ziad, Mousa Ibn Nussair, and Abdulrahman Alghafiqi, who had the great virtue to achieve this expansion.

Whatever, the target of conquests, political, religious, economic, at the end it supported the Arabism that ruled over huge geographical area that increased the political and economic power of State, and enable it to be the enemy of Byzantine that dominated on the Mediterranean sea.

Here, we had to appreciate the efforts of Moawya to beg the Arab endeavor and to strengthen them in marine wars, since all realized that the Byzantine state did not fallback as the Persian State, the Arab state should support the borders with Byzantine to repulse any attack, in addition to extend marine bridge through the conquest of islands of Mediterranean. There was an attempt to conquest the capital of Qestantina several times and they had the honor of attempt, they thought in strategic military method that placed Byzantine between jaws of west and east, and finally they ceased the old saying that the Mediterranean sea is called Greek sea.

In regard to the type of the Umayyad rule, it is subjected to many contests being religious or civilian. This matter in Umayyad view, the Caliphs or Presidents; namely the Caliph represented the head organgram of the state but not the religious man, because the nation required the authority of time in order to politicize the citizen status. Without the religious aspect, the ruler could not rule the state subsequently the Rashidi rule, it did not mean that Umayyad disclaimed religious but they found that Caliph was the mean of rule, namely they preserved the essence of religion and were different the technique and method of rule, except Omar Ibn Abdulaziz who tried to revival involvement religion and policy that contracted the public principle of Umayyad rule. Therefore, we could say that Umayyad contributed, to an extent, to establish the principle of Sultan or the rule of power and strength that maintain implementing decisions and control the society

For the matter of Tribalism- I would speak about since it was exploited by some Caliphs and avoided by others- firstly, it means benefits case and conflict of concessions between Kaisseh and Yamineh, namely the struggling parties wrapped this struggle the mask of tribalism to conceal their goals. It was distinct here the role of Caliphs, Moawya and Abdul Malik who hold the stick of struggle in the middle, but other Caliphs, except Omar Ibn Abdulaziz, integrated in this hidden struggle thinking that they make their position stronger, because the struggle in its essence was to satisfy the ruler for the political, economic and social interests that made the Caliph feels that he was the target and center of struggle. This leads to say that the Caliph personality defined his position of tribalism, which was provoked whenever it was needed.

Although, Umayyad could stretch between the authority; internally and externally, but errors occurred in the public policy. They continued the concept of Chief of Tribe with more extension of authority disregarding requirements of presidency organizing ruling matters in form and content. For example, the Caliph chair was both the place of rule and residency, and the rule basically depended on temper and desire not on law or need. This policy prevented achieving justice among classes of society, either they were Arabs or not, they

with opposers. His death extremely deepened the problem when he appointed his son Moawya as a Caliph, who had a very weak character, but he said the right word that he would not accept this undeserved position. Thus he paid his life as a price for this decision because Umayyad thought this decision as avoidance to state. Matters became more complicated after Moawya's death since the position was vacant. Later, after the kill of Hussein Ibn Ali, Alzubair became very close to win the position of Caliph but he preferred to stay in Alhejaz. Al-Sham that was the center of authority selected the new Caliph, Marwan Ibn Alhakm after long conflicts and bargaining, once more his quick death could not finish the matter since Alhejaz and Iraq were out of control. The mission of his son, Abdul Malik was very difficult, so, Marwan succeeded to select the Caliph who was characterized with brave and well-statesmanship, so he could get rid of all his opposers including Oriental dissidents, and he chose great leaders such as, Almohalb Ibn Abi Safra, and Alhajaj Althaqfi. Abdul Malik's ability of leadership and authority were distinct through the struggles he had faced and overcome, including the revolution of Abdulrahman Ibn Alashaas, who was the ruler of Sajestan, and under the authority of Alhajaj who humiliated him and not accepting his military techniques at battles. This matter resulted to a revolution by Ibn Alashaas which was externally to support Iraq against the Alhajaj's injustice, but internally it was for personal reconsideration. The political status continued relatively quiet - except the revolution of Yazeed Ibn Almohalb which was the result of clarification of settlement, too - till the period of Hisham Ibn Abdulaziz who worked to restraint several rebellions in Kharassan, Egypt and Morocco wherein the dissidents were leaders of opposed movements against him.

However, the prestige and entity of state were preserved by the ability of Moawya, Abdul Malik, and Hisham to restraint rebellions by using force since they applied the said proverb "target justifies mean". This method should be avoided by Umayyad through assimilation of opposers or at least by reconciliation or enfolding. Those Caliphs were unable to reconsolidate their State unless they depended on rulers who kept in line with the procedure of Umayyad. We had seen the efficiency of Ziad Ibn Abieh in controlling the whole Iraq and East region. By return to the history of Ziad, it was noticeable that his honesty was ambiguous as he was defender to Emam Ali, but after many attempts by Moawya to convince and join him, finally he succeeded because Ziad was promised of authority, money, glory and affinity, which were sought for him, he preferred to avoid a lost battle against Moawya. In spite of victory Umayyad achieved by Alhajaj Althaqfi, but it had bad influences into an extreme extent, especially the cruelty in brutal dealing of defenders. On the contrary of Alhajaj, Khalid Alkasri was smooth in dealing and reformer. So, the rulers of Morocco, who had tremendous chances for independence, similar thing for far territories, especially the conquest of Morocco that was difficult and exceptional, however, they extended the authority of Umayyad.

During the talk about Umayyad age, we could not separate between internal policies of Umayyad to preserve their entity, and external policies that aimed to extend their authority in all directions; in the East or West though supporting conquests. The internal confusion circumstances did not prevent them to establish the Arab Empire, especially with great

Conclusion:

As a consequence, after the Umayyad State had been located in the balance of history, it had showed bases of strength and gaps of weakness, where the points of weakness and strength contrasted in the Umayyad State as a graphic line differentiated up and down, even in the single field. This was due to the various styles of Caliphs, and the circumstances that accompanied each Caliph or might be the difference of generations and thoughts. For example, what could be applied in the period of Moawya could not be applied at the period of Marwan Ibn Mohamad. Even the popular structure differed due to the different of concepts and to the deep of authority principles. However, the matter was complex and significant since the period was far away. Thus, judging the behavior of people and case of events are extracted from the writings about their persons, environment and ages; and upon these writings, analysis and criticism that carried out in order to reach to the judgment which possibly comply with events and facts.

Umayyad, who was failed in many things, they succeeded in others, none of states could reach the absolute perfect whatsoever its circumstances and facts. The Ideal city is the imagination of own plot, what about the Umayyad State that was born ostracized by others and did efforts to become firmly settled in crowd struggles in all fields and levels. Here we could similitude state with human being who becomes sick, either he recovers or he dies, and due to his response to medicine lies fate. So, if the Umayyad State had vanished that is because of several reasons that lead to events complicatedness. Vanishing is not an indication of weakness, Marwan Ibn Mohamad, who was the last ruler of state, had full courage and power but the conflict of events and underrating of veiled circumstances, in addition to conspiracy of the ruling family caused at the removal of the state that deserved to continue more.

In regard to all aspects of state, we conclude the achievements and failures, and what were the reasons of strength and gaps of descending:

In policy, Umayyad domestic people accepted Missionary Work, since the Chief was considered the descriptive design of ruling. But the feature of leadership was deeply rooted in Umayyad people, and it was cleared in the ability of Moawya, who was the establisher of Umayyad State, to penetrate in the core of ruling, when he thought of his own sake to stay in Al-Sham for several considerations; such as avoiding far locations from Hejaz and Iraq, and his experience with Al-Sham citizens who were the great assistant for his rule. From Damascus, he could establish the State wherein the first stratagem was almost to end the whole concept of rule. Actually, Moawya proved that he was unique diplomatic, he realized the real situation and he was politic in leadership. However, his son, Yazeed had not the same characteristics; he had different nature, the reason that made people to reject the appointment of Yazeed as a ruler by his father. Moawya chose to his son the authority that was away of consultation, though he used with them the arousal of interest and terrorization that could detach the deed of young Umayyad State. However what was built by Moawya during twenty years of Caliph, this action might breakdown the State, as well it was very cleared in the will to his son that he should kill or to at least enforce veryone who reject his recognition as a Caliph. Actually, Yazeed spent his short period of rule struggling

